من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي

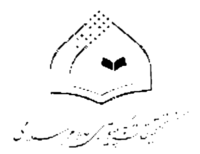
"تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"

تأليف

الدكتور ناصر الدين سعيدوني



من التراث التاريخي والجغرافي
للغرب الإسلامي



د. ناصر الدّين سعيدوني

من التّراث التّاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي

مركز تحقي
شماره ثبت
تاريخ ثبت

"تراجم مؤرّخين ورحّالة وجغرافيّين"





© 1999 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص. ب. 5787-113 بيروت

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تصدير

بقلم أ. د. أبو القاسم سعدالله

إذا كان الحديث عن التراث ليس جديداً فإن قراءة التراث قراءة جديدة انطلاقاً من مفاهيم العصر وحاجة الإنسان إلى الاستفادة منه تظل دائماً عملية مرغوباً فيها، بل هي عملية تقتضيها سنّة الحياة وروح التقدم، ويمكننا أن نقول إن التراث المكتوب كنز محايد من حق كل جيل أن يفهمه بطريقته ووسائله وأسلوبه.

وتراث الغرب الإسلامي جزء عظيم من ثروة الأمة العربية الإسلامية وقد ظل مغيباً فترة طويلة عن الباحثين بحكم ضياع الأندلس وانحسار الوجود العربي الإسلامي في صقلية والحوض الشمالي الغربي من البحر الأبيض المتوسط، ثم بحكم الإرهاق الذي عانته بلاد المغرب من جراء القرصنة الأوربية والمحاصرة الاقتصادية. ولم يكن حظ إفريقية السودانية الممتدة عبر نهر النيجر ونهر السينغال وبحيرة تشاد أحسن حالاً من حظ بلاد المغرب في المعاناة والإرهاق والإغفال، وكان الاحتلال الأوروبي للمغرب العربي ضغثاً على إبالة، فقد أسدل هذا الاحتلال ستاراً بين المشرق والمغرب، ومنطقة إفريقية السودانية، وبذلك بقي التراث العربي الإسلامي في هذه المناطق غير معروف ولا مفهوم، وليس له دور في حياة أهله اجتماعياً وثقافياً وسياسياً.

والواقع أن هناك مستشرقين قاموا بنفض الغبار عن مخطوطات كثيرة وقاموا بتحقيقها وترجمة بعضها إلى لغاتهم، كما قاموا بالتعريف بعدد من الأعيان

والمؤلفين البارزين ودرسوا الحركات السياسية والدينية والمذهبية استناداً إلى مصادر كانت مغيبة، كما نقلوا كثيراً من المخطوطات إلى مكتبات أوطانهم، ولكن ذلك كان لفائدة الأوربيين بالدرجة الأولى، ولم يتفطن أهل البلاد إلى أهمية التراث المكتوب إلا في أوقات لاحقة.

فمنذ حوالي ربع قرن فقط شهد الاهتمام بالتراث صحوة كبيرة على يد باحثين من أبناء المغرب والمشرق، فقد ساهموا في الكشف عن رجاله ومآثره وحققوا مصادره وصححوا أخطاءه، كما ساهمت في ذلك بعض المؤسسات العلمية كالجامعات ومراكز البحث، وساهمت دار الغرب الإسلامي من جهتها في نشر العديد من الآثار المحققة، فكان لها الفضل في التعريف بهذا التراث في المشرق وفي العالم، إضافة إلى إذاعته بين أهل الغرب الإسلامي أنفسهم.

ولكن الكشف عن التراث ونشره شيء وتفسيره وفهمه فهماً جيداً شيء آخر، وعندما يلتقي العلم بالتراث وفهمه في ضوء ثقافة الجيل المعاصر يمكن أن يتحقق إنجاز عظيم، يؤدي إلى مساءلة الذات ويقظة الأمة.

والدكتور ناصر الدين سعيدوني يهدف بعمله هذا إلى تحقيق هذا الإنجاز، فهو باحث مُتَسَلِّحٌ بمعرفة واسعة في ميدان التراث العربي الإسلامي، ومنه التراث المغربي، وقد سبق له البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والاهتمام بأدب الرحلات وطرق الحج، كما أن له خبرة عميقة في الجغرافية وعلاقتها بالتاريخ والعلوم الاجتماعية الأخرى، وهو يتمتع بنظرة ثاقبة لتطورات التاريخ وتعاور الأحداث، وأسباب ظهور وسقوط الدول، وازدهار وانقراض الحضارات. وبالإضافة إلى ذلك فهو كثير الأسفار والحضور في الملتقيات الدولية، وهو يتبادل الخبرات العلمية مع عدد من الباحثين العالميين.

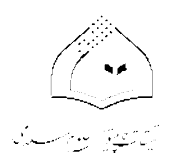
وهذه الخصائص قلما تتجمع في باحث واحد، ولذا قلنا إن سعيدوني مؤهل ربما أكثر من غيره لإلقاء الضوء على سِيَرِ مجموعة من أهل الفكر والثقافة الجغرافية والتاريخية في الغرب الإسلامي، بما في ذلك الأندلس وصقلية والمنطقة الواقعة بين النيل شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، وقد حدد منهجه في تناول سير من

اختارهم، فهو غالباً ما يورد سيرتهم بطريقة نقدية في ضوء البحوث والنظريات المعاصرة. ثم يورد نصوصاً من إنتاجهم فتكون النصوص المختارة هي المرآة للأفكار الرئيسية المتطابقة أو غير المتطابقة مع سيرهم.

غير أن بعض القراء قد يتساءلون عن مبررات الاعتماد على تاريخ الوفاة للمترجم لهم، رغم أنهم يرجعون إلى عصور وأقاليم مختلفة، أو عن موقع السبعين ترجمة من باقي التراجم المنتظرة في القسم الثاني، أو عن دواعي اختيار السبعين من المائة أو المائة من الألف، أو عن الحدود الفاصلة بين اختصاص التاريخ والجغرافية والرحلة من جهة والأدب وعلوم الحديث والتصوف (المناقب مثلاً) من جهة أخرى.

ونحن إذ نُقدم هذا العمل الجاد إلى القارىء لا نرى حاجة إلى الإطالة في تقديم صاحبه، ويكفيه أنه قضى أكثر من ربع قرن في البحث والدراسة، وأنه أنتج عدداً من الكتب في مجال تخصصه، وكلها تشهد له بطول الباع والحرص على الدقة والموضوعية، ولا يسعنا في الختام إلا الدعاء له بإخراج مشاريعه العلمية الأخرى إلى النور.

أ.د. أبو القاسم سعد الله
12 أبريل، 1998



تقديـــم

يشكل الرصيد الثقافي لأمة ما، الجسر الذي يربط قيم الماضي بمعطيات الحاضر، فهو بمثابة السياج الذي يكسبها المناعة ويحول دون ذوبانها في الآخرين ويمكنها من التطور ويحفزها على الإسهام الحضاري، الذي يجمع عمق الأصالة وجديد الحداثة. وهذا ما يطرح على الذهنية العربية الإسلامية في عالم اليوم تساؤلا، قد يبدو للبعض غير ذي أهمية، ولكننا نراه في ظروفنا الحالية المتصفة بالتأزم المعرفي والقلق الثقافي من الخطورة بمكان. لأن الإجابة عليه هي التي تحدد فهمنا للماضي وتقييمنا للواقع وتصورنا للمستقبل، وهذا التساؤل يمكن أن يصاغ في شكل مساءلة للنفس ومراجعة للذات، وليكن بهذه الصيغة. هل تعرفنا حقاً على تراث الأجداد وحاولنا فهمه وعملنا على تمثله وسعينا لتجديده وإثرائه وجعله يتماشى ورقي المعرفة المعاصرة، ويساير تطور التجربة الإنسانية المعاشة. قد تختلف الإجابات وتتعدد الآراء، لكن مما لا شك فيه أن الكثيرين منا لا يتعدى مضمون إجابتهم التعبير عن قناعة مفادها أنّنا قصرنا في حق تراث الأجداد وميراث الأحفاد، ولا أدلَّ على ذلك من النظرة المضطربة والذهنية المشوشة والقصور العلمي الذي يطبع الواقع الثقافي العربي الإسلامي في الظروف الراهنة، فيما يتصل بمعالجة مسألة التراث أو التعامل مع حصيلة العطاء التقني للثقافة الغربية.

ولعل أولى الخطوات في تصحيح هذا الوضع هو مراجعة طريقة التعامل مع القيم الروحية والمعرفية للتراث، وإعادة التعرف على أبعاده ومنطلقاته الحضارية بأسلوب جديد يمكن جمهور القراء من تمثل الجانب الثقافي منه، وخاصة ما يتعلق منه بالذاكرة التاريخية والمعرفة الجغرافية.

إن أغلب ما ينتج في مجال التراث المعرفي العربي الإسلامي في عالم اليوم، إما دراسات أكاديمية معمقة كثيراً ما تظل حبيسة دوائر متخصصة تكاد تكون بعيدة عن شواغل الناس العاديين، وإما معالجات سطحية لا تكسب القارىء معرفة ينتفع بها ولا تعطيه فكرة واضحة تؤثر على فهمه وسلوكه، وهذا ما أدى إلى انفصال التراث عن الذاكرة وانقطاع شرائح واسعة من المجتمع عن التفاعل مع هذا التراث وتمثل قيمه الحضارية.

في هذا الإطار تصبح للكتب المعجمية سواء في شكل قواميس أو موسوعات معرفية أو مدونات عامة أو دوائر معارف مبسطة مكانة خاصة، فهي الوسيلة الملائمة للتعرف على مضمون التراث بمختلف أصنافه وتفرع جوانبه وتعدد شخصياته والعامل المساعد الذي يعد من شيوع الثقافة السطحية ويحول دون الإنتاج الرديء، مما يعمل على تقريب مضمون التراث من القارىء والأخذ بيده نحو ثقافة أكثر عمقاً وشمولاً ومنطقية.

إن الساحة الثقافية العربية وخاصة ببلدان المغرب الإسلامي تشكو اليوم من نقص ملاحظ في التآليف الخاصة بالتراث التي تتصف بالبساطة في العرض والإحاطة في التناول والتنوع في الاهتمام، فرغم ظهور مبادرات رائدة تعرف بالمؤلفين والمؤلفات مثل ما قام به الشيخان عبد الحق الكتاني والحفناوي قديماً وما ساهم به الأساتذة عبد الوهاب بن منصور ومحمد محفوظ وعادل نويهض حديثاً، إلا أن الميدان لا يزال يحتاج إلى مزيد من الجهد في هذا المجال، وهذا ما أشعرنا منذ سنوات بضرورة المساهمة في هذا المسعى، وقد تبلورت الفكرة عندما شاركنا في إنجاز معجم مشاهير المغاربة الذي نشرته حديثاً جامعة الجزائر في نسخة أولية تتطلب التصحيح والتعديل والتحوير لتدارك ما قد يلاحظ عليها.

ومادام مجال موسوعات التراث يتجاوز الجهد الشخصي إلى العمل الجماعي، ويتعدى المسعى الفردي إلى رعاية المؤسسات، فإننا وطنا أنفسنا على حصر الاهتمام في مجال التراث التاريخي الجغرافي العربي الإسلامي، وذلك بحكم الاختصاص. كما أن غنى هذا التراث وتنوع أصنافه في كل قطر من أقطار

العالم الإسلامي الواسع جعلنا نحدد مجال الاهتمام بمنطقة الغرب الإسلامي وهي الأقاليم الواقعة إلى الغرب من وادي النيل التي كان لها إسهامات في الثقافة التاريخية ـ الجغرافية العربية الإسلامية، وتكون في مجموعها مجالاً ثقافياً متجانساً وبيئة علمية واحدة إذا ما قورنت بباقي أقاليم العالم الإسلامي، وهي تشمل بلدان المغرب العربي حالياً ومنطقة الساحل الإفريقي جنوب الصحراء المرتبطة ثقافياً بالمغرب العربي، بالإضافة إلى ما كان يعرف بالأندلس (شبه الجزيرة الايبيرية) وجزيرة صقلية.

إن التراجم التي نقدمها للقارىء في هذا الكتاب تغطي فترة العطاء الثقافي للغرب الإسلامي، منذ بدأ إسهامها الحقيقي في القرن الثالث الهجري/ العاشر الميلادي وحتى الآن، وهذا ما يجعل عملنا عندما يكتمل بحول الله عرضاً شاملاً لرجال العلم بالغرب الإسلامي الذين أسهموا في المعرفة التاريخية والجغرافية سواء كانت هذه المعرفة عامة أو خاصة تتعلق بالأقاليم أو تتصل بالمدن أو تعالج الطبقات أو التراجم أو السير أو تهتم بالرحلات والمسالك والبلدان أو الجغرافية الوصفية والموسوعات المعجمية والفهارس، أو كانت على شكل تقاييد وبرامج وخواطر.

لم نعمد في ترتيب مؤرخي وجغرافي الغرب الإسلامي حسب الإسهامات التي عرفوا بها أو الأقاليم التي انتسبوا إليها أو الأصناف التي كتبوا فيها، وذلك لتنوع اختصاصهم وتعدد إنتاجهم، ولانتفاء حدود الاختصاص والانتماء في عالم الثقافة بالمغرب الإسلامي، فالتجأنا إلى ترتيب من ترجمنا لهم في هذا القسم الأول من الكتاب، حسب تاريخ الوفاة لأن ذلك يتماشى وطبيعة التطور التاريخي ويتوافق وتقاليد السلف الصالح، وهو أسهل على القارىء لتتبع التراث الجغرافي التاريخي، وأيسر له للتعرف على التغيرات والتحولات التي عرفها هذا التراث.

لقد حرصنا في هذا المسعى على تقديم ما أنجزناه من التراجم ـ وهو في حدود سبعين ترجمة ـ للطباعة بعنوان «من التراث التاريخي الجغرافي للغرب الإسلامي» باعتباره القسم الأول من مشروع كبير قد يتطلب إتمامه سنوات طويلة

نظراً لكثرة أعلام هذا التراث وتنوع إنتاجه، آملين أن نواصل الجهد فيه حتى نتمكن بحول الله وعونه من تغطية شاملة لكل من أسهم في هذا التراث الغني.

هذا وحتى تتجاوز ما قد نؤاخذ عليه الآخرين ويكون ما نقدمه يتماشى وثقافة الشرائح الواسعة من قراء العربية فإننا حاولنا قدر المستطاع الابتعاد عن التناول المعمق وتحاشي العرض السطحي في آن واحد. فقمنا أولا بمسح عام للأعلام الذين كان لهم إسهام معرفي له طبيعة تاريخية أو صفة جغرافية في منطقة الغرب الإسلامي. ثم عملنا في حدود ما تم إنجازه حتى الآن. على التعريف بحياة كل شخصية مركزين على ما تميزت به، بعدها نستعرض الانتاج الذي أسهمت به مع محاولة إبراز الجوانب المهمة منه دون أن نهمل إثبات المصادر والمراجع لكل ترجمة، والتي تمكن القارىء انطلاقاً منها وبالرجوع إليها من التوسع في قراءاته والتعمق في الجانب الذي يهمه من الترجمة، وحتى لا يكون العرض نظريا حرصنا على تقريب القارىء من واقع التراث بإثبات نص أو نصين لكل ترجمة تمكن القارىء من التعرف على لغة وأسلوب وطريقة تناول تلك الشخصية للأحداث التاريخية أو معالجتها المسائل الجغرافية.

كل أملنا أن يكون هذا العمل الذي نسعد بتقديمه للقارىء الكريم أداة عمل يستفيد منها المهتمون بالتراث، وينتفع بها خاصة طلبة الدراسات الاجتماعية والإنسانية بالجامعة في تعاملهم مع النصوص الأدبية والتاريخية والأوصاف الجغرافية والأثرية.

ونحن في هذا العمل لا ندعي أن ما قمنا به يرقى إلى مستوى الدراسة الأكاديمية المتخصصة، لأن هذا ليس هدفنا، كما لا يمكن أن يندرج إسهامنا ضمن معاجم الأعلام وقواميس التراث العادية، التي تعرف بالأشخاص في عدة سطور وقد تناول الأفكار في بضعة فقرات، لأن القارىء سوف يلاحظ عند تفحصه لهذا العمل أنه يتجاوز حقاً العموميات التي لا تفيد، ويقف دون التخصص الدقيق، لأن الهدف منه كما سبقت الإشارة إلى ذلك هو الأخذ بيد الطالب في معالجته للتراث ومساعدته على تكوين فكرة واضحة ومحددة عنه.

ابن الصغير التيهرتي

(ت بعد عام 300 هـ/912م)

ابن الصغير التيهرتي من الشخصيات التي ظلت مجهولة، فلم نعرف عنه إلا ما ورد من إشارات في كتاب أخبار الأئمة والتي يفهم منها أنه يكون قد ولد بتيهرت، أو قدم إليها وهو صغير أواخر أيام الإمام الرستمي أبي اليقظان بن أفلح. اعتماداً على عبارة وردت في كتابه وهي: «وقد لحقت أنا بعض أيامه وإمارته وحضرت مجلسه». الأمر الذي يجعلنا نرجح أن ولادته كانت ما بين 260هـ و270 هـ كما يفهم من كتابه أيضاً أنه كان يخالف المذهب الخارجي السائد بتيهرت آنذاك. فهو مالكي المذهب له ميل إلى آل البيت فقد كان يؤكد قول الرسول ﷺ «من كنت مولاه فعلي مولاه».

اكتسب ابن الصغير ثقافة دينية مكنته من طرح أفكاره والدفاع عن آرائه بدليل أنه كان يحضر المناظرات والجدال بالمسجد الجامع بتيهرت، ويتردد على علماء الإباضية للأخذ عنهم ومناقشتهم، فقد أخذ عن أبي عبيدة الأعرج علوم اللغة والكلام ومسائل الفقه، وقرأ عليه خاصة كتاب إصلاح الغلط لابن قتيبة واطلع على مسائل الجدل للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن واهتم بدراسته.

وتذكر بعض المصادر أن ابن الصغير اشتغل نساخاً أو بائعاً للكتب بدكان كان يملكه بحي الرهائنة الأمر الذي ساعده على توسيع مداركه اللغوية والفقهية حتى عُدّ من طرف معاصريه من شيوخ المالكية والعلماء العارفين بقضايا الأحكام وقواعد اللغة القادرين على المناظرة والمجادلة، وقد كانت له محاجات وجدال مع الشيخ الإباضي أبي ربيع سليمان في مسألة خيار البنت البكر الصغيرة في الزواج

بعد أن تدرك، مما يؤكد مكانته العلمية في المجتمع التيهرتي، ويعطي لنا صورة عن جو التسامح وحرية إبداء الرأي التي كانت سائدة في عهد الرستميين.

اشتهر ابن الصغير بكتابه في تاريخ الأئمة الرستميين الذي ألفه حوالى سنة (300 هـ ، 912م) حسبما ذهب إليه كل من موتيلانسكي وليفسكي ووداد القاضي، وقد عرف هذا الكتاب بعدة عناوين وضعها له النساخون، فمنهم من عنونه بـ «أخبار الأئمة الرستميين» ومنهم من عرّفة بـ «تاريخ ابن الصغير» أو «سير ابن الصغير».

يتناول كتاب ابن الصغير أخبار الأئمة الرستميين الأوائل وهم عبد الرحمٰن ابن رستم وعبد الوهاب وأفلح، وأبي بكر، وأبي اليقظان محمد، وأبي حاتم يوسف. ولكنه يتوقف عند سنة 294هـ/ 907 م وسبب هذا التوقف يعود إما إلى وفاة ابن الصغير أو لهجرته من تيهرت. أو لضياع القسم الأخير مما كتبه وهو المرجح. لأنه من المحتمل أن ابن الصغير استمر في كتابة تاريخه بعد فترة من سقوط تيهرت الرستمية (296 هـ ـ908م) إذ ليس من المعقول أن يتوقف عن الكتابة وهو ابن الواحدة والثلاثين من عمره. هذا إذا لم يكن كل ما كتبه ابن الصغير في حكم المفقود، وأن ما وصل إلينا منه هو ما نقله أحد النساخ بعنوان: «ذكر بعض الأخبار من الأئمة الرستميين منقول من ابن الصغير..».

اعتمد ابن الصغير فيما كتبه عن الرستميين على مشاهداته بتيهرت أو ما روي له من شيوخ الإباضية الذين يدعوهم الشراه، ولم يذكر أسماءهم باستثناء ما أخذه عن أحمد بن بشير على عهد أبي اليقظان. فهو يكتفي بقوله: «حدثني بعض من أثق به أو حدثني غير واحد»، أو على ما حدثني به أهل المعرفة أو وقد حكى لي جماعة من الناس».

غلب على كتاب ابن الصغير الطابع القصصي الذي يهمل ذكر التواريخ ووصف الأماكن ويركّز على تسجيل الروايات ونقل الأخبار بأسلوب بسيط يميل إلى العامية. دون تحيز مذهبي. فرغم اعتباره من شيوخ المالكية وتصريحه بمخالفته للإباضيين في قوله: «وإن كنا للقوم (الإباضيين) مبغضين ولسيرهم

كارهين ولمذاهبهم مستقلين» إلا أنه حاول تسجيل ما يراه حقيقة من أخبار الرستميين وهذا ما أوضحه قائلاً: «ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعد لهم فيما ولوه». كما أنه لم يتردد في تسجيل مآثر الأئمة والعلماء الإباضيين ونعتهم بأوصاف جميلة وخصال حميدة، وقد أكد موقفه المحايد من الأحداث والخالي من التحيز ما جاء في حديثه عن عبد الرحمٰن بن رستم، فقد ذكر أن له قَصَصاً حكوها... لا يمكن ذكرها إلا على وجه (كذا) وإن أتم الصدق فيها ولا أحرفها على معانيها ولا أزيد فيها ولا أنقص منها إذا النقص في الخير والزيادة ليس من شيم ذوي المروءات ولا من أخلاق ذوي الديانات...» وإذا رواده الشك ولم يتحقق من الخبر يعلق على الرواية التي يسجلها كما هي بقوله: «فيما قالوا والله أعلم».

سجل ابن الصغير فيما سجله عن الرستميين صورة واقعية للمجتمع التيهرتي ولأوضاع الإمامة الرستمية فكتابه حسب تعبير موتيلنسكي. «دراسة وافية لتيهرت الإباضية في حياتها الداخلية» فقد أعطى فكرة عن تعدد الأجناس واختلاف القبائل وتمايز الفرق وما يتصل بها من معاملات وعلاقات ونشاط اقتصادي وروابط العصبية والمصلحة، وما أنجر عن ذلك من عداء وصراع قبلي وجدال ومناظرات ومنافسات وفتن، مثل تنافس الإمامين أبي حاتم وعمه يعقوب على تولي الأمر. وحركة ابن عرفة وغيرها.

يعتبر كتاب ابن الصغير المرجع الأول في تاريخ الإمامة الرستمية. فهو أقدم وثيقة وصلت إلينا عن الإباضية بتيهرت. بعد ضياع ما رواه أبو صالح النفوسي وما كتبه ابن سلام بن عمر عن تيهرت (240 ـ 260 هـ/ 854 ـ 874 م) ولم يصلنا منه سوى إشارات نقلها عنه الشماخي. ومما يؤكد أهمية تاريخ ابن الصغير أن أغلب مؤرخي الإباضية نقلوا منه أو اعتمدوه فيما سجلوه من أخبار الأئمة الرستميين مثل أبي زكريا في سير الأئمة والبرادي في الجواهر المنتقاة، والشماخي في سيره، وسليمان الباروني في الأزهار الرياضية.

جلب كتاب ابن الصغير اهتمام المستشرقين إذ نوّه به المستشرق البولوني موتيلانسكي Motylinski ونشر ملخصاً له بالفرنسية (1885) ثم نشره كاملاً. مع ترجمة فرنسية بعنوان: «ذكر بعض الأخبار في الأئمة الرستميين منقول من

ابن الصغير» وأعيد طبعها في مجلة الكراريس التونسية Les Cahiers de Tunisie (1975) كما قام بتحقيقه مؤخراً بمصر الباحث حسن علي حسن. وبالجزائر ظهر الكتاب محققاً مع مقدمة وعناوين فرعية من طرف الأستاذين محمد ناصر وإبراهيم بحاز بعنوان «أخبار الأئمة الرستميين» الجزائر 1986 (134 ص) فكان هذا التحقيق أفضل الدراسات المحققة عن كتاب ابن الصغير وبذلك أمكن الانتفاع به واكتملت الفائدة به فيما يتعلق بمصادر الدولة الرستميين.

المراجع المعتمدة:

- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، قسطينة، 1986.
- الباروني (سليمان)، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. القاهرة ج 2 ص 41.
- القاضي (وداد)، ابن الصغير مؤرخ الدولة الرستمية مجلة الأصالة الجزائرية السنة الخامسة عدد 45/ 1975 ص ص 37، 58.
- بحاز (إبراهيم بكير)، الدولة الرستمية (777 ـ 909)، الجزائر، 1985، ص ص 367 ـ 372.
- معمر (علي يحيى)، الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الرابعة): الإباضية في الجزائر، مكتبة وهبة، القاهرة، 1979 ص ص 22ـ 125.
- سزكين، (فؤاد)، تاريخ التراث الإسلامي، المجلد الأول، الجزء الثاني، (التدوين التاريخي)، ترجمة محمود فهمي حجازي، طبعة جامعة الإمام بن سعود الإسلامية، الرياض، 1991 ص 236.
- تاريخ الأدب العربي، ج 3، ص ص 76 ـ77.

- Ibn Saghir, Chronique sur les Imams rostomides de Tahert, pub. par A. C. de Motylinski, Alger 1907, L. Orientale, Paris, 1908, reimpression Les Cahiers de Tunisie, TXVIII, no 91 - 92/1975, pp 315 - 368, et reproduit - dans Les connaissances du Maghreb, Université de tunis, 1976.
- Lewicki (T.) Ibn al Saghir in.Encyclopédie, de l'Islam, 1965, T III, p. 949.
- Lewicki: (T.) Les historiens biographes et traditionalistes ibadites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIII au XVI siécles, in Folia Orientallia (1961 - 1962), pp 105 - 106.
- Motylinski: (A.C.de) Chronique d'ibn Saghir sur les Imams rostomides de Tahert, actes du XIIV congrès des Orientalistes T.II, 2e partie, Alger, 1905.

من مآثر الإمام عبدالرحمن بن رُسْتُم بتيهرت

أخبرني غير واحد من وجوه الإباضية عن سلفهم. لما ولي عبد الرحمٰن بن رستم ما ولي من أمور الناس شمر ميزره، وأحسن سيرته وجلس في المسجد للأرملة والضعيف، ولا يخاف في الله لومة لائم، فطار ذلك في أطراف الأرض مشارقها ومغاربها حتى اتصل ذلك من إخوانهم من أهل البصرة وغيرها من البلدان، فلما علموا ذلك من أمره جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم، وقال بعضهم لبعض: قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلا، وسوف يملك المشرق ويملأه عدلاً، فانهضوا إليه بما معكم من الأموال حتى تردواالمدينة التي سكنها فإن كان على ما نقل لنا من حسن طريقته وصحة سيرته فادفعوها إليه، وإن كان على غير ذلك فانظروا إلى أفعاله وما يتولاه من الأحكام بين رعيته ثم آتونا بذلك كله، فمضى القوم حتى أتو المدينة ونزلوا المصلى الذي به اليوم قبر مَسَالهْ، فأناخوا جمالهم ووضعوا أحمالهم، وتقدموا مع القادمين معهم حتى دخلوا من الباب المعروف بباب الصفا يسألون كل من لقوه من الناس عن دار الإمام عبد الرحمٰن، حتى وقفوا عليها. . .

فقالوا، أعزك الله، معنا ثلاثة أحمال من المال بعث بها إليك إخوانك لتنفق بها على زمانك وتصلح به شأنك. . . فأحضروا المال فقال عبد الرحمٰن أريد أن تقيموا حتى يصرف المال في وجوهه ثم تنصرفون إلى إخوانكم فتعلمونهم ذلك ثم جزّأوا المال أثلاثاً امتثال ما عقدوا عليه وذلك بمحضر من الرسل، ثم قال للرسل انصرفوا على بركة الله إذا شئتم، وأنه لما وصل المال، واشتروا للقوم الكراع والسلاح وقوي الضعيف وانتعش الفقير حسنت أحوالهم، وخافهم جميع من اتصل به خبرهم وأمنوا ممن كان يغزوهم، من عدوهم ورأوا أنهم قادرون على غيرهم ومن كانوا يخافون أن يغزوهم ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات وغرس

البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك. واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار. فقال ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله. حتى لا ترى دار إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي. وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين. واستعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة، فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر، والعمارة زائدة والناس والتجارة من كل الأقطار تاجرون، فلما كانت السنة الثالثة اجتمعت الإباضية بالمشرق وتراسلوا فيما بينهم وقدم القوم وجمعهم البصرة...

فأجمع رأيهم على أن يوجهوا إليه بعشرة أحمال من المال وأرسلوا إلى رسلهم الأولين وأعلموهم بما جمعوه من المال، وأن ذلك كله في سر وخفاء من العمال والأجناد لئلا يطلعوا عليهم فيهلكوهم، وسألوهم كتمان ذلك فأجابتهم الرسل إلى ما دعوهم إليه من حمل الأحمال وتوجيههم بها إلى عبد الرحمٰن فلم تزل بذلك حتى أتت البلد ونزلت بالموضع الذي نزلت به أولاً، ثم وجهت نحو عبد الرحمن فوجدوا الأمور قد تبدلت وأحوال المدينة والأشياء قد حالت وذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست، وإلى أرحاء قد نصبت. وإلى خيول قد ركبت وإلى حفدة قد اتخذت السور والعبيد والخدام قد كثرت فلما رأوا ذلك تحولت نياتهم إلى أن قصدوا قصر صاحبهم فلقوه على ما عرفوا من التواضع فلم يعلموه بما أتوا به ولا ماحركهم إليه حتى لقوا رجالا ممن يثقون بهم في دينهم، ويسند إليهم في أمورهم فسألوهم عن أحوال عبد الرحمٰن هل تغيرت وعن أحكامه هل تبدلت. فقالوا بل هو على ما عاينتموه عليه، ما تغير ولا تبدل، ثم أعلموهم بما جاءوا به من المال وعدد الأحمال فقالوا لهم ادفعوها إليه فإنه لا يصرفها إلا في وجهها.

ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين،
تحقيق وتعليق، محمد ناصر وإبراهيم بحاز،
قسنطينة، 1986، ص ص28 ـ 33

أبو العرب محمد بن تميم القيرواني
(ت حوالي 333 هـ/ 945 م)

محمد بن أحمد بن تميم بن تمام القيرواني المعروف بأبي العرب التميمي، ولد حوالي سنة 260 هـ/ 873 م من أسرة عريقة تولت مقاليد ولاية افريقيا قبل ظهور الدولة الأغلبية. فقد كان جده تمام بن تميم أميراً لتونس قبل أن يتمكن محمد بن مقاتل كعكي المستبد بالقيروان من التغلب عليه بمساعدة إبراهيم بن الأغلب وإرساله إلى بغداد أسيراً حيث توفي بها سجينا، رفض أبو العرب محمد التميمي خدمة الدولة وتولي الوظيف وانصرف إلى تلقي العلم بمسقط رأسه القيروان التي كانت مركزاً للعلم بإفريقيا وقد سمع أيضاً عن جماعة من شيوخ سحنون. وبلغ عدد من أخذ عنهم 154 عالماً منهم أبو داوود العطار. وعيسى ومحمد ابني مسكين، وسليمان بن سالم، وسعيد بن حداد، وابن طالب وعبد الجبار بن خالد. فاشتهر بعلمه الغزير وأخلاقه الفاضلة ذكره عبد الله الخراط بقوله: «كان صالحاً ثقة عالماً بالسنن والرجال من أبصر أهل وقته بها. حسن التقييد كريم النفس والخلق» وقد أهلته معارفه الواسعة ومواقفه الصريحة أن يصبح أحد أقطاب المذهب المالكي الذين جاهروا بآرائهم فحبس وقيد مع ابنه على عهد بني الأغلب، واتخذ موقفاً عدائياً من قيام الدولة العبيدية الفاطمية ببلاد المغرب. فقد شارك في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار وخرج معه لمحاربة بن عبيد عند حصاره للمهدية. لكن أبا يزيد لم يطمئن لتأييد أبي العرب له. فتخلى عنه خوفاً من آرائه الصريحة في سلوك الحكام.

بعد محنة الأسر والسجن ظل أبو العرب معادياً للفاطميين حتى وافته المنية بالقيروان حوالى سنة 333 هـ/945 م. وقد كان في حياته يدعو لنصرة المذهب

المالكي وتثبيته بإفريقيا، ووجد التدريس أفضل وسيلة إلى ذلك، فواظب على تدريس كتابي الإمامة لمحمد بن سحنون ورغب فيهما مستمعيه. فقد أوثر عنه أنه كان يقول لطلبته «إن سماع هاذين الكتابين هنا علي أفضل من كل ما كتبت». درس وتخرج على يد أبي العرب التميمي العديد من الفقهاء منهم: ابنه أبو العباس تمام وأبو زيد القيرواني صاحب الرسالة. والشذوني والحسن بن سعيد. وأبو جعفر ومحمد بن حارث الخشني وغيرهم. كما ترك أبو العرب العديد من المصنفات التي تتعلق بالمسائل الفقهية ورواية الأحاديث الشريفة وتراجم وفضائل رجال المذهب المالكي بالإضافة إلى بعض الأشعار. وهي في مجملها تعكس اهتماماته بتسجيل السير. وتبرز مستواه اللغوي. وميله إلى الاعتماد على التوثيق. كما تبين طريقة تناوله الأخبار عن طريق السند والرواية.

وضع أبو العرب أغلب مصنفاته من الكتب على شكل كراريس في أبواب مستقلة وإن حملت أسماء كتب. ويبلغ عدد ما عرف منها ستة عشر تصنيفاً منها ما قد يكون متداخلاً أو مكرراً أو متمماً لبعضه، ومن هذه المصنفات كتاب في التاريخ ذكر أنه في سبعة عشر جزءاً. وكتاب مناقب تميم، وكتاب ثقاة الرجال المحدثين وضعافهم، وكتاب في فضائل مكة، وكتاب في فضائل مالك، وكتاب في فضائل سحنون، وكتاب مسند حديث مالك، وكتاب في الصلاة، وكتاب الوضوء والطهارة، وكتاب الجنائز وذكر الموت وعذاب القبر. وكتاب في موت العلماء. وآخر في المحن، وكتاب في الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين، وكتاب الشارح وهو في عدة أجزاء، وكتاب عباد إفريقية ولعله كتاب طبقات أهل القيروان الذي أفاد منه ابن حجر في لسان الميزان، وابن خلكان في وفيات الأعيان، وله أيضاً كتاب طبقات رجال إفريقية، وكتاب الضعفاء، ونص بعنوان «كتاب فيه ما جاء من الحديث في النظر إلى الله» منه نسخة موجودة في مكتبة المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب. أفاد منه أيضاً ابن حجر في لسان الميزان. وله كتاب المحن سجل فيه الأحاديث النبوية التي وردت في ذكر المحبة والبلاء والعذاب والفتن كما أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين في البلاد وما نزل بهم من محن؛ من ترويع وسجن وتعذيب وتغريب وقتل وصلب وتمثيل وغير

ذلك. من مقتل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحتى زمن المتوكل العباسي. كما تعرض فيه إلى المحنة التي حلت بالإمام ابن حنبل وجماعة الفقهاء جراء رفضهم القول بخلق القرآن، وقد نشر هذا الكتاب أخيراً بأبوابه الخمسة اعتماداً على نسخة كمبردج التي تحمل ترقيم Qq.235 من قبل المحقق يَحْـيي وهيب الجبوري.

إلا أن أهم كتب أبي العرب التميمي هو كتاب طبقات رجال (أو علماء) إفريقية وتونس الذي لم يصلنا بنصه الكامل وإنما انتهى إلينا مختصره فقط عن طريق الطلمنكي الذي قدم مختصره لمحمد الخشني تلميذ أبي العرب، وقد ضمنه بعض أقواله، ونظراً لهذا التداخل فإن كتاب طبقات علماء إفريقية قد يكون هو نفسه «كتاب عباد إفريقية» الذي فقد ولم يعرف منه إلا عنوانه، وبغض النظر عن ذلك فإن كتاب الطبقات لأبي العرب سواء بنصه الأصلي الكامل، أو مختصره الذي وضع بعد وفاته يعتبر ضمن أوائل المصادر الأساسية والمراجع الرئيسية التي ترجمت لمجموعة من علماء إفريقية خاصة منهم من كان بالقيروان أو تونس وبلغ عددهم مائة وأربعة عشر عالماً، تسعة من مدينة تونس، وهم: خالد بن أبي عمران. وعمرو بن راشد الكناني، وعبد الملك ابن أبي كريمة، وأبو كريب عبد الرحمٰن البصري وعلي بن زياد وأبو مسعود بن أشرس، وعباس بن الوليد، وهشام بن الخليل، وزايد بن بشر. ومائة وخمسة ممن عاشوا بالقيروان أو انتسبوا إليها وعاشوا فيها، اشتهر منهم: عبد الرحمٰن بن زياد المعافري، يزيد بن الطفيل التوجيني، عبد الله بن فروخ الفارسي، يحيىٰ بن سلام المصري، عبد الله بن عمر الرعيني، أبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي، البهلول بن راشد، موسى بن معاوية الصمادحي، إسماعيل بن رباح الجزري، أسد بن الفرات بن سنان، أبو محمد عبد الله اليحصبي، سحنون بن سعيد التنوخي.

يعتمد كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس في تناول الترجمة على طريقة رواية الحديث وتسجيل الخبر بأسلوب سهل يتميز بالتكرار اللفظي واستعمال بعض العبارات العامية مثل «يعني». واستهل كتابه بذكر ما جاء من الفضائل في إفريقية وذكر من دخلها من الصحابة وحل بها من التابعين وتابع التابعين الذين اعتبرهم

الطبقة الثانية.

هذا وقد أثر أبو العرب بطريقته هذه على كتاب الطبقات المتأخرين عنه إذ قلدوه فيما ذهب إليه من التأكيد على السند وذكر رجاله. ومن هؤلاء الذين قلدوه تلميذه محمد بن حارث الخشني (توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) في طبقات علماء إفريقيا. وأبو بكر عبد الله المالكي (ت 452 هـ) في رياض النفوس، والدباغ القيرواني في معالم الإيمان، والقاضي عياض اليحصبي (ت 544 هـ) في ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. وابن فرحون في الديباج المذهب.

غلب على أبي العرب محمد بن تميم في تراجمه النقل وجمع المادة دون التصرف فيها أو نقدها نظراً لتوفر المادة لديه. فحسب ما أورده الدباغ فإن أبا العرب يملك «مكتبة تحتوي على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب خطها بنفسه» وهذا ما جعله يعتمد أساساً في طبقاته على الرواية ويولي اهتماماً بالغاً للسند الأمر الذي جعل رجال الطبقات بعده يختلفون في تقييمه والحكم عليه إذ أعجب به الدباغ القيراوني بينما آخذه تلميذه الخشني في طبقاته عندما جرحه بقوله: «تغلب عليه الرواية والجمع. ولم أحسن عنه علماً ولا فقهاً». وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن أبا العرب من خلال كتابه طبقات إفريقيا وتونس اكتسب تقدير معاصريه والناقلين عنه مثل القاضي عياض الذي عده من فقهاء المالكية ووصفه بأنه «كان حافظاً لمذهب مالك مفتياً عالماً غلب عليه علم الحديث والرجال» فكان حجة ومرجعاً وذلك لدقته في استقصاء الرواية وتخريج الخبر. توجد نسخة مخطوطة من كتاب الطبقات بإحدى مكتبات الجزائر نشرها محمد بن شنب بالجزائر 1914 وأعيد نشرها محققة على يدي الشابي ونعيم اليافي وطبعت بتونس 1968م.

المراجع المعتمدة

- أبو العرب (محمد بن تميم القيرواني)، طبقات علماء افريقيا وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي، تونس، 1968.
- أبو العرب (محمد بن تميم القيرواني)، كتاب المحن، تحقيق يحيىٰ وهيب الجبوري،

دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- محمد (الخشني): طبقات علماء إفريقيا وتونس. الجزائر، 1914، ص 173.
- الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج 3 تونس 1322 ص ص 42 ـ 43.
- سزكين فؤاد: تاريخ التراث الإسلامي المجلد الأول، الجزء الثاني (التدوين التاريخي) ترجمة محمود فهمي حجازي. طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض 1991 ص ص 236 ـ 237.
- الوافي بالوفيات ج 2 ص 37.
- الديباج المذهب ص 250.
- فهرست 2973.
- الأعلام ط/ 5 ج/5 ص 309.
- تراجم المؤلفين التونسيين ج 3 ص ص 359 ـ 362.
- معجم المؤلفين ج 8 ص 24.
- معجم مشاهير المغاربة ص ص 352 ـ 353.
- تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 79.
- المقريزي تقي الدين كتاب المقفى الكبير (تراجم مغربية مشرقية في الفترة العبيدية) اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي. دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ص ص/424 ـ 425.
- إيضاح المكنون، ص ص 213 و329.
- طبقات الحفاظ، ص 363.
- كشف الظنون، ص 1122.
- هداية العارفين، ج 2 ص 37.
- ترتيب المدارك، ج 3 ص 334.
- شجرة النور الزكية، ج 1 ص ص 82 ـ 83.
- تذكرة الحفاظ، ج 3، ترجمة 856 ص ص 889 ـ 890.
- Ben cheneb (M.) Tabaquât de Abû L'cArab et de khochani, ed et tra Alger 1920.
- Pellat (ch). in Encyclopédie de l'Islam. nouvelle édition, T. 1 Paris Leiden 1961 p. 109.

سحنون بن سعيد بن حبيب التَّنوخي

قال (أبو العرب): ومن شيوخ أهل افريقية، أبو سعيد سحنون بن سعيد ابن حبيب التنوخي. من صليبة العرب. وأصله من الشام من أهل حمص، وأبوه سعيد قدم مع الجند. وهو من جند أهل حمص، كان جامعاً للعلم فقيه الدين. اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره، الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة والترك، لا يقبل من السلطان شيئاً. وكان ربما وصل بعض إخوانه بالثلاثين ديناراً ونحوها. وكان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع؛ وكان (وا) فيه حلقا للصفرية والإباضية مظهرين لزيغهم، وكان حافظاً للعلم، ولم يكن يهاب سلطاناً في حق يقيمه، لقي في الفقه ابن القاسم، وأشهب وغيرهما، ولقي في الحديث سفيان بن عيينة، وابن وهب، وأنس بن عياض، ووكيع بن الجراح، وعبد الرحمٰن بن مهدي، ويزيد بن هارون، والوليد بن مسلم وغيرهم، ولي القضاء سنة أربع وثلاثين ومائتين وهو يومئذ ابن أربع وسبعين سنة، وأقام قاضياً ست سنين. ولم يأخذ على القضاء أجراً، وتوفي رحمه الله يوم الثلاثاء لسبعة أيام مضت من رجب سنة أربعين ومائتين.

وكان خروجه في طلب العلم أول سنة ثمان وثمانين ومائة. وكان قدومه إفريقية سنة إحدى وتسعين ومائة، ومناقبه رحمه الله كثيرة. وقد ذكرنا ما بلغنا منها في كتابنا الذي ألفناه نذكر فيه مناقبه وسيرته في قضائه. قال (أبو العرب) وذكر حمديس القطان أنه سمع سحنون بن سعيد يقول: «سمع مني العلم سنة إحدى وتسعين ومائة أهل أجدابية».

أبو العرب محمد بن تميم القيرواني

طبقات علماء إفريقية وتونس،

تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي تونس، 1968. ص ص 184 ـ 186

أبو محمد علي بن حزم الظاهري
(ت 456 هـ/ 1063 م)

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي، ولد بربض منية المغيرة بمدينة قرطبة في آخر رمضان 384 هـ/ نوفمبر 994م، من أسرة علم وجاه وسلطة تعود أصولها إلى إقليم الزاوية بغرب الأندلس «ولبة» تولى أبوه الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر، فنشأ ابنه علي في قصور الأمراء. وتربى على موائد الوزراء، وفتح عينيه على جهابذة الفكر والأدب.

تلقى ابن حزم تعليمه على شيوخ قرطبة. فأخذ أول معارفه عن أبي عمر أحمد بن الجسور، وتعلم تجويد القرآن على أبي محمد عبد الله الرهوني، واطلع على القول الظاهر عن طريق أبي الخيار مسعود بن سليمان، واستزاد من علوم الطب والفلسفة والمنطق والشعر من ابن الكتاني محمد بن الحسن القرطبي، وأخذ رواية الحديث ومعرفة الرجال عن علي بن عبد الله الأزدي المشهور بابن الفرضي. والأدب والشعر عن أبي القاسم عبد الرحمٰن بن أبي يزيد، والفقه عن عبد الله بن يحيىٰ بن دحون، وكان في أول الأمر يميل إلى مذهب الشافعية، ثم استحسن المذهب الظاهري لداود الاصبهاني الذي يأخذ بالنص الحرفي والمعنى الظاهر، ولا يميل إلى القياس العقلي فعرف ابن حزم به ولقب بالظاهري.

عاش علي بن حزم في أول أمره حياة ترف ونعيم وتأدب على أيدي جواري القصر. وهذا ما أشار إليه في طوق الحمامة بقوله: «أنني ربيت في حجورهن، وبين نحورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال، وأنا في حد الشباب، وهن علمنني القرآن، وروينني كثيراً من الشعر. ودربنني على الخط...». لكنه تعرض لنكسة عاطفية عندما أحب فتاة كانت في رعاية والديه حباً جارفاً لكنها تمنعت عليه ولم تبادله نفس الشعور، فطوى في صدره لواعج

الحب والشوق والرجاء. مما أثار في نفسه نوازع الزهد والرغبة في اعتزال الناس، وميلاً إلى التأمل العقلي رغم حياة اليسر والرفاهية التي كان يعيشها.

وبعد سقوط الدولة العامرية وزوال نفوذ أسرته معها وشيوع الاضطراب والفوضى انقلبت حياته من الهدوء والدعة إلى القلق والمعاناة. وتعرض مع أبيه إلى محنة عظيمة في عهد هشام الثاني (400 هـ/ 1009 م). فغادر قصر أسرته ببلاط مغيث الذي صور حسرته عليه وعلى ما آلت إليه حياته بعده: «لقد آلت رسومها وطمست معالمها. وخفيت معاهدها. وغيرها البلى... وتذكرت أيامي بها. ولبداتي فيها، فأبكى ذلك عيني، وأوجع قلبي، وزاد في بلاء لُبّي...».

ومع انتشار الفتن بقرطبة غادرها (404 هـ/ 1013 م). فوجد الملجأ لدى الأمير الأموي سليمان بالمرية (402 هـ 1012 م) وعند تنحية هذا الأمير (407 هـ) من قبل علي بن حمود اتهمه متولي المرية خيران بالتواطؤ مع الأمويين، فأودع السجن عدة شهور، ثم نفي من المرية. فقصد صاحب «حصن القصر» الذي رحب به، ثم تحول بحراً إلى بلنسية التي نودي بها عبد الرحمٰن الرابع (المرتضى)، خليفة، وتقلد منصب الوزارة لديه. وأسر في الحرب التي قامت بين الخليفة المرتضى وحاكم غرناطة من بني حمود. ثم أطلق سراحه فتحول إلى شاطبة وكانت تابعة لمملكة بلنسية حيث كتب رسالة« طوق الحمامة»، ثم عاد إلى موطنه قرطبة (409 هـ/ 1018 م) في فترة حكم الخليفة عبد الرحمٰن الخامس (المستظهر) وتولى له الوزارة (414 هـ/ 1024م) لكنه سجن بعد عدة أسابيع من ذلك إثر اغتيال الخليفة (المستظهر). ثم يظهر من جديد بشاطبة سنة (418 هـ/ 1027 م) وقد يكون في هذه الأثناء قد تولى الوزارة لهشام المعتد. قبل أن يتحول إلى قلعة البونت عند الأمير يمن الدولة محمد بن عبد الله بن قاسم الذي وضع له رسالة في: «فضائل الأندلس وذكر علمائها». بعد ذلك يتوجه إلى مملكة دانية فيعبر البحر نحو الجزر الشرقية ويستقر لفترة طويلة ناهزت عشر سنين في ميورقة في رعاية أميرها أحمد بن رشيق (مجاهد العامري الصقلبي) ولم يغادرها إلا عندما وقع خلاف بينه وبين أحد فقهائها المالكية أبو الوليد الباجي. ورجع إلى موطنه ليعيش في عزلة بعد أن خابت آماله وتجرع الحرمان وذاق الظلم واكتوى بالجحود. قانعاً بتسجيل

آرائه وأفكاره. وقد وصف ذلك المستشرق الإسباني آسين بلاثيوس الذي كتب عن ابن حزم قائلاً: «قد عاين من ألوان الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه وشاهد من مساءات الفوضى السياسية التي ضربت الأندلس ما نفّر نفسه. وقد أوذي في شخصه وكرامته ما لقي من الاضطهاد ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتهجمون عليه، ويقاطعون مذهبه الديني ويجرمونه، فاستقر رأيه على أن يعتزل الدنيا والناس، وينزوي في موطن أسرته مُنْتِ لِشَمْ (قرب وَلْبَة)».

كل هذه الأحداث جعلت ابن حزم يؤمن بأن سلامة العقيدة وصون الشرف فوق الحياة نفسها وقد تقوى في نفسه هذا الشعور بعد أن أجحف في حقه فقهاء قرطبة، ومنعوه من التدريس في جامعها الكبير لكونه يدعو إلى المذهب الظاهري، وبعد أن شاهد المعتمد بن عباد بقرطبة يصادر كتبه ويأمر بإحراقها، وهذا ما عبر عنه في كتابه «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» بقوله: «العرض أعزّ على الكريم من المال. ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه. ويصون دينه بعرضه؛ ولا يصون بدينه شيئاً أصلاً».

اتصف ابن حزم بحسن أخلاقه وطيب شمائله ووضوح فكره وقوة حجته وإخلاصه لمذهبه ومقارعته لحجج خصومه، ومناظرته لمن لا يأخذ بمبدئه، وهو القائل:

فقلت له أسرفت في اللوم فَاتَّئِدْ ... فعِنْـدي ردٌّ لـو أشـاءُ طـويـلُ
ألـم تـر أنّـي ظـاهـريٌّ، وأنّنـي ... علـى مـا أرىٰ حتـى يقـوم دليـلُ

كما اشتهر ابن حزم بمعارفه الموسوعية ونزعته العقلية وتوجهه الإنساني الذي أهله لأن يحتل مكانه بين نوابغ البشرية وهذا ما يجعلنا نراه غير مبالغ في وصف نفسه أمام قاضي جماعة قرطبة عبد الرحمٰن بن بشر، بقوله:

أنا الشمس في جَوّ العلوم منيرةً ... ولكـنَّ عيبـي أن مطلعـي الغـربُ
وأن رجـالاً ضيّعُـونـي لَضُيَّـعٌ ... وإن زماناً لم أنل خصبه جَدْبُ

لقد تتلمذ على ابن حزم العديد من رجال العلم منهم الوزير الإمام أبو محمد المغربي والمؤرخ أبو عبد الله الحميدي صاحب جذوة الاقتباس الذي وصف أستاذه

بقوله: «كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنّناً في علوم جمة عاملاً بعلمه... له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتديّن... وله في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل». كما أخذ عنه صاعد الأندلسي وذكره في كتابه طبقات الأمم بقوله: «كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار». وممن استفاد بعلمه أولاده أبو أسامة يعقوب، وأبو سليمان المصعب وأبو رافع الفضل الذي ذكر عن أبيه: «أن مبلغ تأليفه في الفقه والحديث والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب، والرد على المعارض، تبلغ نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة». كما كان ابن حزم محل تقدير العديد من العلماء والحكام المتأخرين، فقد نقل عن المنصور الموحدي قوله عندما وقف على قبر ابن حزم «أن كل العلماء عيال على ابن حزم».

وذكر عنه ابن سعيد المغربي أن «شهرته تغني عن وصفه». وأشاد به أبو حامد الغزالي قائلاً: «وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد بن حزم يدل على حفظه وسيلان ذهنه». أما الحافظ الذهبي فقد قال عنه: «إليه المنتهى في الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم... مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب».

عرف محمد بن حزم بكثرة مصنفاته التي ناهزت الأربعمائة وخمسين، منها ما يتناول قضايا الفلسفة والمنطق أو يتعلق بالعلوم الدينية والمعارف اللغوية، ومنها ما يتصل بالتاريخ وهو موضوع اهتمامنا، فمن المصنفات التاريخية التي ألفها ابن حزم، جوامع السيرة وأسماء الصحابة والرواة والمفاضلة بين الصحابة وأمهات الخلفاء وجمع فتوح الإسلام بعد الرسول ﷺ، وفهرس بشيوخه «برنامج» يعتبر في حكم المفقود، يضاف لهاأسماء الصحابة والرواة وأسماء الخلفاء والولاة بدأ فيه بالخليفة أبي بكر (رضي الله عنه) وانتهى إلى الخليفة القائم بالله. وكان مجموع من تناولهم تسعة وثلاثين خليفة، ورسالة أصحاب الفتيا [كذا] من الصحابة ومن بعدهم، رتبهم حسب عدد الفتاوى المنسوبة إلى كل واحد منهم، ورسالة الإمامة

في الخلافة جعله في سير الخلفاء ومراتب الإمامة والندب والواجب منها، ومن مؤلفاته أيضاً:

ـ نقط العروس: ضمنه معلومات مقتضبة عن الخلفاء بالأندلس والمشرق حسب جوامع مختلفة تربط بينهم. كمن تولوا الخلافة في حياة آبائهم، أو من تولوا الخلافة وهم صبيان، أو أكبر الخلفاء عمراً. مما يجعل منه مفكرة لجمع معلومات تفيد في تأليف كتاب جامع لسير الخلفاء، وقد نشر هذا الكتاب في غرناطة سنة 1911، ثم قام شوقي ضيف بتحقيقه ونشره بالقاهرة 1951.

ـ رسالة فضائل أهل الأندلس وذكر رجاله. احتفظ لنا المقري بنصها في كتاب نفح الطيب، وهي جواب عن رسالة رد فيها ابن حزم على ما ورد في خطاب أبي علي الحسن بن الربيب التميمي إلى أبي المغيرة عبد الوهاب ابن عم ابن حزم حول تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم ومآثر فضلائهم، وتضمن رد ابن حزم في رسالته هذه اسم ألف أندلسي كان لهم مشاركة في صنوف الآداب وفنون اللغة، ومنها باب خاص بمن كان له فضل في الأخبار، رجع إليها ابن سعيد المغربي وجعل لها ذيلاً ذكر فيه ما فات ابن حزم ومن تأخر عنه. وترجمها جايا نجوس إلى اللغة الإنكليزية.

ـ رسالة التلخيص لوجوه التخليص: ضمنها إجابته عن أربعة أسئلة في مواضيع دينية لكن محتوى الإجابة له طابع تاريخي، لأنه يمس الجانب الاقتصادي والاجتماعي. كوضعية الأرض بالأندلس التي ذكر ابن حزم بأنها لم تخمس ولم تقسم بعد الفتح. وإن لكل يد ما أخذت غلبة وهي أجود ما كتبه ابن حزم من حيث سعة النظر وعمق الفكر ورحابة الصدر وقد نشرت الرسالة ضمن الرسائل الملحقة بكتابه في الرد على ابن النّغريلة اليهودي.

ـ رسالة حجة الوداع: سجل فيها رحلة الرسول ﷺ من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج متتبعاً لخط الرحلة، اعتمد فيها على أحاديث مختلفة وحاول فيها انتهاج المذهب الظاهري في التوفيق بين سند الرواية التّاريخية ومتنها، وقد نشر هذه الرسالة محققة الباحث ممدوح حقي.

ـ رسالة مراتب العلوم: ضمنها منزلة العلوم وفوائدها واتبع فيهاالجمع في توثيق الرواية بين منهجي النقل والعقل، فالنقل عند ابن حزم لا يكفي لإثبات صحة الرواية إذا كان مضمونها لا يستقيم ولا يصح عقلاً، مما أعطى للعقل عنده مكانة تقترب من منزلة النقل، ولعل الطريف في هذه الرسالة أن ابن حزم يرى أن كل أمة تتميز بثلاثة علوم هي الشريعة والتاريخ واللغة. وهي مفيدة لغايات دينية ودنيوية وعقلية، والتاريخ منها «سهل جداً، ومنشط ومُتنزَّه ولذّة...» فهو حسب رأيه «يمكننا من الاطلاع على فناء الملك وخراب البلاد المعمورة ودثور المدائن المشهورة التي طالما حُصِّنت وأحكمت وذهاب من كان فيها وانقطاعهم ونقلب الدنيا بأهلها...».

ـ جمهرة أنساب العرب، وضعها ابنُ حزم سنة (450 هـ/ 1058 م) وتناول فيها موضوع أنساب العرب استهله بالأحاديث الدالة على فضل النسب واختيار الخليفة من القرشيين وهذا ما جعله يركز على القرشيين وآل البيت خاصة، دون أن يهمل أنساب بقية القبائل العربية الأخرى وما تفرع عنها من بطون وأفخاذ. مع نبذة عن نسب البربر واليهود، وقد حدد ابن حزم موضوع كتابه وطريقته في التناول بقوله «فجمعنا في كتابنا هذا تواشيج أرحام قبائل العرب وتفرع بعضها بالأنساب، ومشرفاً على جمهرتها... وبدأنا بولد عدنان لأنهم الصريح من ولد إسماعيل... ولأن محمداً هو من عدنان... وابتدأنا من ولد عدنان بقريش لموضعه عليه السلام منهم، وابتدأنا من قريش بالأقرب منه عليه السلام...» فكان مرجعاً أساسياً اعتمد عليه ابن خلدون في أنساب العرب والبربر، واتخذه كودرا (Codera) مرجعاً لدراسته (عن الأمويين والحموديين والتيجبيين بالأندلس. ونشرت ترجمة له بالاسبانية بمدريد (1892) وقام بنشره ليفي بروفانسال بالقاهرة (1948) وعمل على تحقيقه مؤخراً عبد السلام هارون، ثم ظهرت نسخة مراجعة من طرف جماعة من العلماء ببيروت (1983).

أما أهم كتبه فهو: الفصل في الملل والنحل تناول فيه مسألة العقائد وبين فيه موقف فرق المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة، وما ذهب إليه النصارى

واليهود، فجاء تناوله للأفكار الدينية لهذه الجماعات تاريخاً نقدياً للأديان وللفرق والمذاهب، وقد حاول تصنيف الناس انطلاقاً من مفهوم العقيدة الإسلامية. وقد ذكر آسين بلاثيوس المستشرق الإسباني أن ابن حزم جعلهم ستة أصناف: الذين يبطلون الحقائق وهم السفسطائيون والذين ينكرون وجود الله لقولهم أن« العالم قديم» وهم الفلاسفة الملحدون، والذين ينكرون وجود الله الخالق وإن كانوا يسلمون بوجود فاعل للعالم الأزلي وهم الفلاسفة الكافرون. والذين يقولون بثنائية الإله (الزرادشتيون والمانويون) ومعهم الذين يعدّدونه (تثليث النصارى)، والذين يؤمنون بوجود إله واحد مع نفيهم للنبوة والملائكة، والذين يأخذون بالتوحيد (اليهود)، ورافضوا التثليث من النصارى والصابئة والقائلين بنبوة زرادشت من المجوس.

يتألف كتاب الفصل في الملل والنحل من خمسة أجزاء، الأول تحدث فيه ابن حزم عن الفرق المختلفة وعن «البراهين الجامعة الموصلة إلى الحق» ورد عليهم مدحضاً ما ذهبوا إليه من إبطال الحقائق. ومبيناً أيضاً بطلان صحة كتب اليهود والنصارى في الشكل الذي وصلت إليهم نسخها، بعدها تطرق إلى مسألة النسخ وحقيقة الروح في منهج الإسلام. أما الجزء الثاني. فقد استعرض فيه الأناجيل الأربعة وما بها من تناقض، وفرق أهل الإسلام ومجانبة أغلبها للدين الحق، ثم مسألة التوحيد وقضايا الذات والصفات الإلهية. أما الجزء الثالث فخصه للحديث عن القرآن ومسائل القضاء والقدر والاستطاعة والهدى والتوفيق والإيمان والكفر والطاعة والمعصية والوعد والوعيد. وخلق الله تعالى لأفعال خلقه، ومشيئته من كفر الكافر وفسق الفاسق. والجزء الرابع عالج فيه مسائل تهم المسلم في دينه ودنياه، وتحدد موقفه من الحياة، فتحدث عن الأنبياء والرسل والملائكة والشفاعة والميزان والقيامة والإمامة والفضل والمفاضلة بين الصحابة، ومن حارب علياً (رضي الله عنه) وبما يصلح عقد الإمامة مع ذكر الكبائر المؤدية إلى الكفر وحتى تشيع الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة. والجزء الخامس تعرض فيه لقضايا تتصل بالاعتقاد وتؤثر على عقيدة المسلم كالسحر والمعجزات والجن والطبائع ونبوة النساء والرؤيا والفقر والغنى والاسم والمسمى والبقاء والفناء وفي

المعدوم والحركة والسكون وفي الجوهر والغرض والجسم والنّفس والمعارف واختلاف العلماء وقضايا النجوم.

حاول ابن حزم في كتابه الفصل أن يجمع بين التاريخ والعقيدة والفلسفة والمنطق، فكان رائداً في التاريخ المقارن للفرق والمذاهب والأديان، وقد تميزت طريقته في التناول بالصراحة والوضوح والرد بالمعقول والمنقول. وهو يعتمد على الأولويات والمقدمات البديهية في دحض آراء غيره، كما تميز بمحاولته التوفيق بين العقل والعقيدة فكان في ذلك ممهداً للطريقة التي سوف يسلكها ابن رشد فيما بعد، ويطبع بها التفكير المدرسي. «السكولاستيكي» في أوربا لعدة قرون.

وابن حزم في كل ما يعرضه من أفكار يحاول أن يطبق على الإلّهيات، أصول مذهبه الظاهري الذي يأخذ بالمعنى الحرفي للقرآن الكريم والاجتهاد في تفسير آياته تفسيراً عقلياً انطلاقاً من المعنى الظاهر والمفهوم الحرفي للفظ القرآن مع حصر الاجتهاد فيما يدل عليه اللفظ، وأجمعت عليه الأحاديث الصحيحة السند والموثوق بها التي أقرها إجماع المسلمين. وقد انتهج في ذلك طريقة الجدل فهو يستعرض أفكار الفرق المجانبة للدين ثم يحاول الرد عليها باعتبارها آراء ضالة، ويقر ما يراه يتماشى والعقل السليم. إذ يتعرض لخلق العالم وإثبات وجود الله سبحانه بقوله: «إن العالم أخرجه غيره من العدم إلى الوجود... وليس هذا البتة من فعل طبيعة بل هو صفة صانع مختار قاصد إلى ذلك، غير ذي طبيعة لكنه قادر على ما يشاء وهذا أمر معلوم بضرورة العقل... فصح أنه خالق واحد أوّل حق لا يشبه شيئاً من خلقه البتة، لا إله إلاّ هو الواحد الأول الخالق عز وجل...».

عبر ابن حزم في كتابه «الفصل» عن رأي أهل التوحيد القائلين بأن الرسالة المحمدية هي الدين الوحيد الصحيح المنزَّل بعد أن حرفت كلمات التوراة والإنجيل عن مواضعها. وأن الأيمان الحق يرفض كل تحريف في الفكر والسلوك، وهذا التحريف في نظر ابن حزم هو الذي أخذ به أدعياء التصوف والتشيع. وأن الآراء الضالة التي قال بها أصحاب الفرق والمذاهب تعود إلى روح العصبية الفارسية التي تكيد للإسلام انتقاماً لزوال مجدها القديم، ولهذا فإن أسهل الطرق

للتصدي لها هو الأخذ بالمفهوم الحرفي الظاهري للقرآن الذي يسد عليهم باب التأويل ويكشف ضلالاتهم، إلا أن ابن حزم يبدي احترامه لشيوخ التصوف السني ويقدر علمهم وإن كان يجردهم من الكرامات ويؤاخذهم على التسليم بفكرة تقديس الأولياء التي جرتهم إلى حد القول: «أن منْ أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل. . .». وحمّل جماعة الصوفية والشيعة وِزْرَ هذا التوجه الخاطىء الذي طبع الفكر الإسلامي في فترات لاحقة فيقول: «إن كل من كفر هذه الكفارات الفاحشة ممن ينتمي إلى الإسلام فإنما عنصرهم الشيعة والصوفية، فإن من الصوفية من يقول أن من عرف الله تعالى سقطت عنه الشرائع».

إن معالجة ابن حزم لقضايا التاريخ الديني في كتاب الفصل لم تكن صادرة عن ثقافة فقيه أو فكر فيلسوف أو استقصاء مؤرخ، وإنما هي معتمدة على التعرف على فكر «الآخر» في أدق خصائصه، فقد قرأ الإنجيل «العهد الجديد» وتفحص التوراة «العهد القديم»، وتبين له تضارب محتواها وغرابة قصصها بمقارنة نصوصها والاستشهاد بها على صحة ما يذهب إليه. فكانت حجته قائمة على اطلاع شخصي وليست مستندة إلى مسلمات العقيدة الإسلامية فهو يقول: «والذي لا شك فيه عندي أن من بدل توراتهم، وأدخل فيها مثل هذا إنّما قصد إبطال النبوة». ولعل هذا ما جعل آسين بلاثيوس يقول عن كتاب الفصل «إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هي أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب «الفصل» لابن حزم تمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب».

كان ابن حزم بمعارفه الموسوعية وفكره النافذ وتناوله الجريء وحجته القائمة على معرفة الشيء في مظهره ومخبره غريباً في بيئته وسابقاً لعصره، مما جعل أكثر العلماء يهاجمونه ولا يسلمون بأفكاره. وفي مقدمتهم الفقيه أبو الوليد سليمان الباجي الذي هاجم ابن حزم وأرغمه على مغادرة مكان إقامته بجزيرة ميورقة. ومنهم عبد الحق بن عبد الله وابن زرقون اللذين ألفافي فترة لاحقة تصانيف في الرد على أفكار ابن حزم، كما أن الإمام أبا حامد الغزالي تحفظ إزاء أفكار ابن حزم في مثل قوله: «هو نسيج وحده لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد» ومثله في ذلك ابن حيان صاحب

الذخيرة الذي اعترف لابن حزم بأنه كان صاحب حديث وفقه وجدل وله كتب كثيرة في المنطق والفلسفة. ثم يستدرك «أنه لم يخل فيها من غلط». ونفس الموقف اتخذه الشيخ أحمد زروق الفاسي دفين مصراتة (ت 899 هـ) حيث ذكر أن «ابن حزم حافظ يعتمد عليه في النقليات ولا يلتفت لمذهبه في العقائد». وقد حالت هذه الآراء والمواقف دون دراسة فكر ابن حزم والانتفاع به مدة طويلة في العالم الإسلامي، بينما وجدت آراؤه قبولاً في الغرب. فكانت إسبانيا الحديثة سباقة إلى التنويه بجهده والاعتزاز بإسهامه الفكري وثقافته الإنسانية وأقامت له بمناسبة مرور ألف سنة على مولده تمثالاً في مدخل مدينة قرطبة ليكون شاهداً على مساهمة هذا العالم المسلم في الفكر الإنساني.

المراجع المعتمدة:

- ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي) جمهرة أنساب العرب، مراجعة لجنة من العلماء. دار الكتب العلمية، بيروت 1983.
- ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي) الفصل في الملل والأهواء والنحل تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمٰن عميرة. دار الجيل بيروت 1995.
- صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حياة بو علوان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص ص 181 ـ 184.
- الصلة (ط 1989) ج 2، ص ص 605 ـ 606.
- بغية الملتمس (ط 1989) ج 2، ص ص 543 ـ 545.
- نفح الطيب، ج 2 ص ص 77 ـ 84.
- تذكرة الحافظ ج 3، ترجمة 1016 ص ص 1146 ـ 1156.
- إرشاد الأريب (معجم الأدباء) ج 4، ص ص 1650 ـ 1659.
- جندوة الإقتباس (ط 1989) ج 2، ص ص 489 ـ 493.
- فهرس الفهارس، ج 1 ترجمة 161، ص ص 358 ـ 359.
- آردنك (س. فان) ابن حزم، دائرة المعارف الإسلامية، النسخة المعربة، دار المعرفة، بيروت د. ت، المجلد الأول ص ص136 ـ 144.
- الفاسي (عبد الرحمٰن) أبو محمد بن حزم في تاريخياته بحضور ظاهرياته ويقظة

عقلانياته، أعمال دورة الأكاديمية المغربية «التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب»، غرناطة، 21 ـ 23، أفريل، 1992، ص ص 238 ـ 294.
- الطباع، (عبد الله أنيس)، القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامية الدانية. دار ابن زيدون. بيروت، 1986، ص ص 179 ـ 182.
- تاريخ الفكرالأندلسي، ص ص: 213 ـ 237.
- الغنيمي، (نجاح محمود) علماء الملل والنحل، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة 1987، ص ص 73 ـ 87.
- أبو زهرة (الإمام محمد)، المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، الفكر العربي القاهرة، 1996،ص ص538ـ582.

ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن
ابن الحسن بن علي بن أبي طالب

ولد إدريس بن عبد الله هذا: إدريس بن إدريس وهو باني فاس، فولد إدريس بن إدريس: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداوود، ويحيىٰ، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم منهم: عمر بن يحيىٰ بن يحيىٰ بن محمد بن إدريس؛ ومنهم: جُنّون أحمد، ومحمد ابنا أبي العيش عيسى بن جنون أحمد بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، كانا ملكين بالمغرب؛ قتل أحمد منهما محمداً لميله إلى عبد الرحمٰن بن محمد المرواني، وإبراهيم، لقبه أبو غبرة، كان أيضاً ملكاً بالمغرب، ويحيىٰ، والحسن، والقاسم، كان لمحمد منهما بنون عدة، منهم الحكم، وعبد الرحمٰن، وعبد الله، وعلي، والحسن، ويحيىٰ، وإبراهيم، وأبو طالب. وكان لإبراهيم أبي غبْرة من الولد: عيسى، ومحمد، والقاسم، ويحيى. وكان لجنون منهم أحد وعشرون ذكراً، كان منهم القاسم الأصغر قنُّون بن جُنُّون، القائم بالمغرب، وعليّ الأصغر بن جنّون، القائم بعد أخيه قنّون، وعبد الملك، وإبراهيم المغنّي، أمه عبير، وإسماعيل، وعليّ الأكبر، وعيسى الأكبر، وإدريس، والقاسم الأكبر، والمنصور، والحسين الأكبر، والحسين الأصغر، وحمّود، وعبد الله، وعيسى الأصغر، ومحمد الأصغر، ويحيىٰ، وصالح، وطالب، ومحمد بن جنّون القائم أيضاً على أبيه بالبصرة، لم يعقب، والحسن بن جنّون الأصغر، أعور، إدّعى النبوة بتِيذلا. فولد قنون بن جنّون القائم بجبل أبي حسان. محمد، ويحيىٰ، وإبراهيم، وإسماعيل، وحمّود بنو قنّون المذكور القائم بالمغرب. وقد انقرضوا كلهم، وطاهر، وعلى ابنا إسماعيل بن جنّون. قاما أيضاً بالحجر، وابن عمهم أبو العيش عيسى بن الحسين بن ميمون بن القاسم بن أحمد جنّون بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، وإخوته عيسى، وإسماعيل، وأحمد جُنون، وإبراهيم،

ومحمد، والقاسم، انقرضوا إلا فتىً منهم بإشبيلية، اسمه علي بن القاسم بن أبي العيش عيسى المذكور، والحسن بن قنون بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. القائم بالمغرب، وبنوه.

ومنهم: الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس، سمي الحجام لكثرة سفكه للدماء، ومن ولده: القاسم بن محمد بن الحسن، الفقيه الشافعي بالقيروان، المعروف بابن بنت الزبيري.

ومنهم: يحيىٰ ومحمد ابنا إبراهيم بن يحيىٰ بن محمد بن يحيىٰ الحوطيّ بن القاسم ابن إدريس بن إدريس له عقب بفاس. ومنهم: إبراهيم بن القاسم بن إدريس بن إدريس، صاحب البصرة؛ وكان عمر بن حفصون يخطب له، وإبراهيم بن عبد الملك بن جعفر ابن إدريس بن إدريس، وأبو بكر وعمر ابنا محمد بن عبدالله بن أحمد بن عيسى بن إدريس بن إدريس.

ومنهم: القاسم، المسمى المأمون، وعلي، المسمى الناصر تسميا بالخلافة بالأندلس، ابنا حمود بن ميمون بن حمود، واسمه أحمد، ابن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس، وذلك أن عمر بن إدريس بن إدريس كان له من الولد: عبيد الله، ومحمد، وعلي، وموسى، وإدريس؛ فولد عبيد الله بن عمر بن إدريس: علي، وإبراهيم، وحمزة، والقاسم، فولد علي بن عبيد الله بن عمر: القاسم وأحمد حمود، فولد أحمد حمود هذا: ميمون بن حمود، فولد ميمون: حمود بن ميمون: فولد حمود بن ميمون: القاسم، وعلي المذكوران؛ فولد القاسم بن حمّود بن ميمون المأمون المذكور: محمد صاحب الجزيرة، وتسمى بالخلافة: والحسن، تنسك ولبس الصوف وحج. وولي الجزيرة بعد محمد بن القاسم المذكور ابنه القاسم بن محمد، ولم يتسمّ بالخلافة، إلى أن خرج عنها سنة 446، واضمحل أمرهم كلهم، وكان لمحمد بن القاسم بن حمود من الولد: يحيى الأصم أكبرهم. ثم القاسم الوالي بعد أبيه، وكان حصوراً، لا يقرب النساء، وإبراهيم وأحمد، وجعفر، والحسين. ولد الحسن بن القاسم المتنسك المذكور: هاشم، وعقيل، أمهما بنت أبي قرة بن دوناس، رئيس بني يفرن، قتلها أخوه أبو نور بن أبي قرة إذا اتهمها بابنه إدريس بن أبي نور، وقتل ابنه أيضاً.

وولد علي بن حمود الناصر: يحيىٰ المعتلي، وإدريس المتأيد. تَسَمَّيَا بالخلافة بالأندلس. فولد يحيى المعتلي حسن، صاحب سبتة، تسمّى أيضاً بالخلافة، ولم يعقب وإدريس تسمى أيضاً وتلقب بالمتعالي، وأعقب ابنا واحداً اسمه محمد، وهو آخر ولاتهم ولم يتسمّ بالخلافة، وولد إدريس المتأيد: عليّ، ويحيى، ومحمد، وحسن، مات علي في حياة أبيه، وأعقب ابناً اسمه عبد الله. وأما يحيىٰ، فقتله ابن عمّه لحًّا حسن بن يحيىٰ، إذ ولي الأمر، أعقب ابناً اسمه إدريس، وهو الآن بقرطبة، وأما محمد، فقام على بن عمه إدريس بن يحيىٰ، وتسمى بالمهدي، ودعا بالخلافة، وحارب ابن عمه إدريس بن يحيىٰ، وكلاهما تَسَمَّيَا بالخلافة وبينهما نحو عشرة فراسخ. ومات، وله من الولد: عليّ وإدريس، وأما حسن، فهو معتقل عند بْن عمه إدريس بن يحيىٰ، ثم أفلت، فأخرجه أخوه عن نفسه إلى العدوة. وتسمى بالسامي عند غُمارة، ثم اضمحل أمره، وخرج إلى المشرق ثم اضمحل أمر جميعهم، ولم يبق لهم أمر في رجب 488. وبقي من بقي منهم طريدا. شريداً، في غمار العامة. وكان بدء أمرهم في شوال سنة 400، إذ ولى القاسم بن حمود سبتة إلى التأريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من أفخاذهم خاملاً، وكانوا صاروا بتاز غَدْرة من عمل غمارة، وإنما كانت الرياسة منهم في ولد القاسم وعيسى بن إدريس بن إدريس، وصاحب درعة، أحمد بن علي بن أحمد بن إدريس بن يحيىٰ بن إدريس، ووتعال، وفك الله، وتعود الخير: بنو علي بن محمد بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس، ومنهم: عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس، صاحب تامدُلْت، التي كان يحارب عليها ابن عمه الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس، [ومنهم: عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس]، صاحب صنهاجة الرمال؛ وإدريس، والحسن، والقاسم ومحمد، بنو صاحب مكناسة الزيتون، داوود بن إدريس بن إدريس.

أبو محمد علي بن حزم الظاهري

جمهرة أنساب العرب.

مراجعة جماعة من العلماء ـ دار الكتب العربية.

بيروت، 1983 ص ص 49 ـ 52

النبوة في نظر ابن حزم

وهي بعثة قوم خصهم الله تعالى بالحكمة والفضيلة والعصمة، لا لعلة إلا أنه شاء ذلك. فعلمهم الله تعالى العلم بدون تعلم، ولا تنقل في مراتبه، ولا طلب له، ومن هذا الباب ما يراه أحدنا في الرؤيا فيخرج صحيحاً، وما هو من باب تقدم المعرفة، فإذ قد أثبتنا أن النبوة قبل مجيء الأنبياء عليهم السلام واقعة في حد الإمكـان، فلننقل الآن بحول الله تعالـى وقوته على وجوبها إذا وقعت ولا بد فنقول:

إذ قد صح أن الله تعالى ابتدأ العالم ولم يكن موجوداً حتى خلقه الله فبيقين ندري أن العلوم والصناعات لا يمكن البتة أن يهتدي أحد إليها بطبعه فيما بيننا دون تعليم كالطب ومعرفة الطبائع، والأمراض وسببها على كثرة اختلافها ووجود العلاج لها بالعقاقير التي لا سبيل إلى تجريبها كلها أبداً، وكيف يجرب كل عقار في كل علة؟ ومتى يتهيأ هذا؟ ولا سبيل له إلا في عشرة آلاف من السنين؟ ومشاهدة كل مريض في العالم، وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل. بما لا بد منه من أمر المعاش وذهاب الدول، وسائر العوائق. وكعلم النجوم، ومعرفة دورانها وقطعها وعودها إلى أفلاكها مما لا يتم إلا في عشرة آلاف من السنين، ولا بد من أن يقطع دون ضبط ذلك العوائق التي قلنا، وكاللغة التي لا يصح تربية ولا عيش ولا تصرف إلا بها، ولا سبيل إلى الاتفاق عليها إلا بلغة أخرى ولا بد، فصح أنه لا بد من مبدإ مَّا للغة.

وكـالحـرث والحصـاد، والـدراس، والطحـن وآلاتـه، والعجـن، والطبـخ والحلب وحراسة المواشي واتخاذ الأنسال منها، والغرس واستخراج الأدهان،

ودق الكتان والقنب والقطن وغزله وحياكته وقطعه وخياطته ولبسه وآلات كل ذلك، وآلات الحرث والأرحاء والسفن وتدبيرها في القطع بها للبحار، والدواليب وحفر الآبار وتربية النحل ودود الخز، واستخراج المعادن، وعمل الأبنية منها، ومن الخشب والفخار.

وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم. فوجب بالضرورة ولا بد أنه لا بد من إنسان واحد فأكثر علّمهم الله تعالى ابتداء كل هذا دون معلم، لكن بوحي حققه عنده، وهذه صفة النبوة، فإذا لا بد من نبي أو أنبياء ضرورة. فقد صح وجود النبي والنبي في العالم بلا شك.

ومن البرهان على ما ذكرنا: أننا نجد كل من لم يشاهد هذه الأمور لا سبيل له إلى اختراعها البتة، كالذي يولد وهو أصم فإنه لا يمكن له البتة الاهتداء إلى الكلام ولا إلى مخارج الحروف.

وكالبلاد التي ليست فيها بعض الصناعات وهذه العلوم المذكورة كبلاد السودان والصقالبة. وأكثر الأمم. وسكان البوادي نعم والحواضر لا يمكن البتة منذ أول العالم إلى وقتنا هذا، ولا إلى انقضائه اهتداء أحد منهم إلى علم لم يعرفه، ولا إلى صناعة لم يعرف بها فلا سبيل إلى تهديهم إليها البتة حتى يعلموها. ولو كان ممكنا في الطبيعة التهدي إليها دون تعليم لوجد من ذلك في العالم على سعته وعلى مرور الأزمان من يهتدي إليها، ولو واحداً، وهذا أمر يقطع على أنه لا يوجد ولم يوجد.

وهكذا القول في العلوم، ولا فرق، ولسنا نعني هذا ابتداء جمعها في الكتب لأن هذا أمر لا مؤونة فيه، إنما هو كتاب ما سمعه الكاتب وإحصاؤه فقط كالكتب المؤلفة في المنطق وفي الطب وفي الهندسة وفي النجوم، وفي الهيئة والنحو، واللغة، والشعر، والعروض، إنما نعني ابتداء مؤونة اللغة والكلام بها، وابتداء معرفة الهيئة وتعلمها. وابتداء تعلم أشخاص الأمراض وأنواعها وقوى العقاقير. والمعاناة بها، وابتداء معرفة الصناعات. صح بذلك أنه لا بد من وحي الله تعالى في كل ذلك.

قال: «أبو محمد» (رضي الله عنه) وهذا أيضاً برهان ضروري على حدوث العالم، وأن له محدثاً مختاراً ولا بد، إذ لا بقاء للعالم البتة إلا بنشأة ومعاش. ولا نشأة ولا معاش إلا بهذه الأعمال والصناعات والآلات، ولا يمكن وجود شيء من هذه كلها إلا بتعليم الباري تعالى، فصح أن العالم لم يكن موجوداً. إذ لا سبيل إلى بقائه إلا بما ذكرناه، ثم أوجد معلماً مدبراً مبتدأ بتعليمه على ما ذكرنا وبالله تعالى التوفيق.

أبو محمد علي بن حزم الظاهري
الفصل في الملل والأهواء والنحل
تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة
الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، 1995

أبو زكريا يحيىٰ بن أبي بكر الورجلاني

(ت حوالى 471 هـ/1078 م)

أبو زكريا يحيىٰ بن أبي بكر السدراتي الورجلاني، عاش بورجلان في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) على الأرجح. وتوفي حوالي سنة (471 هـ/ 1078 م) أخذ العلم بمسقط رأسه ورجلان وبمواطن الإباضية التي انتقل إليها كجبل دمر وقنطرارة. وعد من علماء المذهب الإباضي. إذ ذكره الشماخي اعتماداً على الدرجيني (المتوفى عام 670 هـ/ 1271 م) مع أخيه أبي يحيىٰ زكريا بقوله: «كانا من الأفاضل المقتفين لآثار الأوائل. لم تزل الديانة بحياتهما حية وطرق البر ناهجة وطلب علوم المذهب وسير من تنسك وتزهد، ولهما في علوم النظر أطول باع بأدلة ذات إقناع وحجج تملأ القلوب والأسماع، وتغني عند المحاضرة ما لا تغني المشرقية عند القراع، فكانا مراد الفارين مع تباعد الدارين. . . ».

اتصل بأبي زكريا يحيىٰ الورجلاني كثير من العلماء منهم أبو الربيع بن يخلف. كما كانت له صلة بعلماء عصره من الإباضة كأبي نوح محمد الذي كانت له معهُ مراسلة في مسألتين فقهيتين حسبما أورده الدرجيني. وعرف خاصة لدى طلبته بأقواله المأثورة ونصائحه الحكيمة، كما جاء في نصيحته لهم: «إياكم والتسارع في قبول نصائح الناس وهداياهم، فكن عبداً لله ولا تكن عبداً للناس. . . » واعلموا أن سوء الرأي إنما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه لا بالتمادي عليه. . . ».

عرف أبو زكريا يحيىٰ الورجلاني بكتابه في سير الأئمة وأخبارهم الذي ضمنه أخباراً تتعلق بالمذهب الإباضي وعلمائه بقفصة وورجلان وتيهرت أثناء حكم

الرستميين والعبيديين (الفاطميين) (من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري) وقد ذكر في مستهله فضائل الفرس والبربر وأورد أخبار حملة العلم من أمثال عبد الرحمٰن بن رستم وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، وأحداث ولاية إفريقيا ومحاربة ولاتها لدعاة المذهب الإباضي. ومقتل أبي الخطاب وأبي حاتم، مع استعراض أخبار الأئمة الرستميين بتيهرت وهم عبد الرحمٰن بن رستم وعبد الوهاب وأفلح ويوسف ويعقوب، وبالإضافة إلى ذلك سجل الأحداث التي رويت له أو عايشها مثل ثورة بن فندين وموقعة مغمداس والنزاع مع الواصلية وواقعة مانو التي أدت إلى القضاء على الإمامة الإباضية وخروج الحجاني (أبو عبد الله الشيعي) من كتامة واستيلائه على تيهرت، ومعركة باغاي وانتفاضة أبي يزيد مخلد بن كيداد. هذا دون أن يهمل تسجيل الاختلافات (الافتراق) بين الإباضية في عهد الأئمة عبد الوهاب وأفلح ويعقوب. كما لم يغفل أخبار بعض العلماء أمثال أبي نوح وأبي سور وأبي عبد الله بن بكر وأبي ربيع سليمان يخلف.

غير أنه ومع هذا العرض الشامل للأحداث ببلاد المغرب في الفترة الإسلامية الأولى. فإن أبا زكريا أهمل أو تغافل عن وقائع مهمة وأحداث بارزة كان يمكن له أن يأتي فيها بجديد نظراً لمعاصرته لها مثل العلاقة مع الخلافة الأموية بقرطبة والإمارة الإدريسية بفاس، وأوضاع الدولة الأغلبية وظروف استيلاء أبي عبد الله الشيعي على مواطن الإباضية بقسطيلية وقفصة والجريد، ودور قبيلة ورفجومة الحاسم في مناصرة أبي حاتم ضد يزيد بن حاتم ونهاية تيهرت الرستمية.

تميزت طريقة أبي زكريا الورجلاني في سيره بإثباته الروايات عند ذكره للأحداث وتسجيله للأقوال. فكان ذاكرة حية لسير أسلافه من الأئمة والعلماء والصالحين، فلم يكن بالكاتب الرسمي الذي همّه إرضاء الحكام أو مجاراتهم. أو المؤرخ المختص المسجل للأحداث والمهتم بالتفاصيل، بل كان كل ما يهمه هو تسجيل الأخبار التي لها صلة بالمذهب الإباضي أو المتعلقة بمآثر أسلافه. ولعل هذا ما جعل كتابه يخلو من التركيز على تفاصيل حياة الأئمة وذكر نسب الأشخاص وذكر تاريخ ولادتهم ووفاتهم. بل كان حريصاً على تسجيل ما عرفوا به من صلاح وتقشف، وما اشتهروا به من زهد وتقوى وتميزوا به من علم ومعرفة، ليكونوا

بذلك قدوة للأمة في تمسكها بعقيدتها ونموذجاً لطلبة العلم في طريقة حياتهم وأسلوب معيشتهم. وقد التزم أبو زكريا في ذلك بالصدق واتصف فيما قيده بالنزاهة. فهو يذكر الوقائع كما هي دون مدح أو ذم. ويسجل فضائل خصوم الإباضيين مثل تسامح المعز لدين الله واسترضائه لأبي نوح سعيد بن زنقيل وأبي القاسم بن يزيد بعد فشل التمرد الذي قاداه ضد المعز، كما لا يتردد في نقد بعض الإباضيين لابتعادهم عن الصواب ومجانبتهم للحق.

بهذه المواصفات وتلك المعلومات يعتبر كتاب سير الأئمة لأبي زكريا الورجيلاني مرجعاً أساسياً لتاريخ الإباضية ومصدراً مهماً للدولة الرستمية بتيهرت. فهو صورة صادقة للحياة العلمية بمراكز الإشعاع الإباضي بالمغرب (قفصة وقنطراره وورجيلان وتيهرت) وما تميزت به من اجتهاد وجدل ومناقشات ومناظرات، وسجل مفصل لرجالات المذهب الإباضي. ولهذا صار قدوة لمؤرخي الإباضية. فقد تأثروا به وقلدوه واقتبسوا منه، إذ نقل منه الشماخي فقرات طويلة في سيره وأدرج الدرجيني قسماً كبيراً منه في طبقاته. وأخذ عنه أبو الربيع الوسياني الكثير من تراجمه في سير مشايخ المغرب واستفاد منه سليمان الباروني في الجزء الثاني من كتابه أزهار الرياض عندما تطرق إلى تاريخ الأئمة الرستميين. كما رجع إليه صاحب كتاب كشف الغمة في سير أئمة عُمان. استناداً إلى ما أورده المستشرق الألماني ساخو (E. Sachau).

لا توجد إلا نسخ نادرة من سير الأئمة لأبي زكريا بالمكتبات العالمية منها نسخة ذكرها المستشرق ليوسكي (T. Lewicki) بمكتبة لفوف (Lwow) تكون قد نقلت من مكانها بعد ضم المنطقة إلى الاتحاد السوفياتي بعد الحرب الكونية الثانية، ونسخة أخرى ترجمها الفرنسي إميل ماسكوراي (E. Masquerey) إلى الفرنسية (1878) ووضع لها تعاليق عديدة، فجاءت ركيكة في أسلوبها يشوبها الغموض ويتخللها حذف بعض الفقرات، وتفتقر إلى الطريقة العلمية من إسناد وتحليل ومقارنة. وهذا ما اعترف به صاحب الترجمة وأكده كل من جورج مارسي (G. Marçais) في مقالته حول الرستميين بدائرة المعارف الإسلامية. ولويكي البولندي في مجلة الدراسات الإسلامية (1934) ولقد قام مؤخراً الباحث الجزائري

إسماعيل العربي بتحقيق ونشر كتاب سير الأئمة فوضع له مقدمة وهوامش وتعاليق اعتماداً على مخطوطة الشيخ سليمان داود من أهالي غرداية قام بنسخها بكير بن إبراهيم بتاريخ 1335 هـ (180 ص) كانت محبسة برسم محكمة غرداية تحت رقم 101 مما مكن الباحثين من الرجوع إليها وسمح لهم بمقارنتها بما كتبه ابن الصغير حول أخبار الأئمة الرستميين.

المراجع المعتمدة:

- أبو زكريا الورجلاني، (يحيىٰ بن أبي بكر)، سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ط 1، الجزائر. 1979، ط 2 1984.
- الدرجيني، (أبو العباس أحمد)، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة 1974.
- الشماخي، كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة (1301).
- أعلام الجزائر، ص 204.
- جودت (عبد الكريم يوسف)، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الجزائر. 1984 ص 10.
- الباروني، (سليمان بن عبد الله)، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية د،ت.
- طراوة (حجازي حسن علي) الحركة العلمية في الجزائر الحمادية، الطباعة المحمدية، القاهرة (1994 ص ص 98 ـ 99).
- تاريخ الأدب العربي، ج 6، ص ص 92 ـ 93.
- Le Tourneau (R), Idris (H.R.), La Chronique d'Abou Zakariyya al Wargalani, in Revue Africaine, 1960, pp 322 - 390/1961, pp 117 - 176 et, 323 - 374.
- Basset (R) Les Sanctuaires du Djebel Neffoussa, Paris, 1885.
- Masquerey (E.) La Chronique d'Abou Zakariya, traduction française, Alger, 1878.

نهاية أبي يزيد صاحب الحمار

حدث غير واحد من أصحابنا أن أبا يزيد كان رجلاً من بني يفرن، وكان مسكنه بقلعة سدادة، وله حديث في مبدإ عزمه مع أبي الربيع سليمان بن زرقون ورجوعه إلى مذهب النكار، بعد الوهبية. وسنذكر ذلك إن شاء الله في أحاديث ابن زرقون فإنما قصدنا من هذا الموضع، خروجه عن القاسم بن عبيد الله، وإلى ما انتهت به المقادير . . . وكان سبب ثورته فيما بلغنا أنه توجه إلى المشرق يريد الحج. فلما وصل إلى مصر نظر إليه رجل من أهل مصر، وقد حلق رأسه من عند الحجام، فقال له: غط رأسك أيها الثائر، فضربه عليه، فلما سمعها أبو يزيد، مخلد بن كيداد، وقع في نفسه من ذلك ما وقع.

لما حج وقضى مناسكه كر راجعاً إلى المغرب . . .

فلما رجع أبو يزيد من أرض المشرق، حفر غاراً بقلعة سدادة فـ(كان) يجتمع فيه مع أصحابه. يذكرون ما يريدون من أمرهم. وذلك الغار اليوم معروف وينتظرون متى يأتي وقت ذلك.

وكان على قسطالية عامل من عمال أبي القاسم بن عبيد الله. وهو الذي من مدينة المهدية وسميت به. وكان يسمى المهدي، وتسمى أيضاً القاسمية باسم القاسم . . .

فلما رآه وعرفه بالنعت الذي نعته له صاحبه، أخذه فرماه في سجنه وقيده في الحديد ليرسله إلى السلطان بالقيروان.

فلما طال مكث أبي يزيد في الحبس ولم يجد لنفسه حيلة، وأنست نفسه من سلامة تكون على يد العامل، ولما بلغ ذلك جماعة النكار، اجتمعوا فيما بينهم

واختاروا من أنفسهم أربعة رجال. يثقون بهم في الجلد والشجاعة والبأس والنجدة فأرسلوهم إليه آخر النهار.

فلما وصلوا إلى باب المدينة. وقف واحد منهم على الباب، وتقدم ثلاثة إلى الحبس، فلما أتوه، بدأوا بالسجان الذي يحرس الحبس، فقتلوه وكسروا السجن وأخرجوا جميع من فيه وأخرجوا صاحبهم مقيداً واحتمله أحدهم على ظهره، وكان اسم حامله، يوجين، فيما بلغنا وبين يديه رجل بالسيف مصلتاً. وآخر خلفه، فكل من قام إليهم من الناس قتلوه، فخرجوا بصاحبهم حتى أتوا على صخرة بين الحامة وتوزر، وكسروا ما عليه من القيد، فسميت «صخرة أبي زيد» فمضى نحو بني يدرجتن في الصحراء برملة سماطة، رجاء منهم أن يمنعوه. وقد كانوا في قوة عظيمة ينتهون إلى ثمانية عشر ألف فارس، فيما بلغنا فالتجأ إليهم وطلبهم أن يمنعوه، فلم يجد عندهم ما يريد، فمضى من عندهم مستخفياً إلى جبل أوراس.

قال: فلم يزل الطلب عليه والبحث عن شأنه حتى علموا بموضعه، فأنفذ إليه القاسم بن عبيد الله جيشاً عظيماً فحاصره بجبل أوراس سبع سنين وبلغت فيه نفوسهم التراقي. وفي ذلك قال متكلمهم يذكر ما نزل بهم من البلاء والضرر، وطول الحصار والمطر، قال: «جبل لا يصعد، ومطر ساكب، وفتى مستقصي، وشيخ غير مدفوع ونحن المبتلون المقتولون».

أبو زكريا يحيىٰ الورجلاني
كتاب سير الأئمة تحقيق ونشر إسماعيل العربي
الجزائر، 1984، ص ص 175 ـ 179

منكرات أبي يزيد

ثم إن عدو الله، سار يريد القاسم بالقيروان، وكل قرية ومدينة مر بها في طريقه خربها وسبا ذريتها وغنم أموالها، كفعل نافع بن الأزرق وغيره من الخوارج، بل قد زاد عليهم وأربى. كان معه رجل من علماء النكار، يسمى زكريا، ينكر ذلك عليه، ويقول: «إن هذا لهو الخروج من الدين». فلما رأى أبو يزيد إنكاره عليه، خشي أن يفسد عليه العامة من الناس، أمر بقتله، فقتل ليلاً، ولا يدري أين كان. فلما سمع القاسم بإقبال يزيد إليه بما لا قبل له به من العساكر، خرج من القيروان إلى المهدية، فترك على القيروان رجلاً، وقدم أبو يزيد القيروان وحاصر أهلها، حتى اشتد عليهم الحصار، وقد أنهب من المدينة كثيراً من أطرافها. فخافوا على أنفسهم وألقوا إليه بأيديهم وخرجوا إلاّ قاضي المدينة، (فـ) قد انحاز في دار الإمارة بأموال جسيمة، فأرسل إليه أبو يزيد: «أخرج» فأبى القاضي إلا بالأمان، وأعطاه أبو يزيد الأمان... قال فأمر أبو يزيد بقتل القاضي، فقتل بعد الأمان، وأخذ تلك الأموال.

وذكروا أنه بلغ عدة ما خرب على يده في افريقية ثلاثون ألف قرية لم تعمر إلى يومنا هذا. وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة...

وكان عدو الله على حمار جاء (به) من مصر، إذا مشى عدت الخيل معه، وإذا عدا سبق الخيل... وبلغنا أنه عدو الله لا يبيت كل ليلة إلا على أربعة أبكار.

ثم إن أبا يزيد سار من القيروان يريد المهدية فحاصر بها المهدي زماناً طويلاً، حتى نزل بالرملة التي بباب المدينة، وبنى بحيال باب المدينة مصلى، وهو بها معروف يدعى «مصلى أبي زيد»...

قال: فوقع القتال بينهم حتى انهزم عدو الله أبو يزيد، وكانت الدائرة عليه.

وقد ذكروا أن ميمنة عسكره انهزمت حتى انتهت الهزيمة إلى القيروان ولم يشعر بذلك أهل الميسرة بـ(سبب) كثرة جنوده ثم إن أبا يزيد سمع بأن أهل القيروان وثبوا على عامله عليها وحاصروه حتى أخرجوه، وقد دس إليهم الشيعي بالكتب في ذلك. فتراجع أبو يزيد عن المهدية.

فعندها انهزم عدو الله الهزيمة التي أصيب بها، فلما سمع إسماعيل بما فعل أهل القيروان بعامل أبي يزيد وأحس فيه التأخر (وقيل إن إسماعيل خرج إليهم بخمسمائة فارس أو نحوها) خرج إليه وتبعه، فكانت عليه الهزيمة واستحر القتل في عسكر أبي يزيد.

وبلغنا أن ما قتل بعضهم من بعضهم أكثر مما قتل منهم عدوهم، فلم يزل الشيعي في سَاحتهم يقتلهم إلى أن انتهى إلى القيروان، فلما وصلوا إلى الموضع الذي بنيت فيه صبرة، قال أبو يزيد لأصحابه: «اصبروا صبرة» فكر راجعاً، فلذلك سمي الموضع صبرة.

قال: فخرج أهل القيروان يقاتلونه، فلما أخذته الغلبة ولى منهزماً وتبعه طائفة من خيل إسماعيل فأدركوه وقد تأثر من جروح. فألقى بيده على أحدهم، فقال له: خلصني!

فقال له الفارس: من تكون؟ فقال له أبو يزيد: أنا أبو يزيد قال: فأخذه الرجل ومضى به إلى إسماعيل، فلما مثل بين يديه. قال الرجل لإسماعيل: إني أسرت هذا الرجل وزعم أنه أبو يزيد، وأنا لست أعرفه، قال: فدعا إسماعيل بمن يعرفه، فأخبره أنه هو، ثم دعا إسماعيل بالأطباء ليعالجوه، وقد أنفدته الجروح، لئلا يموت (حيث أنه) يريد أن يعذبه بأنواع العذاب. فقال له الأطباء، إنه لميت.

قال: فلما علم إسماعيل بذلك من أمره، أمر بسلخه، وأخذوا في سلخه فلما وصلوا إلى السرة مات عدو الله إلى النار، وبئس المصير، فتفرقت عساكره ومضى كل في وجهته.

أبو زكريا يحيىٰ الورجلاني
كتاب سير الأئمة، تحقيق ونشر إسماعيل العربي
الجزائر، 1984، ص ص 180 ـ 185

أبو عبيد عبد الله البكري

(ت حوالي 487 هـ/ 1094 م)

أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري، ولد حوالي 405 هـ/ 1014 م بمدينة شلطيس (Saltés) غرب الأندلس من أسرة ذات شرف ونفوذ، تولى أبوه وجده إمارة على ساحل المحيط الأطلسي تشمل مدينتي شلطيس وولبه (Huelva) وعندما استولى عليها بنو عباد أمراء إشبيلية تحول أبوه إلى قرطبة تحت حماية حاكمها أبي الوليد محمد بن جوهر، حيث تعلم ابنه عبد الله البكري على شيوخها، واهتم خاصة بمحاضرات المؤرخ والجغرافي ابن حيان، بعدها دخل عبد الله البكري في خدمة أمير المرية محمد بن معين فعاش بين حياة البلاط والدراسة. فأخذ عن الجغرافي العذري خاصة وواظب على تسجيل كل ما انتهى إليه من معلومات جغرافية حول المغرب والأندلس.

فضل عبد الله البكري البقاء عند المعتمد بن عباد بإشبيلية عندما أوفده أمير المرية في مهمة إليه (578 هـ/ 1085 م) لكنه اضطر إلى التحول عنها إلى قرطبة عِنْدما قضى المرابطون على دولة بني عباد. وقد واصل دراسته مجدداً بقرطبة كما بقي على سلوكه الذي اشتهر به من ميل إلى اللهو وشرب الخمر، والذي عبر عنه في بعض أبياته إذ قال:

خليلي إني طربت إلى الكأس ... وتقت إلى شم البنفسج والآس
فقوما بنا نلهو ونستمع الغنا ... ونسرق اليوم سرا من الناس
فإن نطقوا كنا نصارى ترهبوا ... وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس

كما لم تفارقه الرغبة في المطالعة والولع بالكتب فكان حسب ما رواه ابن بشكوال في كتاب الصلة أنه «يحب الكتب حباً جماً حتى لكان يمسكها في

قماش غال إكراماً لها وصيانة» هذا وقد قضى البكري السنوات الأخيرة من حياته متفرغاً للتأليف جامعاً للكتب حتى وافته المنية حوالي سنة 487 هـ/ 1094 م.

ترك أبو عبيد البكري ما لايقل عن اثني عشر تأليفاً في مختلف المعارف منها في اللغة والأدب: سقط اللآلي في شرح أمالي القالي، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد بن سلام، وكتاب اشتقاق الأسماء، وكتاب شفاء عليل العربية، وكتاب التنبيه على أغلاط أبي علي في أماليه وكتاب الإحصاء لطبقات الشعراء، وكتاب صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف لأبي عبيد بن سلام. ومنها في الجغرافية: كتاب معجم ما استعجم، وكتاب المسالك والممالك، ومنها ما كان في مواضيع أخرى مثل كتاب النبات وكتاب أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ، وكتاب التدريب والتهذيب في دروب أحوال الحروب.

اشتهر أبو عبيد البكري بكتابين، أولهما كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمراقب في ضبط تفسير الأماكن الورادة في الشعر والسير والحديث والتاريخ وما وقع لها من تحريف وتصحيف واختلاط واختلاف. وهو معجم لغوي يصف جزيرة العرب بمشاهدها ومعالمها وبلدانها ومعاهدها وآثارها، ويتتبع قبائلها في هجرتهم ومواطنهم وأيامهم وأنسابهم، قال عنه مؤلفه: «هذا كتاب معجم من استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأسفار من المنازل والديار والقوى والأمصار والجبال والآثار والآبار والمياه والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة» فجاء بذلك مبتكراً في مادته لم يسبقه إلى ذلك سوى أبو محمد الحسن الهمذاني اليمني (ت 334 هـ) صاحب كتاب صفة جزيرة العرب. ولعل ما يميز معجم البكري هو خلوه من الحشو والزيادات وكونه مرتباً على حروف الهجاء عند المغاربة أب ت ث. ومعتمداً في تصنيفها على ترتيب الكلمات في كل باب حسب الحرفين الأوليين الأصليين.

يعد معجم البكري من الآثار النفيسة في التراث الجغرافي التاريخي الأدبي اعتمده في تحقيق ما يُشْكِلُ من الكلمات مؤلفون عديدون منهم القاضي عياض (ت 544 هـ) في مشارق الأنوار. والسهيلي (ت 581 هـ) في الروض الأنف. كما انتفع به كثيراً الفيروزآبادي (ت 817 هـ) صاحب القاموس. والزبيدي

(ت 1205 هـ) في تاج العروس، كما اهتم به المستشرقون فاعتبره دوزي (Dozy) معجماً فريداً في بابه لا يواريه كتاب آخر في السعة أو في دقة التفاصيل. يحتوي على عدد ضخم من أسماء الأماكن. . . وهو بذلك لا غنى عنه لكل من يدرس التاريخ والشعر القديمين والجغرافية والوثائق التاريخية أو الشبيهة بالتاريخية،» أما المستشرق فردناند وستيلد (F. Wüstenfeld) فقد حرص على ترجمة مقدمته إلى الألمانية، ونشرها في أعمال الجمعية الملكية للعلوم (1869) وأجهد نفسه في مقارنة نسخه وتحقيقها ووضع مقدمة وفهارس لها. نشرها في طبعة حجرية بجوتنجن بألمانيا في أكثر من 900 ص (1876 ـ 1877) وقد قام بتحقيقه مؤخراً الأستاذ مصطفى السقا وطبع عدة مرات (ط 3، بيروت، 1983).

أما الكتاب الذي عرف به البكري وعد بفضله في طليعة جغرافيي المغرب الإسلامي والأندلس فهو كتاب المسالك والممالك الذي مزج فيه المعلومات الجغرافية بالمعارف التاريخية وأدرج فيه الملح وبعض الأساطير فجاء موسوعة جغرافية شاملة اعتمد فيها خاصة على ما سجله من الأوراق الرسمية وما نقله عن مصادر سابقة عنه أو معاصرة له بعضها في حكم المفقود. فرجع إلى الطبري والمسعودي (مروج الذهب والتنبيه) وابن قتيبة (كتاب المعارف) وأبي حفص القوطي وإبراهيم وصف شاه (كتاب العجائب) والأزرقي (أخبار مكة) وابن زبالة ومجيز الدين (الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل) وابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) والبلاذري (فتوح البلدان) كما اقتبس فيه عن جغرافيي المشرق أمثال: بطليموس وابن خرداذبة وابن رسته والاصطخري وابن حوقل، ورجع كذلك إلى ما ترجم بالأندلس من كتب النصارى مثل، كتاب سبعة كتب تاريخية ضد الوثنية لبولس أوروزيوس القوطي وكتاب «أصول الكلمات (Etimologias) لابن يدور الاشبيلي (ق 7 م)، كما أخذ البكري عن أحمد الرازي والعذري وابن البر والرقيق القيرواني (ت 417هـ/ 1026م) وعن التاجر اليهودي إبراهيم بن يعقوب النحاس، كما نقل حرفياً بعضاً من كتابه المسالك والممالك عن محمد بن يوسف الوراق القيرواني القوطي الذي يشير إليه البكري قائلا «ومما قيدته واختصرته لمحمد بن يوسف القروي رحمه الله».

ومع أن البكري لم يتجاوز مجال تنقلاته وأسفاره منطقة صغيرة من ولبة إلى المرية ومن إشبيلية إلى قرطبة، إلا أنه وبفضل اطلاعه الواسع على المصادر والوثائق وميوله العلمية ودقة ملاحظاته ونظرته المتفحصة، استطاع أن يستوعب كل المصادر التي توفرت لديه بكل من المرية وإشبيلية وقرطبة فجاء كتابه المسالك والممالك جامعاً بين جمال الوصف ودقة المعلومات وطرافة العرض وعمق التناول. ولعل هذا ما جعل دوزي يشيد بالبكري ويقول عنه «فيما نجد غيره من الجغرافيين يقعون في خطإ بعد خطإ ويناقضون أنفسهم بين موضع وموضع إذ بنا نجد معلومات البكري واضحة ناصعة، وكتاباته توصف بعبارة واحدة؛ انها صادقة».

انتهى البكري من تأليف كتاب المسالك والممالك (سنة 460 هـ / 1068 م) الذي جعله في قسمين جمع فيهما دون ترتيب أوصاف المدن والمواقع والمسالك، الأول: يشتمل على أوصاف بلدان المشرق فيبدأ بعرض مطول لمبدإ الخلق وتاريخ الأنبياء من آدم إلى محمد ﷺ مع ذكر للمعتقدات الدينية عند العرب وغيرهم. ووصف لأهم هياكل العبادة القديمة بعدها يخلص إلى وصف جغرافي للأراضي والبحار والأنهار، ومستعرضاً الأقاليم السبعة ابتداء من الشرق وحتى الغرب فيبدأ بالهند والصين وينتهي بالإفرنج والجلالقة والنورمان مع ذكر للأكراد، ثم يستعرض بعد ذلك ممالك اليمن القديمة والحيرة واصفاً جزيرة العرب متوسعاً في وصف مكة المكرمة، ثم يخلص إلى وصف العراق وبلاد فارس وخراسان وما وراء النهر مع ذكر لبعض الشعوب التركية.

أما القسم الثاني من كتاب المسالك والممالك فيبدأه بوصف حائط يأجوج ومأجوج ورحلة سلام الترجمان. وبعد تعرضه لبلاد المشرق: الشام والعراق ومصر يفرد وصفاً مطولاً لبيت المقدس يتناول فيه بلاد الروم وأقاليم النصارى ابتداء من جزر البحر المتوسط (بحر الروم) وحتى الأقاليم القاصية (بلاد الروس والانقليش)، بعد ذلك يتوسع في وصف مصر لينتهي إلى بلاد المغرب وأقاليم الصحراء ومملكتي غانة ومالي. وفي الأخير يصف الأندلس وما وراءها من بلاد النصارى إلا أن هذا الجزء يعتبر في حكم المفقود وكذلك المقدمة، وبناء على

ذلك يكون مجموع فقراته (المواد) المتوفرة الآن 1533 فقرة أولها القول في مدة عمارة الأرض وآخرها ذكر البرتونيين.

يكتسي وصف البكري لمدن ومحطات ومسالك بلاد المغرب الإسلامي أهمية خاصة. إذ أنه أخضع كل المعلومات التي جمعها وأوردها إلى التمحيص والتدقيق، فكانت أصدق عرض وأحسن وصف لبلاد المغرب في فترة أزدهارها (القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر ميلادي).

هذا ويمكن تصنيف المادة الجغرافية التاريخية التي خص بها البكري بلاد المغرب إلى قسمين: الأول يتعلق بوصف الأقاليم والدول والقبائل والمدن، والثاني يهتم بتحديد الطرق والمسالك والمحطات والمراسي، فقد ورد في القسم الأول ذكر لأقاليم أفريقيا وكتامة ومتيجة والأوراس والشلف ودرن (الأطلس) وبوغواطة وسجلماسة ودرعة والسوس والسودان وغانة، كما اشتمل على وصف لمدن عديدة منها على سبيل المثال تنس وقسنطينة وتيهرت وتلمسان وقلعة بني حماد، وسبتة وطنجة وفاس وأغمات والقيروان وصبرة وتونس، أما القسم الثاني فقد حدد فيه الطرق وضبط المسالك وقياس المسافات. وذكر المحطات والحصون. والتي يمكن التعرف عليها بالرجوع إلى نقاط بداية الطرق الكبرى وهي العواصم الإقليمية، فمن القيروان مثلا تبدأ الطرق نحو طرابلس عبر صفاقس وقابس ونحو تونس والمهدية وقلعة أبي طويل (قلعة بني حماد) وطبرقة وبونة ومرسى الزيتون وتنس ووهران ونكور وفاس، ومن أشير تتوجه الطرق نحو مرسى الدجاج وجزائر بني مزغناي، ومن فاس نحو وجدة وطنجة وسبتة وسجلماسة، ومن أغمات نحو السوس الأقصى وفاس ورباط فوز وسجلماسة ومن درعة نحو بلاد السودان وإقليم تافلالت.

تتوفر من كتاب المسالك والممالك للبكري عشرة نسخ مخطوطة غير كاملة، وهي تتفاوت في مادتها. نشر وترجم بعض أجزائها من طرف كاترومتر. كما قامت مجموعة من المستشرقين (كونيك وروزن وكوفالسكي) بنشر الجزء الذي يتعلق بحكاية إبراهيم بن يعقوب اليهودي عن الصقالبة مع ترجمة لها بسان بترسبورغ

(1878) ثم أعيد نشره مجدداً في كراكوفيا وأعاد نشره محمد حجي في بيروت 1968 بعنوان «جغرافية الأندلس وأوربا» ثم قام سيبل (A. Seippel) بنشر ما يخص النورمان مع ترجمة له (1896 و1928) كما نشر دي خويه (De Goeje) ترجمة هولندية له. بينما قام بلاشير (R. Blachère) ودارمون (H. Darmaun) بنشر مقتطفات عن جزيرة العرب. أما القسم الخاص بالمغرب فقد نشره دوسلان (De Slane) (1857) وأعيد نشره 1911 مع ترجمة فرنسية له 1913. وصدر مؤخراً عن دار الكتاب بالجزائر 1956. كما ترجم مونتاي (V. Monteil) قسما منه، ونشر كيوك (J. cuoq) ما يتعلق بإفريقيا السوداء منه في مجموعة المصادر العربية المتعلقة بافريقيا. وأخيراً صدرت نسخة محققة مما هو معروف من كتاب المسالك والممالك من طرف أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ونشرت بمؤسسة بيت الحكمة قرطاج (تونس) 1992. مما سهل الرجوع إلى هذا المصدر الجغرافي المهم.

المراجع المعتمدة:

- البكري (أبو عبيد عبد الله): كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان وأندري فيري 2 ج. الدار العربية للكتاب، مؤسسة بيت الحكمة، قرطاج، تونس 1992.
- البكري (أبو عبيد عبد الله)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق ونشر مصطفى السقا، ط 3، عالم الكتب، بيروت، 1983.
- البكري (أبو عبيد عبد الله): كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، نشر البارون دوسلان الجزائر 1857. (طبعة ثانية 1910، وطبعة متأخرة لدار الكتاب الجزائر في 1956).
- البكري (أبو عبيد عبد الله): جزء من كتاب المسالك والممالك، بعنوان جغرافية الأندلس وأوربا، نشر وتحقيق عبد الرحمٰن علي حجي، بيروت، 1968.
- الصلة، الجزء الثاني، ترجمة 638 ص 437.
- (محمد) ابن الأبار: الحلة السيراء. تحقيق حسين مؤنس، الجزء الثاني، القاهرة، 1963.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 297 ـ 303.

- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 113 ـ 148.
- ذنون طه، (عبد الواحد)، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال إفريقيا من الفتح إلى بداية عهد المرابطين، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الرابع، المجلد 1958/36 ص ص 251/254.
- مؤنس (حسين): تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص 108 ـ 148.
- (كرد علي) محمد: معجم ما استعجم، مجلة المقتبس، سنة 1330 هـ/ 1912 م ص ص 765 ـ 769.

- Al. Bakri, Description de l'Afrique septentrionale, ed arabe, pub.par Deslane, Alger 1911 et 1913.
- Boigues (Pons) los historiadores y geografos arabigo espanoles Madrid, 1898.
- Blachere (R.) Darmaun (H.) Géographes arabes au Moyen - Age, Paris 1957.
- Cuoq. (J.) Recueil des sources arabes concenant l'Afrique occidentale, du VII au XVI siecles, Paris, 1975.
- Dozy, Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Age, T.I Leyde, 1849, pp 304 - 305.
- Defremery (C.) Fragments de géographes et historiens arabes, Extrait de Abu-Obeid al - Bakri, in Journal Asiatique, 13/1949, pp 460 - 477.
- Miquel (A.) La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XIe siecle, Paris - Lahaye, 1967.
- Monteil (V.) Al.Bakri, routier de l'Afrique blanche et noir, du Nord-Ouest, in BIFAN série B. 30.1968.
- Lévi - Provencal, Abu-Ubayd al. bakri, in Encyclopédie de l'islam, nouvelle éd Paris pp.
- Wüstenfeld (Ferdinand) Géographische wörterbuch des Abu Obeid Allah Iben Abdel- Aziz Al- BAkri,Gottingen- Paris, 1876 - 77.

كنيسة بيت المقدس

وبإيليا الكنيسة العظمى التي وسطها صهيون. وهي العتيقة وهي التي يتعبد فيها داود وفي وسطها قبر المسيح بزعمهم، وإذا كان يوم عيدهم ويوم السبت الكبير يخرج الناس من موضع القبر إلى الصخر، وحوالي السطح درابزين من أبنوس يشرفون منه على موضع القبر، وكلهم يتضرعون إلى الله عز وجلّ من قت الأولى إلى المغرب، والإمام الذي يؤم بالناس في المسجد الجامع قاعد مع الأمير فهم على هذا حتى يروا ناراً بيضاء تخرج من جوف القبر، فيفتح السلطان الباب عن القبر ويدخل وفي يده شمعة فيوقدها في تلك النار فيرفعها إلى الإمام فيأتي الإمام بتلك الشمعة إلى المسجد الجامع فيشعل بها القناديل، فإذا تداولت تلك الشمعة ثلاث أيد اتقدت كلها وصارت ناراً للعالمين، ويكتب الأمير بخبر ذلك إلى السلطان ويعلمه أن النار نزلت في وقت كذا وكذا من يوم كذا. فإذا نزلت تلك النار وقت الأولى من ذلك اليوم كان دليلاً على أن السنة تكون خصيبة، وإذا تأخرت ونزلت وقت العصر دلت على أن السنة تكون قحطة وهذه النار تنزل في يوم فصحهم . . .

ويتصل بهذه الكنيسة كنيسة يقال لها قسطيس، وبغربيها كنيسة يقال لها الجسمانية وعلى فرسخ منها مما يلي قبلتها في مستوى من الأرض بيت لحم، وبه ولد المسيح عليه السلام وبه النخلة التي ساقطت على مريم رطبا جنيّا والسري الذي جعله الله تحتها فشربت منه وتطهرت والمهد الذي جعلت فيه المسيح، وهو حوض أبيض غسلته فيه، وهو قريب من العين.

وعلى فرسخ من مدينة الطبرية قرية يقال لها المجدل فيها كنيسة مريم، فيها السبعة المجانين الذين أبرأهم المسيح عليه السلام يقال لها الطابقان، وهناك بارك

عيسى عليه السلام على خمسة أرغفة وسمكتين وأطعم منها خمسة آلاف من أصحابه وفضل منها اثنا عشر زنبيلا، ومنها على فرسخ مسجد الخضر وتحته قناة ماء تجري حتى ينصب في البحيرة، ومنها على أربعة فراسخ مسجد بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله. وتحته الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام، ومنها على فرسخين مدينة يقال لها بانياس، وها هنا ينبع ماء نهر الأردن وعليه الأرحاء، وفيها أحيا المسيح بنت أدران الملك بعد عشرة أيام، وعمل العجائب في تلك المدينة.

أبو عبيد عبد الله البكري، كتاب المسالك والممالك
تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري،
الدار العربية للكتاب ومؤسسة بيت الحكمة، قرطاج،
تونس، 1992 الجزء الأول ص 792 ـ 797.

مدينة تنس

مدينة تنس بينها وبين البحر ميلان وهي مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكناها العمال لحصانتها، وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهي على نهر يسمى تناتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم يأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق ويريق في البحر وبها حمامات وتنس، هذه هي التي تسمى تنس الحديثة وعلى البحر حصن يذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة وتنس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركوني وأبو عايشة والصقر وصهيب وغيرهم وذلك سنة اثنتين وستين ومائتين ويسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل البيرة وأهل تدمير وأصحاب تنس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين ابن علي وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر فتجمع إليهم بربر ذلك القطر ورغبوا في الانتقال إلى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقاً ويجعلوها سكنى ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة فأجابوهم إلى ذلك وانتقلوا إلى القلعة وخيموا بها وانتقل إليهم من جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا واستوبوا الموضع فركب البحريون من أهل الأندلس مراكبهم وأظهروا لمن بقي منهم أنهم يمتارون فحينئذ نزلوا مرية بمجانة وتغلبوا عليها على ما يأتي ذكره إن شاء الله ثم إن الباقون في تنس لم يزالوا في تزايد ثروة وعدد ورحل إليهم أهل سوق إبراهيم وكانوا في أربع مائة بيت فتوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيه اليوم ولها بابان إلى القبلة وباب البحر وباب ابن ناصح وباب الخوخة شرقي يخرج منه إلى عين تعرف بعين

عبد السلام ثرة عذبة وكيلهم يسمى الصحفة وهي ثمانية وأربعون قادوساً والقادوس ثلاثة أمداد بمد النبي ﷺ ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية. ورطل سائر الأشياء اثنتان وعشرون أوقية ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة والجاري عندهم قيراط وربع درهم وصقل وحبتان مضروبة كلها ودرهم اثنا عشر صقلية عدداً. وقال سعيد بن واشكل التيهرتي في علته التي مات منها بتنس:

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر	وأصبحت عن دار الأحبة في أسر
وأصبحت عن تيهرت في دار معزل	واسلمني مرّ القضاء من القدر
إلى تنس دار النحوس فإنها	يساق إليها كل منتقض العمر

أبو عبيد الله البكري المسالك والممالك
قسم المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب
نشر ادريان ميزونوف، باريس، 1965، ص ص61 ـ 62

أبو بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيدق
(ت حوالي 555 هـ/1160 م)

أبو بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيدق إما لقصر قامته أو لتواضعه. ولد حوالي 490 هـ/ 1096 م بمواطن قبيلة صنهاجة بالمغرب الأوسط أو بإفريقيا، ظل مغموراً لا يعرف شيء عن حياته إلى أن التحق بمحمد بن تومرت لخدمته ومرافقته في أسفاره مع رجلين آخرين أحدهما يدعى يوسف الدكالي والآخر الحاج عبد الرحمٰن. وقد لازمه عند رجوعه من المشرق وانتقاله من تونس (510 هـ) إلى المغرب الأقصى مروراً بالمدن والمراكز التالية: قسنطينة، بجاية، ملالة متيجة، جبساس، أن ومرمور، ملينة، وانشريس الخضراء، وتنملت متاع بني يزناسن. الشلف، البطحاء، تلمسان، وجدات، صاء، أجرسيف. أمليل دشر ملال. مخاض النساء، المقرمدة، فاس، مكناس، سالا، مراكش، أغمات. وبذلك أصبح البيدق ضمن المجموعة الأولى التي لازمت ابن تومرت والمؤلفة من عبد المؤمن وعبد الواحد، والحاج عبد الرحمٰن، والحاج يوسف الدكالي، وعمر بن علي، وعبد الحق بن عبد الله، غير أنه ظل خارج الجماعة المقربة من ابن تومرت سواء طائفة العشرة أو جماعة الخمسين أو أهل الدار، وقد كلف لصغر سنه ولتواضعه ورغبته في خدمة شيخه ابن تومرت ببعض الخدمات البسيطة فأخلص في ذلك وأظهر تفانياً في تلبية طلباته وكان ابن تومرت يناديه مع أترابه: أين الصبيان عندما يريد أن يكلفهم بعمل ما. فكان البيدق يقوم بمسك سراج شيخه عند القراءة. ويأخذ بلجام فرسه عند امتطاء صهوته. وقد مكث البيدق في صحبة ابن تومرت بمراكش وبجبال الأطلس وأصبح من الداعين له بين القبائل المصامدة وساعده على ذلك حفظه للقرآن الكريم وإلمامه بمسائل الفقه وحرصه على تطبيق الشريعة الإسلامية في العبادات والمعاملات. هذا ورغم مشاركة البيدق في معظم غزوات

ابن تومرت وحضوره مع عبد المؤمن معركة البحيرة بمراكش 524 هـ/1130 التي امتحن فيها الموحدون، ومرافقته له في غزواته بالمغرب الأقصى والأوسط، ووجوده معه عند فتح فاس ومراكش ظل بعيداً عن بلاط الموحدين حتى وافته المنية حوالي سنة 555 هـ/ 1160 م عن عمر يناهر 65 سنة.

وقد عرف أبو بكر الصنهاجي (البيدق)، بتصنيفه الذي وضعهُ عن أخبار المهدي ابن تومرت وتأسيس دولة الموحدين على يد عبد المؤمن بن علي. وقد كتبه على الراجح ما بين سنيتن 547 ـ 550 هـ. وانتهى في تسجيل الأحدث عند سنة 547 هـ/1152 م. ويجعلنا نميل إلى القول بأن تسجيل الأحداث التي تعرضت لموت عبد المؤمن وبيعة ابنه يوسف (يعقوب المنصور)، كانت من وضع غيره، ومما يؤكد ذلك أن الأخبار التي تتعلق بالأحداث التي تعود إلى ما بعد سنة 550 هـ ليست وصفاً لشاهد عيان وإنما سجلت مقتضبة بصفة الغائب وبأسلوب ولغة يختلفان عن باقي ما كتبه البيدق في مصنفه هذا، ومن المؤكد أن الفقرات التي تتضمن ذكر الحصون التي بناها المرابطون الواردة في هذه الإضافة كتبت من قبل كاتب مغمور يعرف بابن جواهر. وحسب عبد الوهاب بن منصور في كتابه أعلام المغرب العربي أن البيدق سجل مذكرات بعنوان: «كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب» لا يعرف منه إلا مختصره المسمى «المقتبس» يستعرض فيه نسب المهدي وأنساب الرجال السباقين إلى الأخذ بتعاليمه مع ذكر قبائلهم، بالإضافة إلى هذا الكتاب الذي سماه «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» موضوع هذه الترجمة.

ويشتمل على قسمين أحدهما خاص بدعوة ابن تومرت يتضمن رحلته إلى المغرب وظهور دعوته. والثاني يتحدث فيه عن حركة عبد المؤمن بن علي الكومي وتأسيسه الدولة الموحدية، أدرج فيه الغزوات التي انتصر فيها وحركات التمرد التي قضى عليها والفتوحات التي تمت على يديه مع ذكر طريقته في تصفية القبائل المعارضة له والتي يطلق عليها مصطلح «الاعتراف» أو التصفية الجسدية للمعارضين من رجال قبائل مصمودة، مع ذكر أسماء الأشخاص الذين أعلنوا العصيان عليه في كل من المغرب والأندلس.

سجل البيدق في كتابه هذا ما وصل إليه من أخبار وما شاهده من أحداث بأسلوب واضح ولغة بسيطة تتخللها عبارات عامية وكلمات بربرية، معتمداً في أغلب ذلك على الذاكرة مستعملاً في غالب الأحيان ضمير المتكلم عند روايته للخبر، وقد جاء وصفه مشحوناً بالخيال متصفاً بالحيوية متضمناً لتفاصيل دقيقة وأخبار لطيفة، وتميز عن غيره بإثباته لروايات من قبيل «المغيبات أو النبوءات» التي توحي بظهور أمر الموحدين وتدعو إلى اتباع دعوتهم.

هذا ويمكن لقارىء كتاب البيدق أن يتعرف علي شخصية محمد بن تومرت من خلال ما كتبه عنه إذ يصفه بالفقيه السنوسي، ويلقبه بالمعصوم، ويرسم له صورة متكاملة وشاملة أثناء رحلته من تونس نحو إقليم السوس بالمغرب الأقصى، وعن سلوكه ومعاملته للعامة وعلاقته بطلبته، وعن مناظراته مع الفقهاء ودعوته لقبائل مصمودة، كما يمكن للقارىء أيضاً أن يأخذ فكرة واضحة عن جهود عبد المؤمن بن علي في تأسيس الدولة الموحدية وبنائها، وذلك من خلال ما أورده عن غزواته وتصديه لمنافسيه وقضائه على أعدائه وإخضاعه لخصومه وفتحه لأقطار المغرب وطرده للنصارى من السواحل وفتحه للمهدية (محرم 555 هـ/1160 م).

يعتبر ما وصلنا من كتاب البيدق من المصادر الأساسية لتاريخ الموحدين فقد تضمن معلومات في غاية الأهمية تخص حالة المجتمع ونوعية الحياة وأوضاع القبائل وطبيعة التفكير. فعوضت بذلك مصنفات ابن اليسع وابن نخيل وابن الأشيرى التي ضاعت ولم يعرف عنها إلا ما أشار إليه ابن صاحب الصلاة أو ما ذكره ابن عذاري في كتابه المغرب، وابن القطان في كتاب نظم الجمان.

لقد عثر على ما وصلنا من كتاب البيدق «أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين» مع نبذ من مختصر كتابه الآخر وكتاب الأنساب في معرفة الأصحاب المعروف بالمقتبس، ضمن مخطوطات مكتبة دير سان لورانثو بالأسكوريال (إسبانيا) بخط الناسخ إبراهيم بن محمد الهَزَغي الذي نقلها سنة 714 هـ/1314 م، ونشرت أولاً بباريس 1929 من طرف المستشرق ليفي

بروفنصال، ثم أعاد إخراجها محققة بعناية المؤرخ عبد الوهاب بن منصور بالرباط (1971)، قبل أن يعيد نشرها مع التعليق عليها وتقديمها الأستاذ عبد الحميد حاجيات بالجزائر (1974).

المراجع المعتمدة:

- البيدق (أبو بكر علي الصنهاجي) كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق ليفي بروفانصال، باريس 1928.
- البيدق (أبو بكر علي الصنهاجي) كتاب أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر الجزائر، 1974.
- بورويبة (رشيد) ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.
- علام (عبد الله علي) الدعوة الموحدية بالمغرب، المعرفة، القاهرة، 1964.
- أعلام المغرب، الجزء الأول، ص ص 237 ـ 239.
- Lévi - Provençal (E). Doucuments inedits d'histoire almohade, Paris 1928.

محمد بن تومرت بقسنطينة وبجاية

وذلك أنه لما دخل سيدنا المعصوم قسنطينة نزل بها عند الفقيه عبد الرحمٰن الميلي ويحيىٰ ابن القاسم وعبد العزيز بن محمد، وكان أميرها سبع بن العزيز، وكان قاضيها قاسم بن عبد الرحمٰن، وكان الطلبة الذين (بها يأتون) المعصوم يقرأون عليه فلما كان في بعض الأيام سمع صوت مناد، وهو ينادي: هذا جزاء الحلّال، فقال المعصوم: ما هذا النداء فقالوا له: هذا حلال يأخذ أموال الناس ويدخل عليهم ليقتلهم فقال: ليس عليه سياط، إنما عليه القتل، ولكن يجزيه ذلك الضرب. فبينما هم كذلك إذ سمع منادياً ينادي: هذا جزاء أهل السرقة، فقال: يا قوم، تركتم الشرع، إنما يجب قطع اليد، فقالوا له: يا فقيه فما نصنع به؟ فقال لهم: إنما هذا الضرب يقوم له مقام قطع اليد بجهلكم، لأنه لا يجوز جمع حدين في ذنب واحد، ثم قال للسارق: تب، فقال يا فقيه أنا تائب لله تعالى بقلب صادق. فتاب على يد الإمام المعصوم وعلمه من شروط التوبة وبينها له، ثم قال لنا الإمام المعصوم رضي الله عنه: لتأخذوا على أنفسكم غداً إن شاء الله. فلما أصبح [الصباح خرجنا من قسنطينة لم نزل نجد السير حتى] دخلنا بجاية. وبالله التوفيق.

وذلك أن المعصوم رضي الله عنه لما دخل بجاية نزل بها بمسجد الريحانة، وكان ينهى الناس عن الأقراق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات للرجال، يقول: لا تتزينوا بزي النساء لأنه حرام، وكان يبيح الطيب للرجال والنساء، وكان الفقهاء يأتونه، الذين منهم محرز وإبراهيم الزيدوني، وإبراهيم بن محمد الميلي ويوسف بن الجزيري الجراوي وعبد الرحمٰن بن الحاج الصنهاجي القاضي. وذلك في شهر رمضان المعظم فلما كان يوم الفطر اختلط الرجال والنساء في الشريعة. فلما رآهم الإمام «رضي الله عنه» دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالاً حتى

بدّدهم فلما رآه ابن العزيز يفعل ذلك قال له: «يا فقيه لا تأمر السوقة بالمعروف وهم لا يعرفونه، فإني أخاف أن يأمروا فيك وتهلكهم، لا يستوي حر كريم مع شيطان رجيم» فسار الإمام «رضه» إلى ملالة، فلما رأوه بها قال له بنو العزيز: يا فقيه، نريد أن نبني لك مسجداً هنا. وقال لهم «رضي الله عنه»: «إن شئتم» فبنوا له مسجداً بها وأقبل الطلبة يصلون إليه من كل مكان.

فلما كان في بعض الأيام دخل المدينة حتى وصل باب البحر فأهرق بها الخمر فقال: «المؤمن تمار، والكافر خمار».

فرمى فيه اليد عبيد سبع وقالوا له: من أمرك بالحسبة، فقال: «الله ورسوله» ثم رجع إلى المسجد المذكور.

وهذا المسجد مبني عند دار برزيجن بن عمر المكنى (أبا محمد) الذي سماه المعصوم رضي الله عنه عبد الواحد. فكان الطلبة يقرأون العلم عليه، فإذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروب العجوز وهو أبداً ينظر إلى الطريق ويحرك شفتيه بالذكر. وذلك الموضع يعرف بخروب العجوز.

فبينما هو ذات يوم قاعد إذ سمعناه يقول: «الحمد الله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره» وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال: «الحمد لله على كل حال، قد بلغ وقت النصر، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، يصلكم غداً طالب، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره». فلما سمع الناس «غداً يصلكم طالب» حاروا في أمره. وذلك أن الحق تبارك وتعالى أزعج أمير المؤمنين الخليفة عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه من بلده نحو المشرق فجد حتى وصل بجاية هو وعمه يعلو...

اعلم يا أخي أنه لما جد السير نحو الإمام مع الطلبة في طريقه فاصطحب حتى بلغ باب المسجد فرفع المعصوم رضي الله عنه رأسه فوافقه إمامه، فقال له: ادخل يا شاب، فدخل، فأراد أن يقعد في جملة الناس. فقال له الإمام المعصوم رضه. أدن يا شاب، فلم يزل يدنو من الإمام والمعصوم يقربه حتى دنا منه، فقال له المعصوم: ما اسمك يا فتى فقال: عبد المؤمن. فقال له المعصوم: وأبوك

علي. فقال نعم، فتعجب الناس من ذلك. فقال له: يا شاب من أين إقبالك؟ قال له: من نظر تلمسان من ساحل كومية فقال له المعصوم: من تاجرا أم لا؟ فقال له: نعم، فزاد الناس تعجباً فقال له المعصوم رضه أين تريد يا فتى؟ فقال يا سيدي نحو المشرق ألتمس فيه العلم. فقال له المعصوم رضي الله عنه. العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب. فلما انصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف، فقال له المعصوم رضي الله عنه، تبيت عندنا يا شاب؟ فقال له: نعم يا فقيه. فبات عندنا. فلما جن الليل أخذ الإمام المعصوم بيد الخليفة رضي الله عنه، وسارا فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم: يا أبا بكر ادفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر، فدفعته له: وقال لي: أسرج لنا سراجاً. فكان يقرأه على الخليفة من بعده. وأنا يومئذٍ ماسك السراج أسمعه يقول: لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين. فبكى الخليفة عند سماع هذا القول، وقال يا فقيه، ما كنت في شيء من هذا، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي، فقال له المعصوم: إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك، ثم دفع له الكتاب وقال: طوبى لأقوام كنت أنت مقدتهم. وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم. أكثر من ذكر الله يبارك لك في عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر. ثم قال لي المعصوم رضي الله عنه: يا أبا بكر ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبهم. فلما أقبلوا ناداهم. فقال لهم: «إنما الله إله واحد، والرسول حق، والمهدي حق. والخليفة حق. فاقرؤوا حديث أبي داوود تعرفوا الأمر. وعليكم بالسمع والطاعة لربكم والسلام».

أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيذق

أخبار المهدي ابن تومرت

تحقيق ونشر عبد الحميد حاجيات،

الجزائر 1974 ص ص 34 ـ 42

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشريف الإدريسي
(ت حوالي 558 هـ/1163 م)

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي الحسني المكنى بالصقلي لإقامته بصقلية والمعروف بالشريف الإدريسي لانتسابه لأسرة الأدارسة الحمود ين التي حكمت مالقة على عهد ملوك الطوائف ودولة المرابطين (ق 5و6 هـ /11 و12م).

ولد الشريف الإدريسي بسبتة على الأرجح سنة 493 هـ/1100 م وتلقى تعليمه بمسقط رأسه ثم بفاس، بعدها مال إلى الرحلة وتجول في ربوع الأندلس فمكث مدة بقرطبة حيث واصل تعلمه ومر ببجانة والمرية ووصل إلى إشبونة (لشبونة) وجليقية (بسكونية) وسافر إلى الأرض الكبيرة أو بلاد الإفرنج (غاليا) وربما وصل إلى شواطىء إنكلترا الجنوبية، ثم طاف أرجاء المغرب فمكث بمراكش وفاس وتعرف على مكناسة وتلمسان وقسنطينة. ثم رحل إلى المشرق فزار مصر وبلاد الأناضول حيث وقف على خرائب إفسين (Ephese) مدينة أصحاب الكهف كما هو شائع) حوالي 510 هـ/1116 م وذلك قبل أن يتوجه إلى جزيرة صقلية ما بين 1130 و1140 ويستقر بها عند ملكها النرماني روجار الثاني (506ـ549 هـ/1112 ـ 1154 م) ويصبح من حاشيته والمقربين إليه مع مجموعة من علماء المسلمين بالبلاط النرماني، وهذا أما أشار إليه الصفدي (ت 794 هـ) في الوافي بالوفيات بقوله: «روجار ملك الإفرنج... استقدم الشريف الإدريسي... من العدوة إليه ليصلح له شيئاً في صورة العالم».

لقي الشريف الإدريسي الرعاية والحفاوة من الملك روجار الثاني وهذا ما جعل الإدريسي يخلص له ويثني عليه فيصفه بقوله: «وإن أفضل ما عنى به الناظر

واستعمل فيه الأفكار والخواطر محاسن الملك العظيم روجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية. . . أن هو من ملك الروم بسطاً وقبضاً. . .» وقد شجعه ذلك على البقاء بجزيرة صقلية التي طاب له المقام بها ووصفها بقوله: «إنها فريدة الزمان فضلاً ومحاسن ووحيدة البلدان طيباً ومساكن». وقد اشتغل الشريف الإدريسي أثناء مقامه بصقلية بالتأليف فواظب على تقديم خدماته العلمية لروجار ثم لابنه وليام، ومن المرجح أنه لم يغادر صقلية حتى وافته المنية حوالى سنة 558 ـ 560 هـ/ 1163 ـ 1166 م.

ترك الشريف الإدريسي عدة تآليف في البلدان والنبات منها« نزهة المشتاق» موضوع هذه الترجمة: «وجامع الصفات لأشتات النبات» الذي درس فيه كثيراً من النباتات وقارن بينها وعدّد خاصياتها الفلاحية وفوائدها الصحية، ومن تآليفه أيضاً «كتاب الأدوية المفردة» وكتاب سعادة الرجال وغبطة النفوس، وكتاب روض الأنس ونزهة النفس، وكتاب المسالك والممالك الذي قدمه لوليم الأول بن روجار الثاني عند توليه حكم صقلية. ولم تصلنا منه سوى أوراق قليلة توجد بمكتبه إسطانبول، بينما أغلب الكتب الأخرى التي سبق ذكرها تعتبر في حكم المفقود، وربما توجد أجزاء منها ضمن الكتاب الذي اشتهر به الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

يعتبر كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو الجغرافية الكلية أو صورة الأرض من الكتب الجامعة في الجغرافية الوصفية، ألفه الإدريسي بتشجيع من الملك روجار الثاني فنسب إليه وعرف بالكتاب الروجاري، وقد أشار الإدريسي إلى دور هذه الملك النرماني في تأليفه للكتاب قائلاً: «فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم دولته وأطاعته البلاد الرومية. . . أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة. . . ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً. . . مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون. . .».

أمضى الادريسي في إنجاز نزهة المشتاق عدة سنوات استفاد فيها من

التسهيلات التي وفرت له بالبلاط النورماني، وأنهىٰ تأليفها في شهر شوال 548 هـ/ 1154 م قبل وفاة الملك روجار بعدة شهور. ثم وضع لها بعد ذلك بفترة ملخصاً باللاتينية. وقد جاء هذا الكتاب (نزهة المشتاق) في شكل معجم جغرافي يتضمن سبعين خريطة إقليمية تنصب على شرح مجسم للأرض كروي الشكل على هيئة قرص عظيم صنع من الفضة الخالصة نقشت عليه الأقاليم السبعة بأقطارها ومعالمها حسب المنهج الذي اتبعه سترابون (Strabon) بحيث تأخذ الأقاليم شكل عروض متوازية ابتداء من خط الاستواء نحو الشمال. فتغطي القسم الشمالي المعروف آنذاك من الكرة الأرضية، وكل إقليم مجزء إلى عشرة أجزاء مرتبة من الغرب إلى الشرق ابتداء من الجزر الخالدات «كناري» هذا وقد وصف الإدريسي في مستهل نزهة المشتاق الأرض ـ مثل سترابون ـ بأنها كرة معلقة في الهواء حيث يقول: «كالمح في البيضة. دورها 22900 ميل» كما تطرق في سياق عرضه إلى خصائص الأقاليم والبحار والخلجان دون أن يهمل وصف سطح الأرض حسب أقسامه السبعة على شكل أحزمة عرضية متوازية فوق خط الاستواء، وقد ذكر ذلك حاجي خليفة في كشف الظنون بقوله: «نزهة المشتاق. . . رتّب على الأقاليم السبعة وأورد فيها أوصاف البلاد والممالك مستوفياً، وفي المسافات بالميل والفرسخ لكنه لم يذكر الأطوال (العروض)».

اعتمد الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق على مشاهداته الشخصية والأوراق الرسمية التي كانت بحوزته وتقارير المبعوثين من طرف الملك روجار لجمع المعلومات من بعض البلدان، كما رجع إلى العديد من كتب المسالك والبلدان المتوفرة لديه مثل كتب المسعودي والجيهاني وابن خرُداذْبة وابن حوقل واليعقوبي وقدامة البغدادي والعذري والكيماكي والقردي وبطليوس وإسحاق المنجم واورشيوس الأنطاكي وغيرهم، فجاء وصفه من حيث القيمة الجغرافية والدقة العلمية يختلف من إقليم إلى آخر لاختلاف مصادره وتنوع مراجعه. فالأقاليم التي زارها والمدن التي أقام بها والبلدان التي تجول فيها ذكرها بعبارات تدل على تعرفه عليها شخصياً بمثل قوله: «رأيت. . . شاهدت. . . والآن. . وفي هذا الوقت. . . وقيد تأليفنا هذا. . .» كما هو الحال بالنسبة لبلاد المغرب

والأندلس وجنوب إياليا وصقلية التي كان وصفه لها يتميز بصحة المعلومات ودقة الوصف، أما البلاد التي يحتمل أنه مر بها على عجل أو تعرف عليها عن بعد ولم يتوغل فيها مثل غالياً (بلاد الأفرنج) وإنكلترا واسكتلندا وإرلندا وشواطيء الشمال وسواحل البلطيق فكان وصفه لها أقل دقة وتفصيلاً. بينما البلدان التي سمع عنها مثل جرمانية وروسيا وبولندا والبلقان، أو قرأ عنها من مصادر متنوعة مثل بلاد المشرق الإسلامي وبيزنطة وأقاليم الصحراء والسودان، أو وصلت إليه عنها روايات مثل بلاد الشرق الأقصى ومجاهل إفريقيا، كان وصفه لها إما نقلاً حرفياً عمن سبقوه أو إثبات رواية أو عرض حكاية أو تسجيل خبر، وهذا ما أوقعه في بعض الأخطاء الجغرافية مثل قوله أن سواحل إفريقيا الشرقية تمتد إلى الشرق لتلتقي بالهند مما يجعل المحيط الهندي بحراً مغلقاً مثل البحر المتوسط. على أن هذا لا ينقص من قيمة كتاب نزهة المشتاق لما اشتمل عليه من معلومات دقيقة وقواعد علمية رائدة مثل ذكره لقانون الجاذبية بهذه العبارات الواضحة. «الأرض جاذبة مما في أبدانهم (المخلوقات) من الثقل بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد».

يعتبر كتاب الإدريسي نزهة المشتاق من أمهات الموسوعات الجغرافية الوصفية في العصور الوسطى لما تضمنه من تعريفات ومصطلحات وما اشتمل عليه من أعلام وأماكن. وقد اعتمد عليه العديد من الجغرافيين المتأخرين مثل الحسن الوزان «الأسد الافريقي» وابن سعيد المغربي، وأبو الفداء، وفضل الله العمري، كما رجع إليه الملاحون والمكتشفون في القرن الخامس والسادس عشر، ومن الراجح أن رواية الإدريسي عن الإخوة الثمانية المغرورين الذين توغلوا في المحيط الأطلسي من ميناء لشبونة ووصلوا جزراً نائية على السواحل الأفريقية «كناري أو الرأس الأخضر» كانت دافعاً للملاحين البرتغال على مواصلة رحلاتهم نحو الهند. . . هذا وقد كانت خارطة الإدريسي للأرض أساس المصورات الجغرافية الحديثة. فكانت منطلقاً لتطوير الخرائط وقد استرشد بها الجغرافي البندقي ما رينو سانوتو (1260 ـ 1338) في رسم معظم خرائطه المتميزة في عصره.

توجد عدة نسخ من نزهة المشتاق موزعة بالمكتبات العالمية (مثل باريس

وأكسفورد وأسطانبول والقاهرة) كما توجد نسخة مختصرة مطبوعة بروما 1592، وضعت لها ترجمة لاتينية (1619) بعنوان جغرافية النوبي (Géographia Nubiensis) بعدها تعددت الطبعات منذ 1799. وظهرت الترجمة الفرنسية الكاملة لها في جزأين (1840) التي أنجزها جوبير (Jaubert) اعتماداً على مخطوطة مكتبة باريس (1840 ـ 1836) ثم نشر القسم الخاص بإفريقيا الشمالية والأندلس محققاً مع ترجمة فرنسية (1864) وقد قام أخيراً المستشرق هنري بيريس بإصدار ما يخص بلاد المغرب بعنوان «وصف افريقيا الشمالية والصحراوية من نزهة المشتاق» ونشر بالجزائر 1957، كما أصدر نفس القسم محمد حاج صدوق مع ترجمة فرنسية ومقدمة وتعاليق ونشره بباريس 1983. هذا ويقوم حالياً المعهد الإيطالي للشرق الأوسط بروما، والمعهد الجامعي للدراسات الشرقية بنابلي (Instituto Universitario Orientalo di Napoli) بإصدار المجموعة الكاملة لأعمال الإدريسي اعتماداً على نزهة المشتاق، والجامع لأشتات النبات. في كراسات متتالية بعنوان تأليف جغرافي: (Opus Geographicum) ويقوم بإنجاز هذا العمل العالمي الذي بدأ سنة 1970 مستشرقون مشهورون بإشراف لجنة علمية مؤلفة من تودي (G. Tuddi) وسوريلي (E. Ceruli) وليفي دالافيدا (Levi Della vida) غابريالي (F. Gabrieli) بومباتشي (D. Bombaci) فاكشيا (L. Veccia Vaglieri) وقد صدر من هذا العمل الأكاديمي الموسوعي إلى حد الآن خمسة كراسات بنصها العربي وتعاليقها الإيطالية.

المراجع المعتمدة:

- الإدريسي (أبو عبد الله محمد الشريف) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، «قسم من نزهة المشتاق»، نشر هنري بيريس، منشورات جامعة الجزائر، 1957.
- الإدريسي، (أبو عبد الله محمد الشريف)، المغرب العربي «قسم من نزهة المشتاق»، حققه بالعربية وترجمه إلى الفرنسية محمد حاج صدوق، منشورات الجنوب، باريس، 1983.
- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة، 1982.

- ابن سعيد المغربي، (أبو الحسن) كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، ط 2، 1982.
- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 313 ـ 315.
- إسماعيل، (العربي)، الشريف الإدريسي وكتاب نزهة المشتاق، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 58/1980، ص ص 61 ـ 82.
- تاريخ الأدب العربي، ص ص 303 ـ 326.
- عنان، (عبد الله)، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970، ص ص 305 ـ 314.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص 165 ـ 280.
- المنوني (محمد) حضارة الموحدين، سلسلة المعرفة التاريخية، نشر دار توبقال، الدار البيضاء 1989 ص ص 57 ـ 61.

- Jaubert (A.) Géographie d'Edrisi, traduit de l'arabe, Paris, 1836 - 1840
- Lelewel (J.) Géographie de Moyen - Age, Bruxelles, 1852.
- Nakli (M.) La Géographie et le géographe Idrissi, in Ibla, Tunis, 1942 pp. 153 - 157.
- Oman (G.) Al. Idrissi, in Enyclopédie de l'Islam, nouvelle ed. Paris - Leide, 1975, T. III pp. 1058 - 1061.
- Tuulio (O. J. T.) Du nouveau sur Idrissi, Helsinki, 1936.

وصف مدينة بلرم

إن في هذه الجزيرة (صقلية) عند تأريخ هذا الكتاب لسلطانها الملك المعظم روجار مائة بلد وثلاثون بلداً بين مدينة وقلعة غير ما بها من الضياع والمنازل والبقاع ونحن نريد أن نذكر بلدان الجزيرة البحرية منها خاصة ونقتصر عليها ونكتفي بها عما سواها إلى أن نرجع من حيث بدأنا ثم نأخذ بعد ذلك في ذكر ما في حشو الجزيرة من البلاد والحصون والعمل الواسع المسكون مكاناً مكاناً وموضعاً موضعاً بحول الله تعالى.

فأول ذلك مدينة بلرم وهي المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى. والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا وإليها في المفاخر النهاية القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك في الزمن المؤتنف والسالف. ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هي عليه الآن من ذلك وهي على ساحل البحر منها في شرقيها والجبال الشواهق العظام محدقة بها. وساحلها بهيج مشرق فرج ولها حسن المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها. ودقائق صناعتها وبدائع مخترعاتها.

وهي على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة. فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيعة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات، وحوانيت التجار الكبار، والسماطان الباقيان فيهما أيضاً قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الحمامات والفنادق كثير وبها الجامع الأعظم الذي كان في الزمن الأقدم وأعيد في هذه المدة على حالته كما كان في سالف الأزمان وصفته الآن تغرب في الأذهان لبديع ما في الصنعة والغرائب المفتعلة المنتخبة المخترعة من

أصناف التصوير وأجناس التزاويق والكتابات.

وأما الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة التي بها كان سكنى السلطان والخاصة في أيام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التي هي للإنشاء.

والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنتزهاتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالجملة فتنة للناظرين.

والقصر المذكور من أكثر الحصون منعة وأعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا يطاق على حال وبأعلاه حصن محدث للملك المعظم روجار مبني بالفصوص الجافية والصخور المنحوتة الضخمة وقد أحكم نسقه وأعليت رقه وأوثقت منائره ومحاريسه وأتقنت قصوره ومجالسه وشيدت ونمقت بأعجب المغتربات وأودعت بدائع الصفات فشهد لها بالفضل المسافرون وغلا في وصفها المتجولون وقطعوا قطعاً ألا مباني أعجب من مباني المدينة ولا مكان أشرف من مغانيها وأن قصورها مشارف القصور وأن ديارها منازه الدور.

والربض المحدق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو في ذاته كبير القطر كثير الديار والفنادق والحمامات والحوانيت والأسواق وله سور يحيط به وخندق وفصيل وبه في داخله بساتين كثيرة ومتنزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة إليها من الجبال المحدقة ببقعتها وبخارج الربض من الجهة الجنوبية منها نهر عباس وهو نهر جار عليه جُمل من الأرحاء الطاحنة ما لا يحتاج معها إلى غيرها.

أبو عبد الله محمد الحمودي الحسن المعروف بالشريف الإدريسي

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

المجلد الثاني، دار المناهل للطباعة

مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994 ص ص 590 ـ 592

أبو الربيع سليمان الوسياني

(ق 6 هـ/12 م)

أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله الوسياني من قبيلة بني وسيان الزناتية بإقليم قسطالية من بلاد الجريد التي اشتهرت بعلمائها الإباضيين أمثال أبي محمد ماكسن بن الخير الجرامي الوسياني (ت 491 هـ/1097 م) وأبي عبد الله بن زوزرتن الوسياني وأبي عبد الله مزين الوسياني وأبي عمران موسى الوسياني.

لا نعرف عن حياة أبي الربيع الوسياني إلا ما سجله في سيره أو ذكره الشماخي والدرجيني في تراجمهم لرجال الإباضية، من أنه ولد بجبال نفوسة التابع لمقاطعة قسطالية وعاش بمواطن قبيلة بني وسيان أثناء القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، حيث أخذ العلم عن الشيوخ الإباضيين وفي مقدمتهم أبو عبد الله بن محمد العاصمي اللواتي تلميذ الشيخ أبي محمد ماكسن الجرامي، واستمع إلى أخبار رجال الإباضية من الرواة وحافظي الأخبار بناحية الجريد. فعرف باطلاعه الواسع على مآثر الإباضية، وقد ذكر عنه ذلك الشماخي في قوله: «أبي الربيع سليمان الوسياني أحد شيوخ الحلق الكبار الحافظ للسير والآثار الذي رويت عنه التواريخ والأخبار... ولم تفته سيرة لأهل الدعوة في كل عصر من الأعصار وجملة أوصافه باختصار» وأشار إليه الدرجيني في طبقاته ضمن علماء المائة السادسة (550 ـ 600) بنفس العبارات: فقال عنه «أحد شيوخ الحلق الكبار الحافظ للسير والآثار الذي رويت عنه التواريخ والأخبار، له تأليف سير حسن...».

عرف أبو الربيع الوسياني بكتابه سير تاريخ المغرب الذي ضمنه تراجم وأخبار الإباضية. وقد بين الهدف من كتابه بقوله: «وقد قصدنا في هذا الكتاب

إلى إيضاح ما انتهى إلينا سير أوائلنا وأسلافنا ومن أدركنا منهم وما بلغنا من لم ندركه من المناقب الكريمة والمراتب الشريفة والمنتخب من الفعل والمنتحل من القول رحمة الله عليهم. . .» ومما يؤكد حرصه على أن يكون كتابه حافظاً لتراث أجداده ومنهاجا للخلف في الاقتداء بالسلف الصالح قوله: «فإني نظرت إلى الآثار قد أمحت وإلى أخبار دعوتنا قد انطمست فأحببت أن أؤلف لكم منها كتاباً مما بلغني وصح عندي ولم يخالجني فيه شكوك. فاعتبروا بمن مضى وانتفعوا بما يتلى عليكم وتشبهوا به من مناقب الأخيار ومراتب الأبرار وفضائل أولي النهي»:

يتألف كتاب أبي الربيع الوسياني من ثلاثة أجزاء كل جزء منها يبدأ بخطبة وينتهي بخاتمة. وقد ثبتت صحة تأليفه الجزء الأول بينما يرجح أن يكون الجزء الثاني من تأليف أحد تلاميذه، بينما من المحتمل أن يكون الجزء الثالث مأخوذاً من كتاب سير أبي زكريا بن أبي بكر. وهذا ما يجعلنا نركز في ترجمتنا لسير مشايخ المغرب للوسياني على الجزء الأول والثاني ونهمل الثالث الذي نسب خطأ للوسياني.

استهلّ الوسياني الجزء الأول من كتابه بقوله: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبتوفيقه تنمو المرمات. . .» وأدرج فيه أحاديث وروايات وحكايات ومسائل وقصصاً وفتاوى مما يجعل محتواه أقرب إلى تسجيل الخبر بهدف الوعظ والإرشاد منه إلى سرد التاريخ والسير. وهو سجل لتراث الإباضية وعرض لمآثرها وتنويه بآدابها، فمن الروايات التي وردت في الجزء الأول أخبار ابن عثمان الدمجي الزناتي. وأبي مهاجر موسى بن جعفر، وخليل هال الدركي، وأبي ذربان بن وسيم، ونملي الوسياني وأبي نوح سعيد بن يخلف المزاتي. وأبي يعقوب يوسف النفوسي. ومحمد بن يانس النفوسي، وأبي عبد الله محمد بن سليمان النفوسي. وأبي عمران موسى وولده، هارون وأبي موسى يزيد وولده وطوسة امرأة أبي عبد الله. والشيخ سيعد بن يخلف وأبي باديس. والشيخ معاذ وولده إبراهيم وابنته عائشة، وأبي موسى عيسى بن السمح الزواغي. وزورع وسارة اللواتية، هذا بالإضافة إلى مسائل فقهية وقضايا اجتماعية مثل التَلَحّي وحُكم صلاة الوتر والدعاء ومجانبة الريب والتعاون والتأبين وكيفية التوبة والنهي عن كتب الخلاف والابتلاء بعد النعم وصفة الأئمة وغيرها.

وقد حاول أبو الربيع الوسياني ترتيب أخباره حيث أشار إلى ذلك بقوله: «وأبدأ في ذلك برواية أهل دعوتنا من أهل الجبل ونفوسة ممن انتهى إليّ ذكرهم ومناقبهم. . .» لكنه لم يستطع التقيد بذلك فجاء كتابه خليطاً من الروايات المتعلقة بأخبار رجال الإباضية والمسائل والقضايا الفقهية والحكايات والنوادر الأدبية والاجتماعية، فتغلب عليه التقييد العفوي والسرد التلقائي دون اعتبار للترتيب الزمني ولا لنوعية المعلومات والمضامين شأنه في ذلك شأن جلّ كتاب عصره. على أن ما يحمد عليه حرصه على تسجيل ما يراه صدقاً ويعتقده حقاً. وهذا ما ذكره بقوله: «فأحببت أن أؤلف لكم منها «الأخبار» كتاباً مما بلغني وصح عندي ولم تخالجني فيه الشكوك» وهو مع ذلك يقر بأن أخباره قد تكون ناقصة وغير دقيقة، فهي حسب قوله: محاولة: «أردت فيها السلوك لمناهجهم لما عند الله مالك الملوك على ضعفي وقلة علمي وأن الأول لم يترك للآخر ما يقول» وعندما يراوده الشك في الأمر ولا يثق في رواية الخبر يعقب على ما سجله بقوله: «الله أعلم» مما يؤكد لنا صدقه فيما أورده من أخبار.

أما الجزء الثاني من كتاب الوسياني والذي قد يكون من وضع أحد تلاميذه فيتضمن مسائل مختلفة وفصل في أخبار متفرقة ملتقطة آخرها قصة مكان سمّي جغراب، بالإضافة إلى سير بعض أعلام الإباضية وهم: أبو محمد عبد الله بن مانوم اللماتي، وأبو محمد، وسيلان الدمجي، وأبو جعفر بن خيران الحامي، وأبو الخطاب ابن أبي وزجون وأبو صالح تابركيث الياجراني، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

يعتبر كتاب سير المشايخ للوسياني من مصادر تراث الإباضية. فهو حلقة وصل بين ما كتبه ابن الصغير وأبو زكريا وما سجله الشماخي والدرجيني. فتأثر بمن سبقوه وأثر فيمن جاءوا بعده. فمن الراجح أن الشماخي قد اقتدى به في سير مشايخ الإباضية في جبل نفوسة (ق 10 هـ/16 م) ولعل أهمية كتاب الوسياني تكمن في كونه وثيقة تاريخية تدخل في إطار كتب السير المنقبة والفتاوى، التي ترسم صورة حية للحياة اليومية وأحوال المجتمع الإباضي بمناطق الجريد، بما فيها من صراعات قبلية ومناظرات علمية وحلقات تعليمية وأعمال تجارية وصناعية

وآداب وتقاليد محلية ومعاملات وأحكام شرعية من خلال دور العلماء وتأثيرهم على حياة مجتمعهم.

توجد عدة نسخ مخطوطة من سير مشايخ المغرب للوسياني قام بتحقيق إحداها مؤخراً الباحث الجزائري إسماعيل العربي وصدرت له ثلاث طبعات الأولى ضمن منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية (1979) والثانية من إصدار دار الغرب الإسلامي ببيروت 1983 والثالثة تولى نشرها ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر1984. اعتماداً على نسخة خطية من نسخ الحاج سعيد بن بانو بتاريخ 1278 هـ. ومما يلاحظ أن الأديب الجزائري محمد ناصر شكك في صحة نسبة هذه النسخ للوسياني وذهب إلى حد القول بأن ما نشر هو في الواقع الجزء الثاني من كتاب السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكريا الورجيلاني.

المراجع المعتمدة:

- الوسياني (أبو الربيع)، سير مشايخ المغرب، تحقيق وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
- زغلول (عبد الحميد سعد)، هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب، دراسة لكتاب السير، منشورات أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، الجامعة التونسية، الجزء الأول، تونس 1979. ص ص 51 ـ91.
- الشماخي، كتاب السير، نسخة مطبوعة طباعة حجرية، القاهرة، 1301.
- الدرجيني (أبو العباس)، طبقات مشايخ المغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، د، ت.
- ناصر، (محمد)، مخطوط سير مشايخ المغرب للوسياني، جريدة الشعب الملحق الثقافي، 9 مارس، 1989 ص 3.
- باجية، (صالح)، الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، تونس، 1976 ص 205.
- تراجم المؤلفين التونسيين الجزء الخامس، ص 141.
- تاريخ الأدب العربي، ج 6 ص 94.
- Lewicki (T.) Etudes Abadites Nord - Africaines, 2 vols Warsow, 1899.
- Brunschwig, Le Bérberie Orientale sous Les Hafsides T II. 756.

ذكر أخبار أبي الخطاب عبد السلام بن منظور بن أبي وزجون

فلما عزم الشيخ أبو عبد الله على الرحيل، سرحه الله بتلاميذه، وانتقل بتلاميذه إلى آريغ. فعزموا فيه عزماً شديداً جيداً مواظباً برهة من الدهر، وكان فيهم عبد السلام وقال له أبو عبد الله كن معي يا عبد السلام. فإن مثل من يرفع الناس إليه حوائجهم ويدعو، مثل من كان في الحرب، لا غنى له عما يرعاه ويحرسه ويؤيده ويمده ويرفعه ويدعمه ويداوي جراحته ويسوي خلله، وإلا كان [هلاكه] وشيكا.

فأجابه إلى ذلك وزوجه أبو القاسم ابنته، فمكث في ذلك ما شاء الله ثم طلع إلى أهله في مزاته، فلما وصل إليهم قالوا له، لم تتركنا؟ امكث معنا كما فعل والدك فتحيينا كما أحيانا، فإنا لا غنى لنا عنك، فأجابهم إلى ذلك. فزوجوا له زينب بنت أبي الحسن. . .

فرجع إلى أهله وكان معهم حتى قامت به ظعائن زناته إلى ناحية طرابلس فكانوا فيها ما قدر الله حتى انهزمت منها زنانة، فطلع عبد السلام إلى جبل نفوسة.

وذكر لنا أنه من الجبل سار إلى الحج، فلما رجع انتقل إلى قسطالية من الجبل فنزل قلعة درجين، وكان كثيراً ما يقول لزينب امرأته: يوشك أن يغلب بنو العم على بناتك يا زينب، وكان كثير البنات، فكان في ذلك حتى حل على أهل طرابلس سنة شديدة تسمى «فروراو» فانجلى الناس وتفرقوا ووقعوا في الجزائر، وذلك في سنة ثلاثين وأربعمائة (430هـ) من التاريخ كما ذكر لي.

ثم إنه طلع إلى أهله من مزاتة، هو وختنه، فخالفه عسكر صنهاجة إلى القلعة فكسروها، وذلك سنة أربعين وأربعمائة من التاريخ، ولما كسروها خرجت زينب تنادي الجيش، يا أهل مزاته! فأجابها رجل من مزاته، فقام إليها وحماها، حتى

خلصها وبناتها لم ينكشفن.

فقدم عبد السلام. فشخص بأهله من القلعة إلى أسوف، فسمعت بنو ورتيزلي بخبره. فسارعوا إليه بالحمولات فحملوه إلى أجلو فمنحوه أرضاً كبيرة، وولد له هناك سعيد مع الورغمية، فلما بشر به، قال: ولد للشيخ يتيم.

وجاء أبو عبد الله محمد بن بكر، رحمه الله، في آخر أيامه يزوره عند احتضاره فقال له، وهو في النزع والسياق، إلى من تتركني يا أخي، فقال له: الدعاء، الدعاء فرددها حتى حشرجت بها صدره وفاضت نفسه إلى رحمة الله و(كان) نزوله إلى أريغ رحمه الله. سنة تسع وأربعمائة ولذلك يدعى الغار الأول الذي في أجلو خلف قصر بني توبة «التسعي».

وذكر يونس بن أبي الحسن رحمه الله أن عبد السلام، كان يقول إنما مثلي كمثل رجل سار في يوم ذي حر شديد، فرفعت له شجرة فتوجه نحوها ليستظل تحتها، فلما أتاها، انفعلت وزالت.

قال أبو الربيع. اشترى عبد السلام خرفاناً في السوق من إفريقية، فجاءه صاحبها ليأخذ الثمن. فقال له: «ذأر» بلغة صنهاجية، ومعناه هات فاستراب كلامه وخشي أن يكون من صنهاجة، فدفع له الثمن وتصدق بالخرفان والحملان.

أبو الربيع الوسياني، سير مشايخ الغرب.
تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، دار المطبوعات الجامعية
الجزائر، 1985، ص ص 24 ـ 27

أبو الحسن محمد بن جبير
(ت 614 هـ/ 1217 م)

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، ولد ببلنسية حوالي سنة 540 هـ/ 1145 م وتعلم بشاطبة على يد أبيه ثم وسع ثقافته بما أخذه عن علماء الأندلس والمغرب والمشرق. فأخذ عن العديد من شيوخ عصره مثل أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن بن أبي العيش وأبي الحجاج بن يسعون وأبي عبد الله بن عيسى السبتي وأبي إبراهيم إسحاق الغساني التونسي وأبي الوليد بن سيكة وغيرهم.

عرف ابن جبير بثقافته الواسعة في العلوم الشرعية والنقلية، وبملكته في الأدب، وهذا ما دفع العديد من علماء عصره إلى أن يتصلوا به ويستمعوا إليه في مختلف البلاد التي زارها. فقد أخذ عنه علماء أجلة مثل إسحاق بن مهيب وأبي الحسن بن نصر البجائي. والحافظ أبي محمد المنذري. والحافظ أبي الحسن القرشي في مصر، وغيرهم، وأقرضه الكتاب المتأخرون عنه مثل لسان الدين بن الخطيب الذي ذكره في الإحاطة بقوله: «إنه كان أديباً بارعاً وشاعراً مجيداً. . . فاضلاً، وأنه من علماء الأندلس في الفقه والحديث والمشاركة في الأدب» وقال عنه أحمد المقري في نفح الطيب أنه: «عني بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال فيها دنيا عريضة. . .».

عمل ابن جبير في شبابه كاتب سر عامل غرناطة الموحدي بسبتة الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن لمدة سنتين، بعدها عزم على أداء فريضة الحج وفاء لنذر كان قد أخذه على نفسه وتلبية لرغبة جامحة في التعرف على الأماكن المقدسة، وقد عبر عن ذلك نظماً إذ قال:

طال شوقي إلى بقاع ثلاث ... لا تشد الرحال إلا إليها
إن للنفس في سماء الأماني ... طائراً لا يحوم إلا عليها
قص منه الجناح فهو مهيض ... كل يوم يرجو الوقوع لديها

وكانت حجته الأولى سنة 578 ـ 581 هـ/1182 ـ 1185 م بعدها تكرر سفره إلى المشرق بغرض أداء فريضة الحج أيضاً وكان ذلك في 585 هـ/و601 هـ وهذا ما أكده لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة بقوله: «رحل ثلاثاً من الأندلس إلى المشرق وحج في كل واحدة منها...» وقد أقام في الاسكندرية بعد الحجة الأخيرة مشتغلاً بتدريس الحديث معتكفاً للعبادة عنه حتى وافته المنية هناك في 27 شعبان من عام 614 هـ/1217 م.

اشتغل ابن جبير بالأدب وترك العديد من الرسائل النثرية والقصائد الشعرية في مختلف المواضيع والأغراض منها مجموعة سمّاها: «نتيجة وجد الجوانح في تأمين القرين الصالح». وأخرى أطلق عليها «نظم الجمان في التشكي في أحداث الزمان» ومن جميل شعره في الحكم قوله:

عجبت للمرء في دنياه تطمعه ... في العيش والأجل المحتوم يقطعه
يغتر بالدهر مسروراً بصحبته ... وقد يتفق أن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصا لا يفارقه ... وقد درى أنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه ... وليس يشفق من دين يضيعهُ
وأسوأ الناس تدبيراً لعاقبة ... من أنفق فيما العمر ليس ينفعه

وكذلك قوله في التشوق إلى الوطن:

لا تغترب عن وطن ... واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن إذا ... ما فارق الأصل ذوى

اشتهر ابن جبير برحلته «تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار» التي سجل فيها ما عرض له في سفره إلى المشرق منذ أن غادر غرناطة في 8 شوال 578 هـ/3 فيفري 1182 م) وإلى أن عاد إليها بعد سنتين وثلاثة أشهر ونصف (يوم الخميس 22 محرم 581 هـ) وقد بدأ ابن جبير في تقييد رحلته على متن

السفينة قبالة جبل شلير، وكان ركوبه البحر من جزيرة طريف في اتجاه الجزائر الشرقية (البليار) بمحاذاة سواحل الأندلس ومنها إلى سردانية ثم صقلية ثم كريت فالإسكندرية التي وصلها بعد ثلاثين يوماً، في 29 ذو القعدة من نفس السنة.

تعرف ابن جبير على مدينة الإسكندرية وأبدى إعجابه ببناءاتها ومساجدها ثم انتقل منها إلى القاهرة حيث شاهد عن كثب مآثرها العمرانية من مدارس ومساجد وجسور وقلاع وتعرف على بعض علمائها مثل نجم الدين الحبوشاني شيخ المدرسة الناصرية، ثم توجّه عبر نهر النيل إلى قوص ماراً بأسيوط وقنا، ومن قوص عبر الصحراء نحو عيذاب ثم عَبَرَ البحر الأحمر إلى جدة، ومنها قصد مكة المكرمة فوصلها في 13 ربيع الثاني 579 هـ، حيث أقام بها نصف سنة أدّى أثناءها مناسك العمرة والحج، وقد عبر عن غبطته ببلوغ قصده بأشعار جميلة منها هذه الأبيات:

أقول وقد آنست بالليل نارا	لعل سراج الهوى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى	فإن سنا البرق فيه استطارا

ومنها أيضاً قوله:

بلغت المنى وحللت الحرم	فعاد شبابك بعد الهرم
وأهلا بمكة أهلا بها	وشكراً لمن شكره يلتزم

غادر ابن جبير مكة المكرمة نحو المدينة المنورة فزار المسجد النبوي ووقف على مآثر الإسلام ثم غادرها مع ركب حجيج العراق وخراسان، فوصل بلاد الرافدين في 8 محرم 580 هـ/25 افريل 1184 م. وتعرف على مواقع القادسية ونزل الكوفة ثم الحلة وشاهد المدائن، قبل أن ينزل ببغداد ويمكث بها ثلاثة عشر يوماً تعرف أثناءها على معالمها وقد هاله انكماش العمران بالعراق في السنوات التي سبقت اجتياح المغول. فذكر الكوفة بقوله: «مدينة كبيرة عتيقة البناء، قد استولى الخراب على أكثرها الغامر منها أكثر من العامر». . وقال عن بغداد أنها: «وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية. . . فقد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسمها. . .».

ترك ابن جبير بغداد في 15 صفر 580 هـ/28 ماي 1184 م، وتوجه مع ركب حجيج الموصل نحو الشمال. فمر بسامراء ثم تكريت. وبعد التعرف على الموصل قصد إقليم الجزيرة ومنه إلى حلب. فذكر محطات الطريق الذي مر به وهي: نصيبين ودارا، وماردين، ودنيصر، ورأس عين، «منبع الخابور» وحران، وسروج على الفرات، وقلعة نجم أو جسر منبج، وهي داخل حدود مملكة صلاح الدين الأيوبي الشرقية. والرطبة، والبزاعة، والباب، ومن حلب قصد دمشق، فمر في طريقه على قنسرين، وتل تاجر، وباقدين، وتمنى، والمعمرة، وحماة، والرستن، وحمص، وسائر سفوح جبل لبنان،... وبعد إقامة بدمشق توجه ابن جبير إلى عكا بنية العودة إلى الأندلس بحراً، وعنه ما تعذر عليه السفر توجه نحو صور لكنه فضل العودة إلى عكا ليستقل إحدى السفن الجنوية المخصصة لركوب الحجاج المسلمين والنصارى، فركب البحر في 10 رجب 1580 هـ/ 18 أكتوبر 1184 م نحو صقلية التي كانت تحت حكم النرمان، فنزل مرسى مسينا ومنه انتقل براً إلى ميناء اطرابنش (Trepanes) عبر محطات شفلودي وثرمة وبالرمة وعلقمة وحصن الحمة فسجل معلومات في غاية الأهمية تخص أوضاع صقلية وحالة المسلمين بها، بعد ذلك واصل سفره بحراً من اطرانبش إلى قرطاجنة بالأندلس، ومنها سافر نحو غرناطة عبر مرسية ولبرالة ولورقة والمنصورة وقنانش (Caniles)، ليلقي عصا الترحال في 22 محرم 581 هـ/25 أفريل 1184 م.

تميز ابن جبير فيما سجله في رحلته (تذكرة بالأخبار) بصدق الرواية ودقة الوصف وتتبع الخبر والتحقق من الرواية. فجاءت مشتملة على معلومات في غاية الأهمية وعدت من أقيم الرحلات الأندلسية وأمتعها من حيث المحتوى والأسلوب، فكانت تعبيراً صادقاً عن شخصية بن جبير ونظرته إلى الحياة وموقفه من الناس، فهو رجل طيب القلب متفتح الذهن، ينزع إلى الجانب الخير من الحياة والمجتمع. والناس عنده فيهم الصالح والطالح، ولعل هذا سر اعتداله واتزان أحكامه، وابتعاده عن النقد القاسي بعكس الجبوري في رحلته التي كان فيها ناقداً لمجتمعه رافضاً لواقع عصره، ولهذا كانت رحلة ابن جبير مصدراً أساسياً للتعرف على مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالمشرق في القرن

السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، سواء فيما يتصل بالعادات والتقاليد وتصرف الحكام والأمراء وسلوك الرعية وموقف العلماء. أو فيما يتعلق بالمعاملات التجارية والإجراءات الجمركية وطرق بناء السفن وتحديد خط سير القوافل وموانىء رسو السفن ومراكز العمران، وقد شد انتباهه وأثار فضوله منار الإسكندرية، وأهرامات القاهرة، والجامع الأموي بدمشق، ونفط القيارة بالعراق الذي شبه مادته بـ«الصلصال الأسود المصقول اللزج» كما أبدى إعجابه بعمران عكا ووصفها بأنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام مرفأ كل سفينة والمشبه في عظمتها بالقسطنطينية» وشدت انتباهه أيضاً الحركة التجارية النشطة بين الشرق الأقصى وأوربا عن طريق البحر الأحمر ومصر التي كانت أساس قوة وازدهار الدولتين الفاطمية والأيوبية ومما جاء في وصفه للقوافل التي تربط بين النيل وعيذاب على البحر الأحمر والمعروفة بالقوافل العيذابية ما يلي: «محملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب. . . من أحمال الفلفل، فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة. . .» كما علق على سلوك أهل الحجاز مع الحجيج قائلاً: «أهل الحجاز كانوا يعتبرون الحجاج من أعظم غنائمهم التي يستغلونها فينتهبونهم انتهاباً بأنواع المكوس. . فالحاج لا يزال في غرامة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه». . كما أثارت تعجبه طبيعة المعاملات التجارية السلمية بين المسلمين من رعايا مملكة صلاح الدين وبين سكان مملكة الصليبيين رغم الحروب السائدة آنذاك، وهذا ما أشار إليه بقوله: «من أعجب ما يحدث به نيران الفتنة مشتعلة بين الفئتين مسلمين ونصارى، واختلاف القبائل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك. وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض. . . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب، هذه سيرة هذه البلاد. . .».

حظيت رحلة ابن جبير باهتمام المستشرقين فصدرت لها ترجمة بالفرنسية «القسم الخاص بصقلية» سنة 1846 م، ثم نشرت من طرف المستشرق الأنكليزي وليم رايت (طبعة ليدن 1852 ثم قام بمراجعتها ونشرها ضمن سلسلة جب

التذكارية المستشرق الهولندي دي خويه، ليون (1907). بعد ذلك تعددت طبعاتها بالعربية، فكانت من أهمها الطبعة التي وضعها محمد مصطفى زيادة، وطبعة القاهرة 1956 المحققة من طرف الأستاذ حسين نصار.

المراجع المعتمدة:

- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 316 ـ 318.
- ابن جبير، (أبو الحسن محمد)، الرحلة، ط دار الشروق العربي، بيروت 1950. ط دار الهلال بيروت 1986.
- ابن جبير (أبو الحسن محمد)، تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار، اعتنى بها ونشرها حسين نصار القاهرة 1955.
- الإحاطة، ص ص 168 ـ 174.
- الشهابي (مصطفى) الجغرافيون العرب القاهرة 1962 ص ص 71/76.
- عروج، (يوسف)، وقفة مع الرحالة ابن جبير الأندلسي (539ـ614هـ) في رحلته المدونة، مجلة معهد اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر العدد 1/1992 ص ص 137 ـ 157.
- عنان، (محمد عبد الله)، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1970، ص 328 ـ 337.
- نفح الطيب، ج 1، 2، 3، 4، صفحات عديدة.
- نظم الجمان، ص171.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 332 ـ 375.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص 429 ـ 452.

ابن جبير يصف بلاد الشام زمن الحروب الصليبية

دمشق جمادى الأولى (580 هـ/1184 م).

ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين فئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم. ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم.

شاهدنا في هذا الوقت الذي هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى وهو المعترض في طريق الحجاز، والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلاً، وهو سرارة أرض فلسطين. وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان. وضيق عليه وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم منهم ولا يعترض.

وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على عناية وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. . .

من دمشق إلى عكا جمادى الأخيرة (580 هـ/1184 م).

وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين، وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة، هي أم الملك الخنزير صاحب عكة، دمرها الله، فكان مبيتنا أسفل ذلك الحصن. ومكس الناس تمكيساً غير

مستقصي. والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون. وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً.

وأكثر المتعرضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الأفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الأفرنج: أن هؤلاء المغاربة يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرد لهم شيئاً. فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم. ويخفف عنته عنهم...

وليتحقق المحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها، كما أنه لا عول ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين. أعزهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طوائف من الظلم لم يسمع بمثلها، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين، الذي قد ذكرنا سيرته ومناقبه، لو كان له أعوان على الحق... مما أريد الله عز وجل يتلافى في المسلمين بجميل نظره ولطيف صنعه.

أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير البلنسي،
رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك
نشر لجنة تحقيق التراث ط دار مكتبة الهلال
(طبعة جديدة ومنقحة) بيروت، 1986 ص ص
49 ـ 50، 234 ـ 235، 246 ـ 247

أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي

(ت حوالي 628 هـ/ 1230 م)

أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، ولد بسوق حمزة (البويرة حاليا) حوالي سنة 548 هـ/1150 م. في عهد الناصر بن علناس الحمادي، تلقى تعليمه بقلعة بني حماد ثم تحول إلى بجاية ليأخذ العلم عن مشاهير العلماء بها أمثال المتصوف أبي مدين شعيب الإشبيلي، والمحدث عبد الرحمٰن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي، والإمام أبي علي المسيلي الملقب بحامد الصغير، وميمون بن جبارة، وأبي العباس بن ميسر، بعدها طاف ابن حماد ببلدان المغرب وتعرف على أهل العلم بها. واختلف إلى بعض مدارسها، فمكث مدة بمدن الجزائر وتلمسان وفاس ثم عبر المضيق نحو الأندلس، وحضر مجالس التدريس بحواضرها فبلغ عدد قراءاته 222 مؤلفاً أخذها كلها بالسند المتصل بأصحابها وقد أهلته معارفه الفقهية وثقافته اللغوية أن يتولى القضاء بالجزيرة الخضراء لفترة. تحول بعدها إلى سالا بالمغرب لتولي شؤون القضاء سنة 613 هـ/1216 م وظل بها حتى وافته المنية بَعْد ما انتقل إلى مراكش في عهد المنصور الموحدي عن عمر يناهر الثمانين سنة. ما بين سنتي 617 هـ/1220 م. أو 628 هـ/1230 م.

اشتهر ابن حماد باطلاعه الواسع على العلوم الفقهية والفنون اللغوية فكان عارفاً بالتفسير والقراءات ومصطلح الحديث وعلم الأصول وقواعد اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب والتاريخ، درس عليه العديد من الفقهاء مثل القاضي محمد بن عبد الحق التلمساني وغيره، وضع العديد من القصائد الشعرية منها مرثيته لقلعة بني حماد التي خربها الأعراب ودمرها الموحدون

(547 هـ/ 1152 م). والتي جاء فيها:

إن العروسين لا رسم ولا طلل	فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
وقصر بلارةٍ أودى الزمان به	فأين ماشاء منها السادةُ الأولُ
قصرُ الخلافة أين القصرُ من خَربٍ	غير اللجين وفي أرْحَابِها زُحَلُ
وليس يُبهجُني شيءٌ أسِرُّ به	من بعد أن نَهَجَت بالمنهَج السُّبُلُ
وما روى الكوكب العلويّ معتصمٌ	وقد عرى الكوكب التغييرُ والنَّدَلُ
وقد عَفَا قصرُ حمادٍ فليسَ لَهُ	رَسْمٌ ولا أثرٌ باق ولا طللُ
ومجلس القوم قد هَبَّ الزمانُ به	بحادثٍ قلَّ فيه الحادثُ الجَلَلُ
وإنَّ في القصرِ قصر الملوكِ - مُعْتَبراً	لمن تَغُرُّ بِهِ الأيام والدولُ!
وما رسومُ المنار الآن ماثلةٌ	لكنها خَبرٌ يَجْرِي به المثلُ
حتى المُصلَّى مَحَتْ آيَاتُها وَعَفَتْ	إلا جداراً وما طلّت به الطَّلَلُ
كرَجَعِكَ الطَّرْفَ كان كل آبرة «من أبرة الأثر»	فما تَرَاهُ كَذَلك العُمْرُ والأجلُ

كما ترك ابن حماد بعض المصنفات في اللغة والأدب والتاريخ منها شرحه لكتاب الأعلام بفوائد الأحكام لشيخه عبد الحق الإشبيلي، وشرح مقصورة بن دريد وعجالة المودع وعلالة المشيع في الأدب والشعر، وشرح الأربعين حديثاً، وتلخيصاً لتاريخ الطبري، ومصنفاً في أخبار الصنهاجيين بعنوان: «النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة افريقيا وبجاية» أخذ عنه ابن خلدون في تاريخه، ونشر منه المستشرق ليفي بروفانصال نبذة في كتاب أخبار البربر المنشور بالرباط (1933) كما عرض منه المستشرق عماري في المكتبة الصقلية مقاطع عدة نشرها بونو في المجلة الآسيوية (Journal - Asiatique) 1852 ـ 1853.

على أن ما اشتهر به ابن حماد وعرف به هو كتابه أخبار بني عبيد (من الفاطميين) وسيرهم، الذي تناول فيه خاصة أخبار العبيديين بإفريقيا والمغرب، فتعرض لدعوة أبي عبد الله الشيعي وتمكنه من القضاء على إمارة الأغالبة بالقيروان والإمامة الرستمية بتاهرت واستيلائه على سجلماسة وتولي أبي عبيد الله المهدي

الأمر (910 ـ 934 م) كما تعرض لسير خلفائه فذكر حكم أبي القاسم محمد (934 ـ 946 م) والأعمال التي وقعت في عهده وأهمها التمرد الذي قادة أبو يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار. ثم تعرض لحكم إسماعيل المنصور (946 ـ 953 م) وقضائه على أبي يزيد، ثم حكم المعز لدين الله وفتحه مصر وانتقاله إلى القاهرة 361 هـ/972 م ثم استعرض ابن حماد تاريخ باقي الحكام الفاطميين «الحلفاء» باختصار وهم نزار العزيز بالله، والحاكم بأمر الله الذي توسع فيه بعض الشيء، والظاهر لإعزاز دين الله والمستنصر بالله، والمستعلي بالله، والآمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله، والظاهر بأمر الله، والفائز بنصر الله، والعاضد لدين الله وهو آخرهم. وقد علق عليه بقوله: «ما أعجب هذا الملقب!! العاضد هو القاطع وعليه انقطع أمرهم وانحل عقدهم واندثر عهدهم... وهكذا الدهور وأهل الدهور وإلى الله تصير الأمور».

يعتبر تاريخ ملوك بني عبيد لابن حماد الصنهاجي المصدر الأساسي لمرحلة الدولة العبيدية «الفاطمية» بالمغرب قبل انتقالها إلى مصر، فهو يتضمن معلومات مهمة عن انتشار الدعوة واستتباب الأمر لعبيد الله المهدي ولا سيما أحداث ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد فقد أخذ منه جل المؤرخين المتأخرين عنه مثل ابن خلدون، ولعل أهمية أخبار ملوك بني عبيد تكمن في كونه حفظ لنا روايات تاريخية نادرة مستقاة من مصادرها الأهلية. وضم ما كتب حول الموضوع من مصادر نادرة ككتاب الصولي وتكملة المختصر لابن الوردي وغيرها. وقد أشار إلى ذلك بعبارات مثل: «كقوله، ويذكر، وكان» فَلَمْ ينص على مصادره الشفهية والمكتوبة إلا نادراً كقوله: «وحدثني الشيخ الفقيه أبو الحسن علي التميمي».

ومما زاد في قيمة كتاب أخبار ملوك بني عبيد هو التزام صاحبه ابن حماد الصنهاجي بالدقة في ذكر التواريخ وتسجيل الأخبار والتحقق من صحتها وسلامتها من التحريف. وقد أشار إلى ذلك في مستهل كتابه بقوله: «فهذه جملة من أخبار بني عبيد قيدتها في هذا التأليف. فبعضها التقطته من مفرقات التواليف وبعضها عرفني به من وثقت منه بالتعريف... وما من شيء إلا وقد أفرغ في قالبه ونسخ على منواله».

غلب على كتاب أخبار ملوك بني عبيد الرواية التاريخية للحدث والتي تميل إلى الاستطرادات التي رآها المؤلف مفيدة. لكونها تتصل بطبيعة الملك وثروات بني عبيد مثلا. وتتخللها الأبيات الشعرية في مدح الحكام العبيديين كالأبيات التي مدح فيها أبو يعلى المروزي إسماعيل المنصور، أو التي أشاد فيها كل من ابن هانيء وابن حمدوس بالملك عبيد الله المهدي، وهذا ما أضفى على الكتاب طابعاً جمع طرافة الأدب إلى دقة التاريخ وذلك في لغة سليمة جزلة لا ينقص منها سوى انعدام الربط وتوارد المترادفات في بعض الفقرات.

توجد عدة نسخ مخطوطة من كتاب تاريخ ملوك بني عبيد بالجزائر وباريس وهي التي اعتنى المستشرقون بنشرها وترجمة قسم منها إلى الفرنسية، فقد نشر فوندرهايدن (Vonderhayden) ترجمة لأهم فقرات الكتاب بالمجلة الآسيوية (Journal Asiatique) (1862 ـ 1869) ثم أتم الترجمة بعده شيربونو (Cherbonneau) ونشرها مع النص العربي (1927) هذا وقد قام الشيخ جلول أحمد البدوي موخراً بنشر كتاب أخبار ملوك بني عبيد بالجزائر مع ملاحق وجداول وفهارس وخرائط (1984) في 137 صفحة. كما أنجزت في المدة الأخيرة الأستاذة نشيدة رافعي دراسة جامعية حول الكتاب في شكل تحقيق وتعليق وترجمة للنص العربي، مما سهل على الباحث الرجوع إليه ومكن المهتمين بالتاريخ من الاستفادة منه.

المراجع المعتمدة:

ـ أبو عبد الله محمد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، الجزائر 1984.

ـ عنوان الدراية، (ط 1910) ص 129.

ـ تاريخ الجزائر العام (ط 2) 1980، ج 2، ص ص 38 ـ 39.

ـ تاريخ الجزائر العام ج 2، ص ص 38 ـ 39.

ـ رافعي (نشيدة)، ابن حماد الصنهاجي وأخبار ملوك بني عبيد، دبلوم دراسات معمقة

جامعة الجزائر، 1979.
- ابن الخطيب، (لسان الدين)، كتاب أعمال الأعلام، القسم الثالث: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد بن إبراهيم الكتابي، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964 ص ص 94 ـ 96.
- تعريف الخلف، القسم الثاني ص 487.
- البستاني (فؤاد إفرام)، دائرة المعارف، ج 2 بيروت 1958 ص 173.
- تاريخ الأدب العربي، ج 2، ص ص 30 ـ 31.

- Ibn - Hammâd, Histoire du Obeïdites (les Califs fatimides) texte et tra, par M. Vonderheyden, faculté des lettre, Alger, 1927.
- Cherbonneau, Documents inedits sur l'hérétique Abou. yasid mokhallad ibn kidad de takemdet, tra de chronique d'Ibn Hammad, in Journal Asiatique, 1852 pp 470 - 510.
- Cherbonneau Document inédits sur Obeid Allah, fondateur de la Dynastie fartimide, tra de la chronique d'Ibn hammada, tra de 2 chapitres, in Journal Asaitique, T 5/ 1855 pp 529 - 547.
- Cherbonneau, Documents historiques sur l'hérétique Abou, yéside tra d'Ibn, hammade, in Revue Africaine, 1869.
- Basset, Ibn hammad, in Encyclopédie de l'Islam.

محاصرة أبي يزيد والقضاء عليه

ولحق أبو يزيد بكيانه، ورحل إسماعيل من المسيلة غرة شهر رمضان يوم الجمعة سنة (335 هـ) فنزل في موضع يعرف بالناظور وهو موضع معروف بأروسن من جنات القلعة محاصراً لأبي يزيد. ثم صعد يوم السبت الثاني من رمضان إلى جبل كيانة وصعد في وعر بين صخور. ومشى فيه راجلاً في أماكن كثيرة، فكانت بينه وبين أبي يزيد وقعة عظيمة تعرف بوقعة الحريق، أحرق فيها إسماعيل أخصاصاً كثيرة لأصحاب أبي يزيد، وقتل منهم عدداً كثيراً ثم انهزموا في آخر النهار، وسبى إسماعيل نساءهم وذراريهم، وأخذ لهم من الخيل والجمال وصنوف الحيوان ما يفوت الإحصاء، ويستغرق الاستقصاء وارتفع أبو يزيد. ودخل قلعة كيانة وهي تاقربوست المطلة على قلعة حماد، ورجع إسماعيل إلى الناظور، وبعث قيصر الفتى وزيري بن مناد الصنهاجي في جمع كثير إلى أهل مدينة الغدير، وهي المتقدم ذكرها وهي تقع على نحو خمسة عشر ميلاً من القلعة من الجهة الشرقية، وكان بناؤها وبناء صورها لبني حماد على يد مملوك لهم رومي يقال له بونياش فقتلهم وسبى ذراريهم وأحرق ديارهم. . . ثم سار إلى قلعة (المري) وهي قلعة كيانة بجبل القلعة وجبل القلعة معروف. وهذا الاسم له كالعلم الموقوف وسمتها البربر «المري» وإنما هي المرآة، لمرآة كانت منصوبة عليها في الزمان الأول. فنزل إليه أهلها بأمان، ثم توجه إلى (أوسجيت) وهي بسفح جبل القلعة من جهة الشمال مما يلي بلد عجيسة. فهرب أهلها منه وصاروا مع أبي يزيد.

ثم توجه إلى (بني عوسجة) وهم من عجيسة فقاتلهم في وعر شديد وجبال ممتنعة حتى تغلب عليهم وتمكن منهم، وحارب قلعة «تناكر» وتقول البربر للموضع الآن «شيكر» فاستأمنوا إليه، ثم نهض إلى كيانة، فكان قيصر هذا يقاتلها من جهة غربها وإسماعيل يقاتلها من جهة شرقها، وجاء الفطر فصلى إسماعيل (صلاة العيد) وخطب على ما تقدم، وتمادى على حصار أبي يزيد وحفر خندقاً

حول معسكره بأسفل جبل كيانة، وهو الذي يسمى الآن (خندق الديباج) لأخبية ديباج كان إسماعيل ظهر بها في ذلك المكان، وبنى تنوراً كبيراً وأضرمه ناراً وعلق عليه بكرة فإذا أخذ أحداً من البربر علقة برجليه إلى البكرة ثم أماله في التنورة إلى موضع يناله حر النار فيه فإذا أشرف على الموت روح عنه شيئاً فإذا رجعت إليه نفسه أعاده حتى يموت. . .

وزحف إلى قلعة كيانة يوم الأحد سنة (336 هـ) وصعدت العساكر بين يديه من (الزويليين) وغيرهم إليها فأحاطت بأبي يزيد وأصحابه. وكانت بينهم حروب كبيرة عظيمة من أول النهار إلى آخره، فلما كان الليل أشعل إسماعيل النيران وتمادى على الحرب فخرج أبو يزيد ومن معه فحملوا حملة رجل واحد فقتل أكثرهم، وتخلص أبو يزيد بجرحين على جبهته وترقوته إلى أسفل الجبل، وأحاط إسماعيل بالقلعة وتغلب عليها ودخلها، وألقى بها أبا عمار الأعمى وجماعة من وجوه النكار، فضرب أعناقهم تلك الليلة. ولما أصبح أمر بطلب أبي يزيد فلم يوجد فاغتَم لذلك وألح في طلبه فأصابه قوم من الزويليين في بعض شعاب الجبل المسمى به. وقد تقدم ذكره فأرادوا قتله ولم يعرفوه فعرفهم بنفسه وأعطاهم مالاً كثيراً كان معه وخاتمه وثيابه فتركوه، ووجده آخرون فأتوا به إلى إسماعيل فأعطاهم ألف دينار، وأعطى جماعة آخرين ادعوا أخذه عشرين مثقالاً. وقال لأبي يزيد: ما حملك على ما فعلت فقال: أردت أمراً فأباه الله. فكساه وأمر بمداواته والإحسان إليه طمعاً في أن يصل به إلى القيروان، فكان عند جعفر الحاجب إلى أن مات من جراحه يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم وقيل أن الدم نزفه وهو يكلم إسماعيل فمات بين يديه.

فأمر إسماعيل بسلخه وحشوه قطناً، وخيطت أوصاله حتى تمت جثته، وصار كأنه نائم، وقدد لحمه وملح وأمر بحمل جميع ذلك.

أبو عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي

أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم

تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي،

الجزائر، 1984، ص ص 42 ـ 45

عبد الواحد المراكشي

(ت حوالي 647 هـ/1229 هـ)

أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، ولد في مستهل عهد أبي يوسف المنصور الموحدي بمدينة مراكش عام (581 هـ/1185 م) انتقل وهو صغير لا يتجاوز التاسعة من عمره إلى فاس حيث حفظ القرآن الكريم وجوده ورواه، وتلقى دروساً في علم الفقه وعلم اللغة، بعدها عاد إلى مسقط رأسه مراكش وظل يتردد على فاس مرات عديدة، ثم عبر نحو الأندلس في مطلع سنة (603 هـ/ 1205 ـ 1206 م) وحضر بها حلقات العلماء، وارتبط خاصة بالفقيه الحميري بقرطبة، كما التحق بحاكم اشبيلية أبي إسحاق بن أبي يوسف المنصور الموحدي، وأصبح من جلسائه لفترة، بعد ذلك عاد إلى مدينة مراكش (610 هـ/1213 م) وشهد بيعة السلطان يوسف الثاني، وأثناء ذلك تعرف على أوضاع دولة الموحدين عن كثب، إلا أنه لم يستقر بموطنه مراكش التي غادرها نحو الأندلس ومنها تحول إلى أقطار المشرق وعمره إذ ذاك اثنان وثلاثون سنة (614 هـ/1217 م) وعاش بديار الغربة حياة مضطربة يغلب عليها القلق والحيرة وعدم الاستقرار، فقد مكث بمصر سنتين بعد أن زار الحجاز وأدى فريضة الحج وأثناء ذلك تعرضت دمياط لغزو الصليبيين الذين استولوا عليها (617 ـ 619 هـ/1220 ـ 1222 م) ثم زار الشام (دمشق) والعراق (بغداد) وفي هذه الفترة وضع كتابه الذي اشتهر به «المعجب» وانتهى منه في أواخر جمادى الثانية (621 هـ/1224) وبعد ذلك انقطعت أخباره. فلا ندري هل عاد إلى المغرب مرة أخرى، أم أنه بقي بالمشرق حتى وافته المنية عام (647 هـ/1249 م) على الأرجح.

يعتبر كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين» من المصادر الأساسية والمراجع الوثيقة لتاريخ الموحدين خاصة، فهو يستقي الأحداث من مصادر موثوقة صحيحة السند. ويعرض الوقائع كشاهد عيان على نحو لم يشاركه فيه مؤلف آخر ممن كتبوا عن دولة الموحدين، وهذا ما جاء على لسانه إذ يقول: «ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً عن كتاب أو سماعاً عن ثقة عدل أو مشاهدة بنفسي، وهذا بعد أن تحريت الصدق وتوخيت الإنصاف في ذلك كله» ولهذا جاء تاريخ «المعجب» يمتاز بالصدق في كل ما رواه من أخبار وما أورده من أحداث اقتباساً عن مؤرخين ثقاة سبقوه، على أن ما ينقص من قيمة هذا الكتاب ميل مؤلفه إلى الإيجاز والتركيز دون التوسع والإفاضة في ذكر الأحداث التي تحتاج إلى ذلك وإن كان يشفع له في ذلك عدم إهماله للأهم من الحوادث والمعلومات التاريخية. ولعل ذلك يعود أساساً إلى عدم تفرغه للتأليف واضطراره للاشتغال لتحصيل لقمة العيش. وهذا ما أشار إليه بقوله: «هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم (515) م إلى وقتنا هذا (621 هـ/ 1224 م) وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه... على أنا لو كفينا ضرورة المعاش وأعفينا من كد الزمان لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة».

يتألف كتاب «المعجب» من قسمين أساسيين الأول خاص بالأندلس استهله عبد الواحد المراكشي بجغرافية الأندلس ونبذة عن تاريخها منذ الفتح الإسباني وحتى قيام حكم الإمارة الأموية بها، بعدها استعرض أخبار الأمراء ثم الخلفاء الأمويين بقرطبة وما تميزت به أيامهم من أحداث مثل تولي المنصور بن أبي عامر وولديه الحجابة، وما آلت إليه الأمور بعد انقطاع الدعوة الأموية وظهور ملوك الطوائف (بنو عباد، بنو هود، ذو النون، بنو حمود، وبنو الأفطس) وقد أسهب في ذكر بني عباد بإشبيلية حتى انتهاء أمرهم على يد المرابطين، بعد ذلك تعرض لظهور أمر المرابطين بمراكش وعلاقتهم مع المعتضد بالله، والمعتمد بن عباد ثم عبورهم نحو الأندلس واستيلائهم عليها ومواجهتهم للنصارى

بالزلاقة (479 هـ/1086 م) قبل أن تسوء أحوالهم وتنقرض دولتهم على يد الموحدين.

أما القسم الثاني من «المعجب» فقد خصه عبد الواحد المراكشي لأخبار الموحدين بالمغرب والأندلس وذلك منذ قيام دعوة محمد بن تومرت وإعلان الموحدين ثورتهم على المرابطين وتولي أمرهم من طرف عبد المؤمن بن علي واستيلائه على بلاد المغرب وإفريقيا والأندلس، وما واجهه من عصيان الأعراب وثورة بني غانية بالجزائر الشرقية وإفريقيا والمغرب الأوسط. ثم بعد ذلك تعرض لأخبار خلفاء عبد المؤمن وتصديهم للنصارى بالأندلس وانتصارهم عليهم (معركة «الأرك» 591 هـ/1195 م) فتعرض بالتفصيل للأخبار والروايات المتعلقة بالخلفاء الموحدين وخاصة أبي يعقوب يوسف وأبي يوسف يعقوب (المنصور) ومحمد بن أبي يوسف الناصر وأبو يعقوب يوسف (المنتصر) وعبد الواحد بن يعقوب (المنصور)، ومما يلاحظ أن المراكشي أورد خبر تولي ابن محمد عبد العزيز بدلاً لعبد الواحد بن يعقوب لأنه كان بعيداً عن الأحداث آنذاك حيث إنه كان بالمشرق بدليل أنه أورد عبارة يقول فيها: «ثم ذُكر لي أن عامتهم ومعظمهم اجتمع على تقديم عبد العزيز».

هذا وقد خص عبد الواحد المراكشي كل خليفة موحدي بذكر سيرته الشخصية ونظام دولته والوزراء والحجاب والكتاب والقضاة الذين تولوا على عهده، وكذلك منشآته العمرانية وأعماله الحربية وما وقع في عهده وما عرف عنه أو اشتهر به. مع الإشارة في بعض الأحيان إلى أوضاع الرعية وحالة الاقتصاد والعمران وقد اختتم ذلك بأخبار المصامدة وذكر قبائلهم وأحوالهم وأصناف الموحدين وطبقاتهم وما كانوا يتميزون به من عادات.

ومما زاد في قيمة المعجب وجعله من المصادر الأدبية المهمة فضلاً عن كونه من المراجع الأساسية في التاريخ كونه كان يتوفر على مادة أدبية ووصف جغرافي في غاية الأهمية إذ ضمنه عبد الواحد المراكشي العديد من الرسائل والخطابات والقصائد الشعرية، وأدرج فيه أخبارا تتصل بالجغرافية وأصول العمران

وطبيعة الملك وشؤون الاقتصاد والمجتمع بالإضافة إلى تراجم مشاهير الرجال. ففيما يتصل بالجغرافية فقد رأى عبد الواحد المراكشي أن الأندلس والمغرب وحدة جغرافية وتاريخية متكاملة وإن اضطر إلى التعرض إلى كل إقليم على حدة فذكر حدود الأندلس في القسم الأول من كتابه وذكر في الثاني أقاليم المغرب والأندلس وطبيعة العمران عل السواحل وبدواخل بلاد المغرب، وخص بالذكر أهم الحواضر مثل القيروان وفاس والرباط وقرطبة وإشبيلية، ولم يهمل الإشارة إلى ماكان بالأندلس والمغرب من معادن الفضة ومناجم الحديد وأشهر أنهارهما. كما أشار إلى بعض مدن الأندلس سواء التي سقطت في أيدي النصارى أو التي لا زالت بيد المسلمين على عهده، أما فيما يتعلق بالأدب والتراجم فذكر نبذاً مفيدة عن أشهر رجال العلم والأدب والفلسفة والفقة بالأندلس والمغرب الذين لقبهم بأعيان الكتاب مثل ابن دراج القسطلي وابن حزم الظاهري وابن زيدون وأبي بكر بن زهر والمعتمد بن عباد وأبيّ بن عمار وأبي بكر الداني وابن عبدون الكاتب وابن أبي الحنصال الكاتب ومحمد بن حبوس وابن طليق والرصافي الوفاء وأبي بكر بن طفيل وأبي زيد الوليد بن رشد وعلي بن حزمون ومحمد بن عبد ربه حفيد صاحب العقد الفريد وأبي جعفر الحميري المؤدب.

وقد عفا الزمن على كتاب المعجم ولم يعثر منه إلا على نسخة واحدة اقتنتها مكتبة ليدن من المشرق سقطت منها كراسة (حوالي 20 ورقة) خاصة بفترة: الحكم ابن هشام، والحكم المستنصر (180 ـ 350 هـ) اعتمدها المستشرق دوزي (Dosy) عندما نشر المعجب (ليدن 1847) ثم أعاد طبعه سنة 1881 بعد ذلك ظهرت ترجمة فانيون (Fagnan) بالفرنسية (1893) وبعد فترة من ذلك طبع المعجب بفاس (1938) ثم بالقاهرة (1949) ثن نشر مؤخراً بالقاهرة (1963) في حجم كبير وإخراج جيد (494 ص) بتحقيق محمد سعيد العريان الذي أدخل عليه عناوين فرعية وألحق بها هوامش الأعلام والبلدان والقبائل.

المراجع المعتمدة

- عبد الواحد المراكشي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق محمد سعيد العريان القاهرة لجنة أحياء التراث الإسلامي 1963. (ط1، القاهرة 1949، من تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي).
- تاريخ الأدب الجغرافي ص 375 ـ 376.
- عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب مقدمة ونصوص مختارة من طرف أحمد بدر، سلسلة المختار من التراث العربي، وزارة الثقافة والإرشاد السورية دمشق 1978.
- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 248 ـ 250.
- كرد علي (محمد) مطبوعات ومخطوطات: كتاب المعجب، مجلة المقتبس، المجلد الأول، الجزء التاسع، 1324/1906 ـ 1907 ص ص 468 ـ 477.

- Lévi - Provençal (E.) Extraits des historiens arabes du Maroc, 3e ed, Paris, 1948.

استيلاء عبد المؤمن على بجاية وقلعة بني حمّاد

ولمّا دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون ـ على ما قدمناه ـ وأطاعه أهلها، جمع جموعاً عظيمة وخرج من مراكش يقصد مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيرات، وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتونة، فقصده عبد المؤمن ـ كما ذكرنا ـ في شهور سنة 540، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى يحيىٰ بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ويدان بمنعهم، هرب في البحر حتى أتى مدينة بونة، وهي أول حد بلاد إفريقية، ثم خرج منها حتى أتى قسنطينة المغرب، فأرسل إليه عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ بالجيوش فاستنزل وأتي به عبد المؤمن، هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمِّن يحيىٰ في نفسه وأهله ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها، وملك قلعة بني حماد، وهي معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمنع، فيها نشأ ملكهم، ومنها انبعث أمرهم.

وكان يحيىٰ هذا وأبوه العزيز وجدّاه المنصور والمنتصر، وجدهم الأكبر حماد ـ من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم أعني صنهاجة ـ قامت دعوة بني عبيد، وهم الذين اظهروها ونشروها ونصروها. فلك يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمراً، ودولتهم قائمة، وأمرهم نافذاً، لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم، إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته: أبو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي تقدم.

ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها، رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها، واستعمل عليها ابنه عبد الله. وكر راجعاً إلى

مراكش ومعه وفي جنده يحيىٰ بن عبد العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته؛ فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسى الفاخرة والأموال الوافرة. وخص يحيىٰ من ذلك بأجزله، وأثناه وأحفله، ونال يحيىٰ هذا عنده مرتبة عالية وجاهاً ضخماً، وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها. . .

عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،
تحقيق ، محمد سعيد العريان
القاهرة، 1963، ص ص 272 ـ 275

أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني
(ت حوالى 670 هـ/1273 م)

أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني المزاتي، ينتسب إلى عائلة إباضية توارثت مشيخة العلم، تنحدر من تيمجار من جبل نفوسه بإقليم طرابلس، عرف أحد أجداده وهو الحاج يخلف بن يخلف النفضي بعلو مكانته في الفقه، كما اشتغل جد أبيه بالتجارة في بلاد السودان، واشتهر والده سعيد بالورع والتقوى وكان مقيماً بدرجين السفلى الجديدة من بلاد الجريد.

ولد أبو العباس أحمد الدرجيني بنفطة بالجريد وتعلم بها وأخذ عن أبيه ثم انتقل إلى ورجلان بالجنوب الجزائري وهو صغير (616 هـ/1220 م) إذ نقل عنه البرادي قوله: «وذلك أني دخلت حلقة ورجلان حرسها الله. . . في أول ما وجب علي الصوم والبال خال من الهم وكنت أعجب من ينفرد ولا يجتهد، وممن يخلو بالمفيد ولا يستفيد. . . ».

وقد أخذ بورجلان عن علماء أجلة منهم أبو سهل يحيىٰ بن إبراهيم عالم ورجلان وإمام شيوخها، ثم عاد بعد سنتين إلى منطقة الجريد (618 هـ/1222 م) وواصل تعلمه بتوزر (1633 هـ/1235 م) وتجول بمواطن الإباضية فزار جربة وأقام بها مدة مكرماً معززاً وكانت له مكانة متميزة بين جماعة العزابة بها، وقد قام بتأليف كتاب طبقات المشائخ نزولاً عند طلب بعضهم. ثم عاد إلى موطنه حيث وافته المنية بنفطة في النصف الثاني من القرن السابع الهجري. (منتصف القرن الثالث عشر الميلادي) ودفن بمصلىٰ للإباضيين بجانب جبانة قنطرارة السلفى.

ترك الدرجيني ديوان شعر ومجموعة رسائل في الفقه جمعها بعد وفاته

أبو طاهر الجيطالي، واشتهر خاصة بكتابه في تاريخ الإباضية المعروف بطبقات المشايخ الذي كتبه كما سبقت الإشارة استجابة لرغبة من كان يجله ويحترمه، ليكون (الكتاب) «قدوة للمقتدين» ويرسخ العادات الحسنة في الناشئة وهذا ما أشار إليه بقوله: «وقد سأل من وجبت طاعته لم يسع إهمال أمره وإساءة طاعته أن أجمع من سير أسلافنا وأخبارهم ما تيسر لي جمعه وأضع في ذلك تصنيفاً. . . فبادرت لإجابة سؤاله إيجاباً لعظم حرمة السؤال. . .».

أدرج الدرجيني في الجزء الأول من طبقاته ما كتبه أبو زكريا الورجلاني مع تعليقات وتوضيحات قيمة فغلب عليه الطابع التاريخي، وقد أشار إلى ذلك بقوله: «أحرر كل حبر بما يليه من كتاب أبي زكريا ابن أبي بكر، أستخلص ذلك وأنتقيه. . .» اعتمد الدرجيني على مصادر إباضية وغيرها مثل كتاب أبي عمار عبد الكافي، وكتاب السير لأبي الربيع سليمان بن يخلف، وبشكل رئيسي على كتاب السيرلأبي زكريا، ومن الراجح أيضاً أنه أخذ عن ابن سلام بن عمر اللواتي، لأن الدرجيني كان لا يذكر مصادره وإنما يكتفي بقوله: «حدث غير واحد من أصحابنا» ولم يفصح عن مصادره العديدة باستثناء كتاب السير لأبي زكريا، هذا وقد أخذ الدرجيني أيضاً عن مصادر غير إباضية، مثل ابن قتيبة والجاحظ والبكري والرقيق القيرواني. وقد أشار إلى هذا الأخير بقوله: «واستخلصه من مقتضى ما ذكره الرقيق في تاريخ إفريقية ما تدعو إليه الحاجة» كما لم يهمل ما أورده ابن الصغير في شأن مساعدة إباضية البصرة للإمام عبد الرحمٰن بن رستم وقضية بوعرفة.

بينما أثبت في الجزء الثاني من طبقاته مجموع سير العلماء وبعض الشخصيات الإباضية المشهورة فجاءت تقاييده متماشية مع منهج كتابة السير، فقد قسم تراجمه إلى اثنتي عشرة طبقة كل طبقة تغطي فترة خمسين سنة حسب طريقة أبي بكر عمار عبد الكافي وأبي زكريا يحيىٰ الورجلاني، وتقيد في ذلك بأسلوب علماء السير السابقين له، فجاءت الطبقات الأربع الأولى خاصة بعلماء الإباضية بالمشرق في القرنين الأول والثاني للهجرة مقتصراً فيها على ما أورده أبو زكريا الورجلاني بينما أفرد الطبقات الثمانية الموالية لمشايخ الإباضية بالمغرب، واقتصر

في الطبقات الأربع الأخيرة على شخصيات من ورجلان وسوف والجريد وجربة. وبذلك يكون الدرجيني قد غطى بتراجمه ستة قرون استهلها بمن «اجتمعت عليهم الخمسون الأولى من المائة الأولى مثل عمران بن حطان الشيباني وجابر بن زيد الأزدي وعبد الله بن إباض المدني. واشتملت عليهم الخمسون الأولى من المائة الثانية مثل أبي عبيدة التميمي وأبي عبيدة بن القاسم وأبي نوح صالح الدهان، وتلامذتهم من أمثل أبي الخطاب معافري (عبد الأعلى بن السمح) وعبد الرحمٰن ابن رستم، وعاصم السدراتي...» واختتم طبقاته بتراجم الطبقة الثانية عشرة (550 ـ 600 هـ) من أمثال ميمون بن أحمد المزاتي. ويوسف بن أحمد الوسياني، فكانت جملة تراجمه مائة وعشرين ترجمة جمع فيها رجالاً من المشرق والمغرب وركز فيها على ما يهم الحياة المذهبية خاصة والاختلافات التي كانت تتميز بها، وقد توسع من حيث العدد ونوعية المعلومات في التراجم القريبة من عهده، فخص الطبقة التاسعة بستة عشر ترجمة والطبقة العاشرة بخمس عشرة ترجمة. والطبقة الثالثة عشرة بتسع عشرة ترجمة، وإن كان أهمل ذكر تواريخ الولادات والوفيات ولا يتردد في تسجيل ما يراه مناسباً من الأشعار والحكايات الطريفة...

أثبت الدرجيني في طبقاته وثائق نادرة تتعلق بالمذهب الإباضي مثل القواعد الخاصة بتأسيس الحلقة التي وضعها أبو عبد الله محمد النفوسي (القرن السادس للهجرة) وخطبة أبي حمزة الشاري الإباضي (القرن السادس للهجرة) والتزم فيما سجله الصدق في الرواية والوسطية في إبداء الرأي، فسار على سنة علماء الإباضية الرافضة لآراء الغلاة من الخوارج، وهو يجل الصحابة ويرى إن الإسلام عقيدة وعمل، كما جاء في قوله: «والصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين... وعلى آله وأصحابه الأكرمين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.. إن العلم ما صاحبه العمل وصدقته الخشية والوجل...» وقد جاءت الطبقات في أسلوب سهل ولغة مهذبة وعبارات متداولة.

يعتبر كتاب طبقات المشايخ بالمغرب للدرجيني من عيون التراث الإباضي، بالمغرب. ومن المصادر الأساسية للحياة العلمية والمذهبية والاجتماعية لكونه

اعتمد على مصادر لم تصلنا وهي التي تتعلق بتراجم بعض المشارقة وأخرى ناقصة وهي التي تتعلق خاصة بعلماء المغرب. مثل، كتب المحبوب ابن الرحيل العبدي (القرن الثاني الهجري) وأبي الربيع سليمان الوسياني (القرن السادس للهجرة). هذا وقد ظلت نسخ كتاب طبقات الدرجيني متوزعة بعدة مكتبات بميزاب والقاهرة وتونس منها نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم 2524 مسجلة بمكتبة محمد بن يحيىٰ بن يوسف.

المراجع المعتمدة:

- الدرجيني، (أبو العباس أحمد)، طبقات مشايخ المغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة 1974.
- باجية، (صالح)، الإباضية في الجريد في العصور الإسلامية الأولى، بحث تاريخي مذهبي، تونس 1976، ص ص 206، 212.
- البرادي (أبو القاسم بن إبراهيم)، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات (للدرجيني) قسنطينة 1302 (القاهرة، ط حجرية 1884 ص 215 ـ 216).
- بو رقعة (محمد)، مسندات في تاريخ إباضية الشمال الإفريقي، مجلة الثريا، تونس، السنة الثانية العدد 12/1945 ص ص 12 ـ 14.
- الحنحاني، (الحبيب)، كتاب طبقات المشايخ لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، مصدر للتاريخ الاقتصادي، ضمن كتاب دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1980، ص ص 97 ـ 110.
- مصدر للتاريخ الاقتصادي، حوليات جامعة الزيتونة، عدد 5/1977، ص ص 117 ـ 161.
- جودت، (عبد الكريم يوسف) العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الجزائر، 1984 ص 153.
- معجم المؤلفين، ج 2، ص ص 296 ـ 299.
- الشماخي، كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة، 1301.
- تراجم المؤلفين التونسيين، الجزء الثاني، ص ص 296 ـ 299.

- معمر، (علي يحيىٰ) الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثالثة)، القاهرة 1979.
- معمر، (علي يحيىٰ) الإباضية في تونس، بيروت، 1966، ص ص 133 ـ 134.
- أعلام المغرب، الجزء الرابع، ص ص 189 ـ 190.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 212 ـ 213.

- Motylinski. Table des matieres, Tabakat Al. Darjini, in Bulletin de Correspondance Africaine. T.III, pp. 40 - 43.
- Tewicki, I. Les historiens biographes Ibadites, Folia Orientalia, 1961, pp 1- 134.
- Basset (R) Al. Darjini, in Encyclopédie de l'Islam, 1e ed, T.I, p 683, Lewicki, in 2e ed T.II pp. 144 - 145.

وصول الدعوة الموحدية إلى وارجلان

وحدثنا بعض أهل وارجلان أن أول داع وصل إلى وارجلان من دعاة الدعوة المهدية العيتروسي وصلها في خيل، فلما قدم إليهم دعاهم إلى إجابة الدعوة، فتشاوروا فيما يأتون وما يدرون، فأجمع راي أكثرهم على قتله وأصحابه، حتى لا يظهر لهم ذكر، فقال علماؤهم ما ضرنا أن نصل إلى الفقيه أبي يعقوب نعلمه بما وقع في نفوسنا ونأخذ ما عنده، فجاؤوه بجمعهم، فقالوا له. إن هذه خيل تدعو إلى سلطان قد ظهر، وقد أجمعنا على أن نقتلهم قبل أن يعرفوا بلدنا، فإنا نخاف أن يخربوا بلادنا إن عرفوها، فقال لهم: هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في أيامهم عزاً وإقبالاً وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء وإكراماً وإحساناً. أكثر مما تلقونه في بلادكم، فأجيبوا دعوتهم تفلحوا. فليسوا بالذين يخربون بلادكم. وأما الذي يخرب بلدكم فيخرج من سجلماسة ويموت في البحر، وإن خرج من البحر فإنه يموت في سجلماسة وهو المتلثم، فإذا ظهر فلا بد أن يرد بلادكم قاعاً صفصفاً سمعت هذا الخبر سنة عشرين وستمائة فلما كان سنة ست وعشرين أو سبع وعشرين دخلها يحيىٰ بن إسحاق الميروقي المتلثم، فهدم كل دار عليها سورها إلى المسجد، وعاد وارجلان كأن لم تغن بالأمس. . .

أبو العباس أحمد الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب،
تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، 1974، ج 2 ص ص 493 ـ 494

سفر الشيخ إلى غانة ودخول الإسلام إليها على يده

وحدث جماعة من أصحابنا أن علي بن يخلف سافر إلى غانة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، فانتهى إلى مدينة «مالي» فأكرمه ملكها غاية الإكرام وكان هذا الملك مشركاً وتحته مملكة عظيمة كل أهلها مشركون، وتحته اثنا عشر معدنا يستخرج منها الذهب التبر. فكان الملك كلما جلس مجلساً إلا أجلسه معه إكراماً له. وكان يتعجب من خلقه وخلقه، وكثرة عبادته ومحافظته على دينه. حتى عقد النية على الانفصال وقد قضى حاجته، وكان ذلك في سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابهم إلى ملكهم، فأمرهم بالاستسقاء فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التي يعتادونها في ملتهم، وذبحوا أنواع الحيوان من البقر والغنم والحمير، حتى الأناسي والسنانير، فلم يسقوا. فقال الملك. «لعلي ألا تدعو إلاهك الذي تعبد أن يسقينا؟ فقال له لا يسعني ذلك وأنتم تكفرون به وتعصونه، وتعبدون غيره، فإن آمنتم به وأطعتموه فعلت ذلك ورجوت أن يسقيكم، فقال له الملك، علمني الإسلام وفرائضه حتى أتابعك عليه. وتستقي لنا. فعلمه كيف يقر بالشاهدتين فعلمهما.

ثم قال اصحبني إلى نهر النيل ففعل. فعلمه كيف يتطهر فتطهر، ولبس ثياباً طاهرة ورقى به ربوة فوق النيل فعلمه الصلاة فصلى ثم قال إن أنا صليت فافعل ما تراني أفعل، وإذا دعوت فقل آمين، فباتا ليلتهما في عبادتهما وضراعة إلى الله عزّ وجلّ. فلما كان بعد صلاة الصبح أنشأ الله سبحانه سحابة فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة. ودامت السحابة سبعاً غير مقلعة تسيح ليلاً ونهاراً، فزادت المؤمن إيماناً واستدعت إيمان الكافر. فلما رأى الملك

صنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته إلى الإسلام فأجابوا، ثم دعا أهل المدينة من رعيته فأجاب أكثرهم ثم دعا الأقصين فقالوا نحن عبيدك ولك منا الطاعة وتتركنا على ما ألفينا عليه آباءنا فسمح لهم، ثم حكم بأن المدينة لا يدخلها إلا من آمن بالله ورسوله ومتى رؤي فيها كافر قتل، ثم قال له علمني القرآن وشرائع الإسلام فجعل يعلمه حتى تعلم جملة ينتفع بها. فبينما هو عنده في ذلك إذ ورد عليه كتاب أبيه يستدعي منه المجيء ويحجر عليه في الإقامة فقال للملك اعلم أني على السفر فقال لا يحل لك أن تتركنا على العمى بعد أن أبصرتنا دين الهدى. فقال أعلم أن من فرائض هذا الدين أبرار الوالدين وقد حجر علي والدي المقام. وهذا كتابه فلما رأى جده أحسن منقلبه وانفصل، وبقوا على الإسلام والحمد لله رب العالمين.

أبو العباس أحمد الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب
تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، ج2، ص ص 517 ـ 518

أبو الحسن علي بن سعيد المغربي الغرناطي

(ت حوالي 685 هـ/ 1286 م)

أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الغرناطي المعروف بابن سعيد، ولد حوالي سنة 605 هـ/ 1214 م. بقلعة يحصب Alcala la Recal المعروفة بقلعة بن سعيد (لكونها كانت مقر حكم هذه الأسرة التي ينتسب إليها أبو الحسن علي بن سعيد على عهد المرابطين ثم الموحدين ثم بني هود) وقد استقل بها وبإقليمها موسى بن عبد الملك بن سعيد (والد صاحب الترجمة) بعد مقتل ابن هود عام (635 هـ/ 1237 م)، وقد نشأ بها علي بن سعيد في كنف والده ولم يغادرها إلا عندما رغب في استكمال تعليمه بإشبيلية على يد علمائها المشهورين أمثال أبي علي السلوبيني، والأعلم البطليوسي، وابن عصفور. وأبو الحسن الدباج، وعندما عاد إلى قلعة أبيه حرص على توسيع ثقافته فانقطع للمطالعة في مكتبة القلعة الغنية بأمهات الكتب الأدبية والعلمية التي اقتنتها أسرته.

غادر علي بن سعيد في مطلع شبابه موطنه نحو المشرق مع والده بغرض أداء فريضة الحج (1638 هـ/ 1241 م) ولعله وجد في ذلك مهرباً من عداء منافسيه والمتربصين به من أسرته الذين كانوا يحاولون تأليب ابن جامع وزير الموحدين بإفريقية عليه وعلى أبيه لكن أباه توفي في الطريق بالإسكندرية 640 هـ/ 1243 م، وحظي هو باستقبال حسن بالقاهرة ونال احترام العلماء وتقدير الفقهاء وصداقة الأدباء مثل قاضي القضاة أبي المكارم محمد بن عين الدولة، والفقيه أبي بكر القسطلاني، والشعراء ابن تاور، وناصر الحصري اللخمي، وابن مطروح، والبهاء زهير، وجمال الدين الجزار وغيرهم، وبعد أن أقام بمصر عدة سنوات غادرها سنة 648 هـ/ 1249 م فأدى فريضة الحج، ثم توجه نحو العراق، وزار البصرة ووصل

إلى أرجان وأقام ببغداد مدة ومنها سافر إلى الموصل فحلب حيث طابت له الإقامة بها بصحبة كمال الدين بن عمر بن محمد المعروف بـ ابن العديم. وأقام عند الملك الناصر حفيد صلاح الدين الأيوبي ونظم فيه أشعار مدح. وبعد فترة توجه إلى دمشق وصار من جلساء السلطان المعظم ابن الملك الصالح، وبعد أداء فريضة الحج مرة أخرى سنة 652/ 1254 م تحول إلى تونس فنزل عند صديقه أبي العباس أحمد التيفاشي، والتحق بحاشية أبي عبد الله المستنصر الحفصي، وظل مقيماً بتونس مدة طويلة قد تصل إلى نيف وعشرين سنة ظل أثناءها حريصاً على معرفة أخبار الأندلس عن طريق العلماء الوافدين على البلاط الحفصي، لكنه اضطر في الأخير بفعل الدسائس إلى التوجه ثانية إلى المشرق فزار الشام ثم إيران وتوغل في إقليم ارمينية، وحظي بضيافة الفاتح المغولي هولاكو ثم تنقطع أخباره لمدة حوالي عشرين سنة. فلا يعرف مكان أو تاريخ وفاته بالضبط، إذ تختلف الروايات بشأنها، فمنهم من يذهب إلى أنه قد وافته المنية بدمشق ومنهم من يذكر أنه مات بتونس التي يرجح أنه عاد إليها في أواخر حياته ومكث بها ما يقارب عشر سنوات وذلك فيما بين 673 ـ 685 هـ/ 1274 و1286 هـ.

نال علي بن سعيد تقدير علما عصره حيث قال عنه المقري في نفح الطيب «أنه أديب زمانه غير مدافع» وقال عنه ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار «أنه أديب مبدع ولبيب ممتع» ولا غرو في ذلك فعلي بن سعيد كان يتميز بخيال الشاعر ودقة العالم وهو أديب مبدع يتصف أسلوبه بسلامة اللغة وحسن التعبير ودقة الوصف والإحاطة بالموضوعات، وهذا ما جعله مرجعاً مفضلاً لكل من القلقشندي وأبو الفداء، وابن خلدون والمقري وغيرهم من المؤرخين والكتاب.

عرف أبو الحسن علي المغربي بكثرة تآليفه وتنوع اهتماماته فالمقري في نفح الطيب والمقريزي في الخطط، والقلقشندي في صبح الأعشى. وأبو الفداء في تقويم البلدان، والكتبي في فوات الوفيات. وحاجي خليفة في كشف الظنون نسبوا إليه العديد من التآليف التي يرجح أن بعضها تكرر ذكره، ووقع اللبس فيه لأنه يحمل عناوين مختلفة وبعضها الآخر ربما يكون نقلا لكتب أخرى أهمل ابن سعيد ذكر مؤلفيها، فلا يعقل أن يكون ابن سعيد قد ألف في حياته التي تتصف بالتقشف

وتتميز بعدم الاستقرار ما لا يقل عن أربعمائة كتاب حسب رواية المقري. ومما يعزز رأينا هذا أن جل مؤلفات ابن سعيد وهي تربو عن ستة وأربعين كتاباً ضاع جلها ولم يصلنا منها إلا القليل، نذكر ما أشار إليه أغلب من ترجم لابن سعيد المغربي وهي: في الأدب والمؤانسة: كتاب ملوك الشعر، والمقتطف في أزاهير الطرف. وكتاب المحلى بالأشعار، وحل الرسائل، ورسالة الغراميات، وريحانة الأدب في المحاضرة، ونتاج القرائح في مختار المراثي والمدائح، ومقدمة على كتاب جامع المرقصات والمطربات لمحمد بن يعلى الأزدي، والملتقط من السلك من حلى العروش الأندلسية، ورايات المبرزين وغايات المميزين، وحيا المحل وجن النحل، بالإضافة إلى ديوان شعر من نظمه.

وفي التاريخ والتراجم: الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد وهو في تاريخ أسرته، ونشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ولذة الأحلام في تاريخ أمم الأعاجم، وتاريخ مرتب على السنين، وكنوز المطالب في آل أبي طالب، والغصون اليانعة أو القوة الطالعة في محاسن شعراء المائة السابعة، والفتح المعلى في تاريخ المحلى، والمشرق في حلي المشرق، والمغْرِب في حلي المغْرِب أو المعرب عن سيرة ملوك المغرب وهو كتاب جمع الطرائف الأدبية والأخبار، شاركه في تأليفه أفراد أسرته واعتنى به خاصة جده عبد الملك وأبوه موسى قبل أن يتولى هو إتمامه فاكتمل تأليفه بالموارثة في مدة مائة وخمسة عشر سنة (550 ـ 665 هـ). وفي الرحلات والمسالك: النفحة المسكية في الرحلة المكية وسجل فيها رحلته الأولى إلى الحج، وعقدة المستنجر وعقلة المستوفر، ووصف فيها رحلته الثانية إلى المشرق (666 هـ) وكتاب الجغرافية أو مختصر الجغرافيا في الأقاليم السبعة أو كتاب فلك الأرب أو بسط الأرض، وهو ما نتناوله بشيء من التفصيل لخصوصيته العلمية.

وضع علي بن سعيد كتاب الجغرافية أثناء إقامته بالمشرق في غضون الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته على الأرجح. وذلك حسبما يفهم من فقرة وردت فيه إشارة إلى استيلاء هولاكو المغولي على حلب (658 هـ/1260 م) وقد اعتمد فيه على تقاييده الجغرافية ورجع إلى ما تضمنه كتاب المغرب في حلي المغرب

وإلى كتاب المشرق في حلي المشرق. وليس كما ذهب إليه البعض بأنه مختصر لكتاب بطليموس في الجغرافية. ولعل ما يرجح أن كتاب الجغرافية هو فعلا من تأليف علي بن سعيد هو قول ابن سعيد نفسه في مقدمة كتابه المقتطف من أزاهير الطرف. . . «كان والدي قد جمع كتاب المشرق في حلي الشرق وكتاب المغرب في حلي المغرب. وجل جهدي في تكميل هذين الكتابين على ما رسم لي. . .» هذا ولا نستبعد فكرة أن كتاب الجغرافية هو في الواقع مقدمة لكتابي حلي المغرب وحلي المشرق المشار إليهما والذين جمعا في مؤلف واحد هو كتاب فلك الأرب المحيط بحلي لسان العرب، وقد يكون قلد فيها إلى حد ما بطليموس ولم ينقل عنه سوى ما أشار إليه بالتنصيص «قال بطليموس».

اعتمد علي بن سعيد في كتابه الجغرافية على التقسيم التقليدي للأقاليم فأثبت الأقاليم السبعة المعروفة لدى الجغرافيين العرب مضيفاً إليها إقليمين آخرين وهما المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب والمعمور ما بعد أقصى العمارة في الشمال، وفي التعليل تطويل، وبذلك يكون مجموع الأقاليم المعورة تسعة أقاليم كل إقليم ينقسم إلى عشرة أجزاء مرتبة من خط الاستواء نحو الشمال على درجات العرض مع ذكر سعتها (الأقليم الأول 27'/ 16° والثاني 31'/ 14°، والثالث 12'/ 30° والرابع 36° والخامس 31'/ 41° والسادس 45° والسابع 48°).

استهل ابن سعيد كتابه بقوله «الأرض كروية يحيط بها الماء وهما واقفان بالمركز في قلب الأفلاك ودورها ثلاثمائة وستون درجة. . . والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات التي بالبحر المحيط بالغرب (جزر كناري) إلى جزائر السيلي التي بالبحر المحيط بالشرق (كوريا واليابان) مائة وثمانون درجة. . . وعرض المعمور من أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال ثمانون درجة، وما بعد ذلك في الجنوب لا يكن لقوة حرارة الشمس في الحضيض التي لها هناك وما بعده في الشمال لا يكنّ لقوة البرد، وقد تأثر في تقسيمه هذا بالمعلومات الفلكية المعروفة آنذاك فالتزم بأبعاد الأرض اعتماداً على خطوط الطول والعرض واختلاف الأقاليم من حيث المناخ وألوان وطبائع الأجناس، فالإقليم الأول والثاني سكانه سود ومناخه حار رطب والإقليم الثالث سكانه سمر ومناخه حار وجاف والإقليم الرابع

سكانه بين أحمر وأبيض وأسمر وأصفر وهو أعدل الأقاليم وأحسنها حيواناً ونباتاً، والإقليم الخامس والسادس والسابع فيه الزرق والشقر ويكثر بينهم النمش ويحتاجون إلى الدفء، وينص على ذلك بقوله: ولا «تتماشى لهم حال في الشتاء إلا بالنجارات التي يوقدون فيها النار في بيوتهم وذلك فيما أزيد بعده إلى الشمال».

وورد ذكر بلاد المغرب في الإقليم الرابع (المناطق الشمالية) والثالث (الجهات الصحراوية) ففي الإقليم الرابع الجزء الأول: ورد ذكر مازغان. آزمور، آنفاً، سالا، رباط الفتح، العرايش، طنجة، سبتة، بادس مليلة، آرشقول، هنين، وهران، تلمسان، مكناس، قصر عبد الكريم، نصر كتامة. قلعة فارّاز وفي الجزء الثاني جاء ذكر مدينة تنس، مستغانم، الجزائر، دلس، بجاية، القل قسنطينة، بونة (عنابة)، مرسى الخرز، طبرقة، بنزرت، تونس الحمامات. سوسة، المهدية، المرج، درنة، طبرق، وفي الإقليم الثالث في الجزء الأول منه مراكش، آغمات، ماست، آسفى، تارودانت، سجلماسة، تاكلا، تينملل، وفي الجزء الثاني منه يذكر أركلان (ورقلة). بسكرة، المسيلة، قفصة، وفي الجزء الثالث، توزر، غدامس، زويلة، سرت، أوجلة.

أوضح علي بن سعيد منهجيته في كتابه الجغرافية فقال: «متى ذكر بلد... في علم الجغرافية ترسم صورته ثم يذكر من حيوانه ونباته ومدنه ما يتركب من ذلك إلى ما يتعلق بوصف الأنهار والمنتزهات مما يتحلى به المحاضرة...» وهو في ذلك يستشهد بالجغرافيين السابقين أمثال بطليموس، أو يقتبس من روايات الملاحين العارفين بالأقاليم البعيدة مثل ابن فاطمة الذي استقى منه علي امتداد شواطىء إفريقيا الشرقية، وطبيعة الملاحة العربية في المياه الجنوبية الغربية للمحيط الهندي وعلاقة العرب ببلاد الزنج بشواطىء إفريقية الشرقية، وهي أهم ما تضمنه كتاب الجغرافية، بالإضافة إلى معلوماته عن شعوب القوقاز وبلاد الروس، وما ورد فيه من وصف لمدن البلاد الإسلامية وخاصة منها أقاليم المغرب. وهذا ما جعل كتاب الجغرافيا مصدراً مهماً نقل عنه القلقشندي في صبح الأعشى، وأبو الفداء في تقويم البلدان، وابن خلدون في العبر والمقرى في نفح الطيب،

وذلك لأهمية المعلومات التي يتضمنها والتي تعطي صورة صادقة عن واقع العالم الإسلامي خاصة في القرن الثالث عشر الميلادي قبل دخوله مرحلة الانحطاط وبداية تراجعه الحضاري.

نشر مؤخراً كتاب الجغرافية من طرف الباحث إسماعيل العربي مع مقدمة ضافية ودراسة عن المؤلف اعتماداً على نسخة المكتبة الوطنية بباريس «رقم 2234» منقولة عن الأصل بخط أبي الفداء، صدرت بالجزائر 1970 م.

المراجع المعتمدة:

- ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي، كتاب الجغرافية، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، الطبعة الثانية، الجزائر 1982.
- فوات الوفيات، ج2، ص ص 178 – 184.
- مصطفى الشهابي، الجغرافيون العرب، القاهرة 1962.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 382 – 387.
- زكي (عبد الرحمٰن) المغرب في حُلي المغرب لابن سعيد الأندلسي، المجلة التاريخية المصرية المجلد 4/القسم 2/ 1952 ص ص 254 ـ 256.
- تاريخ الفكر الاندلسي، ص ص 242 ـ 248.
- مؤنس (حسين)، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص 461 ـ 501.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج3، ص ص 37 ـ 39.
- الأعلام، ج 5، ص 26.
- معجم المؤلفين ج 7، ص 249.
- تاريخ الأدب العربي، ج 6، ص ص 94 ـ 95.
- Pellat (Ch.) Ibn Sai'id Al. Mghribi in Encyclopédics de l'Islam, Nou. ed. Paris - Leiden, 1961, T 3, pp 950 - 951.

الإقليم الرابع: أعدل الأقاليم وأحسنها حيواناً ونباتاً وهو أوسط الأقاليم السبعة الجزء الأول. . . ومنه ارشقول فرضة تلمسان وحيث ينصب النهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلاً. ومنه إلى فرضة هونين اثنا عشر ميلا، ومنها إلى فرضة وهران المشهورة ثمانون ميلا، وهي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية وميناؤها مشهور مأمون في الهول.

وتقع تلمسان المشهورة حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة. والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وأربعون دقيقة وبينها وبين ارشغون عشرون ميلاً. وبينها وبين هونين ثلاثون ميلاً. وهي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة. ومنها تحمل ثياب الصوف المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب. وتحمل منها ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك. والأندلسيون يقولون كأنها من مدن الأندلس لمياهها وبساتينها وكثرة صنائعها. ويقع في غربيها بانحراف إلى الجنوب مدينة الرباط حيث الطول اثنتا عشرة درجة والعرض ثلاث وثلاثون درجة غير عشر دقائق.

وفي شرقي جبل مديون جبال مدغرة. وهم من قبيل عبد المؤمن. وهو أعلى هذه الجبال حيث الطول ثلاث عشرة درجة والعرض سبع وثلاثون درجة. ويتبع نهر ملوية الكبير الذي تقدم ذكره. وفي شرقي جبال مدغرة جبال يسر ومنها ينبع نهر يسر المتقدم الذكر. ويتصل بها من شرقيها جبل وانشريس الذي تعمل فيه البسط الملوكية. وهي لبني توجين من زناتة. ممتد بقرب خط الإقليم الثالث. ومنه ينبع نهر الشلف الكبير المشهور ويخرج من هذا الجزء إلى الثاني وينصب عند مستغانم وهو مثل النيل يزيد أيام نقص الأنهار. وعليه مجالات مغراوة من زناتة.

الجزء الثاني ـ «أول ما يلقاك منه مدينة تنس، وهي مشهورة بكثرة القمح ومنها ما يحمل في المراكب إلى سواحل الأندلس وغيرها. وهي الآن قاعدة مغراوة من زناتة، وموضوعها حيث الطول ثمان عشرة درجة واثنتا عشرة دقيقة والعرض

ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة. ولها نهر يأتيها من جنوبها وينصب في البحر بشرقيها وبين البحر ميلان، وفي شرقيها مستغانم وهي فرض مغراوة. وبينهما ستون ميلاً. وينصب في شرقيها نهر الشلف المتقدم الذكر، وعرض البحر هناك إلى ساحل دانية من الأندلس نحو ثلاث مجار ونصف. وفي شرقيها مدينة الجزائر. وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية. حيث الطول عشرون درجة وثمان عشرة دقيقة والعرض ثلاث فرضة مشهورة. وفي شرقيها قاعدة الغرب الأوسط بجاية. حيث الطول اثنتان وعشرون درجة والعرض أربع وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة ولها نهر في نهاية من الحسن على شاطئيه البساتين والمتنزهات، ويتفرج فيه أصحاب المراكب، ينصب إلى البحر بشرقيها، ومنبعه من جهة شقرا بصحراء الجنوب. وعرض البحر عند بجاية إلى جهة طرطوشة، من الأندلس ثلاث مجار، وعلى الساحل الذي بشرقي بجاية جبال الرحمة. تقاسي المراكب في بحرها هولا شديداً وسكانها من عصاة البرابر، أرضهم حصينة فيها القطن والتين. وفي شرقيها القل، وهي فرضة مشهورة في ساحل قسنطينة الهوى. وبينهما أربعون ميلاً. وموضوع قسنطينة في جنوبها. حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتان وعشرون دقيقة ولها نهر ينصب في خندقها العظيم الشرقي يسمع له دوي هائل دائر من أعلى المدينة في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لبعد المسافة وهذه المدينة على آخر سلطنة بجاية. وأول سلطنة افريقيا على البحر مدينة بونة وهي من حيث الطول ثمان وعشرون درجة والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ولها نهر متوسط ينصب في البحر بغربيها وفي شرقيها مرسى الخرز المخصوص بالمرجان وأمامه في البحر في هذا الجزء سردانية الجزيرة المشهورة التي يوجد فيها المرجان، وهو شجر في البحر مستحجر يخرج أبيض اللون ليناً، فإذا ضربه الهواء احمرّ وصلب. ومدينة هذا المرسى حيث الطول تسع وعشرون درجة ودقائق والعرض يقارب عرض بونة.

أبو الحسن بن علي بن موسىٰ بن سعيد المغربي

كتاب الجغرافية، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي

ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982 ص ص 140 ـ 143

أبو عبد الله محمد العبدري

(ت بعد سنة 688 هـ/1289 م)

أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحاجي ينحدر من أسرة بلنسية (أندلسية) يعود نسبها إلى قريش استقرت بإقليم حاحة من بلاد المصامدة القريبة من الصويرة (موقادور) بالمغرب الأقصى، حيث ولد محمد العبدري حوالي منتصف القرن السابع الهجري. وبعد أن تلقى تعليمه على فقهاء حاحة دفعته رغبته في طلب المزيد من العلم والمعرفة من علماء المغرب والمشرق إلى القيام برحلة لأداء فريضة الحج، فكان نتيجة هذا السفر من موطنه نحو الحجاز ذهاباً وإيابا رحلته المشهورة «بالرحلة العبدرية»، والتي وضع لها عنواناً طريفاً وهو: «ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق. . .».

انطلق محمد العبدري في رحلته من إقليم السوس بالمغرب الأقصى، وعندما وصل إلى تلمسان بالطريق الصحراوي بدأ في تسجيل مشاهداته وإثبات ملاحظاته وتقييد اطلاعاته وذلك سنة 688 هـ/ 1289 م، وقد أثبت ذلك بقوله: «وهذه الرحلة بدأتُ في تقييدها في تلمسان ولم يمكن إظهارها هنالك، وأظهرتها بعد خروجنا منها ووقفت عليها شيوخنا بمصر وغيرها. . .».

سلك محمد العبدري في رحلته طريق الحج المعتاد من المغرب الأقصى نحو الاسكندرية ومنها نحو الحجاز مروراً بحواضر المغرب سالكاً طريق «التل» عبر المغرب الأوسط فزار تلمسان، ومليانة، والجزائر، وبني ورار، وميلة، وقسنطينة، وبونة (عنابة) وقرية الخولان، وباجة، وتونس، والقيروان، وقابس، وزنزور، وطرابلس، ومصراتة، وسرت، ثم عبر إقليم برقة، واجدابية، فالاسكندرية ومنها توجه إلى القاهرة عن طريق قليوب ومليح وفرما، وبيار،

والمفافة، ودمنهور، وفي طريق العودة عرج على الاسكندرية ومنها انتقل إلى المغرب سالكاً طريق القوافل فعبر محطات العربان ومر على العقبة الصغرى، والعقبة الكبرى والبطنان وقصر الضعاعنة، ثم توجه نحو الحضوي وأبي شمال وجرسون، ومرارة، وحصن سوسة وأرض برنيق، ثم اجتاز قصر قمينس وقصر جليط ومنهما إلى أجدابية، ثم برية سنانة ومنهوشة وسرت. بعدها مر بالشبيكة ليصل إلى مصراتة ثم سويقة بن مطكوك (لبدة) ومنها إلى بني حسن ومسلاتة فطرابلس.

واصل محمد العبدري رحلته من طرابلس نحو تونس عن طريق الساحل فمر بقابس وصفاقس وقصر الجم والمهدية والمنستير وسوسة ومنزل أبي نصر والحمامات، ومن تونس توجه نحو المغرب مروراً بباجة وخولان وقسنطينة وبجاية وملالة ومليانة ومازونة ووهران وتلمسان ووجدة، ومنها إلى تازة وفاس ومكناس وآزمور ليستقر أخيراً بمواطن قبيلة حاحة حيث طاب له المقام منقطعاً للعلم والعبادة حتى وافته المنية أواخر القرن السابع الهجري.

لقد كان العبدري عارفاً باللغة مسيطراً على الأسلوب مشاركاً في الفقه ناقد للشعر راوياً للأمثال مطلعاً على كتب الرحلات والتاريخ، وقد اعتمد فيما سجله في رحلته على مشاهداته واتصالاته الشخصية وعلى ما روي له. دون أن يهمل ما كتبه الرحالة المتقدمون عنه مثل البكري وابن بطوطة والعياشي، فأظهر فيما أتى به من معلومات وما سجله من ملاحظات أنه قوي الملاحظة يميل إلى التشاؤم غاضب ساخط لا يكاد يجد ما يرضيه إلا في النادر جداً، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان مدفوعاً برسالة تربوية أخلاقية صورها له ماضي الإسلام المجيد وهدفها نشر الفضائل في المجتمع الإسلامي وتربية الإنسان الذي هو أساس هذا المجتمع بتقويم المنحرف وزجره وردعه بأية وسيلة، وبتشجيع وتزكية من يتصف بالفضائل والأخلاق الحميدة، وكان لا يرى في المظاهر العمرانية والطبيعية إلا وسيلة لترقية سلوك الإنسان وقيمتها تكمن في حسن استغلاله لها. كما دفعه موقفه هذا إلى الابتعاد عن المجاملة والمداراة، أما أسلوبه فجاء معبراً عن شخصيته معرباً عن أخلاقه، ولغته مترابطة متناسقة لا ينفصل فيها اللفظ عن المعنى. بعيدة عن

أي تنافر بين معانيها ومراميها، مع ميل إلى السجع غير المتكلف والاقتباس من الآيات والأحاديث والأمثال والحكايات، مع إيراد لبعض قواعد العروض والنحو، الأمر الذي أثقل رحلته وإن لم ينقص منه قيمتها، يستشف القارىء المتمعن لها رقة عواطف العبدري، وجمال نفسه وعميق خبرته، إلا أنه وتماشياً مع موقفه من الحياة ونظرته إلى المجتمع كان لا يحجم عن إبداء رأيه ونقد ما يراه بدعة أو خروجاً عن الشرع، كإنكاره لبعض عادات أهل زواوة وزواغة وجربة.

أوضح العبدري طريقته في تأليف رحلته بقوله: «فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه وتعالى إلى تقييد ما أمكن تقييده... حسبما أدركه الحس والعيان وقام عليه بالمشاهدة والبرهان... مسطراً لما رأيته بالعيان، ومقرراً له بأوضح بيان... حتى يكون السامع لذلك كالمبْصر، وأذكر مع ذلك ما استفدته من خبر وأنشدته من درر،... وأضيف إلى ذلك ما يضطر إليه البيان فيما قصر فيه العيان من نبذ مذكورة، ونتف مشهورة، ونكت مرسومة في الكتب مسطورة...».

حرص العبدري في رحلته على تسجيل علاقاته ومحاوراته مع العلماء أمثال أبي علي الحسن بن بلقاسم بن باديس القسنطيني، وأبي عبد الله محمد بن خميس التلمساني، وأبي علي حسين بن محمد الطبلي الباجي، والأخوين أبي الحسن وأبي إسحاق بن يخلف التنيسي، وصالح بن أحمد الشاطبي البجائي، وأبي عبد الله محمد بن هارون القرطبي التونسي، وأبي عبد الله محمد النّفزي التونسي وأبي محمد عبد الله بن عبد السيد الطرابلسي وغيرهم، كما قام العبدري بوصف المدارس والخانات والطرق وحالة الاقتصاد والعمران، بالإضافة إلى تسجيل بعض الملاحظات التي يغلب عليها نوع من التشاؤم الذي كان مبعثه حالة البلاد المتردية وتقهقر العلم وقلة العطاء في ذلك العصر ببلاد المغرب، كما كان كثيراً ما يبدي تأسفه لانكماش العمران وانعدام الأمن وضعف الثقافة بالمدن التي مر بها، فقد تنبه بحسه الثقافي ونظرته المثالية إلى توقف العلماء الحضاري بالغرب الإسلامي في عهده (القرن 7 هـ/ 13 م) فعبر عن ذلك بعبارات ملؤها التشاؤم والأسى حتى أن القارىء في رحلته قد يعتريه شك في أحكامه، إذ رغم الازدهار النسبي للحياة الثقافية في عصره إلا أنه يصفها قائلاً: «وقد تعطل في هذا العصر موسم الأفاضل،

وتبدد في كل قطر نظام الفضائل وتفرق أهلها أيدي سبا، وصاروا حديثاً في الناس مستغرباً. فعادوا اسماً بلا مسمى وحرفاً ما دل على معنى..» كما وصف بعبارات لا تقل مرارة وقسوة عن ذلك حالة الأمن في ذلك العهد بقوله: «أوليس من الأمر الأمر... أن المسافر عندما يخرج عن أنظار مدينة فاس لا يزال إلى الإسكندرية في خوض ظلماء وخبط عشواء، لا يأمن عن ماله ولا على نفسه، ولا يأمل راحة في غده... تتعاطاه الأيدي الغاشمة. وتتهاواه الأيدي الظالمة، فيستنجد ويستغيث، وأنى له بالمنجد المغيث...» كما يشكو لأبي الحسن بن يخلف التنسي قلة رغبة أهل المغرب في العلم، ويصف تلمسان قائلاً: «فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمان وأخلت به حوادث الحدثان». ويقول عن بجاية «أن بحر العلم بها قد غاض وعفا رسمه حتى عاد طللاً. ويصف ميلة بأنها «بحوادث محيلة» أما قسنطينة التي ينعتها بالمدينة العجيبة الحصينة فيقول عنها «بأنها لخطوب الزمان مستكينة قد ذبلت ببوارج الغري وفوادح الضرر». ويعلق على بونة (عنابة) قائلاً: «بلدة بطوارق الغير مغبونة». أما القيروان فيبدي تأسفه إلى ما آلت إليه أحوالها وأحوال أهلها فيقول: «لم أر بها إلا رسوماً محتها يد الزمان، وآثاراً يقال عنها كان وكان. والأحياء من أهلها جفاة الطبع، ما لهم من رقة الحضارة باع ولا معنى من معاني الإنسانية انطباع... لم أر بها ما يؤرخ وما لا يتهمم بذكره سوى جامعها ومقبرتها». ولم تكن طرابلس هي الأخرى أحسن حالاً من غيرها فهي حسب وصفه: «أقفرت باطناً وظاهراً. وذمها الخبير بها سائراً وقاطناً» هذا وقد يتجاوز العبدري التأسف إلى الذم مثل قوله عن قابس «ذات المخبر الخبيث والمحيا العابس» وبمثل هذه الأوصاف والملاحظات والتعليقات التي تطبعها الصراحة إلى حد القسوة رسم العبدري صورة حية عن أوضاع البلاد المغربية التي مر بها، والتي تميزت آنذاك بالتراجع الاقتصادي والانكماش الديمغرافي والجمود الثقافي الذي طبع القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي». مما يجعل الرحلة العبدرية مصدراً أساسياً ومرجعاً لا غنى عنه لدراسة أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لبلاد المغرب في فترة بداية ضعف الدول الإقليمية (الحفصية والزياتية والمرينية)...

اهتم المؤرخون المتأخرون برحلة العبدري فاقتبسوا منها، وحاول بعضهم تلخيصها مثلما فعل ابن قنفذ القسنطيني الذي وضع لها مختصراً بعنوان «المسألة السنية في أخبار الرحلة العبدرية» فساهم ذلك في تعدد نسخها، وتوزعت على أمهات المكتبات العالمية. وقد قام مؤخراً أحمد بن جدو بإصدارها ضمن منشورات كلية الآداب بجامعة الجزائر اعتماداً على نسخ المكتبة الوطنية بباريس وليدن بهولندا ومكتبة جامعة الجزائر وجعل لها مقدمة ووضع لها فهارس متنوعة لكنها تضمنت أخطاء عدة أنقصت من قيمتها العلمية، ثم قام في السنوات الأخيرة بتحقيق الرحلة كل من محمد الفاسي وأفور. وصدرت بالرباط في طبعة جيدة (1968).

المراجع المعتمدة:

- العبدري (محمد) الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جَدو، منشورات كلية الآداب الجزائرية، مطبعة قسطينة 1965.
- العبدري (محمد) الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ص 397 ـ 400.
- جذوة الاقتباس، ص ص 179 ـ 180.
- شجرة النور الزكية، ص 217.
- تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص 634، والذيل: 1/ 883.
- الدباغ، (محمد بن عبد العزيز) من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، مكتبة الأمة، الدار البيضاء، 1992، ص ص 151 ـ 153.
- فهرس الفهارس، ج 2، ترجمة 451، ص 809.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص 518 ـ 528.
- النيفر (علي)، تونس في القرن السابع كما وصفها أبو عبد الله محمد بن أحمد العبدري في رحلته، المجلة الزيتونية، المجلد الثاني، العدد 8/9 1937، ص ص 122 ـ 126، 176 ـ 180 و 34 ـ 387.
- الفاسي (محمد) الرحالة المغاربة وآثارهم مجلة دعوة الحق (المغرب)، العدد 2، نوفمبر، 1958 ص 27.

ـ الفاسي (محمد)، العبدري، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد. مجلد 9 ـ 10/61 ـ 1962 ص ص 1 ـ 14.
ـ تاريخ الفكر الأندلسي، ص 318.

- Cherbonneau, Notice et extraits du voyage: d'El. abdery, in Journal Asiatique, 5e série, 1854 II pp, 144 - esq.
- Honerbach (W.) Itinerar des abdari. Z D M. G, XLIV, p 193 esq.
- Bencheneb (M. Al'. Abdari, in Encyclopédie de l'Eslam, nouvelle, édition Paris - Leiden, II, pp. 98 - 99.
- Motylinski Itinéraire entre Tripoli et l'Egypte in bulletin de Société de Géographie d'Alger, Alger, 1904 p 71- 77.

العبدري بمدينتي الجزائر وقسنطينة

ثم وصلنا إلى الجزائر وهي مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر. ويقف على جمالها خاطر الخاطر قد حازت مزيتي البر والبحر. وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق وسور معجز وثيق وأبواب محكمة العمل يسرح الطرف فيها حتى يمل ولكنها قد أقفرت من المعنى المطلوب كما أقفر من أهله ملعوب فلم يبق بها من هو أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلاً عن عالم يكشف كربة أو أديب يؤنس غربة. فكأني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض الأنوق. ثم وصلنا إلى مدينة بجاية مبدأ الاتفاق والنهاية. وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية سنية سرية. وثيقة البنيان عجيبة الاتقان رفيعة المباني، غريبة المعاني. موضوعة في أسفل جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر. مشرفة عليهما إشراف الطليعة متحصنة بهما منيعة فلا مطمع فيها لمحارب ولا متسع فيها لطاعن وضارب ولها جامع عجيب منفرد في حسنه غريب. من الجوامع المشهورة الموصفة المذكورة وهو مشرف على برها وبحرها. وموضوع بين سحرها ونحرها. فهو غاية في الفرجة والأنس. ينشرح الصدر لرؤيته وترتاح النفس، وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رعاية. ولهم في القيام به تهمم وعناية. فهو بهم مأهول عامر يتخلل أنسنه مسلك الأرواح ويخامر، وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلة من العلماء الأعلام. وله مع حسن المنظر طيب المخبر. ومع المرأى الرائق المعنى الفائق، ومن الحصانة ووثاقة البنيان ما أزرى بارم وغمدان، ولأهله من حسن الخلق والأخلاق ما أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والأعراق.

غير أنه اعتراه من الغير ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر، قد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشالا. وعفا رسمه حتى عاد طللا. وبه آحاد من طلبة العلم قد اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر. وسلكوا في ترك تصحيح الرواية

طريقاً لم يرضها أعلام الأكابر. ولم أر بها أهل الشيمة الفضلاء والطريقة المثلى أمثل من الشيخ الفقيه الخطيب الصالح المسند الرواية أبي عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي حفظه الله. . .

ثم وصلنا إلى البلد الذي نشفت الخطوب معينه، وأبت الأقدار أن تكون له معينة. بلد الوضع العجيب والموضع الخصيب مدينة قسنطينة جبر الله صدعها. وكفاها من نوائب الدهر ما واصل فرعها. وهي مدينة عجيبة حصينة غير أنها لخطوب الزمان مستكينة. قد ذبلت ببوارح الغير وفوادح الضرر. ونضبت لسهام الآفات وعظائم الملمات حياضها حتى صارت كالحسناء لبست أسمالاً والكريم فقد مالاً. والبطل أثخنته الجراحة حتى لا يطيق احتمالا. فهي ترى الحوادث لمحاً باصراً وتنادي بلسان الحال ذل لو أجد ناصراً «خفيفاً»:

من رايَت المنون خلدن أم من ذا لديه من أن يضام خفير

وبها للأوائل آثار عجيبة، ومبان متقنة الوضع غريبة وأكثرها من حجر منحوت يعجز الوصف إتقانه ويفوت، وقد دار بها واد شديد الوعر. بعيد القعر. أحاط بها كما يحيط السوار بالمعصم ومنعها كما يمنع النوق الأعصم. ولكن سهام الدهر لا تقيها الجنن ولا تمنع منها الفتن. وريب المنون وصرف الزمن قد أعيت الحيلة فيها من ومن. ولم أر بها من ينتمي إلى طلب. ولا من له من فن من فنون العلم أدب. سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس وهكذا قيد لي اسم ابنه بخطه مخلوطاً. وقال لي إنه اسم وكنية. وهو شيخ من أهل العلم يذكر فقهاً ومسائل ذو سمت وهيبة ووقار. وليس في البلاد من يذكر بعلم سواه البتة. وليست له بالرواية عناية. ولم يرو إلا الموطأ وحده، فإنه قرأه على الشيخ الفقيه المحدث أبي يعقوب يوسف، بن موسى الغماري المحساني حين خطر على قسنطينة راجعاً من المشرق. فأقام عندهم مدة لتوالي الأمطار.

محمد العبدري البلنسي الحاجى
الرحلة المغربية
تحقيق أحمد بن جدو، الجزائر، 1965،
ص ص 23 ـ 29

أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني

(ت 704 هـ/ 1304 م)

أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله بن علي الغبريني ولد حوالي 644 هـ/ 1246 م بمواطن قبيلة بن غبري البربرية بأعالي وادي سباوْ وقرب مدينة العزازقة حالياً. حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادىء العربية والفقة بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى مدينة بجاية القريبة من موطنه، وكانت حاضرة علم وقاعدة ملك آنذاك، ومستقراً لعلماء الأندلس ودار هجرتهم إلى تونس كما أنها العاصمة الثانية للدول الحفصية، فتتلمذ أبو العباس الغبريني على علماء أجلة بها، أخذ عنهم التفسير والحديث والفقه والأصول وعلوم العربية والمنطق والتصوف، وقد ناهز عدد من أخذ عنهم حسب ما سجله هو نفسه سبعين عالماً. كان في مقدمتهم عبد الحق بن ربيع، وقد أخذ علوم العربية عن الشيخ أبي عبد الله التميمي، والمنطق عن أبي العباس بن خالد، والتصوف عن أبي سعيد الحسن، وأصول الدين عن أبي عبد الله الكناني.

عرف أبو العباس أحمد الغبريني بقوة شخصيته وسعة معارفه واهتمامه بالفقه وميله إلى التاريخ وتعاطيه الشعر. فاشتهر أمره وتولى القضاء ببجاية وعُدّ حسب ابن خلدون كبير الشورى بها، كما تولى القضاء في غيرها، وقد كان للوظيف تأثير على سلوكه، إذ ذكر القاضي علي النباهي المالقي في كتابه قضاة الأندلس أن أحمد الغبريني «عندما ولي خطة القضاء، ترك حضور الولائم، ودخول الحمّام، وسلك طريق اليأس من مداخلة الناس».

قدم إلى تونس فنال حظوة في البلاط الحفصي مما أثار حسد بطانة السلطان، وفي أثناء غيابه في سفارة أرسله فيها الأمير الحفصي خالد بن يحيىٰ حاكم قسنطينة

صحبة شيخ القرابة أبي زكريا الحفصي إلى تونس لتأكيد المصالحة والوفاق مع صاحبها السلطان محمد أبي عصيدة (694 ـ 709 هـ) ببجاية نجح حساده في تحويل الأمير عنه وإغرائه بقتله بتهم باطلة. وكان على رأس هؤلاء كبير ضباط القصر ظافر الكبير الذي اتهم الغبريني بالتآمر مع صاحب تونس وبأنه سبق له أن أثار قومه بني غبري على السلطان إبراهيم والد الأمير خالد بن يحيىٰ، فداخله الشك في إخلاصه وتحول عنه وأضمر له شراً وعزم على قتله عند عودته من سفارته، وعندما عاد الغبريني من مهمته إلى بجاية ألقي القبض عليه ونَفَّذ أمر قتله بسجنه الضابط منصور التركي وكان ذلك سنة (704 هـ/ 1304 م) وهذا خلاف ما ذهبت إليه بعض المصادر التي ذكرت بأنه توفي بالطاعون سنة 714 هـ للالتباس بينه وبين أحد أفراد أسرته الذي قد يكون ابنه الذي يحمل نفس الاسم. وهلك فعلاً بالطاعون بعد عشر سنوات من قتل أبي العباس الغبريني.

اشتهر أبو العباس أحمد الغبريني بكتابه في تراجم مشاهير أعلام بجاية وهو كتاب «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بالمائة السابعة ببجاية» عرف فيه بشيوخ العلم ورجال الدين والتصوف والأدب التي ازدانت بهم بجاية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وقد أوضح ذلك في مقدمته بقوله: «إني قد رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عُرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي هو خاتمها. ختمها الله بالخيرات وجعل ما بعدها مبدءاً للمسرات. أذكر منهم من اشتهر ذكره ونبل قدره وظهرت جلالته وعرفت مرتبته في العلم ومكانته».

استهل الغبريني كتابه بترجمات ضافية لبعض علماء القرن السادس عشر/ الثاني عشر الميلادي، منهم أبو مدين شعيب ابن الحسين الغوث دفين العباد بتلمسان (594 هـ/ 1198 م) وأبو علي حسن المسيلي الملقب بأبي حامد الصغير لكونه نهج في كتابه «التفكر» نهج أبي حامد الغزالي في كتابه الإحياء، (ت نحو 580 هـ/ 1185 م) وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي صاحب الأحكام الكبرى والصغرى ومتولي الخطابة بجامع بجاية. (ت 581 هـ/ 1185 م) والشاعر أبو مطرف عمارة بن يحيى الحسني متولي قضاء بعض نواحي بجاية. (ت بعد

585 هـ/ 1189 م)، والولي أبو عبد الله محمد العربي (ت أوائل القرن السادس) وأبو الفضل بن محمد بن تميم القيسي البجائي (ت حوالي 598 هـ/ 1202 م) وقد وضح هدفه من إدراجه لبعض العلماء الذين عاشوا في الفترة السابقة للمائة السابعة قائلاً: «وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ذكر الشيخ أبي مدين والشيخ أبي علي المسيلي والفقيه أبي محمد عبد الحق الإشبيلي رحمهم الله ورضي عنهم. لقرب عهدهم بهذه المائة لأنهم كانوا في أعقاب المائة السادسة للتبرك بذكرهم. ولانتشار فخرهم. . . وأبدأ بهم رضي الله عنهم».

وبعد استعراض تراجم علماء المائة السابعة الذين أخذ عنهم أو سمع بهم أو التقى وإياهم ببجاية مبتدئاً بذكر شيوخه مستهلاً بترجمة الشيخ أبي محمد عبد الحق بن ربيع (ت 675 هـ/ 1285 م) مختتماً بذكر ما عرفه عن الشيخ أبي عبد الله المعروف بابن الجنات (ت: نحو 610 هـ/ 1214 م) فكان مجمل عددهم مائة وشخصية واحدة. وكان عدد من ترجم له مائة وثمانية، من شيوخ علم ورجال فقه وتصوف وصلاح، بعد استعراض كل هؤلاء يخلص الغبريني إلى إثبات برنامج خاص بشيوخه الذين أخذ عنهم معللاً ذلك بقوله: «لما أتيت على ذكر ما شرفت ذكره. رأيت أن أذكر بعد ذلك طريق استفادتي مما استفدته. ووجه تلقي ما تلقيته من العلم وروايته لينتفع به من له إرب وليجده منظوماً كيف يريد من له عليه بحث وطلب». وقد صنف الغبريني شيوخه حسب نوعية المعارف التي أخذها عنهم. وهي: علوم فهم واستيعاب (علم الدراية) وعلوم تلقين وحفظ (علم الرواية) فعلم الدراية حسب ما أثبته يشتمل على: «علم الفقه وعلم الأصلين (أصول الدين وأصول الفقه) وعلم التصوف وعلم المنطق» أما علم الرواية فيضم « تفسير القرآن وعلوم الحديث وعلوم الفقه وعلوم العربية وعلوم التصوف والتذكير. . . » وكان في ذلك حريصاً على رواية ما تلقاه من معارف بذكر أسانيده. فيذكر سنده وسند شيخه إلى أن يصل إلى المؤلف الأصلي. فهو مثلاً في ذكره لكتاب الكشاف للزمخشري يورد أنه حدثه به أبو عبد الله محمد الكناني عن أبي الحسن علي بن السراج عن أبي عبيد الله السلفي عن مؤلفه الزمخشري.

يعتبر كتاب عنوان الدراية من أجل الكتب وأغزرها مادة وأعظمها فائدة فهو

حسب تعبير عبد الوهاب بن منصور «من الكتب التي تكتب سطورها بماء الذهب ويفتخر بتأليفها أهل المغرب الأوسط، ولولاه لجهل أعلام وضاع علم كثير». ويتميز الكتاب خاصة: بأنه حصيلة مركزة لمادة تاريخية غزيرة حرص مؤلفها على جمعها ثم اضطر إلى اختصارها في السنوات الأخيرة من حياته المتميزة بالاضطراب والمآمرات، فلم يذكر منها إلاّ ما رآه ضرورياً كتاريخ الولادة والوفاة إن توفر له بالنسبة للشخصية المترجم لها أو نشاطها العلمي وما اشتهرت به بعبارة بسيطة مركزة مثل: فقيه ورع أو شاعر أديب أو مؤرخ مع إضافة الدلالة اللفظية على إتقانه للعلم واشتهاره به مثل قوله: المتقن. . .» وهو لا يغفل مع ذلك الإشارة إلى الأحداث التي عرفتها بجاية وبعض بلاد المغرب وإفريقيا والأندلس والتي تتعلق بالأوضاع الاجتماعية والواقع الاقتصادي والسياسي، ولا سيما ما يهم الحياة الثقافية التي نجح الغبريني في تكوين صورة متكاملة عنها إلى حد كبير في فترة الهجرة المكثفة لعلماء الأندلس نحو تونس مروراً ببجاية التي كانت محطة استقبال لهم وموطن استقرار لبعضهم، كما يتميز كتاب عنوان الدراية بكونه انعكاساً لثقافة العصر وتعبيراً عن اهتمامات وميول مؤلفه. فهو يظهر في سياق عرضه ضجراً من الحياة السياسية. ويعبر عن نزعته في اعتزال الناس هرباً من الحياة المضطربة على عهده في بجاية، والتي ذهب في آخر الأمر ضحية لها. وكان لا يرى مخرجاً من ذلك إلا بتقليد السلف الصالح والنزوع إلى حياة التصوف والزهد. مبدياً ذلك في وصفه للشخصيات التي ترجم لها غالباً بـ «الفقيه الورع المتقن» ويذكر ما تميزوا به من صلاح وما اشتهروا به من علم وورع وتقوى مما يتوجب التبرك بهم والاقتداء بأفعالهم. ويعبر عن ذلك قوله «وليس القصد في هذا «نموذج الاستكثار من كتب الكتاب وشعر الشعراء وإنما القصد الإيذان والإعلام».

وإذا تجاوزنا الجانب التاريخي من عنوان الدراية إلى لغته وأسلوبه فإننا نلاحظ أنه تعبير صادق عن أسلوب عصره ومستوى ثقافته. إذ يتميز باستخدام السجع لكن في عبارات قصيرة بعيدة عن التنميق والتكلف والإغراق في المحسنات البديعية. الأمر الذي جعل عباراته تتميز بالاختصار وتكاد تحاكي طريقة الحيثيات القضائية ومنطقية الأحكام الفقهية.

اعتنى محمد بن أبي شنب بكتاب عنوان الدراية وعمل على نشره بالجزائر 1910 ثم قام رابح بونار بتحقيقه ووضع مقدمة له وطبع بالجزائر (1971) ثم أخرجه عادل نويهض في بيروت وصدرت له طبعتان الأولى في 1969 والثانية سنة 1979 .

المراجع المعتمدة:

- الغبريني أبو العباس (أحمد) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق ونشر عادل نويهض ط 2 دار الآفاق الجديدة، بيروت 1979 .
- نفح الطيب ج 2، ص ص 185 ـ 190، 208، 617، ج 4، ص 320 .
- أعلام المغرب، ج 4، ص ص 240 ـ 242 .
- فهرس الفهارس، ج 2، ص ص 883 ـ 884 .
- تعريف الخلف، القسم الأول، ص ص 25 ـ 31 .
- معجم أعلام الجزائر، ص 248 .
- المرقبة العليا ص 132 .
- الاعلام، ج 1، ص 87 .
- كتاب العبر، ج 6، ص 719 .
- البربامج، ص 68 .
- وفيات الونشريسي، ص 98 .
- شجرة النور الزكية، ج 1، ص 215 .
- الديباج المذهب، ج 1، ص 252 .
- درة الحجال، ج 1، ص 10 .
- ابن قنفذ، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1971. ص 338 .
- معجم المؤلفين، ج 1، ص 151 .

التعريف بأبي محمد الأنصاري

فمنهم شيخنا الفقيه، الإمام العالم المحصل. المحقق المجيد، الصوفي المجتهد، أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري ت 775 هـ / 1285 م، أصله «من آبّدة (من الأندلس) وجده عمر هو الواصل إلى بجاية مستوطناً.

ولد ببجاية وقرأ بها ولقي مشائخ، وكان رحمه الله روح بلده ومصره، وواسطة نظام أهل زمانه وعصره، كان يحمل فنوناً من العلم، الفقه والأصلان، أصول الدين وأصول الفقه والمنطق والتصوف، والكتابتان الشرعية والأدبية، والفرائض والحساب. . .

وكانت له ـ رحمه الله ـ أخلاق حسان لم تكن لغيره وكانت فيه دعابة مستحسنة مستطرفة، وكان من أملح الناس نادرة على طريقة أمثاله من فضلاء أهل العلم والتخلق، وكان إذا أثني عليه بِحُسْنِ الخلق يقول: قال النبي ﷺ: «أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن» ومن لم يكن عنده أول ما يوضع في الميزان لم يكن عنده غيره، لأن هذا إنما يجري مجرى الأساس. . .

وكان أكثر الناس إنصافاً في المذاكرة، عرض عليه قضاء بجاية فامتنع منه، ووصل إليه كتاب المستنصر من حاضرة افريقية بقضاء قسنطينة حرسها الله فاعتذر وتلطف في الاستعفاء عنه، وسمعت كثيراً من أهل العلم يثنون عليه ويقولون أنه لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله. توفي رحمه الله في الثامن والعشرين لربيع الأول من عام خمسة وسبعين وستمائة، ودفن بخارج باب المرسى، وكان له مشهد لا يكون إلا لمثله. . .

ودخلت عليه رحمه الله في مرضه الذي توفي فيه فألمت لألمه. وذرفت

عيناي لما اعتراه من سقمه، فقال لي: يا فلان والله ما بي موتي، وإنما بي ما قاله افلاطون لما حضرته الوفاة وحضروا عنده، قال: والله ما بي أن أموت، وإنما بي أن أموت ولم أرق بأصحابي إلى مراقيهم التي اقتضتها صفاتهم، واستحقتها ذواتهم. فشكرته على ذلك وعلقت الأمل بالحياة وطول البقاء إلى أن يوفي لأصحابه بما جبلت عليه نفسه الكريمة من الوفاء رضي لله عنه.

أبو العباس أحمد الغبريني
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية
تحقيق ونشر عادل نويهض
دار الآفاق الجديد، بيروت، 1979، ص ص 57 ـ 61

أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي
(ت حوالي 706 هـ/1307 م)

أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي على الأرجح، أو أبو عبد الله محمد بن عذاري حسب بعض المصادر، خلت جل كتب التراجم من ذكر ترجمته، فلم يعرف إلا النادر عن حياته بمراكش وفاس حيث عاش في النصف الثاني من القرن السابع وأوائل القرن الثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) وتوفي حوالي 706 هـ/1306 ـ 1307 م.

عرف ابن عذاري من خلال كتاباته بثقافة أدبية متميزة وباطلاع واسع على الواقع وأخبار الحكام والخلفاء والأئمة بالمغرب والمشرق. فعُد من علماء عصره من أمثال أبي الحسن علي صاحب «الأنيس المطرف» وأبي الحسن على الجزنائي صاحب «زهرة الآس» وإسماعيل بن الأحمر صاحب «روضة النسرين».

لابن عذاري تصانيف تاريخية منها «البيان المشرق في أخبار المشرق» الذي تناول فيه حسبما يظهر من عنوانه أوضاع البلاد المشرقية. ومع أهمية موضوعه إلا أنه ضاع ولم يعثر عليه وإن أشارت إليه بعض المصادر. وكذلك كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب الذي اشتهر به ابن عذاري وعرف به، وكان قد وضعه بمراكش أو ناحيتها في حدود سنة 712 هـ/1312 ـ 1313 م. على عهد السلطان عثمان بن أبي يوسف يعقوب المريني، وذلك نزولاً عند إلحاح أحد أصدقائه وهذا ما أشار إليه بقوله: «طلب بعضهم إلي ممن يحب الكرامة على أن أجمع له كتاباً مفرداً في أخبار ملوك البلاد المغربية على سبيل الإيجاز والاقتصار ولازمني في طلبه مراراً فلم يمكني التوقف في ذلك ولا الاعتذار وحملني على جمعه وتأليفه حمل اضطرار لا اختيار».

يعتبر البيان المغرب لابن عذاري من المصادر الأولية والمراجع الأساسية لبلاد المغرب والأندلس في الفترة الإسلامية (من الفتح الإسلامي وحتى ظهور دولة المرينيين بالمغرب الأقصى) وذلك لتضمنه أخباراً كثيرة وروايات نادرة ومعلومات غنية عن أوضاع بلاد المغرب والأندلس تتصل بالحياة السياسية والأوضاع الاجتماعية والثقافية والنشاط الاقتصادي، وهي في مجملها تتوزع على الأقسام الثلاثة التي يتألف منها الكتاب، فالقسم الأول: يتعلّق بتاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي وحتى ظهور المرابطين (ق 6 هـ/12 م) تناول فيه أخبار ولاية افريقيا على عهد ولاة بني أمية وحكم الأغالبة والفاطميين ومن اشتهر أمرهم بها من زناتيين وصنهاجيين ومدراريين (سجلماسيين) وأدارسة وبرغواطيين، والقسم الثاني: أفرده لأخبار الأندلس منذ فتحها على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير (92 هـ/711 م) وذكر فيه عصر الولاة وحكم الإمارة ثم الخلافة الأموية، كما ذكر فيه قيام الدولة العامرية وحدوث الفتنة البربرية وانقسام البلاد بين ملوك الطوائف من حماديين وبني هود وبني جهور وبني عباد والفتيان العامريين وبني صمادح والزناتيين والبكريين وبني الأفطس والصنهاجيين وغيرهم حتى دخول المرابطين الأندلس واستيلائهم عليها (489 هـ/ 1086 م) أما القسم الثالث: فجعله ابن عذاري لأخبار الدولة المرابطية اللمتونية بالمغرب والأندلس والأحداث التي عرفتها وظهور الموحدين وصراعهم مع المرابطين وتمكنهم من الاستيلاء على المغرب والأندلس، والوقائع التي تميزت بها دولتهم حتى القضاء عليها باستيلاء المرينيين على مراكش عام 667 هـ/1268 م.

اعتمد ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب» بالنسبة للأحداث المتقدمة عنه على العديد من المصادر المتوفرة من كتب التاريخ والأدب والتراجم والمسالك التي يشير إليها عند عرضه للأحداث دون أن يذكرها بقوله: «قال بعض المؤرخين، أو قال بعضهم أو ذكر أصحاب التاريخ، أو اتفق الجميع» وأهم هذه المصادر التي رجع إليها ابن عذاري بالنسبة للفترة الإسلامية السابقة له والتي نحاول الإحاطة بها للتعرف على نوعية المصادر المستعملة في تلك الفترة وهي: تاريخ افريقيا والمغرب للرقيق القيرواني، ونظم الجمان لابن القطان، والمقياس لأبي مروان

الوراق، والقبس لمحمد بن حمادة، وتاريخ افريقيا والأندلس لعريب بن سعد القطبي، وأخبار الهدية لأمية بن الصلت، والذيل للجذامي القيرواني، والعبر لأحمد بن أبي الفياض الأندلسي، ومسالك افريقيا لمحمد بن يوسف الوراق، والمسالك والممالك للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والصلة لابن بشكوال، وجذوة الاقتباس لمحمد الأزدي الحميري. وتاريخ عبد الملك بن حبيب السلمي، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني، وفتح افريقيا لعيسى بن أبي المهاجر ومطمع الأنفس للفتح بن خاقان، وتعزية أهل القيروان لمحمد بن بلال القروي، ورسالة في أسماء الخلفاء لأبي محمد علي بن حزم، وكتاب جمهرة أنساب العرب لأبي محمد علي بن حزم أيضاً، وأخبار الدولة العامرية لحيان بن خلف، وطبقات علماء افريقية للخشني، ودرر القلائل لأبي عامر السالمي، وبهجة النفس لابن محمد بن هشام القرطبي، والأنباء في سياسة الرؤساء لابن الصيرفي، وترصيع الأخبار للعذري، وتاريخ الرسل والملوك للطبري، وفتوح البلدان للبلاذري، وعجائب البلاد للمسعودي وغيرها.

أما بالنسبة للأحداث القريبة منه 382 ـ 468 هـ/ 992 ـ1076 م والتي عاصرها فقد اعتمد فيها خاصة على الروايات الشفوية، التي يتصل أغلبها بشهود عيان أو رواة ثقاة للوقائع أمثال أحمد بن موسى الرازي، وابنه عيسى بن محمد، وابن مزين، ومحمد بن مسعود وآخرين. وهذا ما أوضحه ابن عذاري بقوله: «من شيوخ أخذت الأخبار الوقتية عنهم بتحقيق».

جمع ابن عذاري في بيانه المغرب بين أسلوب الحوليات وطريقة الرواية، إذ اعتمد الحوليات في ترتيب الأحداث التاريخية وسردها حسب تعاقب السنين في إيجاز مخل بتفاصيل الوقائع. مثل عرضه للأحداث التي ميزت الفترة الإسلامية الأولى ببلاد المغرب منذ فتح عمرو بن العاص للإسكندرية (21 هـ/641 م) وتلخيصه لما وقع على عهد الحكام الفاطميين والصنهاجيين بعبارات مقتضبة يبدؤها بقوله: «وفي سنة...» كما اعتمد الطريقة الوصفية للأحداث التي توفرت له فيها المصادر وسمع عنها أو عاصرها فقد كان يتناول الأخبار كحادثه واحدة تروى تفاصيلها في سياق متكامل، وذلك بغض النظر عن السنين التي وقعت فيها.

أمّا إذا تعلق الأمر بموضوع معين أو مدينة أو جماعة أو شخصية تتوفر حولها المعلومات الكثيرة فيميل إلى الإطالة وقد يضع عناوين خاصة لبعض التفاصيل التي يراها مهمة، وفي بعض الأحيان نجد ابن عذاري يسرد الخبر على نسق التأريخ عن طريق الرواية إن توفر له السند على أنه عندما ما تنقصه المعلومات ولا تتوفر له الروايات يلتجىء إلى إثبات معلومات مختصرة قد لا توضح تفاصيل الأحداث فيكتفي في الغالب بسطر أو بضعة أسطر بحيث يوحي للقارىء بأنها قليلة ولا تستحق الإطناب فيها. وهذا عكس أحداث أخرى ربما تكون أقل أهمية لكنها لتوفر المعلومات عنها لديه يخصص لها روايات مفصلة وتفاسير ضافية.

هذا ويتضمن كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب أحداثاً تاريخية وأخباراً تتصل بحالة الاقتصاد ونوعية المعيشة وطبيعة المجتمع والعلاقات بين الحكام وعامة الشعب وأسلوب الحكم لا سيما الأحداث المتأخرة التي سمع عنها أو عاصرها. ولعل الطريف في الكتاب هو ما تضمنه من تسجيل للآفات الطبيعية والأحداث المتعلقة بالنشاط الاقتصادي في شكل حوليات سنوية وكذلك ذكره بعض الأقوال والأشعار الطريفة حول الأحداث وذلك بأسلوب سلس ولغة بسيطة وتعابير سهلة تجعل قراء البيان المغرب سهلة ومتيسرة للقارىء العادي.

اعتنى بتصحيح ونشر البيان المغرب لابن عذاري، المستشرق و. دوزي (Dozy) في جزأين الأول خاص بالمغرب حتى سنة 662 هـ. والثاني بالأندلس حتى سنة 387 هـ. (طبعة ليدن 1848 _ 1851)، وأعاد نشره كولان (G. S. Colin)، وليفي بروفنصال (Lévi - Provensal) (طبعة ليدن 1948 _ 1951)، وقام بترجمته فانيون (Fagnan) ونشره بالجزائر 1901 ثم نشر ليفي بروفنصال ما كان ينقص الجزء الثاني وهو يتعلق بتاريخ المرابطين بالمغرب والأندلس (باريس 1930)، ثم عثر على قسم خاص بالموحدين أميروسي هوسي ميراندا (A.Huici Miranda) ونشره بمجلة هسبيريس (Hesperis) (1960) ثم أعاد إصدارة في كتاب مستقيل كل من ميراندا ومحمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني (تطوان 1964) ثم ألحق عليه محمد بن عبد الله إضافة خاصة بالموحدين تتألف من 26 صفحة كان قد عثر عليها ونشرتها

حولية كلية الآداب بفاس، هذا وقد أخرجت حديثاً عدة طبعات من كتاب البيان المغرب في كل من المغرب ومصر ولبنان.

المراجع المعتمدة:

- ابن عذاري، (أبو العباس أحمد المراكشي)، البيان المغرب في أخبار المغرب، تحقيق ليفي بروفنصال وكولان، القسم الأول، 2 ج ليدن 1948 ـ 1951. القسم الثاني ج 3 باريس 1930.
- ابن عذاري (أبو العباس احمد المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 2 ج، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب (القسم الثالث) الجزء الرابع (المرابطون)، تحقيق إحسان عباس بيروت 1967، الجزء الخامس (الموحدون)، تحقيق هويسي ميراندا وابن تاويت وإبراهيم الكتاني، منشورات كلية الآداب بالرباط، ومعهد مولاي الحسن بتطوان، تطوان 1963.
- طه، (عبد الواحد ذنون)، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي من شمال افريقيا، مجلة المجتمع العلمي العراقي، ج 4 المجلد 36/1985 ص ص 201 ـ 262.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، 1967.
- Ibn - Adari al-Bayan al Moghrib fi akhdâr al moghrib, ed. texte pub. par. Dozy, Leyde, 1846 - 51.
- Ibn Adari, Histoire de l'Afrique et de l'Espagne, tra. par E. Fagnan, Ager 1901.
- Dun lop (D.M) Ibn Idharis Account of the party kings, Glasgow University Oriental, Sco. trans. 1957.

ذكر هزيمة العرب للمعز بن باديس

لما كان ثاني عيد الأضحى من هذه السنة كانت الداهية العظمى والمصيبة الكبرى، وذلك أن السلطان عيّد يوم الاثنين، ومشى صباح هذا اليوم إلى ناحية قرية تعرف ببني هلال، فلما كان نصف النهار أتته الأخبار أن القوم قد قربوا منه بأجمعهم، فأمر بالنزول في أوعار وأودية، فلم يستتم النزول حتى حمل العرب عليهم حملة رجل واحد، فانهزم العسكر وصبر المعز صبرا عظيماً، إلى أن وصلت رماح العرب إليه، ومات من العبيد بين يديه خلق عظيم فدوه بأنفسهم، وأما بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل فإنهم فروا وانتهبت العرب مضاربهم، ودخل العرب معسكراً لمعز السلطان فحازوه، وفيه من الذهب والفضة والأمتعة والأسباب والآثاث والخف والكراع مالا يعلم عدده إلا الله. وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف، ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفاً. ومن البغال ما لا يحصيه قول، فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه، وسلك الناس الجبل المعروف بحيدران، فافترقوا فيه، ثم رجع بعضهم على بعض. وليس عند أهل القيروان خبر بذلك، إلا أنهم كانوا تحت توقع وتشوف. فلما كان ثالث العيد قدم فارسان مع ابن البواب وهم قد غلبت عليهم الكآبة وكسوف البال. وحالهم تغني عن السؤال. وكثر أيضاً سؤال الناس عن السلطان. فذكروا أنه في حيز السلامة، فلم تك إلا ساعة حتى دخل قصره هو وولده، ثم تساقط الناس بعده أحاداً وجموعاً. وتخلف عن الوصول خلق عظيم، فمنهم من علم خبره، ومنهم من لم يعلم، ثم ذكر أن العرب أخذوا خلقاً كثيراً من الصنهاجيين وغيرهم.

قال ابن شرف: وكان عدد العسكر المهزوم ثمانين ألف فارس، ومن الرجالة ما يليق بذلك، وكانت خيل العرب ثلاثين ألف فارس ومن الرجالة ما يليق بذلك، وفي ذلك يقول علي بن رزق من قصيدة له في ذلك، أولها:

لقد زار وهناً من أميم خيال ... وأيدي المطايا بالذميل عجال

وفيها:

ثمانون ألفاً منكم هزمتهم ثلاثون ألفاً، إن ذا لنكال

وصل العرب إلى نواحي القيروان، وجعل كل من سبق إلى قرية يسمي نفسه لهم، ويؤمنهم، ويعطيهم قلنسوته أو رقعة يكتبها لهم علامة، ليعلم غيره أنه سبقه، وبات الناس ليلتين بالقيروان تحت مالا يعلمه إلا الله تعالى من الخوف، لا يدرون ما ينزل بساحتهم. وأقام الناس يومين لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منهم خارج. وخيل العرب تسرح حول القيروان في كل جهة ومكان، والناس يرونهم عيانا بياناً، وخرج السلطان سابع عيد الأضحى بجنوده. وخرج عامة القيروان معه، فلم يتعد بهم المصلى، ورجع العرب في أمانهم الذي أعطوا أهل البوادي، وانتهبوا جميعها، وانتقل أهلها إلى القيروان، وأمر السلطان كافة الناس بانتهاب كافة الزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة وهي المنصورية فسر المسلمون بها وحسبوها من أرزاقهم، وكان مصيرها إلى ما قدر الله من فسادها وأكل البهائم لها.

وفي السابع عشر لذي الحجة ظهرت خيل العرب على ثلاثة أميال من القيروان فنزل السلطان يمشي فيها. ويوصي أهلها بالاحتفاظ والبناء، وأخذ الناس في بناء دورهم. وأمر السلطان المعز أن ينتقل عامة أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان. ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة، وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها، فارتج البلد لذلك، وعظم الخطب واشتد الكرب. ومد العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها، واقتلعوها وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة، وبات الناس على خوف عظيم، ثم أصبحوا فعاينوا خيول العرب، فأمر السلطان ألا يخرج العسكر على سور صبرة.

قال ابن شرف: أخبرني من أثق به، قال: خرجت من القيروان وسرت ليلاً، فكنت أكمن النهار، فلم أمر بقرية إلا وقد سحقت وأكلت، وأهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعاً وبرداً. وانقطع المير عن القيروان، وتعطلت الأسواق، وأمسك العرب جميع من أسروه، فلم يطلقوا أحد إلا بالفداء مثل أسرى الروم، وأما الضعفاء والمساكين فأمسكوهم لخدمتهم.

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر بيروت، 1950، الجزء الأول، ص ص 419 ـ 422

أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني

(ت حوالي 718 هـ ـ 1318 م)

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني نسبة إلى قبيلة تجان التي قدمت من المغرب الأقصى واستقرت في عهد الحفصيين بمدينة تونس، حيث ولد عبد الله التجاني ما بين 670 و 675 هـ/ 1272 و1276 م، ونشأ بها وتلقى تعليمه على يد أبيه الذي كان يعمل كاتباً في القصر الحفصي، فحفظ القرآن واكتسب مبادىء اللغة العربية، ثم توسع في دراسته على شيوخ بلده تونس مثل الشيخ أبي بكر عبد الكريم العوفي المربي، وأبي القاسم عبد الوهاب الكلاعي، وابن علي عمر بن علون، فلفت الأنظار بنجابته وبراعته في الإنشاء. الأمر الذي ساعده على الالتحاق بديوان الإنشاء بالبلاط الحفصي على عهد السلطان أبي عصيدة (694 ـ 709 هـ) وحظي برعاية شيخ الموحدين الأمير أبي زكريا بن يحيىٰ اللبحاني. فاصطفاه لنفسه وجعله من خاصته. وأصبح كاتبه الخاص ورئيس ديوان رسائله المعروف حسب التقاليد بخطة العلامة الكبرى.

لازم التجاني الأمير أبا زكريا باعتباره كاتب رسائله. وقد اصطحبه هذا الأمير عندما خرج من تونس عازماً على التوجه نحو جربة لاسترجاعها من النصارى (الإسبان) وفي نيته المضي بعدها نحو المشرق لأداء فريضة الحج. وهذا ما أثبته التجاني في رحلته بقوله: «فكان خروجي من تونس المحروسة صحبة الركاب العلي المخدومي اللبحاني أعلى الله مقامه. وأطال في العز دوامه، في آخر جمادى الأولى من عام ستة وسبعمائة، وكان مراده منها القصد الأول إنما هو التوجه لأداء فريضة الحج».

غادر التجاني مع الأمير أبي زكريا والوفد المصاحب له وجموعاً من الجند

مدينة تونس في 14 جمادى من سنة 706/21 نوفمبر 1306 م. وبعد أن فشلت عملية استرجاع جربة بعد شهرين من المحاولات، توجه الأمير ومعه التجاني وجموع الجيش والحاشية من قابس إلى منطقة الجريد لاستخلاص الجباية في أوائل ربيع عام 706 هـ/1307 م. ثم عادوا إلى قابس من جديد، وانفصل أبو زكريا عن الجند المصاحبين له وتوجه مع عدد من أتباعه وفيهم التجاني نحو طرابلس فمكثوا بها ثمانية عشر شهراً التحق بهم أثناءها المبعوثون المصريون القادمون من البلاط المريني بفاس وتوجه الجمع شرق طرابلس. ولم يكد الركب يصل عين ودرس حتى أصيب التجاني بمرض ألزمه الفراش وحال دون استطاعته امتطاء فرسه (محرم (709 هـ/جوان 1309 م) مما اضطره إلى العودة إلى تونس وقد أشار التجاني إلى ذلك في رحلته قائلاً: «رجوت أن يهون فاشتد ورمت أن يقصر فامتد... فلم يكن بد من الرجوع... فودعته (أي الأمير أبا زكريا) في هذا اليوم وهو يوم عاشوراء 706 هـ بينما واصل الأمير سفره نحو الشرق بحجة أداء فريضة الحج وربما لدواع سياسية اضطرته إلى مغادرة تونس مؤقتاً.

بعد عودة التجاني إلى تونس في شهر صفر (709/جويلية1309 م) ظل يمارس وظيفة خطة الكتابة بديوان الإنشاء. وأثناء ذلك توفي السلطان الحفصي محمد أبو عصيدة (709 هـ/1309 م) فاضطربت أوضاع البلاد واشتد الصراع على الملك بين الأمراء الحفصيين واستمر ذلك مدة سنتين عاد خلالها أبو زكريا يحيىٰ من الشرق وظل يتحين الظروف الملائمة بطرابلس الغرب. حتى تمكن من جمع أنصاره والتقدم على رأسهم إلى تونس لاعتلاء العرش الحفصي سنة 711 هـ/1311 م واستلم التجاني من جديد خطة العلامة الكبرى. وظل مقرباً إلى الأمير أبي زكريا متولياً أمانة سره إلى أن استولى أمير بجاية يحيى ابن أبي بكر على تونس. ونحي أبو زكريا عن السلطة (718 هـ/1318 م) فاختفى معه كل أثر للتجاني الذي لم يعرف أي شيء عن نهايته. وهذا ما أشار إليه الزركشي بقوله: «إن اسم التجاني ذهب بارتحال الدولة إلى أبي بكر...».

وضع التجاني عدة مؤلفات في مواضيع مستظرفة ومسائل تتصل باللغة والأدب خاصة منها «الدر النظيم» وهو مفقود، وقد يكون في تراجم الأدباء

الحفصيين المتقدمين. وله كتاب: «تحفة العروس ونزهة النفوس» في الحب والزواج ومواصفات الجمال وشاراته حسب أعضاء الجسم مع إرشادات في كيفية اختيار الزوجة ومعاملتها وطرق امتاعها معتمداً في ذلك على الأحاديث المأثورة وأقوال المشائخ والفقهاء بالإضافة إلى وصف طباع النساء وتحديد صفاتهن وما يتصل بهن من فكاهات وملح بعيداً عن الفحش والمجون. ويحتوي هذا الكتاب على خمس وعشرين باباً. ونسب خطأ عند طبعه بالقاهرة (1301) إلى أحمد التجاني صاحب الطريقة التجانية. كما وضع مصنفاً بعنوان علامة الكرامة في كرامة العلامة، من الراجح أنه في تراجم من تولوا خطة العلامة (رئاسة ديوان الإنشاء المكلف بالمراسيم والمكاتبات). كما له «نفحات النسرين في مخاطبة ابن شيرين» متولي قضاء غرناطة الذي قدم تونس في طريقه إلى الحج (703 هـ/ 1303 م) وكان له اتصال بالتجاني، ومن مؤلفاته أيضاً: «الوفاء ببيان فوائد الشفاء» وهو شرح على الشفا للقاضي عياض لم يبق إلا قسم من أجزائه الأربعة، كما وضع مصنفاً في «أحكام مغيب الحشفة» وضعه استدراكاً لما كتبه شيخه أبو علي الهزلي، كما وضع تعليقاً بعنوان «أداء اللازم من شرح مقصورة حازم». أنهاه (699 هـ). وتقييدين أحدهما على صحيح البخاري والآخر على صحيح مسلم سجلهما عند قراءته الحديث على الشيخ عبد العزيز السباتي في طرابلس الغرب (707 هـ/ 1307 م).

اشتهر التجاني برحلته التي غطت على كل تآليفه. وجعلت منه أحد كتاب الرحلات ومسجلي المذكرات. وصف فيها رحلته بصحبة شيخ الموحدين الأمير أبي يحيىٰ زكريا بن اللليحاني من تونس إلى شرق طرابلس الغرب ذهاباً وإياباً. وحدد فيها معالم الطريق ومحطاتها والمدن الواقعة عليها، دون أن يُهمل ذكر العلماء والقواد والأدباء والصلحاء الذين اجتمع بهم أو سمع عنهم. لكنه سجل تسجيلاً دقيقاً وصادقاً كل ما لاحظه من الأمور التي تتعلق بالعقائد والتقاليد والأعراف فجاءت الرحلة صورة حية لواقع الحياة في عصره وبيئته. وعرضاً مفصلاً عن كل ما يهم الجغرافية والتاريخ البشري في مناطق الوطن القبلي والساحل والجريد وجربة وطرابلس، والمحطات التي مر بها التجاني في طريق الذهاب هي:

تونس، رباط رادس، حامة الجزيرة، باشو، الحمامات، الفلاحين، المرصد، أهريقلية، سوسة، الوردنيين، الجمّال، الجم، أم الأصابع، جبنانة، برشانة، سفاقس، نقطة المحرس، ودرف، قابس، الحمة، طرّة، بشره، توزر (الجريد) ثم العودة إلى قابس مروراً بـ : كثافة، مارث تجغت، الجرف، أجيم، جربة، غمراسن، زوارة، صبرة، زواغة، زنزور، طرابلس، تاجورة، عين ودرس، وفي طريق العودة عرج نحو الساحل مروراً بقصور زياد والمهدية والمنستير.

تتميز رحلة التجاني بدقة الملاحظة والبراعة في الوصف والتوسع في العرض فرغم قصر مداها واقتصارها على معالم الطريق بين تونس وطرابلس إلا أنها سجلت كل مظاهر الجغرافية وطبيعة المجتمع ونوعية الحياة. فعرفتنا على مواقع المحطات ومواطن القبائل، ونوعية النشاط الاجتماعي والاقتصادي وطبيعة العمران، ولعل أهم ما يتعلق بالجانب المعرفي فيها وصفها لأحوال الريف وأوضاع المدن، فهو عادة ما يصف المدينة بالتعرض لتاريخها وذكر معالمها والإشارة إلى شعرائها دون أن يغفل مسائل التاريخ الطبيعي والبشري، وهو في كل ذلك يرجع إلى الوثائق ويستقي من المصادر ويعتمد على الملاحظة والرواية الشفوية، كما أن اعتماد التجاني في وصف ما يعرض له على المصادر المتوفرة له بالخزانة الحفصية ونقله نصوصاً ورسائل من ديوان الإنشاء أكسبها طابع الوثيقة الحية وجعلها مرجعاً لا يمكن الاستغناء عنه خصوصاً بعد فقد بعض هذه المصادر وضياع تلك الرسائل، فصارت هذه الرحلة مرجعاً مفضلاً للمؤرخين المتأخرين مثل ابن خلدون الذي استفاد منها فيما كتبه عن تونس.

هذا وعبرت الرحلة عن ذوق التجاني الأدبي وسعة اطلاعه وغنى ثقافته. وميله الفطري إلى تسجيل ملاحظاته وانطباعاته وهذا ما تؤكده استشهاداته العديدة واستطراداته الكثيرة دون أن يثقل على القارىء أو يشغله عن تتبع الموضوع الذي هو بصدده كما أكسب الرحلة طابعاً أدبياً فضلاً عن مضمونها التاريخي والاجتماعي فجاءت بحق تحفة أدبية خالصة تعبر بصدق عن نظرة التجاني لواقع مجتمعة، وبراعة حسه الأدبي في الوصف وحسن الاختيار والعرض.

جلبت رحلة التجاني اهتمام المؤرخين المتأخرين فقد رجع إليها ابن خلدون ونالت تقدير الباحثين وفي مقدمتهم المستشرقون فاعتمدها برانشفيك في دراسته للعهد الحفصي، وبل (A. Bel) الذي رجع إليها في كتابه حول بني غانية (1905) كما وجد فيها أماري (Amari) معلومات في غاية الأهمية حول جزيرة جربة وصقلية فنشر مقتبسات منها في المكتبة الصقلية (1875) وترجمها روسو (Rousseau) إلى الفرنسية ونشرها بالمجلة الآسيوية (Journal Asiatique) (1852 ـ 1853) كما اهتم بها وليم مارسي (W. Marçais) ونشر نصها بتونس (1927) وقد تمكن أخيراً المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب من تحقيق نص الرحلة ووضع لها تقديماً قيّماً عرف فيه بصاحبها. وصدرت بالمطبعة الرسمية التونسية (1958).

المراجع المعتمدة:

- التجاني (أبو أحمد عبد الله) الرحلة، تقديم ونشر حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية التونسية 1958.
- البقاعي (إبراهيم) عنوان الزمان في تراجم الشيوخ الإقران (في سياق ترجمة ابن الأكحل).
- درة الحجال.
- التجاني (أبو محمد عبد الله) تحفة العروس، المطبعة الشرقية، تونس 1351 هـ.
- تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص ص 416 ـ 418.
- معجم المؤلفين، ج 6، ص 39.
- الأعلام، ج 4، ص 124. (ط/4).
- تاريخ الأدب الجغرافي ص 411.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1 ص ص 155 ـ 159.
- حسن حسني (عبد الوهاب) ورقات افريقية، تونس، 1977 الجزء الثالث، ص ص 162 ـ 174، 177 ـ 193.
- هدية العارفين، ج 2، ص ص 141 ـ142.
- كشف الظنون، ج 1، ص 370، ج 2، ص 713.
- مشاهير التونسيين، ص 322.

- معجم مشاهير المغاربة ص ص 111 ـ 112.
- مستودع العلامة، ص 24.
- شجرة النور الزكية، ص 206.
- إسماعيل العربي، دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية، الجزائر 1994، ص ص 160 ـ 166.
- نفح الطيب، ج 4، ص ص 120ـ 121، ج 5، ص ص 182ـ 183.
- عنوان الأريب، ج 1، ص ص 82 ـ 84.
- بلمز (أ) التجاني، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، القاهرة المجلد الرابع ص ص 591 ـ 593.
- Amari (M) Storia musulman dc sicilia, 1885 pp 80 - 81.
- Rousseau Voyage du cheikh El. Tidjani dans la Régence de Tunis, in Journal Asiatique, 4e série XX, 1852, 5e Série I, 1853.
- Bel (A.) les Benou Ghânya, Alger 1905.

وصف جزيرة جربة

ثم انتقلنا عنه يوم الثلاثاء 607. فنزلنا بساحل المجاز المعروف بمجاز الجرف وبقيت منه جزيرة جربة ظاهرة بين أيدينا، وعرض هذا المجاز من الجرف إلى ساحل الجزيرة أربعة أميال. فباتت المحلة على الجرف تلك الليلة ولما أصبحنا من الغد وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرين منه شرع الناس في الجواز إلى جزيرة جربة. وقد أعدت لهم السفن لذلك فاجتزنا نحن أولاً وأقمنا بساحلها من داخلها بموضع منها يسمى بساحل «آجّيم» بمد الألف وتشد يد الجيم. ننتظر أن يستوفي الناس أشغالهم، وأن يجيزوا خيلهم وأثقالهم إلى أن استوفى ذلك، وتوافى جميعهم هنالك. وزرت بهذا الموضع الذي أقمنا به مسجداً هناك مباركاً يذكرون أن الإمام المهدي رحمه الله سكن به أول جوازه إلى المشرق فإنه كان دخل في رحلته إلى هذه الجزيرة.

وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطراً. وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكراً، وطولها من المشرق إلى المغرب ستون ميلاً. كذا ذكر الشريف (الإدريسي) في كتابه (نزهة المشتاق) المؤلف للجار (الملك روجر النرماندي) وأما عرضها فمختلف فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً، وهو الطرف الواسع ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلا، وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلا وهو أضيق مكان بها، وهي أرض كريمة المزارع، عذبة المشارع، وأكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين، وبها أصناف كثيرة من سائر الفواكه إلا أن هذه هي أكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أو يساويها. وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير لما يوجد بها من صفاء وجفاف وطيب مذاق وعطارة استنشاق، ورائحته توجد من المسافة المديدة، والأمال العديدة، وكان من شجره بهذه الجزيرة أن غيره من

الشجر أعود بالفائدة عليهم فقطعوا أكثره، واختصت هذه الجزيرة أيضاً دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأوصاف التي ليس بافريقية لما ينسج من أثوابها نظير: وذلك معلوم من أمرها شهير.

وأكثر مساكن أهلها أخصاص من النخيل، يجعل كل واحد منهم في أرضه واحداً أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله، وليس بها بناء قائم إلا دور قليلة، وهم ينقسمون إلى فرقتين فرقة تعرف «بالوهبية» ورئاستهم في بني سمومن وأرض هذه الفرقة من الجزيرة الجهة الغربية. فما والاها من جهة الشمال، وفرقة تعرف «بالنكارة» ورئاستهم في بني عزون وأرضهم الجهة الشرقية فما والاها من جهة الجنوب.

وكانت مدينة جربة فاصلة بين أرضيهم وكلا الطائفتين خوارج غلاة في مذهبهم مكفرون العصاة على ما هو معروف من مذهب الخوارج، لا كمذهب المعتزلة في امتناعهم من إطلاق اسم الكفر على من واقع كبيرة ولم يتب منها فإن المعتزلة لا تسميه كافراً، ولا مؤمناً وتسميه فاسقاً على حكمهم بتخليده في جهنم، وكأن المعتزلة بزعمهم توسطوا في هذا بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السنة، والمتصلحون منهم لا يماسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم. ولا يؤاكلونه في آنيته، وإن استسقى عابر سبيل من بعض أبيارهم استخرجوا ماء البئر كله فماحوه، وثياب الجنب عندهم لا يقربها طاهر وثياب طاهر لا يقربها جنب، وقد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أجنب غسل ثوبه الذي أجنب فيه يرفعه بعصا أو بمحجن ثم يلقيه في البحر فيخضخضه بعصاه ساعة ثم بعد ذلك يتناوله بيده، ويوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم رجالاً ونساء أجنبوا أو لم يجنبوا. ويتوضؤون ثم يتيممون وقد شاهدت هذا منهم كثيراً، ويشترطون في وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من آرائهم الواهية، والأفعال التي حكينا عنهم منها ما شاهدناه وهو ما قصصنا ومنها ما حكاه عنهم الشريف (الإدريسي) في كتابه المؤلف للجار (الملك روجر النورماندي).

أبو محمد عبد الله التجاني

الرحلة، تقديم ونشر حسن حسني عبد الوهاب،

المطبعة الرسمية بتونس، 1858، ص ص 121 ـ 124.

أبو عبد الله محمد بن عمر ابن رشيد السبتي
(ت 721 هـ/1321 م)

أبو عبد الله محمد بن عمر بن الخطيب بن إدريس المعروف بابن رشيد الفهري السبتي، ولد بمدينة سبتة سنة 657 هـ/1259 م. وكانت بيئة تعج بالعلماء الأندلسيين المهاجرين إليها من أحواض الأندلس التي سقطت بيد النصارى مثل قرطبة (636 هـ/1238 م) واشبيلية (646 هـ/1248 م) وتلقّى العلم بمسقط رأسه على يد نخبة من العلماء منهم الإمام أبو الحسن بن الربيع الذي قرأ عليه كتاب سيبويه في النحو.

عرف ابن رشيد بحفظه للحديث ومعرفته للأدب، وتفوقه في الخطابة. وقد توسعت معارفه حتى عد من رجال الحديث بما أخذه في رحلته إلى الحج عن علماء تونس ومصر والشام والحرمين الشريفين مثل أبي محمد عبد الله بن هارون، والحسن حازم القرطاجني بتونس، والإمام جار الله بن عساكر وعلي بن منظور بالمشرق.

قرر ابن رشيد السفر وهو في السادسة والعشرين من عمره. وبدأ رحلته في مستهل عام 683 هـ/1284 م فعبر البر من سبتة إلى الأندلس ومر برندة فالمرية ثم ركب البحر رفقة صديقه أبي عبد الله بن الحكيم نحو بجاية التي تعرف على شيوخها وأغلبهم أندلسيون، ثم عرج على تلمسان على الأرجح ومنها توجه إلى تونس واتصل بجماعة من علمائها، ثم قصد مصر بحراً وحط بالإسكندرية التي أخذ عن علمائها ومنها تحول إلى دمشق الشام ثم غادرها في غرة شوال 784 هـ/ قاصد المدينة المنورة فوصلها في 23 ذي القعدة ومنها سافر إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج ثم عاد إلى المدينة المنورة وامتدت مدة إقامته بالأماكن المقدسة

أربعة أشهر تعرف خلالها على أئمة الحديث وشيوخ الفقه.

غادر ابن رشيد الحجاز نحو الشام في شهر محرم 785 هـ، وقد عبر عن حنينه وشوقه إلى الأماكن المقدسة بأشعار منها هذان البيتان اللذان نظمهما عندما ودع الرسول ﷺ بالمدينة:

أوَدّعكــم وأُودِعُكــم جَنــانــي ... وأنثــر عبــرتــي نثــر الجمــانِ

وقلبــي لا يَــوَدّ لكــم فــراقــا ... ولكــن هكــذا حُكْــم الــزَّمــانِ

ومن الشام تحول نحو بلاد المغرب وكله حنين إلى مسقط رأسه سبتة التي خلدها بقصيدة طويلة منها هذان البيتان:

أقــول إذا هــبَّ النسيــم المعطَّــرُ ... لعــلَّ بشيــراً بــاللقــاء يُبَشِّــرُ

ربوع يود المسك طيبَ ترابِها ... ويهوى حصي فيها عقيق وجوهرُ

وفي طريق عودته توقف بطرابلس الغرب، ثم قصد تونس التي فارقه عندها أبو عبد الله بن الحكيم الذي تعجل في الذهاب إلى الأندلس، بينما بقي ابن رشيد بها مدة سنة غادرها بعد ذلك مواصلاً رحلته إلى المغرب فمر ببونة (عنابة)، واستقر به المقام بغرناطة في الأندلس سنة 692 هـ. حيث عقد صداقة مع وزيرها الأديب أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم اللخمي الرندي، وحظي بتكريم سلطان غرناطة الذي ولاّه الإمامة والخطابة بجامع غرناطة. وعندما قتل الوزير الرندي 708هـ تحول ابن رشيد عن الأندلس إلى فاس، فاتصل بالسلطان المريني أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف فأكرمه وأحسن رفادته وظل في كنفه حتى وافته المنية سنة 721هـ/ 1321م ودفن بمقبرة العلماء خارج باب الفتوح بالروضة.

عرف ابن رشيد بقوة شخصيته وورعه وزهده وكرمه ورعايته لطلبة العلم ومواساته للمحتاجين. فكان محل تقدير وتنويه من كل الذين ترجموا له. فقال عنه ابن رشد «كان ضليعاً في الحديث وخطيباً بليغا، ووصفه لسان الدين بن الخطيب قائلاً: «فريد دهره عدالة وحفظاً وأدباً وهدياً، عالي الإسناد، صحيح النقل، تام العناية، عارفاً بالقراءات. بارع الخط، كهفاً للطلبة، وكل تواليفه مفيدة». وذكره الحافظ الذهبي واصفاً إياه «بأنه كان ورعا مقتصداً منقبضاً عن الناس، ذا هيبة

ووقار. يسارع في حوائج الناس. يؤثر الفقراء والغرباء والطلبة، لا تأخذه في الله لومة لائم».

ترك ابن رشيد العديد من المصنفات والشروح والرسائل التي تناول فيها قضايا في الفقه ومسائل في العقائد. وموضوعات في التاريخ والأدب والشعر. أشار إليها ابن رشد بقوله: «له شروح وتعليقات على كتب الضبي وابن الأبار... وفي كلامه إشارات نافعة في الأدب والتاريخ الطبيعي، وله مقدمات في تراجم محدثي الأندلس وفقهائها وشروح على صحيح البخاري ومسلم».. وقد تجاوز عدد مصنفات ابن رشيد المعروفة سبعة عشر مصنفاً اعتماداً على ما قيده بن حجر العسقلاني، أهمها:

في اللغة والنحو والأدب:

- إحكام التأسيس في أحكام التجنيس.
- إيراد المرتع المريع لرائد التسجيع والترصيع.
- تلخيص كتاب القوانين في النحو.
- حكم الاستعارة.
- شرح التجنيس لحازم القرطاجي.
- وصل القوادم بالخوافي في شرح كتاب القوافي لحازم القرطاجني.

ومنها في الفقه والحديث والرواية:

- إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح.
- إيضاح المذاهب في تعيين من يطلق عليه اسم الصاحب.
- تراجم التراجم على أبواب البخاري.
- حكم رؤية هلال شوال ورمضان.
- مسألة العنعنة.
- السنن الأبين والمورد الأمعن.
- الصراط السوي في اتصال سماع جامع الترمذي.
- المحاكمة بين الإمامين البخاري ومسلم.

ـ المقدمة المعرفة. لعلوّ المسافة والصفة.

أما فيما يتصل بالتراث التاريخي فله فهرست لمشايخه، وكتاب الرحلة المسماة: «ملء العَيْبَة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» بدأ في تسجيلها أثناء سفره نحو الشرق وأتمها إثر رجوعه سنة 680 هـ/ 1294 م ومن الراجح أن الشيخ محمد بن عراق 878 هـ/ 933 م قام بتهذيبها وتعديلها واختصارها في ثلاث مجلدات. ووصلت إلى الصفدي وكذلك المقري في نسخة من أربع مجلدات، بينما وصلت إلى ابن حجر العسقلاني في ست مجلدات ولتعدد نسخها ذهب بعضهم إلى أن لابن رشيد رحلتين فذكر ابن رشد أن «له رحلتان مشهورتان الأولى طاف فيها نواحي المغرب والثانية زار فيها الأندلس» كما ذكر رينو وكراتشكوفسكي بأن له رحلتين الأولى هي المعروفة بملء العيبة وأخرى في الكلام عن أهل الحديث والفقهاء الأندلسيين. وربما كان ذلك يعود إلى الالتباس بين النص الأصلي للرحلة والمختصر الذي وضعه لها ابن عراق.

جاءت رحلة ابن رشيد في شكل تقاييد يومية ومذكرات شخصية على أسلوب المحاضرة والأمالي أبرز فيها اهتمامه بالأدب واطلاعه على الحديث، وحرصه على ذكر من تعرف عليهم من المشايخ الذين أخذ عنهم أو استمع إليهم. فكانت صورة صادقة لثقافته الدينية وميوله الأدبية وسجلا حافلاً بالمعلومات المهمة والطرائف الأدبية والمسائل الفقهية وقد غلب عليها اهتمامه بكل ما يتصل بعلم الحديث و الرواية إذ ركز على تراجم الرواة والمحدثين وفي مقدمتهم شيوخه السبتيون وعلماء تونس الذين كانوا مثار إعجابه فأفرد لهم ثلاثة أجزاء من رحلته.

تعتبر رحلة ابن رشيد مصدراً أساسياً للتعرف على الواقع الثقافي بالمغرب الإسلامي ومصر والحجاز والشام، لما تضمنته من معلومات متنوعة خاصة ما يتصل منها بالمعارف الفقهية ومسائل علم الحديث والرواية، أو ما ورد فيها من قضايا خاصة كانت مثار جدال من قبيل وجود مصحف عثمان بجامع قرطبة، وصدق عقيدة الشاعر إبراهيم بن سهل والكاتب ابن حبيش، ولعل طرافة موضوع

رحلة ابن رشيد هو الذي جعل لسان الدين بن الخطيب ينقل عن شيخه أبي بكر بن شيربن في كتاب الإحاطة قوله «أنني وقفت على مسودة (رحلة) ابن رشيد فرأيت فيها فنوناً وضروباً من الفوائد العلمية والتاريخية، وطرفا من الأخبار الحسان، والمستندات العوالي والأناشيد، وهو ديوان لم يسبق إليه مثله».

حظيت رحلة ابن رشيد باهتمام العديد من العلماء الذين استفادوا منها كتقي الدين الفاسي المكي الذي نقل منها في ما كتبه عن تاريخ مكة، لكنها ظلت مخطوطة موزعة بين دور المكتبات العامة، منها نسخة أصلية بخط المؤلف بها استدراكات وحواشي، توجد بمكتبة دير الاسكوريال باسبانيا، تتألف من خمسة أجزاء دون مقدمة، رغم كون النسخة الأصلية قد يصل عدد مجلداتها إلى سبعة، على اعتبار أن الجزء الرابع منها يعتبر في حكم المفقود وهو الذي سجل فيه ابن رشيد رحلته من القاهرة إلى دمشق. وقد اعتنى مؤخراً بهذه الرحلة وأخرجها في طبعة محققة في خمسة أجزاء الأستاذ محمد الحبيب بلخوجة فصدرت عن دار الغرب الإسلامي سنة 1988 مما سهل للقارىء الرجوع إليها والانتفاع بمضمونها (صدر الجزء الثاني 1982 والثالث 1983 في طبعة خاصة بتونس).

المراجع المعتمدة

- ابن رشيد الفهري، (أبو عبد الله محمد)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقديم محمد الحبيب بلخوجة، 5 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.
- ابن رشيد الفهري (أبو عبد الله محمد)، إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح؛ تحقيق محمد الحبيب بلخوجة. الدار التونسية للنشر د. ت.
- ابن رشيد الفهري، (أبو عبد الله محمد)، السنن الأبين والمورد الأمعن، تقديم محمد الحبيب بلخوجة، تونس، 1977.
- الجاسر (حَمَد) الحجاز في القرن السابع الهجري، على ما في رحلة ابن رشيد الأندلسي، مجلة العرب. الرياض، المجلد الثالث والرابع. 1388 ـ 1389، ص ص 442 ـ 449.

- ابن الطوّاح (عبد الواحد محمد) سبل المقال لفك العقال (تراجم وأعلام)، تحقيق محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995، ترجمة 18، ص ص 775 - 776.
- فهرس الفهارس، ج 1، ترجمة 233، ص ص 443 - 445.
- زمامة (عبد القادر) الرحالتان السبتيان: ابن رشيد والتجيبي، مجلة المناهل، الرباط، العدد 22/1989.
- الإحاطة، ج 3، ص ص 135 - 136.
- الفاسي (محمد) رحلة ابن رشيد، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس 1959.
- المنوني (محمد) ورقات من الحضارة المغربية في عصر بن مرين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1979 ص 313.
- غلاب (عبد الوهاب) رحلة ابن رشيد: تاريخ حافل للثقافة والفكر في القرن السابع، (تقديم) مجلة الأكاديمية، الرباط، العدد الأول، 1984، ص ص 153 - 171.
- Pons Boigues (F.) Ensayo bio- bibliografico sobre los historiadores geografos arabo - espanoles for. F. Pons Boigues, Madrid 1898.
- Reinaud. Introduction générale de la géographic des Orientaux, Paris 1848.

رحلة الحج من دمشق إلى المدينة المنورة

ذكر توجهنا من دمشق حماها الله تعالى ـ إلى مدينة النبي ﷺ والشوق محتدم، والوجد غير مكتتم، ونحن نسأل الله في التيسير ونعوذ به من التعسير.

أهل هلال شوال ليلة الجمعة من عام أربعة وثمانين المذكور، وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصى عصر يوم الاثنين الحادي عشر من شوال، وقد كنا برزنا للسفر غدوة فاليوم فاعتاق الكري. في بعض حوائجه إلى عشي اليوم. وعاينا في ذلك اليوم عند خروج الناس الوداع ما يسيل الدموع، ويكاد يذهب بالقلب السليم كيف بالمصدوع، فبتنا تلك الليلة بالموضع المعروف بالقيسارية على ضفة النهر، ورحلنا سحر اليوم الثاني عشر، ونزلنا منازل بالطريق سالكين إلى بصرى وهي مدينة حوران. . .

فوافيناها بعد صلاة الجمعة في اليوم الخامس عشر من شوال، ورأينا بلداً محكم الأسوار قديم الآثار، أبواب دوره من منحوت الأحجار. فأقمنا هنالك ليتجهز الناس ويستقبلوا الصحراء يوم السبت والأحد. وقد أخذت في الراحة والحمد لله. أسأل الله العافية الشافية والوقاية الكافية.

ورحلنا ضحاء يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ولم نلق بها أحداً من أهل العلم. ومنها يتزود الناس بالماء إلى الموضع المعروف بوادي الأزرق. فوافينا وادي الأزرق عشية يوم الأربعاء الموفي عشرين، وأقمنا هناك يوم الخميس ويوم الجمعة لاجتماع الناس وتلاحقهم. . .

ذكر سفرنا من طيبة زادها الله طيباً، ويسر العود إليها قريباً، متوجهين إلى مكة المكرمة حرم الله الشريف، قرب الله منه البعيد، وبلغ فيه المراد للمريد، ومنحنا من إحسانه وامتنانه الجديد فالجديد بمنه وفضله.

كانت إقامتنا بالمدينة شرفها الله يوم الأحد والاثنين والثلاثاء وليلة الأربعاء وانصرفنا غدوة يوم الأربعاء السادس والعشرين لذي قعدة، صلينا الصبح بذلك المحل الكريم، راجين فضله العميم، وودعناه وما ودعناه، وأودعناه الأرواح، وسرنا بالأشباح، والضلوع تتقد، والدموع تطرد، ولسان المقال ينشد:

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي فروحي عندك أبدا مقيم

ولسان الحال يردد:

محبتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحيلا

فوافينا ذا الحُلَيْفة. وهي موضع إحرام المدَنيّين وجوباً. ومن اجتاز بها من غيرهم ندبا، وهي على ستة أميال من المدينة. وقد قيل على سبعة وظاهر التقدير أنها ستة، وهي ماء من مياه بني جشم، وكان بينهم وبين خفاجة العقليين. وهي الآن يعرفها الناس ببئر علي.

أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي

ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة

تحقيق وتقديم محمد الحبيب بن الخوجة،

الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص ص 1 ـ 3و 70 ـ71

أبو الحسن علي بن أبي زرع الفاسي
(ت بعد عام 726 هـ/1324 م)

أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، لا يعرف عن حياته ونشأته إلا أنه ينحدر من إحدى الأسر العريقة بمدينة فاس وأنه كان شاهداً بسماط العدول بفاس. ولعل هذا ما أدخل اللبس والغموض على اسمه وعلى نسبة كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس إليه، فقد أثبت اسمه ونسبة الكتاب إليه كل من الجزنائي في جنا زهرة الآس، وابن الخطيب في الإحاطة وابن مرزوق في المسند الصحيح وعبد الرحمٰن بن خلدون في كتاب العبر، فيما ذكر ابن القاضي في لقط الفرائد أنّ صاحب القرطاس شخص آخر وهو أبو عبد الله المتوفى في معركة طريف (741 هـ/1340 م) هذا وقد ذهب من كتب حول تاريخ فاس ومنهم إسماعيل بن الأحمر إلى القول أن صاحب القرطاس هو أبو العباس أحمد الذي تولى الإمامة بجامع القرويين بفاس، بل ذهب صاحب كتاب مفاخر البربر إلى القول بأن القرطاس من تأليف أبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي من كتّاب الدولة المرينية أو أبو علي صالح بن عبد الحليم من إيلان مصمودة وهو رجل مغمور من مدينة نفيس عاش في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة، كما ذهب إلى ذلك ابن عذاري في كتاب البيان المغرب الذي نقل عنه وأخذ به عبدالله كنون في تحقيقه.

ولعل هذا الاختلاف في الروايات حول نسبة كتاب القرطاس هو الذي أوحى لبعض كتاب بيوتات فاس الكبرى بالقول بأن هناك قرطاسين أحدهما كبير من تأليف ابن أبي زرع وهو غير معروف ويعتبر في حكم المفقود، والآخر صغير متداول وهو من تصنيف صالح بن عبد الحليم، ولعله يقصد بالقرطاس الأصغر

المعروف لدينا بكتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية الذي ينسبه عبد الله كنون أيضاً إلى ابن أبي زرع الفاسي لتماثل الموضوع وتشابه طريقة العرض.

على أن قراءة متأنية لكتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس يسمح لنا بالقول أن ما وصل إلينا هو نص الكتاب لا ملخصه وأن مؤلفه وإن اختلفت الروايات هو علي بن أبي زرع الفاسي الذي جعله وسطا بين الكتب المطولة والمصنفات المختصرة فهو حسب قوله «مع ميل إلى ترك الإسهاب والتطويل وتجنب الاختصار والتقليل وجعلته كتاباً مخرجا على المتوسط فهو خير الأمور».

يتناول كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس تاريخ المغرب الأقصى عموماً وتاريخ مدينة فاس خصوصاً منذ ظهور الأدارسة (172 هـ/788 م) إلى الربع الأول من القرن الثامن الهجري (726 هـ/1324 م) على عهد أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني، وجعله مؤلفه في خمسة أقسام الأول خاص بالأدارسة الحسنيين منذ ظهور دولتهم وتأسيسهم لمدينة فاس وبيعة الإمام إدريس حتى دولة الأمير الحسن بن كنون الحسني، والثاني أفرده لدولة زناتة (المغراويين واليفرنيين) منذ المعز بن زيري بن عطية إلى الأمير معنصر بن حماد المغراوي متولي فاس والثالث خصه لدولة المرابطين من لمتونة من عهد الأمير يحيىٰ بن إبراهيم الدكالي الصنهاجي إلى آخر أمراء المرابطين وهو تاشفين بن علي. أما القسم الرابع فتناول فيه الدولة الموحدية المؤمنية منذ ظهور دعوة محمد بن تومرت إلى دولة آخر الموحدين، وهو إدريس المعروف بأبي دبوس، أما القسم الخامس والأخير فقد أفرده للدولة المرينية وقد أطال فيه فذكر نسب المرينيين ودخولهم المغرب وظهور أمرهم على يد عبد الحق بن محيو مع إسهاب في ذكر السلاطين المرينيين إلى عهد أبي سعيد عثمان في الربع الأول من القرن 8 هـ/14م. الذي عاصره ووصفه بملك الزمان وسراج الأوان والإمام السعيد والخليفة الرشيد، وقد اعتمد فيه بالنسبة للفترة التي سبقته على أهم الكتب الموثوق بها، وعاد في بعض الأحيان إلى الروايات المتداولة على عهده، أما بالنسبة للفترة القريبة منه فاستند إلى العديد من الروايات وفي بعض الأحيان على المشاهدة ومعاينة الأحداث دون ذكر مصادره خشية إثقال الكتاب بذكر الإسناد ورواة الأخبار وهذا ما أشار إليه في قوله:

«انتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمدة على صحتها والرجوع إليها، سوى ما رويته عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب وقيدته عن الرواة الثقاة الأنجاب وحفظت فيه الإسناد خشية الإكثار والإمداد».

يتميز كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس بطريقته الخاصة، في إثبات الوقائع وعرض الأحداث وسرد الأخبار، فهو يولي عناية خاصة لتاريخ مدينة فاس فيذكر معالمها ورجالها ويتعرض إلى الحياة الاقتصادية بها والمظاهر العمرانية التي تتميز بها، ومنها على سبيل المثال بناء القصور والحصون والمدارس والمساجد والقناطر التي بنيت بها. . . فكانت معلوماته في غاية الأهمية بالنسبة لجامع القرويين، وجامع الأندلس، وهو أيضاً يتعرض في تسجيله لتاريخ كل دولة إلى ملوكها فيذكر سيرهم الشخصية وطبيعة حكمهم والأحداث التي وقعت على عهدهم، دون أن ينسى ذكر ما قاموا به من أعمال وما عرفوا به من مآثر، وحتى يحيط بالموضوع ويعطي صورة واضحة عن كل دولة؛ يعمد في آخر كل قسم إلى تسجيل الوقائع المختلفة، ويهتم خاصة بالأحداث التي لها صلة بالاقتصاد، وقد يذكر المظاهر الطبيعية والأحداث الغريبة مثل ظهور النجوم وحدوث الكوارث مرتبة على السنين وهو في كل ذلك يعرض الخبر بعيداً عن المقدمات الطويلة والاستطرادات فيبدأ بتسجيل الحدث بقوله: (الخبر عن. . .) ويستهل الكلام على حكام فاس أو ملك المغرب بقوله: (هو الأمير. . . وقد يورد عبارة: «قال المؤلف عفا الله عنه. . .) وفي بعض الأحيان ينقل الروايات كما وردت دون نسبتها إلى أصحابها أو تحديدها أو التنصيص عليها مما يجعلها مندمجة في سياق الكتاب، وذلك بأسلوب سهل ولغة واضحة تجمع القوي والضعيف من العبارات، مما يعكس مستوى ثقافة العصر وضعف المستوى اللغوي للمؤلف.

هذا ويعتبر كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس مصدراً أساسياً لتاريخ المغرب في العهود الإسلامية لا سيما الفترة الخاصة بالمرينيين كما يتضمن مادة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ مدينة فاس، ولعل ما تميز به هو تأكيده على الجانب الثقافي والاجتماعي والاقتصادي خاصة، فهو المرجع المعتمد عليه في إثبات العديد من وفيات الأعيان. وفي التعرف على الأسعار وتسجيل الأوبئة

والمجاعات. وقد لخص ابن أبي زرع غرضه وخطته في كتابة المقدمة بقوله: «كتاب جامع للطيف الأخبار وملح الآداب يحتوي على غرر التاريخ وعجائبه ونوادر الأثر وغرائبه يخبر بنبذ عن ملوك المغرب المتقدمين وأمرائه الماضين وأممه السالفين وتاريخ أيامهم وذكر أنسابهم وأعمارهم وسيرهم وغزواتهم وأحوالهم في دولتهم، وما رسموه بالمغرب من مراسيم وصنعوا من المصانع والمعالم وفتحوا في البلاد من الأقاليم وبنوا من الحصون والمدن والمكارم وأذكرهم أميراً بعد أمير وملكاً بعد ملك وخليفة بعد خليفة، وأمة بعد أمة على حسب تواليهم في أعمارهم ومراتبهم في دولتهم وأزمانهم كما وقع في الزمان من أول دولة الإمام إدريس بن عبد الله الحسيني إلى هذا الأوان...».

نال كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس اهتمام المستشرقين لطبيعة مادته ونوعية المعلومات التي يتضمنها والتي تعطي صورة واضحة لماضي مدينة فاس وواقع المغرب في العهد الإسلامي، فقام بترجمته إلى الفرنسية بيتيس ديلاكروا (1693) وإلى الألمانية المستشرق النمساوي فرانزفون دومي (1794) وإلى البرتغالية الراهب فوسي دي سانطو انطوينو (لشبونة 1828) وترجم القسم الخاص بالأندلس إلى الإسبانيـة كوندي، وظهر قسم منه بالسويد على يد المستشرق تورنبورغ Tornberg 1834 الذي اهتم بنشر نصه العربي كاملاً مع ترجمة لاتينية وحواشي مستفيضة في أربعة أجزاء بإبسالا بالسويد (1843 ـ 1846)، ثم نقله إلى الفرنسية بوميه Beaumier (1860) وإلى الاسبانية آمبروزيو هويثي (1918) Ambrosio Huici.

أما الطبعات العربية فهي عديدة منها طبعة باريس (1860) وطبعات فاس الحجرية وهي أربعة أولها تعود إلى سنة (1303 هـ/1885 م) وذلك قبل أن يقوم بنشره محققاً الهاشمي فيلالي في ثلاثة أجزاء، صدر الجزء الأول والثاني منه (1936) والجزء الثالث ينتظر النشر، إلى أنْ بادرت دار المنصور للطباعة بنشره سنة 1972 مع فهارس عديدة (517 ص) فسهل الانتفاع به والرجوع إليه وإن ظل حتى الآن تنقصه الدراسة العلمية والنشر الأكاديمي الكفيل بالتعريف بصاحبه وبتصحيح بعض الأخطاء التاريخية الواردة فيه.

المراجع المعتمدة:

- ابن أبي زرع الفاسي، (علي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972.
- دليل مؤرخ المغرب، الجزء الأول، ص 125.
- حركات (إبراهيم)، تاريخ المغرب الأقصى، الجزء الثاني، ص ص: 150 ـ 151.
- تاريخ الفكر الأندلسي، ص 251.

- Ibn - Abi Zar, Rawd el- kirtas, texte de Tornberg, Upsala, 1843, tra en fraçais de Baumier, Histoire du souverains du Magreb et annales de la ville de Fés, Paris 1860.

حصار تلمسان

قال المؤلف عفا الله عنه:

كان أصل حصار تلمسان وفناء بني عبد الوادي أن ابن عطو لما فعل ما فعل وفر إلى عثمان بن يغمراسن ملكها كتب إليه أمير المسلمين يوسف أن يسلمه إليه. فامتنع عن ذلك. فغزاه بسببه ولم تزل العداوة تتركب بينهما إلى أن غزاه ثانية في شهر رجب من سنة سبع وتسعين، فوصل إلى تلمسان. فخرج إليه عثمان ملكها فقاتله بخارجها فانهزم عثمان المذكور ودخل المدينة وسد أبوابها واعتمد فيها على الحصار. فحاصره بها أياماً ثم أقلع عنه ورجع إلى مدينة فاس وترك أخاه الأمير أبا يحيىٰ مع قبيلة بني عسكر بمدينة وجدة وأمره بحرب تلمسان وأحوازها وندرومة وما والاها. فكان لا يرفع عنها يداً بالغارات فضاق أهل ندرومة بذلك ذرعاً. فأقبل أشياخها إلى الأمير أبي يحيا فبايعوه وطلبوا منه الأمان فأمنهم ومكنوه من البلد فقبضه وبعث بالفتح والأشياخ إلى أخيه أمير المسلمين يوسف، فوصلوا إلى مدينة فاس فبايعوه بها وذلك يوم الثلاثاء الثامن عشر من شهر رجب سنة ثمان وتسعين وستمائة وسألوه التوجه إلى بلادهم ليريحهم من عدوهم. فارتحل من فوره إلى مدينة تلمسان فنزلها في شهر شعبان من السنة المذكورة، وكان نزوله عليها في يوم الثلاثاء وقت الضحى ثاني يوم من شعبان المذكور. فملك ندرومة وهنين ووهران وتاوانت ومزغران ومستغانم وتنس وشرشال وبرشك والبطحاء ومازونة وونشريس ومليانة والقصبات والمدية وتازجدت وجميع بادر بني عبد الوادي وبلاد تجين وبلاد مغراوة. وبايعه صاحب الجزائر ووفدت عليه رسل أمير تونس بالهدايا.

وخدمه أهل بجاية وقسنطينة وهو مع ذلك محاصر مدينة تلمسان، وقد أحدقت بها محلاته وجيوشه، ورتب قواده لقتالها، فكانوا يخرجون إليها في كل يوم مناوبة إلى أن دخل فصل الشتاء. فابتدأ أمير المسلمين ببناء قصره فبناه في موضع نزوله حيث ضرب قبابه، ثم بنى جامعاً كبيراً. وأقام فيه الخطبة بإزاء قصره، وأمر الناس بالبناء فانتشر الناس في البنيان بالمحلة يميناً وشمالاً، فأدار السور على قصره وعلى الجامع الذي بإزائه.

وفي سنة اثنتين وسبعمائة أمر أمير المسلمين يوسف ببناء السور الأعظم على تلمسان الجديدة، فابتدأ ببنائه في الخامس من شوال من سنة اثنتين وسبعمائة المذكورة. وتوفي عثمان بن يغمراسن في الحصار فولي بعده ولده محمد المكنى بأبي زيان فضبط بلده وقام بأمره. . .

وبنى تلمسان الجديدة وهذبها، وبنى بها الحمامات العظيمة والفنادق والمرستانات وجامعاً كبيراً للخطبة أقامه على الصهريج الكبير. وبنى به مناراً عظيماً وجعل على رأسه تفافيح من ذهب بسبعمائة دينار. . . وأضعف أهل تلمسان بشدة الحصار حتى أشرفوا على الهلاك. . .

وقتل أمير المسلمين يوسف غيلة بقصره من حضرة تلمسان الجديدة في يوم الأربعاء السابع لذي القعدة من سنة ست وسبعمائة، وجأه في بطنه وهو نائم خَصي من فتيانه اسمه (لا سعادة) كان لأبي علي الملياني، فتوفي من تلك الضربة قريباً من عصر ذلك اليوم، فحمل إلى رباط شالة من رباط الفتح ودفن به، والبقاء لله وحده.

علي بن أبي زرع الفاسي

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص ص 386 ـ 388

أبو عبد الله محمد السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب
(ت 776 هـ ـ 1374 م)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني الملقب بابن الخطيب والمعروف بلسان الدين؛ عرف بنفسه وموطنه في الإحاطة قائلاً: «يعرف بيتنا في القديم ببني الوزير ثم حديثنا بلوشة ببني الخطيب، انتقلوا مع أعلام الجالية القوطية عند وقعة الربض (202 هـ/818 م) الشهيرة إلى طليطلة، ثم تسربوا قبل استيلاء الطاغية عليها... فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية كسعيد المستوطن لوشة الخطيب بها».

ولد ابن الخطيب بلوشة Lata، من أعمال غرناطة عام 713 هـ/1313 م، ثم انتقل إلى غرناطة حيث كان يعمل والده لدى ملوك بني الأحمر، فنشأ بها وأخذ العلم عن شيوخها، ومنهم أبو عبد الله بن عبد الولي العوّاد، وأبو الحسن القيجاطي، وابن القاسم بن جُزَيْ. وأبو عبد الله بن النجار البيري، وأبو عبد الله بن بكر، وأبو الحسن الجيار، وأبو عبد الله بن جابر. وأبو محمد بن سلمون، على أنه ارتبط خاصة بالإمام الفيلسوف الطبيب أبي زكريا يحيىٰ بن هذيل القرطبي الذي أخذ عنه الطب والتعاليم (الفلسفة) وصناعة التعديل فتجلى نبوغه وبرزت مواهبه الأدبية والعلمية، فقربه السلطان أبو الحجاج يُوسف الثاني واتخذه كاتباً في ديوانه تحت رآسة أبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الذي خلفه بعد وفاته (673 هـ/1348) في رآسة الكتابة، ثم أسندت إليه الوزارة إبان حكم السلطان محمد الخامس بن أبي الحجاج «الغني بالله» سنة (755 هـ/1354 م) فأظهر طموحاً للسلطة وحرصاً على المال وسعياً للثراء. ودخل نفسه شيء من الزهو والاعتزاز، وهذا ما عبر عنه في الإحاطة بقوله: «فقلدني السلطان

سره، ولما يجتمع الشباب، ويستكمل السن. معززة بالقيادة، ورسوم الوزراة...»
كما أرسل في سفارة عن السلطان إلى البلاط المريني بفاس (755 هـ)، يطلب من أبي عنان المريني العون لمواجهة ملك قشتالة. فنجح في مهمته، ولفت الأنظار بحسن أخلاقه وجودة شعره الذي نثبت من هذه الأبيات:

خليفة الله، ساعد القدر   علاك مالاح في الدجى قمرُ
ودافعت عنك كَفُّ قُدرَتِهِ   ما ليس يستطيع دفعَهُ البَشَرُ
والناس طرّاً بأرض أندلسٍ   لولاك ما أوطنوا ولا عَمَرُوا

وقد عزز هذا النجاح مكانته وزاد في حظوته لدى بلاط بني الأحمر بغرناطة، الأمر الذي أوغر صدر منافسيه عليه وزاد في استعداء الناقمين عليه الذين وجدوا فرصتهم في ثورة إسماعيل بن يوسف على أخيه السلطان الغني بالله الذي فر إلى وادي آشي واحتمى بها (760 هـ/1359 م).

سعى ابن الخطيب عندما شعر بقرب فقد مكانته إلى مصانعة السلطان الجديد الذي أبقاه في الوزارة لفترة قصيرة، ثم ارتاب في ولائه له فقبض عليه بتحريض من خصومه وأصدر الأمر بتفتيش بيته ومصادرة أملاكه ومتاعه، وقد وصف ابن الخطيب ذلك قائلاً: «وتقبض علي ونكث ما أبرم من أماني، واعتقلت بحال ترفيه، وبعد أن كبست المنازل والدور، واستكثر من الحرس، وختم على الأعلاق... فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر... فانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى وتعلقت الآمال به...» لكنه تمكن من النجاة بنفسه بفضل وساطة السلطان المريني أبي سالم، وتحول إلى المغرب رفقة سلطانه المخلوع الغني بالله، وذكر ذلك بقوله: «ووصلت الشفاعة مكتتبة بخط ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسالمة الدولة فانتقلت صحبة سلطاني إلى المغرب، وبالغ ملكه في برّي... وجعلني بمجلسه صدراً، ثم أسعف قصدي في تهنيء الخلوة بمدينة سَلاَ...» وقد نظم قصيدة يستعطف فيها سلطانه المخلوع كان لها تأثير بالغ في نفس السلطان المريني وحاشيته مما جاء فيها:

وهذا ابن نَصْرٍ قد أتى وجناحه   كسير، ومن علياك يُلْتَمَس النَّصر
غريب يُرَجِّي منك ما أنت أهل   فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخرُ

فعد يا أمير المؤمنين لبيعة موثّقة قد حلّ عقدتها الغَدْرُ
وخذ يا إمَامَ الحقّ للحقّ ثأرَةً ففي ضِمْنِ ما تأتي العزُّ والنّصْرُ

أقام ابن الخطيب ضيفا مكرماً بالمغرب لمدة ثلاث سنوات (حوالي 760 ـ 763 هـ/ 1359 ـ 1362 م) وتعرف أثناء ذلك بالبلاط المريني على الأخوين عبد الرحمٰن ويحيىٰ بن خلدون وغيرهما من رجال الأدب والعلم وتوفرت له فرص التنقل في ربوع المغرب فوقف على قبر المعتمد بن عباد بأغمات جنوب مراكش وأنشد قصيدة منها قوله:

قد زُرْتُ قبرك عن طلوع بأغمات رأيتُ ذلك من أولى المهماتِ
لِمْ لا أزورُكَ يا أندي الملوك يَداً ويا سراج الليالي المدْلَهِمّاتِ
كُرِمْتَ حيّاً وميتاً واشتهرتَ عُلىً فأنت سلطان أحياءٍ وأمواتِ

ورغم أن ابن الخطيب توفرت له بالمغرب الظروف المساعدة على الكتابة والتأليف إلا أن ذلك لم ينسه فقد زوجته بسلا ولم يخفف من شوقه وحنينه إلى موطنه غرناطة. وهذا ما عبر عنه شعراً في «نفاضة الحراب» منه هذه الأبيات:

جزتني غرناطة بعدما جلوت محاسنَها بالجلا
ولم تبق جاها ولا حرمة ولم تبق مالا ولا منزلا
كأنّي انفردت بقتل الحسين وجردت سيفي في كَرْبَلاَ
ولم أجنِ ذنباً سوى أنّني صدعت في أمداحها في الملا
وإني صنَعت فيها الغريب فصرت الغريب أجوب الفلا
وما خَصَّني زمني بالعقـ ـوق فكم من فاضل مبتلا
سلام عليها وإن أخفرت ذمامي وجزت بالقلا
وألبستها الأمن ستراً حصيناً وإن هتكست سِتْرِيَ المُسْبَلا
ومثلي يبقى على عهده إذا أعرض الخل أو أقبلا

وعندما استرد السلطان الغني بالله ملكه إثر ثورة حدثت بغرناطة (763 هـ/ 1362 م) استقدم لسان الدين بن الخطيب كما ذكر ذلك بنفسه في أعمال الأعلام: «فأسرعت إلى قصده. . . بعد أن قررت عزمي على تعجيل الأوبة. وعملي على

إسراع العودة وتركي الأهل والود تحت جناح الحرمة والجوار المريني»، وهكذا رجع إلى تولي الوزارة بعد أن أقره السلطان بها. واسترد نفوذه وثروته. وأثناء ذلك لقي عبد الرحمٰن بن خلدون لديه الحفاوة والتكريم وحسن الضيافة قبل أن تتوتر العلاقة بينهما ويضطر ابن خلدون إلى العودة إلى تلمسان، لكن الزمن انقلب على ابن الخطيب مرة أخرى حينما سعى أعداؤه وفي مقدمتهم من أخذ بأيديهم وأحسن إليهم؛ ابن زمرك والقاضي أبو الحسن النباهي، فالأول تتلمذ عليه وكان خليفته في الوزارة، والثاني قلده القضاء والخطابة بجامع غرناطة، إلى الوشاية به للسلطان فأحسّ ابن الخطيب بانزعاج شديد وخشي تحول السلطان عنه، وبالفعل نجح الوشاة في إثارة حفيظته عليه. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: «وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن الباطنة من القدح فيه والسعاية به وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد أحفظوه عليه». فاضطر ابن الخطيب إلى التظاهر بتفقد الثغور، وعندما بلغ جبل الفتح (جبل طارق) توجه إلى المغرب ونزل سبتة بعد أن استأذن في قدومه السلطان المريني عبد العزيز، فاستقبل بحفاوة في مقام السلطان المريني بتلمسان (773هـ) في الوقت الذي اتهم فيه بالإلحاد في غرناطة، وصودرت أملاكه وأحرقت كتبه، وأرسل وفد برآسة الوزير سليمان بن داود في شأنه إلى السلطان عبد العزيز المريني يطلب منه إعدام لسان الدين، ويتهمونه بما يبرّر ذلك في رسالة بالغة العنف كتبها القاضي النباهي وكال فيها الاتهامات الخطيرة من قبيل الخروج عن الإسلام واعتناق آراء الفلاسفة وأقوال الزنادقة والإساءة إلى النبي ﷺ، والغدر بالسلطان. والتدخل في أحكام القضاء، والانصراف إلى ملذّات الدنيا والتجني على الأحياء والأموات، لكن السلطان المريني رفض هذه المساعي. وبذلك ظل لسان الدين متفرغاً للقراءة والتأليف. فوضع كتابه «اللمعة البدرية في الدولة النصرية» (765 هـ/1364م) ومذكرات «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، ورسالة: «معيار الاحتبار في ذكر المعاهد والديار» والعديد من الأرجوزات.

وبعد أن توفي السلطان المريني عبد العزيز 774 هـ وتمت الإطاحة بوزيره بكر بن غازي القائم بأمر الدولة بعده، وتولى العرش المريني السلطان أحمد بن

أبي سالم. تشكّل مجلس من رجال الدولة لمساءلة لسان الدين بن الخطيب عن التهم التي وجهها إليه أبو الحسن النباهي، وخاصة تهمة الإلحاد والزندقة، فحكم بعض الفقهاء المتزمتين بإثبات التهم عليه وأفتوا بوجوب قتله. فأودع السجن بفاس، وحينما تيقن بهلاكه وانقطع أمله في النجاة. وضع قصيدة يتحسر فيها على حاله ويرثي نفسه منها:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت — وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعه — كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً — وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العُلا — غربن فناحت عليها البيوت
فكم جدلت ذا الحسام الظبا — وذو البخت كم جدلته البخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب — وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له — فقل يفرح اليوم من لا يموت

هذا وقد اقتحم عليه نفر من خصومه وأفراد من أعوان وخدم السلطان الغني بالله زنزانته، وقتلوه خنقاً. وبعد دفنه أخرجت جثته وأحرقت من طرف الغوغاء إلى أن احترق شعره واسودت بشرته ثم أعيدت إلى القبر، وقد تعرف المقري على قبره حينما كان مقيماً بفاس وذكر في نفح الطيب أنه زاره مراراً وهو يوجد «فوق باب المدينة الذي يقال له باب الشريعة وهو الآن باب المحروق وشاهدت موضع دفنه غير مستوٍ على الأرض، بل ينزل إليه بانحدار كثير».

كان مقتل لسان الدين الخطيب مؤشراً. على قرب نهاية عصر الإبداع في الثقافة الأندلسية والمغربية، فقد انطفأت مع انقطاع أنفاسه شمعة مضيئة في مجال المعرفة الإسلامية، واختفت شخصية قلما جاد بها الزمان، فقد كان علماً بارزاً في الإرادة وعلم السياسة، وأديباً فذا في نظم الشعر وصياغة النثر، ومؤرخاً محققاً جمع دقة المعرفة وفخامة الأسلوب وموسوعية الرؤية فاستحق بجدارة لقب ذي الوزارتين لجمعه القلم والسياسة، وذي العمرين لقضائه النهار في الإرادة والحكم وليله في الدرس والقراءة لابتلائه بداء الأرق، وصفه صديقه عبد الرحمٰن ابن خلدون في التعريف بقوله: «كان في اللسان ملكة لا تدرك... وكان آية من

آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب. لا يساجل مداه ولا يهتدى فيها مثل بمثل هداه». وقال عنه أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج «الإمام الأوحد الفذ صاحب الفنون المنوعة والتآليف العجيبة» أما المستشرق نيتو Neto فقد قال عنه: «أنه لا يوجد في تاريخ غرناطة الأدبي ما يمكن أن يقارن بهذا الكاتب الخصب. فقد كانت معارفه العلمية عظيمة وقلما حظي أسلوب كاتب مثله بما حظي به أسلوبه من البلاغة والرشاقة... وقد برع بالأخص في علم السياسة والتاريخ...».

ترك لسان الدين بن الخطيب حصيلة ضخمة من الإنتاج الأدبي والتاريخي والعلمي تخص مختلف أوجه المعرفة والنشاط الثقافي من سياسة وأدب وترسل وشعر وتاريخ وطب وفلسفة وموسيقى وتصوف وفقه، فرغم اشتغاله بالوظيف وقيامه بمهام الوزارة وشؤون الإدارة، فإن مؤلفاته جاوزت الستين ضاع منها الكثير ولم يصلنا إلا بعضها. ويمكن تصنيفها في أربعة أنواع الأول في الأدب واللغة والترسل، والثاني في الفقه والتصوف والفلسفة، والثالث في المعارف الطبية، والرابع في التاريخ والتراجم والبلدان، فمن تآليفه اللغوية والأدبية:

- الصب والجهام والماضي والكهام، وهو ديوان شعره.
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، وهي نماذج في الترسل المرصع المسجوع في المدح والإخوانيات والمناسبات.
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان، وهو مجموعة رسائل سلطانية كتبها في مستهل توليه الوزارة.
- جيش التوشيح، وهو مختارات لأئمة التوشيح الأندلسي.
- السمر والشعر، وهو منتخبات شعرية جمعها لابنه عبد الله.
- الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة، وهي مقتطفات شعرية لشيخيه ابن الجياب وابن صفوان العالقي.
- تافه من جَمّ ونقطة من يَمّ، وهو مختارات من رسائل ونثر أستاذه ابن الجياب.
- مثلى الطريقة في ذم الوثيقة، وهي رسالة في التوثيق عرض فيها مناقشات بينه وبين أهل الطريقة.

ـ رسالة في السياسة، على شكل مقامات بطلها هارون الرشيد.

ـ رسالة في الموسيقى، تعتبر في حكم المفقود.

ـ بستان الأول، في السياسة والقضاء والحرب وأهل المهن والحرف، تعتبر في حكم المفقود.

ـ الاستظهار على العداة والاستنجاد للعداة.

ـ رسالة النفاية بعد الكفاية، جعلها على نسق قلائد الفتح ابن خاقان.

ـ تخليص الذهب في اختيار عيون الأدب.

ـ رسائل في الترسل، مثل الشكر على الهدايا الواردات وتقرير المودات والتعازي في الحوادث النايبات والشفاعات.

ومن مؤلفته في الفقه والتصوف والفلسفة:

ـ الحلل المرقومة في اللمع المنظومة، وهي أرجوزة في ألف بيت لخص فيها أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي (ت 476 هـ).

ـ روضة التعريف بالحسب الشريف، أو كتاب المحبة، عرض فيه أفكاره الخاصة في الحب والمحبة الروحية الأهلية.

ـ تخصيص الرياسة، وهي أرجوزة في نحو ستمائة بيت في فن السياسة وتولى أمور المسلمين.

ـ استنزال اللطف الموجود في سير الوجود، وهي رسالة صغيرة في التصوف.

ومن كتبه في المعارف الطبية:

ـ رسالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تعرض فيها للطاعون الجارف الذي اجتاح العالم الإسلامي سنة 749 هـ/1348م مع بيان ظروف ظهوره وأعراضه الأولى وسبل التخلص منه.

ـ الأرجوزة المعلومة، وهو رجز في علاج السموم قابل بها أرجوزة ابن طفيل في نفس الموضوع.

ـ أرجوزة في الأغذية، في نحو مائتي بيت رتب فيها الأغذية على حروف

المعجم، وبين فيها خصائص الأطعمة ومنافعها ومضارها وطرق اصلاح الخلل الحاصل منها.

- عمل في طَبّ لمن حَبّ، جعله في مختلف الأمراض وتطرق فيه إلى أسبابها وأعراضها وكيفية علاجها ونظم الغذاء التي تناسبها، وبين كيفية الاعتناء بأعضاء الجسم.

وله أيضاً رسائل أخرى منها الرجز في عمل الترياق، واليوسفي في صناعة الطب وكتاب البيطرة (في خصائص الخيل)، وكتاب البَيْزَرة. وكتاب الوصول لحفظ الصحة والفصول، وكتاب المسائل الطبية، ورسالة تكوين الجنين.

أما ما كتبه في ميدان التاريخ والتراجم والبلدان فمنه:

- رقم الحلل في نظم الدول، أوالحلل المرقومة في اللمع المنظومة، وهو أرجوزة في تاريخ خلفاء الأندلس والمغرب والمشرق تقدم به إلى السلطان المريني اعترافاً بفضله عليه، ظهرت طبعة له بتونس (1316 هـ).

- طرفة العصر عن تاريخ دولة بني نصر، وهو تاريخ مختصر لملوك بني نصر كتب جزءاً منه في المغرب وأتمه عند رجوعه إلى غرناطة وتولى الوزارة بها (765 هـ/ 1364 م).

- اللمحة البدرية في الدولة النصرية.

- التاج المحلى في مساجلة القدح المعلّى، ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري مع مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ نشأتها، ونهج فيه أسلوب ابن سعيد المغربي في كتابه القدح المعلّى.

- الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر، وهو ذيل للتاج المحلى. جعله في تراجم معاصريه. والتزم فيه الأسلاب المسجوع.

- عائدة الصلة وهي تكملة لكتاب صلة الصلة لابن الزبير الأندلس أفرده لتراجم.

- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة.

ـ المفاضلة بين مالقة وسَلاً، وهو رسالة مسجوعة في المقارنة بين محاسن المدينتين.

ـ نظرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، وهي رسالة في وصف رحلة السلطان أبي الحجاج النصري لعدة مدن من مملكة غرناطة (سنة 748 هـ).

ـ نفاضة الجراب في علالة الاغتراب سجل فيها مشاهداته في المغرب وتعرض فيها لانتقاله بالأندلس وتوليه الوزارة مع ذكر للأحداث السياسية بالمغرب والأندلس انتهى من وضعها سنة 764 هـ وصلنا منها الجزء الثاني والثالث.

ـ معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، وهو وصف لبعض مدن مملكة غرناطة والمغرب الأقصى. جعله في شكل مجالس في كل مجلس منها يتناول بلداً من البلدان فيعرف به ويذكر مشاهيره، نشر المستشرق الإسباني سيمونيت الجزء الخاص بالإندلس. والمستشرق الألماني مولر الجزء الخاص بالمغرب، وأعاد نشره أحمد يمني بفاس، ثم نشر الأستاذ أحمد مختار العبادي الكتاب بجميع أجزائه الإسكندرية (1958) بعنوان: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس.

أما أهم إنتاج لسان الدين بن الخطيب في التاريخ فهو: أعلام الأعلام، والإحاطة، فكتاب الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، كان آخر ما ألفه وكان ينوي إهداءه للوزير أبي بكر بن غازي تدعيماً له في موقفه المساند لتولي ابن السلطان عبد العزيز المريني السلطة والرد على خصومه القائلين بأن إسناد أمور المسلمين لصبي من شأنه الإضرار بالمصلحة العامة، وحاول ابن الخطيب أن يثبت في هذا الكتاب أن ذلك لا يخالف أحكام الشريعة في شيء. وقد جعله في ثلاثة أقسام: الأول تناول فيه تاريخ المشرق الإسلامي في عهد الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين مع ذكر الممالك المتغلبة عليهم أو المستقلة عنهم مثل ممالك الغز والترك وأمراء الحرمين من آل علي كرم الله وجهه وهذا القسم لم ينشر. أما القسم الثاني فجعله لتاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي وحتى عصر المؤلف، مع معلومات مختصرة عن الممالك المسيحية الإسبانية

(قشتالة والآرجون والبرتغال) استقاها من السفراء الوافدين منها إلى غرناطة رجع فيها إلى العارفين بأوضاع تلك الممالك مثل الطبيب بن دقاق اليهودي الطليطلي، وقد نشر ليفي بروفنصال هذا القسم في معهد الدراسات العليا بالرباط (1934م)، والقسم الثالث من كتاب أعلام الاعلام خاص بتاريخ المغرب الإسلامي من الفتح إلى بداية عصر الموحدين، وكان لسان الدين ينوي فيه استعراض تاريخ الحفصيين والزيانيين ويختمه بتاريخ المرينيين الذين خصهم بالفضل دون غيرهم، واعتبرهم في طليعة الحكام المسلمين ولم يفضل عنهم سوى أصحاب الرسول ﷺ، لكن الموت عاجله فبقي هذا الجزء مبتوراً. وقد قام الأستاذان أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم بتحقيقه ونشره بالرباط 1964.

أما كتاب الإحاطة فهو أهم كتب لسان الدين في التاريخ والتراجم، جعله في شكل موسوعة معرفية في تاريخ غرناطة خاصة والأندلس عامة، تعرض فيها إلى آدابها وحضارتها فجاءت عرضاً شاملاً في تاريخ غرناطة وجغرافيتها وغلاتها وساكنيها وماحباها الله به من خصائص ومميزات، ومعجما شاملاً غطى عصر الخلافة الأموية وحتى عهد بني الأحمر، مرتّباً الشخصيات التي أوردها فيه حسب حروف الهجاء واعتماداً على مهامهم ووظائفهم وامتيازاتهم في المجتمع والدولة. فجعل قسما للملوك والأمراء وثان للعمال (الموظفين) وثالث لذوي النباهة كالقضاة والمتحققين بعلوم القرآن والمحدثين والفقهاء ومن إليهم، كما وضع فيه ترجمة لنفسه ذكر فيها سبعة وثلاثين من مؤلفاته، وقد وزع هذا الكتاب إلى قسمين، الأول في الوصف والثاني في الأعلام، وهذا ما أشار إليه في المقدمة. «وجعلت هذا الكتاب قسمين مشتملاً عل فنيْن، القسم الأول في حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن. والقسم الثاني في حلى الزائر والقاطن والمتحرك والساكن».

استغرق تأليف الإحاطة أكثر من عشر سنوات واستعان فيه لسان الدين بتلميذه الشريشي ورجع فيه إلى المصادر المتوفرة لديه مثل كتاب افتتاح الأندلس لابن القوطية، وكتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، ولكتاب الصلة لابن بشكوال، وكتاب صلة الصلة لابن الزبير، وتاريخ علماء السيرة لأبي القاسم

الملاحي ولكتابي المقتبس والمتين لابن حيان وعائد الصلة الذي ألفه وجعله ذيلا لصلة الصلة لابن الزبير. كما اعتمد في تأليف الإحاطة أيضاً على الوثائق والمراسلات والسجلات التي كانت تحت يده بديوان الوزارة بغرناطة. وهذا ما جعلها مصدراً تاريخياً حافظ لنا على روايات وسجل لنا معلومات فُقِدت أصولها وضاعت وثائقها.

التزم لسان الدين بن الخطيب فيما سجله في الإحاطة بالصدق في الرواية والدقة في التعبير، ولم تؤثر عليه عاطفته الجياشة ومشاعره الفياضة وحبه لبلده غرناطة، واستطاع أن يوفق بين دافع الحنين والحب لوطنه غرناطة وحافز البحث والتقصي على الحقائق وجمعها، كما نجح في الجمع بين أداء المعنى في أوضح صوره وبين التزامه بأسلوبه الفخم الجزل الذي يحاكي به إمامي الكتابة بالأندلس ابن بسام وابن خاقان.

تتألف النسخة الأولية لكتاب الإحاطة التي أملاها لسان الدين وبيضها الشريشي في ستة مجلدات ضخمة لم تسلم من عوادي الزمن إذ وصلتنا مختصرة وحذف منها ذكر الملوك والأمراء واقتصرت على الأدباء، وقد قام باختصارها بدر الدين البشتكي المصري سنة 793 هـ/ 1391 م. وسماها مركز الإحاطة. ثم وضع ذيلاً لها توجد نسخة مخطوطة له بمكتبة الاسكوريال بإسبانيا.

وعلى كل فإن الإحاطة في النسخة التي وصلتنا تظل أعظم مؤلف في تاريخ مدن المغرب الإسلامي، قال عنها المستشرق سيمونيت أنها أهم مؤلفات لسان الدين، واعتبرها المستشرق مورينو نييتو أعجب آثار الأدب الإسلامي.

المراجع المعتمدة:

ـ لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، 4 ج مكتبة الخانجي القاهرة 1973 ـ 1977.

ـ لسان الدين بن الخطيب: كتاب الإعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام (الجزء الخاص بالمغرب)، تحقيق ونشر أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الرباط 1964.

- لسان الدين ابن الخطيب، أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات، تحقيق ودراسة محمد حمّاد شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1990.
- لسان الدين بن الخطيب: روضة التعريف، تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة، بيروت، 1970.
- نفح الطيب (في مختلف الأجزاء).
- عنان (محمد عبد الله): نهاية الأندلس وتاريخ المتنصرين ط 2/ القاهرة، 1958 ص ص 453 ـ 461.
- عنان (محمد عبد الله): لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي القاهرة، 1968.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ص 551 ـ 554.
- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 252 ـ 259.
- تاريخ الأدب العربي ج 2 ص ص 337 ـ 340 والملحق 2/372.
- فردينان زايبولد لسان الدين ابن الخطيب دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني ص 421.
- ابن قنفذ، الوفيات، تحقيق عادل نويهض (ط 1971) ص 372.
- الخطابي (محمد العربي) ابن الخطيب السلماني وكتابه الوصول لحفظ الصحة في الفصول، تعريف وانتقاء المجلة الأكاديمية الرباط القسم الأول عدد 2/1985 ص 123 ـ 158 القسم الثاني عدد (4/1987 ص 101 ـ 148).
- درة الحجال في أسماء الرجال، ج 2، ص ص 271 ـ 274.
- نيل الابتهاج، ترجمة 555 ص ص 420 ـ 427.
- معجم المؤلفين، ج 10، ص ص 216 ـ 217.
- فهرس الفهارس، ج 1، ص 281.
- هدية العارفين، ج 2، ص67.
- الدرر الكامنة، ج 3، ص 469.
- الأعلام، ج 7، ص112.
- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون نشر محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1951.
- قاهر (محمد الشريف) لسان الدين الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان، مجلة الأصالة (الجزائر) عدد 36/19 ص ص 213 ـ 259.

من مقدمة كتاب الإحاطة

ولما كان الفن التاريخي مأرب البشر، ووسيلة إلى ضم النشر، يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعاً وطبعاً ما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والرفيه، ويستدلون ببعض ما يبدي به الدهر وما يخفيه، ويُرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره للإيمان ويشفيه، ويمر على مصارع الجبابرة فيحسبه بذلك واعظاً ويكفيه، وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتمم هذا الشاهد لهذا الفن ويُوفيه، وقال الله تعالى: ﴿وكلاً نقصُّ عَلَيْكَ من أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وقال عز وجل: ﴿نحن نقصُّ عليك أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليك هذا القرآنَ وإِنْ كنتَ من قَبْلِهِ لَمِنَ الغافِلِين﴾.

فوضح سبيل مبين وظهر بأن القول بفضله يقتضيه عقل ودين، وأن بعض المصنفين ممن ترك نومه لمن دونه، وأنزف ماء شبابه مودعاً إياه بطن كتابه، يقصده الناس ويردونه، اختلفت في مثل هذا الباب أغراضهم، فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان، عجزا عن الإحاطة بهذا الشأن، عموماً في أكثر الأقطار وخصوصاً في بعض البلدان، فاستهدف إلى التعميم فرسان الميدان، وتوسعوا بحسب مادة الاطلاع وجهد الإمكان، وجَنَحَ إلى التخصيص الأولوية بحسب ما يخصه من المكان، ويلزمه من حقوق السكان، مغرماً برعاية عهود وطنه، وحسن العهد من الإيمان، بادئاً بمن يعوله كما جاء في الطرق الحسان، فتذكرت جملة من موضوعات من أفرد لوطنه تاريخاً هز إليها ـ علم الله ـ وفاء وكرم، ودار عليها، بقول الله من رحمته الواسعة، حرم؛..... طبقات فقهاء تونس لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي العباس بن خلف التميمي، وعنوان الدراية في ذكر من كان في المائة السابعة

ببجاية، لأبي العباس الغبريني، وتاريخ تلمسان لابن الأصفر، وتاريخها أيضاً لابن هدية، وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وتاريخها أيضاً لابن أبي زرع، وتاريخ فاس أيضاً للقونجي، وتاريخ سبته المسمى بالفنون الستة، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض تركه في مسودته، وتاريخ بلنسية لابن علقمة، وتاريخ إلبيرة لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملاّحي، وتاريخ شقُورة لابن إدريس، وتاريخ مالقة لأبي عبد الله بن عسكر، تركه غير متمم، فتممه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر بن خمسين، والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة، لأبي العباس أصبغ بن العباس، والاحتفال في أعلام الرجال لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرّج القيسي، وتاريخ قرطبة، منتخب كتاب الاحتفال، وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطليطلة، لأبي جعفر بن مظاهر، ومنتخبه لأبي القاسم بن بَشْكَوَالْ، وتاريخ فقهاء قرطبة لابن حيان، وتاريخ الجزيرة الخضراء لابن خمسين، وتاريخ قلعة يحصب المسمى بالطالع السعيد، لأبي الحسنِ بن سعيد، وتاريخ بَقيرَة لأبي عبد الله بن المؤذن، والدرة المكنونة في أخبار أشبونة، لأبي بكر بن محمد بن إدريس الفرابي العالوسي، ومزية المريّة لأبي جعفر أحمد بن خاتمة من أصحابنا، وتاريخ المرية وباجة، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج متع الله بإفادته، وهو في مبيّضته لم يرمها بعد.

فداخلتني عصبية لا تقدح في دين ولا منصب، وحمية لا يُذمّ في مثلها متعصّب رغبة أن يقع سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مخصب، ورأيت أن هذه الحضرة التي لا خفاء بما وفّر الله من أسباب إيثارها، وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثغر الإسلام ومتبوأ العرب الأعلام، قبيل رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وما خصها به من اعتدال الأقفار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار، والتفاف الأشجار، نزلها العرب الكرام عند دخولهم مختطين ومنقطعين، وهبوا بدعوة فضلها مهطعين، فعمروا وأولدوا، وأثبتوا المفاخر وخلدوا، إلى أن صارت دار ملك، ولبة سلك، فنبُه المقدار وإن كان نبيهاً، وازدادت الخطة ترفيعاً وجلب إلى سوق الملأ بما نفق فيها، فكم ضمت جدرانها من رئيس يتقي الصباح هجومه، ويتخوف الليل طروقه ووجومه. ويفتقر الغيث

لنوائله الممنوحة سجومه، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها ويدعو بالمشكلات فيأخذ بنواصيها، وعالم بالله قد وسم السجود جبينه، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّ يمينه، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجة الخط، يغوص على درر البدايع، فيلقيها من طرسه الرائع الشط، لم يقم بحقها ممتعض حق الامتعاض، ولا فرق بين جواهرها وبين الأعراض، هذا وشجر الأقلام مشرعة، ومكان القول والحمد لله ذو سعة، فهي الحسنى التي عدمت الذام، ودينة الليالي والأيام، والهوى إن قيل كلفت بمعانيها، وقصرت الأيام على معانيها، فعاشق الجمال عذره مقبول، ولله در أبي الطيب حيث يقول:

ضروبُ الناس عشاقٌ ضروباً　　　فأعذرهم أشفُّهم حبيبا

فلست ببدع ممن فتن بحب وطن، ولا بأول ما شاقه منزل فألقى بالعطن، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه، وطرفُه مغرى بإتمام محاسنه، وقد نبه علي بن العباس على السبب، وجاء في التماس التعليل بالعجب، حيث يقول:

وحبب أوطان الرجال إليهم　　　مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم　　　عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ورميت في هذا المعنى بسهم سديد، وألمحت بغرض إن لم يكنه فليس ببعيد:

أحبك يا مغنى الجلال بواجب　　　وأقطع في أوصافك الغرّ أوقاتُ
تقسّم منك التُّربَ قومي وجيرتي　　　ففي الظهر أحياء وفي البطن أمواتُ

لسان الدين بن الخطيب
الإحاطة في أخبار غرناطة
تحقيق وتقديم محمد عبد الله عنان
(ط 2) مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973 الجزء الأول ص 80 ـ 85

محنة لسان الدين بن الخطيب الأولى

فقلدني السلطان كتابة سره. ولما يجتمع الشباب، ويستكمل السن، معززة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك. واستنابني بدار ملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان ذخيرته وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه، ومن فصول منشوره: «وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه» ولما هلك قدس الله روحه. ضاعف ولده، مولاي رضي الله عنه، حظوتي، وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحي إلى أن كانت عليه الكائنة، فافتدى في أخوه المتغلب على الأمر، فسجل الأختصاص، وعقد القلادة، ثم قطع الإبقاء، وعكس الاختصاص، وحلّ القلادة، لما حمله أولو الشحناء من أعوان ثورته على القبض علي فكان ذلك، وقبض علي، ونكث ما أبرم من أماني، واعتقلت بحال ترفيه، وبعد أن كبست المنازل والدور، واستُكْثِرَ من الحرس، وخُتِم على الأعلاق، وأبرد إلى ما نأي، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالإندلس، من ذوات النظائر [ولاربات] الأمثال. في تبحُّر الغلة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب. واستجادة العدة، ووفور الكتب، إلى الآنية والخرثي، والفرش، والماعون والزجاج، والمحكم، والطيب، والذخيرة، والمضارب، والأقبية، واكتُسحت السائمة، وثيران الحرث، وظهر الحمولة، وقوام الفلاحة، وأذواد الخيل، فأخذ الجميع البيع، وتناهبتها الأسواق. وصاحبها البخس، ورزأتها الخونة، وشمل الخاصة والأقارب الطلب، واستخلصت القرى والجنات وأعملت الحيل، ودست الإخافة، وطوقت الذنوب، وأمد الله بالصبر، وأنزل السكينة وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى. وتعلقت الآمال به، وطبقت [نكبة] مصحفية مطلوبها بالذات. وسبب إفاتتها المال. حسبما قلت عند إقالة

العشرة والخلاص من الهفوة.

تخلصـــت منهـــا نكبـــة مُصحفيّـــة   لفقداني المنصور من آل عامر

ووصلت الشفاعة فيّ مكتتبة بخط ملك المغرب. وجعل خلاصي شرطاً في العقدة. ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب، وبالغ ملكه في بري. واغيا في حلة رعيي. منزلاً رحباً وعيشاً خفضاً، وإقطاعاً جماً، وجراية ما وراءها مرمى، وجعلني بمجلسه صدراً ثم أسعف قصدي فِي تهنيء الخلوة بمدينة سلا. منوه الصكوك، مهنأ القرار، متفقدا باللهى والخِلع مخول العقار، موفور الحاشية، مخلى بيني وبين إصلاح معادي، إلى أن رد الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله بن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه، وصير إليه حقه وصرف إليه كرسيه، فطالبني بوعد ضربتُه، وعهد في القدوم عليه بولده أحكمته، ولم يوسعني عذرا، ولا فسح في الترك مجالا. فقدمت عليه بولده في اليوم الأغر المحجل. وقد ساء بإمساكه رهينة ظنه، ونغص مسرة الفتح بعده، على حال من التقشف والرغبة عما بيده، وعزف عن الطمع في الكسب وزهد في الرفد.

لسان الدين بن الخطيب

الإحاطة في أخبار غرناطة

تقديم وتحقيق محمد عبد الله عنان،

مكتبة الخانجي القاهرة 1977، الجزء الرابع، ص ص 443 ـ 445.

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة
(ت 779 هـ/1377 م)

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المكنىٰ بابن بطوطة ولد بطنجة عام 703 هـ/1304 م، من أسرة متوسطة الحال اشتغل أفرادها ومنهم والد ابن بطوطة بالقضاء والتدريس، تلقى محمد الملقب بابن بطوطة تعليمه الأول بمسقط رأسه، ثم دفعه حبه للسفر ورغبته في الاطلاع والدراسة إلى القيام بثلاث رحلات طويلة استغرقت حوالي ثلاثين سنة (725 ـ 755 هـ/1325 ـ 1354م). الأولى بدأها وهو ابن الثانية والعشرين وكانت أهمها وأطولها إذ استغرقت ربع قرن (725 ـ 735 هـ/1325 ـ 1349) تعرف فيها على بلاد المغرب (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس) ومصر، ثم من القاهرة توجه نحو الصعيد ومنه إلى عيذاب لكنه لم يستطع العبور بحراً نحو جدة بسبب النزاع بين أمراء الحجاز والمماليك. فتحول إلى فلسطين والشام ومنها إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وأثناء ذلك زار العراق وفارس وتعرف على مآثر شيراز وأصفهان. وطاف بأقاليم الجزيرة العربية وعبر البحر الأحمر من اليمن نحو السودان وسواحل افريقيا الشرقية (زنجبار) ثم سافر عبر سواحل عُمَان والخليج العربي ووصل آسيا الصغرى (الأناضول)، واتصل بمملكة سلاجقة الروم وتعرف على الأمير محمد أوزبك خان ودخل القسطنطينية (بيزنطة) برفقة وفد أرسله الأمير محمد أوزبك إلى ملك بيزنطة اندور نيكوس الثالث (733 هـ/1332 م) وكانت برفقة الوفد زوجة الأمير السلجوقي اليونانية الأصل التي كانت في زيارة لموطنها (بيزنطة)، وقد أعجب ابن بطوطة بمعالم القسطنطينية (بيزنطة) أيما إعجاب ثم

توجه ابن بطوطة من إقليم الأناضول نحو الهند عبر جنوب روسيا (القفجاق) وبلاد خوارزم وخراسان وتركستان وأفغانستان (هراة) ومنها عبر نحو السند ليصل في رحلة طويلة إلى دلهي حيث استقر عند سلطانها محمد شاه سنتين فتزوج وتولى القضاء المالكي بها، وكان يلقب ببدر الدين وقد سمح له وجوده بالهند بزيارة جزر دية المهل حيث ذكر أنه تولى القضاء سنة ونصف. كما تمكن من الانتقال إلى جزيرة سيلان. والتجول بملبار وهنور والبنغال وكاليكوت كما ساعدته إقامته بالهند على أن يرافق سلطان دلهي في زيارته لِعاهل الصين فتعرف في الطريق على جزر الهند الشرقية (سومطرة وجاوة) وعلى بلاد الهند الصينية، ثم عبر إلى الصين وقام بجولة في مختلف أقاليمها حتى شمال بكين وإلى حدود منشوريا.

وفي الرحلة الثانية (751 ـ 752 هـ/ 1350 ـ 1351 م) قصد ابن بطوطة الأندلس فتوجه من طنجة إلى سبتة ومنها عبر البحر نحو جبل طارق ليزور ملقة وغرناطة التي كانت تحت حكم أبي الحجاج النصري، أما الرحلة الثالثة (754 ـ 755 هـ/352 ـ 1353 م) فقد قصد فيها ابن بطوطة الجنوب ليزور أقاليم المغرب الجنوبية ويعبر الصحراء نحو السودان الغربي، وتوهم عند بلوغه نهر النيجر أنه وصل نهر النيل، لكنه اضطر إلى قطع مسافات طويلة ليصل مصر ومنها إلى أقطار المشرق ويزور خاصة بلاد فارس سنة (754 هـ/1353 م) بعدها يعود إلى مسقط رأسه طنجة ليحكي مغامراته ويروي مشاهداته التي أثارت فضول الناس، ودفعت ببعض الكتاب إلى التشكيك في صحتها، ومنهم لسان الدين بن الخطيب الذي ذكر في الإحاطة بأخبار غرناطة نقلاً عن شيخه أبي البركات: «أن ابن بطوطة اجتاز البحر للأندلس وبلغ غرناطة واجتمع بفقهائها في دعوة وكان يحدثهم عن رحلته يومه وليله، فاستغربوا أخباره واستبعدوها...» وذكر أبو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى: «أنه كان (أي الزياني) يسرد على علماء الهند الذين التقى بهم في الحرمين رحلة ابن بطوطة.. فأنكروا كثيراً مما فيها من أخبار ملوكهم، وأما قضاؤه بالهند ومصاهرته لسلطانه فقد أبطلوه بالكلية، وقالوا هذا غير ممكن، فبسبب ذلك لم أنقل (الزياني) من خبرها شيئاً».

لم يكن ابن بطوطة عالماً مفكراً أو مثقفاً واسع الاطلاع. وإنما كان جوّاباً

للآفاق محباً للمغامرة ذا ثقافة دينية محدودة، وإيمان عميق وحماس فياض فيما يتعلق بأمور العقيدة. ولعل هذا ما جعله يصدق كل ما يحكى له من كرامات. لم ير بدا من رواياتها كما قصت عليه، كما هو الشأن عن لحية جمال الدين وحديثه عن النساء ذوات الثدي الواحد. وإن كان يستهل حكاياته بعبارة (ويزعمون) أو يعقب عليها بقوله: (هذا في زعمهم) على أن ذلك لا ينقص من قيمة وحيوية عرضه ودقة ملاحظاته وطرافة قصصه ودقة أسلوبه وعفويته في سرد الوقائع كما ارتسمت في مخيلته، وهذا ما جعل المستشرق دوزي يصفه «بالرجل الأمين».

هذا وقد حظي ابن بطوطة رغم تشكيك بعض الناس في صحة ما رواه من الأخبار، واهتمام ورعاية الملك المريني أبي عنان (749ـ 759هـ/1348ـ 1358م) الذي ولاه قضاء إقليم تامسنا وبقي به حتى وافته المنية سنة (779هـ/1377م) وكان قد طلب منه تقييد رحلته التي تولى تدوينها أحد رجال أبي الحجاج يوسف بن الأحمر صاحب غرناطة وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي (ت757 هـ/1356 م) ويعد من الكتاب المجيدين والقائمين بالإفتاء، وقد أمضى في تدوينها ثلاثة أشهر وانتهى منها سنة 756 هـ/1355 م، وقسمها إلى قسمين الأول ينتهي بوصول ابن بطوطة السند، والثاني بنهاية الرحلة الثانية، وقد اعتمد ابن جزي فيما سجله على الرواية الشفوية. والتقاييدِ المطولة التي وضعها ابن بطوطة في أسلوب جيد مع حذف التفاصيل التي لم ير فائدة من تسجيلها. وهذا ما أشار إليه ابن جزي في ختام تقييده للرحلة قائلاً: «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة أكرمه الله، ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد...».

جاءت صياغة ابن جزي لرحلة ابن بطوطة في أسلوب أدبي جمع حيوية العرض ودقة الوصف إلى تنوع الرواية وطرافة الأخبار، وقد حرص ابن جزي على أن لا يدخل عليها تصحيحاً أو تحريفاً، فجاء فيها نوع من الاضطراب في سرد الأحداث وتسلسل الوقائع، وإن عكست شخصية صاحبها ببساطة تعبيره ودقة ملاحظاته ورقة شعوره وقوّة ذاكرته وتدينه واحترامه للعادات والتقاليد، وتتبعه لدقائق الأمور واهتمامه بغريب المخلوقات ونادر الأشياء، وقد أشار إلى ذلك

ابن جزي بقوله «ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد. موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار».

تعتبر تحفة الناظر لابن بطوطة من المصادر التاريخية والمراجع الجغرافية المهمة فهي تقدم لنا لوحة متكاملة وعرضاً شاملاً لمجال الحضارة الإسلامية في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، في فترة انحسار موجة الصليبيين بالشام وتوسع السلاجقة في الأناضول، وتعزيز نفوذ السلاطين المغول بالهند، وتجدد قوة المغرب بفضل جهود المرينيين، وذلك بما تضمنته هذه الرحلة من معلومات تتعلق بطبائع الناس وعاداتهم وطرق معيشتهم وموارد رِزقهم وصنائعهم، فقد أورد فيها مؤلفها صورة عن الأعياد والمواسم والمعاملات وعن المدارس والزوايا والمساجد والعلماء والصالحين والزهاد وغيرهم. معتمداً على الذاكرة ومستنداً إلى الملاحظة مستعيناً بالخيال رغم وجود بعض الثغرات نتيجة النسيان مما اضطر ابن جزي إلى الرجوع إلى نصوص بعض الرحلات المتقدمة في وصف بعض البلدان مثل الشام التي استعان فيها بما سجله عنها ابن جبير في رحلته (ت 614 هـ).

ورغم ما تضمنته رحلة ابن بطوطة من مَعْلومات عن الأقطار النائية مثل الهند والصين وجنوب شرقي آسيا، فإنها ظلت بعيدة عن اهتمام الباحثين العرب المسلمين. وذلك بعكس ما حظي به الرحالة الأوربي المعاصر لابن بطوطة ماركوبولو البندقي الذي ساح في الشرق الأقصى (1271 ـ 1295 م) وتوفي بسنة ونصف قبل انطلاق ابن بطوطة في رحلته، فقد ألّفت حوله ـ (ماركوبولو) الكتب وقدمت عنه الدراسات وحققت رحلته وعلق عليها أكثر من مرة، ووضعت لها خرائط ومصورات حتى تألفت مكتبة غنية تعرف باسمه، بينما الرحالة المغربي ـ ابن بطوطة ـ الذي عاش في نفس العصر وسلك نفس طريق الرحلة. ووصل إلى أغلب البلدان التي سافر إليها ماركوبولو في الشرق الأقصى والصين، لم يجد العناية ولم يلق الاهتمام اللازمين، ولم تظهر دراسات وأبحاث حول أسفاره، فظل مغموراً ولم تنشر رحلته إلا بعد أن تعرف عليها الأوربيون أمثال بوشار (Buchard) الذي وضع لها مختصراً، وكازيجارتن (Kasegarten) الذي ترجمها مختصرة إلى

اللاتينية، ثم بعدما ظهرت ترجمتها الفرنسية عمل جيب (Gibb) على وضع ترجمة لها بالانكليزية. بعد ذلك تعددت الترجمات فترجمت إلى الألمانية والتركية والبرتغالية بينما تأخر طبع الأصل العربي لرحلة ابن بطوطة حتى سنة 1934، لينشر مهذباً بالقاهرة، قبل أن ينشر محققاً ومعلقاً عليه من طرف المنتصر الكتاني، ثم يقوم الكاتب حسين مؤنس بعرض وافٍ له مع تحليل ودراسة ضافية، كما هو مبين بالمراجع المعتمدة.

المراجع المعتمدة:

- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ج 2، بيروت 1990، (ط2، شرح وتحليل طلال حرب مكتبة دار الكتب العلمية بيروت 1992).
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي) الرحلة، دار صادر، بيروت 1992.
- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله الطنجي) تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتقديم وتعليق: المنتصر الكتاني، 2 ج، ط 4، بيروت 1958.
- الشرقاوي، (محمود)، رحلة ابن بطوطة، القاهرة 1967.
- مؤنس، (حسين) ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة 1980.
- خصباك، (شاكر) ابن بطوطة ورحلته، النجف، 1971.
- الدباغ (محمد بن عبد العزيز)، من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني ـ مكتبة الأمة الدار البيضاء، 1992.
- الدباغ، (محمد بن عبد العزيز)، ابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة، مجلة دعوة الحق (المغرب) العدد 10 السنة 5 يوليو 1962.
- زيادة، (نقولا)، الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1962.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 83 ـ 85.
- معجم المؤلفين، ج 10 ص ص 235 ـ 236.

- الشهابي، الجغرافيون العرب، دار المعارف القاهرة، 1964 ص 68 _ 95.
- العوامري، أحمد، وجاد المولى محمد أحمد، مذهب رحلة ابن بطوطة، القاهرة 1934.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 456 _ 471.
- معجم المؤلفين، ج 10، ص 235.

- Blachère (P) Darmaun, Extraits des principaux géographes arabes du Moyen- Age, Paris, 1957, pp. 316, 348 - 351.
- Carra de vaux (Baron), Les Grands voyageurs, in Penseurs de l'Islam, Paris 1921, T II.
- Deslane (M.G.), Voyages dans le Soudan par Ibn- Batouta, in Journal Asiatique, 1843. pp 1- 81.
- Defrémery (C.) Sanguinetti (B. P.) Voyages d'Ibn Batouta, 4 Vols, Pàris 1853 - 1859.
- Gibb (H. A. R.) Ibn Batouta travels, in Asia and Africa
- Janssens (H. E) Ibn Batouta: le Voyageur de l'Islam 1304 - 1369, Bruxelles, 1948.
- Miquel (A.) Ibn - Battouta, in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Leyde-Paris, 1975, T III, p. 758 - 759.
- Trapier (B.) Le voyageurs arabes au Moyen- Age, Paris 1937.
- Mzik (H. Von) Die Reise des Arabers Ibn Battuta, in Indien and China, Hamburg, 1911.

ابن بطوطة يعبر البلاد الجزائرية

فوصلت إلى تلمسان، وسلطانها يومئذ أبوتاشفين عبد الرحمٰن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيىٰ رحمه الله، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم النفزاوي، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي نسبة إلى قرية بساحل المهدية. وهو أحد الفضلاء. وفاته عام أربعين. وفي يوم وصولي إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران، فأشار علي بعض الأخوان بمرافقتهما، فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثاً في قضاء مآربي، وخرجت أجد السير في آثارهما.

فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها، وذلك في إبان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشراً، ثم ارتحلنا، وقد اشتد المرض بالقاضي منهما، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثاً.

وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي إلى مليانة فقبروه بها. وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس. منهم الحاج مسعود بن المنتصر، والحاج العدولي، ومحمد بن الحجر.

فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياماً إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي، فتوجهنا جميعاً إلى منبجة جبل الزان.

ثم وصلنا إلى مدينة بجاية، فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي، ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر، وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب، وكان قد توفي من تجار

تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، وأوصى بها لِرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم، ولما وصلنا إلى بجاية ـ كما ذكرته ـ أصابتني الحمى، فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرد مني فأبيت، وقلت: «إن قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز». فقال لي: «أما إن عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وأنا أعيرك دابة وخباء، وتصحبنا خفيفاً، وإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق». ففعلت هذا. وأعارني ما وعد به جزاه الله خيراً. وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الإلٰهية في تلك الوجهة الحجازية.

وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة، فنزلنا خارجها، وأصابنا مطر جود اضطررنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك، فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة، وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر، فأمر بغسلها في داره، وكان الإحرام منها خلقاً، فبعث مكانه إحراماً بعلبكيا، وصرّ في أحد طرفية دينارين من الذهب. فكان ذلك أول ما فتح به علي وجهتي.

ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة. ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياماً، ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار لأجل التخوف في الطريق، وتجردنا للسير، وواصلنا الجهد.

وأصابتني الحمى، فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط، بسبب الضعف، ولا يمكنني النزول من الخوف، إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس. . .

أبوعبدالله محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة،
تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
تحقيق وتقديم علي المنتصر الكتاني،
مؤسسة الرسالة، بيروت 1985، الجزء الاول ص ص 30 ـ 32.

أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب

(ت 781 هـ/1379 م)

أبو عبد الله بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني المعروف بالخطيب ينسب إلى أسرة المرازقة التلمسانية التي توارثت العلم والوظيف الديني وارتبطت بخدمة الولي أبي مدين شعيب.

ولد محمد بن مرزوق بتلمسان سنة 710 هـ/ 1311 م، وأخذ العلوم على شيوخها وفي مقدمتهم أفراد أسرته؛ أبوه وعمه، فاكتسب ثقافة دينية ولغوية متينة، قبل أن يصطحبه والده معه إلى المشرق لأداء فريضة الحج وهو شاب يافع، فتعرف على حواضر الشرق، الإسكندرية والقاهرة والقدس ودمشق، ومكث فترة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كان حريصاً على الدراسة والتحصيل في كل مكان حل به. سواء عندما كان بالمشرق أو عندما رجع إلى تلمسان أو انتقل إلى فاس، وقد أورد أسماء العديد عن شيوخه في مصنفه «عجالة المستوفز» من أشهرهم: ناصر الدين المشدالي البجائي، وبرهان الدين الصفاقسي، وأبو محمد الحسن الواسطي، وأبو عبد الله محمد الخزرجي المطري وحسن بن يوسف الحسني، ومحمد بن علي السطي. ومحمد بن عبد الرزاق الجزولي. وقد ظهرت مواهبه في الخطابة عندما خطب بجامع الإسكندرية نزولاً عند طلب الشيخ المرشدي، فاشتهر أمره وعُدَّ من خطباء الإسلام. فقد نقل عنه ابن مريم في «البستان» أنه خطب على ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً وأندَلساً»، كما تعرف عليه ابن الخطيب وأخذ عنه وأعجب به ووصفه في الإحاطة بعبارات طريفة منها: «أنه كان من أطرف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة مليح التوسل حسن اللقاء مبذول البشر كثير التودد نظيف البزة لطيف التأني خير البيت طلق الوجه خلوب اللسان

طيب الحديث مقرر الألفاظ عارف بالأبواب درباً على صحبة الملوك والأشراف ممزوج الدعابة بالوقار والفكاهة. . . بارع الخط عذب التلاوة متسع الرواية مشاركاً في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف فلا يعدو العادة».

عاد ابن مرزوق إلى بلاد المغرب بعد أن فضل والده البقاء بالحجاز مجاوراً، فانتقل عبر الساحل من الإسكندرية إلى طرابلس وتونس، ووصل إلى تلمسان في شهر رمضان 737 هـ/ أفريل 1337. وهي محاصرة من طرف السلطان المريني أبي الحسن، ولم تلبث المدينة أن سقطت فسهل عليه التقرب إلى البلاط المريني مستعيناً في ذلك بمساعدة عمه متولي الإمامة والخطابة بجامع العباد الذي شيده أبو الحسن على ضريح الولي أبي مدين، وبعد أن خلف عمه المتوفى في مهام الإمامة والخطابة بذلك الجامع التحق بحاشية السلطان وأصبح محل ثقته وصاحِبَه في أسفاره. وحضر معه وقعة طريف في صيف عام 741 هـ/1340م. وتولى سفارة السلطان إلى ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر، بغرض إبرام عقد صلح، وافتداء ابن السلطان أبي عمر تاشفين الذي أسر في موقعة طريف. فنجح في مهمته هذه وعاد إلى تونس لتهنئة السلطان بفتح تونس في خريف عام 748 هـ/ 1347 م، وكان آنذاك قائماً على خدمة حضية أبي الحسن المفضلة أم أبي عنان وبصحبته زعماء النصارى، لكنه توقف بقسنطينة عندما علم بمغادرة السلطان تونس بعد انهزامه أمام الأعراب في واقعة القيروان (محرم 749 هـ/أفريل 1348 م.

تحول ابن مرزوق الخطيب إلى تلمسان في وقت عمت فيه الفوضى وأعلن فيه السلطان «أبو عنان» تمرده على أبيه السلطان أبي الحسن الذي انتهى أمره بالقتل في جبل هنتانه 752 هـ/1351 م. بعد أن نجح أبو عنان في الاستحواذ على السلطة، فانتهت بموت أبي الحسن أزهى فترات حياة ابن مرزوق الخطيب والتي سجلها بأسلوب مؤثر في كتابه المسند واصفاً مكانته عند السلطان ومنزلته في البلاط: «وتقلدت الشهادة في عقوده، وما يخص داره العلية وجهته المكرمة وقلدني الإمامة مدداً عديدة في تعذر متقلديها. وأهلني لأن كان يقرأ عليّ محفوظه من كتاب الله تعالى، وقرأ علي سوراً باللوح وأهلني لكتب صدقاته، وصدقات أولاده، وقَدَّمَني لسماع الشكيات، وائتمنني على أسراره. واستعملني في كتبها

مدة عنه ولم يطلع عليها بَشَراً. . . وأهلني للسفارة وللرسالة، وأهلني لإقراء بعض ولده رحمهم الله. . . كما أهلني للإقراء فكنت أدرس «بجامع المنصور» الحديث والفقه، وهو يسمع في المقصورة أحياناً. وبمحضر مشيختنا من أهل العلم، وأهلني للمسامرة والمحاضرة، واختصني بالمفاكهة والمباسطة، وأظهرني على النظراء، وفضلني على الظّهراء. واولاني من الاعتناء ما أرتقيت به إلى أعلا مراتب الأحظاء».

وكان ابن مرزوق قد اغتنم فرصة تجدد ملك بني زيان بتلمسان على يد أبي سعيد عثمان وأخيه أبي ثابت، فحاول إبعاد الصراع عن تلمسان، وتقديم خدمة لأبي سعيد عثمان الذي كانت جيوش أبي الحسن تتهيأ لمهاجمته فحمل رسالة من أبي سعيد إلى السلطان أبي الحسن الذي نزل بقواته مدينة الجزائر، لكن أبا ثابت أخ السلطان الزياني ومناصريه اعترضوا على مساعي ابن مرزوق فسجن. ثم نفي إلى غرناطة 752 هـ/ 1351 م، حيث حظي برعاية سلطانها أبي الحجاج يوسف النصري، وبصحبة الأمير أبي سالم ابن السلطان أبي عنان الذي كان بدوره مبعداً إلى الأندلس من طرف أبيه.

وبعد أن مكث في الأندلس سنتين تولى أثناءها الخطابة بجامع غرناطة واشتغل بالتدريس استدعاه السلطان أبو عنان إلى بلاطه بفاس 754 هـ/1353 وألحقه بحاشيته وأصبح من خاصته، وقد أرسله في سفارة إلى تونس 758 هـ/1357 م ليخطب له ابنة السلطان الحفصي أبي يحيى، فلم يوفق في مسعاه. فاتهم بالتواطؤ مع السلطان المريني وأودع السجن، ولم يطلق سراحه إلا قبل فترة قصيرة من مصرع السلطان أبي عنان المريني 760 هـ/1358 م. ثم وبتولي السلطان أبي سالم أمور الدولة المرينية الذي كانت تربطه به علاقات ود وصداقة عندما كان بغرناطة. استرجع ابن مرزوق مكانته وأصبح الجليس والمستشار للسلطان أبي سالم. فشفع عنده للسان الدين بن الخطيب، وتكللت مساعيه بالنجاح عندما تدخل السلطان أبي الحسن بدوره لدئ المستبد بأمر غرناطة إسماعيل الذي اطلق سراحه، وأستطاع عند ذلك لسان الدين أن ينتقل إلى المغرب.

لم تدم أيام عز ابن مرزوق طويلاً. فقد ألقي القبض عليه مرة أخرى وصودرت أملاكه بعد مقتل السلطان أبي سالم على يد عمر بن عبد الله 762 هـ/1360 م. وعندما أطلق سراحه غادر المغرب فركب البحر إلى تونس (764 هـ/1362 م). فلقي الترحاب والحفاوة من السلطان أبي إسحاق ووزيره أبي محمد بن تافراكين، وتولى الخطابة بجامع الموحدين، كما قام بالتدريس بمدرسة السماعين، وظل محافظاً على مكانته في عهد السلطان خالد، وعندما حاصر أبو العباس تونس واستولى عليها (772 هـ/1370 م). عزل ابن مرزوق من الخطابة انتقاماً منه على مجافاته له أيام كان لاجئاً عند السلطان أبي سالم. فكان لذلك وقع مؤلم في نفس ابن مرزوق فعزم على السفر إلى المشرق بعد أن يئس من استرجاع ثروته ومكانته بالبلاط المريني فركب السفينة إلى الإسكندرية (773 هـ/1371 م). واستقر بالقاهرة حيث لقي الحفاوة من جمهور العلماء بها. وقد قربه السلطان المملوكي الأشرف وحفظ له مكانة وأجرى عليه الجرايات وأولاه المناصب العلمية الرفيعة. وظل معززاً مكرماً من الخاصة والعامة إلى أن وافاه الأجل سنة 781 هـ/1379 م.

عاش ابن مرزوق الخطيب حياة حافلة تعامل فيها مع سبعة ملوك، وتنعم فيها بالثروة وعلو المكانة كما عانى الذل والمهانة. وتقلب في الوظائف السامية من خطابة وكتابة وتدريس، ولعل هذا ما أشعره بقيمته ومكانته. فقد ذكر ابن مريم في البستان نقلاً عن أبي عبد الله محمد بن العباس التلمساني أنه وجد مكتوباً بخط ابن مرزوق الخطيب عندما امتحن بفاس إثر مقتل السلطان أبي سالم يعدد فيه مآثره ومكانته بهذه العبارات. «أفلا يراعى لي ثمانية وأربعين منبراً في الإسلام شرقاً وغرباً وأندلساً، ألا يراعي لي أنه ليس اليوم يوجد من يسند الأحاديث الصحاح سماعاً من باب الإسكندرية إلى البربر والأندلس غيري، وقراءة نحو من مائتين وخمسين شيخاً، أفلا يراعى لي مجاوزة نحو اثني عشر عاماً، وختم القرآن داخل الكعبة وتدريس كتاب الأحياء في محراب النبي ﷺ والإقراء بمكة...».

وقد تتلمذ عليه ثلة من العلماء الأجلاء أمثال لسان الدين بن الخطيب

ومحمد بن يوسف المعروف بابن زمرك وأحمد بن قنفذ القسنطيني وأبو القاسم البرزلي، وعبد الله بن محمد الشريف التلمساني، ومحمد بن علون التونسي وإبراهيم محمد التازي.

ترك ابن مرزوق العديد من التصانيف أغلبها شروح وتقاييد، عرف منها:

1 ـ عجالة المستوفر المستجاز، في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز، وهو فهرس بالشيوخ الذين أخذ عنهم وحضر شروحهم.

ـ برح الخفاء في شرح الشفاء، وهو شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض، كان محل تقريض وتنويه من شيوخ عصره.

ـ شرح الأحكام الصغرى، لعبد الحق بن عربي الاشبيلي.

ـ إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب. وهو شرح لمختصر ابن الحاجب في الفروع.

ـ تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام. وهو شرح لعمدة الأحكام لتقي الدين الجمائلي.

ـ مجموعة خطب وأشعار من وضعه.

ـ جنى الجنتين في فضل الليلتين، في فضائل ليلة القدر وليلة المولد النبوي الشريف.

ـ إيضاح المراشد في أجوبة أبي راشد، وهو في حكم المفقود.

ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. وهو أهم تآليف ابن مرزوق وبه اشتهر وعدّ من أعلام التراث التاريخي بالمغرب الإسلامي.

وضع ابن مرزوق كتابه «المسند» بتونس بعد عشرين سنة من وفاة السلطان أبي الحسن، فكان تعبيراً عن وفائه لولي نعمته وعملا موجهاً لكسب رضا البلاط المريني بفاس. وأملاً في استرجاع مكانته المهدورة وأملاكه المسلوبة، وهذا ما جعله يسترسل في إطراء السلطان أبي الحسن. ويبالغ في مدحه. فقد استعرض في مجموع أبواب الكتاب وهي خمسة وخمسون باباً. كل ما يتصل بحياة أبي

الحسن، فكان مضمون المقدمة يدور حول الخلافة ورأي العلماء فيها، وفي فضلها وجوب طاعة السلطان. وتفضيل الحكام على المفتين والأئمة، أما الأبواب فكانت كلها تدور حول صفات السلطان أبي الحسن، مثل: شيمه وأخلاقه ومكارمه وبره وحسن سلوكه، وقد ركز في مستهلها على نسب بني مرين ثم استرسل في وصف خلقه وحسن تربيته، وتعداد خصالة الحميدة. ومحافظته على القيام بالوظائف الشرعية. وإقامته العدل ورعايته آل بيت رسول الله ﷺ وفي رعايته لأهل الصلاح، وفي شدة خوفه من الله وفي حسن ظنه بالله. وفي ملاحظته لأحوال الرعية، وفي حلمه وكرمه وفي جميل صفحه وفي إحسانه وفي جميل صبره وفي حياته وفي برّه، وفي رعايته ومحبته لأهل العلم.

أما الجوانب التي تهم خاصة المؤرخ فهي التي تتعلق بأعمال أبي الحسن وتتناول تمهيده طريق الحج والعمرة وعنايته بذلك. وفي أعماله في الجهاد وغزو الكفار، وفي إنشائه المدارس والمناظر (الربط) بالسواحل، وفي بنائه الجوامع والمساجد والصوامع، وفي إنشائه المدارس والزوايا والمارستانات والقناطر والجسور والسقايات.

جاء كتاب المسند بلغته البسيطة وأسلوبه المرسل سجلاً للواقع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي لعصره، لأنه صادر عن نظرة داخلية متفحصة لا تهتم بأحداث ووقائع التاريخ وإنما تركز على الحياة داخل البلاط المريني على عهد أبي الحسن بجميع نواحيها الدينية والأخلاقية والعقلية والسلوكية والإدارية، بنظرة موظف متمرس، ومثقف عميق الإحساس ورجل دين يقدر المواقف والتصرفات، مما يجعل المسند بحق مصدراً أساسياً لفهم طبيعة المؤسسة المرينية الحاكمة، واستقراء المجتمع المغربي في ذلك العصر، قال عنه محمد الحاج صدوق: «يجمع التاريخ والمديح والمعاملات الفقهية ويمزج بين طريقة الفقهاء إلى أسلوب الأدباء...» ولعل أحسن تقريض لكتاب المسند هو ما كتبته الباحثة الإسبانة ماريا خيسوس في تقديمها له إذا قالت: «إن ابن مرزوق تناول في مسنده تاريخ عصره من الناحية الحضارية فبرع في معالجة كثير من الجوانب الأثرية والفكرية والسياسية، مما جعله بالمقارنة مع مصادر أخرى في الفترة ذاتها يفوقها من حيث

أنه يعكس البُنَى العقائدية لتلك الفترة ومفاهيمها الروحية وعقليتها ونظمها الحضارية».

اعتمد العديد من المؤرخين على كتاب المسند كمرجع لأحداث عصر أبي الحسن فرجع إليه المقري في نفح الطيب والسلاوي في الاستقصا، كما اعتمد عليه ليفي بروفنصال، وبلاشير فيما كتبه عن تاريخ المغرب المريني.

يتوفر كتاب المسند على نسختين مخطوطتين إحداهما بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا والأخرى بالخزانة العامة بالرباط جلبت من جنوب المغرب، كما نال اهتمام الباحثين إذ ترجم ليفي بروفنصال مقتطفات منه إلى الفرنسية ونشرها في مجلة هيسبيرس. 1925، وتخصصت الباحثة والأستاذة الإسبانية ماريا خيسوس في دراسته فترجمته إلى الإسبانية وضعت مقدمة له (مدريد 1973) ثم عملت على تحقيق نسخته العربية التي طبعت بالجزائر 1981.

المراجع المعتمدة:

- ابن مرزوق (محمد). المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خ. بيغيرا، الجزائر، 1981.
- نفح الطيب، ج 5، ص ص 390 ـ 396.
- نيل الابتهاج، ترجمة 561، ص ص 450 ـ 455.
- ابن الخطيب (لسان الدين محمد السلماني)، اللمحة البدرية.
- الدرر الكامنة.
- ابن خلدون (عبد الرحمٰن) التعريف، القاهرة 1951 ص ص 49 ـ 54.
- ابن خلدون (عبد الرحمٰن) تاريخ العبر، ط بيروت 1969 ج/7 ص 648 ـ 650.
- دودو (أبو العيد) ابن مرزوق الخطيب، مجلة المعرفة الجزائر، العدد 17/1965 ص 37 ـ 51، نشرت الدراسة أيضاً في كتاب كتب وشخصيات، الجزائر، 1971، ص ص 29 ـ 46.
- بو عياد (محمد)، من مآثرنا المغمورة: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لمحمد ابن مرزوق الخطيب، مجلة الثقافة (الجزائر) عدد 61/1981، ص 19 ـ 28.

- البستان، ص ص 184 ـ 190.
- جذوة الاقتباس، ص ص 140 ـ 142.
- طراوة (حجازي حسن علي)، حضارة تلمسان في عهد بني زيان، ط 4 القاهرة 1994 ص ص 193 ـ 227.
- تعريف الخلف، القسم الأول، ص ص 141 ـ 148.
- ابن قنفذ (أحمد بن الخطيب) الفارسية، تونس، 1988 ص 57.
- فهرس الفهارس، ج 1، ترجمة 297، ص ص 521 ـ 523.

- Hadj Sadok (M) Ibn Msarzuk, in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, T. III pp 890 - 892.
- Ibn Marzuq, El- Musned, tra, anot, par, J. Viguera, Institute Hispano- Arabe de Cultura, Madrid 1977.
- Lévi - Provençal (E.) Un nouveau texte d'histoire mérinide: Le Musnad d'Ibn-Marzuk, in Hespéris, 1925, pp. 1- 82.

من مآثر أبي الحسن المديني بتلمسان

وأما ما أنشأه بمدينة تلمسان، فمما يرجى من الله إعادة رسمه وتجديد آثاره، فكان مما لم يعهد مثله في سالف الأزمان ولا سبق شكله في قواعد البلدان، فمن ذلك جامع القصبة المشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وضعه وجمال شكله وترتيب رواقاته واعتدال صحنه وحسن ستاره ومعين مائه واتساع رحابه واحتفال ثرياته الفضية منها والصفرية وغرابة منبره.

وأما الجامع الكبير فقد اتفق الرحالون وأجمع المتجولون على أنهم لم يروا له ثانياً، أما أن جامع بني أمية تم حسنه، لما كمل ترتيب وضعه، ولو كملت تتمات هذا الجامع لما قصر عنه، وجامع المنصور بمراكش الذي يضرب به الأمثال، وإن كان أكبر مساحة إلا أن ما كان في هذا من الرخام والأحكام أغرب وأعظم، ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها صعِدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر، وهو رحمه الله على فرسه وأنا على بغلتي، من أسفلها إلى أعلاها، كأن في وطء من الأرض. وكانت على الباب الجوفي منه ولها ممرّان، يطلع فيهما إلى أعلاها. وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار بصناعة مختلفة من الأحكاء في كل جانب. ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح، وهو من حديد يشبه أن يكون صارياً. وأما الثريا فكان عملها على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي على ما هي عليه الآن في جامع تلمسان، وتشتمل على ألف مشكاة أو نحوها، وعهدي بقدر وزنها مرسوم في أسفلها، وهي على مقدار كرم.

وأما المنبر، فقد أجمع الصناع يومئذ على أنه لم يعمل مثله في المعمور، وقد اتفقوا على أن منبر قرطبة ومنبر الكتبيين بمراكش أحفل منابر المعمور صناعة،

فإن أهل المشرق لم يجد لهم في بنائهم احتفال في نقش الخشب، فبلغ من منبر قرطبة عدة قطعات وعورضت بما اشتمل عليه هذا المنبر فلم يوجد بينهما مناسبة فيه من الأشكال المنقوشة قدر البندق والحمص، وفيه من التحاشي قدر البرة ونحوها، إذا رأيته، رأيت العجب، فالله حسيب من تسبب في خراب ذلك كله وهو مجازيه، فلقد محا رسوماً يفخر بها أهل الإسلام ويعتز بها الدين ما بقيت الأيام.

ومساجد عدة، منها باب الحجاز، وعند باب هنين وعند باب فاس، وأجري لهذا الجامع الأعظم، نهرا يشق من أصل المدينة إلى الجامع المذكور في ساقية تمر، تجري منها سقيات متعددة، ومنها الجامع الذي أنشأه بمدينة هنين، وكان شراء موضعه على يدي، وهو مسجد خطبة وصومعة فيه كبيرة مختلفة، واشترينا المساحة المزيدة في الجامع القديم بمال جسيم والمزيد في جامع الجزائر كذلك.

وأما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ، وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفين أبي مدين شعيب بن الحسين رضي الله عنه، فهو الذي عز مثاله واتصف بالحسن والوثاقة أشكاله، أنفق فيه مقداراً جسيماً ومالاً عظيماً، وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي، اشتمل على الوضع الغريب. وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعرض لها وهم، أنها أشكال منجورة، ومنقوشة. وهي كلها مبنية أحكاء بالآجر والفضة واشتمل على المنبر العجيب الشكل. المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب ذلك كله، وقد تقدمت حكاية رقم الصدر منه، وأما الباب الجوفي. الذي ينفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ رضي الله عنه والشارع، وهو باب النحاس، المشتمل على مصراعين، كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم، المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة فهو من غريب ما يتحدث به السفار، أخذ على صناعة المصراعين الصفارون نحو من سبعمائة ديناراً ذهبا عيناً. هكذا وجدته بخطي، عدا ثمن النحاس والحديد والخشب والأصبغة، على مدرجه قبة، من عمل المقربص،

غريبة الشكل، قليلة المثل. وصومعته كذلك في غاية من الحسن والإتقان. كل جهة من جهاتها الأربع تخالف الأخرى في النّوع والأحكاء وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين ديناراً ذهبا نفعه الله بذلك وأجزل ذخره وأعظم أجره.

أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني
المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن
دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981،
الباب الأربعون، الفصل الثاني ص ص 402 ـ 404

أبو زكريا يحيىٰ بن محمد بن خلدون

(ت 786 هـ/ 1385 م)

أبو زكريا يحيىٰ بن محمد بن خلدون، ولد بتونس (734 هـ/1334 م) من أسرة عريقة في العلم والوظيف، ذات أصول أندلسية وأرومة حَضرموية، هاجرت من موطنها بإشبيلية بفعل ضغط النصارى إلى سبتة، ومنها تحول شيخ الأسرة الحسن بن خلدون إلى تونس (640 هـ/1242) والتحق بخدمة البلاط الحفصي.

نشأ يحيىٰ بتونس ودرس بها رفقة أخيه عبد الرحمٰن (المؤرخ الشهير) على يد أبيه محمد ثم على جماعة الشيوخ بها، فحفظ القرآن ودرس مبادىء العربية والفقه. فأظهر نجابة وفطنة واكتسب ملكة العلم. وتفوق في صناعة العربية وفنون الفقة والتفسير والحديث والقراءات شأنه شأن أخيه متتفعين بما أخذاه عن أبي عبد الله بن جابر الوادي-آشي والقاضي عبد السلام، وأبي عبد الله الجيان، وأبي القاسم محمد بن النصير، بعدها استكمل يحيىٰ ثقافته بملازمته وأخاه عبد الرحمٰن علماء البلاط المريني الذين قدموا إلى تونس مع أبي الحسن المريني في حركته إلى افريقيا 748 هـ وفي مقدمتهم السَّطّي الفاسي، وابن الصباغ المكناني وابن عبد النور الندرومي، وابن عبد المهيمن السبتي، وابن رضوان المالقي، وابن شعيب الفاسي، ومحمد بن إبراهيم الآبلي التلمساني.

ارتبطت حياة أبي زكريا يحيىٰ بأخيه عبد الرحمٰن صاحب كتاب العبر. إثر انسحاب أبي الحسن من افريقيا جراء انهزامه أمام العرب بنواحي القيروان في مستهل عام 749 هـ. وتمكن ابن تافرجين بعد فترة من الاضطراب من تنصيب الصبي أبي إسحاق إبراهيم الحفصي على العرش الحفصي (11 جمادى الأولى 751 هـ) والتحاق عبد الرحمٰن بن خلدون بخدمته قبل أن يتحول عنه بعد انهزامه

أمام أمير قسنطينة أبي زيد الحفصي، ويتوجه إلى تبسة ثم قفصة ومنها إلى مقر إمارة الدواودة ببسكرة ليحط عصا الترحال في بلاط أبي عنان المريني بفاس (755 هـ)، وقد التحق أبو زكريا يحيىٰ بأخيه عبد الرحمٰن بفاس، واستقر بها فتعرف على لسان الدين بن الخطيب الذي كان مقيماً بها بعد نزوحه الأول من الأندلس، كما تعرف على أبي عبد الله الشريف التلمساني.

وتولى منصب كاتب في ديوان الإنشاء السلطاني في شهر رجب 761 هـ تحت إشراف متولي الإنشاء ابن رضوان فأتقن طرق الكتابة الديوانية وأساليب الإدارة. ولم تشغله مهامه الإدارية عن المواظبة على الدراسة ومصاحبة رجال العلم.

دخل يحيىٰ مع أخيه عبد الرحمٰن معترك الوظيف عندما انضما إلى حركة أبي سالم المريني إلى تلمسان في شعبان 761، ووضعا أنفسهما في خدمة الأمير الحفصي أبي عبد الله أمير بجاية الذي أطلق سراحه بأمر من السلطان أبي سالم. وتولى عبد الرحمٰن بن خلدون الحجابة، لكن فشل هذا الأمير في استرجاع بجاية اضطره إلى إرسال يحيٰ إلى تلمسان ليطلب المساعدة والعون من حاكمها أبي حمو موسى الثاني. فتعرف يحيىٰ عليه ونظم قصيدة عند حلول ذكرى المولد النبوي الشريف وهوبها. ثم عاد إلى الأمير عبد الله الحفصي الذي يعيد إرساله ثانية إلى تلمسان في ربيع عام 764 هـ/ 1363م ليعود منها مع فرقة عسكرية جاءت لتعزز قوة الأمير الحفصي لاسترجاع بجاية التي ظلت ممتنعة عنه. ولم يتمكن من الإستيلاء عليها إلا بحلول سنة 765 هـ.

استقدم أمير بجاية أبو عبد الله الحفصي عبد الرحمٰن بن خلدون من الأندلس 767 هـ ـ 1365 م لتولي الحجابة لكن لم يطل عهده بها، إذا استولى أمير قسنطينة أبو العباس على بجاية وانتهى أمر مخدومه أبي عبد الله الحفصي بالقتل، فاعتذر عبد الرحمٰن بن خلدون عن الاستمرار في القيام بمهمة الحجابة خوفاً من نقمة الأمير الجديد عليه. فغادر بحاية والتحق بشيخ الدواودة أحمد بن يوسف المقيم ببسكرة في الوقت الذي تعرض فيه بيته إلى التفتيش وألقي القبض على أخيه

يحيىٰ الذي بقي ببجاية وأودع السجن بعنابة وقد تمكن من الهرب منه والالتحاق بأخيه في بسكرة.

تحول يحيىٰ بن خلدون نيابة عن أخيه عبد الرحمٰن إلى بلاط أبي حمو موسى بتلمسان مع أبناء شيخ الدواودة وأربعمائة فارس (رجب 769 هـ/ فيفري 1368 م)، فلقي الترحيب والحفاوة من السلطان أبي حمود الذي قربه إليه وجعله من جلسائه ومستشاريه، فاستقر به المقام بعد أن التحقت به أسرته ثم انضم إليه أخوه.

لم يستقر يحيىٰ ابن خلدون في وظيفته بتلمسان حيث اضطر بفعل التهديد المريني إلى الخروج منها مع أبي حمو والتوجه نحو الأقاليم الجنوبية الشرقية هروباً من هجمات المرينيين ليصلا إلى نواحي المسيلة، وعندما سقطت تلمسان في يد المرينيين (772 هـ) قرر يحيىٰ العودة إليها متخلياً عن ولي نعمته والالتحاق بالبلاط المريني (بين سنتي 773 و776 هـ) ليكون في خدمة السلطان عبد العزيز المريني متنكراً لجميل أبي حمو، وقد ذكر ذلك فيما بعد متأسفاً بقوله: «ومن هنا فارقته أيده الله (أي أبو حمو) لخيالات سوداوية اعتورتني ونزعات شيطانية اجتذبتني...».

وبعد اضطراب البلاط المريني بفاس بعد استلام الوزير بن غازي وخلع محمد السعيد وتولي السلطان أبي العباس المريني، وبعد أن ألقي القبض على لسان الدين بن الخطيب (شوال 775 هـ) وقتله بفعل مآمرات البلاط المريني ودسائس أعدائه بغرناطة، قرر يحيىٰ بن خلدون مغادرة فاس، فاستأذن أبا حمو في العودة فأذن له واستقبله بكل حفاوة وتكريم (776 هـ) وأقره في وظيفته الأولى بكتابة ديوان الإنشاء، فكان مثار غيرة وحسد منافسيه وفي مقدمتهم الابن الأكبر لأبي حمو الأمير أبو تاشفين الثاني الذي ظن أن تماطل والده في توليته ولاية وهران مكان أخيه أبي زيان كان بسبب يحيىٰ بن خلدون وموقفه منه، فأضمر الانتقام منه وكمن له مع أتباع له وهو في طريقه إلى بيته بعد أن أدى صلاة التراويح بالقصر في إحدى ليالي رمضان، فطعن حتى الموت (رمضان 780/ديسمبر

1378 م) وقد تقاعس أبو حمو عن تتبع القتلة بعد أن عرف أن ابنه الذي يتوجس منه شراً هو الذي كان وراء هذه الجريمة الشنعاء.

ترك يحيىٰ بن خلدون العديد من الآثار في شكل مراسلات وعقود تولية. كتبها أثناء توليه الحجابة للأمير أبي عبد الله الحفصي أمير بجاية وعند قيامه بمهمة كاتب سر السلطان أبي حمو موسى الثاني، كما ترك بعض الأشعار نظمها في مناسبات عدة ضمن بعضها كتابه. بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشامخة الأطوال الذي اشتهر به وعد بفضله من مؤرخي المغرب العربي رغم أنه لم يكتب له أن يتمه ولا أن يصححه بسبب اغتياله ولمّا يتجاوز السنة الواحدة والخمسين من عمره.

من المحتمل أن يحيىٰ بن خلدون شرع في تأليف كتاب بغية الرواد بعد احتلال السلطان عبد العزيز المريني لتلمسان (محرم 772 هـ) وقد يكون انتهى منه في نسخته الأولى بعد وفاة هذا السلطان ما بين (774 ـ 775 هـ) عندما كان مرتبطاً صحبة عبد الرحمٰن أخيه ولسان الدين بن الخطيب بالبلاط المريني، وقد يكون دافعه إلى ذلك رغبته في استرجاع منصبه بالبلاط الزياني بتلمسان وكسب رضا السلطان أبي حمو الثاني، بعد أن ساءت الأحوال السياسية بفاس وأصبحت الإقامة بها مجازفة لا تحمد عقباها. وبذلك يكون الجزء الأول من الكتاب قد اكتمل تأليفه في أوائل سنة 776 هـ التي كانت آخر إقامة ليحيىٰ بن خلدون بفاس وأول قدوم له إلى تلمسان، أما الجزء الثاني فقد أنهاه في سنته الأولى بتلمسان وقدمه إلى السلطان أبي حمو مع مستهل سنة 777 هـ.

يتألف كتاب بغية الرواد من مقدمة لم يقصر فيها يحيىٰ بن خلدون على تاريخ بني زيان بل أوديتها مسائل وأشياء ليست لها علاقة مباشرة بالموضوع. ومن جزء أول يتألف من قسمين: القسم الأول استهله المؤلف بذكر أصل بني زيان وماضيهم إلى تمكنهم من تأسيس مملكة لهم. مع وصف هذه المملكة وخاصة عاصمتها تلمسان التي أشاد بها وأورد ما ذكر في شأنها من أحاديث وما عرف بها من علماء وصلحاء وُلِدُوا بها أو عاشوا في ربوعها. وبعد مقدمة القسم الأول يعقد يحيىٰ بن

خلدون ثلاثة أبواب الأول في تاريخ تلمسان منذ تأسيسها مع ذكر من ملكها منذ الفتح الإسلامي. والباب الثاني خصه للدور الذي لعبته قبيلة بني عبد الوادي قبل تأسيس دولتهم، مع ذكر روايات النسابة والمؤرخين عن البربر. ويؤكد في ذلك على نسبة بني عبد الوادي إلى آل البيت عن طريق الأدارسة. أما الباب الثالث فيستعرض فيه ظهور أمر بني عبد الواد بعد انهيار دولة الموحدين، وتمكنهم من الاستيلاء على تلمسان وانتقال الزعامة منهم إلى يغمراسن بن زيان ونجاحه في تأسس إمارة مستقلة.

أما القسم الثاني من كتاب بغية الرواد فجعله في ثلاثة أبواب أيضاً، الأول عن عهد يغمراسن وابنه أبي سعيد وأبناء أبي سعيد الثلاثة، وينتهي فيه إلى تَغَلُّبِ أبي الحسن المريني على تلمسان. والباب الثاني أفرده لفترة إحياء دولة بني عبد الواد على يد الأخوين أبي سعيد الثاني وأبي ثابت، والباب الثالث تناول فيه ما وقع في عهد أبي سعيد وأبي ثابت.

وبعد هذا القسم الأول يأتي الجزء الثاني الذي يقوده للقسم الثالث الذي خص به عهد أبي حمو الثاني إلى آخر سنة 776 هـ. ويتألف من ثلاثة أبواب حسب التبويب الذي التزم به المؤلف. الباب الأول في ذكر خصال أبي حمو، والثاني في ذكر أبيه وأسلافه الذين لم يكن لهم حظ في الإمارة، والباب الثالث وهو أكبر الأبواب وأوسعها خصه لتاريخ عهد أبي حمو موسى الثاني، وقد أضاف إليه بعض من أعاد نسخ الكتاب فقرات تغطي أحداث سنة 777 هـ/1375 م.

اعتمد يحيٰ بن خلدون في الأبواب الأولى من كتابه «بغية الرواد» على المصادر المتوفرة لديه مهملاً الإشارة إلى أغلبها، وإن ذكر القليل منها، مثل كتابي البكري والزهوي الذي اقتبس منهما في وصفه لمدينة تلمسان، وكتب ابن الأبار وعبد الواحد المراكشي وابن الزيات في ذكر رجال العلم والصلاح بتلمسان، وكتب البكري والمسعودي والقضاعي والطبري في أصل البربر وأنسابهم.

أما الجزء الأخير فقد رجع فيه إلى ما شاهده بنفسه أو ما سمعه أو روي له من أشياخه وعلى رأسهم الآبلي، أو تصفحه من وثائق أصلية بديوان الإنشاء، وقد

تميز في كل ذلك بتنوع معلوماته واتساع معارفه واطلاعه الواسع على الروايات والأقوال المتداولة في عهده، ولعل هذا ما جعله يميل إلى إثبات إضافات ليست من صلب الموضوع، ومسائل هامشية بعيدة عن اهتماماته، وهو في كل ما نقله أو سجله يحاول ربط التواريخ السلطانية بالتاريخ الإقليمي أو المحلي، وإخضاع الأحداث إلى شروط البيئة الاجتماعية والثقافية التي كانت سائدة بتلمسان مما أكسبها حيوية وجدة، على أن ما ينقص من قيمته ما كتبه يحيىٰ بن خلدون ابتعاده عن النقد والتحليل إذ يورد الأخبار كما وصلت إليه دون تحقيق أو تعليق. كما لم يحاول انتقاء ما يتماشى منها والغرض الذي وضع الكتاب من أجله ألا وهو تخليد أمجاد أبي حمو وذكر عظمة دولته والإشادة بها، فيتغاضى عن نكساته ويتجاوز هزائمه. ولعل ما يلاحظ من محدودية النظرة النقدية والتحليل المنطقي عند المؤلف محاولته الجمع بين طبيعة المؤرخ العالم ورجل البلاط الأديب، فغلب عليه من أجل ذلك الاهتمام بدقة الوصف وبراعة التصوير وسعة الخيال وحسن اختيار المفردات وجمال التعبير، مع ميل إلى استعمال الصور البلاغية والمحسنات البديعية التي اقتدى فيها بأدباء عصره وفي مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب وابن رضوان وابن عبد المهيمن، ولعل غلبة الطابع الأدبي على ما كتبه يحيىٰ بن خلدون هو الذي جعل أبا الوليد بن الأحمر يقول عنه: «إن له معرفة بالتاريخ القديم والحديث واقتدار على سبك الكلام الرائق وحوك النظام الفائق».

توجد عدة نسخ مخطوطة من كتاب بغية الرواد بالمكتبة الوطنية الجزائرية والمكتبة الوطنية بباريس ومكتبة اللغات الشرقية بباريس ومكتبة مخطوطات الأسكوريال وبعض المكتبات الخاصة بالجزائر، وقد حظيت بعض هذه المخطوطات بعناية المستشرق الفرد بيل (A. Bel) الذي اعتمدها في نشره لكتاب بغية الرواد وإصدار ترجمة فرنسية له بعنوان «Histoire des Beni Abd - wad, Rois de Tlemcen, Bügyat al - Ruwwad» وكان ذلك في الجزائر وفي جزأين الجزء الأول في (1904) والجزء الثاني في (1913) وصدر في قسمين. وقام بتحقيق الكتاب تحقيقاً علمياً محترماً عبد الحميد حاجيات ظهر الجزء الأول منه ضمن

إصدارات المكتبة الوطنية بالجزائر سنة 1980 ولا زال القسم الثاني منه ينتظر النشر.

المراجع المعتمدة:

- ابن خلدون، (أبو زكريا يحيىٰ): بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزء الأول منشورات المكتبة الوطنية بالجزائر 1980.
- ابن خلدون عبد الرحمٰن: التعريف بابن خلدون غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة 1951.
- مستودع العلامة، ص ص 64- 65.
- نفح الطيب، ج 6، ص ص 389، 394، 510، 515، ج 7، ص ص 133 - 135.
- تراجم المؤلفين التونسيين، الجزء الثاني، ص ص 224 ـ 227.
- معجم المؤلفين، ج 13، ص 228.
- الأعلام، ج 9، ص 210.
- مشاهير التونسيين، ص 686.

- Bargés (J. J. L) Complément de l'histoire des Beni - Zeiyan, Roi de Tlemcen. Paris 1887 pp 205. 217.
- Bel (A.) L'histoire des Beni. abd- wad, Rois de Tlemcen, tra. de Bügyat al. Ruwwâd, 3 vols Fontana, Alger, 1904 - 1913.
- Bel (A.) Ibn - Khaldoun Yahia, in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle éd. T III pp 855 - 856.

حصار تلمسان

وفيها (سنة 689 هـ/ 1290 م) تحرك السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان ونزل بذراع الصابون من ظاهرها يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لشهر جمادى الأخرى، وفي عشرين من رمضانها قفل إلى مغربه بعد حروب شديدة ومواقف شهيرة. . .

وفي سنة خمس وتسعين كانت حركة السلطان أبو يعقوب بن يعقوب ابن عبد الحق الثانية، فنزل ندرومة في رمضان، وارتحل في شهر شوال إلى جبل جيدزة المصاقب لوهران، ثم رجع إلى قطره.

وفي رابع شوالها نزل السلطان أبو يعقوب ذراع الصابون، في حركته الثالثة وفي غرة ذي القعدة انصرف إلى مغربه. . .

وفي سنة سبع وتسعين تحرك أيضاً رابع حركاته فنزل بأفران الجيار، شمال المدينة ثامن عشر شعبانها وانصرف إلى قطره يوم الثلاثاء غرة محرم سنة ثمان وتسعين، وترك بوجدة أخاه أبا يحيىٰ بحصّة وافرة من قومه. . .

وفيه أشرف رعيل مرين الأول عليها. وفي خامسة حركاتهم إليها، ثم سكنوا بمدشر ابن الصيقل من ظاهرها. وشرع سلطانهم أبو يعقوب بن يعقوب بن عبد الحق في بناء منصورته. البلقع الآن شمال الحضرة، فشيد الأسوار وزخرف البناء وأوسع المغروس، وأدار على تلمسان نطاق الحصر فأطاعته قبائل أهل الشرق كافة، وحواضره جملة، وأمر هذا الحصار في إضاقته بأهل البلد وغلاء أسعارهم فيه، وموتان الناس بالجوع والأسلحة والمنجنيقات به أشهر من أن نطيل الكتاب الآن بشرحه. . .

واستمر الحصار على تلمسان فتضاعف الجهد ونفدت الأقوات إلا ما لا خطر له. حتى إذا جاوز الأمر حده وبلغ ماؤه الزبى. وانتهت قلوب المحصورين إلى الحناجر وذلك في سنة ست من المائة الثامنة أجمع رأي السلطان أبي زيان وأخيه أبي حمو رحمهما الله، وأعيان قبيلهما الأعز على الأسحار إلى العدو والإقدام عليه. فأما ملك أو هلك. . .

وعينوا لخروجهم إلى ذلك يوم الأربعاء سابع ذي القعدة. وفيه قيض الله للسلطان أبي يعقوب بن يعقوب بن عبد الحق خصياً من مواليه حنق لقود أمضي في أخ له، فاعتمده بخنجر مرهف، وبطنه فمات لحينه. فسبحان اللطيف الخبير الولي النصير. جابر الكسير وناشر العظم النخير. وميسر العسير. والغني عن الوزير. لا إله إلا هو. وإن في هذا لعبرة لأولي الأبصار، ودليلاً قاطعاً على النشور الكبار. . .

ثم اختلفت كلمة ولده أبي سالم المستقل بمنصورته. وحافده [كذا] أبي ثابت وأخيه أبي يحيىٰ، المنظمة عليهما الجنود خارجها.

فكانت مدة هذا الحصار الأكبر والخطب الشديد ثماني سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام بلغ فيها عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعاً زهاء مائة ألف وعشرين ألفاً، وثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع الدينار، وصاع شعيرهم إلى نصف ذلك. ومع هذا فهم صبر وبقضاء الله رضاة فيالله ما أكرم وأشجع وأوفي وأصبر، إلى أن حمدوا العقبى، وحازوا شرف الدنيا، وأوعوا ثواب الأخرة، ففي ساعة واحدة بيع عندهم القمح ثمانية صيعان بثمن دينار، والشعير ستة عشر صاعاً بثمن الدينار، فسبحان القائل: إن مع العسر يسرا، وصلى الله على سيد ولد آدم، فلقد كان يفرح للشدة لمعاقبتها الفرج.

أبو زكريا يحيىٰ بن خلدون
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،
تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات
منشورات المكتبة الوطنية الجزائر، 1980،
ص ص 2509 ـ 211

استيلاء السلطان أبي الحسن المديني على تلمسان

وفي هذه السنة سنة 730 هـ. وجه السلطان أبو يحيىٰ (الحفصي) ولده يحيىٰ ووزيره أبا محمد عبد الله بن أحمد بن تافراجين في البحر رسولين إلى ملك المغرب. السلطان أبي سعيد راغبين منه كف عادية السلطان أبي تاشفين عنهم ومتطارحين في ذلك عليه. ومعرضين له بمصاهرتهم ابنه السلطان أبا الحسن بإحدى بنات السلطان أبي يحيىٰ.

وفي سنة إحدى وثلاثين وردت على السلطان المرحوم أبو تاشفين رسل ملك المغرب المذكور شفعاء للموحدين في المسالمة والإقلاع عن بجايتهم، فلم تنجح رسالتهم. وانحلت عرى السلم. فتحرك السلطان المرحوم أبو تاشفين غازياً إلى تاوريت فهزم جيشها ووقف ساعة من نهار عليها وقفل.

وفي آخر هذه السنة مات السلطان أبو سعيد ملك المغرب فخلفه بفاس ولده السلطان أبو الحسن، وبسجلماسة ولده الأمير أبو علي فأرسل السلطان المرحوم أبو تاشفين بالعزاء إلى صاحب سجلماسة وأرسل إليه السلطان أبو الحسن معيداً الشفاعة للموحدين لمكان صهره فيهم، فرد أرساله أسوأ رد قولاً وفعلاً.

وفي سنة خمس وثلاثين تحرك السلطان أبو الحسن مشرقاً إلى تلمسان فأخذ ندرومة وهنين، ونزل تاسالا. فاستفتح منها وهران. وأطاعته البلاد الشرقية كلها ولما تم له ذلك رحل قاصداً تلمسان فنزلها يوم أحد عشر من شوال، وأناخ عليها بكلكله، وأدار بها نطاق الحصر، ثم ابتنى غربيها مدينة لسكناه، نسبها إلى النصر، وأضاق حصر المدينة وشد خناقها بما هو معروف.

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة دخلها عنوة، فانحاز السلطان أبو تاشفين رحمه الله وأولاده أبو سعيد وأبو سرحان وأبو يعقوب، ووزيره الأوفي موسى بن علي الغزي. وولده سعيد. إلى باب القصر برحبة أيمن تجمي، يقاتلون دون الحرم والأولاد إلى أن استشهد جميعهم، سوى سعيد ابن الوزير موسى بن علي خاصة. فإنه أفلت ثخيناً بالجراح مذبوحاً من القفا. حسبما أراني ذلك رحمه الله، فبالله ما أكبر وأصبر وأعلى هِمماً.

أبو زكريا يحيى بن خلدون
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد
تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات
منشورات المكتبة الوطنية الجزائر، 1980، ص ص 218 ـ 219

أبو زيد عبد الرحمٰن بن خلدون

(تـ 808 هـ/1406 م)

أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون، ولد بتونس سنة 732 هـ/1332 م من عائلة أندلسية (اشبيلية) الموطن يمنية الأصل (حضرموت) اشتهر أفرادها بالعلم والسياسية وكان أبوه محمد قد اعتزل الوظيف ليتفرغ للتدريس، فنشأ عبد الرحمٰن مع أخيه يحيىٰ في كنفه وتلقى ابن خلدون تعليمه بالجامع الأعظم (الزيتونة) وتضلع في العلوم اللغوية والفقهية وتأثر بأفكار أستاذه محمد بن إبراهيم الآبلي. وأخذ عن علماء المغرب الذين حضروا إلى تونس مع السلطان أبي الحسن المريني في حملته على افريقيا 1347 ـ 1349م.

تولى ابن خلدون الوظيف وهو شاب يافع. عندما أسند له الحاجب ابن تافراجين كتابة العلامة «التشريفات» للسلطان الحفصي أبي إسحاق 1350. وقد فرض عليه منصبه هذا الخروج مع السلطان أبي اسحاق لقتال أمير قسنطينة الحفصي المنافس له وعندما انهزم ابن تافراجين تركه والتجأ إلى أبّه ثم تبسة فقفصة ثم توجه إلى بسكرة فحظي بضيافة ابن مزني واتصل بالمرينيين ببجاية (1353) ثم التحق بالبلاط المريني بفاس، سنة 1354 م وانضم إلى المجلس العلمي الخاص بالسلطان أبي عنان وأثناء ذلك سجن لتورطه في مؤامرة لتحرير أبي عبد الله محمد الحفصي أمير بجاية 1357 وبقي في السجن سنتين ثم أطلق سراحه بعد موت أبي عنان. واندمج في البلاط المريني فتولى كتابة سر السلطان المريني أبي سالم 1359. وأسند منصب القضاء (خطة المظالم). وعند تولي ابن تاشفين الملك تحول إلى بلاط بني الأحمر بغرناطة متعللاً بصداقة كانت تربطه بلسان الدين بن الخطيب (1361 ـ 1362) وأوفده سلطان غرناطة محمد بن الأحمر إلى اشبيلية لإتمام الصلح بينه وبين ملك قشتالة بطرس الفاسي 765هـ/1364م، ثم عندما

فترت علاقته بابن الخطيب غادر الأندلس ونزل ببجاية 1366 م وتولى الحجابة بها لأميرها أبي عبد الله محمد الحفصي كما أسند له منصب «الخطبة» والتدريس بجامعها وبعد أن تغلب أمير قسطينة أبو العباس الحفصي على بجاية سلمه ابن خلدون المدينة (1366 م) وتولى خدمته، بعدها تحول إلى بسكرة لزيارة ابن مزني من الذواودة. فطلبه سلطان تلمسان أبو حمو ليتولى الحجابة له، فأناب في هذه المهمة أخاه يحيىٰ الذي كان قد تولى الوزارة ببجاية وأودع السجن عندما تغلب أبو العباس الحفصي على أميرها أبي عبد الله محمد.

بقي ابن خلدون معتزلا ببسكرة وأثناء ذلك اتصل به رؤساء العشائر، فتخوف منه ابن مزني وشجعه على الالتحاق بتلمسان حيث تولى بها الحجابة لأبي حمو الثاني، وسعى في عقد الصلح بين أبي حمو الثاني وبين أبي إسحاق إبراهيم الحفصي (1369 م) وبعد ذلك تحول إلى خدمة السلطان المريني عبد العزيز بعد انتصاره على أبي حمو (1372 م).

أقام ابن خلدون بفاس عند السلطان المريني وحظي بمعاملة حسنة من الوزير ابن غازي وواظب على الاشتغال بالتدريس، لكنه أدخل السجن ثم أطلق سراحه وسمح له بالذهاب إلى الأندلس (776 هـ/1375 م) التي كان ينوي الإقامة بها متفرغاً للعلم. لكن خشية المرينيين من أن يفسد علاقتهم بسلطان غرناطة جعلتهم يسعون لدى بني الأحمر لإبعاده عن الأندلس، فقطع البحر نحو هينن ومنها التحق ببلاط أبي حمو الثاني مرة أخرى 1375 الذي لم يؤاخذه على تحول ولائه عنه وإنما كلفه بسفارة إلى عرب الذواودة، غير أن ابن خلدون تحول عن المهمة التي أسندت إليه وفضل المكوث في حمى أولاد عريف بقلعة بني سلامة (تاغزوت) من بلاد توجين (بالقرب من فرندة) واستقدم أسرته من تلمسان وواظب على كتابه مقدمته لأربع سنوات متتالية 1375 ـ 1379؛ وبعد ذلك قصد مسقط رأسه تونس بعد غيبة دامت سبعاً وعشرين سنة. وقد تعلل بانتقاله إلى تونس بالبحث عن كتب كان تنقصه لإتمام تأليفه «كتاب العبر» الذي أهدى نسخة غير تامة منه للسلطان الحفصي أبي العباس، لكنه لم يلبث بمسقط رأسه إلا قليلاً فقد غادر تونس بعد أن تألب عليه الأعداء ووشى به الحاقدون لأفكاره الجريئة ولكبريائه وأنفته. فتوجه

نحو المشرق عن طريق البحر بنية أداء فريضة الحج (1382 م) فاستقر بالقاهرة ودرس بالجامع الأزهر وبالمدرسة الصالحية القمحية «بجوار جامع عمرو بن العاص». وأسند له حاكم مصر المملوكي الملك الظاهر برقوق منصب قاضي قضاة المالكية (1384) وظل بهذا المنصب رغم تكرر توليته وعزله من هذا المنصب لست مرات متعاقبة، فكان أثناء فترات عزله ميالاً إلى الزهد متأثراً بحياة الغربة وبفقدان أسرته التي غرقت في البحر وهي في طريقها من تونس إلى الإسكندرية قصد الالتحاق به.

أدى ابن خلدون فريضة الحج (1387) كما رافق مع باقي قضاة مصر السلطان الناصر فرج المملوكي إلى دمشق في خروجه لحرب تيمولنك (1400 م) فالتقى بهذا الفاتح الشهير الذي أعجب بشخصية ابن خلدون، إلاّ أن ابن خلدون آثر العودة إلى مصر مفضلاً الاشتغال بالتدريس وتولي القضاء الذي أسند إليه لآخر مرّة قبل أسابيع من وفاته التي كانت في شهر رمضان من عام (808 هـ/ فيفري 1406م) ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة.

وقد كان لهذه الحياة المتقلبة التي عاشها ابن خلدون تأثير بالغ على نظرته للتاريخ، فقد كان للنزعة الشخصية ونوعية التكوين وكامل التجربة تأثير في حكمه على الأحداث وتقيمه للأشياء. فهو لم يكن صادق الولاء ولا ثابت الموقف. وإن كان جريئاً في أفكاره صلباً في مواقفه.

وقد أهلته كفاءته السياسية ومهارته الإدارية لتولي المناصب الهامة مثل كتابة العلامة والحجابة والخطبة. وكان ارستقراطيياً في أسلوب حياته، شجاعاً مقداماً إلى حد المغامرة، في ظروف كان يسودها الاضطراب الاجتماعي. والأزمة الاقتصادية والتجزؤ السياسي الذي ميز المغرب في عهده.

ترك عبد الرحمٰن بن خلدون العديد من المصنفات في الفقه والتصوف والمنطق أشار إلى بعضها لسان الدين بن الخطيب (في الإحاطة) أغلبها شروح ومختصرات مثل شرح بردة البوصيري ولباب المحصل في أصول الدين وهو تلخيص لكتاب الرازي «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء

والحكماء والمتكلمين»، كتبه في شبابه بتشجيع من أستاذه الآبلي، كما وضع في آخر حياته كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل في التصوف. وكتاب في الحساب، وتقييد في المنطق وشرح رجز في أصول الفقه للسان الدين بن الخطيب، لكن هذه الكتب رغم أهميتها لم ترق إلى مستوى الكتاب الذي خلد ذكر ابن خلدون وهو كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وهو ينقسم إلى أربعة أقسام حسب مواضيعه وطبيعة مادته.

القسم الأول وهو المقدمة التي كتبها بقلعة بني سلامة (تاغزوت) عند أولاد عريف بمواطن بني توجين (776 ـ 780 هـ/ 1375 ـ 1378 م) وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله: «وأنزلوني بأهلي في قلعة بين سلامة... فأقمت بها أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل كلها، وشَرعت في تلك الخلوة في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها...». وهي تشتمل على ستة أبواب تناولت الظاهرة الاجتماعية بجميع جوانبها وأبعادها:

- الباب الأول في العمران البشري على الجملة.
- الباب الثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم المتوحشة.
- الباب الثالث في الدول العامة الملك وفي الخلافة والمراتب السلطانية.
- الباب الرابع في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من أحوال.
- الباب الخامس في المعاش ووجوه الكسب والصنائع.
- الباب السادس في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه.

أما القسم الثاني فيتصل بأخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ الخليقة ومن عاصرهم من الأمم والشعوب كالترك والروم والإفرنجة، وجعله في أربعة مجلدات.

- المجلد الأول في الأمم القديمة من الخليقة إلى ظهور الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين

ـ المجلد الثاني في تاريخ المشرق في القرون الهجرية الثلاثة الأولى على عهد بني أمية وبني العباس.

المجلد الثالث في الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى بداية بني نصر، مع ذكر بني بويه.

ـ المجلد الرابع في السلاجقة والأتراك والمماليك والحروب الصليبية حتى أواخر القرن الثامن للهجرة كتب بعضه في قلعة بني سلامة وأتمه بتونس وظل مواظباً على ضبطه وتنقيحه طيلة حياته.

القسم الثالث من كتاب العبر وهو خاص بتاريخ البربر ومن إليهم وأجيالهم وما كان لهم بالمغرب من دول وهو في مجلدين الأول ذكر فيه العرب المستعربة بالمغرب وقبائل البربر من زنانة ومغراوة ولواته ومصمودة وكتامة وصنهاجة من أقدم العصور حتى أيامه هو، مع استعراض موجز لتاريخ المرابطين والموحدين والمجلد الثاني أفرده للدول القائمة في أيامه من حفصيين وبني عبد الواد وبني مرين.

القسم الرابع المعروف بالتعريف بابن خلدون وهو عبارة عن خاتمة لكتاب العبر جاءت في شكل ترجمة ذاتية لحياته انتهى منها سنة 807 هـ/ 1405 م.

ومما يلاحظ على كتاب ابن خلدون تفاوت الأهمية بين مختلف المواضيع، فابن خلدون مجدد ورائد في المقدمة وناقل في القسم الثاني (الخاص بأخبار العرب) ومدون وراوٍ ومدقق ومتبع للأحداث في القسم الثالث (تاريخ البربر) وظريف وصريح ومستفيض في الخاتمة (التعريف).

ففي المقدمة عرض أفكاره، فجاءت واقعية في تصوراتها موضوعية في أحكامها بعيدة عن التحيز والهوى، وإن كانت تغلب عليها النزعة المتشائمة والنظرة القاتمة إلى الأحداث انطلاقاً من تجربته وشمولية نظرته للأحداث، وهو مع ذلك محقق الأخبار متثبت من الوقائع يحاول عرضها في نظرة جدلية «دياليكتيكية» يعتمد على مبدإ التحليل والتعميم، وهذا ما مكنه من تحديد النظرة إلى التاريخ والانتهاء إلى أحكام عامة تخضع لها الظاهرة، الاجتماعية وهي في أساسها تستند

إلى مبدإ «العصبية» التي تقوم عليها الدول وظاهرة الترف التي تكسب الدولة عظمة وجاهاً لكنه يسمح بتسرب الخلل وانتشار الفساد في الدولة.

وقد انتهى في ذلك إلى الحكم بأن التطور العام للتاريخ يقود الاجتماع (المجتمع) البشري من البداوة إلى الحضارة، وأن تطور الحضارة يمر بأطوار البدء والتعمير والعمران والهدم والتجدد، وأن حياة الدولة تكون ثلاثة أدوار؛ إذ تقوم بالعصبية فتستبد بالملك بالدعوة إلى دين أو فكرة إصلاحية، وتنال المجد والسؤدد فتعوض العصبية بالموالي والصنائع، ثم تؤول إلى مرحلة الكهولة بانتهاء العصبية فتصبح الدولة ملكاً للموالى والعبيد، وهذه الأدوار أو المراحل تعتمد أساساً على الطبائع والعادات وتخضع لقواعد السياسة، بحيث يتم الانتقال في كل أمة من الملك الطبيعي الذي يفتقد فيه نور العقل والهداية إلى السياسة العقلية التي يتم فيها الإدراك بالمصلحة العامة إلى السياسة الشرعية التي ترعى مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو بذلك يرجع كل شيء إلى نظرة النشوء التاريخي المبنية على الأخذ بعامل المناخ والجغرافية، وتأثير العوامل الخلقية والروحية في مجرى حوادث التاريخ.

وفي القسم الثاني من الباب الأول الذي انتهىٰ في سنة 796هـ/1393م اعتمد فيما يخص التاريخ القديم على أوزبيوس القوطي وابن العميد وفي التاريخ الإسلامي رجع إلى ابن هشام والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم، بينما في القسم الثالث الخاص بالمغرب أخذ مادته من المصادر المحلية، وفي الفترة الأخيرة منه ركّز على المشاهدات الشخصية والروايات الشفوية. وهذا ما جعل القسم الأول (الخاص بالشرق) يفتقر إلى الاطلاع الواسع، ويتسم بنقص في التحقيق والإثبات. بينما جاء القسم الثاني «الخاص بالمغرب» متميزاً بالعرض الدقيق والشامل وصحة المعلومات ودقتها مما جعله مصدراً أساسياً حول بلاد المغرب وسكانها ودولها. ولم يتفوق عليه في هذا المجال مؤرخ آخر من حيث الدقة في عرض الأحداث وصحة الرواية ووضوح السياق وحسن التبويب لكنه لم يطبق فيها عملياً ما أورده من أفكار، ولم يلتزم ببعض المفاهيم التي عرّف بها في مقدمته.

أما القسم الأخير وهو الخاتمة أو الترجمة الشخصية «التعريف بابن خلدون» فكان عبارة عن تسجيل حياته الخاصة، والذكريات التي أثرت فيها. وقد اعتمد فيها على الذاكرة والانطباع الشخصي فعدت من حيث الأسلوب والعرض والمضمون من أحسن التراجم الشخصية. وكانت خلاصة مستوفية وخاتمة ملائمة لعمله الكبير «المقدمة وتاريخ العبر».

ظل كتاب العبر ومقدمته مهملاً بعيداً عن متناول القراء مدة طويلة وكان أول من اعتنى به المؤرخ العثماني نعيما (1716) الذي لخص أفكار ابن خلدون في المقدمة، ثم ترجم شيخ الإسلام باري زاد محمد أفندي جزءاً منها إلى اللغة التركية(1749)، وأتم الترجمة جودت أفندي (1860)، أما في أوربا فقد نشر المستشرق سلفستر دوساسي Sylvestre de Sacy (1806) مقتطفات من المقدمة ثم نشر تلميذه كاتروميتر E. Quatremètre نص المقدمة بالعربية (1858)، ثم قام البارون سلان Le Baron de Slane بترجمة ما يهم شمال افريقيا (الجزء السادس والسابع) إلى الفرنسية: Histoire des Berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique Septentrionale وطبع بالجزائر في جزأين (1863) وقد سبقه نشر النص العربي لهذه الترجمة اعتماداً على عدة مخطوطات بمكتبات الجزائر (1852 - 1856).

أما الطبعة العربية الكاملة لكتاب العبر فقد ظهرت بالقاهرة في سبعة أجزاء. (طبعة بولاق 1868) بعد ذلك توالت الطبعات وكان آخرها طبعة بيروت التجارية في سبعة أجزاء. صدرت سنتي (1956 و1969). وإن كانت أحسن طبعات المقدمة ما قام بها علي عبدالواحد وافي (القاهرة) بينما أفضل طبعات (التعريف) ما تم على يد محمد بن تاويت الطنجي بعنوان التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغربا ط القاهرة (1951).

المراجع المعتمدة:

- عبد الرحمٰن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط بيروت (7 أجزاء 1959 ـ 1969 مطبعة بولاق صدرت في 7 ج بالقاهرة 1867 ـ 1868).
- ابن خلدون (عبد الرحمٰن) المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط 3 دار نهضة مصر، القاهرة د، ت.
- ابن خلدون، (عبد الرحمٰن) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، نشر محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951.
- أعمال ندوة ابن خلدون (1979)، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط، مطبعة النجاح الدار البيضاء 1981.
- أعمال مهرجان ابن خلدون، جامعة محمد الخامس، الرباط، دار الكتاب، الدار البيضاء 1982.
- أعمال مهرجان ابن خلدون، القاهرة، 1981.
- بحوث حول ابن خلدون، المجلة العربية الثقافية، العدد الأول، تونس 1981.
- عنان (محمد عبد الله)، ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1933، (ط 3 1965).
- الوردي (علي)، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته. تونس 1977، القاهرة 1962.
- شريط (عبد الله)، شريط الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون الجزائر 1975.
- مزيان (عبد المجيد)، مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون وأسسها في الفكر الإسلامي والواقع الاجتماعي، الجزائر 1981.
- النعيمي (عبد الله الأمين)، المناهج وطرق التعليم عند القابسي وابن خلدون مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1980.
- مغربي (عبد الغني)، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي الجزائر، 1986.
- الحصري (ساطع)، دراسات عن مقدمة ابن خلدون بيروت 1944 والقاهرة 1953.
- بدوي (عبد الرحمٰن)، مؤلفات ابن خلدون، القاهرة 1962.

- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، ص ص 211 ـ 223.
- دليل مؤرخ المغرب، ص ص 199 ـ 200.
- الأعلام، ج 4، ص ص 106 ـ 107.
- معجم المؤلفين، ج 5، ص ص 188 ـ 195، ج 13، ص 396.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 192 ـ 197.
- مشاهير التونسيين، ص 297.
- تعريف الخلف، القسم الثاني، ص ص 221 ـ 223.
- نيل الابتهاج، ترجمة 297، ص 250.
- الحلل السندسية، ج 1، ص ص 648 ـ 650.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص 573.
- إمام، زكريا بشير، دراسات نقدية في الفلسفة الإسلامية دار الجيل. بيروت، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم 1991 ص ص 301 ـ 326.
- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 259 ـ 266.
- مرحبا، (محمد عبد الرحمٰن)، خطاب الفلسفة العربية الإسلامية: النشأة والتطور والنضج، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر. بيروت 993. ص ص 574 ـ 593.
- تركي، (عبد المجيد)، قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي (نصوص ودراسات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988 ص ص 391 ـ 413.
- الكردي، (محمد سعيد)، ابن خلدون مقال في المنهج التجريبي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس الغرب، ليبيا، 1984 ص ص 249 ـ 321.
- الوردي (علي)، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1977.
- الخضيري، (زينب محمود)، فلسفة التاريخ عند ابن خلدون، ط 2، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت 1985.
- الشمالي، (عبده)، دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، ط 5، دار صادر، بيروت 1979 ـ ص ص 735 ـ 759.
- الشرقاوي، (محمود)، التفسير الديني للتاريخ، كتاب الشعب، 1970، ص ص 69 ـ 76.
- صليبا (جميل)، تاريخ الفلسفة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ت، ص ص 543 ـ 663.

- مرزوقي (رضا) ابن خلدون، دائرة المعارف التونسية، منشورات بيت الحكمة بقرطاج، الكراس: 4/ 1994 ص ص 24 ـ 43.
- داهموس (جوزيف) سبعة مؤرخين في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1989 ـ ص ص 229 ـ 263.
- زيادة (نقولا) افريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، منشورات رياض الريس، لندن 1991 ص ص 204 ـ 206.
- ابن عمار (الصغير)، التفكير العلمي عند ابن خلدون، الجزائر، د،ت.
- الحبيب (محمود محمد)، الفكر الاقتصادي في آراء ابن خلدون، آفاق عربية، بغداد السنة الرابعة، العدد الأول 1978.
- الجابري (محمد عابد)، فكر ابن خلدون: العصبية والدولة، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، د ت.
- أو مليل (علي) الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، ط 3 دار التنوير، بيروت 1983.
- الساعاتي (حسن)، علم الاجتماع الخلدوني قواعد المنهج، دار النهضة العربية بيروت 1986.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 473 ـ 482.
- Ibn H. aldun, Histoire des Berbères (Texte arabe) Alger 1847.
-Ibn Khaldoun: Histoire des Berbères et des Dynastics musulmanes de l'Afrique septentrionale tra. de Deslane, 2é ed Paris, 1925 1934.
- Actes du Colloque international sur Ibn Khaldoun, S. N. E, D Alger 1982.
- Lacoste (Y) Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire passée du tiers monde, Paris, 1980.
- Bel (A.) Ibn Khaldoun, in Encyclopédie de l'Islam III Paris, pp 849 - 856.
- Abdesselem (A.) Ibn Khaldoun et ses lectures Paris, 1983.
- Nassef Nasser la pensée réaliste d'Ibn Khaldoun, Paris, 1971.
- Oumlil (A.) L'Histoire et son discours essai sur la méthodagie d'Ibn khaldoun pub. de la faculté des lettres, Rabat, 1982.
- Talbi (M.) Ibn- Kaldoun et l'histoire, Tunis, 1973.
- Hakiki (N.) Khaldounisme sciences Sociales et fondement du pouvoir politique, O.p.u. Oran S.D.
- Talbi (M.) Ibn khaldoun, in Encyclopédie de l'Islam, nouvelle ed, in, T3 pp 848 - 855.

ابن خلدون بقلعة «بني سلامة»

ونزلت بهنين، والجو بيني وبين السلطان أبي حمّو مظلم، بما كان مني في إجلاب العرب عليه بالزاب كما مرّ، فأوعز بمقامي بهنين، وقد وفد عليه محمدبن عريف فعذله في شأني، فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بها بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي، وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين، وأخذت في بث العلم، وعرض للسلطان أبي حمو أثناء ذلك رأي في الدواودة، وحاجة إلى استئلافهم، فاستدعاني وكلفني السفارة إليهم في هذا الغرض، فاستوحشت منه، ونكرته على نفسي، لما آثرته من التخلي والانقطاع، وأجبته إلى ذلك ظاهراً، وخرجت مسافراً من تلمسان حتىٰ انتهيت إلى البطحاء، فعدلت ذات اليمين إلى منداس، ولحقت بأحياء أولاد عريف قبلة جبل كزول، فتلقوني بالتحفي والكرامة، وأقمت بينهم أياماً حتى بعثوا عن أهلي وولدي من تلمسان، وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته، وأنزلوني بأهلي في قلعة بني سلامة، من بلاد بني توجين التي صارت لهم بإقطاع السلطان، فأقمت بها أربعة أعوام، متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأنا مقيم بها. وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب، الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها، وكانت من بعد ذلك الفيئة إلى تونس كما نذكره.

ولما نزلت بقلعة بني سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبي بكر بن عريف الذي اختطه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها، ثم طال مقامي هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب. وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناته، وتشوفت إلى

مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظي، وأردت التنقيح والتصحيح، ثم طرقني مرض أوفى بي على الثنية، لولا ما تدارك من لطف الله؛ فحدث عندي ميل إلى مراجعة السلطان أبي العباس، والرحلة إلى تونس. حيث قرار آبائي ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته، والمراجعة، وانتظرت، فما كان غير بعيد، وعهوده بالأمان والاستحداث للقدوم، فكان الخفوف للرحلة، فظعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بمنداس، وارتحلنا في رجب سنة ثمانين، وسلكنا القفر إلى الدوسن من أطرف الزاب. ثم صعدت إلى التل مع حاشية يعقوب بن علي وجدتهم بفرفار، الضيعة التي اختطها بالزاب. فرحلتهم معي، إلى أن نزلنا عليه بضاحية قسنطينة. ومعه صاحبها الأمير إبراهيم ابن السلطان أبي العابس بمخيمه وفي عسكره، فحضرت عنده، وقسم لي من برّه، وكرامته فوق الرضى، وأذن لي في الدخول إلى قسنطينة، وإقامة أهلي في كفالة إحسانه، بينما أصل إلى حضرة أبيه.

عبد الرحمٰن بن خلدون
كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر
ط بيروت 1959 ـ 1969
الجزء السابع: «التعريف بابن خلدون»
ص ص 244 ـ 247

أبو العباس أحمد بن الخطيب المعروف بابن قنفد القسنطيني

(ت 809 هـ/ 1406 م)

أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن الخطيب والمعورف بابن قنفد القسنطيني ينتمي إلى أسرة شغلت مناصب دينية بقسنطينة على عهد الحفصيين، إذ تولى جده وأبوه الإمامة والخطابة، بجامع القصبة الذي كان يؤمه الحكام الحفصيون بقسنطينة، ولد ابن قنفد في قسنطينة في حدود عام 740 هـ/ 1339 م وتلقى تعليمه بمسقط رأسه على يد أبيه وعلى يد علماء قسنطينة منهم أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس، وحسن بن يخلف بن ميمون، ثم ارتحل في شبابه إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى (759 هـ/ 1357 م) حيث مكث ثماني عشرة سنة منها تسع سنوات بالمغرب الأقصى (768 ـ 777 هـ) وتعرف خلال ذلك على تلمسان وفاس ومراكش وسالا حيث زار ضريح ابن عاشر ووقف على دار ابن تومرت ومكث مدة عند قبيلة دكالة التي تولى القضاء بها (769 هـ). وأثناء ذلك كان يحرص على توسيع مداركه وأخذ العلم على أشهر علماء تلمسان والمغرب، مثل الشريف أبي القاسم السبتي، وأبي عبد الله التلمساني، وأبي عمران موسى العبدوسي، وابن مرزوق الجدّ (ت 781 هـ)، وأبي محمد عبد الله الوانغيلي، وأبي زيد اللجاني، وابن حياتي النحوي، وابن الشماع وأحمد المخزومي المراكشي وغيرهم، فزاد علمه واشتهر أمره حتى إن أحمد بابا التنبكتي وصفه في نيل الابتهاج بقوله: «الإمامة العلامة المتضمن الرُّحلة القاضي الفاضل المحدث المبارك المصنف. . .».

عاد أحمد بن قنفد إلى افريقيا في حدود سنة (776 هـ/ 74 ـ 1375م) وأقام فترة بتونس ثم تحول إلى بلده قسنطينة سنة (786 هـ/ 1384 م) فتولى بها وظائف

الإفتاء والقضاء والخطابة، واشتغل بالتدريس والتأليف، ولم يفته أن يأخذ العلم على علماء تونس المشهورين أمثال: محمد البرطني الأنصاري (ت 793 هـ) ومحمد بن عرفة الورغمّي (ت 803 هـ) كما لم تشغله الوظائف الدينية عن إلقاء الدروس فأخذ عليه وروى عنه علماء مشهورون كالإمام ابن مرزوق الخطيب (ت 842 هـ).

هذا وقد ظل ابن قنفد على صلة بالأمراء الحفصيين في قسنطينة حتى وافته المنية في 12 ربيع الأول عام 809 هـ/ 1406 م.

وقد مال ابن قنفد في آخر حياته إلى التصوف والزهد الذي عبر عنه بأبيات عديدة منها:

مضت ستون عاماً من وجودي	ومـا أمسكـت عـن لعـب ولهـو
فكـم لابـن الخطيـب مـن خطـايا	وفضــــل الله يشملـــــه بعفـــــو

ترك أحمد بن قنفد مصنفات عديدة تعكس اهتمامه المتنوع واطلاعه الواسع على مختلف علوم عصره من فقه ولغة وتراجم وتاريخ وسير وحساب وفلك، وقد قدرت الكتب المنسوبة إليه بثلاثين تأليفاً أو تلخيصاً ذكر منها ابن قنفد نفسه سبعاً وعشرين قبل عامين من وفاته 807 هـ. واعتنى بذكرها أصحاب التراجم المتأخرين عنه مثل أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، وابن القاضي في جذوة الاقتباس وابن مريم في البستان، ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية، إلا أن أغلب هذه المصنفات المنسوبة إلى ابن قنفد ظلت مجهولة أو أصبحت في حكم المفقود والقليل منها فقط نشر أو لا يزال مخطوطاً، ومن الراجح أن جل ما كتبه ابن قنفد هو في الواقع عبارة عن تقييدات وملخصات وملحقات وتذييلات لمقررات دراسية وكتب مطولة، بينما القليل منه وضعه بنفسه مثل كتاب الفارسية (موضوع هذه الترجمة) هذا ولعل بعض العناوين المنسوبة إليه قد تكون مكررة أو أنها تحمل عناوين مختلفة.

يتوزع ما نسب إلى ابن قنفد من التآليف على أربعة أصناف، الأول منها يتصل بالتاريخ أو ما يتعلق به من تراجم وسير وأنساب ووفيات، والثاني يهتم

بالطب والتوقيت والفلك، والثالث يتعلق بالحديث الشريف والفقه والأصول والمنطق، والرابع خاص باللغة والقواعد والبلاغة.

ـ الصنف الأول: «في التاريخ والتراجم والسير والأنساب»:

1 ـ الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية (موضوع هذه الترجمة).

2 ـ الوفيات: وهو تكملة وذيل لكتاب شرف الطالب في أسنى المطالب. جعله ثبتاً مختصراً وعاماً لعلماء الإسلام استهلّه بذكر الرسول ﷺ، ثم الصحابة في المائة الأولى وقسم كل مائة فيه إلى عشرات وانتهى فيه إلى العشرة الأولى، من المائة التاسعة 807 هـ. وذكر فيه عشرين عالماً من البلاد الجزائرية منهم أبو مدين شعيب، وأبو زكريا الزواوي، وكان آخر من أورد اسمه أبا محمد الضرير المرائني البوني، وتعتبر الوفيات مرجعاً أساسياً للتعرف على رجال قسنطينة وبجاية وتلمسان والمغرب الأقصى والأندلس وافريقيا. وقد وضع له أحمد بن القاضي (ت/ 1616 م) ذيلا تحت عنوان: لقط الفرائد للفاظة منان الفوائد، مبتدئاً فيه بأول المائة التاسعة وانتهى إلى تمام المائة العاشرة، نشره مولوي هدايت حسين بكلكتا 1911، ثم هنري بيريس بمصر (1939) ثم عادل نويهض بيروت 1971.

3 ـ أنس الفقير وعز الحقير. وهو مخصص لأبي مدين شعيب دفين العباد بتلمسان (ت 594 هـ)، وأصحابه من أهل التصوف مثل أبي على الزواوي البجائي، ومحمد الصفار، وقد أكمله ابن قنفد بقسنطينة تلبية لطلب أحد أصدقائه في شهر رمضان 787 جويلية 1385 ونشر أخيراً محققاً بالرباط 1965 من طرف أودولف ثور ومحمد الفاسي.

4 ـ طبقات علماء قسنطينة وهو في حكم المفقود أشار إليه محمد بن أبي شنب، ويرجح أن نسخة منه توجد عند إحدى الأسر القسنطينية، ولعلها أسرة الشيخ نعيم النعيمي ومن الراجح أنها نسخة أخرى غير التي ذكر عادل نويهض أنّها بحوزته وهو بصدد تحقيقها.

5 ـ تحفة الوارد في اختصاص الشرف من الوالد.

6 ـ وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام. وهو مختصر في السيرة النبوية نشرها مؤخراً سليمان الصيد (1984) وتتضمن خمسة أبواب في نسب

الرسول وأسمائه وولادته وحضانته وأزواجه وأولاده وقوانينه ومواليه وخدمه ومن مبعثه وبعوثه وغزواته ووفاته ومعجزاته وفضل الصلاة عليه .

7 ـ المسافة السنية في أخبار الرحلة العبدرية. وهي مختصر لرحلة محمد العبدري الحامي.

8 ـ إدريسية النسب في الأمصار والقرى والعرب.

الصنف الثاني: «في الطب وعلم التوقيت والفلك».

9 ـ أرجوزة في الطب.

10 ـ تسهيل المطالب في تعديل الكواكب. أو تيسير المطالب في تعديل الكواكب.

11 ـ تحصيل المناقب (المطالب) وتكميل المآدب ـ وهو شرح لتسهيل المطالب.

12 ـ شرح الثقاة في علم الأوقات أو سراج الثقاة في علم الأوقات وهو رسالة صغيرة في التوقيت.

13 ـ المنظومة الحسانية، وهي شرح لمنظومة أبي الحسن علي بن أبي الرجال القيرواني وهي في أحكام النجوم.

14 ـ تسهيل العبارة في تعديل الإشارة.

15 ـ شرح تلخيص ابن البناء بعنوان حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب.

16 ـ شرح الخونجي.

17 ـ وقاية المؤقت ونكاية المنكث.

18 ـ أنس الحبيب عند عجز الطبيب.

19 ـ القنفدية في إبطال الدلالة الفلكية وهي تتمة لشرحه «منظومة ابن أبي الرجال».

20 ـ بغية الفارض في الحساب والفرائض.

الصنف الثالث: في الحديث والفقه والأصول والمنطق».

21 ـ شرف الطالب في أحسن المطالب في أنواع علوم الحديث، وهو شرح لقصيدة «غرامي صحيح» لأبي العباس أحمد بن فرح اللخمي، وقد جعل كتاب الوفيات تكملة له.

22 ـ فهم «تفهيم» الطالب لمسائل أصول بن الحاجب، وهو شرح لكتاب الأصول أو شرح المختصر الفرعي.

23 ـ أنوار السعادة في أصول العبادة، وهو شرح للحديث النبوي الشريف «بني الإسلام على خمس».

24 ـ إيضاح المعاني وبيان المباني وهو شرح لرجز في المنطق.

25 تقريب الدلالة اللفظية في شرح الرسالة. وهو شرح وتعليق على رسالة أبي زيد القيرواني في أربعة أسفار.

26 ـ معرفة الرياض في مبادىء الفرائض، أو معرفة الرائض في مبادىء الفرائض.

27 ـ اللباب في اختصار بن الجلاب، وهو شرح كتاب التفريع لابن الجلاب.

28 ـ علامة النجاح في مبادىء الإصلاح.

29 ـ تخليص العمل في شرح الجمل للخونجي في المنطق.

الصنف الرابع: «في اللغة والقواعد والبلاغة».

30 ـ الإبراهيمية في مبادىء العربية، وهو مختصر في قواعد النحو والصرف.

31 ـ سبط الرموز الحفية في عروض الخزرجية، لضياء الدين عبد الله الخزرجي الأندلسي، وهو في العروض.

32 ـ التخليص في شرح التلخيص، وهو شرح لتلخيص البلاغة للقزويني.

33 ـ هدية السالك في بيان ألفية ابن مالك.

34 ـ تقييدات في مسائل مختلفة (بعضها في اللغة والبعض الآخر في الفقه).

ومع هذه المؤلفات العديدة فإن ابن قنفذ اشتهر خاصة بكتابه الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية الذي أنهاه في أوائل سنة (806 هـ/1403 م) وجعله خاصاً بتاريخ الدولة الحفصية وقدمهُ للسلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز تأكيداً لمكانة بلده قسنطينة ومنزلة قومه وصلة أسرته بالإدارة الحفصية بقسنطينة، فقد

شغل جده الإمامة بالسلطان في جامع القصبة، كما تولى والده الإمامة والخطابة بنفس الجامع وقصد ابن قنفد من تأليفه للفارسية أيضاً تجاوز آثار ثورة قام بها سكان قسنطينة ضد حكم أبي فارس وكان له صلة بها، وعزل بسببها من وظيفة القضاء فحاول في آخر الكتاب نفي تهمة الثورة ضد الحكم الحفصي عن سكان قسنطينة وإلصاقها بالحكام والموظفين الرسميين، والتملص من مسؤولية ذلك رغم أنه أفتى بجواز القيام على المستبدين بالبلد، آثر أنذاك الإنزواء بزاوية جده «الملارية»، فكان الكتاب اعترافاً بفضل أبي فارس عبد العزيز عليه لإعادته إلى منصبه، وهذا ما يدل عليه التقديم الذي جاء للفارسية الذي تضمن عبارات تدل على مدى تعلق ابن قنفد بأبي فارس وإجلاله له، فهو يتوجه إليه بقوله: «ولشرفه برفعه إلى الحضرة العلية وفخر الزمان. . . بأيام الإمارة العزيزية المجاهدية».

بدأ ابن قنفد كتابه الفارسية بذكر تأسيس الدولة الحفصية، وانتهى به إلى عهد أبي فارس عبد العزيز (796 ـ 839 هـ/ 1334 ـ 1935 م) واستعرض فيه بإيجاز وتركيز الحكّام الحفصيين فحدد تاريخ ولادتهم وتعرض إلى أهم ما وقع على عهدهم، دون أن يهمل صلة أسرته وعلاقتها ببعض الحكام الحفصيين مثل تأييد جده لأمه الولي يعقوب الملّاري صاحب الزاوية الملارية للسلطان أبي يحيىٰ أبي بكر (711 هـ)، وقد أشار ابن قنفد إلى طريقة عرضه للأحداث بقوله: «هذا مختصر فيه ما تتشوف النفوس إليه من الاطلاع على مبادىء الدولة الحفصية وما يتعلق بها من مهمات الوقائع الجلية بكلام كلي تحسن المحاضرة به وتحصل الفائدة بسببه».

تضمنت الفارسية معلومات مهمة عن الحكام الحفصيين وما عرفته البلاد على عهدهم من حروب وتمردات. وقد خص عهد أبي فارس بعناية أكثر فركز على أهم الأحداث التي وقعت في عهده مثل نقض البيعة من طرف سكان بجاية وقسنطينة وعنابة وبسكرة. والقضاء على إمارة بني مزني بالزيبان والأوراس، واحتلال النصارى لدلس ونزولهم بالقل ومحاولتهم مهاجمة عنابة، كما أعطى مكانة خاصة لأخبار بلده قسنطينة، فاعتبرها قاعدة انطلاق الأمير أبي فارس وأساس دولته التي جددت عظمة الحفصيين بعد الضعف الذي أصابهم. فجاءت الفارسية

على شكل عرض تاريخي يغلب عليه الترتيب الزمني للأحداث والوقائع التي يبتدئها غالباً بعبارات متواترة مثل: «وفي السنة المذكورة ـ وفي هذه السنة. . . وكانت في أيام. . . وفي شهر، كل ذلك في لغة سليمة وأسلوب تغلب عليه المحسنات اللفظية والعبارات المنمقة التي تعكس ثقافة العصر، وتضفي على الفارسية طابع الأدب التاريخي والوصف الإنشائي المتميز بالمبالغة في مدح الحكام الحفصيين، إذ يصفهم بالمجاهدين والمقدسين وفخر الزمان. . . ولا يرى مانعاً من التسليم بالكرامات وذكر الخرافات، بل يتجاهل الحقائق في بعض الأحيان، فيتعاضى عما صدر من الحكام ولا ينتقد نقائصهم، أو ما صدر عنهم من مظالم، لذلك كانت الفارسية أقرب إلى السير الذاتية (Historiographie) منها إلى العرض التاريخي المحض وبذلك خالف بن قنفد سيرة الفقهاء والعلماء المعاصرين له مثل عبد السلام وابن عرفة الذين عرفوا بتحفظهم في علاقتهم بالحكام.

هذا وتعتبر الفارسية من المصادر الأساسية لتاريخ الدولة الحفصية رغم اختصارها، فهي لا تقل أهمية عن كتاب الزركشي، وهذا ما جعلها مرجعاً للمؤرخين المتأخرين ومجالا لاهتمام الدارسين المحدثين، فقد استخرج برانسفيك (Brunschwig) منها معلومات متنوعة في دراسته عن الفترة الحفصية وعلق عليها بقوله: «إن الفارسية رغم إيجازه المفرط أحياناً فهو لا يخلو من القيمة وقد ألف حسب الاحتمال بالاعتماد على المعطيات الواردة في وثائق الدولة وهو إن لم يدعي تصنيف الأحداث تصنيفاً جديداً إلا أنه يتضمن أحداثاً عامة وتواريخ مضبوطة في الظاهر ومعلومات مقبولة حول أهم الأحداث السياسية وحول رجال الدولة باستثناء الأحداث المؤلمة التي مر عليها مر الكرام بالإضافة إلى تعرضه للمظاهر الخاصة بقسنطينة». وقد اعتمدها شربونو (Cherbonneau) وترجم قسماً منها إلى الفرنسية، وهي ترجمة لا تخلو من الأخطاء، وقد قام محمد بن أبي شنب بإعداده للطبع لكن وفاته حالت دون نشره، مما اضطر الباحثين إلى الاعتماد على النسخة الحجرية (مطبعة باريس 1846) وعلى نسخة شيربونو (طبع تونس 1932)، وذلك قبل أن يحقق أخيراً من طرف محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي اعتماداً على عدة نسخ وينشر بتونس (1968).

المراجع المعتمدة:

- ابن قنفد (أبو العباس أحمد بن الخطيب) الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس 1968.
- ابن قنفد (أبو العباس أحمد بن الخطيب) الوفيات، تصحيح ونشر وتعليق هنري بيريس القاهرة 1939، (الطبعة الأولى بالهند بإشراف مولوي محمد هدايات حسين 1911 والأخيرة بإشراف عادل نويهض بيروت 1971).
- ابن قنفد (أبو العباس أحمد بن الخطيب) وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، تقديم وتحقيق سليمان الصيد، دار الغرب الإسلامي بيروت 1984.
- جذوة الاقتباس، ص 154.
- درة الحجال، ج 1 ص 121.
- نيل الابتهاج، ص ص 109 ـ 110.
- نشر المثاني، ج 1 ص 4.
- الاعلام بمن حل مراكش، ج 2 ص 224.
- جواهر الكمال، ج 1 ص ص 44 ـ46.
- إيضاح المكنون، صفحات عديدة.
- الحلل السندسية، ج 1، ص ص 640 ـ 641.
- هدية العارفين، ص 117.
- معجم المؤلفين، ج 2، ص 205.
- كشف الظنون، ص 63.
- شجرة النور الزكية، ج 1، ص 250.
- البستان، ص 308.
- تاريخ الجزائر العام، ج2، ص ص 135 ـ 136.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 451 ـ 452.
- فهرس الفهارس، ج 2، ترجمة 551، ص ص 973 ـ 974.
- الزركشي (محمد بن إبراهيم) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1966.
- تعريف الخلف، القسم الأول، ص ص 32 ـ 37.

- تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص ص 413 ـ 415.
- الأعلام، ج 1، ص 117.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص ص 52 ـ 57.
- معجم أعلام الجزائر (ط 1971)، ص ص 20 ـ 22.
- تاريخ الأدب العربي، ج 2 ص 241.
- أعلام المغرب، ج 5، ص ص 8 ـ 13.

- Bencheneb (M.) La farisïa ou La Dynastie, hafside par Ibn Qunfud de Constantine, in Hespéris, T VIII/ 1928, pp 37 - 41.
- Boissonnet de la Fouche, Al - Farisiya, Histoire des Hafsides, par Aboul' Abbas Ahmed al - Khatib (Texte arabe), Paris, 1847, (132p).
- Brunschwig (R.) La Berbérie Oriental sous les Hafsides, T II, Paris, 1947.
- Cherbonneau, la Farisïa, Histoire de la Dynastie des Beni - Hafs, par Aboul' Abbas Ahmed al - Khatib, in Journal Asiatique, série, IV, no 13/1849 pp. 185 - 208. no 17/1851, pp. 51 - 84, no 19/1852, pp. 208 - 244.
- Hadj - Sadok, Ibn Kunfudh. in. Encyclopédie de l'Islam, Paris, T III, pp 867 - 868.

ثبت بمؤلفات ابن قنفد كما أوردها بنفسه

واعلم أن معرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال ومعرفة طبقات الفقهاء وأزمانهم من مهمات المطالب، وكذلك ما ألف في عصر السائل.

وقد سألني رجل عما وقع من التواليف ليكتب ذلك في رحلته فأمليت عليه من ذلك ما صادف الوقت زمانه لحرصه على هذه المسالك.

ولنسردها هاهنا تكملة للغرض:

1 ـ فمنها تقريب الدلالة في شرح الرسالة في أربعة أسفار.

2 ـ ومنها اللباب في اختصار الجلاب.

3 ـ ومنها معاونة الرائض في مبادىء الفرائض.

4 ـ ومنها إيضاح المعاني في بيان المباني، وهو سفر لشرح لرجز في المنطق نظمه صاحبنا الفقيه الحافظ الأستاذ أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه أبي زيد عبدالرحمٰن المراكشي الضرير من أهل بلدنا وقد تقدم ذكره حفظه الله.

5 ـ ومنها تلخيص العمل في شرح الجمل في المنطق (للخونجي).

6 ـ ومنها أنس الفقير وعز الحقير من أهل التصوف كأبي مدين وأصحابه.

7 ـ ومنها أنوار السعادة في أصول العبادة وهو شرح لقوله ﷺ «بني الإسلام على خمس ـ الحديث» وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثاً وأربعون مسألة.

8 ـ ومنها هداية السالك في بيان ألفية ابن مالك.

9 ـ ومنها المسافة السَّنية في اختصار الرحلة العبدرية.

10 ـ ومنها سراج الثُّقات في علم الأوقات.

11 ـ ومنها تسهيل العبارة في تعديل الإشارة اشتمل على أربعين بابا وستين فصلاً.

12 ـ ومنها أنس الحبيب عند عجز الطبيب.

13 ـ ومنها تيسير المطالب في تعديل الكواكب. ولم يهتد أحد إلى مثله من المتقدمين.

14 ـ ومنها وقاية الموقت ونكاية المنكت.

15 ـ ومنها بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية.

16 ـ ومنها القنفدية في إبطال الدلالة الفلكية.

17 ـ ومنها حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب، وهو شرح تلخيص ابن البناء وقد سبقت به ابن زكريا الأندلسي وكان قد أخذ من كتابي نسخة عند جوازه إلى مدينة فاس بعد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة.

18 ـ ومنها التخليص في شرح التلخيص.

19 ـ ومنها الإبراهيمة في مبادىء علم العربية.

20 ـ ومنها تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب، قيدته في زمان قراءتي على الشيخ ابن محمد عبد الحق الهسكوريّ بمسجد البليدة من مدينة فاس، وكان الابتداء في أول سنة سبعين وسبعمائة.

21 ـ ومنها علامة النجاح في مبادىء الاصطلاح.

22 ـ ومنها بغية الفارض من الحساب والفرائض.

23 ـ ومنها الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية.

24 ـ ومنها تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد وهو غريب.

25 ـ ومنها وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام وهو من أجل الموضوعات في السير لاختصاره.

26 ـ ومنها المختصر الذي سميته شرف الطالب في أسنى المطالب.

27 ـ ومنها تقييدات في مسائل مختلفة.

وكل ذلك بتوفيق الله تعالى وإعانته. وقد أذنت لمن رآني أو رأى من رآني وهما درجتان يروي إن شاء ما شاء من مصنفاتي وما صح لديه من مرويات والله الموفق لا رب غيره ولا معبود سواه.

ابن قنفذ القسنطيني، الوفيات نشر هنري بيريس القاهرة، 1939 ، ص 65 ـ 67

[ملاحظة: نشر هذا البرنامج في فهرست: أسماء الكتب المخطوطة المحفوظة في خزانة المدرسة العليا العربية بالرباط، (ط باريس) 1921، ص ص 133 ـ 134]

النزاع بين الأمراء الحفصيين على امتلاك قسنطينة

وفي يوم الأربعاء الثالث لشهر شعبان من عام ستة وتسعين وسبعمائة توفي الخليفة ـ رحمه الله ـ بتونس. . . وولي بعده ولده المتوكل على الله أمير المؤمنين أبو فارس ابن أمير المؤمنين أبي العباس أحمد ابن الأمراء الراشدين أبقى الله وجوده، وشكر جوده، ومتع به الإسلام. بجاه النبي عليه السلام. . . بويع بالحضرة العلية يوم وفاة المرحوم والده على رضا من الناس، ورتب الأحوال، وأعطى الأموال، وألف بين إخوته. . .

وعلى إثر ذلك وصل الأمير أبو بكر ابن المرحوم أمير المؤمنين بكتب كتب عن أبيه بولاية قسنطينة، والفقيه إبراهيم بن القائد إبراهيم هو النائب فيها حينئذ أبقاه السلطان ناظراً من سنة وفاة مخدومه الأمير أبي إسحاق ـ رحمه الله ـ فغلق الباب، حتى وقف على الكتاب وتردد في الجواب، ثم لم يسعه إلا دخوله، فدخل الأمير أبو بكر عشية يوم الخميس الرابع ليوم خروجه من تونس وهو غرة شعبان من سنة ست وتسعين وسبعمائة.

ثم بعد عشرة أيام من دخوله جمع الناس وطلبهم في بيعته لوفاة المرحوم والده فمكنوه لعافيتهم من ناصيتهم، ولازم داره في لذاته، واقتصر على راحته، وظهرت كلمة العرب، وفتحوا باب الطمع والطلب، وزين لهم الكاتب أحمد بن الكماد، كل نوع من أنواع الفساد، وارتقبوا بإشارته غدر الأمير أبي بكر المذكور، فحذر منهم، وأبى أن يخلو معهم، فطلبوا الحديث مع أصحاب بساطه، فخرج إليه جماعة من الخدام. فأخذوهم ثم أطلقوهم بعد أيام.

وتوجه أحمد بن الكماد المذكور مع بعض الأعراب إلى الأمير أبي عبد الله وبشّروه بالواقعة الخسيسة، وحَضه على المبادرة إلى ملك قسنطينة النفيسة، فبادر

الأمير أبو عبد الله بجميع أجناده وأهل وطنه، ونزل البلد يوم الخميس السادس لذي القعدة من عام ست وتسعين وسبعمائة، ومنع الواصل والداخل وقطع الأشجار، ورمى بالحجارة الثقيلة والأوتار، واستوفى بالإنفاق الكثير أمر الحصار. واقتصر أهل البلد على مدافعة من الأسوار، وأقام على البلد خمسة وسبعين يوماً كأنها شهور في العدة لسم سهمه، وتعدد العدة، ثم ارتحل آيسا منها وباكياً عليها. . .

ثم ضاق عليه الأمر بالاضطراب، واختلاف الأعراب، فوجه إلى أمير المؤمنين كتاباً يطلبه في الدخول تحت طاعته والرجوع إلى الأمر الأول واستقالته، وأن يرسل إليه من يبلغ عنه فوجه إليه الشيخ الرئيس، أبا عبد الله محمد بن أبي هلال وبعث معه إليه أمراً كريماً باستقراره نائباً في الكريمة داره فبلغه ذلك وقبله، واعترف بالشهادة طائعاً أنه خلع نفسه وكتبت البيعة لأمير المؤمنين في جمادى الثانية في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة.

ثم ندم كاتبه الفقيه إبراهيم المذكور وتوقع انقلاب حاله. فعرض له بوقوفه واستقلاله، وحرك الكلام مع بعض العرب، وتواترت رغبات الناس إلى أمير المؤمنين في جبر ضيعتهم. فعطف عليهم وتحرك إليهم. فحين أشرف على البلاد، وتعين المراد، أظهر الأمير أبو بكر العصيان، بالامتناع من اللقاء مع تيقن الأمان، والمدبر لذلك كله كاتبه المذكور حرصاً على ما اعتاد من مأكلته. ولما ركب الله من العجب في جبلته، فنزل أمير المؤمنين على البلد في يوم السبت الخامس والعشرين لشهر شعبان من سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وقرر ـ أبقاه الله ـ ما عنده من الخير وشافهه من شاطىء الهوى بكلام دل على تصافيه ودام الحصار مدة تزيد على عشرين يوماً. . . .

ولما انتهى أمر الحصار نادى بعض من في السور بالبدار، وتوجهت الإعانة في ذلك، وانتظمت الكلمة من هنالك، وبرز من كان يخاف، وتعين النصح والإنصاف، ودخل بعض من سور الحنيشة، ودخل أمير المؤمنين ومن تبعه من باب الحمة، وذلك في ليلة الثامن عشر لشهر رمضان من عام ثمانية وتسعين

وسبعمائة. وحل البدر من شرفه، ومسقط رأسه ومؤتلفه، لأن بقسنطينة ولادته وولادة الثلاثة من آبائه، ولها بذلك شرف على غيرها من البلدان.

وقصد الأمير أبو بكر إلى القصبة، وقصد الأمير الفقيه إبراهيم كاتبه إلى سور الحنيشة، وأهبط من هنالك، فحبس وثقف حتى قتل بسبب جرمه بتونس في السنة المذكورة.

وهذه الفعلة من الكاتب إبراهيم هي الثالثة لأن هذا البلد لم يحدث فيه مثل هذا إلا ثلاث مرات من زمان فتحها للأمير أبي زكرياء الأكبر، إلى هذا الفتح المقرر.

الأول نفاق القائد ابن الوزير، وأخذ في سنة إحدى وثمانين وستمائة.

والثاني نفاق القائد ابن الأمين، وأخذ في سنة أربع وسبعمائة.

والثالث نفاق الكاتب إبراهيم ابن القائد إبراهيم هذا، وأخذ في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، وكل شخص من الثلاثة مولّى من قبل أميره، ولا مدخل لأهل البلد في تدبيره، لأن بلدنا قسنطينة بلد سلطنة من زمانها، لا بلد مشيخة في أركانها، ومن ارتفع من أهلها، فهو بترفيع ملكها.

وأقام أمير المؤمنين بالبلد أزيد من شهر حتى مهد أمرها، وكشف ضرها، وتصدق بالمال الجزيل، وعامل بالجميل، وسافر إلى الحضرة في آخر شوال من السنة، بعد أن عين لقيادة الوطن مملوكه القائد نبيل، وعين لقصبة البلد الشيخ العاقل العارف بالمقاصد السلطانية أبا الفضل بلقسام ابن الشيخ أبي عبد الله ابن الشيخ أبي العباس أحمد بن تفراجين التينملي.

أبو العباس أحمد بن الخطيب القسنطيني (ابن قنفذ)

الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية

تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي،

تونس، 1968، ص ص 188 ـ 195.

أحمد بن أحمد البجائي المعروف بأبي عصيدة
(ت حوالي 865 هـ/ 1460 م)

أحمد بن أحمد البجائي المعروف بأبي عصيدة، ذكر عن نفسه أنه بجائي المنشأ والدار غساني الأصل، نشأ وشب ببجاية في فترة استقطابها العديد من علماء الأندلس، وتحولها إلى عاصمة ثقافية للأقاليم الغربية للدولة الحفصية في عهد السلطان أبي عمرو عثمان (821/ 883 هـ) تلقى تعليمه الأولي على شيوخ بلده من أسرة المشدالي، وفي مقدمتهم محمد المشدالي مفتي بجاية وعالمها (ت 867 هـ) كما صادق ابنه الفقيه الحافظ أبا الفضل محمد المشدالي (تـ حوالي 820 ـ 864 هـ) وظل على اتصال به أثناء تحوله للدراسة بتلمسان أو هجرته إلى المشرق.

غلب على أحمد البجائي «أبي عصيدة» الميل إلى الزهد واستبدت به الرغبة في زيارة البقاع المقدسة ولعل الظروف الصعبة ببجاية آنذاك وشيوع الاضطرابات السياسية والصراعات القبلية كان لها دخل في هذه النزعة، فغادر بجاية نحو تونس ومنها إلى مصر وكانت تحت حكم المماليك. وهناك اتصل بأبي الفضل المشدالي وجالسه وأخذ عنه، لكن لم يطب له المقام بها فتحول إلى مكة بقصد أداء فريضة الحج وعقد العزم على الاستقرار هناك في مجاورة الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، لكن الحنين إلى الوطن عاوده، بعد أن تلقى رسالة من أحد أصدقائه بتونس عن طريق الشيخ أحمد القروي يستحثه فيها على الرجوع إلى وطنه لكون المجاورة غير مطلوبة شرعاً. ولأن الانقطاع عن الأهل مسبب للفقر ومدعاة للغربة والحاجة. فعاد إلى تونس لكنه لم يواصل رحلته إلى بجاية بعد أن بلغته أنباء موت من كان يحبه ويشتاق إليه بسبب وباء الطاعون. وقرر العودة إلى المشرق والاستقرار بالبقاع المقدسة نهائياً. وهذا ما عبر عنه قائلاً: «وبأني لما ارتحلت الرحلة الأولى لقضاء

حجة الإسلام... وعدت إلى أن وصلت إلى حضرة تونس... فوجدت معظم من عرفناه بها من الأخوان الكرام والأئمة السلام... قد دارت عليه كؤوس الحمام والتقطهم كما يلتقط الحبّ الحمام، ثم سألت عمن تركناه بالأوطان من الأهل والسكان والأتراب والأخوان... فإذا الديار بلاقع مقفرات... وصاروا في الأجداث والأكفان ولحقوا بخبر كان... فثنيت عناني... فانتدبت في الوقت رحيلي وجعلت الصدق في عزمي وليلي...».

استقر أحمد بن أحمد البجائي بالحجاز في مجاورة الحرمين فانقطع للعبادة ووطن نفسه على حياة الزهد، فكان يواظب على ختم الحديث الشريف في شهر رمضان ويحرص على إقراء كتب الحديث والفقه بالمسجد النبوي، وقد حضر ختمه للبخاري الشيخ عثمان بن إبراهيم الطرابلسي الشامي فأثنى عليه.

وقد ظل مواظباً على العبادة والذكر، حريصاً على مراسلة صديقه أبي الفضل المشدالي المقيم بمصر (ت 864/1459 م) الذي كثيراً ما كان يؤاخذه في رسائله على انقطاع مراسلته له وعدم قدومه إلى الحجاز كما وعده، وقد انقطعت أخبار أبي عصيدة في الفترة الأخيرة من حياته. فلم يعرف بالتحديد تاريخ وفاته بدار هجرته وإن كان من المرجح أنه في حدود عام 865 هـ/ 1460 م.

عرف أحمد البجائي بمعارفه الفقهية وميوله الأدبية فقد كان ينظم الشعر ويحفظ الكثير منه، وكان يعبر عن ذوقه الأدبي السليم فيما كتبه من رسائل إلى صديقه أبي الفضل المشدالي، وقد عرف خاصة في مجال تقييد المذكرات برسالتين جعلت له مكاناً ضمن من أسهموا في إغناء التراث التاريخي المغربي، أولاهما: رسالة أنيس الغريب وروض الأديب، والثانية رسالة الغريب إلى الحبيب، بالإضافة إلى تقييد له في النحو تحت عنوان: تعليقة سنية في حل ألفاظ الآجرومية.

- فأنيس الغريب وروض الأديب وضعه إثر مجاورته الثانية للحرم النبوي ضمنه شذرات ونبذ من الشعر والأخبار ومسائل علمية وصوفية استقاها من مصادر عدة، منها كتاب الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي، ورسالة القشيري، وكتاب أدب الدين والدنيا، والترغيب والترهيد، وجعل مقدمته عن أخبار رحلته من حاضرة تونس إلى المدينة المنورة مروراً بمصر وربما بيت المقدس مع ذكر بعض

الشخصيات التي التقى بها بالحرمين الشريفين منهم أبو العباس أحمد الأبدي الذي وجد منه التقدير والاحترام، كما حرص على أن يضمنه أخبار أبي الفضل المشدالي وتحدث حديث معجب عن أسرته ومكانته العلمية ببجاية، وذكر ما عرفه عنه في بجاية ومدينة الجزائر وتونس ثم انتقاله إلى تونس ومصر والقدس وطرابلس والشام والحجاز (847 هـ) وأشاد بعلمه وما بلغه من علو المكانة بمصر، ذاكراً لقاءه به في القاهرة (حوالي 852 هـ) وأورد ما سمعه عنه من الشيوخ الذين اتصل بهم، كما أشار إلى زيارته (المؤلف) إلى مصر والحجاز والشام وذكر شيوخه في المغرب والمشرق وكان في نيته أن يضيف إلى ترجمة أبي الفضل بعض الأشعار التي كان من المنتظر أن يرسلها إليه أبو الفضل فترك بياضاً لهذا الغرض، أما باقي المصنف فكان في ضروب العبادة وأسرار الطاعات وأصناف التبتل. حيث يتناول أداء الفرائض والسنن والأدعية وما يتوجب على المريد معرفته من آداب وأخلاق ومعاملة شيوخ الطريقة حتى يكون على علم «بعقائدهم وكيفية ترقيتهم» وقد أدى به هذا التوجه إلى الإغراق في التصوف، والخروج عن الموضوع إلى ذكر حكايات عجيبة ونوادر غريبة رآها ضرورية للترويح عن النفس وتذكيرها بما يجب عليها من عمل صالح، فكان أنيس الغريب وروض الأديب بذلك كتاب مختارات ودفتر تقاييد شخصية فهو حسب قول صاحبه كتاب مذاكرة وتسلية: «ليكون جلياً في خلواتي، وأنيسي في غربتي ومذكري في غفلتي» وكان هذا المصنف محل عناية واعتزاز مؤلفه الذي عرضه على بعض علماء المدينة المنورة فأشادوا به خاصة الشيخ فخر الدين عثمان الطرابلسي الشامي الحنفي المقرىء بالحرم النبوي الشريف.

يعتبر مصنف أنيس الغريب وروض الأديب في حكم المفقود، إذ لم يعثر الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي اهتم به وأجهد نفسه في البحث عنه إلا على حوالي سبعين ورقة.

- ورسالة الغريب إلى الحبيب، تقع في حدود خمس وسبعين ورقة. وهي في شكل رسالة أدبية استهلها أحمد البجائي «أبو عصيدة» بقصيدة يشيد فيها بأبي الفضل المشدالي ومكانته العلمية وذكرياته معه، بعدها أوضح أن هذه الرسالة هي جواب عن خطاب وصله من المشدالي المقيم بالقاهرة، وقد ذكر فيما بقي من

الرسالة تحوله من مصر إلى الحجاز مفارقاً أبي الفضل الذي ظل متعلقاً به يراسله باستمرار دون أن يتلقى رداً يريح قلبه ويشفي غليله، وقد ذهب به الشوق إلى لقاء أبي الفضل إلى حد مساءلة الركبان والحجيج عن قدومه زاعماً أن كثيرين ينتظرون قدومه إلى الحرمين، وبعد هذا يخلص أبو عصيدة إلى ذكر ما يتمتع به من راحة النفس وهدوء البال في جوار الرسول ﷺ وغبطته بإقراء كتابي البخاري، والشفاء كل رمضان بالروضة الشريفة. وفي هذا السياق يروي قصة رجوعه إلى تونس استجابة لمراسلة وردت إليه، ثم تحوله ثانية إلى المشرق بسبب فقد الأهل والأحباب ثم يعود إلى ذكر صديقه المعجب به أبي الفضل الذي كانت رسالته مدعاة إلى إدخال السرور والفرح إلى نفسه وسبباً في كتابة رسالة الغريب إلى الحبيب، معتذراً عما يكون قد صدر منه في حقه. ثم تناول بالشرح والتحليل ثلاث أبيات من الشعر وردت في رسالة أبي الفضل عنونها بعبارة «الإتحاف بفوائد شرح معانيها العجيبة».

جاءت رسالة الغريب إلى الحبيب في شكل مذكرة أدبية تتميز بتعابيرها الفضفاضة وأسلوبها الذي غلبت عليه المحسنات البديعية من سجع وطباق وجناس وتكثر فيها الاستطرادات وتتخللها الأشعار، فكانت صورة عن ثقافة أبي عصيدة وإحاطته باللغة والصناعة الأدبية، ونظم الشعر الذي لم يذهب تكلفه بجمال صورته ورقة معانيه.

يعود الفضل في نشر رسالة الغريب مع مقتطفات من أنيس الغريب وروض الأديب للأستاذ أبي القاسم سعد الله الذي بذل مجهوداً يشكر عليه في التعريف به ومحاولة دراسة إنتاجه آملين أن يتمكن من نشر مخطوط أنيس الغريب كاملاً لحاجة المكتبة التاريخية إليه.

المراجع المعتمدة:

- أبو عصيدة البجائي (أحمد بن أحمد) رسالة الغريب إلى الحبيب، تعريف وتعليق وتلخيص أبي القاسم سعد الله، بيروت 1993.
- سعد الله (أبو القاسم) شخصيات جزائرية: رحلة أبي عصيدة البجائي من بجاية إلى الحجاز مجلة العرب «الرياض»، اكتوبر 1990. وجريدة الشعب الجزائر 22 ماي 1991.

أبو عصيدة البجائي يبرر هجرته لوطنه

وإني لما ارتحلت الرحلة الأولى لقضاء حجة الإسلام، ما أقمت بالحجاز إلا بعض أعوام، وعدت إلى أن وصلت إلى حضرة تونس بلدكم، ومثلت فيها كما علمتم بين أيديكم. فوجدت معظم من عرفناه بها من الإخوان الكرام والأيمة الأعلام، وسادات الأنام وجماً غفيراً من الكتاب وذوي الآداب وخدمة الأقلام، وكان بيننا وبينه محبة وصحبة وذمام. قد دارت عليه كؤوس الحمام، والتقطهم الموت كما يلتقط الحب الحمام، وصاروا كلهم أضغاث أحلام وخلا منهم النادي والرحيب وعاينوا من هول الموت كل عجيب، ومضوا على منهاج، ورحلوا إلى دار البلى أفواجاً بعد أفواج، ثم سألت عمن تركناه بالأوطان، من الأهل والسكان والأتراب والإخوان، الذين لم أزل مدة بعادي مستديماً له بذكرى، مشاهداً لهم وأن شط المزار بعين فكري، وكانت الأوطان بوجودهم عامرة. ووجوه الآمال بأخوتهم ناظرة. . .

إذ الـديـار ديـار والنعيـم بهـا ... والناس ناس وفي الأوطان أوطار

فإذا الديار بلاقع مقفرات، ومعارف أصبحت نكرات. . . وإذا الأحباب وجل الأتراب قد شتت شملهم هادم اللذات، وفرق جمعهم مفرق الجماعات، وصاروا في الأجداث والأكفان ولحقوا بخبر كان، فاشتد حزني لفقدهم، وتنغَّص عيشي من بعدهم. وعلمت أني لا شك لاحق بهم. فاقتصرت على الوصول، وجعلت أنشد وأقول:

ما ينفع الربع الرحيب وقد خلا ... من أهل ودي ما هم والمنزل
وكـأنمـا كـانـوا خيـالا طـارقـا ... نـادى الفـراق بجمعهـم فترحلـوا
أأروم مـن عيشـي المقـدم رجعـة ... من بعد ما ولى الزمان المقبل

هيهات والله هيهات، أن يرجع من مات، فثنيت عند ذلك عناني، وقد خامر الولهُ قلبي ولساني:

كيف النجاة وما ملكت عناني والعمر أدبر والمشيب عناني
والعمر يمضي ساعة ثم ساعة والوزر ينقل عن يدي ولساني

فما إن أتممت الأبيات حتى أتت الخيرات، وأضطرمت في الحشى من الشوق الجمرات وفاضت العبرات، وانقشعت بفضل الله سحائب الغفلة عن الناظر، وانكشف قناع الوجد عن معاينة نجد وحاجر، فانتدبت في الوقت رحيلي، وجعلت الصدق في عزم دليلي فلم يكُ غير بعيد إلا وقد رافقني التصديق وصادقني فيما أملته من التحقيق. . . وإذا بي في الحضرة العلية الفاخرة المولوية الشريفة المحمدية:

فررت من الدنيا إلى ساكن الحمى فرار محب لائذ بحبيب
أنا اليوم جار للنبي بطيبة فلا طيب في الدنيا يقاس بطيبي

وأما ما ذكرت من أمر الغربة أنه ذميم. . . يا أخي من لم يذق مرارة الفراق، لم يدْر ما حلاوة التلاق، إذا وصل الغريب إلى دار الحبيب، وجد في التقريب كل أمر عجيب وإذا وقف بالباب عرف لذة الاغتراب. . . فالعاقل يكون في نفسه غريباً وقلبه في صدره غريباً وروحه في ذاته غريباً وسره في حاله غريباً فلا يستريح من هم الغربة ما لم يصل إلى الحبيب، ومن هنا يظهر سر معنى قوله عليه السلام: «كن في الدنيا كأنك غريب». وبالحقيقة ما طاب عيش القوم إلا بعدما هجروا الأوطان. وتسلوا عن الأهل والسكان. . .

وأما ما ذكرت من نفوذ المصروف وانقطاع المألوف وخوف الحاجة إلى الناس. . . يا خي: لا بد من ترك محبوب لمحبوب إذ لا يصح الإرادة إلا بعكس العادة، ولا يعرف المعروف إلا بترك المألوف. . . فمن يستعفف يعفه الخلاق، ومن يستغن يغنه الوهاب الرزاق. . . والقناعة رأس مال اللبيب، وبضاعة الفقير الغريب.

أحمد أبو عصيدة البجائي
رسالة الغريب إلى الحبيب
تعريف وتحقيق أبو القاسم سعد الله
دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص ص 72 ـ 75.

أبو عبد الله محمد بن الشماع

(ت حوالي 873 هـ/ 1459 م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد الشماع بن محمد المرجاني الهنتاني المعروف بابن الشماع، ولد بتونس وعاش بها، وهو ينتمي إلى أسرة علم وثقافة. تولى أبوه أبو العباس أحمد الشماع قضاء محلة السلطان الحفصي أبي فارس بن عبد العزيز، وأسندت له الخطابة بجامع القصبة بتونس، وكان له جدال مع البرزلي في مسألة العقوبة بالمال أهي جائزة أم منسوخة، فاكتسب ولده أبو عبد الله خبرة وثقافة عنه، وإن لم يشتهر أمره مثله. فلم يتناوله مترجمو عصره كالتنبكتي في نيل الابتهاج ولا ابن فرحون في الديباج المذهب، على أنه عرف بخدمته للبلاط الحفصي كأبيه، كما اشتهر بما كتبه عن الدولة الحفصية، ذكر عن نفسه أنه كان يحضر مجالس أبي فارس بصحبة والده، وأنه بعد وفاة هذا السلطان الذي ارتبط به والده. استقبله السلطان المنتصر وقربه إليه وخاطبه بابن حبيبنا، إشادة بمكانة أبيه في البلاط الحفصي.

تولى أبو عبد الله بن الشماع منصب خطة قضاء الأمحال في فترة حكم السلطان أبي عمرو عثمان (839 ـ 894 هـ/ 1435/ 1488م) وحضر العديد من الأحداث ومنها الواقعة التي قادها أبو عمرو عثمان ضد الأمير أبي الحسن بن الخليفة أبي فارس عبد العزيز 840 هـ/ 1437 م التي نسبها الزركشي خطأ إلى والده. ونقل ذلك عنه برانشفيك، متناسياً أن أباه أبا العباس أحمد الشماع قد توفي في وقت سابق لهذه الواقعة (833 هـ/ 1430 م) بينما ولده عبدالله ظل على قيد الحياة حتى عام (873 هـ/ 1459 م) حيث توفي بوباء الطاعون.

ظل ابن الشماع محافظاً على مكانته في البلاط الحفصي، فبالإضافة إلى توليه منصب قضاء الأمحال اشتغل كاتباً في مكتبة القصر، الأمر الذي سمح له بالاطلاع على المصادر وتسجيل بعض الأحداث في رسالة مختصرة تناول فيها الملوك الحفصيين حاكئ فيها ميزان العمل لابن رشيق كما جاء على لسانه، مركزاً فيها على تأكيد مقام مخدومه أبي عمرو عثمان، على أن ما اشتهر به وأهّله لأن يكون أحد المساهمين في التراث التاريخي هو كتابه «الأدلة النوارنية في مفاخر الدولة الحفصية بخزانة الحضرة العلية الإمامية المجاهدية المتوكلية».

وضع ابن الشماع كتابه هذا في فترة توليه قضاء الأمحال أواخر سنة 861 هـ/ 1457 م وهدف منه إلى تخليد أثر ولي نعمته السلطان أبي عمرو عثمان، أما مضمون الكتاب كما بَيّنَ صاحبه فيشتمل على مقدمة تتوزع على خمسة أبواب، الأول يتعرض فيه إلى حدود المغرب وإفريقية وصف لمدينة طنجة.

أما الباب الثاني فكان للتعريف بمدينة تونس باعتبارها قاعدة لبلاد إفريقية. والباب الثالث خصه لبلد رادس وما يتصل به. وفي الباب الرابع أورد ذكر من غزا إفريقية من الصحابة رضي الله عنهم وما يتعلق بذلك. وأما الباب الخامس والأخير، فكان للتأكيد على وجوب طاعة ولاة الأمور، ثم أتبع ذلك بذكر من تولى إفريقية من ملوك بني حفص حتى تاريخ وضع التقييد أواخر عام 861هـ/ 1457م، وختم الكتاب بفصلين اثنين أولهما في ذكر بعض أحكام «الحرابة» والثاني في سبب دخول العرب إفريقية.

ومما يلاحظ على مادة الكتاب أن مؤلفه ركز اهتمامه على ما يتصل بالسلطان أبي عمرو عثمان أو يعود إلى فترة حكمه مهملاً الأحداث التفصيلية والوقائع التي تتصل مباشرة بموضوعه، فأهمل ذكر معلومات مهمة سبقه إليها ابن خلدون والزركشي وابن قنفذ أيضاً. وهذا ما أضعف الجانب التاريخي في كتابه وأنقص من قيمته كمصدر، وربما كان متأثراً بظروف وطريقة الحياة الخاصة، فتوجه اهتمامه إلى إظهار مباهجها ومسراتها غافلاً عن الخطة أو الطريق التي يجب عليه أن يسلكها في تقييد الأحداث وتسجيل الوقائع، ولهذا كانت المعلومات التاريخية في كتابه الأدلة النورانية زهيدة. فهو في الواقع لم يقم إلا بتوضيح بعض التواريخ

والأحداث المتعلقة بمدينة تونس خاصة، أما الباقي فهو نقل أو تلخيص دون ترتيب زمني عن كتب تناولت العهد الحفصي ككتاب ابن خلدون «العبر» وابن قنفذ (الفارسية) وابن أبي دينار (المؤنس).

تكمن أهمية كتاب الأدلة النورانية في استعماله أحياناً بعض المصادر الخاصة جعلته ينفرد ببعض المعلومات فاتت الزركشي ولم يذكرها ابن خلدون، كما ترجع أهميته كذلك في كونه نموذجاً يعبر عن ثقافة بيئته ولغة وأسلوب عَصره في مجال فن السيرة وأدب المناقب الذي تميز بإبراز فضائل الأشخاص المترجم لهم وذكر مزاياهم، ولو بتسجيل معلومات ناقصة والاستناد إلى أحاديث نبوية ضعيفة السند.

اعتنى المؤرخ عثمان الكعاك بكتاب الأدلة النورانية. فقام بتحقيقه ونشره بتونس 1936، ثم أعاد الطاهر بن محمد المعموري مؤخراً تحقيقه مع تعليقات ضافية عن العهد الحفصي 1984.

المراجع المعتمدة:

- ابن الشماع (أبو عبد الله محمد)، الأدلة النورانية. ط 1، تحقيق عثمان الكعاك، مطبعة العرب تونس 1936. ط 2/ تحقيق وتعليق: الطاهر بن محمد المعموري الدار العربية للكتاب تونس، 1984.
- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص ص 415 ـ 416.
- تراجم المؤلفين التونسيين، الجزء الثالث، ص 210.
- فهرس الفهارس، ج 2، ص 1089.
- معجم المؤلفين، ج8، ص 504.
- الإعلام، ج 5، ص 317.
- Brunschwig (R.) Ibn Echamâa historien Hafside, in, Annales de l'Institut des Etudes Orientales à Alger, TI/1934 - 35, pp. 193 - 212.6

سياسة السلطان أبي العباس أحمد الحفصي

كان المولى أبو العباس (أحمد: 772 ـ 796 هـ) ـ رحمه الله ـ شجاعاً ديناً عاقلاً سمحاً متجاوزاً مدركاً، لما خرج من سبتة لقي الأمير أبا سالم معه ثمانية رجال من الأندلس لأنه كان خرج مستخفياً. فطلبه في الوقوف معه، فوقف معه القائد بشير وغيره، وأعطى السلطان أبا سالم كسوة ملوكية وسيفاً عجيباً ليتحد بهما، وباشر القتال معه، وظهر من شجاعته ما تعجب منه. ووصل مع السلطان أبي سالم لتلمسان وزار الشيخ أبا مدين، وعاهد الله عنده ألا يكافىء من عمل معه سوءاً إلا بخير.

ولما رجع إلى بلده قسنطينة ـ كما مر ـ وفي بما عهد إليه. فلم ينل أحداً بمكروه ممن كان فعل معه سوءاً وقت استيلاء الأمير أبي عنان على قسنطينة. ولما تحرك إلى تونس ولّى ولده الأمير أبا عبدالله بجاية وولّى القائد فارح قصبة قسنطينة والقائد بشير قيادة الوطن القبلي. ثم ولّى ولده الأمير أبا إسحاق بعد ذلك قسنطينة لنظر القائد بشير لصغر سنه إلى أن توفي القائد بشير سنة ثمان وسبعين، فاستقل الأمير أبو إسحاق بقسنطينة، ولما ملك المولى أبو العباس إفريقية رفع أنواع الفساد وأمن الطرق والبلاد. وأقام هيكلاً جميلاً ورتب مجلساً جليلاً، وعقد للمولى أبي يحيىٰ على بجاية، ورعى لابن تافراجين حق انحيازه إليه، فجعله رديفاً لأخيه. ثم شغبت العرب على السلطان لأنه مسك أعنتهم عن التغلب والاستبداد، وانتزع ما بأيديهم من الأمصار.

وربما وشي إلى السلطان أن حاجبه أبا عبد الله ابن تافراجين داخل العرب بالفساد فقبض عليه، وبعث به في البحر إلى قسنطينة. فلم يزل بها معتقلاً إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين (778 ـ 1376).

ثم لم يزل السلطان يحاول أمر العرب إلى أن ظفر بهم وقطع دابرهم وافتتح بلاد قفصة، وعقد عليها لولده المولى أبي بكر. وأخذ شيوخها من بني العابد، واستولى على أموالهم، وافتتح توزر واستولى على ذخائرهم، وذخائر شيخها ابن يملول، وعقد عليها لولده المولى المنتصر.

أبو عبدالله محمد
الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية
تحقيق وتعليق الطاهر محمد المعموري.
الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص ص 109 ـ110.

أبو عبدالله محمد الزركشي

(ت بعد: 894 هـ/ 1488 م)

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المدعو بالزركشي والمعروف باللؤلؤي نسبة لجده اللؤلؤ المملوكي الأصل الذي استوطن تونس واندمج في وسطها، ولد الزركشي بمدينة تونس حوالي سنة 830 هـ/ 1417 م. وتلقى تعليمه بها على يد علماء عصره بتونس منهم أحمد القلشاني. ومحمد بن عمر القلشاني، وأحمد القسنطيني، ومحمد البيدموري التريكي، وأبو البركات محمد بن عصفور، ومن الراجح أنه اشتغل بالكتابة بأحد دواوين الدولة، وأثناء ذلك اهتم بالتأليف وظل بمسقط رأسه تونس حتى وافته المنية بعد سنة 894 هـ/ 1488.

عاش الزركشي الفترة الأخيرة للحكم الحفصي التي تميزت بعدم الاستقرار والاضطراب وبتدخل الإسبان والأتراك في شؤون تونس، فانصب اهتمامه على تسجيل الأحداث التاريخية وبحث المسائل اللغوية، فقام بشرح قصيدة «الدمامينية» وهي قصيدة رائية في تسع وتسعين بيتاً مطلعها:

تجنى فأخفى الجسم والوجد يظهر   ولا ينكر الإخفاء فاللحظ يسهر

وهي لبدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني الإسكندري نظمها عام 793هـ/ 1390م في مدح ابن العباس الحفصي والشرح كان بعنوان «بلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني» ترجم فيها لبعض شعراء عصره حسب ما أفاد به الشيخ ماضور، وقد أولى اهتمامه للألقاب والتعابير اللغوية دون تفصيل الأحداث التاريخية التي أشار إليها.

هذا وقد اشتهر محمد الزركشي بكتابه الذي ألفه حول تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية الذي انتهى من وضعه في شهر محرم من عام

882 هـ/ 477 م. وقد ألحقت به تقاييد حول بعض الأحداث، إلا أن هذه التقاييد قد تكون من وضع نساخ متأخر عنه، ولهذا نستبعد ما ذهب إليه محمد ماضور وأخذه عنه محمد محفوظ من أن الزركشي يكون قد توفي سنة (883 هـ/ 1478 م) اعتماداً على ما أورده ابن أبي دينار في مؤنسه نقلاً عن الزركشي في حديثه عن ولاية الحسن بن محمد المسعود الحفصي.

خصص الزركشي كتابه «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» لأخبار إفريقيا والمغرب على عهد الموحدين والحفصيين. فاستعرض في مستهله دعوة المهدي محمد بن تومرت وتأسيس الدولة الموحدية على يد عبد المؤمن بن علي الكومي، وتوسعها ببلاد المغرب ونجاحها في طرد النورمان من السواحل وتخليص المهدية (555 هـ/ 1160 م) كما تحدث عن يعقوب أبي يوسف، ومحمد الناصر، ويوسف المنتصر، دون أن ينسى الإشارة إلى اضطراب أمر الموحدين وضعف دولتهم، ثم يخلص الزركشي بعد ذلك إلى تاريخ الحفصيين بتونس فاستعرض أخبارهم منذ توليهم أمر إفريقيا بأمر الناصر الموحدي وتأسيسهم دولة خاصة بهم في عهد أبي زكريا يحيىٰ بن عبد الحق الذي بايعه أهل الأندلس أملاً في أن يكون عوناً لهم في صراعهم مع النصارى، بعد ذلك يذكر الزركشي بشيء من التفصيل حكم محمد المستنصر الذي اكتسب لقب الخليفة، ويحيىٰ الواثق وأبو إسحاق إبراهيم وعمر بن أبي زكريا، وزكريا بن اللحياني، ومحمد أبي ضربة. وأبي بكر يحيىٰ، وأبي حفص عمر بن أبي بكر، وأبي العباس أحمد بن أبي بكر، بالإضافة إلى استعراض العلاقات بين الدول المغربية وتمكن المرينيين من احتلال تونس في عهد أبي الحسن المريني (748 هـ/ 1347م) ورجوع الأمر بعد ذلك إلى الحفصيين ببيعة أبي العباس الفضل بن أبي بكر، ثم محاولة أبي عنان المريني مهاجمة تونس وتراجعه عنها (760 هـ/ 1357 م) كما أورد الأحداث التي ميزت حكم السلاطين الحفصيين المتأخرين وهم: أبو البقاء خالد بن إبراهيم، وأبو العباس أحمد بن محمد الذي تعرضت في عهده المهدية لحملة صليبية (792 هـ/ 1389 م) وأبو فارس عبد العزيز الذي جدد قوة الحفصيين بضبطه أمور الدولة وسيطرته على تلمسان لفترة، ومواجهته للنصارى.. (القاطلانيون) 827 هـ/ 1423 م ومحمد

المنتصر الحفصي، وأبو عثمان 839 ـ 893 هـ/ 1435 ـ 1488 م الذي عاصره الزركشي وأفاض في ذكر رجال دولته كما أشاد بمآثره وعظمة دولته بمثل قوله: «إن الدولة الحفصية قد ظهرت في أيامه أتم الظهور. . . وأنه قد انصلحت به البلاد والعباد». لكن كتاب الزركشي ينتهي بشكل مفاجيء في مستهل عام 882 هـ/افريل 1477 م فيوحي هذا التوقف للقارىء بأن الزركشي ربما كان ينوي إتمام كتابه فيما بعد بدليل أنه أورد واقعة يعود تاريخها إلى شهر جمادى الثانية (887 هـ/ 12 أوت 1482 م) وقد أثبت في آخر الكتاب تذييلاً حدد فيه تاريخ الحكام الموحدين والحفصيين إلى سنة (839 هـ/ 1435 م).

اعتمد الزركشي في الفترة الأولى من كتابه على من سبقه من المؤرخين وفي مقدمتهم ابن خلدون في عبره، وابن قنفذ في فارسيته، وابن النخيل في تاريخ الدولتين، وأحمد بن محمد الغرناطي، أما بالنسبة للفترة المتأخرة للدولة الحفصية التي عاصرها فقد استند إلى روايات بعض معاصريه أمثال شيخه أحمد، والقلشاني، ثمّ إلى التقاييد التي كانت متوفرة في بعض المكتبات الخاصة وإلى دفاتر ودواوين الدولة، وهذا ما يجعله المصدر الأساسي الذي يتمم تاريخ ابن خلدون فيما يتعلق بتاريخ الدولة الحفصية حتى عهد السلطان عثمان الحفصي (887 هـ/ 1482 م) فلم يتجاوزه أي مؤرخ لتلك الفترة. ولم يماثله في موضوعه سوى ابن الشماع، وهذا ما يؤكده ابن أبي دينار في مؤنسه حيث يقول: «وهنا انتهى النقل الذي قيده الزركشي ولم أطلع على ما سواه إلا ما تلقيته من أهل الحاضرة (يقصد روايات سكان مدينة تونس).

أخذ الزركشي في تقييد الأحداث بالترتيب الزمني بأسلوب روائي شيق يميل إلى الاضطراب في بعض الأحيان، مع نزوع إلى الاختصار مستعملاً العبارات القصيرة التي يبتدئها قائلاً: «وفي يوم. . . وفي سنة. . . وفي عام. . . ويعني السنة السابقة الذكر. . . وفي حدود العام المذكور. . . ثم بويع. . . ثم بلغهم الخبر. . . ولما حل». كما يتخلل أسلوب الزركشي بعض الألفاظ العامية. والتعابير الضعيفة مع بعض الأغلاط اللغوية والنحوية التي لم تنقص من قيمة الكتاب. . . بل عكست

بصدق مستوى ثقافة عصره، ومميزات مجتمعه.

أما المعلومات التاريخية التي تضمنها كتاب الزركشي فهي محدودة بالنسبة للأحداث السياسية لكنها غنية فيما يتصل بالمنشآت الثقافية والدينية والاقتصادية مثل الزوايا والمساجد والمدارس والحنايا والمارستانات ودار الصناعة وتنظيمات الدولة والوظائف التي كانت على عهده من قبيل كاتب قلم الجباية، وكاتب العلامة، والمزوار، والمفاتي، وقضاة الجماعة والأنكحة، وقد توسع في ذكر الكتاب والقضاة والأئمة، والفقهاء، والصلحاء والأدباء وغيرهم فهو يذكر مثلاً: «أبا البركات بن عصفور، وأحمد الكماد، ومحمد البوني، وأحمد العقباني، وابن الخطيب القسنطيني (ابن قنفد) وحازم القرطاجني، وأحمد القلشاني، وإبراهيم ابن عبد الرفيع، وأحمد عبد السلام، وبلقاسم الوشتاني القسنطيني، والإمام محمد بن عرفة، والإمام المازري، والإمام محمد الونشريسي، ومحمد البيدموري، وأبا الحسن اللحياني، والمرابط سيدي أحمد بن عروس، والولي سيدي أبا سعيد الباجي، وأحمد الشماخ صاحب الأدلة وغيرهم.

يعتبر كتاب الزركشي من الكتب التاريخية المختصة التي تعالج موضوعاً واحداً تمثّل في تاريخ الدولة الموحدية وخلفائها من الحفصيين لفترة تزيد على أربعة قرون من القرن السادس وحتى القرن التاسع للهجرة، (ق 12 ـ 15 م) وهو المصدر الأساسي إن لم يكن الوحيد للفترة الحافلة بالأحداث وهي القرن الثاني عشر للهجرة الخامس عشر للميلاد مما جعله مرجعاً أساسياً للمؤرخين المتأخرين وفي مقدمتهم ابن أبي دينار صاحب «المؤنس» وابن أبي الضياف صاحب «الإتحاف» وذلك لعدم توفر مصدر أساسي آخر عن الفترة الأخيرة من الدولة الحفصية باستثناء ما قيده أحمد بن الشماع (ت 833 هـ) في الأدلة البينة النورانية.

هذا وقد طبع تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية بالمطبعة الرسمية التونسية (1289 هـ/ 1872 م) في 155 ص) وترجمه إلى الفرنسية فانيون Fagnan ونشره، بقسنطينة 1895 ثم قام بتحقيقه ووضع مقدمة له مع فهارس وتعليقات الشيخ محمد ماضور، ونشر بتونس (1966).

المراجع المعتمدة:

- الزركشي (أبو عبدالله محمد)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تعليق وتحقيق محمد ماضور ط 2، المكتبة العتيقة تونس 1966.
- الأعلام، ج 6، ص 192.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 248. ـ 249.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، ص ص 413 ـ 415.
- معجم المطبوعات ص 1600.
- كحالة (عمر)، معجم المؤلفين، ج 8، ص 214.
- دليل مؤرخ المغرب، ص 164.
- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص ص 415 ـ 416.
- مشاهير التونسيين، ص 502.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص 558.

- Fagnan (M. S.) Chronique des Almohades et des Hafsides attribuée à Zarkasi, trad. française d'aprés l'édition de Tunis et troix manuscrits, Constantine 1895.

تغلب السلطان أبو فارس عبد العزيز على مناوئيه

وكان صاحب بجاية الأمير أبو الحسن ابن المولى الخليفة أبي فارس عبد العزيز قد دعا لنفسه ببجاية وبويع بها لما بلغه موت الخليفة أبي عبد الله محمد المنتصر فلما انصرف أولاد أبي الليل عن الحضرة خائبين، وفدوا عليه واستدعوه إلى الحضرة فأجابهم ونازل معهم قسنطينة، فحاصرها وضيق عليها نحو شهر يغاديها القتال ويراوحها فوقف له قائدها نبيل وقاتله ومنعه عنها، فرحل خائباً قاصداً للحضرة ومعه شيخ الدواودة عيسى بن محمد، وكان المولى السلطان خرج بمحلته للقائه ووفد عليه سباع بن محمد شيخ الذواودة فكان في جملته وقدم المولى السلطان بين يديه قائده محمود يحشد الحشود من الحنانشة وقرفة فوفد عليه أصحاب الأمير أبي الحسن فحملوه إليه فبايعه ووقف معه وأشار عليه بمناجزة المولى السلطان الحرب قبل كمال عساكره، وقبل قدوم العرب عليه وكان أبو النضر القائد محمود بمحلة المولى الخليفة، فلما سمع بما وقع لأبيه فر ولحق به وأمر الخليفة بالقبض على قائد بونة محمد ابن القائد محمود المذكور، فاعتقل بالحضرة إلى أن أطلق بعد حين وسار المولى الخليفة بعساكره ومعه أولاد مهلهل ومن أنضاف إليهم، إلى أن قرب من سراط فوفد عليه في مساء الليلة التي كانت المعركة صبيحتها شيخ حكيم سعيد بن أحمد ومعه أتباعه من حكيم وبني علي وغيرهم، فالتقى الجمعان بإزاء وادي سراط بقرب تيفاش يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ربيع الأول عام أربعين وثمانمائة واجتمع به ذلك اليوم بذلك الموضع عرب إفريقية كلها، فصفت الصفوف ووقف المولي الخليفة في وسطها فلما رأى أصحاب الأمير أبي الحسن كثرة ما وفد على الخليفة من الجيوش ندموا إذ لم يناجزوهم الحرب في أمس ذلك اليوم، ثم قووا عزائمهم وحملت ميمنتهم على ما يقابلها فهزمتهم ثم حملت ميسرتهم كذلك. حدث عن الشيخ الفقيه

أبي العباس أحمد الشماع قاضي المحلة حينئذٍ قال كنت واقفاً في ذلك اليوم في موضع مرتفع فرأيت أمير المؤمنين لما رأى ما نزل بميمنته وميسرته دفع بأهل الحفيظة وجماعة الحفصيين وذوي الصدق في وجوه العدو ولم يبال بهضم جناحيه وقصد نحو الأمير أبي الحسن فتفرقت فرق الفتح وأهل الظفر وتفرقت عن الأمير أبي الحسن أصحابه وقتل منهم، وكر أصحاب السلطان لما رأوا النصر من قبله فبقي الشرار من ضحوة النهار إلى العصر وأفلت الأمير أبو الحسن بفرسه طالباً نجاة نفسه وأسلم محلته وأصحابه فأخذهم النّهب وما أيقن هو بدخول بلد بجاية مع من خف من أصحابه فقفل السلطان راجعاً إلى حضرته فدخلها منصوراً ظافراً.

أبو عبد الله محمد الزركشي
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية
تعليق وتحقيق محمد ماضور، تونس 1966، ص ص 137 ـ 148

النزاع بين الأمراء الحفصيين

وفي أوائل رجب من العام المذكور ورد الخبر لتونس بأن الأمير أبا الحسن المذكور اجتمع عليه خلق كثير مَن وطن بجاية وأنه ضيق عليها وأخذ بمخنقها، فبعث السلطان عسكراً لنصرتها وأعطى السلف ورحل ثامن شعبان من العام المذكور بجيوشه مغرباً وكان لمحمد بن سعيد السيليني ابن عم قد استولى على وطنه وأخرجه منه وأعانه على ذلك صاحب بجاية الأمير عبد الملك فقدم بسكرة وطلب من قائدها أبي زيد عبد الرحمٰن الكلاعي على أن يحسن لمن يأتيه من أهل وطن حمزة، ليكون ذلك سبباً للاحتيال على الأمير أبي الحسن فيأمن، فجاء من يحذره من أهل وطن حمزة فصدق ذلك عنده إحسان قائد بسكرة إليهم، فخرج من عندهم فاراً بنفسه ولحق بابن صخر المذكور، ونزل عند صهره سعيد بن عبد الرحمٰن بن عمر بن محمد بن سعيد المذكور فتحدث محمد بن سعيد مع أحمد بن علي من الذواوذة ومع قائد قسنطينة أبي علي منصور المزوار، فالتزم له القائد المذكور الوفاء بجميع ما يطلب إن قبض عليه. فلما خرج المولى السلطان بمحلته من حضرته مغرباً بعث ابن صخر المذكور إلى قائد قسنطينة بأن يكون قريباً منه بعسكره، ففعل ثم إن ابن صخر أخبر ابن عمه سعيد بن عبد الرحمٰن بما تحدث به من القبض على الأمير أبي الحسن وطلب منه المساعدة فعظم ذلك عليه ثم إنه رأى أنه لا بد له من ذلك فاتفقا معاً على القبض عليه فأخذاه بمحاولة وطيرا بالخبر إلى القائد أبي علي منصور المذكور قائد قسنطينة فأتاهما بمن معه فأمكناه منه ثم بعث القائد ولده علياً مع سعيد ابن عبد الرحمٰن المذكور للسلطان فأخبراه بذلك فوجه شيخ الموحدين الشيخ أبا عبدالله محمد بن أبي هلال مع القائد علي الواصل المذكور بعسكر. فقدما على القائد بموضع يعرف بأيكجان يوم عيد الفطر فأمكنهما من الأمير أبي الحسن فارتحلا به مقيداً راكباً على بغلة ثم توقعا أن يفلته العرب من

أسره قبل وصوله إلى المولى السلطان، فلما كانت ليلة الثالث من شوال أمرا به فذبح بموضع بطرف السبخة ودفنت جثته هناك وبعثا برأسه إلى السلطان مع البريد فقدم به عليه في الرابع لشوال المذكور وهو متوجه إليه فوضع بين يديه ثم نصب على قناة بالسوق حتى رآه الناس وتحققوه ثم أمر بدفنه فدفن هنالك. ثم رحل السلطان بمحلته قاصداً لبجاية وبعث لصاحبها ابن عمه الأمير أبي محمد عبد الملك ليقدم مع كبار بلده للقائه ليجدد به عهداً فقدم وجوه البلد وتلكأ هو عن القدوم فوجه إليه المولى السلطان قاضي المحلة وبعض الفقهاء والمرابطين فرغبوه في القدوم فقدم معهم في يوم الاثنين ثالث عشر شوال المذكور فوجد الخليفة ينتظر بأبي بحاب بمقربة من جبل أولاد رحمة فبات ليلة بالمحلة ثم قبض عليه بها من الغد وقيد وعقد على بجاية للقائد منصور المذكور وصرفه إليها مع وجوه أهلها وانكفأ راجعاً بمحلته وعقد في طريقه على قسنطينة للقائد فارح ابن القائد منصور المذكور وصرفه إليها وصار متوجهاً لحضرته في يوم الاثنين موفى عشرين ذي الحجة مكمل عام ستة وخمسين.

أبو عبد الله محمد الزركشي،
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية،
تعليق وتحقيق محمد ماضور، تونس، 1966، ص ص، 145 ـ 146

أبو عبدالله محمد بن عبدالله التنسي

(ت 899 هـ/ 1494 م)

الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبد الجليل التنسي التلمساني، من الراجح أنه ولد بتنس حوالى 820 هـ/ 1417 م. نشأ وتعلم بتلمسان فقرأ العلوم الفقهية واللغوية والفنون الأدبية عن شيوخها وهم: محمد بن مرزوق الحفيد، وأحمد بن زاغو المغراوي، ومحمد بن إبراهيم بن الإمام، والولي محمد البخاري، ومحمد بن النجار، وقاسم بن سعيد العقباني، وأبو علي الحسن بن مخلوف أبركان الراشدي، وإبراهيم التازي، والإمام محمد بن العباس التلمساني.

لا يعرف إلا النادر عن حياة محمد التنسي بتلمسان حيث اشتغل بالتعليم والإفتاء وأخذ عنه عدة علماء مشهورين مثل أبي عبدالله محمد بن صعد صاحب النجم الثاقب فيما للأولياء من المناقب، وأحمد زروق البرنسي وأحمد بن داوود الأندلسي، والخطيب بن مرزوق الحفيد، ومحمد بن العباس الصغير، وأبو القاسم الزواوي. وأحمد بن الحاج اليبدري. وقد وافته المنية سنة 899 هـ/ 1494 م.

اشتهر محمد التنسي في رواية الحديث والأدب والتاريخ ومال إلى اقتباس الأشعار والطرائف وتسجيل الأحداث والروايات. وصفه تلميذه أحمد بن داوود الأندلسي نقلاً عن أبي مريم في البستان بـ «شيخنا الفقيه الحافظ قدوة الأدباء»، كما ذكر عن ابن داوود قوله عند مغادرته تلمسان «إن العلم بها مع التنسي والإصلاح من السنوسي. والرياسة مع ابن زكري» هذا وقد نعت أحمد بابا التمبوكتي في نيل الابتهاج محمد التنسي بـ«الفقيه الجليل والأديب المطلع» وأشار إليه الونشريسي بقوله: «الفقيه الحافظ التاريخي الأديب الشاعر» وقال عنه المقري «شيخ شيوخ شيوخنا» وسماه «حافظ عصره».

ترك محمد التنسي عدة مصنفات أهمها:

- «نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان» موضوع هذه الترجمة.
- «روح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح ويوافق ذلك على حسب الاقتراح» وهو مجموعة قصائد أبي حمو مع قصائد أخرى مدحه بها شعراء مثل محمد الثغري ومحمد التلاليسي. ضاعت ولا يعرف عنها إلى ما نقله أحمد بابا التمبوكي في نيل الابتهاج.
- «الطراز في شرح ضبط الخراز» وهو شرح لأرجوزة موارد الظمآن لمحمد الخراز الفاسي، وهي في رسم أحرف القرآن أثبت بعضها الونشريسي في معياره.

وله أيضاً فهرس بأسماء شيوخه وتعليق على مختصر ابن الحاجب وفتاوى عديدة منها جوابه عن مسألة يهود توات عن سؤال وجهه إليه الشيخ عبد الكريم المغيلي، وقد أظهر محمد التنسي في فتواه هذه اطلاعه الواسع في علوم الشريعة، وهذا ما أشار إليه الإمام السنوسي بقوله: «ولم أر من وفق لإجابة هذا المقصد سوى الإمام القدوة علم الأعلام العالم الحافظ المحقق أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي. . .» كما ينسب للتنسي أيضاً مصنف في تاريخ السلطان محمد المتوكل، وكتاب حول إسلام أبي طالب وهما في حكم المفقود.

اشتهر محمد التنسي بكتاب «نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان» الذي انتهى من وضعه عام «868 هـ/ 1464 م» وجعله في خمسة أقسام مع مقدمة وخاتمة، فقد بدأ المقدمة بمدح مسجوع تقدم به إلى السلطان أبي ثابت محمد المتوكل (866 ـ 873 هـ/ 1461 ـ 1468 م)، وضمن الأقسام الخمسة أبواباً عدة فجعل في القسم الأول سبعة أبواب خص الأخير منها لتاريخ بني زيان تحت عنوان «في بيان شرف بني زيان وتتابع دولتهم إلى دولة المتوكل فخر الزمان» وقد بدأه بولاية جابر بن يوسف واستعرض فيه الحكام الزيانيين وهم على التوالي: يغمراسن بن زيان، أبو سعيد عثمان، أبو زيان محمد، أبو حمو موسى، أبو تاشفين، أبو ثابت، أبو الحاج يوسف، أبو زيان محمد، أبو محمد عبدالله، أبو عبدالله محمد، عبد الرحمٰن بن

محمد، السعيد بن أبي محمد، أبو مالك عبد الواحد، أبو عبدالله محمد بن الحمراء، أبو العباس محمد، أبو عبد الله المستعين بالله، وأبو عبد الله المتوكل.

أما الأبواب الستة الأخرى من القسم الأول فهي عرض في الأدب والظرف وكيفية الحكم، الباب الأول في ذكر نسبه الطاهر (أي نسب محمد المتوكل) والثاني في فضل العرب وخصوصاً المضرية منهم، والثالث في بيان شرف قريش وخصوصاً بني عبد مناف، والرابع في بيان شرف بني هاشم وخصوصاً الطالبيين منهم، والخامس في شرف علي وبنيه وخصوصاً الحسن والحسين، والسادس في بيان شرف عبدالله الكامل، وخصوصاً الأدارسة منهم.

وكل هذه الأبواب من القسم الأول لا تختلف كثيراً عن باقي الأقسام الأربعة الأخرى التي يغلب عليها العرض الفكري والأدبي، وهي كالتالي: القسم الثاني في ثلاثة أبواب: وهو يتصل بشروط الإمارة وسلوك الملوك وقضائهم وعدلهم (فيما يخص الملك من الخصال) والقسم الثالث في ثلاثة عشر باباً وهو حكايات وأخبار مختلفة عن الأمم الماضية (ذكر ملح ونوادر مستطرفة). القسم الرابع وفيه ثمانية أبواب في محاسن اللغة العربية شعراً ونثراً (في محاسن الكلام المستعملة في النثر والشعر) أما القسم الخامس فبه خمسة أبواب وهي عبارة عن مقالة في الأخلاق والفلسفة (في ذكر المواعظ والحكم عن مختلف الأمم) أما الخاتمة فتعرض فيها لأصل العرب وأدرج فيها سبع قصائد للسلطان أبي حمو الزياني.

ضمن التنسي كتابه نظم الدر والعقيان صنوفاً من الأدب والمعلومات، فقد أثبت فيه قصائد شعر ومقتطفات من النثر وأدرج فيه آراءه حول سياسة الملك وشؤون الحكم شأنه في ذلك شأن أبي حمو موسى الثاني في كتابه واسطة السلوك في سياسة الملوك. بحيث أصبح موسوعة في الثقافة العامة أكثر منه تأليفاً في موضوع التاريخ وهذا ما جعل الباب السابع من القسم الأول يكتسي أهمية خاصة لأنه الباب الوحيد الذي ينصب أساساً على تاريخ بني زيان، ويظهر لنا مكانة التنسي في تسجيل ورواية الأحداث، ويبرز لنا مدى ارتباطه بالحكام الزيانيين، ومع ذلك فالتنسي في هذا الباب الخاص بالتاريخ لا يستطيع التخلص من نزعته

الأدبية وميله لاقتباس القصائد إذ ضمن هذا الباب الخاص بتاريخ بني زيان قصائد عدة لأبي حمو وغيره، كمحمد بن يوسف الثغري، وأعطى مكانة خاصة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف الذي كان مناسبة للإنشاء وقراءة القصائد لا سيما في عهد أبي حمو الذي أشار إليه بقوله: «وما من ليلة مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيد في مدح المصطفى ﷺ وأول ما يبتدىء المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظماً». ومن الملاحظ أن التنسي لا يلتزم العرض الموضوعي للأحداث بل يفرط في التملق والمبالغة في وصف المحاسن وإغفال العيوب دون حجة أو برهان وربما كان ذلك اعترافاً بالجميل كما يظهر في قوله: «واستعملت في ذلك ما رجوت أن يكون نافقاً من بضاعتي... عسى أن أقوم ببعض واجب نعمته علي...» وقد دفعه ذلك إلى حد القول بأن جميع بطون بني عبد الواد من زناته، إلا بطن بني القاسم الذي ينتسب إليه ملوك تلمسان فإنه من الأشراف، وقد ظل محمد التنسي على إخلاصه للمتوكل فلم يمدح غيره. ولم يشد بالحكام الذين تعاقبوا على حكم تلمسان مع أنه عاش أكثر من ربع قرن بعد انتهاء حكم المتوكل الذي ارتبط به في كتابه نظم الدر والعقيان.

هذا وقد جاء ما سجله محمد التنسي من تاريخ بني عبد الواد (في الباب السابع من القسم الأول) خالياً من التكرار والحشو والإطناب أو الشروح أو ذكر للخرافات والكرامات كما غلب عليه الترتيب المنطقي والاختصار في تناول حياة الحكام الزيانيين مكتفياً بذكر أشهر الأحداث وأهم التواريخ والأسماء مع إشارات عابرة للقضايا التي تقتضي الإطالة، وذلك بأسلوب لغوي رصين مسترسل تتخله المحسنات اللفظية الشائعة في عصره والتي لا تنقص من وضوح المعنى وحسن العرض وجودة السبك.

يعتبر نظم الدر والعقيان من التواريخ السلطانية التي تعتمد على السرد التاريخي وتميل إلى تسجيل الملاحظات الشخصية والروايات المتداولة حول الحكام، فهو قريب الشبه من اللمحة البدرية لابن الخطيب وبغية الرواد ليحيىٰ بن خلدون، والفارسية لابن قنفذ، وتعود أهميته الخاصة إلى تلك المعلومات

التاريخية التي تضمنها وإلى الفترة التي تناولها، فهو يغطي الفترة الزمنية التي لم يتعرض لها صاحب زهرة البستان الذي ينتهي إلى عام 764 هـ/ 1363 م ولم يتناولها يحيىٰ بن خلدون في كتابه بغية الرواد الذي توقف عند سنة 777 هـ/ 1376 م وما سجله عبد الرحمٰن بن خلدون في كتابه العبر والذي وصل في أخبار بني عبد الوادي إلى عام 796 هـ/ 1393 م. وبذلك ينفرد نظم الدر والعقيان للتنسي بالفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الزيانية إلى سنة 868 هـ/ 1464 م هذه الفترة التي باستثناء ما سجله التنسي عنها لم تحظ إلا بنتف مقتضبة وإشارات عابرة من الكتاب المتأخرين عن التنسي مثل المقري في نفح الطيب وعبد الباسط ابن خليل في «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» وبابا أحمد التمبوكتي في نيل الابتهاج، وابن مريم في البستان، هذا ويلاحظ أن نسخة الدر والعقيان التي نشرها الباحث الألماني هارس كوريو بألمانيا 1983 وتتضمن ذكراً للحكام الزيانيين بعد التنسي منذ المتوكل وحتى استيلاء الأتراك على تلمسان قد تكون من وضع المؤرخين المتأخرين عنه أو مقتبسة من غزوات عروج وخير الدين.

المراجع المعتمدة:

- التنسي (أبو عبد الله محمد)، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، (قسم تاريخ بني زيان ملوك تلمسان)، حققه وعلق عليه ونشره محمد بو عياد، الجزائر، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر 1985.
- التنسي (أبو عبدالله محمد)، تاريخ دولة الأدارسة، (قسم من كتاب نظم الدر والعقيان)، تحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات. الجزائر 1984.
- نفح الطيب، في صفحات عديدة من الأجزاء (1 ـ6).
- نيل الابتهاج، ترجمة 697 ص ص 572 ـ 573.
- البستان، ص ص 248 ـ 249.
- كشف الظنون، ص 1109.
- الزركشي، (محمد بن إبراهيم) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1966.

- فهرس الفهارس، ج 1، ترجمة 106، ص ص 267 ـ 268.

- تعريف الخلف برجال السلف، القسم الأول، ص ص 164 ـ 165.

- الأعلام، ج 1، ص 116.

- أعلام الجزائر، (ط 1971) ص ص 150 ـ 160.

- بو عياد (محمود)، محمد التنسي، مؤرخ بني زيان، الثقافة (الجزائرية)، عدد 44 ـ 1978 ص ص 71 ـ 84.

- بو عياد (محمود)، آثار محمد التنسي، مؤرخ بني زيان، الثقافة (الجزائرية) عدد 47 ـ 1978 ص ص 39 ـ 51.

- بلحميسي (مولاي) التنسي، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 5/1968 ص ص 30 ـ 34.

- حجازي (حسن علي طروة)، حضارة تلمسان في عهد بني زيان، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، 1994 ص ص 222 ـ 226.

- Barges (J. J.L) Histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen, trad du Nazam Al - Dur Wal Iqyân d'Al - Tenaci, Paris 1852.

- Barges (J.J.L.) Complément de l'histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen, Paris 1887.

- Cherbonneau (A.) Notice sur Mohamed et - Tanaci, historien des Beni Zeiyan, in Africaine N° 3\1856, p. 212 - 215.

- Cherbonneau (A.) Lettre à M. Defremery Sur Mohamed El-Tanaci et sur les historiens des Beni Zeiyan, in Journal Asiatique, 4e Série T. XVIII\1851 pp. 585 - 591.

- Lévi - Provençal Et enaci,in Encyclopédie de l'Islan, T IV, p 681.

- Kurio (Hars) Geschichte und Geschichtsschreiber der Abd - Al-Wadiden, Miteiner feiledition des Nazm Al. Durr des Muhammad Abd- al Galil At. Tanasi, Freiburg 1983.

انتصار المتوكل الزياني على المناوئين له

ولما كانت سنة ست وستين نهض مولانا المتوكل من مليانة متوجهاً إلى المغرب والنصر أمامه فاستولى على وطن بني راشد ثم على هوارة ثم افتتح مستغانم وتزغران ثم عمد إلى وهران فافتتحها ثم توجه إلى تلمسان فأقام عليها يومين ودخلها في الثالث وهو يوم الاثنين أول يوم من جمادى الأولى من السنة المذكورة، ففر الأمير أحمد إلى العباد واستجار بقبر الولي القطب الغوث شيخ الشيوخ السيد أبي مدين شعيب بن الحسين الأنصاري أفاض الله علينا من بركاته وأنواره، ثم بويع الملك الكامل الماجد الفاضل...

مولانا أبو عبدالله بن مولانا أبي زيان محمد بن مولانا أبي ثابت ثبت الله فيما أولاه من خلافته قدمه، ورفع على سائر الملوك علمه، وأبقاه للمجد يعلي مقامه، ويحيي مكارمه، فهو اليوم ملك حضرة الكمال، المرتقي فوق ذروة الجلال لا زال النصر له خديماً، والسعد له نديماً، فقد خص أعلى الله مناره بأمور لم تكن في غيره، منها حصول الشرف له من أبويه جميعاً فإن والده المولى محمد بن أبي ثابت ابن أبي تاشفين بن أبي حمو بن أبي يعقوب بن أبي زيد ابن أبي زكرياء بن أبي يحيىٰ يغمراسن بن زيان، وأمه المولاة أمة العزيز بنت محمد بن أبي الحسن بن أبي تاشفين ابن أبي حمو بن أبي سعيد بن أبي يحيىٰ يغمراسن بن زيان...

ومنها منته على السلطان أحمد الذي اختلعه فإنه تمكن منه ولم يعرض له بسوء، بل أحسن إليه وصرفه للأندلس مكرماً تقية عليه من ألسنة الناس، فما كان جزاءه عنده إلا أنه سعى في جوازه إلى هذه العدوة وجمع إليه العرب والبرابر، وجاء إلى تلمسان فحاصرها أربعة عشر يوماً. فنصر الله مولانا المتوكل، فتمكن منه فعاجله بمنيته في عشاء يوم الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة، متم سنة سبع

وستين، وجيء به إلى يد مولانا المتوكل فدفنه بالعباد، وكان معه في تلك الحركة الأمير محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي عثمان بن أبي تاشفين، فتمسك بأهل الشقاق، . فتعلقوا بدعوته وراموا إطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره، فأقاموا أياماً محاصرين لتلمسان ودخل بعض المتلصّصين منهم البلد ليلاً فقام عليهم أهل البلد فقتل بعضهم وفر الباقون، فعندما يئسوا من أمانيهم كما يئس الكفار من أصحاب القبور، فارتحلوا وتفرقت جموعهم، فمنهم من راجع خدمة أمير المسلمين المتوكل ومنهم من تمادى على غيه، وصدر الأمير محمد بن غالية إلى وجدة فاستقر بها لقصد الإضرار، فكانت فئة الباغية ربما تأتي بغتة خفية فتعيث في بعض الرعية وتفرّ قبل وصول الجند إليها، فحمله ذلك على الشره إلى ما فيه حتفه، فجاء مع أوباش تجمعوا عليه إلى جبل بني ورنيد، فنمى خبره إلى الحضرة فبعث أمير المسلمين إليه من حضر من جنده المنصور فالتقوا معهم بالجبل المذكور. فما كان أسرع من أن تفرق جمعهم بعد قتل ذريع وقع بهم، فكان أيضاً من جملة الصرعى، فقتل عشية الثلاثاء الثالث عشر لشوال سنة ثمان وستين، وأخذ رأسه وجيء به حتى وضع بين يدي أمير المسلمين مولانا المتوكل في طست صفر ودعي العارفون به حتى ميزوه وعرفوا عينه، ثم جيء من الغد بجسده فدفن مع صاحبه بالعباد، فسبحان المدبر الحكيم، وبموته تحسمت العلل وغلت أيدي المفسدين.

الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي
نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان
من الباب السابع: شرف بني زيان وتتابع دولتهم إلى دولة مولانا المتوكل فخر الزمان ص ص 82 ـ 88
نشر فون هارس كوريو Von Hars Kurio
Geschichte und Geschichtsschreiber
der Abd al-Wâdiden, Freiburg 1983

أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي
(ت 909 هـ/ 1505 م)

أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلته مغيلة البربرية بالغرب الجزائري، ونشأ بتلمسان حيث تلقى تعليمه على يد شيوخها، ثم تحول إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحيىٰ بن يدير وعن الشيخ عبد الرحمٰن الثعالبي عالم الجزائر ووليّها (ت 875 هـ/ 1478 م) كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكتسب ثقافة دينية وأدبية أهّلته لأن يعد من علماء عصره، فنال التقدير وحظي بالاحترام من العديد من العلماء وهذا ما عبر عنه أبو عبد الله محمد صاحب الدوحة بقوله: «أنه كان من أكابر العلماء وأفاضل الاتقياء شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وأثبته ابن مريم في البستان بقوله: «خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة المحقق الفهامة القدوة الصالح السني الحبر أحد أذكياء العالم وأفراد العلماء الذين أوتوا بسطة في العلم».

عرف المغيلي بمجاهرته بالحق ودفاعه عن الشرع وإخلاصه في العمل لوجه الله تعالى فكان محل تقدير واعتزاز من تتلمذ عليه مثل الفقيه أبَدَ أحمد، والشيخ العاقب الأنصمني، والفقيه محمد عبد الجبار الفكيكي. كما كان موضع احترام العلماء الذين راسلهم مثل الإمام السنوسي والعالم جلال الدين السيوطي، ولقد كانت له مع هذا الأخير مساجلة طريفة فيما يخص مكانة المنطق في ثقافة المسلم، فقد آخذ المغيلي على السيوطي موقفه من المنطق مع أنه الوسيلة الضرورية لإدراك الحق ولذا لا يجب التنفير من دراسته وإنما الترغيب في فهمه لصقل الفكر وشحذ الذهن، ومما جاء في قصيدة بعث بها إلى السيوطي في هذا الشأن هذه الأبيات:

أيمكن أن المرء في العلم حجة ... وينهى عن الفرقان في بعض قوله
هـل المنطـق المعنـي إلا عبـارة ... عن الحق أو حقيقة حين جهله
معانيه في كل الكلام فهل ترى ... دليـلاً صحيحـاً لا يـرد لشكلـه؟
أرينــي هـــداك الله منـــه قضيـــة ... علـى غير هـذا تنفهـا عـن محلـه

فرد عليه السيوطي بقصيدة منها:

عجبت لنظم ما سمعت بمثله ... أتـانـي عـن حبـر أقـر بفضلـه
تعجـب منّـي حيـن ألفـت مبـدءاً ... كتـابـاً جمـوعـاً فيـه جـمٌ بنقلـه
أقـرر فيـه النهـي عـن علـم منطـق ... وما قاله من قال من ذم شكله
وقد جاءت الآثار في ذم من حوى ... علـوم يهـود أو نصـارى لأجلـه

غادر عبد الكريم المغيلي موطن نشأته تلمسان إثر محنة الإمام أحمد بن يحيىٰ الونشريسي صاحب المعيار الذي اتهمه سلطان تلمسان المتوكل بالتآمر عليه والتي اضطرته إلى التوجه إلى فاس 874 هـ/ 1469 م فكان هذا الحادث ذا تأثير عميق في نفس المغيلي فغادر هو بدوره تلمسان تجنباً لظلم الحكام وربما يكون لظروفه المعيشية دخل في ذلك، فتحول على الأرجح إلى فاس حيث واجهته المصاعب لصراحته في قول الحق فيمّم وجهه نحو الجنوب مع ابنه عبد الجبّار وأحد خدمه ليستقر بمنطقة توات حوالي 882 هـ/1477 م. فاستقر بقصر أولاد سعيد بناحية تمنطيط حيث اشتهر أمره وعد من رجال الصلاح والدعوة الذين نشروا الطريقة القادرية بتلك الجهات، وقد ساعدته شخصيته القوية المؤثرة على اكتساب الأنصار الذين قدروا فيه حماسه لنصرة الإسلام وإحياء شعائره، ولعل هذا ما جعل ابن مريم يصفه بأنه «كان مقداماً على الأمور جسوراً جريء القلب فصيح اللسان محبّاً في السنة جدلياً نظاراً محققاً».

واجه المغيلي في بيئته الجديدة بمطنقة توات تحديات فرضتها عليه دعوته لنصرة الإسلام والتقيد بتعاليمه، فقد هاله تقاعس المسلمين في أمور دينهم ودنياهم واستثارته تصرفات التجار اليهود، وحزّ في قلبه شراؤهم لذمم الحكام وشيوخ القبائل، وهيمنتهم على تجارة السودان المربحة عبر إقليم توات فرأى في توسعهم

في إنشاء البيعات وإقامة المنازل وخاصة بتمنطيط ما يتوجّب عليه الوقوف في وجههم وإلزامهم حدود أهل الذمة فأغلظ لهم القول واعتبر «أن كلّ يهودي تعلق بخدمة سلطان أو وزير أو قاض كبير فقد انتقض عهده وحلّ ماله ودمه لأن خدمة أرباب الشوكة مناقض لشرط الذمة من الصّغار والذلة». حسب ما أثبته في مصباح الأرواح. فوجد معارضة في ذلك من بعض رجال الدين وفي مقدمتهم قاضي توات عبدالله بن أبي بكر العصنوني، فالتجأ إلى استشارة من يشهد لهم بالعلم والفضل من علماء فاس وتونس وتلمسان، ومنهم المفتي الرصاع بتونس، والفقيه أبو مهدي عيسى الماواسي قاضي فاس، وابن زكري مفتي تلمسان، والقاضي عبد الرحمن ابن سعيد التلمساني والفقيه أبو زكريا يحيىٰ بن أبي البركات الغماري التلمساني، والإمام محمد بن يوسف السنَوسي، والإمام الحافظ التنسي، فتحفظ أغلبهم في الاستجابة إلى دعوته، ولم يناصرهُ في مسعاه سوى الحافظ التنسي والإمام محمد بن يوسف السنوسي. فقد جاء في رسالة هذا الأخير للمغيلي ما ينوّه بموقف الحافظ التنسي في وجوب الحد من شوكة اليهود وما يشد من ساعد المغيلي في التصدي لهم، وهذا ما توضحه هذه الفقرة من رسالته: «فقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم إحداث اليهود أذلّهم الله تعالى وأخمد كفرهم كنيسة في بلاد المسلمين، وأنكم حرضتم أهل تمنطيط على هدْمها فتوقفوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء، فبعثتم لذلك أسئلة تستنهضون بها العلماء لينظروا في ذلك فاعلم أني لم أر من وفق لإجابة هذا المقصد وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء غليل أهل الإيمان في المسألة ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه لما يشير إليهم الوهم الشيطاني من مداهنة بعض من تتّقى شوكته ويخشى وقوع ضرر منه سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبي عبد الله التنسي».

لم يقنع الشيخ المغيلي بهذه المراسلات بل حاول جاهداً العمل على جمع كلمة علماء المسلمين واستنهاض هِمَم حكّامهم، فقدم فاس مع بعض غلمانه (891 هـ) فلم يجد المعاضدة من قاضيها ابن غازي وفشلت مساعيه في كسب تأييد السلطان الوطاسي أبي زكريا الذي ارتاب في أمره وخشي منه على ملكه متأثراً

بوشاية من خاصته، فغادر الشيخ المغيلي المغرب، وعَزم على مواجهة اليهود بتوات فألزمهم الذل والهوان، وقد روى ابن مريم ما يوضح جهاده ضد اليهود بقوله: «أمر المغيلي جماعته فأخذوا آلات الحرب وقصدوا تلك الكنائس مشمّرين للقتال وقد أمرهم بقتل من عارضهم دونها، فهدموها ولم يعارضهم فيها أحد، ثم قال لهم: من قتل يهودياً فله عليّ سبعة مثاقيل» فوضع المغيلي بذلك حداً لتحكم اليهود في تجارة السودان المربحة وكان ذلك بداية لمحو تواجد اليهود في الصحراء ومنطقة توات خاصة التي كان لهم بها وضع مميز، بعد أن أسلمت جماعة منهم وآثرت جماعات أخرى التحول إلى مدن الشمال.

وبعد أن نجح المغيلي في الحد من شوكة اليهود بتوات توجه عبر الصحراء إلى بلاد السودان الغربي ليواصل مهمته الإصلاحية فأبقى ولده عبد الجبار بتوات وعبر الصحراء برفقه عبيده فوصل إلى بلاد آصير ودخل بلدة «تكده» فعلّم بها ثم تحول إلى بلاد وكشن وطاف بأقاليم التكرور فاشتهر أمره عند الحكام واتّبعته العامة ودخل على يديه الكثيرون في الإسلام، وكان كلما حل ببلد إلا ووضع حداً لوجود اليهود به. فقد ذكر صاحب الدوحة «أن تمبكتو وعمالتها لم يعد يدخلها اليهود ولا سائر بلاد الصحراء وحينما يظهر اليهودي هناك يقتل ويستباح ماله، وكل من يحمل مال اليهود للتجارة يستباح ماله معه، بناء على مذهب الشيخ «المغيلي ووصيته للآن».

حظي الشيخ المغيلي بمكانة لدى سلاطين السودان الغربي فعندما قدم كانو قربه سلطانها أبو محمد بن يعقوب فتولى الإفتاء واشتغل بالتدريس وكتب له رسالة (897 هـ) يرشده فيها إلى مبادىء الشريعة وأحكامها وقد شدّد فيها على ضرورة الالتزام بالعدل، ومما جاء فيها قوله مخاطباً ملك كانو «إذا نسيت شيئاً من أمور دينك ودنياك فلا تَنْسَ أن من غيّر دين الله فقد كفر، ومن تغيير دين الله أن يكون الظالم قاضياً. . . فإن كان لا بد من أن تجعل بعض الظالمين حكاماً فلا تجعلهم باسم القاضي، فإن القضاء من صفات رسول الله، لا يوصف به إلاّ عالم تقيّ. . . ».

وعندما انتقل المغيلي إلى عاصمة الصونغيين كاغو (807 هـ/ 1502 م) كان محلّ تكريم سلطانها أسقيا الحاج محمد الأول إذ قربه إليه واستشاره في أمور الدين وتوجه إليه بأسئلة كانت موضوع إجابة مكتوبة من الشيخ المغيلي. وأثناء ذلك بلغه نبأ اغتيال يهود توات لابنه عبد الجبار، فاحتسب أمره لله ورجع عن موقفه في تحريض حاكم كاغو لاعتقال التواتيين الموجودين عنده، وتوجه رأساً نحو الشمال فقدم توات وتصدى مع من ناصره لليهود والمتعاونين معهم، وعندما انتصرت عليه شيعة الشيخ عمرو بن عبد الرحمٰن وجد عند قبائل أولاد محمد والبرامكة المأوى والحماية في ظروف سادها الاضطراب حسب الروايات المتداولة وأثناء ذلك وافته المنية حوالي سنة (909 هـ/ 1505 م) ومما جاء في إحدى الروايات أن أحد اليهود الناقمين عليه لم يتردد في أن يبول على قبره فأصيب بالعمى من حينه.

ترك الشيخ المغيلي ما لا يقل عن أربعة وعشرين مصنفاً أغلبها شروح لغوية وتعليقات على مسائل فقهية وتقاييد تتصل بالحديث والتفسير والمنطق، وهي في جلها وضعت بغرض التعليم والإفادة، أو كانت إجابة اقتضتها دعوته الدينية ونشاطه الإصلاحي مما يسمح لنا بالقول بأن بعضها يشترك في مضمون واحد رغم اختلاف عناوينها، وهي كما ذكر من ترجم للمغيلي كالتالي:

- البدر المنير في علوم التفسير.
- مغني النبيل وهو شرح لجزء من مختصر خليل.
- إكليل المغني، وهو شرح لقسم كبير من مختصر خليل مع حاشية عليه.
- تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين.
- الفتح المبين.
- مفتاح النظر في علم الحديث، تناول فيه ما جاء في كتاب النووي.
- مختصر تلخيص المفتاح وشرحه مع تعليق في البلاغة.
- شرح بيوع الآجال لابن الحاجب تناول فيه آراء عبد السلام وخليل.
- شرح مختصر خليل بعنوان الوجيز الكافي للرجل الزاكي.
- شرح مدخل أو خطبة المختصر بعنوان: التاج الوحيد الكافي.

- الانتصار الساطع.
- الفهرس في المنطق وهو شرح على جمل الخونجي.
- مقدمة أو مدخل للفهرس في المنطق.
- منظومة في المنطق حول جمل الخونجي بعنوان هبة الكريم.
- عدة قصائد منها ميمية على وزن البردة في مدح الرسول ﷺ.
- فهرس عن مروياته عن شيوخه.
- مقدمة في العربية.
- أحكام أهل الذمة.
- التعريف فيما يجب على الملوك. وهو رسالة في أصول اللغة وجهها لابن عبد الله محمد بن يعقوب سلطان كانو لما اجتمع به ومكث في عاصمته سنة 807 هـ.
- أجوبة على أسئلة سلطان كانو: الأسقيا الحاج أبو عبدالله محمد بن يعقوب (كتبها سنة 897 هـ).
- مصباح الأرواح في أصول الفلاح.
- اشتهر الشيخ عبد الكريم المغيلي بمصنفين أبرز فيهما أفكاره الإصلاحية وأوضح موقفه من الأحداث في منطقة توات وأقاليم السودان الغربي وهما: أجوبة عن أسئلة سلطان كانو أسقيا الحاج محمد التي جاءت في شكل آراء فقهية، وتوجيهات اجتماعية بهدف إصلاح أمور المسلمين في الدنيا والآخرة، بوعظ مباشر وعبارات صريحة حذر فيها الحكام من عدم اتباع شريعة الله، وندد بعلماء البلاط وفقهاء السلطة الذين يتغاضون عن قول الحق من أجل إرضاء أولي نعمتهم، ومما جاء في هذا السياق: قوله: «من أبين علماء السوء أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح، فمثلهم كمثل الصخرة في باب النهر لا تشرب ولا تترك من يشرب، كل واحد منهم أضر من ألف شيطان، وليس الخبر كالعيان...».

ومصباح الأرواح كتبه في خضم صراعه مع اليهود في شكل رسالة وضع لها عنوانها الشيخ المكي الحاج أحمد الإدريسي، وهو العنوان الذي عرفت به: «مصباح الأرواح في أصول الفلاح» وقد أرسلها المغيلي مع رسائل أخرى إلى تلمسان

وفاس، فاختلف العلماء في شأن ما ذهبت إليه. إذ ناصره السنوسي واعترض ابن غازي على ما قال به المغيلي في حكم آية التولية في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم. . .﴾** ولم يسلم بأخذ المغيلي بظاهر الآية التي تجعل التعصب لأهل الذمة في حكم التكفير، على أن ما طرحه المغيلي من أفكار في مصباح الأرواح كان يستجيب لحاجات المتجمع ويتماشى مع مقتضى الشرع. وهذا ما جعل ابن مريم في البستان وأحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج يصفانه بأنه كتاب «عجيب».

تتألف رسالة مصباح الأرواح من ثلاثة فصول أثار فيها المغيلي المخاطر التي نجمت عن تأثير اليهود على المسلمين في حياتهم العامة، وشرح وجهة نظره الساخطة على تقرب اليهود وهم أهل الذمة، من أولى الأمر من المسلمين وثقة هؤلاء باليهود وتوكيلهم على أموالهم، وقد استثاره خاصة ما كان يصدر عن اليهود من تصرفات لا تتماشى ومنزلة أهل الذمة في الشرع، فقد تجاوزوا حدودهم في معاملتهم للمسلمين بعد أن تمكنوا من شراء ذمم بعض الحكام وشيوخ القبائل. فكان الفصل الأول في ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، والثاني فيما يلزم أهل الذمة في الجزية والصغار، والثالث فيما عليه يهود هذا الزمان في أكثر الأوطان من الجرأة والطغيان والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان.

جاء كتاب مصباح الأرواح رغم اختصاره مذكرة أخلاقية ورسالة سياسية وخطاباً تربوياً حاول فيه المغيلي تنبيه المسلمين إلى الخطر المحدق بهم. وحثهم على الرجوع إلى مبادىء دينهم الحنيف والتمسك بالقيم الأخلاقية والسلوكية التي أرشدهم إليها، وكان الدافع للمغيلي إحساسه الداخلي بأن المسلمين مقبلون على الانهيار لمجانبتهم العدل، وانحرافهم عن تطبيق الشرع الإسلامي، وهم مهدّدون بتسلط غيرهم وفي مقدمتهم اليهود عليهم، والتحكم في مقدراتهم الاقتصادية فكانت دعوته للعامة وتحذيره للخاصة ومواجهته للحكام محاولة جريئة لم يكتب لها النجاح لوقف الانهيار الذي تعرضت إليه الأمة الإسلامية الذي يتحمل مسؤوليته الحكام لانحرافهم ولا مبالاتهم.

نشر مصباح الأرواح من طرف الاستاذ رابح بونار مع مقدمة عرف فيها بمؤلفه وألحق به أجوبة فقهاء تلمسان وفاس حول قضية اليهود بتوات، ونبذة من وصية المغيلي لسلطان كانوا (الجزائر 1968)، كما نشر الاستاذ عبد القادر زبادية بالجزائر (1974) أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي.

المراجع المعتمدة:

- المغيلي (عبد الكريم) مصباح الأرواح في أصول الفلاح (حول يهود توات)، تقديم ونشر رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.
- المغيلي (عبد الكريم) أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية الشركة الوطنية، للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- البستان، ص ص 253 ـ 257.
- نيل الابتهاج، ترجمة، 701 ص ص 576 ـ 579.
- المعيار، ج 1، ص 16، ج 2، ص 430، ج 3، ص ص 39. ـ 40.
- تعريف الخلف، القسم الأول، ص ص 170 ـ 173.
- معجم المؤلفين، ج 1، ص 191.
- الأعلام، ج 7، ص 85.
- معجم أعلام الجزائر، (ط 1971)، ص 157.
- زبادية (عبد القادر) محمد بن عبد الكريم التلمساني، مجلة الأصالة الجزائر 26/ ص ص 202/215.
- مقدم (مبروك) محمد بن عبد الكريم المغيلي، من خلال المصادر والمخطوطات التواتية، بحث مقدم في اليوم الدراسي حول أهمية الوثائق العامة والخاصة في كتابة التاريخ، جامعة وهران (16 ـ 11 ـ 1988).
- تاريخ الجزائر العام، ج 2، ص ص 26 ـ 32.
- وقائع ملتقى المغيلي، بأدرار 3 ـ4/ 1985.
- تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص ص 71 ـ75.
- فهرس الفهارس، ج 2، ترجمة 330، ص573.

- Bakchine - Dumont (S.) Les Juifs de Touat, extrait d'un mémoire, in Cahiers du Centre des Recherches Africaines, (Histoire), Paris, no 1/1980, pp. 39 - 45.

فيما عليه يهود هذا الزمان من الجرأة والطغيان

أقول، والله المستعان، لا شك في أن اليهود المذكورين، كيهود توات وتيجورارين وتافيلالت ودرعة وكثير من الأوطان بإفريقية وتلمسان، قد حلت دماؤهم وأموالهم ونساؤهم ولا ذمة لهم، لأن الذمة التي ترفع السيف عنهم، هي الذمة الشرعية لا الذمة الجاهلية، وإنما تكون لهم الذمة الشرعية مع إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون. . .

ففي الذخيرة قال ابن حزم في مراتب الإجماع: اختلف العلماء في نقض عهد الذمي وقتله وسبي أهله وماله إذا أخل بواحد مما نذكره، وهو إعطاء أربعة مثاقيل ذهباً في انقضاء كل عام قمري صرف كل دينار اثنا عشر درهماً. وألا يحدثوا كنيسة ولا ديراً ولا بيعة ولا صومعة ولا يجددوا ما خرب منها ولا يمنعوا المسلمين من النزول في كنائسهم وبيعهم ليلاً أو نهاراً وأن يوسعوا أبوابها للنازلين، ويضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثاً، وأن لا يؤووا جاسوساً ولا يكتموا غشّاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يمنعوهم من الدخول في الإسلام، ويوقروا المسلمين ويقوموا لهم من المجالس، ولا يتشبهوا بهم في شيء من لباسهم ولا فرق شعورهم، ولا يتكلموا بكلامهم ولا يتكنوا بكناهم، ولا يركبوا السروج ولا يتقلدوا شيئاً من السلاح ولا يحملوه معهم ولا يتخذوه، ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية؛ ولا يبيعوا الخمر لمسلم قط، ويجزوا مقادم رؤوسهم ويشدوا الزنانير، ولا يظهروا الطيب ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يظهروا في طريق المسلمين نجاسة. ويخفون النواقيس وأصواتهم، ولا يظهروا شيئاً من شرائعهم، ولا يتخذوا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين. ويرشدون المسلمين ولا يطلعوا عليهم عدواً، ولا يضربوا مسلماً ولا يسبوه ولا يستخدموه، ولا يسمعوا ملسماً شيئاً من كفرهم، ولا يسبوا أحداً من الأنبياء عليهم السلام، ولا يظهروا

خمراً ولا نكاح ذات محرم. وأن لا يسكنوا المسلمين بينهم، ومتى أخلوا بواحد من هذه، اختلف في نقض عهدهم وسبيهم وقتلهم إذا أخلوا بواحدة، فكيف بيهود لم يأتوا ولا بواحدة، بل تمردوا على الأحكام الشرعية بسكنى البلاد السائبة والتعلق بأرباب الشوكة والتعصب بأموالهم على من يتسبب من العلماء في إذلالهم، فهؤلاء ونحوهم لا خلاف في نقض عهدهم وقتلهم وسبيهم، لأن الخلاف المذكور إنما هو في ذمي أخل ببعض ذلك من غير استمرار وتصميم وأما من ترك شيئاً من ذلك واستمر على تركه وصمم عليه فلا خلاف في نقض عهده ووجوب قتله وسبيه، لأن ذلك هو التمرد على الأحكام الشرعية فكل يهودي تعلق بخدمة سلطان أو وزير أو قاض كبير، فقد انتقض عهده وحل ماله ودمه، لأن خدمة أرباب الشوكة مناقض لشرط الذمة من الصغار والذلة وأعظم ما يكون من التمرد على الأحكام الشرعية، لا سيما في هذا الزمان.

ولقد أخبرني بعض الإخوان بسنده عن الإمام القيسي، أن يهودياً كان يخدم السلطان أبا عنان، فبلغ بذلك من الطغيان أن غير لبعض الصبيان شيئاً من القرآن. وذلك أنه مر بصبي يستفتي في قوله تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾**، فقال اليهودي: قل ومن يبتغ الإسلام ديناً فلن يقبل منه فأسقط الصبي لفظة غير، فأنكر عليه المعلم ذلك وقال له: من قال لك هذا؟ فقال الصبي: مر الآن بنا رجل. فقال له: أرني إياه، فلم يزل الصبي معه حتى لقيه فذهب المعلم من حينه لأستاذ كان السلطان يجود عليه بالسبع وأخبره بالخبر، وكان السلطان يرسل للأستاذ دابة يأتيه عليها، فلما جاءته ركب وجاءه ولم يذكر له شيئاً حتى أخذ في تجويد لوحه، فاتفق أن كان فيه **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾** فلما قرأها قال له الأستاذ: أعدها، فأعادها. فقال له: أعدها، فأعادها. فقال له: أعدها، فأعادها فلم يزل يعيدها وهو يقول له أعدها حتى وضع السلطان اللوح من يده وقام لصاحب السيف فقال له: إن خرجت ولم أجد رأس ذلك اليهودي على يمين الطريق وجسده على شماله جعلتك في مكانه، ثم رجع لموضعه وأخذ في تجويد لوحه حتى فرغ، وقام الاستاذ وأتبعه السلطان يشيعه على العادة وإذا باليهودي كما أمر، فقال الأستاذ

ما هذا؟ فقال له: على تكريرك الآية. فأخبره حينئذ بالخبر، فلا يتردد في ضرب رقاب هؤلاء اليهود المذكورين إلا دجال من الدجالين الظالمين المضلين الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، «فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» فوالذي نفسي بيده لقتل يهودي واحد أعظم من غزوة في أرض المشركين. فاحذروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، وانهبوا أموالهم واسبوا أولادهم ونساءهم في كل مكان حتى يذعنوا للأحكام الشرعية أتم أذعان، إنما الجزية والصغار مقمعة لشر هؤلاء الأشرار، وسلاسل وأغلال يطوفون بها في سائر الأقطار على مرور الأعصار إظهار لشرف النبي المختار، فمن حاول فك شيء من تلك السلاسل والأغلال عن رقبة أحد من الكفار، فقد حاد الله ورسوله وستنقلب في عنقه ويكب معهم في النار.

ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿**إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين فلا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ فويل لأولياء اليهود، وهم الذين ينصرونهم في تعدي الحدود، ﴿**أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾.

محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني

ت 909هـ/ مصباح الأرواح في أصول الفلاح حول يهود توات

تقديم وتحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،

الجزائر، 1968، ص ص 53 ـ 60

أبو العباس أحمد بن يحيىٰ الونشريسي
(ت 914 هـ/ 1508 م)

أبو العباس أحمد بن يحيىٰ بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي نسبة إلى جبال الونشريس بالغرب الجزائري، حيث ولد حوالي 834هـ/ 1430م، وانتقل في صغره إلى تلمسان وتلقى دراسته بها، فأخذ عن العديد من شيوخها وفي مقدمتهم الشيوخ العقبانيون أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، وولده القاضي أبو سالم إبراهيم، وحفيده القاضي محمد بن أحمد، وعن الشيخ محمد بن أحمد الجلاب، ومحمد بن مرزوق الكفيف، وأحمد بن زكري، ومحمد المريني ومحمد بن العباس العبادي، ثم انتقل إلى فاس وتابع دراسته بها فاستفاد من العديد من العلماء بها. وفي طليعتهم قاضي مكناس محمد بن أحمد اليفرني، ومحمد القروي، فعد من العارفين بعلم الحديث والتفسير والتوحيد والمنطق. وتميز خاصة باطلاعه الواسع على مسائل الفقه والقضايا التي تتصل بالأقضية والنوازل والفتاوي والأحكام. التي ألزم نفسه بتدريسها والتأليف فيها، حتى قال عنه أحمد المنجور في الفهرسة «وكان مشاركاً في فنون العلم إلا أنه أكب على تدريس الفقه فقط فيقول من لا يعرفه أنه لا يعرف غيره. . . فصيح اللسان والقلم حتى كان بعض من يحضر تدريسه يقول: لو حضر سيبويه لأخذ النحو مِنْ فيه».

عرف أحمد الونشريسي بفصاحة لسانه وبراعة قلمه وشجاعته الأدبية، وتعصبه لما يراه حقاً، فلم يجامل الحكام ولم يجاريهم فيما يراه يتنافى وتعاليم الشريعة. قال عنه محمد جعفر الكتاني في سلوة الأنفاس: «كان شديد الشكيمة في دين الله لا تأخذه في الله لومة لائم». وكان ذلك سبب هجرته تلمسان وتحوله إلى فاس، فقد اتهمه السلطان الزياني محمد الخامس بن ثابت بالتآمر عليه بسبب

مجاهرته بالحق، فألحق به الأذى مما اضطره إلى الهجرة. وذكر ذلك ابن مريم في البستان بقوله: «حصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم أربعة وسبعين (874 هـ) فانتهبت داره ففرّ إلى مدينة فاس واستوطنها».

لقي الونشريسي بفاس ما فقده بتلمسان حيث نال الخطوة والتكريم فطاب له المقام بها، ثم انتقل من بيت مضيفه محمد بن الحسين الصغير إلى دار حُبس مجاورة للمسجد المعلق بالشراطين بالقرويين الذي واظب على التدريس به ثم توسع نشاطه فانتقل إلى التدريس في مساجد ومدارس أخرى منها مدرسة المصباحية التي أقرأ بها المدوّنة. وقد أخذ عنه طلبة كثيرون شروحه على المدونة ومختصر ابن الحاجب الفرعي، وتخرج عليه علماء أجلاء منهم ولده عبد الواحد الذي تولى قضاء فاس واغتيل غدراً بجامع القرويين (955 هـ/ 1448 م) والفقيه محمد بن أحمد الغرديس التغلبي متولى قضاء فاس (ت 976 هـ/ 1568 م) والمحدّث عبد الجبار الورتدغيري صاحب زاوية فكيك (ت 956 هـ) والحسن بن عثمان التملي الجزولي شيخ فقهاء تارودانت وإقليم السوس (ت 932 هـ) وأبو عياد بن مليح اللمطي، وأبو زكريا يحيىٰ بن محمد السوسي، ومحمد الكراسي قاضي تطوان. وقد كان الونشريسي محل الاحترام والتقدير من الخاصة والعامة لتجنبه الخوض في السياسة ومغالطة أولي الأمر. والتزامه بالتدريس ومواظبته على التأليف حتى وافته المنية في العشرين من شهر صفر (914 هـ/) عن عمر يناهز الثمانين سنة قضى منها أربعين سنة بتلمسان وأربعين سنة بفاس، وقد أشاد به العديد من العلماء فاعتبره ابن عساكر في دوحة الناشر «حجة المغاربة على أهل الأقاليم وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عليم» ورثاه محمد الوادي آشي بأشعار منها هذه الأبيات:

رأيت نجوم الأرض تبكي حزينة — على فقد من كان قطب زمانه

فقلت ومن هذا؟ فقالت مجيبة — على الونشريسي وحيد أوانه

إليه انتهت في الفقه كلّ رياسة — ومعرفة زينت بحسن بيانه

ألف الونشريسي العديد من الكتب جلها في الفقه وكانت له طريقة خاصة في

تصنيفها ذكرها ابن عساكر في دوحة الناشر بقوله: نقلاً على من عرفه، «أن الونشريسي كان له عرصة (ساحة المنزل) يمشي إليها في كل يوم ويجعل حماراً يحمل عليه أوراق الكتب من كل كتاب ورقتين أو ثلاثاً فإذا دخل العرصة تجرد من ثيابه وبقي في قشابية صوف (عباءة بدون أكمام) يحزم عليها بمضة جلد (حزام) ويكشف رأسه وكان أصلع ويجعل تلك الأوراق على حدة في صفين، والدواة في حزامه والقلم في يده والكاغد (ورق الكتابة) في الأخرى وهو يمشي بين الصفين ويكتب النقول في كل ورقة، حتى إذا فرغ من جلبها على مسألة قيد ما عنده وما ظهر له من الرد والقبول، هذا شأنه».

ترك الونشريسي العديد من التصانيف جلها في أمور الفقه ومسائل الشريعة، عرف منها:

- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات، وضعها في شكل رسالة أجاب فيها الفقيه الغرناطي محمد بن قطبة في شأن من بقي من المسلمين في الأندلس تحت حكم النصارى، أفتى فيها بمعصية من بقي بدار الكفر ولم يهاجر بعد تغلب النصارى على داره، وقال فيها أيضاً بقتل من نزح من دار الإيمان إلى دار الكفر لأن كليهما حسب حكمه مرتكب كبيرة أدرجها في المعيار، وقد كانت مثار تعليق حسين مؤنس ورد الأستاذ عبد القادر العافية.

- الفائق في الوثائق، أو المنهج الفائق والمنهل الوائق والمعنى اللائق بأدب الموثق وأحكام الوثائق، أفاد ابن مريم أنه لم يقم بإتمامه. وكان في صناعة التوثيق (طبع بفاس طبعة حجرية 1228 هـ).
- غنية المعاصر والتالي في شرح فقه وثائق أبي عبد الله القشتالي (طبع بفاس طبعة حجرية د. ت).
- مختصر أحكام البرزلي اختصر فيه نوازل البرزلي (جامع الأحكام (مخطوط).
- إيضاح السالك إلى قواعد الإمام مالك، ضمنه مائة وثماني عشرة قاعدة اختلف في تفسيرها أصحاب المذهب المالكي.

- عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق، نشره محققاً حمزة أبو فارس (بيروت 1990 م).
- القصد الواجب في معرفة إصلاح ابن الحاجب وهو في ثلاثة أسفار (في التعليق على ابن الحاجب).
- إضاة الحلك والمرجع بالدرك على من أفتى من فقهاء فاس بتضمين الراعي المشترك أدرجها في كتاب المعيار.
- تنبيه الحاذق الندس، على من سوى بين القرويين والأندلس، (أدرجها في كتاب المعيار).
- تنبيه الطالب الدراك، على توجيه الصلح بين ابن صعد والحباك (أدرجها في كتاب المعيار).
- المبدي لخطإ الحميدي.
- الأجوبة، وهي ردود على أسئلة ألقيت عليه.
- الأسئلة والأجوبة، وهي أجوبة كتبها بتلمسان عن أسئلة لشيخه محمد القروي بفاس.
- شرح الخزرجية في العروض.
- الولايات، تناول فيها الخطط الشرعية في سبع عشرة ولاية (طبع في الرباط 1356 هـ).
- حل الرقبة، عن أسير الصفقة. نسبه إليه محمد ميارة.
- تأليف في ترجمة محمد المقري (الجد).
- الوفيات، ذيل به كتاب شرف الطالب في أسنَى المطالب لابن قنفذ.
- فهرس وضعه برسم تلميذه القاضي ابن عبد الجبار، ذكره محمد الكتاني ومحمد المنصور وعبد الحي الكتاني.
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب.

ارتبطت شهرة الونشريسي بكتاب المعيار الذي جمع فيه النوازل الفقهية في شكل أبواب تتصل بتعامل الأفراد وتهم شؤون المجتمع، وقد أثار فيها مسائل ثقافية واجتماعية واقتصادية وعقائدية. مثل التعليم والقضاء والتصوف والتقاليد

والسلوك. والاجتهاد والمعاملة. وغيرها، ولم يهمل الواقع المعاشي. الذي يتصل باللباس والطعام والشراب والمسكن، أو يتعلق بالأفراح والأتراح وغيرها، لأن الغرض منه هو المحافظة على التراث الفقهي لرجال القضاء والإفتاء والتشريع للغرب الإسلامي وهذا ما أشار إليه الونشريسي بقوله «جمعت فيه من أجوبة متأخريهم العصريين لتبدده وتفريقه وانبهام محله وطريقه رغبة في عموم النفع ومضاعفة الأجر بسببه». .

فرغ الونشريسي من تقييد معياره في الثامن والعشرين من شوال عام واحد وتسعمائة (901 هـ/ 1495 م) وظل يضيف إليه ويراجعه حتى وفاته وهذا ما يجعل فترة اشتغاله بتأليف هذه الموسوعة تناهزُ ربع قرن (890 ـ 914) فجاءت موسوعة شاملة لكل مواضيع الفقه التي تهم حياة الفرد المسلم في بيئته المغربية وتمسّ مختلف أوجه حياته الخاصة والعامة.

يشتمل كتاب المعيار حسب الترتيب الذي وضعه ناشروه في طبعته الأخيرة (1981) على اثني عشر جزءاً حسب الترتيب التالي:

الجزء الأول: في نوازل الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة والصيام والاعتكاف والحج.

الجزء الثاني: في نوازل الصيد والذبائح والأشربة والضحايا والإيمان والنذر والدماء والحدود والتغريرات.

الجزء الثالث: في نوازل النكاح.

الجزء الرابع: في نوازل الخلع والنفقات والحضانة والرجعة والإيلاء والظهار، واللعان. والتمليك والطلاق والعدة والاستبراء.

الجزء الخامس: في نوازل المعارضات والبيوع.

الجزء السادس: في مسألة من الوصايا وقعت ببجاية مع نوازل الرهن والصلح والحوالة والمديان والتفليس.

الجزء السابع: في نوازل الأحباس.

الجزء الثامن: في مسائل الحياة والمرافق ونوازل الشفعة والقسمة والإجارات والأكرية والصّناع بالإضافة إلى أجوبة عن أسئلة مجموعة من السماسرة. وبعض نوازل الضرر والبنيان.

والجزء التاسع: في تتمة نوازل الضرر ونوازل الوديعة والعارية والهبات والصدقات والعتق والوصايا وأحكام المحاجير. والغصب والإكراه والاستحقاق.

الجزء العاشر: في نوازل الأقضية والشهادات والأعادي والأيمان والوكالات والإقرار والمديان.

الجزء الحادي عشر: في مواضيع متفرقة تخص الجامع واتخاذ السبحة ومن يطلق اسم الحافظ، والمحدث، والحجة، والثقة، على الشخص، وفي حكم الروايتين إذا نقلتا عن مجتهد في المذهب.

الجزء الثاني عشر: في مسائل متفرقة مع بيان تواتر القرآن والفرق بين القرآن والقراءات مع سؤالات عن التفسير وغيره، وفي علم التصوف مع مسائل أخرى في التفسير.

استقى الونشريسي مادة المعيار من الكتب المتوفرة لديه والروايات التي انتهت إليه وقد وجد ضالته في خزانة قاضي فاس محمد بن الفرديس التغلبي الذي تتلمذ عليه وكانت مكتبة غنية جمعت العديد من كتب الفقه والفتاوى التي جمعتها أسرة الفرديس العريقة منذ عهد الأدارسة، وقد ذكر ابن مريم في البستان ما يؤكد ذلك إذا قال: «بخزانة هذا الرجل انتفع الونشريشي وقد احتوت على تصانيف من فنون العلم وبها استعان على تصنيف كتابه المعيار لا سيما فتاوي فاس والأندلس فإنها تيسرت من هذه الخزانة» ثم عقب قائلاً: «أمّا فتاوى أهل إفريقية وتلمسان فاعتمد فيها على نوازل البرزلي والمازوني فيما يظهر عن طالعها...».

والونشريسي لا يكتفي بنقل ما وجده في مصادره بل يتدخل أحياناً بالملاحظة والترجيح والتعديل في العديد من الفتاوى ويدرج تدخله بعد كلمة «قلت» في سطر واحدٍ أو في صفحة أو عدّة صفحات. مما يجعل مساهمته في المعيار لا تقل في مجملها عن مضمون الأجزاء.

إن طريقة الونشريسي في وضعه لكتاب المعيار تتمثل في تصنيف المادة التي يريد نقلها حسب أبواب الفقه مع ذكر أسماء المفتين وإثبات نصوص الأسئلة كما صدرت عن أصحابها حتى ولو كانوا محدودي الثقافة، دون أن يتدخل لتصحيحها حتى ولو كانت فيها أخطاء نحوية أو لغوية، وهذا ما أشار إليه في مقدمته القصيرة للمعيار بقوله: «ورتبته على الأبواب الفقهية ليسهل الأمر فيه على الناظر وحرصت على أسماء المفتين إلاّ في اليسير النادر» ومع ضخامة هذا العمل الموسوعي فإن الونشريسي لم يسجل الكثير مما اطلع عليه أو عرفه من الفتاوي كما أشار إلى ذلك في خاتمة المعيار بهذه العبارة: «وتركت أجوبة كثيرة من الفقه والأحكام مما لا يضطر إليه القضاة والحكام».

جاءت فتاوى المعيار بعيدة عن النظريات والأحكام الافتراضية بل كانت تعبر عن واقع الناس في حياتهم، سجلت بلغة بسيطة، فهو يعرض السؤال ويسجل جوابه بكل دقة ووضوح بلغة خالية من المحسنات البديعية لا تخلو من العبارات العامية أحياناً. مما جعله مصدراً أساسياً يعبر عن لغة عصر، واهتمامات مجتمعه.

حظي المعيار باهتمام الفقهاء فلخص أسئلته واختصر أجوبته سعيد المجيلدي الفاسي (ت 1094 هـ) ووضع له عنوان: «الإعلام بما في المعيار من فتاوى الأعلام». كما قام جمع من الفقهاء منهم: البوغراوي الفاسي بالعناية بمادة المعيار وتنظيمها وإخراجها في طبعة حجرية بفاس 1314 هـ/ 1897 م ونظراً لأهمية الكتاب فقد أصدر السيد عمار مختارات منه بالفرنسية (1908 م)، ثم أعيد النظر فيه مؤخراً من طرف جماعة الفقهاء بإشراف الأستاذ محمد حجي، وتم إخراجه بالرجوع إلى عدة نسخ مخطوطة منه. وبذلك توفرت للقارىء طبعة منقحة ومزودة بفهارس صادرة عن دار الغرب الإسلامي في ثلاثة عشر جزء ببيروت 1981.

المراجع المعتمدة:

- الونشريسي (أبو العباس أحمد)، المعيار المعرب في الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء، بإشراف محمد حجي، 13 ج

(ج 13 فهارس) دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد)، عدة البروق في جمع ما في المذهب من الجموع والفروق، تحقيق حمزة أبو فارس، دار الغرب الإسلامي بيروت 1990.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد)، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، نشر وتعليق حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الخامس عدد 1 ـ 2 سنة 1957، كذلك تعليق الأستاذ عبد القادر العافية مجلة المناهل الرباط، العدد 14 ص ص 316 ـ 328، وكان موضوع نشر الأستاذ محمد بن الكريم في كتابه: حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية (الجزائر 1981 ص ص 67 ـ 103).
- ابن عسكر الشفشاوي (محمد) دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976، ص ص 47 ـ 48.
- البستان، ص ص 53 ـ 54.
- نفح الطيب. . ج 5، ص 204، ج 6، ص 278.
- شجرة النور الزكية، (ط 2) ج 1، ص 274.
- الاستقصا، ج 4، ص 165.
- القرافي (بدر الدين محمد بن يحيى)، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1983، ترجمة 39 ص65.
- تعريف الخلف، القسم الأول، ص ص 62 ـ 63.
- الأعلام، ج 1، ص 255.
- معجم المؤلفين، ج 2، ص 205.
- معجم أعلام الجزائر، ص ص 49 ـ 50.
- هدية العارفين، ص 138.
- تاريخ الجزائر الثقافي ج 1، ص 17.
- تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص ص 76 ـ 78.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 552 ـ 554.
- أعلام المغرب، ج 5، ص ص 108 ـ 116.
- المهدي البوعبدلي، الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي، ملحق مجلة الأصالة، (الجزائر)، عدد 83 ـ 84/ 1980 ص ص 19 ـ 28.

- جذوة الاقتباس، ص ص 80 ـ 81
- درة الحجال، ج 1، ص ص 91 ـ 92.
- لقط الفرائد، ص 281.
- نيل الابتهاج، ترجمة 130، ص ص 135 ـ 136.
- فهرس الفهارس، ج 2، ترجمة 633، ص ص 1122 ـ 1123.
- الفكر السامي، ص 99.
- فهرس المنجور، ص ص 50 ـ 55.
- إيضاح المكنون، ج 1، ص 113.
- تاريخ الأدب العربي، ج 2، ص 348.
- معجم المطبوعات، ج 2، ص 1925.
- دليل مؤرخ المغرب، ج 2، ص 317.
- الحلل السندسية، ج 1، ص ص 634 ـ 635.
- البستان، ص ص 53 ـ 54.

العلاقة بين العلماء ورجال السلطة

واعلم أن شر العلماء علماء السلاطين، وللعلماء معهم أحوال، فكان الصدر الأول يفرون منهم وهم يطلبونهم، فإذا حصل لهم (بياض) أفرغوا عليهم الدنيا إفراغاً ليقتنصوا بذلك غيره، ثم جاء أهل العصر الثاني فطمحت نفوسهم إلى دنيا من حصل لهم، ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم، فكانوا لا يأتونهم، فإن دعوهم أجابوهم إلا القليل، فانتقصوهم عما كان لغيرهم. بقدر ما نقصوا من منابذتهم، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة وأكثرهم إن دعي أجاب، فاستنقصوا بقدر ذلك أيضاً، ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم فامتنعوا عن دعاء غيرهم إلا على جهة الفضل ومحبة المدحة منهم، فلم يبقوا عليهم إلا النزر اليسير وصرفوهم لأجله في أنواع السخر والخدم إلا القليل، وهم ينتظرون صرفهم والتصريح بالاستغناء عنهم وعدم الحاجة إليهم، ولا تستعظم بهذا ولعله سبب لإعادة الحال جذعة. عَجِبَ الله من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، وهذا كله ليظهر لك سر قوله ﷺ: «لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه خلفهم قيل: اليهود والنصارى؟ قال فمن!» وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شهدنا أكثر منه فينا. سمعت العلامة أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي يقول: لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم. لأنا أتينا أكثر مما أتوا، يشير إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترقت عليه بنو إسرائيل، واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة، حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم وتعدد ملوكهم لاتساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم حتى غلبوا بذلك على الخلافة فنزعت من أيديهم، وساروا في ملكهم

بسير من قبلهم مع غلبة الهوى. واندراس معالم التقوى، لكنا آخر الأمم أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما ستر منا. وهو المرجو أن يتم نعمته علينا ولا يرفع ستره الجميل عنا.

أحمد بن يحيىٰ الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب
عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء
بإشراف محمد حجي،
دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، الجزء الثاني، ص ص 480 ـ 481

أحكـام السـوق

كتاب أقضية السوق مختصرة مما ينبغي للوالي أن يفعله في سوق رعيته من المكيال والميزان والأقفزة والأرطال والأواني، وفيه القضاء بالقيم وبيع الفاكهة قبل أن تطيب والخبازين والجزارين وبيع الدوامات والصور والغش والتدليس والملاهي والقدور المتخذة للخمر، وصاحب الحمام، وبكاء أهل الميت، والخروج إلى المقابر، وفيمن تمشي بالخف الصرار، وفيمن يرش أمام حانوته وفي الطين إذا كثر في السوق، وفيمن يحفر حفيراً حول أرضه أو داره، أو يحدث لداره باباً، وفي اليهود والنصارى يتشبهون بالمسلمين، وفي بيع أهل البلاد الشيء المانع، وفي التطفيف، ورفع السوق بواحد، وفي المحتكر مما سئل عن جميعه يحيىٰ بن عمر.

فأجاب فيه ودوّن عنه رواية أبي عبد الله بن شبل عنه قال يحيىٰ بن عمر:

ينبغي للوالي أن يتحرى العدل، وأن ينظر في أسواق رعيته ويأمر أوثق من يعرف ببلده، أن يتعاهدوا على السوق ويعبر عليهم صنجتهم وموازينهم ومكاييلهم كلها، فمن وجده غيَّر من ذلك شيئاً عاقبه على قدر ما يرى مِنْ جُرمه وافتياته على الوالي، وأخرجه من السوق حتى تظهر منه التوبة والإنابة إلى الخير، فإذا فعل هذا رجوت أن يخلص من الإثم وصلحت أمور رعيته إن شاء الله. . .

ولا يغفل النظر إن ظهر في سوقهم دراهم مبهرجة ومخلوطة بالنحاس، بأن يشتد فيها ويبحث عمن أحدثها فإذا ظهر به أناله من شدة العقوبة، وأمر أن يطاف به الأسواق لينكله ويشرد به من خلفه لعلهم يتقون عظيم ما نزل به من العقوبة ويحبسه بعد على قدر ما يرى. ويأمر أوثق من يجد بتعاهد ذلك من السوق، حتى تطيب دراهمهم ودنانيرهم. ويحرزوا نقودهم. فإن هذا أفضل ما يحوط رعيته فيه ويعمهم نفعه في دينهم ودنياهم. ويرتجى لهم الزلفى عند ربهم والقربة إليه إن شاء الله

المكيال والميزان، والأمداد والأرطال والأواقي.

قيل ليحيىٰ بن عمر. القمح والشعير يباع عندنا بالمكيال، أحدثهما أهل الحوانيت وليست مما أحدث السلطان ولا يعرف لها أصل. فعند هذا كبيرة وعند هذا صغيرة ويسلم الناس فيها فيما بينهم. فهي مختلفة فانظر رحمك الله فيما يجوز في ذلك. فأفتنا به وأوضح لنا تفسير ما فضّلك الله به.

قال يحيىٰ بن عمر: أما قولك أن القمح والشعير يباع عندكم بمكاييل مختلفة فلا ينبغي لحواضر المسلمين أن تكون أسواقهم بهذه المنزلة التي وصفت، فإن كان عليهم والٍ فليتق الله ربّه فيما استرعاه. وليحطهم في مكايلهم وموازينهم وقناطيرهم وأرطالهم وأوقيتهم وأقفزتهم حتى تكون معروفة. ويكون أصل ما توضع عليه أرطالهم على الأواقي التي أوجب رسول الله ﷺ زكاة العين من الذهب والفضة فيها.

مسألة: وكذلك المكس الذي يأخذه أصحاب الأرحية على الطحن، لا ينبغي أن يكون إلا بكيل معلوم جارٍ بين الناس، فإن لم يعلم مقداره لا يجوز.

مسألة: ولصاحب الرحى أن يقدم في الطحن ماشاء.

مسألة: وإن هطل الرحى فأفسد بهطله الطعام. فإن لم يكن من الطحان في ذلك تفريط فلا ضمان عليه.

مسألة: وإن طحن الطعام على إثر النقش فهو ضامن. قاله ابن حبيب فيما يجب لصاحب السوق أن يفعله في القيم.

أحمد بن يحيىٰ الونشريشي

المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب،

خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي،

دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، الجزء السادس، ص ص 406 ـ 408.

الحسن بن محمد الوزان المعروف بالأسد الإفريقي
(ت 944 هـ/ 1537 م)

الحسن بن أحمد الوزان الزياتي الفاسي، ولد بغرناطة حوالي 393 هـ/ 1488 م هاجر صغيراً مع أسرته إلى فاس إثر سقوط غرناطة بيد النصارى (1492 م) فشب بها وتلقى العلم بمدارسها وخاصة جامع القرويين العلوم اللغوية والفنون الأدبية والأحكام الشرعية، وقد أهلته مكانة أسرته المرموقة والتي كانت تعتبر نفسها من جماعة الشرفاء، أن يشتغل مدة سنتين كاتباً موثقاً بمارستان (مستشفى) فاس، وأثناء ذلك نمت فيه غريزة حبّ الاطلاع والشغف بتسجيل الحوادث، فقد ذكر عنه أنه اهتم بنقل ما تضمنته شواهد القبور في مصنف أهداه لأخ السلطان الوطاسي على الأرجح محمد البرتغالي الذي سوف يتولى الحكم فيما بعد، هذا وقد دفعه حب الاستطلاع والتعرف على أحوال البلدان إلى القيام برحلة إلى تومبكتو مع القوافل العابرة للصحراء، (910 هـ/ 1504 م) وهو يافع لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره وكان في هذه الرحلة يصحبه عمه الذي كان في سفارة كلفه بها سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي لدي عاهل السودان الملك أسقية محمد فتعرف على مناطق النيجر وأقاليم غانة ومالي وقد يكون في سفره هذا قد وصل مصر وتعرف عليها عن طريق مناطق الساحل وحوض تشاد وبلاد الهو ومملكة طوقا. وشاهد معالم مملكة سونغاي، وقد أعجب بغنى حكامها وميلهم لتطبيق العدل على الرعية، وعند عودته من هذه السفرة التي يكتنفها الغمُوض خدم الحسن الوزان السلطان فاسي الوطاسي مولاي محمد البرتغالي وصحبه في حملاته داخل المغرب فحضر معه محاولة استرجاع أصيلاً من البرتغال (1508) وانتقل بصحبته إلى إقليم دكالة عند غارته على الأعراب والقبائل الثائرة، كما شاهد في

وقت لاحق هجوم البرتغاليين على المعمورة وانكسارهم أمام قوات الوطاسيين (1515 م) وفي أثناء ذلك كان لا يتردد في مصاحبة أعوان المخزن الوطاسي بفاس في مهامهم داخل المغرب. ومن الراجح أنه كان في تجواله هذا في ربوع المغرب مكلفاً من طرف التجار بالتفاوض مع الحكام الذي كانوا يستبدون ببعض أقاليم المغرب وينازعون السلطة الشرعية لمحمد البرتغالي الوطاسي. وهم حاكم مراكش ومنطقتها الناصر بن يوسف الهنتاني، وأمير سوس وبلاد حاحا الشريف أحمد الأعرج السعدي. ومتولي أرياف دكالة المتحالف مع البرتغاليين المستقرين بقلعة سافي يحيىٰ تافوفت.

وقد ساعد الحسن الوزان على أداء هذه المهمة الصعبة خدماته السابقة لمحمد البرتغالي الوطاسي حاكم فاس وصداقته لأحمد الأعرج السعدي الذي يكون قد درس معه في بعض مدارس فاس ، وكذلك ثقة التجار به نظراً لمكانة أسرته ولمعرفته بالأسعار وإجراءات الجمارك وطرق المكس وقوانين البيع والشراء المعمول بها آنذاك بالمغرب.

شجعت هذه الحياة النشيطة الحسن الوزان على القيام بأسفار أخرى خارج المغرب، فاغتنم فرصة تكليفه بسفارة لدى السلطان العثماني سليم الأول حسب ما ورد في وصفه لإفريقيا فتوجه إلى المشرق ثانية عن طريق المغرب الأوسط والأدنى، فتعرف على سبدو واتصل بحاكمها لفائدة سلطان فاس، والتحق بتلمسان بحاشية أبي عبدالله محمد الزياني، واضطرته الظروف بمعسكر أن يقوم بنشاط لا يمت بصلة إلى طبيعة مهمته. فقد ذكر عن نفسه أنه اشترى الحبال من سوق معسكر لحاجته إلى ذلك، بعدها مر بمدينة الجزائر ونزل في ضيافة أحد أعيانها من الحضر، وأثناء ذلك خرج في وفد للتفاوض مع الحاكم الإسباني ببجاية، ثم التحق بعد ذلك بعروج بربروسة وهو مقيم بجيجل في أواخر شهر ديسمبر سنة 1515 م ثم واصل سفره عبر المناطق الداخلية فمر بالمسيلة في طريقه إلى تونس حيث اتصل بالبلاط الحفصي. وتعرف على أبي عبد الله محمد الحفصي. وقد ساعده التحاقه بحاشية الأمير الحفصي على القيام بجولات داخل البلاد التونسية وصل فيها إلى قفصة وقابس. وبعدها واصل سفره إلى القسطنطينية، ثم تنقطع أخباره

فترة ويضطرب خط رحلته ليظهر من جديد ببلد رشيد على مصب النيل في شهر جوان 1517 فيحظى بمقابلة السلطان العثماني سليم الأول الذي كان قد انتهى لتوه من فتح مصر. والقضاء على دولة المماليك (1517) وأثناء ذلك تمكن الحسن الوزان من التوغل في صعيد مصر والسير مع نهر النيل حتى شلالات أسوان، وبعد ذلك عاد إلى قنا ومنها عَبَرَ الصحراء الشرقية وركب البحر الأحمر نحو ينبع ومنها إلى جدة، ويكـون قد أدى فريضة الحج وهو بالحجاز، بعدها توغل في بلاد العرب ووصل في سفره إلى شمال فارس فزار تبريز وتعرف على معالمها، ومنها عبر إلى أرمينيا ودخل القسطنطينية للمرة الثانية عن طريق الأناضول ليتحول منها بعد فترة إلى مصر عبر بـلاد الشام، وفي طريق عودته إلى المغرب 1518 عن طريق البحر انتقل من الإسكندرية إلى طرابلس متوجهاً نحو تونس لكنه وقع في الأسر بميناء جربة أواخر سنة 1519 م. واقتاده القرصان الصقلي بيترو بوڤاديقليا (Pietro Bovadiglia) إلى إيطاليا وقدمه هدية إلى البابا ليون العاشر «يوحنا الميديسي» (1513 - 1521) Léon X Jean de medicis ابن لورانسو الفاخر أمير فلورنسة والذي عرف بتشجيعه للآداب والعلوم واهمامه بقضايا الشرق.

قدر البابا ثقافة ومواهب حسن الوزان فأحسن استقباله وقرر له وهو في سجنه معاشاً حتى لا يفكر في الهرب، وشجعه على اعتناق المسيحية وخصص لهذا الغرض ثلاثة قساوسة (Evêque) ليقوموا بتعليمه مبادىء المسيحية ببرج القديس الملاك (Saint Ange) وبعد سنة حرر من أسره وعُمِّدَ من طرف البابا شخصياً بكنيسة القديس بطرس بروما (Saint Pierre) في 6 جايفي 1520 تحت اسم جوهانيس ليو المديسي (Johannis Léo de Medicis) وهو الاسم الأصلي للبابا، غير أن الحسن الوزان لقب نفسه فيما بعد بيوحنا الغرناطي، وإن غلب عليه لقب الأسد الإفريقي (Léon L'Africain) الذي أطلقه عليه محقق وناشر كتابه «وصف إفريقيا» راميزيو (Rumusio) الإيطالي.

ظل الأسد الإفريقي حسن الوزان برومة، وأثناء انتقاله إلى مدينة بولونيا بشمال إيطاليا لإلقاء بعض الدروس في اللغة العربية ظل مفضلاً لحياة العزوبة والزهد مبتعداً عن المظاهر الصاخبة للمجتمع الإيطالي، منشغلاً بدراسة اللغة

اللاتينية والإيطالية مهتماً بتأليفه وفي مقدمتها «وصف إفريقيا» موضوع هذه الترجمة، وقد حافظ على سلوكه هذا بعد موت حامية البابا ليون العاشر في شهر ديسمبر 1521. وقد راودته فكرة العودة إلى بلاد المغرب والاندماج ثانية في المجتمع الإسلامي، وهذا ما عبر عنه بوضوح في خاتمة كتابه الثامن 1525 م عندما أعرب عن عزمه على إتمام وصف البلاد خارج إفريقيا قائلاً: «إنّي أعتزم بعون الله حينما أعود من أوربا إلى وطني أن أخص كل هذه الرحلات بالوصف». وذكر فيدمان شتان أن ليون الإفريقي «الحسن الوزان» قد تمكن من الإفلات من مراقبة السلك الديني، وغادر روما ما بين سنتي 1528 ـ 1530 وعاد إلى تونس واعتنق الإسلام من جديد، وأنه توفي بها أو بفاس حوالي سنة (944 هـ/ 1537 م) غير أن راميزيو (Ramusio) ذكر أن الحسن الوزان بقي برومة حتى وافته المنية سنة 1538. دون إيراد أدلة تثبت ذلك. ونحن نستبعد ما ذهب إليه راميزيو لأنه لو كان ما ذكره صحيحاً لعثر الباحثون على أدلة تثبت وجود الأسد الإفريقي برومة في السنوات الأخيرة من حياته.

ترك الأسد الإفريقي «الحسن الوازن» العديد من المصنفات منها قاموس عربي ـ عبري ـ لاتيني، انتهى من وضعه بمدينة بُولونيا في يناير 1524 توجد منه نسخة مخطوطة بيد المؤلف بمكتبة الأسكوريال، ومصنفاً في البلاغة وقواعد العربية (Réthorique arabe) ورسالة ضمنها تراجم ثلاثين عالماً عربياً في الطب والفلسفة تحت عنوان: الحوليات الإسلامية (Les chroniques musulamanes) اقتبسها من مختلف الكتب العربية التي كانت بحوزته، ونشرت بهامبورغ سنتي 1664 و 1746، على أن الكتاب الذي اشتهر به هو كتاب «وصف إفريقيا (Description de l'Afrique) الذي لم يصلنا منه سوى النسخة الإيطالية بعنوان: وصف إفريقيا والأمور الهامة بها Deserizione dell Africa et dell cosi mol abiliche quivi soxo» ومن الراجح أنه كتبه بالإيطالية البسيطة التي عبر من خلالها عن شخصيته وتفكيره المغربي سنة 1528. اعتماداً على مذكرات Notes وضعها أصلاً بالعربية، (1526) واصطحب فقرات منها عند أسره، وهذا ما يتجلى من طريقة وصفه ونوعية معلوماته، ولعل هذا ما اضطر ناشره الأول راميزيو إلى إدخال تحوير على الأسلوب وتصحيح على

اللغة مع احترام معاني النص الأصلي الذي كتبه الأسد الإفريقي، والذي كان يميل إلى العامية وتوجد نسخة منه ضمن المقتنيات التي تحصلت عليها المكتبة الإيطالية بروما سنة 1931 (تحت رقم 953).

جاء كتاب إفريقيا في عرض جَمَعَ بين كتب الرحلات وكتب المسالك، ومزج بين الطابع العربي التقليدي والأسلوب الغربي المستحدث. وعاد فيه إلى المصادر التقليدية وفي مقدمتها ابن الرقيق، كما اعتمد على المشاهدة والملاحظة والمقارنة لانقطاعه عن البيئة التي يصفها، وهذا ما عبر عنه بقوله: «لقد دونت بجد واجتهاد ومن يوم لِآخر تلك الأشياء التي رأيتها بعيني وبدا لي أنها تستحق الذكر، عندما عبرت إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها، وما لم أربه بنفسي بسبب ضيق الوقت أو صعوبة الطريق فقد جهدت نفسي في الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم، ثم بذلت جهدي في جمع شتات هذه المادة وصياغتها في شكل انتهيت من تدوينه أثناء وجودي بروما وذلك في اليوم العاشر من شهر مارس لسنة 1526 من ميلاد المسيح».

يشتمل وصف إفريقيا على ثلاثة كتب رئيسية موزعة على تسعة أقسام بها وصف شامل لمعالم شمال إفريقيا من المغرب إلى مصر ومن سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى أعماق بلاد السودان، فجاء القسم الأول في التعريف بإفريقيا وسكانها وعاداتهم ومعتقداتهم وظروف حياتهم، والثاني لأقاليم المغرب الأقصى الجنوبية (مملكة مراكش) والثالث لمملكة فاس، والرابع لمملكة تلمسان، وقد وصف فيه مدن ندرومة، أرشقول، هنين، البطحاء، وهران، المرسى الكبير، مستغانم، مازغران، برشك، شرشال، مليانة، تنس، مازونة، الجزائر، تاقدامت، المدية، تامنتفوست، دلس، أما الخامس فقد خصصه لدولة الحفصيين: (مملكتا بجاية وتونس)، وقد وصف فيه من المدن الجزائرية: بجاية، جيجل، مسيلة، سطيف، نقاوس، القل، سكيكدة، قسنطينة، ميلة، بُونة (عنابة)، تفاش، تبسة، الأربض، بالإضافة إلى مدن البلاد التونسية والليبية، والسادس لمنطقة نوميديا (أقاليم الصحراء الجزائرية والتونسية والليبية) والسابع لبلاد السودان، والثامن لمصر، والتاسع والأخير للأنهار والحيوانات والنباتات المهمة بإفريقيا.

عرف وصف شمال إفريقيا لدى الخاصة منذ سنة 1529 م) واشتد الإقبال عليه باعتباره كتاباً أساسياً في الجغرافية الوصفية، ومرجعاً مهماً لتصحيح الخرائط وضبط المعلومات المتعلقة بشمال إفريقيا، ومما زاد في أهمية كتاب وصف إفريقيا للأسد الإفريقي دقة وصفه وصحة ملاحظاته، وتحريه الصدق والنزاهة والحياد في كل ما أورده، فلم يلاحظ عليه أي تجريح أو تهجم، ولم يتأثر بالفكرة المعادية لمسلمي شمال إفريقيا التي كانت تسود المجتمع الإيطالي، وإن بدر منه نفور من الأعراب البدو لتأثيرهم السلبي على الاقتصاد. ولعل نشأته الحضرية كان لها دخل في هذه النظرة المتحفظة من القبائل الرحل الذي سبقه إليها ابن خلدون في تاريخه، أما بعض الأخطاء التي وردت فيه والتي لا تنقص من قيمته، فمردها لعدم تصحيحه النسخة المنشورة أو لنقله عن بعض المصادر دون نقدها أو مقارنتها للتثبت منها.

طبع كتاب وصف إفريقيا لأول مرة ضمن مجموعة الرحلات التي أصدرها بالبندقية الناشر يوحنا المعمدان راميزيوا (Jean Baptiste Ramusio) سنة 1550. ثم ظهرت الترجمة اللاتينية التي قام بها يوحنا فلوريان (Jean Florian) سنة 1556 بأنفير (Anvers) ببلجيكا في سنة 1559، كما ظهرت الترجمة الفرنسية بقلم جان طانبورال (Jean tramporel) بليون (1556) والإنكليزية (1660) والألمانية (1805)، بعد ذلك صدرت الطبعات الكاملة له بالفرنسية علي يد شيفر 1896-1898 (Schefer) وبالإنكليزية بقلم براون (Brown) (1896)، هذا وقد عملت الباحثة الإيطالية أنجيلا كاردوزا (Angela Cardosi) على نشره في لغته الإيطالية في طبعة محققة رجع إليها الطبيب أبولار (A. Epaulard) في ترجمته الفرنسية الأخيرة لوصف إفريقيا. التي مات قبل أن ينتهي منها سنة 1949. وقام بإتمام هذا العمل مجموعة من الباحثين مونود (Th, Monod) وموني (R. Mauny) ولوث (H. Lhote) بمساعدة مختصين في التاريخ فصدرت بباريس في جزأين سنة 1956، وقد تميزت طباعة هذه الترجمة المحققة عن غيرها من الطبعات بالوضوح في الإخراج والدقة في التحقيق، وقد ظهر أخيراً كتاب وصف إفريقيا في لغة مؤلفه الأصلية. ـ اللغة العربية ـ ووضعت له ترجمتان إحداهما بالسعودية قام بها عبد الحميد حميدة وراجعها علي عبد الواحد سنة 1399 هـ/1979 م والثانية من إنجاز محمد حجي

ومحمد الأخضر بالمغرب الأقصى، طبعت بالرباط مما سهل الانتفاع بهذا الكتاب الجغرافي القيم لجمهور قراء العربية.

المراجع المعتمدة:

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 1، الرباط، 1980، ط 2، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1983.
- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عبد الحميد حميدة، الرياض، 1979.
- عنان (محمد عبدالله)، الرحالة الأندلسي: الحسن الوزان أوليون الإفريقي، مجلة العربي عدد 43/1962 ص ص 73/77.
- زوام، (محمد أحمد)، الحسن الوزان، رسالة ماجستير معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة (1398) غير منشور.
- الجمل، (شوقي عطا الله)، محمد الحسن الوزان، مجلة المناهل، مارس، 1975.
- قاسم، (جمال زكريا)، الحسن الوزان رحالة عربي ومصنف فرنجي، مجلة العربي، يونية 1972.
- مسعود (مصطفى)، الحسن بن محمد الوزان، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، 1970.
- زمامة: عبد القار، ليون الإفريقي، مجلة اللقاء. عدد 10 يناير 1969 ص ص 115 - 117.
- الحجوي (محمد المهدي)، حياة حسن الوزان وآثاره، الرباط، 1935
- معجم المؤلفين، ج 7، ص 217.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 489 - 495.
- معجم أعلام الجزائر، ص 342.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 548 - 549.
- Léon L'Africain (J) Description de l'Afrique, tra par Schefer, 3 vols, Paris 1896 - 1898.
- Léon L'Africain (J) Description de l'Afrique, Nouvelle édition, trad de l'Italien par A. Epaulard, 2 Vols, Maisonneure Paris 1956.
- Benachenhou (A.) Hassen Ben Mohamed El, Wuazzane: L'Algérie en 1515, Alger 1969
- Massignon (L.) Maroc dans les premières années du XV siécle, Tableau géographique d'après lèon l'Africain, Alger 1906.

جهاد عروج بربروسة

كانت الجزائر خاضعة لتلمسان مدة طويلة، لكنها استسلمت لملك بجاية القائم حديثاً لقربها من مملكته، فانحاز أهل الجزائر إلى ملك بجاية لما أوجسوا منه خيفة، ولعدم قدرة ملك تلمسان على إنجادهم، فبايعوه وأدوا إليه الخراج لكنهم بقوا تقريباً متحررين، وبعد ذلك سلحوا سفناً وتحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر يابسة وميورقة ومنورقة، وحتى شواطىء إسبانيا، لذا أرسل الملك الكاثوليكي فردناند أسطولاً عظيماً لحصار الجزائر. فشيدوا قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة مقابلة تماماً للمدينة وقريبة منها. بحيث كانت قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة بل وتمر فوقها من سور إلى سور، فاضطر أهل الجزائر إلى إيفاد سفارة إلى إسبانيا تطلب هدنة عشر سنوات مقابل بعض الخراج، فقبل الملك ذلك وعاشوا في السلم بضعة أشهر.

ثم جاء بربروس فحاصر بجاية وإحدى القلعتين اللتين بناهما الإسبان بعد أن استولى على الأخرى، لكنه لم يصل إلى نتيجة، لأن القبائل الجبلية التي هبت لنصرته ذهبت بدون استئذانه لزرع الحقول، وتبعها أيضاً عدد كبير من الجنود الأتراك فاضطر بربروس إلى الفرار، وقبل أن ينصرف أحرق بيده اثنتي عشرة سفينة ضخمة كانت راسية في النهر، على بعد ثلاثة أميال من بجاية. ثم التجأ مع أربعين من خواصه الأتراك إلى قصر جيجل الواقع على بعد ستين ميلاً من بجاية. ومكث به فترة من الزمان هلك خلالها الملك الكاثوليكي، وأراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لإسبانيا، فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائداً لهم، نظراً لقيمته العسكرية العظيمة. وكفايته في محاربته للمسيحيين، وكان الخلاف قائماً بين بربروس وأحد المتسلطين على إمارة الجزائر، فقتله غيلة في أحد الحمامات، وكان هذا المتآمر زعيم الأعراب القاطنين بسهل المتيجة،

واسمه سليم التومي من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من معقل، استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الإسبانيون بجاية واستقر فيها عدة سنوات. إلى أن أتى بربروس فقتله. ونودي به ملكاً فضرب السكة وأذعن له جميع السكان بالطاعة وأرسلوا إليه الخراج. ذلكم كان أصل قوة بربروس وعظمته.

حضرت جل هذه الأحداث، إذ كنت على سفر من فاس إلى تونس، ونزلت ضيفاً عند السفير الذي بعث به إلى إسبانيا وعاد حاملاً معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من شاطبة، إحدى مدن مملكة بلنسية، خرجت من الجزائر قاصداً بجاية فوجدت بربروس محاصراً قلعتها، ومكثت عنده لأشاهد نهاية هذه المعركة، إلى أن هرب والتجأ إلى جيجل، فانصرفت بدوري قاصداً قسنطينة في طريقي إلى تونس. وقيل لي إن بربروس قتل في ذلك الوقت بتلمسان. وبويع أحد إخوته المسمى خير الدين أميراً على الجزائر، وما زال يحكمها حتى الآن.

الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا
ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية
دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، الجزء الثاني
ص ص 38 ـ 39

أبو عبدالله محمد بن مريم المديوني التلمساني

(ت حوالي 1020 هـ ـ 1611 م)

ولد على الراجح بتلمسان في منتصف القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي من عائلة تنتسب إلى أشراف مليتة، وتلقى تعليمه بمدارس تلمسان وأخذ عن أبيه مبادىء اللغة والفقه ثم تحول إلى المغرب الأقصى ثم عاد إلى تلمسان، عد من الفقهاء لمعارفه الفقهية واللغوية ولاطلاعه على الأخبار والسير، اشتغل بالتدريس خلفاً لوالده عام 985 هـ/ 1577 م. وأثناء ذلك اهتم بتقييد الأخبار وقراءة الشروح اللغوية والأدبية. والنظر في المسائل الفقهية، وغلب عليه الزهد فاشتهر أمره وتتلمذ عليه بعض علماء عصره، مثل عيسى البطيوي الذي ترجم لشيخه ابن مريم في كتابه مطلب الفوز والفلاح، وذكره محمد بن سليمان في كعبة الطائفين ـ وقال ظل ابن مريم مواظباً على التدريس مهتماً بالتأليف حتى وافته المنية حوالي عام 1020/ 1605 م.

أكثر ابن مريم من الشروح والتقاييد في أمور الفقه والعقائد والذكر والكرامات والزهد والتراجم، فذكر له تلميذه عيسى البيطوي في مطلب الفوز والفلاح ثلاثة عشر مصنفاً وذكر ابن مريم عن نفسه في آخر البستان تحت عنوان «خاتمة نسأل الله حسن الخاتمة» أن له أحد عشر تأليفاً أغلبها شروح وتقاييد منها: غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد، وتحفة الأبرار وشعار الأخيار، وفتح الجليل في العليل للرقي، وفتح العلاّم لابن التازي، وكشف اللبس والتقييد عن عقيدة التوحيد، والتحلية السنية في الأرجوزة الفرضية، وشرح على مختصر الصغرى، وتعليق على مختصر الرسالة، وشرح المرادية للتازي، وتفسير بعض ألفاظ

الحكم. وتفسير الحسام، وغيرها.

اشتهر ابن مريم بكتابه في التراجم الذي وضع له عنوان: «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلسمان، أو البستان في ذكر مناقب أولياء تلمسان»، الذي جمع مادته من مختلف المصادر، وانتهى من وضعه عام (1011 هـ/ 1603 م) وقصد من ذلك حسبما جاء في قوله: «أن يكون جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات وجمع ما كان بها وحوزها وعمالتها...» وإن كان لم يلتزم بذلك أثناء تأليف كتابه، فقد شملت تراجمه علماء من القيروان وفاس والأندلس ومن المشرق مثل الخليل بن إسحاق المصري.

تضمن كتاب البستان تراجم مفصلة لِـ 182 عالماً وولياً صالحاً جلهم نشأوا أو عاشوا أو تعرفوا على تلمسان. ومنهم من غادرها إلى فاس ومراكش لجور حكامها الأتراك مثل محمد بن مرزوق الخطيب، وأحمد الواعزاتي. ومحمد بن شقرون الوجد يحيىٰ. ومحمد بن عزوز الديلمي، ومحمد بن محمد العياشي، وقد وضع بن مريم كتابه البستان استجابة لطلب شخص كان يحْظى لديه بالتقدير، وسعياً لكسب الثواب ونيل الأجر في الآخرة. وهذا ما نفهمه من محتوى كلامه: «فقد اطلعت على ما أشرتم به علي من ذلك التأليف الأبرك المنظم جمع أولياء تلمسان... فأسعفتكم فيما طلبتم... والذي ألهمهم إليه الأخ من أفضل ما يبذل به العمر كله... إذا كان مجرد حب الأولياء ولاية وثبت أن المرء مع من أحب فكيف من زاد عن مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمهم ظاهراً وباطناً بتسطير أحوالهم ونشر محاسنهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم نشراً يبقى على مر الزمان ويزرع الود لهم والحسن في صدور المؤمنين للاقتداء بهم بحسب الإمكان...».

اعتمد ابن مريم في تراجمه على بعض الروايات الشفوية وعلى المذكرات والتقاييد الشخصية، كما رجع إلى العديد من كتب التراجم والسير والتاريخ منها نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي، وبغية الرواد ليحيىٰ بن خلدون، وروضة النسرين لابن الأحمر، والنجم الثاقب لابن صعد، والتقييد في مناقب

الأربعة المتأخرين لمحمد السنوسي، والكوكب الوقاد لمؤلف مجهول، وربما أخذ أيضاً عن الإحاطة لابن الخطيب، والعبر لابن خلدون، والوفيات لابن قنفد القسنطيني، والمعيار للونشريسي، والديباج لابن فرحون، ورحلة القلصادي، والمواهب القدسية للملالي.

رتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء من أحمد إلى يحيىٰ، فجاءت متفاوتة في الطول منها ما بلغ عدة صفحات ومنها ما لم يتجاوز السطر الواحد، ومنها ما جاء مفصلاً ومطولاً مع ذكر النسب والمشايخ والتلاميذ والكتب وتاريخ الوفاة، ومنها ما لم يرد فيه شيء من ذلك. فمن التراجم المفصلة نذكر تراجم: محمد الورنيدي. وأحمد بن الحسن الغماري. وأحمد زروق البرنسي. وإبراهيم التازي، والحسن بن مخلف الراشدي (أبركان) وشعيب بن الحسن الأندلسي (أبو مدين)، ومحمد بن محمد المقري، ومحمد بن محمد الشريف العلوي، ومحمد بن مرزوق الخطيب، ومحمد الورغي التونسي، ومحمد بن مرزوق الحفيد، ومحمد الهواري. ومحمد بن عبد الكريم المغيلي. ويوسف بن النحوي. ومن التراجم الموجزة والمقتضبة نذكر تراجم: محمد بن سليمان النجار.

تميز ابن مريم في تراجمه بميله إلى الورع وبنزعته إلى التصوف. فهو يعتقد «بأن التذكير بمناقب الصالحين أنساً للقلوب المتوحشة من شر الزمان وأهله وتنشيطاً للنفوس...» وقد أدى به ذلك إلى الإيمان بولاية الأولياء وكراماتهم. فهم حسب قوله: «إذا ذكروا نزلت الرحمة» وهو في ذلك عكس السنوسي الذي ترجم له والذي كان يرى أن الولاية قد طوي بساطها. وأن الاجتهاد لا فائدة فيه في هذه الأزمنة المتأخرة» ولم يتردد ابن مريم في إثبات الكرامات والخوارق والاعتقاد في صلاح الدراويش والخرافيين وأدعياء العلم الذين كانوا يحظون بتقدير العامة، وهو بذلك يخالف معاصره الشيخ عبد الكريم الفكون القسطنطيني صاحب منشور الهداية (توفي 1046 هـ) الذي نقم على العلماء المنحرفين والصلحاء الأدعياء، وقد أدى هذا الموقف بابن مريم إلى ضعف نظرته العلمية وانعدام النقد المنهجي لديه. وإهمال ما قد يؤخذ على العلماء الذين ترجم لهم فأصبح كلما ذكر أحداً من الأولياء أو العلماء إلا ونسب إليه معرفة علوم الظاهر والباطن وخصه بالتعمق في

العلوم المعقولة والمنقولة، واكتفى بالحديث عن حياتهم وتآليفهم دون تعليق على الظروف أو نقد الأحداث، فكل ما يهمه هو تسجيل إجازة وذكر خصال. ومؤلفات العلماء المترجم لهم، وهذا ما أكده بقوله: «إعلم أن طلب الإجازة والرواية من شأن أهل العلم. وكذلك معرفة أفاضل الأمة من صحابي وتابعي وفقيه. وأن أسماء المؤلفين من الكمال ومعرفة طبقات الفقهاء من مهمات المطالب وكذلك ما ألفوه من حصر المسائل».

هذا وقد تقيد ابن مريم في تراجمه بالطريقة التقليدية في إقرار الخبر وإثبات الرواية وذكر الشيوخ والطلبة والمؤلفات. وتميز بأسلوبه البسيط السهل الذي تداخله بعض العبارات العامية مثل كلمة الشوارى (الأحمال) وعبارة ورد الناس إليه بالهم «أي انتبهوا إليه واهتموا به».

يعتبر كتاب البستان من أهم كتب التراجم التي عرفت بالأولياء والعلماء والمدرسين والأدباء والمؤلفين والصالحين، إذ قال عنه العالم والمحقق محمد بن أبي شنب «أعظم المؤلفات في تراجم العلماء السادات» فهو المصدر الأساسي للتعرف على الحياة الثقافية والعلمية وما يتصل بها من عمران وعوائد ومعاملات بالمغرب الأوسط عامة وتلمسان خاصة لفترة طويلة تمتد من القرن السادس إلى غاية الحادي عشر للهجرة (ق 12 هـ/ 16 م).

حظي كتاب البستان باهتمام المؤرخين وتقدير المستشرقين، إذ ترجمه بروفانصال إلى الفرنسية، وأخذ منه بارجيس ما كتبه عن تلمسان، وقام محمد بن شنب بتحقيقه اعتماداً على عدة نسخ مخطوطة منها نسختان بالمكتبة الوطنية الجزائرية. وأخرى بمكتبة المدرسة العليا بالجزائر. ووضع له فهارس وتعليقات. وطبع بالجزائر 1908 م (315 ص) ثم أعاد نشره مؤخراً في طبعة مصورة عن تحقيق بن شنب مع مقدمة له الأستاذ عبد الرحمن طالب ضمن منشورات ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر 1986، مما سمح لجمهور القراء الانتفاع به والتعرف على تراجمه.

المصادر المعتمدة:

- ابن مريم، أبو عبدالله محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن أبي شنب الجزائر 1908. ص 2 مع مقدمة عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1986.
- تعريف الخلف القسم الأول، ص ص 151 ـ 164.
- شجرة النور الزكية الجزء الأول (ترجمة 1139 / ص 296).
- سعد الله، أبو القاسم. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول الجزائر، 1981.
- بو عياد، محمود، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مجلة الأصالة، عدد 26/1975، ص ص 260 ـ 269.
- معجم أعلام الجزائر، ص 184.
- معجم مشاهير المغاربة، ص 489.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص ص 367 ـ 368.

* * *

ابن مَريم يوضح غرضه من تأليف البستان

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد السلام عليكم أيها الأخ الأحب في ذات الله تعالى ورحمة الله تعالى وبركاته، فقد طالعت ما أشرتم به علي من ذلك التأليف الأبرك المتضمن جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات، وجمع من كان بها وحوزها وعمالتها فأسعفتم فيما طلبتهم، نسأله سبحانه وتعالى أن يكمله لكم وأن ينفعكم به خصوصاً وينفع به المسلمين عموماً دنيا وأخرى، وهذا الذي ألهمتم به أيها الأخ من أفضل ما يبذل فيه العمر كله، فكيف إذا مضى منه الأكثر فيما لا يعني لأن فيه أنساً للقلوب المتوحشة من شر الزمان وأهله وتنشيطاً للنفوس، وقد نص العلماء على أن ذكر العلماء وحكايات الصالحين واقتصاص أحوالهم أنفع للنفس بكثير من مجرد الوعظ والتذكير بالقول، وفي اشتغالكم أيها الأخ بهذا الخير العظيم وعمارة أفكاركم وأوقاتكم به استمطار إلى الرحمة الموهوبة وسعي في انصباب بحورها عليكم وعلى كافة المسلمين لأن الصالحين إذا ذكروا نزلت الرحمة وفيه عدة لكم وأوثق عروة وأقرب وسيلة في الدارين لأنه إذا كان مجرد حب الأولياء ولاية وثبت أن المرء مع من أحب فكيف بمن زاد على مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمتهم ظاهراً وباطناً بتسطير أحوالهم ونشر محاسنهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم نشراً يبقى على ممرّ الزمان، ويزرع المودة لهم والحب في صدور المؤمنين للاقتداء بهم حسب الإمكان. قال الشيخ السنوسي وليكن اعتناؤك يا أخي بمن تأخر من الصالحين وخصوصاً من أهل بلدك حلولاً بالسكنى والدفن أكثر من اعتنائك بمن تقدم منهم وذلك لأوجه، أحدها أن الغالب فيمن تقدم إمكان الاستغناء عن التعريف بأحوالهم بتأليف من مضى، الثاني أن نشاط النفوس للخير

والاقتداء بذكر محاسن المعاصرين لها أو من قرب من المعاصرين أكثر من نشاطها بذكر من بعد زمانه لأن منافسة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة، وأيضاً النفوس في هذه الأزمنة المتأخرة قد يمنعها من الاجتهاد في العمل الصالح ورياضة النفس عنها أن الولاية قد طوي بساطها فترى أن الاجتهاد لا فائدة فيه إذا عرفت أن بعض المعاصرين أو من قرب من المعاصرين قد فتح لها بابها قوي رجاؤها حينئذٍ في الفتح ونشطت واجتهدت.

وهاهنا انتهى الغرض فيما قصدناه، على الوجه الذي بيناه، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وفي سنة إحدى عشرة وألف بمدينة تلمسان وضعناه، ونسأله جلت قدرته أن يجعله خالصاً لوجهه على الوجه الذي يتقبله ويرضاه، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأواه، وعلى آله وأصحابه الرفقاء له في دنياه وأخراه. وقد انتخبته من نيل الابتهاج بتطريز الديباج للشيخ أحمد بابا السوادني. ومن بغية الرواد في أخبار الملوك من بني عبد الواد، ومن تقييد سيدي محمد السنوسي في مناقب الأربعة ومن روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين، ومن النجم الثاقب، ومن الكواكب الوقادة فيمن كان نسبته من العلماء والصالحين القادة، ومن كتب عديدة وقد سألني ولدي رضي الله عنه وعلمه وبارك فيه وأنعم عليه عما وقع لي من التأليف ليكتب ذلك فأمليت عليه ما صادفه زمانه لحرصه على هذه المسائل ولنسردها هنا تكملة للغرض فمنها غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد، ومنها تحفة الأبرار وشعار الأخيار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار، ومنها فتح الجليل في أدوية العليل لعبد الرحمن السنوسي المعروف بالرقعي، ومنها فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام لسيدي إبراهيم التازي. ومنها كشف اللبس والتقييد عن عقيدة أهل التوحيد، ومنها التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية، ومنها شرح على مختصر الصغرى اختصرها سيدي سليمان بن أبي سماحة للنساء والعوام. ومنها تأليف حديث نبوي وحكايات الصالحين ومنها تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسير بعض ألفاظها. ومنها شرح المرادية للتازي. ومنها تفسير بعض ألفاظ الحكم لم يكمل، ومنها تفسير الحسام في ترتيب وظيفة التازي وما يحصل من الأجر لقارئها. ومنها هذا

التأليف المشتمل على عدد أولياء تلمسان وفقهائها في حوزها وعمالتها الأحياء منهم والأموات هذا ما أمكنني جمعه وأما الإحصاء فلا أقدر على إحصائهم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أبو عبدالله محمد بن محمد الملقب بابن مريم المليتي
البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان

ط. مصورة عن النسخة التي نشرها محمد بن أبي شنب، أصدرها عبد الرحمٰن طالب، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986

ص ص: 5 ـ 6 و 314 ـ 315

أبو العباس أحمد بن القاضي

(ت 1025 هـ/1616 م)

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن القاضي، ينتسب إلى عائلة ابن أبي العافية المكناسية الزناتية، ولد بفاس عام 960 هـ/ 1553 م وتلقى مبادىء العلوم على يد أبيه محمد بن القاضي (ت 981 هـ) ثم درس على علماء أجلاء من فاس ومراكش والحجاز ومصر وطرابلس وجربة، منهم أبو رشيد يعقوب البدري، وأبو العباس أحمد المنجور، وأبو زكريا يحيىٰ السراج، وأبو مالك عبد الواحد الحميدي، وأبو العباس أحمد القدومي، وأبو العباس أحمد اللمطي، وعلي الجازولي، وأبو سالم إبراهيم الربدي، وأبو عبدالله محمد الترعي، وأبو عبدالله محمد القصار، وأبو المحاسن يوسف الفاسي، وأبو عبدالله محمد الزروالي، وأبو عبدالله محمد المشاط، ومحمد بن علي الدارسي، وإمام الدين محمد الخليل المقدسي، وإبراهيم بن عبد الرحمن العلقمي المصري، وأبو زكريا يحيىٰ الحطاب، ومحمد بن إبراهيم الأنصاري الأندلسي الطرابلسي، وقد ارتبط خاصة بالشيخ أبي العباس المنجور الذي تحصل منه على إجازتين، ولازمه مدة طويلة ناهزت العشرين سنة 975 ـ 995 هـ، وقد أشار إلى ذلك في درة الحجال بقوله: «وما فارقته إلا زمن رحلتي إلى المشرق، وزمن أسري فقط، أو مدة أقمتها بمراكش في حياته».

ارتحل ابن القاضي إلى المشرق وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره (986) وعند عودته علم بانتصار أحمد المنصور في معركة وادي المخازن (986 هـ/ 1978 م) وهو بفزان، فنظم قصيدة في مدحه، وقد يكون المنصور قد

أرسله في سفارة إلى العثمانيين فوقع أسيراً في أيدي النصارى وهو في طريق عودته من الحجاز ومصر عن طريق البحر حيث أخذه فرسان مالطة قبالة سواحل هنين الواقعة بالغرب الجزائري واقتيد إلى مالطة أسيراً وأثناء ذلك ضاعت منه وثائقه وظل بها أحد عشر شهراً (994 ـ 995 هـ) ولم يطلق سراحه إلا بفدية من المنصور، وقد ذكر ابن القاضي بعض ما كان يكابده في أسره بقوله: «إذ كنت مع العدو الكافر في بلاء من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق والضرب». كما ذكر ذلك القادري في كتاب التقاط الدرر قائلاً في تقاييد عام 1204 «ورحل إلى الحجاز فحج ورجع للمغرب، ثم دخل لمصر لطلب العلم، فركب البحر فأسر بيد العدو، فافتداه المنصور بمال جزيل بعد مشقة، وبالغوا في تكليفه المشاق قبحهم الله لما علموه من خاصة الإسلام، وقد استعطف المنصور برسائل حتى أفتكه، نفعه الله بثوابه ورحمته»، وقد ازدادت مكانة ابن القاضي لدى المنصور بعد ذلك وأصبح من خاصته، هذا وذكر القشتالي بداية اتصال ابن القاضي بالمنصور في مناهل الصفا بقوله: «وفد على حاضرة مراكش وتلطف حتى وصل إلى أمير المؤمنين بمداخلة أهل بساطه من العلماء الكتاب... وحصل على الأمنية من أمير المؤمنين بانتظام في سلك أولي المراتب المرعية...» وتولى ابن القاضي أول الأمر القضاء والخطابة بالقصر، ثم ابتعد عن مراكش وأصبح قاضياً بسالا ثم مكناسة. قبل أن ينقطع عن الوظيفة بعد وفاة المنصور سنة 1012 هـ ويلتجيء إلى الزاوية الدلائية بالأطلس الأوسط حيث مكث مكرماً مدة ثماني سنوات قضاها في التدريس وقد أخذ عنه محمد بن أبي بكر الدلائي وأخوته، ثم استقر بفاس وظل بها منكباً على التأليف مشتغلاً بتدريس العلوم الشرعية والأدبية والرياضية، وقد اهتم خاصة بشرح صحيح البخاري بجامع الأبارين وجامع القرويين، وتتلمذ عليه علماء أجلاء منهم أحمد المقري صاحب نفح الطيب إلى أن وافته المنية سنة 1025 هـ/ 1616 م ودفن بباب عجيبة بمدينة فاس.

ترك أحمد بن القاضي العديد من المؤلفات والشروح والتصنيفات ناهزت الأربعة عشر، منها ثمانية في التراجم والتاريخ والفهارس وهي:

1 ـ المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور (موضوع هذه الترجمة).

2 ـ درة الحجال في عزة أسماء الرجال، ألفه عام 999 هـ. أهداها للمنصور. ابتدأ تراجمه بابن خلكان وجعلها ذيلاً لعقيانه، ورتب فيها الأعلام حسب الترتيب الهجائي المغربي.

3 ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ألفه عام 1004هـ. أهداه إلى المنصور أيضاً، وقد أخذ فيه بطريقة خاصة أوضحها بقوله: «انتقيت أن أذكر أولاً المدينة ومحاسنها وما اختصت به ثم بعد ذلك اذكر على ترتيب حروف المعجم ملوكها وعلماءها وأعلامها».

4 ـ درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك، وهي أرجوزة في 400 بيت ابتدأها بحياة الرسول ﷺ والخلفاء وانتهى فيها بالسعديين الذين خصهم بـ 59 بيتاً وجعلها كتذييل لرقم الحلل لابن الخطيب.

5 ـ الدر الحلوك المشرق بدرة السلوك، ألفه عام 1000 هـ. وجعله شرحاً لأرجوزة (درة السلوك).

6 ـ لقط الفرائد من لفاظة حق الفوائد، ألفه ما بين 1000 ـ 1009 هـ. وجعله ذيلاً لوفيات ابن قنفد القسنطيني، وضمنه رغم اختصاره أحداث العالم الإسلامي وغزو النصارى لثغور المغرب الغربي.

7 ـ زهرة البستان المتضوعة بمحاسن أبناء الزمان، يعتبر في حكم المفقود.

8 ـ رائد الفلاح بعوالي الأسانيد الصحاح. وهو في شكل فهرس أجاز به الأمير زيدان بن المنصور، وذكر فيه أسانيده وأرجعها 314 كتاباً، بدءاً بكتب القراءات والتجويد وانتهاء بكتب الشعر والأدب وردّ فيه على العديد من علماء المغرب والمشرق.

ومن مصنفات أحمد ابن القاضي في الفقه والفرائض: نيل الأمل فيما به بين المالكية جرى العمل، والقانون الوفي بجداول الحوفي، والرائد لطالب فهم الناهض بأعباء علم الفرائض، ومختصر المعيار، ولابن القاضي أيضاً في الحساب والهندسة والمنطق: فتح الخبير بحسن التدبير لفك رموز الأكسير في صناعة

التكسير، والفتح النبيل بما تضمنه من العدد ومعنى الحساب والتنزيل. ومدخل في الهندسة، ونظم في تلخيص ابن البناء ونظم في منطق السعد.

اشتهر أحمد بن القاضي بكتابه، المقصور على مآثر الخليفة المنصور الذي ألفه اعترافاً منه بجميل الخليفة المنصور على تخليصه له من الأسر (995 هـ) ألفه بعد فكاكه من الأسر بثلاث سنوات وانتهى منه عام 998 هـ، وجعله في مقدمة وثمانية عشر باباً وخاتمة، وقد أوضح ذلك في قوله: «فالمقدمة تشتمل على ذكر نسبه الطاهر الشريف وحسبه الظاهر المنيف. وشيء من فضائل قامت لذاته الكريمة وطلعته الجسيمة، والأبواب أذكر فيها ما تفرق وانتشر من جواهر مآثره وأنظم جمانها ليسهل لناظمه وناشره، وقد أذكر فيها بعض حكايات وقصائد ومقطعات أنشدتها وملح غريبة استفدتها ليكون ذلك كالمعين على مطالعة الكتاب لأن النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس بخلاف ما إذا نمق بغيره فقد يسلي العبوس، والخاتمة أذكر فيها نكتاً غريبة وطرفاً عجيبة يصغي إليها المنتهي والشادي والعاكف في ربع الأدب والبادي» اعتماداً على هذا الترتيب جعل أحمد بن القاضي مقدمة كتابه التي عنونها: بـ: «ذكر نسبه الطاهر وحسبه الشريف الظاهر، في خمسة فصول؛ الأول: في حقيقة الخلافة وشروطها. الثاني: في فضل الإمامة. الثالث: في وجوب طاعته، الرابع في حكم غريبة ونكت عجيبة تشتمل على آداب الرعية مع الملك، الخامس: فيما يجب على الخليفة، أما الأبواب فقد جعلها تفصيلاً للعناوين التي وضعها لها.

فالباب الأول: في حسن خلقه وعقله وكمال خلقه. وفيه فصل أول فيما يعد دليل الكمال وصحة الذكورة، وفصل ثان في تواضعه.

والباب الثاني: في محافظته على التكاليف الشرعية والأعمال الدينية والاعتقادات الأشعرية.

الباب الثالث: في عدله في رعيته وقيامه بشريعة جده محمد ﷺ وسنته.

الباب الرابع: في تعظيمه الميلاد النبوي وأبناء عمه من النسب العلوي وفيه فصل في إحسانه للشرفاء من أبناء عمه.

الباب الخامس: في رعايته لأهل العلم والصلاح ومجابرته لأهل الحلم والفلاح.

الباب السادس: في حسن ظنه بالله العظيم الكريم وقوة رجائه في فضله الجسيم.

الباب السابع: في نظره في أمور رعيته وأحوالها وملاحظته لشؤونها وأفعالها.

الباب الثامن: في حلمه العظيم وكرمه الشائع الجسيم.

الباب التاسع: في صبره الجميل ومقابلته الإساءة بالإحسان الأثيل.

الباب العاشر: في شدة حيائه الذي هو من صفات ذاته.

الباب الحادي عشر: في بره بوالدته واقتداؤه فيه بمآثر جده وسنته.

الباب الثاني عشر: في ملاحظته لأهل العلم وذويه وإيثار من اتصف به من أوليائه.

الباب الرابع عشر: فيما يؤثره من العلوم ويهتم به من فوائده اللامعة.

الباب الخامس عشر: في طهارة مجالسه العظيمة مما هو مذموم من الغيبة والنميمة.

الباب السادس عشر: في إقالته العثرات وعفوه وصفحه عن أكابر السيئات.

الباب السابع عشر: في قبوله المعذرة وعفوه بعد المقدرة.

الباب الثامن عشر: في قبوله للشفاعات ومبادرته لقضاء الحاجات.

الباب التاسع عشر: في مجازاته عن الهدية (سقط).

الباب العشرون: في توفيقه للاستخارة (سقط).

الباب الواحد والعشرون: في ذكر كتبه (سقط).

الباب الثاني والعشرون: في ذكر نظمه الذي يدل على كماله وعلمه.

الباب الثالث والعشرون: في غزوته السعيدة التي طن صيتها في الآفاق البعيدة.

الباب الرابع والعشرون: في ذكر فقهاء العصر وأبناء الزمان من اجتمعت به في سفري من المشايخ والإخوان.

الباب الخامس والعشرون: فيما صرفت فيه همته العلية في تمهيد الطرق بسيره المرضية.

الباب السادس والعشرون: في عظيم سلطنته وما شوهد من جميل شيمه وعلو

همته، وفيه فصل أول في علو همته وفصل ثان فيما وضع الله له في القلوب من محبة.

الخاتمة : في ذكر نكت غريبة وطرف بديعة عجيبة.

هذا وقد اعتمد أحمد بن القاضي في المنتقى المقصور على العديد من المصادر منها ما عرفه عن رجال الدولة وما أخذه عن شيوخه وما انتهى إليه من معاصريه من العلماء والأدباء والفقهاء، وما جمعه في رحلته، وما وقع له مع المنصور الذي التحق ببلاطه وأصبح من خاصته بالإضافة إلى التقايد وكتب التراجم والتاريخ التي اطلع عليها مثل كتاب المسند الصحيح لابن مرزوق وفهرست ابن غازي، وعنوان الدراية لمحمد بن صالح الكناني، وقد كان لبعض هذه المصادر تأثير في طريقة كتابته، فقد تأثر ابن لقاضي بابن مرزوق وسار على نهجه في كتاب المسند من حيث منهجه في التعميم وحتى في المبالغة في الوصف والتوسع في ذكر حاشية السلطان ووزرائه وشعرائه وكتابه وقواد دولته، كما تأثر ابن القاضي في كتابه المقصور بأساليب علوم الحديث ومصطلحاته في التثبت من الخبر وبكتب التراجم التي سبقته، فقد ضمنه العديد من الأحاديث النبوية والأشعار والحوادث التاريخية، وهذا ما يجعله نموذجاً لتاريخ الملوك في العهد السعدي إذ أنه جمع الأدب إلى التاريخ وعد مصدراً تاريخياً ومرجعاً أدبياً يعكس بصدق الواقع الثقافي لعصره ولبيئته بأسلوبه السلس الذي يداخله السجع عند الوصف والدعاء عند العرض، ويميل إلى الإطراء إذا تعلق الأمر بالمنصور خاصة، ولعل أهمية المنتقى التاريخية تكمن في تلك المعلومات المهمة التي تضمنها عن دولة المنصور السعدي وفي وصفه الشامل وفي عرضه الدقيق لمظاهر الحياة ببلاد المنصور، مثل وصف مهرجان ليلة المولد النبوي الشريف وما كان يوزع أثناءه من الأموال، فهو يقول: «حتى أنه ينفق ذلك اليوم من الأموال ما لا يحصى كثرة ويعطي كلاً على قدره من ثلاثمائة إلى خمسة آلاف أوقية» وكذلك في الإشارات الكثيرة للعلماء والكتاب والوزراء الذين كان يزدان بهم البلاط السعدي، وهو مع ذلك لا يتوانى في الإشارة بخصال أحمد المنصور وعدله فيقول في هذا الصدد: «وقد رفع أيضاً من أقطار ملكه عن رعيته الأمكاس كلها كالأعشار».

هذا ويلاحظ على كتاب المقصور سقوط بعض الأبواب منه (الباب 19، 20، 21) وكثرة الاستطرادات الأدبية من أشعار وطرف وأخبار وملح أدبية لمعاصريه أو الذين سبقوه والتي تكاد لا تمت بصلة لموضوع الكتاب، وقد أدى به ذلك إلى الخطأ في ذكر بعض المؤلفين وتداخل في أسماء بعض الشخصيات التي ذكرها، وإلى نسبة بعض الأبيات الشعرية إلى غير أصحابها أو إثباتها مشوهة، وقد يخلط بين أبيات شاعرين أو أكثر كما يؤخذ عليه ورود بعض الأخطاء اللغوية والعبارات العامية. هذا فضلاً عن الغلو والمبالغة والإفراط في وصف المنصور، شأنه في ذلك شأن الفشتالي في مناهل الصفا، فكلاهما مدح المنصور وأشاد بمآثره وأعجب بمظاهر عظمة ملكه وقدرته على القضاء على الثورات واعتنائه بالعلم، وكلاهما أكد أحقية السعديين في الملك ودورهم القيادي في الجهاد وفي فتح السودان، والاستعداد لاسترجاع الأندلس، لكن ابن القاضي كان أكثر إسهاباً في تحليل المشاعر وإبداء الإعجاب بالمنصور. وأكثر استطراداً في عرض القطع الشعرية والنوادر والملح. فعلى سبيل المثال، نجد أن ابن القاضي في الفصل السادس الذي تحدث فيه عن تقوى المنصور ينصرف عن غرضه إلى ذكر فوائد من مخافة الله وطاعته، ويورد ما لا يقل عن 13 مقطوعة شعرية في كل منها 10 إلى 20 بيتاً قبل أن يختم موضوعه عن تقوى المنصور في بضعة أسطر، وهذا ما جعل المادة التاريخية شحيحة في المنتقى بالنسبة إلى حجمه وموضوعه، ومن الملاحظ أن كلا من ابن القاضي والفشتالي أهمل شأن العامة ولم يهتم بالحياة اليومية لعامة الناس، فلم يهتما إلا بالأحداث التي تتصل بالمنصور، ومع هذا التشابه في الاهتمام من حيث الموضوع والطريقة فإن الفشتالي يتميز عن ابن القاضي بكون أسلوبه أكثر قوة ورصانة، وتوسعاً في المعلومات واهتماماً بالأحداث الخارجية والعلاقات مع أوربا، ولعل ما تميز به ابن القاضي عن الفشتالي هو وصفه لوضع المغرب ومقارنته بأقطار المشرق، ففي هذا الشأن يذكر ابن القاضي بأن المنصور قد رفع في أقطار ملكه الأمكاس كلها عن رعيته. كأعشار السلع في المراسي والأبواب، وغير ذلك من الوظائف السلطانية التي «عمت سائر البرايا وعظمت بها البلايا مما هو بسائر البلاد»... و «إن أول ما صرفت إليه همته العلمية تمهيد

الطرق على المسافرين بمنازل وخيام أمر بسكناها على الطريق بين المنزلة والمنزلة ما يقرب من أربعة وعشرين ميلاً يسكنها أهل البادية. فقد أجرى لهم على ذلك من أقطاع الأرض ما يكفيهم ثواباً لهم على سكناهم هناك وأمرهم ببيع الشعير والطعام واللحم والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المسافر ودوابه...».

هذا وقد طبعت عدة كراسات من المنتقى المقصور بفاس طباعة حجرية، في أواخر القرن التاسع عشر، وقد قام المؤرخ الباحث والمحقق محمد رَزوق بتحقيقه والتعليق عليه ووضع دراسة مطولة حوله، معتمداً على عدة نسخ بالمكتبة الملكية بالرباط (نسخ 3197 ز، 1153 ز، 1059 ز) ونشرته مكتبة المعارف بالرباط في جزأين 1986 (1021 ص).

المراجع المعتمدة:

- ابن القاضي (أحمد) المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، دراسة وتحقيق محمد رزوق. 2 ج. مكتبة المعارف الرباط 1986 (1021 ص).
- ابن القاضي (أحمد) جذوة الاقتباس فيمن جل من الأعلام بمدينة فاس، الرباط 2 ج. الرباط 1973 ـ 1974.
- ابن القاضي (أحمد)، لقط الفرائد في لفاظة حق الفوائد، تحقيق محمد حجي الرباط 1976
- التقاط اللدور ص 69 ـ 71.
- دليل مؤرخ المغرب ج 1 ص 162.
- حجي، (محمد)، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، مجلة دعوة الحق عدد 1، 1966، ص 100.
- صفوة من انتشر، ص 77.
- اليواقيت الثمينة، ص 24.
- سلوة الأنفاس، ج 3، ص 133.
- زمامة (عبد القادر)، أبو العباس أحمد بن القاضي، مجلة البحث العلمي، الرباط عدد 14 ـ 15 السنة السادسة 1969، ص 201 ـ 213.

ـ زمامة (عبد القادر)، أبو العباس أحمد بن القاضي، مؤرخ دولة المنصور الذهبي مجلة كلية الآداب بفاس، عدد 2/3 1979 ـ 1980. ص ص 7 ـ 22.
ـ الأعلام ج 1 ص 225.
ـ معجم المؤلفين (ط 1961) ج 2 ص ص 147 ـ 148.
ـ الأعلام بمن حل مراكش ج 2 ص ص 295 ـ 299.
ـ فهرس الفهارس، ج 1، ترجمة 5، ص ص 114 ـ 115.

- Allouche (I.S.) Introduction à l'ouvrage d'Ibn Al. Kadi. Durrat al-Higel.
- Bencheneb (M) Ibn Al. Kadi, in Encyclopédie de l'Islam, nov. ed. T III pp. 837-838.
- Lévi-Provençal (E) Les historiens des chorfa E. Larose, Paris 1922, pp. 100-112.

من مآثر أحمد المنصور

اعلم أن مخدومنا أولى ما صرفت إليه همته تمهيد الطرق على المسافرين بمنازل وقيام أمر بسكناها على الطريق، بين المنزلة والمنزلة ما يقرب من أربعة وعشرين ميلاً يسكنها أهل البادية، فقد أجرى لهم على ذلك من أقطاع الأرض ما يكفيهم ثواباً لهم على سكناهم هنالك وأمرهم ببيع الشعير، والطعام، واللحم، والعسل، وغير ذلك مما يحتاج إليه المسافر ودوابه. وفي بعض المنازل من يصنع أطعمة جيدة ويبيعها ممن يستحقها وإن باتت لديهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون أمتعتهم، وإن ضاع شيء فيما بينهم ضمنوه لربه حتى لم يبق له درهم واحد، وإن كان ضياعه فيما بين المنزلتين ضمنه أقربهما منه أي من كان ذلك في حدوده الملزوم، فتجد المسافر في حال ذهابه وإيابه كأنه في بيته وبين أهله، ولقد ضاع من بعض أصحابي حمل (ملف) مرة وثمنه ما يقرب من ثمانمائة أوقية، فأعطاني ذلك كله قائد قواده ودعامة اعتماده: أبو سالم القائد إبراهيم بن محمد السفياني عن آخره، ومثل هذا اتفق لبعض التجار، ذهب لهم شيء سرق بقرب بعض المنازل فرفعوا أمرهم إليه ـ أيده الله تعالى ـ فأعطاهم ذلك من بيت ماله إلى أن يخلفه من أهل المنزل، وتوجبت يمين على التجار على أن الذي ضاع منهم قدره كذا، فعافاهم منها وأدى لهم المال عن آخره أعني القدر الذي حددوه لأنفسهم، وهذا دأبه أبداً مع رعيته، وليست بلاده كبلاد المشرق التي لا يقدر أحد أن يسافر فيها في البر إلا مع قافلة عظيمة محتوية على آلاف من الناس الحاملين للأسلحة، وقد يعرض لهم من العرب من يقاومهم فينهب أموالهم، ويستبيح دماءهم، وأما ما جرت به عادة أهل المشرق من توظيف الأمكاس على أموال التجار عند الوصول إلى كل مدينة، وشبه ذلك من المسمى بالغفر عند العرب

فليس في بلاده ـ أيده الله تعالى ـ شيء من هذا القبيل أصلاً، حتى الإنسان يكون في أحماله من التبر والياقوت ولا يخشى عليها في الطريق شيئاً ولا يعطي على ذلك كله إلا ربع درهم على كل حمل في باب المدينة، فهذا مما تشرف به المغرب على كل الأقطار، لا كما هو معهود في الإسكندرية ومصر والشام وجدة وغيرها من البلاد، فقد طهر إمامنا ومخدومنا مملكته من هذه النقيصة العظيمة التي عمت بها البلوى وحصل بها في الإسلام داهية دهياء، لا سيما وهم يولون اليهود على أمكاسهم، فتجدهم يدخلون أيديهم في أمتعة المسلمين وفي جيوبهم لعلهم أخفوا شيئاً من السلعة عن الأمكاس، ولهم في ذلك على المسلمين اليد الطولى ويقصدون نكاية المسلم بتبديد أسبابه وأثاثه مما لا تحل رؤيته، وإن كان في القافلة نساء أدخلوا أيضاً أيديهم في جيوبهن، ليبحثوا هنالك عن السلعة المخبأة وإن لحقت زوجها غيرة فما يقدر على دفع جولان اليهودي في جيب زوجته، ولا نكير عليهم في ذلك، ولو تتبعنا شماتات البلدان فيما يقرب من هذا المعنى لطال الكتاب جداً.

وبالجملة، فاعلم أنه لو أمكن منه ـ أيده الله تعالى ـ جور فهو عدل غيره ـ أبقى الله وجوده للمسلمين، وأثابه وعامله بجميل صنعه بجاه سيد الأولين والآخرين ـ.

أحمد بن القاضي

المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور

تحقيق محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986،

الجزء الثاني، الباب الخامس والعشرون ص ص 827 ـ 828.

أبو العباس أحمد بابا التنبكتي

(ت 1036 هـ/ 1627 م)

أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن يحيىٰ الصنهاجي الماسيني التكروري التنبكتي، ولد على الأرجح بقرية عَرْوَانْ قرب تنبكتو في شهر شعبان سنة 963 هـ/ 1555 م، من أسرة آقيت ذات الأصول البربرية، وقد كانت لأفراد هذه الأسرة بتنبكتو مكانة مميزة لما اشتهروا به من وجاهة وتقي وما توارثوه من حسب ونسب ونفوذ.

نشأ أحمد بابا بقريته ثم انتقل إلى حاضرة تنبكتو وتلقى العلم عن أفراد أسرته وشيوخ بلده فأخذ الحديث عن أبيه والنحو عن عمّه الشيخ أبي بكر والتفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم عنْ الفقيه العالم محمد بَغْيُع الورنكي (ت 1002 هـ) الذي لازمه عشرين سنة وقال عنه: «قرأت عليه بلفظي... قراءة بحث وتحقيق وتحرير... وما أنتفعت بأحد أنتفاعي به وبكتبه». ثم استزاد أحمد بابا علماً عمّن أتصل بهم من العلماء بالأقطار التي رحل إليها (المشرق) أو نقل إليها (مراكش) وحرص على الاستفادة من علمهم، ومنهم: الشيخ محمد خادم العلاني، والشيخ يحيىٰ بن محمد الحطاب الذي أجازه بمكة، وقد عُدَّ أحمد بابا من جملة العلماء المشاركين في العلم والموثوقين في الرواية، قال عنه البرتلّي في فتح الشكور نقلاً عن أبي عبدالله محمد الآيسي المراكشي في فهرسته «كان أخونا أحمد بابا التنبكتي من أهل العلم والفهم والإدراك التام الحسن، حسن التصنيف كامل الحظ من العلوم فقهاً وحديثاً وعربية وأصولاً وتاريخاً نسخيًا».

كان استيلاء أحمد المنصور على السودان الغربي نقطة تحول في حياة أحمد بابا، فقد اتهمت أسرته وآل أقيت بتحريض الناس على التمرد ضد الجيش

السعدي. فأمر الباشا محمد بن زرقون قائد جيش المنصور بالسودان باعتقالهم مع جملة أعيان تنبكتو في 24 محرم 1002، وكان عددهم يزيد على سبعين نفراً من رجال ونساء وأطفال. واستولوا على أملاكهم وأتلفوا كتبهم. فقد ذكر أحمد بابا التنبكتي أن كتبه التي نهبت في هذه الحوادث «ألفٌ وستمائة مجلد». ثم أرسلوا مصفدين إلى مراكش، وكانت رحلة شاقة وطويلة عانى أحمد بابا عذاب القيد وآلام ساقه التي كسرت عندما وقع من على ظهر الجمل أثناء الطريق.

وصل أحمد بابا مع باقي أفراد أسرته ومن كان معهم من أهل بلده إلى مراكش في مستهل رمضان 1002 هـ، ولم تنزع عنهم القيود إذ ظلوا في حكم الثقاف. وبعد أن خففت عنهم القيود 1004 وألزموا بالبقاء في مراكش انقطع التنبكتي للعبادة والعلم، ثم وافق بعد إلحاح الخاصة عليه أن يجْلس للإفتاء والتدريس بجامع الشرفاء، فكان مثال العالم المسلم الذي لا تشغله دنياه عن دينه وآخرته، وكانت له مواقف مع السلطان أحمد المنصور الذهبي شهدت له برباطة الجأش وقوة الشخصية، فقد رفض أن يكلّمه من وراء حجاب عندما استدعاه إلى قصر البديع، لأنه رأى في سلوك السلطان هذا ما يخالف تعاليم الدين، وخاطب السلطان قائلاً: «إن الله تبارك وتعالى يقول: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحيًا أو من وراء حجاب﴾** وأنت تشبهت برب الأرباب، فإن كان لك حاجة في الكلام معنا فأنزل إلينا وارفع الحجاب عنا» فاستجاب أحمد المنصور لطلبه، وأثناء الحديث لم يقتنع بجواب السلطان في سبب نفيه من تنبكتو بغرض اجتماع الكلمة، فقال له هلا جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان، وعندما رد عليه السلطان محتجّاً بما ينسب إلى الرسول ﷺ في حديث: «اتركوا الترك ما تركوكم» أجابه بدون تردد بذكر الحديث الذي رواه ابن عباس «لا تتركوا الترك وإن تركوكم».

مكث أحمد بابا التنبكتي بمراكش مدة عشرين سنة بين حجز وإقامة جبرية. كانت من أخصب فترات عمره. فقد قضاها في التدريس والإفتاء والتأليف. وضع فيها تسعة وعشرين كتاباً كما ذكر هو نفسه، وارتبط أثناء هذه المدة بصداقات مع رجال الثقافة وشيوخ العلم. فتعرف فيها على أحمد بن القاضي صاحب جذوة الاقتباس، ومحمد بن يعقوب الآيسي صاحب الفهرسة وأحمد المقري، والمفتي

الشيخ الرجراجي، والقاضي المسن أبو القاسم بن أبي الربيع الغساني قاضي قضاة فاس، والشهاب أحمد بن محمد بن القاضي قاضي مكناسة، وأحمد بن علي الصنهاجي السوسي، وعبد الرحمٰن المناري، وقد ذكر قيامه بِمهامّ التدريس والإفتاء بمراكش بقوله: «ولما خرجنا من المحنة طلبوا مني الإقراء فجلست بعد الإباية بجامع الشرفاء بمراكش من أنوه جوامعها. أقرىء مختصر خليل قراءة بحث وتدقيق ونقل وتوجيه وكذا. . . وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ علي قضاتها. . . وأفتيت فيها لفظاً وكتباً، بحيث لا توجّه فيها الفتوى غالباً إلا إليّ، وعينت لها مراراً فابتهلت إلى الله أن يصرفها عني. . .».

بفضل هذه النشاط العلمي احتل أحمد بابا التنبكتي مكانة مرموقة إذ عدّ من رجال المذهب المالكي الذين يُعتد برأيهم رغم أنه لم يكن في الواقع كاتباً بارعاً ولا شاعراً مطبوعاً ولا مجتهداً مختلفاً في الرأي، وإنما كان فقيهاً حافظاً وراوية ثقة.

كان لحادث اعتقال أحمد بابا ونقله إلى مراكش ومعاملته كأسير في أول الأمر وموت بعض أفراد عشيرته بالطاعون ومنهم ابنه محمد وعمه عبدالله بن محمود بن آقيت أثر بالغ في نفسه فلم تخيفف عنه زياراته المتكررة لفاس، ولم يطب له الاستقرار بمراكش حتى بعد توليته التدريس والإفتاء فظل يتحيّن الفرصة للعودة إلى موطنه، وقد مكّنه السلطان زيدان من ذلك تنفيذاً لوعده له أن يسرحه إذا انتصر على منافسيه. فبادر أحمد بابا بالتوجه إلى بلده، وعندما أرسل إليه السلطان زيدان من يحاول إقناعه بالرجوع إلى مراكش وكان قد قطع شوطاً في الطريق قال: «لا ردني الله إلى هذا المعاد، ولا رجّعني إلى هذه البلاد». وبعد أن مر على وادي درعة وفيلالة استراح بمحطة مكرونة (تامكروت) أواخر شهر جمادى الآخرة 1016 هـ. وكتب فيها فتواه «اللمع في الإشارة إلى حكم طَبَغ» قال فيه بجواز التبغ لأن الأصل في الأشياء الحلية إلا إذا كان هناك نص صريح، فخالف في ذلك الكثير من شيوخ عصره. ثم واصل السير إلى أن وصل تنبكتو فوجد حالها قد تغير ولم يحظ بالاستقبال الذي كان ينتظره من أهلها. فقال فيهم قولته: «أنتم تدخلون النار باطلاً». وظل مواظباً فيها على التدريس والتأليف معتكفاً للعبادة ساعياً للخير والصلاح. فأخذ عنه الكثيرون من شيوخ السودان، منهم: المصطفى بن أحمد

بغيغ، ومحمد كوزد الفلاني، والحاج أحمد بن أبي مهدي، وعبد الرحمٰن بن عبدالله السعدي صاحب تاريخ السودان، وقد وافته المنية في السادس من شهر شعبان من عام 1036 هـ/ 22 أفريل 1627 م. ودفن بجوار والده.

أكثر أحمد بابا من وضع التصانيف حتى قال عنه تلميذه محمد بن يعقوب «كان أخونا أحمد بابا مطبوعاً على التأليف». وقد زاد عدد الكتب المنسوبة إليه عن الأربعين أغلبها في الفقه واللغة والحديث، وبعضها في التصوف والتراجم وقد ذكر جلها في كتابه كفاية المحتاج، وأهم ما يتعلق منها بصفوف المعرفة التاريخية من تراجم وسير وفتاوى وآراء وأحكام خاصة:

- اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية، وهو مختصر المواهب القدسية في المناقب السنوسية لمحمد الملالي التلمساني.
- درر السلوك بذكر الخلفاء والملوك.
- القول المنيف في ترجمة أبي عبدالله الشريف، عرف فيه بمحمد بن أحمد الشريف التلمساني وولديه.
- الكشف والبيان في حكم أصناف مجلوب السودان.
- ترتيب جامع المعيار للونشريسي.
- اللمغ في الإشارة في حكم طبغ.
- تحفة الفضلاء ببعض فضائل الفضلاء.
- مرآة التعريف في فضل العلم الشريف وهو مختصر تحفة الفضلاء.
- مرآة التعريف، في مجانبة الولاة.
- ما رواه الرواة في مجانبة الولاة، (ربما يكون نفس الكتاب السابق).
- منظومة في المبعوثين على رأس كل مائة سنة.
- كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج. وهو مختصر نيل الابتهاج.
- نيل الابتهاج بتذييل الديباج. وهو أهم ما كتب أحمد بابا واشتهر به واحتل مكاناً مميزاً في قائمة مؤرخي الغرب الإسلامي، وضعه أحمد بابا ليكون ذيلاً لكتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي) لأبي إسحاق إبراهيم بن فرحون (ت 799 هـ) (به 630 ترجمة)، وقد كان في ذلك متأثراً ببعض كتاب التراجم

مثل الوافي بالوفيات للصفدي، ومدفوعاً برغبة شخصية لتخليد رجال المذهب المالكي إذ يقول: «ما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان وفي كثير من ساعات الأوان باستدراكي عليه (ديباج ابن فرحون) ببعض ما فاته أو جاء بعده من الأئمة الأعيان». وهكذا جاء نيل الابتهاج مشاركاً في موضوعه لكتاب تطريز الديباج لابن فرحون متمماً ما نقص من مادته ومضيفاً إليها ما جاء بعده من أعيان فقهاء المالكية.

أدرج أحمد بابا في ديباجه ما يزيد عن ثمانمائة (802) ترجمة لشخصيات المذهب المالكي. وقد اعتمد في ترتيبهم حسب تاريخ وفاتهم غالباً، مبتدئاً بإبراهيم بن فرحون، وهذا ما أشار إليه بقوله: «نرجع إلى المقصود مبدئاً بصاحب الأصل الذي ذيلنا عليه، وهو ابن فرحون، كما اقتضاه حسن الاتفاق، ثم رتبت الأسامي بعده على ترتيبهم في الزمن والوفاة غالباً، إذ ترتيبهم على مقدارهم في العلم والجلالة غير ممكن».

يتناول أحمد بابا الترجمة من حيث نسبها ونصيبها من العلم فيذكر الكتب التي درسها والرحلات التي قام بها دون أن يهمل تسجيل الأوصاف الخَلْقية والخُلُقية. فهو يقول مثلاً عن بعض من ترجم له: أنه «معتدل القامة يلازم الطيلسان على العمامة، ولا يلبس الثياب المصقولة. يلازم بيته، قليل الاجتماع بالناس»، وإن كان له شعر جاء ببعض الأبيات وعلق عليها، مع ذكر السنة التي توفي فيها، وهذا ما أسبغ على عرضه حيوية وجعل لكتابه فائدة اجتماعية وثقافية وسياسية. غير أن المصادر المتوفرة لديه تحكمت إلى حد بعيد في نوعية معلوماته وحجم تراجمه فبعضها توسع فيها لكثرة مصادره عنها مثل ترجمته أبي مدين الغوث، وبعضها اختصره إلى صفحة أو أقل لعدم توفر المعلومات لديه، وقد استقى معلوماته من الرواية الشفوية والتقاييد الشخصية كما رجع إلى كتب التراجم المعروفة على عصره، وقد ذكر منها في كتابه كفاية المحتاج أربعين كتاباً أهمها البستان لابن مريم. والفهرس لابن منجور. والجذوة التي نقل منها في الغالب حرفياً، بالإضافة إلى مؤلفات ابن الأبار والتادلي وابن الزبير والتجيبي وابن فرحون والمقري والحضرمي، وابن الخطيب، وابن خلدون، وأبو زكريا السراج، وابن الأحمر، والمنتوري وابن مرزوق الحفيد، والقلصادي، والعبدري، والسيوطي.

فجاء كتاب الديباج بفضل مادته مصدراً مهماً لأعلام المغاربة لا يمكن تجاوزه، فهو حسب عبد الجليل التميمي، «أساس لدراسة الأعلام الأندلسيين والتونسيين والمغاربة والجزائريين والطرابلسيين».

وُضعت عدة مختصرات لكتاب نيل الابتهاج أولها من وضع مؤلفه أحمد بابا بعنوان كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج. حوالي سنة 1012 هـ/ وضمنها 704 ترجمة مرتبة أبجدياً، وقد أدرج نفسه ضمنها فعرف بحياته وسجل برنامجه (مشيخاته وكتبه).

وقد وضعت لنيل الابتهاج، ولكفاية المحتاج تذييلات إذ قام محمد بن بشير بن ظاهر المدني (1909) بوضع ذيلٍ لكتاب نيل الابتهاج بعنوان: «اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة». كما وضع محمد الطيب القادري ذيلاً لكفاية المحتاج (سنة 1217 هـ) بعنوان: «الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج».

نشر كتاب نيل الابتهاج في طبعة حجرية بفاس 1317 ثم طبع مرتين في القاهرة 1329 و 1351. على هامش ديباج بن فرحون ثم جددت له مؤخراً طبعة أنيقة غير محققة بطرابلس الغرب تحت إشراف عبد الحميد عبدالله الهراسة (1989)، وقد خلد اسم أحمد بابا بفضل هذا الكتاب، فنال التكريم الذي يستحقه من حكومة مالي بصفته أبرز الشخصيات العلمية بتمكبتو، وأطلق اسمه على مركز الوثائق (1973) الذي كان من أهم أهدافه جمع الوثائق والمخطوطات المتعلقة بالسودان الغرب وفي طليعتها ما يتصل بأحمد بابا. وقد صدر منها جزءآن من مجموع ستة أجزاء من الفهارس يعتزم مركز أحمد بابا إصدارها مستقبلاً.

المصادر المعتمدة:

- التنبكتي (أحمد بابا) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر عبد الحميد عبدالله الهراسة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس الغرب 1989.
- التنبكتي (أحمد بابا) كفاية المحتاج.
- روضة الآس.

- البرتلي الولاتي ، (أبو عبدالله) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981 ص ص 31 ـ 37.
- التقاط الدرر، ترجمة 145ص ص 86 ـ 87.
- نشر المثاني ج 1 ص 27.
- نزهة الحادي ص 97.
- صفوة من انتشر.
- السعدي (عبد الرحمٰن) تاريخ السودان ط 2/هوداس، باريس 1964 ص ص 35 و 218 ـ 244.
- حجي (محمد) الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين، 2 ج منشورات دار المغرب للطباعة والترجمة والنشر، الرباط 1978.
- شجرة النور الزكية.
- الأعلام بمن حل مراكش.
- إيضاح المكنون.
- خلاصة الأثر 1، ص 170.
- الاستقصا. ج 5، ص ص 130 ـ 131.
- فهرس الفهارس. ج 1، ص 212 ـ 214.
- معجم المؤلفين . ج 1، ص ص 145 ـ 146.
- تاريخ الجزائر الثقافي ج 1. ص 387.
- التميمي (عبد الجليل)، «كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، معلمة ببليوغرافية للأعلام المغاربية، المجلة التريخية المغربية 33 ـ 34 / 1984 ص ص 39 ـ 50.
- أبو شنب (محمد)، أحمد بابا التنبكتي، دائرة المعارف الإسلامية (ط العربية) ج 2، ص ص 288 ـ 289.
- تاريخ الأدب العربي.
- تعريف الخلف، القسم الأول، ص 16 ـ 25.

- Lévi - Provençal Les historiens de chorfa, p. 250.
- Cissiko (S.M.), Histoire de l'Afrique Occidentale, p. 170.
- Zouber (M.A.) Ahmed Baba de Toumbouctou 1556 - 1627, sa vie et son oeuvre, ed. Maisonneuve - Laruse, Paris, 1977.

أحمد بابا يوضح طريقته في تأليف نيل الابتهاج

لما كان علم التاريخ ومعرفة الأئمة من علماء الملة، من الأمور العلية، يعتني به كل ذي همة زكية، إذ هم نقلة الدين وحملة الشريعة المحمدية، وبه يتميز الصالح من الطالح، والمسخوط من المقبول، ويعرف ذو العدل منهم ومن هو مجهول فيعطي كل ذي حق حقه، كما ورد به أمر الرسول، اعتنى الأئمة قديماً وحديثاً بالوضع فيها على أنحاء متفاوتة، وأضرب متباينة، فبعضهم عرف المحدثين والرواة جرحاً وعدالة، وبعضهم عرف أهل الفقه ومن لهم فيه مقالة، أو انتسب إلى حملته وانتحى له، وكان ممَّن سعى في ذلك من أهل مذهبنا المالكية سعياً حثيثاً. وجمع فيه ما تفرق عند غيره قديماً وحديثاً، الإمام الكامل، الجليل الفاضل، أبو الفضل عياض، ملأ الله تعالى ثراه من رحماه أزاهير رياض، ثم تابعه جماعة اختصروا من مداركه بعض ما تيسر كابن حماد، وابن رشيق وابن علوان، وغيرهم من فضلاء الأعيان، ثم جاء الإمام العلامة الحافظ القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن فرحون المدني. أدخل الله على رمسه الريح الهني، فقطف من كلامه بعض ما ذكر، واستدرك عليه جماعة ممن عنه تأخر. فرتبه على حروف المعجم، وبين فيه بعض من قد يخفى أو يبهم. فهو وإن لم يوف من ذلك مطلوب الغرض، فلقد قام ببعض الحق المفترض.

فما زالت نفسي تحدثني من قديم الزمان، وفي كثير من ساعات الأوان، باستدراكي عليه بعض ما فاته أو جاء بعده من الأئمة الأعيان. فقيدت فيه بحسب الإمكان، حين كنت ببلد بعيدة عن نيل المقصد من ذلك، لبعدها عن مدن العلم

وكتب هذا الشأن، فقصر بي الحال مع عدم مساعدة الزمان، لما بلينا به من حوادث الوقت وفتنة تشغل عن كل فرض. وترمي بشرر كالقصر في الطول والعرض.

هذا مع أن المجتهد في هذا الغرض مقصر، والمطيل مختصر، إذ ما يذكر أقل من معشار ما يغفل، وما ينقل لا نسبة بينه وبين ما يجهل، فبحار المدارك مسجورة، وغايات الإحسان على الإنسان مهجورة.

أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج
نشر وتقديم عبد الحميد عبدالله الهراسة
طرابلس، ليبيا، 1989، ج 2 ص ص 27 ـ 28

أبو العباس أحمد المقّري التلمساني

(ت 1041 هـ/ 1632 م)

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحيىٰ بن عبد الرحمٰن بن أبي العيش المقري التلمساني، ينتسب إلى أسرة ذات علم وصلاح، تعود أصولها الأولى إلى بلدة مقَّرة بمنطقة الحضنة بالشرق الجزائري، استقرت بتلمسان وتولى أفرادها وظيفة القضاء والإفتاء والخطابة والإمامة، وهذا ما ذكره المقري في نفح الطيب بقوله: «وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علّقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمٰن بن أبي بكر المقّري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين... وبها ولدت أنا وأبي وجدّي وجد جدي».

ولد أحمد المقري بتلمسان سنة 986 هـ/1578م حسبما سجلّه سيدي العربي الفاسي في مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، ونشأ بدار آل المقري بدرب السلسلة، وتلقى تعليمه على شيوخ أجلّة في مقدمتهم عمه أبو عثمان سعيد المقري مفتي تلمسان (ت 1010 هـ) وعندما استكمل دراسته بتلمسان توجه إلى فاس وهو ابن الرابعة والعشرين (1009 هـ/ 1600 م) واتصل فيها بالفقيه إبراهيم بن محمد الآيسي أحد قواد السلطان أحمد المنصور الذهبي، فأعجب به واصطحبه إلى مراكش وقدمه إلى المنصور، وقد تعرف فيها أيضاً على أحمد بن القاضي وأحمد بابا التنبكتي، وعندما عاد إلى تلمسان آخر سنة 1010هـ/ 1601 م عزم على إتمام كتابه روضة الآس الذي بدأه بفاس ليقدمه

للسلطان أحمد الذي توفي قبل أن ينهي المقّري كتابه (1012) بعدها عاد إلى فاس واتصل بسلطانها زيدان السعدي، وطابت له الإقامة هناك فمكث بها خمس عشرة سنة تولى فيها الإمامة والخطابة بجامع القرويين، وارتقى إلى منصب الإفتاء، وبعد وفاة شيخه محمد الهواري (1022 هـ). اضطر إلى الاختفاء ليتجنب الخوض في قضية تسليم الشيخ المأمون السعدي مدينة العرائش للإسبان مقابل إعانتهم له على استرجاع عرشه، وقد كان يسعى للحصول على فتوى تجيز له ذلك، وقد كان المقري أيضاً عرضة لعداء أهل فاس لمكانته المتميزة ومنزلته الخاصة والذين اتهموه بالميل إلى قبيلة الشراقية التي تعود أصولها إلى منطقة تلمسان والتي كانت تحظى بمنزلة خاصة لدى الشيخ محمد السعدي، فقرر عند ذلك مغادرة المغرب الذي قال عنه في نفح الطيب «وإن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً. وطمى به بحر الأهوال». وقد غادره عن طريق البحر من ساحل تطوان في شهر رمضان (1027 هـ/ 1617 م) ومرَّ على مدينة تونس وسوسة وبلغ الإسكندرية ومنها قصد القاهرة وأقام بها نحو شهر ثم توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج (1028 هـ/ 1618 م).

لم يحالف الحظ أحمد المقري في مقامه بالقاهرة، فقد عاش حياة ضنك ومعاناة ولم يجد السعادة والاستقرار بزواجه من سيدة من عائلة السادة الوفائية، فظل يغمره الشوق ويستبد به الحنين إلى تلمسان وفاس، وقد عبر عمّا كان يكابده ويعانيه من ألم الغربة ومتاعب الحياة، نثراً وشعراً كمثل قوله: «. . . وليت شعري علّام يحسد من أبدل الاغتراب شارته وأضعف الإضطراب إشارته، وانهلّ بالدموع أنواءه، وقلل أضواءه، وكثّر علله وأدواءه».

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ... ولكن أرىٰ تحصيلها بالدنية
وإن طاوعتني رقة حال مرة ... أبت فعلها أخلاق نفس أبية

وجد المقّري في الاشتغال بالتدريس برواق المغاربة بالأزهر والتفرغ للكتابة والتأليف، والتردد على البقاع المقدسة والأسفار، ما يخفف عنه ثقل الحياة وشجون الغربة، فدرّس بالمسجد الأقصى بالقدس 1037 هـ، وأدى فريضة الحج خمس مرات. وجاور بمكة المكرمة، وأقام بالمدينة المنورة وأملى الحديث

بمسجدها، وقد أثارت زيارته لدمشق كوامن الحنين إلى مراتع الشباب التي كان فيها موفور العزة والكرامة. فنظم في ذلك كثيراً من الأشعار منها هذه الأبيات:

تـركـت رسـوم عـزّي فـي بـلادي وصـرت بمصـر منسـي الـرسـوم
ورضت النفس بالتجريد زاهداً وقلـت لهـا عـن العليـاء صـومـي
مخافة أن أُزَمّى بالحرص ممّن يكـون زمـانـه أحـد الخصـوم

بقي المقري في دمشق أربعين يوماً لقيت أثناءها أحاديثه في المجالس الخاصة ودروسه بالجامع الأموي الإقبال والترحيب فقد ذكر المحبي في خلاصة الأثر أنه عندما اختتم صحيح البخاري يوم الأربعاء السابع عشر رمضان 1037 هـ/ 1628 م، «أوتي له بكرسي الوعظ فصعد عليه وتكلم بكلام في العقائد والحديث لم يُسمع نظيره أبداً... وازدحم الناس على تقبيل يده... ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما أتفق له من الحظوة وإقبال الناس».

لم يغادر المقري دمشق إلا بعد أن قطع على نفسه عهداً بتسجيل مآثر لسان الدين بن الخطيب نزولاً عند رغبة صديقه ومضيفه أحمد شاهين رغم تردده أول الأمر خوفاً من نقص المصادر وضعف الذاكرة وكان ينوي عند عودته إلى مصر ترتيب أموره والاستعداد للرجوع إلى فاس أو الانتقال إلى دمشق. وبعد أن نزل بغزة في ضيافة الشيخ الغصين وحل بالقاهرة بادر إلى تطليق زوجته التي لم يكن سعيداً معها بعد أن لم يعد يربطه بها أي رابط إثر وفاة ابنته منها (1038 هـ) فتعرض لنقمة أسرتها، وتعصب العامة ضده تعاطفاً مع خصومه. ولم يعد يكلمه أحد. ولا يتعامل معه من كان له صلة بهم، فوصف حاله بقوله: «والقلب حليف شجن وغربة، والفكر أليف حزن وكربة». وجاء في إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه بفاس «ولما طلقتها لم يبق في مصر أحد يسلم علي إلا رجل حدّاد». وقد ذكر الخفاجي أن المقري «وجد بمصر الحسد والنفاق، وتجارة الآداب ليس لها بسوقها نفاق» وأثناء ذلك كان المقري يجهد نفسه في تأليف كتابه «نفح الطيب» ولم يكد ينتهي منه حتى اعتلت صحته، ولم يلبث أن توفي وكان ذلك في جمادى الآخرة (1041 هـ/ 1032 م) ودفن غريباً في قرافة المجاورين بالقرب من جامع الأزهر. فخبت بموته شعلة لم تجد في دار غربتها من يُقدرها وينزلها المكانة اللائقة بها.

عرف أحمد المقري بكثرة تآليفه التي اشتملت على صنوف معارف عصره التي يمكن تصنيفها حسب مواضيعها إلى:

1 ـ تآليف في أمور العقيدة وَعلوم القرآن والحديث.

- تأليف في الفقه ضاعت مقدمته وخاتمته (مخطوط).
- حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي (مفقود).
- إتحاف المغرم المغري في شرح السنوسية (الصغرى) في التوحيد (مخطوط).
- أجوبة في اجتناب الدخان (رسالة مخطوطة).
- إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة، منظومة في التوحيد، وضعها بالحجاز عام 1029. مطبوعة.
- شرح قصيدة سبحان من قسم الحظوظ (مفقود).
- إعراب القرآن (مخطوط).
- أزهار الكمامة في شرف العمامة، ضاع ولم يبق منه إلا ملخصه وهو منظومة (أرجوزة) محققة وغير منشورة.
- الدر الأمين في أسماء الهادي الأمين (مخطوط).
- روضة التعليم، في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم (مفقود).
- فتح المتعال في مدح النعال المتشرفة بخير الأنام عليه الصلاة والسلام، وما يتبعه من الكلام ووصف المثال.
- النفحات العنبرية في فضل خير البرية وهي أرجوزة لخص فيها الكتاب السابق، أرسلها إلى شيخه الدلائي.
- قصف المهتصر، من أفنان المختصر، وهو شرح لمختصر خليل (مفقود).
- أعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس الواردة من الشيخ سيدي محمد بن أبي بكر بركة الزمان وبقية الناس، وهي أجوبة عن مسائل في أمهات الفروع والأصول أوردها سليمان الحوت في كتابه البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية.

ونسب له خطأ حسن الثناء في العفو عمن جنى وهو لعمر شلبي الرومي.

2 ـ تآليفه في اللغة والنحو والأدب.

- عرف النشق في أخبار دمشق، جمع فيه ما قيل في مدح دمشق من أشعار، وهو في حكم المفقود.
- البدأة والنشأة، ديوان جمع فيه مختارات شعرية (مخطوط).
- كناش، يحتوي على قطع شعرية وقصائد لبعض الشعراء (مخطوط).
- إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة، (رسالة مفقودة).
- الأصفياء، كتبه إلى تلميذه أحمد شاهين (مفقود).
- خطب المقري (من الراجح أنها مخطوطة).
- ديوان المقري، أغلبه في المديح النبوي وفي الشوق والحنين (موزعة على العديد من المخطوطات).
- نيل المرام المغتبط لطلب المخمس الخالي الوسط، وهو في علم الحروف (مخطوط).
- رفع الغلط عن المخمس الخالي الوسط، صححه نيل المرام السابق الذكر (مخطوط).
- أمالي المقري، وهي بعض أشعاره وأماليه جمعها تلميذه يحيى المحاسني الدمشقي.
- العنبر الشحري فيما أنشدنيه المقري، جمعها أحمد بن الغماد الوجدي.

3 ـ في التاريخ والتراجم والفهارس ومواضيع أخرى (لا يعرف موضوعها بالضبط).

- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، وغيره مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض، وضعه بالمغرب (1027 م) حقق جزءاً منه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي القاهرة 39 ـ 1942.
- روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، حققه عبد الوهاب بن منصور ونشره بالرباط (1964).
- الجنابذ، وهو ثبت على شاكلة كتاب روض الآس (مفقود).
- القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية، لا يعرف موضوعه بالضبط (يرجح وجود نسخ مخطوطة منه).

ـ الشفاء في بديع الاكتفاء (مفقود ولا يعرف موضوعه).
ـ أنواء نيسان في أنباء تلمسان. مفقود، وربما يكون من جملة مشاريعه التي لم ينجزها.
ـ شرح مقدمة ابن خلدون، ذكره حاجي خليفة وهو مفقود.
ـ زهر الكمامة في أخبار الغمامة.
ـ النمط الأكمل في ذكر المستقبل.
ـ الدر المختار من نوادر الأخبار.
ـ الغث والسمين والرث والثمين، ورد ذكره في اليواقيت (مفقود).

كما نسب له خطأ كتاب الجمان في أخبار الزمان وهو لمحمد علي الشطيبي التاونتي، وكتاب كنز الأسرار ومعدن الأنوار في آل النبي المختار، وهو لأحمد بن أحمد الكلبي المقري التلمساني.

أما أهم أثرٍ اشتهر به المقري فهو بلا شك كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، وكان الدافع له إلى تأليفه إعجابه بهذه الشخصية الأندلسية الفذة التي وجد فيها ما يعكس حالة عصره، ويتجاوب مع ميوله وثقافته الموسوعية، فعبر من خلاله على ذكريات الشباب التي ارتسمت فيها روايات مهاجري الأندلس إلى بلده تلمسان عمّا لحقهم بوطنهم وما أصابهم في دينهم إثر عملية الطرد الكبرى على عهد الملك الإسباني فيليب الثاني (1609) كما وجد فيها موضوعاً يخفف عنه شعوره بالوحدة والاغتراب، وإحساسه بالحزن والأسى لبعده عن موطنه، وهذا ما عبر عنه بقوله: «إن شجون الحديث الذي جر إليها شوقني إلى معاهدي المغربية التي أكثر البكاء عليها». وهذا ما دفعه مراراً إلى زيارة قبره والترحم عليه عندما كان مقيماً بفاس: «وقد زرت قبره مراراً بفاس المحروسة. . . وجعل لي من الحزن والخشوع عند زيارة قبره ـ رحمه الله ـ ما لا يزيد عليه».

لقد اتخذ المقري من لسان الدين بن الخطيب مثله الأعلى ونموذجه المفضل في أسلوب العرض وطريقة الكتابة، وحفظ الكثير من رسائله وأشعاره، وقد حاول التعريف به لدى المشارقة وقد لمس مدى إهمالهم للتراث المغربي الأندلسي. فلم

يجد أطرف من الأندلس حديثاً ولا أفضل من وزيرها لسان الدين موضوعاً يشد به انتباههم للتاريخ والأدب المغربي.

بدأ المقري بوضع خطة تأليفه لكتاب نفح الطيب بطلب من صديقه ومضيفه بدمشق أحمد شاهين. عندما عاد من سفره إلى دمشق. فحدد خطوطه العامة وشرع في تنفيذه، ولكنه تردد في بداية جمع مادته وذلك لنقص المصادر، ثم واصل العمل فيه نزولاً عند رغبة وإلحاح أحمد شاهين، وانتهى من نسخته الأولى في أواخر شهررمضان 1038 هـ/ 1628 التي وضع لها عنوان: عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب، ثم قام بتحويره وإضافة ما يتعلق بشؤون الأندلس خاصة، فانتهى منه في أواخر ذي الحجة 1039/1630 وجعل عنوانه «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب» فجاء موسوعة تاريخية ومعلمة أدبية نادرة لا يمكن الاستغناء عنها فيما يخص تاريخ وأدب الأندلس والمغرب.

يتألف كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب من قسمين رئيسين، الأول فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار ذكر فيه تاريخ وجغرافية وسكان الأندلس منذ أن فتحها طارق بن زياد (92 هـ/ 711 م)، إلى آخر أيام بني نصر بغرناطة (897 هـ/ 1491 م) والقسم الثاني خصه للتعريف بلسان الدين بن الخطيب، وجعل في كل قسم ثمانية أبواب، واستهل القسم الأول بخطبة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن، ثم خص الباب الأول لوصف جزيرة الأندلس، والثاني لفتح الأندلس، والثالث لسرد ما كان للدين الإسلامي بالأندلس من العز السامي والرابع لذكر قرطبة والزهراء والزاهرة، والخامس للتعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق استجابة لطلب أعيان دمشق، والباب السادس لذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق، والسابع للحديث عن توقد أذهان الأندلسيين وحبهم للمعرفة وبراعتهم في الأجوبة إلى غير ذلك مما يشهد لهم بالفضل، والباب الثامن في تغلب العدو الكافر (الإسبان) على الأندلس، واستغاثة أهلها بمعاصريهم لإنقاذها.

أما القسم الثاني الخاص بلسان الدين فكان الباب الأول منه في أولوية لسان

الدين وذكر أسلافه، والثاني في نشأة لسان الدين وعلو مكانته وما لقيه من مكائد حتى وفاته، والثالث في ذكر مشايخه، والرابع في مخاطبات الملوك والأكابر للسان الدين، والخامس في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته، والسادس في مصنّفاته وتآليفه، والسابع في ذكر بعض تلاميذه، والثامن في ذكر أولاده.

يقوم كتاب نفح الطيب على اقتباس النصوص وعرض الروايات وتسجيل الذكريات سواء منها ما يتصل بالأندلس أو يتعلق بلسان الدين، أو الذي له صلة غير مباشرة به والذي أثبته المقري على وجه الإضافة والاستطراد، فهو ينقل القارىء من موقف إلى موقف ويستعرض أمامه العديد من الرسائل والقصائد والنتف والشذرات التي تعمق ثقافته وتوسع أفقه وتزيد معرفته بالموضوع، وهذا ما جعل نفح الطيب مصدراً أساسياً لا غنى عنه لدراسي تاريخ الأندلس وآدابها ورجالها، فقد حافظ على نصوص ضاعت أصولها وعرفنا بنسخ أصلية عرفت تحريفاً في بعض فقراتها مثل المطمح والقلائد لابن خاقان، وكتاب العلماء لابن الفرضي، والمطرب لابن دحية، ودرر السمط، والأزهار المنثورة، وكتاب الطالع السعيد، والروض الأريض وحبة الأريض وثمرها، والإحاطة للسان الدين، وكتاب التكملة لابن الأبار وتاريخ ابن خلدون ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبكتي.

اعتمد المقري في تأليف كتبه على المصادر المتوفرة بالقاهرة مثل الذخيرة، والمقتبس، وزاد المسافر، وصلة ابن بشكوال وغيرها. وعندما لا تفي بالغرض يستنجد بحافظته القوية وإن كانت تخونه في بعض الأحيان مما جعله يتأسف على عدم تسجيله لمعلومات كثيرة عن الأندلس ولسان الدين. في مثل قوله: «لو أحضر ما خلفتهُ مما جمع في ذلك الغرض وألف، لقرت به عيون وسرت به ألباب». وقد وجد في ذكريات الأندلس وفضائل وزيرها لسان الدين أحسن مشجع له على التذكر ومواصلة العمل، فجاء ما سجله تعبيراً عن إحساسه العميق بمأساة الأندلس، وتعلقه بشخص لسان الدين فهو بحق عرض شاكٍ ومرثية مظلوم.

لم يلتزم المقري في نفح الطيب التنظيم والتناسق في عرض المادة التي سجلها، وهذا ما يجعله مصنِّفاً أكثر منه كاتباً محلِّلاً. فكان مرآة عكست أحداث

عصره وواقع مجتمعه، ممّا أضفى على كتابه حيوية وصدقاً أهّلته لأن يكون ضمن روائع التراث التاريخي الأدبي العربي الإسلامي، وأهلت صاحبه ـ المقري ـ لأن يعتبر آخر أعلام الثقافة العربية الإسلامية الذين فرضوا وجودهم بالمغرب والمشرق واعترافاً بقيمتهم ومكانتهم. قال عنه محمد الطيب في التقاط الدرر «الحافظ الخطيب المغني الأديب الصوفي . . . فهو من عظماء هذه الأمة». ووصفه المجي قائلاً: «حافظ المغرب لم ير نظيره في جودة القريحة، وصفاء الذهن. وقوة البديهة، وكان غاية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزاً باهراً في الآداب والمحاضرات. . .».

تحتفظ العديد من المكتبات بنسخ لنفح الطيب، وقد تعرف عليه القارىء الأوربي بصدور ملخص القسم الأول منه بالإنكليزية (1840) بقلم المستشرق الأسباني جانيوس، واعتناء جماعة من المستشرقين به، وهم دوزي R. Dozy ودوجا G. Dugar وكريل L. Krchl ورايث W. Rright بإشراف ريثهارت، الذين أصدروا القسم الخاص بالأندلس في ليدن (1855 ـ1861) مع فهارس وتصويبات بعنوان: (Analectes)، ثم طبع ببولاق بالقاهرة (1279 هـ/1862) طبعة غير محققة، بعد ذلك تعددت طبعاته منها طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة بإشراف محمد محي الدين عبد الحميد (1949) وكان آخرها الطبعة المحققة والمفهرسة التي أنجزها الأستاذ إحسان عباس وصدرت عن دار صادر ببيروت في ثمانية أجزاء (1988).

المراجع المعتمدة:

- المقري (أحمد) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، 8 ج، دار صادر، بيروت، 1988.
- المقري (أحمد) الأندلس في نفح الطيب (منتخبات مختارة)، اختارها وأعدها جماعة من الباحثين، وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1990.
- المقري (أحمد) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحميد شلبي، القاهرة، 39 ـ 1942.
- الفاسي (سيدي العربي) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، ط فاس الحجرية، 1324.
- التقاط الدرر، ترجمة 162 ص ص 94 ـ 96.

- إيضاح المكنون، في صفحات عديدة.
- الأعلام بمن حل مراكش، ج 2، ص 308.
- العياشي (أبو سالم) ماء الموائد، ط 2 نشرها محمد حجي الرباط 1977 ج 2، ص 86، 256، 305، 307.
- خلاصة الأثر، الجزء الأول، ص 302 ـ 312.
- صفوة من انتشر، ص 72.
- الفكر السامي، ج 2، ص 276.
- فهرس الفهارس ج 2 ترجمة 331 ص ص 574 ـ 576.
- شجرة النور الزكية، ج 1، ص 300.
- اليواقيت الثمينة ج 1 ص 29.
- هدية العارفين، ص 157.
- تعريف الخلف القسم الأول ص ص 48 ـ 62.
- الأعلام ج 1، ص 237.
- معجم أعلام الجزائر، (ط 1971) ص ص 42 ـ 44.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص814 ـ 824.
- تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص 302 ـ 304.
- عنان (محمد عبدالله) تراجم إسلامية وأندلسية، ط 2 مكتبة الخانجي القاهرة 1970 ص ص 373 ـ 387.
- ابن الفكون (عبد الكريم) منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. تحقيق أبي القاسم سعدالله، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987، ص 223.
- أعلام المغرب ج 5، ص ص 346 ـ 376.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص ص 340 ـ 342 و 373 ـ 376.

رحلات أحمد المقري بالشرق

يقول... أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقري، المغربي المالكي الأشعري، التلمساني المولد والمنشأ والقراءة، نزيل فاس الباهرة ثم مصر القاهرة، أصلح الله أحواله الباطنة والظاهرة....

إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقّب أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ برحلتي من بلادي ونقلتي عن محل طارفي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى، الذي تمت محاسنه، لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء الغيث في كامل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصاً:

قطـــر كــــأن نسيمــــه   نفحــات كــافــور ومســك

وكــأن زهـــر ريـــاضـــه   دُرٌّ هَــوَى مـــن نظـــم سلــك

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف (1027 هـ) تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف،

بلــد طــاب لــي بــه الأنــس حينــا   وصفــا العــودُ فيــه والإبْــدَاءُ

فَسقـــت عهْـــدَه العِهَـــاد وروَّت   منـــه تلـــك النـــوادِيَ الأنـــداءُ

ثم جد بنا السير في البر أياماً، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث لها هُياماً. وكنّا عن تفاعيل أصلها نياما، إلى أن ركبنا البحر. وحللنا منه بين السّحر والنّحر، وشاهدنا من أهواله، وتنافي أحواله، ما لا يعبّر عنه، ولا يبلغ له كُنْهُ:

البحـــر صعـــب المـــرام جـــدّاً   لا جُعلـــت حـــاجتـــي إليـــه

أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

... ثم وصلنا... إلى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع، وشاهدنا كثيراً من محاسنها، التي تعجز عن وصفها القوافي والأسجاع...

ثم شَمّرْت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدة قليلة إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر، الذي هو سر المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين والعلمين المنيفين، فسافرت في البحر إلى الحجاز، راجياً من الله سبحانه وتعالى في الأجر والانْتِجَار، إلى أن بلغت جدة. بعد مكابدة خطوب اتخذت لها من الصبر عُدّة...

... ثم أكملت العمرة، ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمرُه، وذلك في أوائل ذي القعدة، من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية (1618 م) وأقمت هناك منتظراً وقت الحج الشريف، ومتفيئاً ذلك الظل الوريق... ثم قصدنا بعد قضاه تلك الأوطار الطيبة الشريفة التي لها الفضل على الأقطار... ولما سلّمت على سيد الأنام عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام، ذبت حياه وخجلاً، لما أنَا عليه من ارتكاب ما يقتضيه وَجَلا...

إليك أفرّ من زَلَلي فرار الخائف الخَجِلِ
وكان مزار قبرك بال مدينة منتهى أملي
فخذ بيدي غريق في بحار القول والعمل
فأنت دليل من عميت عليه مسالك السبل
نداء مقصّرٍ وَجِلٍ بثوب الفقر مشتمل
فأنت مَلاَذُ معتصِمٍ وأنت عِمَادُ مُتكل

ثم عدت إلى مصر، وقد زال ببركة ﷺ الإصر، وذلك في محرم سنة 1209 هـ ثم قصدت زيارة بيت المقدس في شعر ربيع من هذا العام وقد شملتني بفضل الله جوائز الإنعام... ولما دخلت المسجد الأقصى، وأبصرت بدائعه التي لا تستقصى، بهرني جماله الذي تجلى الله به عليه، وسألت عن محل المعراج الشريف، فأرشدت إليه، وشاهدت محلاً أم فيه ﷺ الرسلَ الكرام الهداة...

ثم رجعت إلى القاهرة، وكررت منها الذهاب إلى البقاع الطاهرة، فدخلت لهذا التاريخ الذي هي عام تسعة وثلاثين وألف خمس مرات. وحصلت لي المجاورة فيها مرات. وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة، والله يجعل أيام العمر بالعودة إليها مديدة، ووفدت على طيبة المعظمة ميمماً مناهجها السديدة سبع مرات، وأصفأت بالعود إليها ما بلالأبكار الحرار، . . . وأمليت الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع، ونلت بذلك وغيره ـ ولله المنة ـ ما لم يكن لي فيه مطمح ولا مطمع، ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور، وكان عودي في الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة (1627 م) فتحرقت همتي أوائل رجب هذه السنة للعود للبيت المقدس، وتجديد العهد بالمحل الذي هو على التقوى مؤسس، فوصلت أواسط رجب، وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوماً بدا لي فيها بفضل الله وجه الرشد وما أحتجب وألقيت عدة دروس بالأقصى، والصخرة المنيفة، وزرت مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة. . . ثم جدت لي في منتصف شهر شعبان عزم على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فضلها وبان، دمشق الشام، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام. . . ودخلتها أواخر شعبان المذكور، وشاهدت بعض مغانيها الحسنة، ومبانيها المستحسنة. . . فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر، والغوطة المنوطة بالحسن تسحر الألباب، . .وكنت قبل رحلتي إليها والوفادة عليها كثيراً ما أسمع عن أهلها زاد الله في ارتقائهم ما يشوقني إلى رؤيتها ولقائهم. حتى لقيت بمكة المعظمة، أوحد كبرائها الذين فرائدهم بلبة الدهر منظمة، . . صاحب القلم مفتي السلطان في تلك الأوطان على مذهب الإمام النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمٰن بن شيخ الإسلام عماد الدين. . . فلما حللت بدارهم ورأيت ما أذهلني من سبقهم للفضل. وبدارهم، صدَّق الخبرُ الخبرَ. . .

وكنا خلال الإقامة بدمشق المحوطة، وأثناء التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة. . . كثيراً ما ننضم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملغوطة، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة. . .

فينجر بنا الكلام والحديث شجونا بالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون إلى ذكر البلاد الأندلسية ووصف رياضها السندسية، التي هي بالحسن منوطة. . . فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني،

فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعلق بقلوبهم. . . فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور، أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه، وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه. . .

فأجبته أسمى الله قدره الكبير، وأدام عرف فضائله المزري بالعنبر والعبير، بأن هذا الغرض غير سهل. ولست علم الله له بأهل، من جهات عديدة، أولها قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة، إذ لا يوفي بهذا الغرض إلاّ الماهر بطرق المعارف السديدة، وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام لأني خلفتها بالمغرب، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة، الجالبة للفكر غالب الكربة، وتقسم البال، بين شغل عائق وبلبال. . .

ولم يجعل لي المذكور ـ حفظه الله ـ فسحة ولا مندوحة، بعد هذه الأعذار الممدودة في الصدق الممدوحة. . . ثم لما تكرر علي في هذا الغرض الإلحاح. ولم تُقْبل أعذاري التي زندها شحاح، عزمت على الإجابة لما للمذكور عليّ من الحقـوق، وكيف أقابل بره ـ حفظه الله ـ بالعقوق. . . فوعدته بالشروع في المطالب عند الوصول إلى القاهرة المعزية، وأزمعت السير عن دمشق المعروفة المزية. . .

إنني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب، وكتبت نبذة تستحسنها من المحبين الأسماع والقلوب. . . ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى، فأخرته تأخير الغريم لدين الكريم. . . وصدتني أعراض، عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض. . . فجاءتني من المولى المذكور آنفاً (ابن شاهين) رسالة دلت على أنه

لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفاً، وعدت لقضاء الوطر مستقبلاً والجملة مستأنفاً. . .

. . . نشرت بساط الانبساط وحدثت لي قوة النشاط، وانقشعت عني سحائب الكسل وانجابت، وناديت فكرتي فلبّت مع ضعفها وأجابت. . . والحمد لله الذي يسر لي هذا القدر، مع ضيق الصدر، وقلّة بضاعتي وكثرة إضاعتي.

أحمد بن محمد المَقَّري التلمساني
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

تحقيق إحسان عباس

دار صادر، بيروت، 1988 المجلد الأول، ص ص 13 ـ 102

طرد المسلمين من الأندلس
ونزوحهم إلى أقاليم المغرب العربي

ثم إن النصارى نكثو العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة (1498م)، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر. ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس له إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا الناس، فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما. فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأخرجوا على لأمان إلي فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث. حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك. ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً، إلا أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف (1609م). فخرجت ألوف

بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرّة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم. وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها. وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جرّاراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام. وهم لهذا العهد على ما وصف. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

أحمد بن محمد المقري التلمساني
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
تحقيق إحسان عباس
دار صادر، بيروت 1988، الجزء الرابع ص ص 527 ـ 528

أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي

(ت بعد 1051 هـ/ 1641 م)

أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، لقب بالشهاب ودعي بأفوقاي، وحمل اسم بيخارانوا (Bejerano) بالقشتالية (اللغة الإسبانية) ولد بمحلة الحجر الأحمر قرب غرناطة (1977 هـ/ 1570 م) تحت سلطة الإسبان الذين احتلوا مملكة غرناطة، ونشأ يبطن الإسلام ويظهر النصرانية، فتعلم العربية وأحكام الشريعة عن أسرته وأتقن اللغة القشتالية واطلع على آدابها، وحضر مجالس الترجمة تحت إشراف أسقف غرناطة دي سالفاتييرا (J.M. De Salpatierra) وخليفته الأسقف بيدرو كاسترو (D.Pedro Castro) مدعياً أنه تعلم العربية بمدريد على طبيب من بلنسية. وحتى يتقي ضرر محاكم التفتيش (Inquisition) ويبعد أي تهمة عنه ادعى أن هذا الطبيب قد توفي منذ سنوات، وظل مواظباً على الترجمة من وإلى القشتالية بعد أن حصل على رخصة بالترجمة. وهو الذي عمل في ترجمة نصوص عربية وجدت في صومعة الجامع الكبير لغرناطة بعد هدمه (996 هـ/ 1588 م).

زاده الاضطهاد الذي لقيه المسلمون بإسبانيا من النصارى تشبثاً بدينه وارتباطا بجماعة المورسكيين، وهذا ما عبر عنه في ملخص رحلته «ناصر الدين» بقوله: «من نعم الله تعالى أن جعلني مسلماً في بلاد الكفار منذ أعرف نفسي ببركة الوالدين ـ رحمهما الله تعالى ـ وإرشادهما».

عزم أحمد الحجري على مغادرة الأندلس بعد أن اشتدت مراقبة الإسبان

للمورسكيين بها وتتبعهم. ولم يعد يأمن أكتشاف أمره، وقد ذكر ذلك قائلاً: «بلغ الحال بي حتى إذا وقفت مع جماعة للكلام ترى كل واحد منهم ينسل حتى أبقىٰ وحدي منفرداً. . . ولما رأى أهالي الأندلس الحالة التي كنت عليها، كانوا يقولون فيما بينهم، لا بد من الوقوع في أيدي الحراقين». (أي محاكم التفتيش التي تحكم بالموت حرقاً)، وهكذا دبر أمره على الهجرة التي رأى فيها خلاصه وسلامة معتقده، إذ يقول: «ولقد جعل الله في قلبي محبة الخروج من الأندلس مهاجراً إلى الله تعالى ورسوله» وتمكن بالفعل من مغادرة ميناء سانتا مارية (Santa Maria) متنكراً على ظهر سفينة كانت تحمل القمح للحامية البرتغالية بالبريجة (الجديدة اليوم) على ساحل المغرب الأقصى في ربيع عام 1007 هـ/ 1599 م. واستطاع أن يكتسب ثقة حاكمها البرتغالي، ثم هرب مع أحد المرافقين له إلى مدينة أزمور التي لا تبعد عن البريجة إلا بعشرين كلم، وعندما عرف حقيقته حاكمُها السعدي اصطحبه معه عند ذهابه لتهنئة السلطان أحمد المنصور الذهبي بالعيد خارج مراكش على وادي تانسيفت (ذي الحجة 1007هـ/ جويلية 1599 م) فأعجب به السلطان وأكبر فيه حماسه الديني وقدر معرفته للغة القشتالية والبرتغالية واستخدمه في قلم الترجمة، وأثناء ذلك تعرف على جمهور الأندلسيين وجماعة العلماء بمدينة مراكش، منهم أحمد بن معيوب الفاسي، وأحمد باب التنبكتي، وأحمد التواتي، وعيسى السكتاني ومحمد الرجراجي، ومحمد الترغي، وفي هذه الفترة قام بترجمة الرسائل والمراسيم الأجنبية وبعض الكتب العلمية من القشتالية إلى العربية، وبعد موت المنصور ولي أحمد الحجري وظيف الترجمة والكتابة باللسان الأعجمي لدى ولدي السلطان زيدان (1012 هـ/ 1037) واستمر في خدمتهما عندما توليا الحكم وهما: السلطان عبد الملك (ت 1040 هـ) والسلطان الوليد (ت 1045 هـ).

قام أحمد الحجري بسفارة إلى فرنسا بتكليف من السلطان زيدان استجابة لطلب جماعة الأندلس في شأن استرداد ما أخذه منهم ربابنة السفن الفرنسية عند نقلهم إلى سواحل المغرب، «وطلبوا من السلطان المولى زيدان. . . أن يأذن لهم بإرسال بعض أصحابهم مع رجل من الأندلس من الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة، وأسفر نظره أن نمشي بأصحابهم وأعطانا السلطان كتابه» فسافر مع خمسة من

جماعة الأندلس مزوداً برسائل توصية إلى ملك فرنسا وولاتها سنة (1611 م)، ووصل إلى ميناء لهافر ومنه انتقل إلى روان فباريس التي بهره عمرانها واستطاب الحياة بها.

استمرت مهمة أحمد الحجري ثلاث سنوات انتقل أثناءها بين شمال فرنسا وجنوبها وأقام مدة سنة ببوردو. ولكنه لم يتحصل إلا على شيء قليل مما كان قد «أخذ على وجه النهب والتعدية» فاضطر أن ينفق منه على إقامته وسفره مع الوفد المرافق له كما جاء على لسانه: «الحمد لله أن كل من أوكلني من جميع الأندلس وصل إليه شيء من الدراهم... وقد أستعنا من شيء قدر ما يكفينا مما نحتاج إليه من النفقة واللباس وما نحتاج للطريق حتى نبلغ إن شاء الله لبلادنا...» وفي طريق العودة فضل التحول إلى الشمال تخوفاً من مخاطر السفر من فرنسا فقصد هولندا وتعرف على أمستردام (مسترضام) التي قال عنها: «رأيت العجب من حسن بنيانها ونقائها وكثرة مخلوقاتها... ولم تكن مدينة بكثرة السفن مثلها...» واجتمع بمدينة لاهاي بالمستشرقين الهولنديين كوليوس (Golius) وايربيوس (Erpenius) الذين شغلا كرسي اللغة العربية بجامعة ليدن، وتعرف على المطبعة (القالب حسب تعبيره) الذي أحدثه ايربنيوس في داره، والتي تعتبر البداية المتواضعة لمطبعة بريل (Brill) الشهيرة، وربما يكون الحجري قد سَاعَدَ إيربنيوس في تأليف كتابه في النحو العربي (1613) الذي اعتُمِد في تدريس العربية بهولندا لمدة قرنين، وقد سمح له جو التسامح والحرية السائد في هولندا بإجراء مناظرات مع بعض العلماء ورجال الدين اليهود والنصارى، أورد بعضها بنص يوافق رأيه وينتصر لموقفه، قبل أن يسافر إلى المغرب على ظهر إحدى السفن (1022 هـ/ 1613 م) وبقي على اتصال في رسائله مع من عرفهم من علماء فرنسا وهولندا.

غادر أحمد الحجري (الفُقَّاي) المغرب الأقصى لأداء فريضة الحج (1045 هـ/ 1635 م) فَقصد الحجاز، وفي طريق عودته توقف بمصر وتعرف على بعض علمائها، وفي مقدمتهم الشيخ علي بن محمد المدعو زين بن الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي الذي قدر فيه مواقفه وأعجب بها وبما لقيه في حياته من مخاطر، فألح عليه أن يكتب رحلته ويسجل مواقفه الشجاعة في الدفاع عن

الإسلام. وكان قد سبق وأن التمس ذلك منه بعض أصدقائه بمراكش. فلم يكن له بد من الاستجابة لرغبة هذا العالم الجليل تقديراً واحتراماً له، وهذا ما أشار إليه في مقدمة ملخص رحلته «الشهاب إلى لقاء الأحباب» إذ قال: « وذكرت بعد ذلك حين وليت إلى مراكش شيئاً من الحكايات والمناظرات والأجوبة مني إليهم (أي علماء النصارى) وطلب مني غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتحقق العمل، إلى أن أمرني شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله. وهو العلامة. . . الشيخ علي بن محمد المدعو زين بن الشيخ الأجهوري»، وهكذا كتب رحلته بمصر (1047 هـ/ 1637 م)، وبعد ذلك عاد إلى تونس التي التقى فيها بابنه (1050 هـ)، وقد أعجب بحاكمها أسطه مراد، كما توطدت علاقته بجماعة المورسكيين بها، لتنقطع أخباره بعد سنة من ذلك (رجب 1051 هـ/ 1641م) وعمره أربع وسبعون سنة.

قام أحمد الحجري بتصنيف العديد من الكتب سرقت منه بعضها بمراكش وضاع بعضها في جملة ما ضاع منه ضمن حِمْل فقده وهو في طريق الحج (1045 هـ)، ولم يبق منها إلا بعض المصنفات منها: ترجمتُه مصنف بالقشتالية لإبراهيم بن غانم الدباش الأندلسي (1040 ـ 1042) بعنوان: «العِزُّ والرفعة والمنافع، للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع». انتهى من تعريبه عام 1048 م/ 1638 م كما أتم تعريب «الرسالة الزكوطية» في علم تعديل الكواكب لليهودي إبراهيم زكوط السملنقي (ألفت في 877 هـ) وتشتمل على 248 جدولاً في الهيئة، بالإضافة إلى ترجمات أخرى في الرد على اليهود والنصارى، وفي الجغرافية (كتاب القبطان عن أعظم جبال الدنيا) زيادة على ما نقله من العربية إلى القشتالية مثل كتاب ألفه أحد المسلمين في كشف غش اليهود. نزولاً عند طلب أحد ففقهاء الأندلس.

على أن ما اشتهر به أحمد الحجري هو رحلته «الشهاب إلى لقاء الأحباب» التي لم تصلنا في نصها الأصلي الذي يعتبر في حكم المفقود. وإنما أطلعنا على أحداثها من خلال الملخص الذي وضعه لها مؤلفها عند كتابتها بمصر، ويتضمن ثلاثة عشر باباً، الأول في ذكر ما جرى له في غرناطة بشأن الكتب العربية التي عثر

عليها. والثاني في قدومه إلى بلاد المسلمين سالماً. والثالث في بلوغه مراكش ومكوثها بها، والرابع في ركوبه البحر إلى بلاد الفرنجة وما اتفق له بها، والخامس في قدومه باريس (بريش)، والسادس في قدومه مدينة بوردو (برضيوش) والسابع في رجوعه إلى بوردو ومناظرته علماء النصارى بها، والثامن في قدومه ألّونة (Olonne)، والتاسع في تحوله مرة أخرى إلى بوردو ومناظراته القسيس والرهبان، والعاشر في مناظرة اليهود بفرنسا وهولندا. والحادي عشر في قدومه هولندا (فلنطش)، الثاني عشر بأحد الرهبان العلماء بمصر، والثالث عشر في ذكر ما أنعم الله به عليه في بلاد الأندلس وغيرها، وقد جاءت كل هذه الأبواب في أسلوب خطابي يتماشى والبناء اللغوي الملائم للمناظرات، والخطاب الجدلي بِجُمَلِه المتقطعة السريعة النفس، وبعباراته الواضحة التي لا تخلو من تأثره باللغة القشتالية في بعض المفردات والتراكيب.

ركّز أحمد الحجري في رحلته على مناقشاته لرجال الدين المسيحيين الذين التقى بهم في فرنسا وهولندا خاصة، مما جعلها عرضاً لمناظرة بين المسيحية والإسلام من منطلق حضاري تلتزم حدود الاحترام ومبادىء التسامح وإن حاول فيها إبطال براهين الخصم وتسفيه آرائه باتباع أسلوب يهدف إلى إقناع القارىء، بأن يعتمد أولاً على الخطاب الأحادي النظرة بإظهار تفوق الخصم بادىء الأمر ثم يعمد إلى نقض آراءه بالأدلة والحجج والبراهين مؤكداً انتصاره عليه. كما يتبين لنا في هذا النموذج عن مناقشة الحجري لرجال الدين المسيحي: قال: «ولما التقيت بالقاضي النصراني كان يشكر لي دينه، حتى قال لي مراراً، يا فلان رأيت أنه يليق بك أن ترجع نصرانياً، قلت له: على أي مذهب من مذاهب النصارى؟ فقال ليس لنا إلا مذهباً واحداً. فقلت له لو كان الله تعالى يُحْيي نصرانياً من زمن سيدنا عيسى عليه السلام، ثم يحيي نصرانياً في كل قرن من القرون الماضية وجميعها ستة عشر قرناً، فكل واحد منهم يقول لغيره أنهم كفار لما يرى من الزيادة والنقصان، والعقل السليم يحكم بحكم قطعي أن دين الله تعالى لا فيه زيادة ولا نقصان كما هو ديننا، قال القاضي ديننا كذلك. قلت دينكم مفتوح للزيادة والنقصان».

كانت رحلة أحمد الحجري صرخة واعية واستغاثة يائسة لطائفة الموريسكيين

المشردين الذين كانوا ضحية تفوّق النصارى وتقهقر المسلمين، ودفعوا ثمن تشبثهم بأصولهم وهويتهم الإسلامية العربية. وهي عرض حي للاحتكاك الثقافي والصراع الحضاري. كما أن صاحبها الحجري نموذج للشخصية الواعية لهذا الوضع المأساوي. فهو كما سبق أن أشرنا إلى ذلك نشأ وكبر وتكوّن في فضاء الحضارة المسيحية الغربية مع كونه ينتمي إلى مناخ الحضارة الإسلامية التي وجد فيها تعبيراً عن الذات وتأكيداً للوجود. فألزم نفسه بإداء رسالة مقدسة جعلته يحاور العلماء بأوربا ويناقشهم نقاش الند للند معتداً بعقيدته ومعتزاً بانتمائه إلى حضارة الإسلام، إذ يقول: «لما رأيت ذلك وتحققت فهمت أن الله سبحانه أزاد مني أن نجاهد معهم بقوة. فكنت أقول لهم ما لا سمعوه من مسلم قط، وينصرني الله عليهم». وهو بذلك يعبّر تعبيراً صادقاً عن الذات المسلمة «الأنا» ضد «الآخر» وهو الذات المسيحية مما يكسب آراءه قيمة حضارية ويسبغ على رحلته قيمة تاريخية.

صدر مختصر رحلة أحمد الحجري المعنون بناصر الدين على القوم الكافرين محققاً من قبل الأستاذ محمد رزوق اعتماداً على نسخة دار الكتب بالقاهرة (رقم 1634) فيما ظلت الرحلة في نصها الأصلي في حكم المفقود. أما باقي ترجماته ومنها العزّ والرفعة والمنافع، والرسالة الزكوطية فلم تنشر بعد، رغم وجود مخطوطات منها في الخزائن العامة تنتظر من ينفض الغبار عنها لأهميتها في التراث العلمي المغربي ومكانتها في التقارب الثقافي بين الحضارتين الإسبانية والمغربية.

المراجع المعتمدة:

- الحجري (أحمد بن القاسم) ، ناصر الدين على القوم الكافرين (مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب). تحقيق محمد رزوق مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1987.
- ابن منصور (عبد الوهاب) أحمد بن قاسم الفقاي الحجري آخر مورسكي يؤلف بالعربية ويدافع جهرة عن الإسلام، مجلة الأكاديمية، الرباط، عدد 12/1995 ص ص 15 ـ 36.
- القدوري (عبد المجيد) سفراء مغاربة في أوربا 1610 ـ 1922 (في الوعي بالتفاوت) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، (بحوث ودراسات) رقم 13/1995 ص ص 11 ـ 21.

ـ المنوني (محمد)، ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مجلة دعوة الحق السنة العاشرة عدد 3/1967 ص ص 77 ـ 88.
ـ الفاسي (محمد) الرحالة المغاربة، مجلة دعوة الحق السنة الثانية العدد 3، 1958 ص ص 21 ـ 22.
ـ الأعلام، ج 2، ص ص 273 ـ 276 رقم 218.
ـ نزهة الحادي، ص 99.
ـ جواهر الكمال، ج 1 ص ص 87 ـ 93.

سفَارة أحمد الحجري إلى بلاد النَّصارى

وبعد: فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى - الراجي عفوه وغفرانه ورحمته، بشفاعة نبيه المذكور في كتبه، وأفضلها كلامه العزيز في قرآنه -: أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي: من نعم الله تعالى أن جعلني مسلماً في بلاد الكفار منذ أعرف نفسي، ببركة الوالدين - رحمهما لله تعالى -... إرشادهما. وقد جعل الله في قلبي محبة للخروج... الأندلس مهاجراً إلى الله تعالى ورسوله، والقدوم... بلاد المسلمين، وقضى الله تعالى الغرض والمراد، وبلغنا إلى مدينة مراكش بالمغرب. وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة فرج الله تعالى على الأندلس المسلمين الذين كانوا فيها تحت قهر... عليهم سلطان البلاد المسمى بفيلِبْ الثالث - من اسمه - بالخروج جميعاً من بلاده، واتفق لكثير من المسلمين الأندلس عند خروجهم أن نهبهم في البحر النصارى وأكثرهم الفرنج البحرية الذين أكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين وخانوهم كل واحد من الرياس في سفينته، وبعد أخذ كل ما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين، وأربعة من تلك السفن المنهوبة خرجت بالمغرب الأقصى، فأحسن المسلمون البربر بالأندلس، وجاءوا إلى مدينة مراكش، وهي دار سلاطين المغرب، وطلبوا من السلطان مولاي زيدان بن السلطان مولاي أحمد بن السلطان مولاي محمد الشيخ الشريف الحسني أن يأذن لهم في إرسال بعض من أصحابهم مع رجل... بالأندلس الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة، وأسفر نظرهم أن نمشي بأصحابهم وأعطانا السلطان كتابه وذهبنا إلى أسْفِ: وهي مدينة على البحر المحيط وفيها ركبنا، وبلغنا بلاد الإفرنج، ووقع لي كثير مع علمائهم من القسيسين والرهبان والقضاة في شأن الأديان، واحتجت أقرا الإنجيل

الذي بأيديهم الآن، ومنه ومن غيره من كتبهم وجدت ما نرد عليهم، ونبطل حججهم، ونصرني الله عليهم مراراً عديدة. وذكرت بعد ذلك حين وليت إلى مراكش شيئاً من الحكايات والمناظرات والأجوبة مني إليهم لبعض الإخوان، وطلب مني غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتفق العمل، إلى أن أمرني شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه في الأقطار والبلدان: الشيخ علي بن محمد المدعوّ زين ابن العلامة الشيخ عبد الرحمٰن بن الأجهوري المالكي [. . .] بأكثر مما طلبوا، وجعلت التأليف رحلة سميتها بـ «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب».

أحمد قاسم الحجري الأندلسي (أفوقاي)، ناصر الدين على القوم الكافرين (مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)، تحقيق محمد رزوق منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1987، ص ص 17 ـ 18.

عبد الكريم بن الفكون
(1073 هـ ـ 1662 م)

عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم من عائلة الفكون القسنطينية العريقة التي توارثت العلم والوظائف المخزنية، واشتهرت بوفائها للحكم العثماني، ولد بقسنطينة سنة 988 ـ 1580 م. وتلقى تعليمه بها. فأكتسب ثقافة متينة واطلاعاً واسعاً على علوم عصره الفقهية واللغوية، وهذا ما تؤكده مراسلاته واتصالاته بعلماء عصره مثل أحمد المقري صاحب نفح الطيب. تَولى التدريس وكان له تلاميذ يقصدونه من عنابة وزواوة والجزائر وغيرها. وأسندت إليه الإمامة والخطابة باعتباره شيخ الإسلام بالجامع الكبير بقسنطينة خلفاً لأبيه 1045 هـ/ 1635 م، ثم عهد إليه بمهمة قيادة ركب الحجيج التي توارثتها أسرته، فاشتهر بصلاحه ومال إلى الزهد وعرف عنه معاداته للبدع والسلوك غير السوي مثل التدخين والرشوة والتذلل للحكام، والأكل والنوم بالمساجد وحلق الرؤوس بها، وظل في وظائفه تلك حتى وافته المنية سنة 1073 ـ 1662 م.

ترك الشيخ عبد الكريم بن الفكون العديد من التصانيف اللغوية والفقهية منها: «فتح اللطيف، ألفه في الصرف (1048هـ)، وشرحاً على أرجوزة المكودي في التصريف عنوانه «فتح اللطيف في شرح أرجوزة المكودي في التصريف» وشرحاً على مختصر الأخضري سماه «نظم الدرر في شرح المختصر»، و «فتح الهادي في شرح جمل المجرادي» في النحو و «سربال الردة» في القراءات و «محدد السنان في نحور إخوان الدخان» ومجموعة قصائد في مدح الرسول ﷺ رتبها أبجدياً، وتقاييد في مسائل متفرقة، منها عرض حول مسألة الوقف بعنوان «حوادث فقراء الوقف»،

ومراسلات عديدة مع علماء عصره مثل سعيد قدورة وأحمد المقري، وإبراهيم الغرياني القيرواني.

هذا بالإضافة إلى مؤلفه الذي اشتهر به وهو منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، الذي انتهى من وضعه سنة 1046 هـ/ 1636 م.

ضمن الشيخ عبد الكريم الفكون كتابه منشور الهداية مجموعة من التراجم بلغت 75 ترجمة لعلماء قسنطينة وناحيتها في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة وسجلها في شكل مذكرات وتقاييد على مراحل مما جعلها قد تقصر أو تطول ولا تخلو من التكرار والاستطراد وتداخل التواريخ. فقلما يذكر تاريخ الولادة، وقد يترك تاريخ الوفاة بياضاً إذا لم يتوفر له، وقد انتهج فيها طريقة خاصة. تتضمن أخباراً لطيفة وآراء شخصية صريحة تسببت له ذلك في مضايقات ومشاحنات وهذا ما أشار إليه في قوله: «رمتني من أجله العيون وانحقد علي بعضي القلوب وأكثرت الشؤون»، كما يعمد إلى تسجيل انطباعاته صراحة وبالتلميح ويذكر انطباعات غيره إذا كان لا يعرفهم، ويركز خاصة على أحوال الأشخاص فيما كانوا عليه في نظره من الصلاح أو الطلاح. ويتحدث عن نشاطهم الاجتماعي وعلاقاتهم مع بعضهم ومع الحكام ومع العامة وعن عقائدهم وسلوكهم في الحياة ونشاطهم العلمي والصوفي، وقد يذكر لهم ما حدث لهم من مغامرات.

هذا وقد وضع كتابه منشور الهداية أساساً لهدف إصلاحي، فهو يتحسر على مجتمعه الذي انتشر فيه الجهل والفساد والزندقة والنصب والاحتيال وتلاشت فيه القيم والمبادىء فيصف أهل زمانه بقوله: «رأيت الزمان بأهله يعثر وسفائن النجات (كذا) من أمواج البدع تتكسر. وسحائب الجهل قد أضلت وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيساً والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيساً. وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروائح السلب والطرف من لمولى عليه فائحة»، وفي مكان آخر يذكر عصره الذي يتميز بفساد الخاصة ورقاد العامة بقوله: «زماننا الذي فاض فيه عباب الجهل. والدعوى وطلعت كواكب البدع والأهوىٰ (كذا) فلا ترى إلا مدعياً في العلم أعلى منصته ومرتقباً في

شامخ التربية أرفع قنته، وجعلوا الطريقتين «العلم والتصوف» شباكاً لتحصيل الدنيا المنصوبة وحبالات لجمعها بأوتاد حبها مضروبة. وما نظروا إلى عاقبة الأمر عقابه والوقوف بين يدي العالم بالخفيات ودقة حسابه. ونسأل الله العافية وصلح حال الأمة». وهذا ما جعله يتصدى لما كان يسميه (الطائفة البدعية) ويبدي غيرته على الدين والأخلاق. فاعتبر ما كتبه واجباً إذ يقول: «هذا الجهاد الذي هو أحد من السيف في نحور أعداء الله. وناهيك بهم أعداء. . . فعظم الباعث على النصح بهذا التقييد». وقد كان في معظم ما كتبه مستنكراً للبدع والشعودة والخرافات، فجاءت دعوة سلفية ضد الذين حادوا عن سبيل الشرع الصحيح، ومسلك الجماعة. وقد أفصح عن هدفه في هذا بقوله: «والبر بتأليفه أردت، وإرشاد الأمة ونصحها قصدته. . . ».

اشتمل منشور الهداية على أربعة أصناف من التراجم لكلّ صنف فصل خاص به إذ خص مؤلفه الشيخ عبد الكريم بن الفكون الفصل الأول للعلماء والصلحاء المقتدى بهم الذين التقى بهم أو سمع عنهم وعددهم أربعة وعشرون. أشهرهم: عمر الوزان، يحيىٰ الأوراسي، محمد العطار، أحمد الغربي. محمد الكماد. علي بن يحيىٰ الياوراري، أحمد بن تكفة، محمد ابن حسن، عبد اللطيف المسبح، وبركات المسبح، علي المرواني، علي الغربي، أبو القاسم العطار، بركات بن سعيد، محمد التواتي، سليمان القشي النقاوسي، عبد العزيز النفاتي، محمد الفاسي، مضيفاً إليهم علماء آل الفكون المتقدمين وهم يحيىٰ وقاسم وجدّه عبد الكريم ووالده محمد.

أما الفصل الثاني فقد أفرده لمن تولوا المنصب الشرعي وهم غير أهل له فكانوا مدعين العلم أو متشبهين بالعلماء بأستثناء القليل منهم الذين تتوفر فيهم شروط تولي الخطابة والتدريس حسب رأي الفكون. وعددهم اثنان وعشرون أشهرهم: محمد بن القاسم الشريف، ويحيىٰ بن باديس، وأحمد الجزيري. ومحمد السنوسي المغربي. ومحمد بن نعمون، وعبد اللطيف بن سعيد.

أما الفصل الثالث فهو تراجم لمن أدعى الولاية والذين وصفهم الفكون

بالدجاجلة الكذابين والمتشدقة المبتدعة الضالين المضلين، وهم خمسة عشر اشتهر منهم: سيدي قاسم بن أم هانيء، وأحمد بو عكاز، والحاج الصحراوي، والشيخ طراد. وسيدي الجليس، وعبد المالك السناني، والعابد الشابي، وألحق بهم محمد الساسي البوني رغم علمه وورعه، وقد أخذ عليه تصرفات بدرت منه أو نسبت إليه.

ويضاف إلى هذه الفصول فصل ختامي ختم به ابن الفكون كتابه نور الهداية ذكر فيه بعض الأصحاب والأحباب الذين وصفهم بـ «إخوان العصر الذين عايشهم وعاصرهم». وعددهم إحد عشر وأغلبهم خارج قسنطينة مثل الشيخ بلغيث القشاش. وأبي العباس حميدة بن باديس، وأحمد المقري، ومحمد بن ناجي. ومحمد ابن الموهوب. ومحمد وارث الهاروني، وعلي بن عثمان الزواوي، وأحمد بن الحاجة الميلي.

يضم منشور الهداية لابن الفكون معلومات مهمة تتصل بالحياة الثقافية والاجتماعية وبالحياة السياسية في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة. السادس عشر والسابع عشر للميلاد، إذ نستطيع التعرف من خلال ما كتبه على الواقع الثقافي والحياة الدينية، وطرق التدريس والإجازة وأخبار الكتاتيب والزوايا، ومراسلات العلماء ونشاطهم العلمي. وما كانت تمارسه السلطة من تضييق عليهم. وما كان يقوم به بعضهم من دعوة ضد البدع والضلالات والأخلاق المنحطة، كما يعكس الكتاب نفوذ تلك العائلات التي توارثت العلم واشتهرت بالتصوف وتأثيرها على واقع الثقافة وميول العصر، أما الحياة الاجتماعية والاقتصادية فهي تبرز من تلك الإشارات العديدة التي تضمنها كتاب منشور الهداية مثل إشارته إلى مواسم الجفاف والقحط والمجاعة (1602 ـ 1611 ـ 1647) وفترات انتشار الأوبئة (1602 ـ 1622 ـ 1634 ـ 1644 ـ 1680) وذكره لأسماء القبائل والأعراش والعائلات المتنفذة (الغربي، ابن باديس، العطار، الفكون، الموهوب، بن نعمون، الحركاتي، المسبح)، بالإضافة إلى المناصب المخزنية وطبيعة السلطة المحلية وعلاقتها بالسكان، واتصالها بالعلماء، هذا في حين تبرز الحياة السياسية من خلال منشور الهداية في تلك التمردات العديدة وما ارتبط بها من عمليات قمع ومتابعات

للسكان. فقد وردت إشارات في منشور الهداية إلى تمرد يحيىٰ الشاوي (بعد سنة 988 هـ/ 1545 م) وخالد بن نصر شرق قسنطينة (قبل سنة 1045 هـ) ومحمد بن الأحسن النقاوسي، وأحمد السوسي المغربي، وإلى مهاجمة سكان قسنطينة للحامية التركية (975 هـ/ 1567 م).

ظل منشور الهداية مخطوطاً رغم أهميته التاريخية والأدبية وقد ذكره كل من فايسات (E. Veyssettes) وشاربنو (Cherbonneau) ونقل منه أبو القاسم الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف. إلى أن قام بتحقيقه والتعليق عليه والتقديم له. الأستاذ د، أبو القاسم سعد الله اعتماداً على مخطوطة نادرة للشيخ أمير مما سهل الانتفاع به ومكن الباحثين من الرجوع إليه.

المراجع المعتمدة.

- الفكون، (عبد الكريم)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987.
- تعريف الخلف القسم الأول ص ص 166 ـ 169.
- تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص 149 ـ 153.
- معجم أعلام الجزائر، ص 254.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 ص ص 368 ـ 371.
- سعد الله، (أبو القاسم)، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.
- سعد الله، (أبو القاسم)، مجتمع قسنطينة من كتاب منشور الهداية، المجلة التاريخية المغربية، عدد خاص بالحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، الجزء الأول والثاني، 1988، ص ص 385 ـ 401.
- نفح الطيب ج 2، ص 480، ج 3، ص 238.
- البوعبدلي، (الشيخ المهدي)، عبد الكريم بن الفكون القسنطيني (988 ـ 1073 م)، والتعريف بتأليفه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، مجلة الأصالة الجزائر عدد 51، 1977 ص ص 14 ـ 32.

ـ العياشي، (أبو سالم)، الرحلة (ماء الموائد) ج 2، طبعة فاس الحجرية، 1316 هـ، ص 390.
ـ سعيدوني، (ناصر الدين)، رسالة من أعيان قسنطينة إلى السلطان سليمان القانوني في شأن صالح رايس (963 هـ/ 1555 م)، الكتاب التكريمي للأستاذ شارل روبير آجرون، زغوان، تونس، جوان 1996، ص ص 161 ـ 177.
ـ معجم مشاهير المغاربة، ص ص 425 ـ 427.

- Vayssettes (E). Histoire de Constantine sous la domination tuquc, Constantine, 1869.

عبد الكريم الفكون يوضح الغرض
من تأليف منشور الهداية

أما بعد، فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيساً، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيساً، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، إلا أنهم - أعني الطائفتين - تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية، وحالات كانت قدماً للسادة الصوفية. فموّهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمياتها، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها، لبسوا بانتحالهم لها على أهل العصر أنهم من أهلها، فما راقبوا المولى أن يعاجلهم، ولا خافوا فجأة الموت فما بعدها أن تصادمهم. لولا حلم من سبقت رحمتُه غضبَه، فاغتروا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا، كل ذلك والمولى يمهل لهم، ويجري أسباب المنى كيف ما أحبوا على نحو إرادتهم، فزادوا به تمرداً وطغياناً، وأظهروا أن لهم نصيباً وافراً، ولعمري، قد نالوا به حرماناً وخسراناً.

وربما صارت الطائفة البدعية مقطعاً للحقوق، وقسماً يقسم بهم في البر والعقوق والطائفة الأخرى سطرت أناملهم في قراطيس السجلات ما يوهم من لم يرهم ممن يأتي في غابر الزمن أنهم من حزب العلماء بل ومن مشايخهم الأعلين.

كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين، لهم أو يذكروا في معرضهم، وغيرة على جانب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة وأنذال الحمقى المغرورين أن

يتسمّوا بأسمائهم أو يظن بهم اللحوق بآثارهم، ولم آل في التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان وأوان، وبين كل صالح من الإخوان، إلى أن أحسست لسان القول قد انطلق بنسبة ما لا يليق ذكره من أفواههم، فشرح الله صدري في أن أعتكف على تقييد يبدي عوراهم، ويفضح أسرارهم، ويكون وسيلة إلى الله في الدنيا والأخرى، لأني غرت على دائرة الكمال من أهل حضرته، وذببت جهدي باللسان والبنان على أهل صفوته، فلا جرم وإن كنت متلوثاً بالخطايا والأوزار، وممن أحمل عدة من القبائح آناء/ الليل والنهار، أن أرجو من الله المغفرة.

فهذا الجهاد الذي هو أحد من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد ﷺ، بآرائهم المسطرة بأقلامهم في سجلاتهم وأحلوا الرشي بأفعالهم، والتمدح بها والعكوف على طلبها والاعتناء بأخذها في أنديتهم، فهي عندهم من أرفع المكاسب وأسنى المطالب.

والطائفة الأخرى أعلنوا بأن سابق الأقدار منوطة بإرادتهم، وتأثيرات الأكوان صادرة عن اختياراتهم، فزدات بهم العامة شغباً إلى شغبهم، وتشويشاً دخل القلوب فما أعظمه وأصعبه! واتخذت أتباعهم ألقاباً لهم باسم الشيخوخة، والتحذير من أن يُغاضوا أو يغتاضوا. فصارت العامة تجانبهم ولا تحط بساحتهم، وأما النكير عليهم فأربابه في قعر حفير. وربما «زاد في إفصاح أحوالهم والحمل على بثها وإبدائها، ما أحدثوه من أن من مات منهم بنوا عليه وشيدُوا بناءات، وجعلوا عليهم قباباً من العود وألواحاً منقوشة بأسمائهم وما اختاروا لهم من الألقاب التي لا تصلح لهم. وهي من أوصاف سادتنا العلماء العاملين والصلحاء الفاضلين الكاملين. وصيروا ذلك لغابر الدهر بحيث إنهم لبسوا على العامة في الحياة وعلى من سيكون بعد الممات.

شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون
منشور الهداية في كشف حال من ادعىٰ العلم والولاية
تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعدالله.
دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987. ص ص 31 ـ 33

أبو فارس عبد العزيز الفشتالي
(ت 1031 هـ/ 1621 م)

أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الفشتالي. ولد بمواطن قبيلته فشتالة بنواحي فاس على الأرجح ما بين 950 هـ/ 1544 م، تلقى تعليمه بفاس وتتلمذ على شيوخها مثل أبي العباس أحمد المنصور والقاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي، انتسب إلى الوظيف، وتولى الكتابة في ديوان إنشاء ولي العهد السعدي محمد المأمون بفاس حوالي سنة 988 هـ/ 1580 م، ثم اتصل بالسلطان أحمد المنصور الذهبي ومدحه في معسكر على نهر تانسيفت أثناء عقد البيعة لولي العهد المأمون بن المنصور (989 هـ/ 1581) فحاز على رضا حاشية السلطان وانخرط في عداد موظفي الديوان السلطاني للإنشاء في السنة الموالية، واشتهر أمره وزادت حظوته لدى أحمد المنصور الذي ضمه إلى مجلسه (993 هـ ـ 1585) ورأى فيه تجديداً للسان الدين بن الخطيب وكلفه بوضع نص بيعة ولي العهد (المأمون) كما عهد إليه بمهمة وزير القلم الأعلى (رئيس الكتاب) فاختص بتحرير ما يصدر عن المنصور من ظهائر ورسائل، كما سمحت له ملكته الشعرية بأن يصبح شاعر البلاط المفضل، وقد أعجب بقصائده أحمد المقري وأثنى عليه في نفح الطيب، وفخر به المنصور لأنه خلد مآثره في شعره وجعله مشهوراً بين ملوك عصره وقد نقشت عدة قصائد من شعره على جدران قصر البديع بمراكش.

اهتم عبد العزيز الفشتالي بتدوين أخبار الدولة السعدية وتسجيل وقائعها والتعريف بمآثرها، وقد شجعه على ذلك أحمد المنصور، واعترف له معاصروه بذلك. حيث ذكره أحمد بن القاضي في درة الحجال، «بأنه متولي تاريخ الدولة المنصورية أبقاها الله. . . » وقد ظل مواظباً على ذلك حتى أثناء فترة الاضطرابات

التي أعقبت وفاة المنصور والتي تميزت خاصة بحلول المجاعات وتوالي الأوبئة وانعدام الأمن وكثرة الحروب واشتداد المنافسة والعداء بين أبناء المنصور وأحفاده. وقد تجاهل ذلك الفشتالي مقتصراً على تدوين مظاهر عظمة المنصور وأحفاده وكأنه بذلك يعبر عن رفضه لما آلت إليه الأمور من ضعف السعديين وتلاشي أمرهم، وقد بقي على ذلك حتى وافته المنية بمراكش سنة 1031 هـ/ 1621 م.

لم تصلنا من تصانيف عبد العزيز الفشتالي العديدة سوى تاريخه المعروف «بمناهل الصفا ومآثر موالينا الشرفا» وهو على الأرجح قسم مما كتبه عن الدولة السعدية فقط، لأنه لا يشمل جميع الأحداث الخاصة بالسعديين والتي نعطي مائة عام، وإنما يقتصر على حكم المنصور السعدي لمدة لا تزيد عن خمسة عشر عاماً. كما أنه يخلو من الأشعار الكثيرة التي مدح بها المنصور وأشاد فيها بعظمة دولته، زيادة على أنه يغفل أحداثاً مهمة وقعت في عهد المنصور مثل وصول جوذر باشا من السودان إلى مراكش (1007) وانتشار الوباء في نفس السنة واستمراره لمدة 15 سنة. بالإضافة إلى إهماله ذكر تمرد المأمون على والده واتصالات المنصور بالدول الأوربية مثل إسبانيا وإنكلترا، وهي من الأحداث التي عاشها الفشتالي وعرفها عن قرب، وهذا ما يرجح أن مناهل الصفا طرأ عليها تحريف وتعرضت إلى الحذف. ولعل قسماً كبيراً منها ضاع في فترة الاضطرابات التي عاشها المغرب بعد وفاة المنصور سنة 1603.

وقد ساعد على ذلك أن الفشتالي كان لا يولي عناية كبيرة لجمع كلّ ما دونه أو المحافظة على ما سجله من الأحداث. وهناك إشارات كثيرة تدل على أن قسماً كبيراً من كتاب الفشتالي في تاريخ الدولة السعدية قد ضاع حقاً وأتلف، وأن ما وصلنا منه ما هو إلا جزء صغير يحمل اسم الكتاب الأصلي «مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا». ذلك أن المقري في روضة الآس يذكر أن عهده بالفشتالي، «قد أكمل منه ثمانية مجلدات وهو مقصور على السلطان المذكور وذويه». كما أن أحمد ابن القاضي يثبت في درة الحجال: «أن تاريخه (أي الفشتالي) في مجلدات اشتمل على تاريخ ساداتنا الشرفاء من أولها إلى الآن» ومما يؤكد ذلك أيضاً أن جزءاً مما ضاع من كتاب الفشتالي ظل متداولاً حتى عهد الأفراني الذي اقتبس منه

في تاريخه (نزهة الحادي) وأن مولاي بن عبدالله قد قرأ عليه بعض ما انفرد به الفشتالي عن السعديين حسب رواية آكنسوس في «الجيش العرمرم».

يتضمن ما وصل إلينا من كتاب مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا من حيث طبيعة المعلومات أربعة محاور رئيسية تتصل أساساً بالأحداث التي تميز بها عصر المنصور إضافة إلى معلومات متنوعة تتصل بالمظاهر الحضارية، مثل تنظيم الجيش والبحرية وحالة الاقتصاد وأحوال المجتمع ووضع الإدارة ومظاهر العمران التي كان قصر البديع نموذجاً لها، وقد وردت هذه المعلومات متداخلة ودون ترتيب زمني، فجاء في شكل مصنف جمع الأخبار والتراجم والسير حسب السنين (الحوليات) إذ يسجل الأحداث وقت حدوثها، وهذا ما يؤكد صحتها وعدم تحريفها. أو المواضيع «التدوين» فيحدد التاريخ والمكان ويتوسع في ذكر الأحداث، وما ارتبط بها من معلومات، وهو في كل ذلك يتميز بأسلوب أدبي يميل إلى الاستطراد ويكثر الاستشهاد بالأشعار، إذ ورد به حوالي 850 بيتاً شعرياً، بالإضافة إلى ما أدرجه من نصوص تتعلق بإجازات المنصور، ونصوص البيعة وظهور التولية.

فالمحور الأول يهتم بمظاهر الملك وتنظيم الدولة على عهد أحمد المنصور الذهبي وفيه ذكر خلافة أمير الؤمنين (المنصور بالله) وخبر اعتلاله ثم خروجه وعسكرته بتانسيفت ثم ارتحاله إلى فاس ومقامه بها، وتجديد البيعة لولي العهد الأمير أبي عبدالله محمد الشيخ المأمون واقتسام الممالك والأعمال «الأقاليم» بين الأمراء أبناء الإمام أمير المؤمنين، وكذلك ارتحال أمير المؤمنين (المنصور) إلى فاس للمرة الثانية.

أما المحور الثاني فيتعلق ببسط سلطة المنصور وإخضاعه المغرب الأقصى كما يذكر فيه نكبة مجموعة من قواد الأندلس وتجهيز الحركة الأولى لتمهيد السوس وفرار داوود بن المولى الأمير عبد المؤمن من الحاضرة وخروجه عن الطاعة بالسوس، وكذلك خروج الناصر بمليلية، وإيقاع أبي عبدالله محمد الشيخ به وإلقاء القبض عليه وقطع دابره، وكذلك معاقبة عرب الخلط لعصيانهم، وخروج الدعي ابن قرقوش بجهات الهبط وجبال غمارة، وانتزاع الخيل من عرب الخلط، واسترجاع مدينة أصيلة من أيدي النصارى.

أما المحور الثالث فقد خصه لفتح أقاليم الصحراء وبلاد السودان، وفيه يذكر الاستيلاء على توات وتبكورارين والانسحاب منها. والاستعداد لفتح السودان. وتجهيز العساكر لهذا الغرض، والإيقاع بسيكة وجنوده والتوجه من كاغو إلى تنبكتو وما تخلل ذلك من أحداث. ثم استنهاض محمود باشا لمعاودة فتح السودان واستئصال شوكة سيكة والانتقام من أخيه الذي نكث عهده، ثم استدعاء محمود باشا إلى المغرب، دون أن يهمل الإشارة إلى ما اشتملت عليه هذه الممالك من الخصائص والمزايا والمفاخر.

أما المحور الرابع والأخير فهو خاص بعدل المنصور واقتصاصه من الولاة الظالمين، ونظره في شؤون الناس. وفيه معلومات عن الاقتصاد ونظام الجيش ونوعية السلاح، وما كان يمتاز به المنصور من مآثر وخصال، وقد كان ذلك موضوع قصائد وتوقيعات سلطانية.

يعتبر كتاب مناهل الصفا. أهم مصادر تاريخ المغرب في فترة حكم أحمد المنصور الذهبي. فقد التزم فيه مؤلفه بالصدق في الرواية وصحة الأحداث، وقد نقل من معاصريه وعن المصادر التقليدية مثل ابن خلدون بالنسبة للفترة التي سبقت تولي أحمد المنصور الحكم والسنوات الأولى لحكمه، فيما اعتمد على المراسلات والوثائق التي اطلع عليها بحكم وظيفته، أو ما شاهده ووقف عليه أو عاصره من الأحداث، على أن ما يؤخذ عليه هو حرصه على ذكر محاسن المنصور بشيء من المبالغة في الفخر والتعظيم، حتى أنه وصف دولة المنصور «بأنها أثرت العديم وأكسبت المحروم» وغضه الطرف عن ذكر بعض السلبيات كتقاعس المنصور عن تحرير الجيوب الأجنبية بالسواحل المغربية، وتبريره تصرفات قوات المنصور بالسودان، كما يؤخذ عليه عدم اهتمامه بأحوال عامة، وأنه لم يضمّن كتابه العديد من الرسائل والوثائق التي كانت بحوزته، فقد سجل أغلب معلوماته في الفترة التي عاشها بعد المنصور ومدتها خمس عشرة سنة، ومع هذا فإن أحمد المقري يثني عليه في روضة الآس بقوله: «أجاد فيها غاية الإجادة وذكر فيه ما اشتملت عليه الدولة الأحمدية من الأعلام وكذا ما يسر الله فيها من فتوحات التي لم يوجد مثلها من ملوك الإسلام». وذكره محمد بن الطيب القادري في كتابه التقاط الدرر

ومستفاد المواعظ والعبر قائلاً: «الكاتب الأبرع الناظم الأرفع عبد العزيز بن محمد الفشتالي. . . له نظم عجيب بليغ جدًا». كما اعتمده الأفراني في نزهة الحادي ونقل عنه حرفياً فما يتعلق بحياة المنصور العامة والخاصة، وفيما يتعلق بالتنظيمات المتبعة في الجيش والقصر، وفيما يتصل باحتفالات المولد النبوي الشريف وبأوقاف قصر البديع، كما اعتمد عليه فيما يخص عهد أحمد المنصور كل من أبي القاسم الزياني في الترجمان المغرب، وأحمد أكنسوس في الجيش العرمرم، والناصري السلاوي في الاستقصا.

نشر مؤخراً الأستاذ عبد الكريم كريم كتاب مناهل الصفا بمآثر موالينا الشرفاء مع مقدمة وفهارس عديدة، اعتماداً على مخطوطي القصر الملكي بالرباط (304 ص) (رقم 274 ـ 5182) منقولة بتاريخ 1128 هـ، عن النسخة الأصلية، وصدرت ضمن مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية الرباط 1972.

المصادر المعتمدة:

- الفشتالي (عبد العزيز) مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق كريم عبد الكريم، الرباط 1972.
- درة الحجال ص .
- قنون (عبدالله) رسائل سعدية ـ تطوان 1954.
- كريم عبد الكريم مؤرخ مغربي «الفشتالي» يصف أحداث أوربا (1578 ـ 1596) مجلة المؤرخ العربي، بغداد 39/1981 ص ص 235 ـ 263.
- كريم عبد الكريم مناهل الصفا في أخبار دولة الملوك الشرفا. للفشتالي والمجلة التاريخية المصرية المجلد 15/1969، ص ص 235 ـ 236.
- روضة الآس ص 63.
- التقاط الدرر ص ص 79 ـ 80.
- الأعلام. ج 4 ص 26.
- خلاصة الأثر ج 3 ص ص 425 ـ 426.
- مؤرخو الشرفاء ص ص 92 ـ 97.

توسع أحمد المنصور بالصحراء وبلاد السودان

ولما كان صقع بلاد توات وتيكورارين من دون سائر الأقطار القاصية بالمحل القريب من جواره رأى أيده الله أن يبدأ أمره بِافتتاحه ويجعله ركاباً لما وراءه وسلماً لما يليه فجهز العساكر أولاً وسرحها إليه من فاس مع عمر بن محمد بن عب الوالي كان على سجلماسة فكان من تثاقله ببلاد فكيك وإحجامه عن الوصول إلى البلاد وسطو أمير المؤمنين به واعتقاله حتى افتدي بما أنفق من الأموال على الأجناد ومؤنة الأسفار ما قدمنا ذكره ثم استأنف أمير المؤمنين أيده الله الأهبة ثانياً فجهز العساكر من الحضرتين مراكش وفاس، وعقد على حصة فاس منهم لمولاه الوالي كان على مكناسة لنظر أميرها المولى أبي فارس بن الإمام القائد أبي عبدالله محمد بن بركة، وأوعز إليه باستنفار عساكرها معه أيضاً من الرامحة، فاهطعوا لداعيه ونهضوا صحبته خفاً وثقالاً لرضاهم عن حسن سيرته فيهم فحسن لذلك بلاؤهم معه في الحروب، وعقد أمير المؤمنين على حصة مراكش للقائد أبي العباس أحمد بن الحداد العمري المعقلي من صنائعهم وجعله أسوة مولاه ابن بركة في تدبير الحروب دون الخراج، ونهضوا جميعاً في عام إحدى وتسعين وضربوا موعد اللقاء بسجلماسة فتوافوا بها جميعاً وزحفوا إلى البلاد وخاضوا القفر نحوها في عساكر ضخمة اهتزت أقطار السودان لصيتها وداخلهم الرعب منها ووصلوا الترحال ويمّموا تيكورارين من قبل توات بما كانت أحدّ شوكة وأصلب عوداً واعتمدوا تينميمون منها قاعدة قصورها وأم قراها فنزلوا عليها لسبعين مرحلة من مراكش دار الخلافة، وكانوا قدموا إلى أهلها كتب أمير المؤمنين بالأعذار والبراءة والدعاء إلى الطاعة والإرشاد إلى الدخول في حزب الهُدَى، فأساءوا الرد ولاذوا بالمنع واستعدوا للحصار وسولت لَهم نفوسهم القدرة على الدفاع، وجعلوا أكبر

معولهم على تينميمون مقر الملوك الملتجئين إليها ومحل أولي الأمر من ولاتها والرؤساء من أهلها، فارتحل إليها كل من يليها ويجاورها من القصور والقرى وشحنوها بالمقاتلة وكان نزول العساكر عليها للزوال من يوم. . .

وامتنعوا من إلقاء اليد فأذاقهم العساكر نكال الحرب وساموهم سوء العذاب من النار الموقدة وإرسال الصواعق عليهم عامة يومهم حتى توارت الشمس بالحجاب، فوصلوه بالليل ولم تمض منهم طائفة حتى اقتحموا عليهم البلاد غلاباً وتناولتهم السيوف وانطلقت أيدي العساكر بالنهب والعيث في المنازل حتى ارتفع النداء بالأمان أو الإبقاء على من تخطاه الأجل، فسكنت الهيعة وتقبض على رؤساء البلاد وأعيان القصور الملتجئين إليه عند الحصار فتولوا إلى محبسهم وانقاد بانقياد تينميمون سائر قطر تيكورارين، وأتوا طاعتهم راهبين مما نزل من الخسف بأحيائهم المحاصرين إلا الفريق الأقصى من الشط الظهراني انكمشوا في قصورهم وانقبضوا عن إلقاء اليد للطاعة، فأملى لهم القواد أعذاراً إليهم وإقامة للحجة عليهم وأعرضوا عنهم فبث القائد أبو عبدالله بن بركة عماله في البلاد فاقتضوا له خراجها وحملوا إليه جبايتها فزحفوا إلى قطر توات واعتمدوا منها تمنطيط قاعدة قصورها ولدة تينميمون وقريعتها في العصبة والرياسة، وكان شيخاً ورئيساً والمرجوع إلى كلمته في سائر قطر توات الشيخ عمر بن محمد بن عمر بن عبد الرحمٰن أخو السلطان كان بواركلا لأمه وكان راسخ القدم في الرياسة آخذاً ببعض الشارة الملوكية في ضرب السكة لديه وارتفاع الرماح بين يديه فنزلت عليه العساكر وخيمت محلاتهم بساحته ووجه إليه القواد بالطاعة وأملوا له ثلاثاً فراجع نفسه وكان من أولي البصر بالعواقب فحذر على نفسه وقومه مغبة أهل تينميمون أضداده وعلم أنه لا طاقة له بمقاومة الحصار ودفاع العساكر. . .

فكان استنزال عمر رئيس البلاد وزعيمها مفتاحاً لانقياد سائرها وافتضاض بكر فتحها من غير قتال فذرت ضروع الجباية في البلاد وقدر القائد أبو عبدالله بن بركة الوضائع على أهلها. وفرض المغارم فأعطوها عن يد وبث العمال في الجهات فحملوا إليه من ذلك أموالاً جمة واقتضى من سائر أهلها للرهن على الطاعة، فثنّى عنانه إلى الشط الظهراني من تيكورارين فنزلوا عليه بالعساكر وأعذروا

إلى أهله بالبراءة وإيفاد الرسل عليهم من أهل الدين يقدمهم الشيخ عمر رئيس تمنطيط يعظونهم ويدعونهم إلى الطاعة فلجوا في الإباية وأصروا على المعصية جهلاً وغباوة وإيذاناً أن لهم خزى الدنيا وعذاب الآخرة، وجمعوا للحصار بقصبة أولاد عبدالله منهم فحقدت عليهم الأجناد المجاهرة بالعصيان وامتعضوا عن إساءة الرد فالتهب صدورهم حنقاً عليهم فأجمعوا على استيصال شافتهم وقطع دابرهم فزحفوا إليهم وترجل سائر الفرسان والأبطال من جيش الأسل يومئذ عن خيلهم واستالاموا وأسبغوا من شكهم وتظاهروا في دروعهم ونصبوا الدرق أمامهم وشمروا سيوفهم وسابقوا الرجل من عساكر النار إلى معتصم المخالفين، حتى وقفوا لصق أسوار قصبتهم وتنادى بأشعار سائر العساكر فأرعدت رعود النار وضج الأفق من صواعقها الهاطلة على أهل الشقاق بشنابيب النار الموقدة والرصاص المنهل انهلال القطر، وحصى الحديد المنبعث من أفواه النفط الذي يدك الجبال ويصدع الصخر، وصابر القوم حر اليوم وحربه وأقاموا يصطلون بناره شقاء وغباوة وإيذاناً بأن لهم خزى الدنيا وعذاب الآخرة وامتنعوا من إلقاء اليد حتى اقتحمت عليهم العساكر معتصمهم غلاباً من بعد أن فاء في النهار وتبارى جيش الأسل وجيش النار في تناول راية السبق وإحراز الخصل في اقتحام القصبة على أهل الشقاق فلم يروعهم إلا انثيالهم عليهم من الفرج المتثلمة من السور بإلحاح المدافع عليه انثيال السيل فتناولهم القتل وحكموا السيف في الرجال منهم والنساء والولدان حنقاً عليهم حتى كلت سواعدهم، فتنادوا بهدم القصبة عليهم واستيصال شافتهم بالردم فلم يكن إلا كلمح البصر أو أقرب حتى أصرعوا جدارتها إلى الأرض وألصقوها بالرغم وَهويت ردماً على الخوارج فلم تبق منهم ولا من حيوانهم وسائر من يدب على الأرض من نعمهم ودوابهم عين تطرف فأطبق على الجميع تيار الهلكة فأصبحوا مثلاً في الغابرين. وعادت منازلهم بلاقع كأن لم تغن بالأمس وكان في ذلك أعظم عبرة للمعتبرين وأجل عظة للمتعضين.

عبد العزيز الفشتالي

مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء

تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، 1972 ص ص 75 ـ 78

أبو عثمان سعيد بن عبدالله المنداسي التلمساني
(ت حوالي 1088 هـ/ 1677 م)

أبو عثمان سعيد بن عبدالله التلمساني موطناً ونشأة، المنداسي أصلاً ونسباً. عاش بتلمسان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة، منتصف القرن السابع عشر الميلادي، حيث تعلم وأصبح له أطلاع ومعرفة بعلوم عصره اللغوية والأدبية والفقهية، وأثناء ذلك عرف بميله إلى الشعر فنظم فيه الفصيح والعامي وعبر من خلاله عن تأثره بما عرض له من مواقف وأحداث.

اضطر سعيد المنداسي إلى مغادرة تلمسان مسقط رأسه والتحول إلى المغرب إثر تعرض التلمسانيين إلى القمع والمصادرة من طرف القائد التركي حسن على عهد الداي عثمان باشا (حوالي 1060 هـ/ 1650 م. فحز في نفسه ما لقيه أعيان بلده من تنكيل. وقد أنكر على مفتي البلد ابن زاغو مسايرته للحاكم، وإصداره فتوى تبرر ذلك. فهجاه بقوله:

فقـل لابـن زاغـو للضـلال أئمـة ... تـدبّـرْ لحـاك الله مـا قـال مـولانـا
فقل لابن زاغو رأس كل خطيئة ... فلا تحسب الفتك بالأهل سلوانا

ومن الراجح أن سعيد المنداسي كان له أتصال بالعلويين بتافلالت وأنه قد تعرف على مولاي محمد بن الشريف في حركته نحو بسيط أنقاد ومواطن بني يزناسن، وقد يكون أعجب بهذا الشريف العلوي الطامح إلى تأسيس دولة عندما قصد تلمسان وتصدى للحامية التركية إثر ثورة سكانها ضد الحكم التركي واضطرار قسم كبير منهم لمغادرتها خوفاً من العقاب، فحسب صاحب الاستقصا (أنه لما

وصل عسكر الترك إلى تلمسان، وجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد أجفلوا عن أوطانها وتحصنوا بالجبال. . .).

ومن الراجح أيضاً أن يكون سعيد المنداسي نفسه كان مع بعض من تحول إثر هذا التمرد إلى المغرب إذا لم يكن قد صاحب محمد الشريف العلوي في تراجعه عن تلمسان نحو منطقة تافلالت حوالي سنة 1060 هـ/ 1650 م. فاستقر بسجلماسة حيث عاش في كنف العلويين وظل على صلة وثيقة بمحمد بن الشريف العلوي (1047 ـ 1065 م/ 1637 ـ 1665 م) فمدحه بعدة قصائد، واشتغل مدة بتعليم ولده إسماعيل، وفي أثناء ذلك ظل يتنقل في ربوع المغرب بين تافلالت وفاس ومراكش بعد أن انقطعت به السبل عن موطنه تلمسان عندما اضطر محمد الشريف العلوي إلى التخلي عن مطامحه التوسعية في المغرب الأوسط والالتزام بعقد الصلح مع حاكم الجزائر الباشا عثمان سنة 1064 هـ / 1654 م/ .

أصبح لسعيد المنداسي حظوة ومكانة خاصة في البلاط العلوي عندما تولى مولاي إسماعيل الحكم (1082 هـ/ 1672 م)، فقد روي عنه أنه نال من مولاي إسماعيل نحو خمسة وعشرين رطلاً من خالص الذهب عطاء له على بعض مدائحهِ. وقد ظل يحظى برعاية العاهل العلوي ويعيش حياة ميسورة حتى وافته المنية حوالى عام 1088 هـ/ 1677 م، على الأرجح بالرتب من أعمال سجلماسة بإقليم تافلالت، حيث أقام إلى حين وفاته استناداً إلى ما جاء في شروح قصيدته (العقيقة)، وهذا عكس ما ذهبت إليه بعض الروايات من أن سعيد المنداسي يكون قد دفعه الحنين إلى العودة إلى تلمسان حيث توفي ودفن بها.

ترك سعيد المنداسي العديد من قصائد الشعر الفصيح والعامي عكست أحداث عصره وأبرزت موقعه من بعض القضايا، فقد كان وهو بتلمسان مثل العديد من سكان بلده متأثراً بما تنقله الأخبار من المغرب الأقصى من تقدير الحكام للعلماء واحترامهم لأحكام الشريعة والتقاليد مما زاد في معارضته لتصرفات قائد تلمسان التركي ونقمته على قسوة الحامية العسكرية التركية واستبدادها بالسكان. وهذا ما عبر عنه في قصيدته النونية الشهيرة «الأعلام فيما وقع للإسلام من قبل

الترك في تلمسان» ومما جاء فيها:

وأكبر شيء أفسدته أكفهم   تلمسان عين الغرب علماً وإيماناً
على نهب أموال اليتامى تظاهروا   وكانت لهم أعلى المدينة آذاناً

ألف سعيد المنداسي من الأشعار الفصيحة والعامية ما يؤلف ديواناً ضخماً في مختلف الأغراض. وهذا ما زاد في شهرته وجعله على رأس شعراء عصره في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ببلاد المغرب. فقربه الحكام واتصل به الأدباء وصاحبه العلماء مثل الشيخ أحمد الحلبي المقيم بالمغرب، ومما يؤكد مكانة سعيد المنداسي في مجال الأدب أنه أثر في بناء القصيدة. فعمق في معانيها وتوسع في أغراضها وتطرق إلى مختلف مواضيعها في الغزل الوصف الخمرة والفخر والمديح والرثاء والعتاب والهجاء والتضرع والاستغاثة والحكم والمولوديات والإخوانيات وغيرها، وجمع بين الشعر الفصيح والعامي، وبين النظم القصير الذي لا يتعدى بعض الأبيات والقصائد الطويلة التي تجاوز عدد أبياتها الثلاثمائة بيت.

ومن طريف شعر سعيد المنداسي مزجه الغزل بالمديح النبوي في قوله:

هل رأيتم أو سمعتم حسناً   في الورى حسنه للحسن اكتمل
كالرسول العربي أكْرِمْ به   من رسولٍ مُذْ بَدَا الشرك اضمحل

وثناؤه ومدحه باللغة العامية لمولاي إسماعيل في قوله:

لولا أنت بالله ما صلح فساد الغرب   وأشفيت الجروح بالطب الشافي
والله أحد ما شرب منو صافي

وكذلك بغوثيته في ولي تلمسان أبي مدين والتي جاء فيها:

يا إمام أهل الله   يا الغوثي بالك تنساني
يا بو مدين جيت   في المقام نشوفك بإشمادي
نطوف معاك البيت   ومع الرسول المصطفى الهادي

هذا ورغم الأهمية الأدبية والتاريخية لشعر المنداسي إلا أنه لم يحظ بمن يجمعه ويعلق عليه، فقد ضاع جزء منه وظل قسم هام منه متفرقاً، هذا إذ استثنينا

قصيدته في مدح الرسول ﷺ المعروفة بالعقيقة التي ألفها ببلاط مولاي إسماعيل سنة 1088 هـ في 302 بيت. وهي بفصيح العامية الذي يجمع اللفظ العامي والمستوى الأدبي واللغوي المقبول، إلا أنها احتوت على تراكيب غريبة وصور بلاغية وعلى تواريخ وحوادث تحتاج إلى شرح وتوضيح من ذوي الاطلاع الواسع وهذا ما جعل أباراس الناصري يفرد لها شروحاً (طبعت بالجزائر سنة 1901 م). كما خصها أحمد بن سحنون الراشدي بشرح عنونه بـ: «الأزهار الشقيقة المتضوعة بعرف العقيقة». كما اشتهرت قصيدته النونية في رثاء تلمسان وهجاء الأتراك والتي تناقلها بعض المؤرخين وضمنوها كتبهم مثل أحمد برناز التونسي في الشهب المحرقة.

حظي مؤخراً ديوان سعيد المنداسي باهتمام المحققين، فجمع الأستاذ محمد بوكوشة ما عثر عليه من الشعر العامي ونشره بالجزائر بعنوان «ديوان المنداسي»، وقام الأستاذ رابح بونار بنشر القصائد العامية للمنداسي المجموعة في مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية (رقم 1989 ورقات 114 ـ 124) وتتضمن ست قصائد مجموع أبياتها 352 بيتاً مع القصيدة النونية، كما نشر الأستاذ عبد الحميد حاجيات قصيدة من الشعر العامي للمنداسي مطلعها: «أبت أنفوس الكرام أنجوز الفضل» في عدد خاص بالشعر الملحون من مجلة آمال الجزائرية (1969).

المراجع المعتمدة:

- المنداسي (سعيد) الديوان، تقديم محمد بوكوشة، الجزائر 1968.
- المنداسي (سعيد) الديوان، تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر 1976.
- برناز (أحمد بن مصطفى) الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد والمعرفة، (مخطوط).
- المنداسي (سعيد) قصيدة أبت النفوس، منشورة في مجلة آمال، (عدد خاص بالشعر الملحون) عدد 4/1969 ص ص 123 ـ 125.
- علوش والرجراجي، فهرس المخطوطات العربية بالرباط. (ص 248).
- الاستقصا، ج 7، ص 21.

ـ تاريخ الجزائر الثقافي ج 2، ص 181.
ـ شاوش، (محمد بن رمضان)، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1955، ص ص 524 ـ 525.
ـ أبو راس الناصري، الدرة الأنيقة في شرح العقيقة (وهي شرح قصيدة المنداسي في مدح الرسول ﷺ).

الأعلام فيما وقع للإسلام من قبل الترك بتلمسان

أمن قادر بالله يحمي تلمسانا ... فإن بها من قوم يأجوج إخوانا

بنى السدّ ذو القرنين للناس رحمة ... فياليته من شوكة الترك هنانا

ولكن وراء السدّ عمَّ فسادهم ... وهم أفسدوا في الغرب كفراً تلمسانا

وأكبر شيء أفسدته أكفهم ... تلمسان عين الغرب علماً وإيمانا

وكانت لهم لما أرادوا فساداً ... أراذل منها كالبطارق أعوانا

فمنهم قرين السوء مفتي بلادهم ... تود العباد الترك كانوا ولا كانا

فقل لابن زاغو للضلال أيمة ... تدبَّرْ لحاك الله ما قال مولانا

ولا تركنوا والركن منك سجية ... كأنك لم تسمع من الله قرآنا

فإن أمير الوقت بالأمر قائم ... وأنت جليس السوء في زي هامانا

أتهدم دار العلم في حانك الذي ... تبيت وتضحي فيه ويحك سكرانا

لئن فعلت بألحان مثلك سوقة ... فقد هد منك الظلم للناس أركانا

لقد كنت حبراً بالمدينة صالحاً ... فصرت بها أخا القرامط حمدانا

قتلت فحول العلم صبراً ولم تزل ... على عهدك المعلوم في الزيغ هيمانا

فأيمت بالفتوى نساء كريمة ... وأيممت بالقول المملك ولدانا

وشيدت للإسلام ركناً من الأذى ... فلا ثُمر الرحمٰن من ذاك بنيانا

فما الله عن سفك الدماء بغافل ... ولا يترك الرحمٰن حاشاه لعبانا

رأى شبيبة التوحيد كيف تخضبت ... بأسمر كالبلسام ظلماً وعدوانا

ورأساً بأيدي الجند كم بات ساجداً ... وكم ظل في (الكبرى) يركب برهانا

وعبد العزيز في القيود كأنه ... إلى النحر يرفع الطرف حيرانا

ومن معه في ربقة الأسر لم يروا ... حميداً سوى رمضان ثم شعبانا

فمـــا قـــام شعبـــان شعبـــان ليلـــة ولا صام في الإسلام رمضان رمضانا

علـى نهـب أمـوال اليتـامـى تظـاهـروا وكـانـت لهـم أعلـى المـدينـة أذانـا

فجـرد مفتـي الجـور ثـم حسـامـه وصحـح مـن نـذل الضـلالـة بطـلانـا

وقـال اقتلـوا فـالقتـل يـردع غيـرهـم ولا رق ذاك القلـــب منـــه ولالانـــا

إذا كـان مفتـي السـوء يقضـي بـرأيـه هناك يكون الزرع في الأرض خسرانا

تعـالـوا تـروا ضليـلاً فـي زي نـاسـك يطـول مـن ثـوب البطـالـة أردانـا

وقـد قـد ذاك الثـوب مـن كـل مـوضـع ومـر بـأبصـار الخـلائـق عـريـانـا

إذا شيـم منـه الخيـر فـالبـرق كـاذب وإن صـال منـه الـرعـد يهلـك بلـدانـا

آيـــا آل ديـــن الله مـــا لـــي أراكـــم نيـامـا وكـان الطـرف مـن قبـل يقظـانـا

فـداركـم الـزهـراء بـالنـار أحـرقـت وبـان جميـل الصبـر للـزيـغ إذ بـانـا

أمـا تـذكـرون الأهـل والـزمـن الـذي عهدتم فذاك الوصل قد صار هجرانا

وهـلا سـألتـم عـن يتـامـى تفـرقـت أيـــادي سبـــا أنثـــى وذكـــرانـــا

فهـب أنهـم للجـور ضلـت عقـولهـم فـلا يتـرك الجيـران فـي العسـر جيـرانـا

فقـل لابـن زاغـو رأس كـل خطيئـة فـلا تحسـب الفتـك بـالأهـل سلـوانـا

ولكنـــك الـــدجـــال للنـــاس فتنـــة تـأهـب لـروح الله فـالحيـن قـد حـانـا

فـإن أضحكتـك الجنـد بـالنـاس سـاعـة فـــلا تغتـــر فـــالله يكفيـــك أزمـــانـــا

سعيد بن عبدالله المنداسي،

الديوان، تحقيق وتقديم

رابح بونار، الجزائر 1976 ص ص 87 ـ 91

أبو سالم عبدالله بن محمد العياشي

(ت حوالي 1090 هـ/ 1681 م)

أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن سيدي أبي العباس أحمد بن سعيد العياشي المالكي، ذكره القادري بكنية أبي محمد أعياش، ولد في شهر شعبان 1037/هـ افريل 1628 بمواطن قبيلة آيت عياش البربرية بإقليم تافلالت جنوب المغرب الأقصى، ونشأ في أسرة علم ووجاهة، وتلقى تعليمه عن أبيه محمد وهو شيخ زاوية وكذلك على يد أخيه الأكبر، بعدها انتقل إلى الزاوية الرئيسية بوادي درعة فتتلمذ على شيخها سعدي محمد بن ناصر ثم التحق بفاس وارتبط بالشيخ الإمام عبد القادر بن علي الفاسي صاحب زاوية القلقليين ولازمه مدة تحصل فيها منه على إجازة (1063 ـ 1653)، كما حصل بفاس على إجازات من بعض شيوخها الذين أخذ عنهم أو اتصل بهم مثل الشيخ عبد الرحمٰن بن القاضي، وقد ظل بعد مغادرته فاس حريصاً على الاستزادة من العلم عن شيوخ كثيرين تعرف على أغلبهم في رحلاته إلى الحج منهم من مصر الأجهوري، وشهاب الخفاجي، وإبراهيم المأموني، وعلي الشبراشي، وسلطان المزاحي، ومن الحجاز: زين العابدين الطبري وعبدالله باشقير، وعلي بن الجمال، وعبد العزيز الزمزمي، وإبراهيم الكردي وحسين العجمي، وعيسى الثعالبي، ومنهم من تعرف عليه في طريقه إلى الحج كالعالم القسنطيني عبد الكريم بن الفقون شيخ ركب حجاج قسنطينة والذي اطلع العياشي على مؤلفاته وتأثر بطريقته في التصوف كما ذكر ذلك في رحلته.

اكتسب العياشي ثقافة دينية عميقة وأدبية واسعة، فبرز في علوم الحديث ومسائل الفقه وقضايا الأدب واللغة، كما تأثر بالمناخ الفكري والتيارات الثقافية لعصره، فمال إلى الزهد والتصوف الذي جمع فيه كما قال بين أسلوب المشرق وطريقة المغرب، وقد اعتبر في وسطه المغربي من المطلعين على الحديث والعارفين باللغة والشعر، ومن المتصوفين المعرضين عن الدنيا، فاكتسب احترام العامة وتقدير الخاصة، إلى أن وافته المنية عن سن لا تتجاوز الثالثة والخمسين من عمره متأثراً بالوباء (الطاعون) الذي اجتاح المغرب حوالي سنة 1090 هـ/ 1679 م.

ترك أبو سالم العياشي العديد من التصانيف منها منظومة في البيوع وأخرى في التصوف بعنوان «تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا والآخرة» أو «إظهار المنة على المبشرين بالجنة» كما ترك فهرساً جامعاً لشيوخه حسب أنواع العلوم التي أخذها عنهم بعنوان: «تحفة الأخلاء بأسانيد الأجلاء» على أن رحلته المشهورة «بماء الموائد» غطت على هذه المصنفات بل كانت الأثر التاريخي الذي خلد ذكره وأكسبه مكانة متميزة في تراث أدب الرحلة بالغرب الإسلامي.

سجل العياشي ما شاهده أثناء سفره نحو الحجاز في رحلته «ماء الموائد» فجاءت وصفاً دقيقاً لطريق الحج المغربي ومحطاته ومنازله، وعرضاً شاملاً عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للأقاليم التي مر بها أو توقف عندها، وقد كانت هذه الرحلة نتيجة لرحلاته الثلاث لأداء فريضة الحج في فترات متعاقبة حيث كانت رحلته الأولى سنة 1059 هـ/ 1649 م ورحلته الثانية سنة 1064 هـ/ 1653 م أما رحلته الثالثة فقد أتمها سنة 1074 هـ/ 1661 م ووصل فيها إلى غزة والرملة ووقف على معالم بيت المقدس التي ذكرها بقوله: «وبالجملة فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما هو لها من المزارات شيء كثير» كما تعرف على أحد شيوخ غزة وهو عبد القادر الغصين وجملة من علماء القدس مثل القاضي محمد النفاتي، والعالم شهاب الدين الحنفي، وعمر العلمي إمام الصوفية بها، ومحمد الساحلي وقاسم إمام من أتباع الطريقة الرفاعية بها.

وصف العياشي في رحلته طريق الحج المغربي الذي كان يسلكه عادة حجيج سجلماسة وجنوب المغرب الجزائري المعروف بمسلك الصحراء الشمالية أو طرق «القصور» التي لخصها في رسالة له إلى أبي العباس أحمد بن سعيد المجيلدي قاضي فاس الجديدة والتي نقتبس منها منازل الطريق بين سجلماسة والإسكندرية وهي: سجلماسة، الكراكر. تالغومت، وَلْدن بيرت الساحلي، الصفصاف، واد غير، عوينة، بشار، قلته الرحم، أم إلياس، الفقيق، أم الغزر، بوصغون، الربا، كراكدة، الغول، واد المخيلي، شعبة الملح، عين ماضي تاجموت، الأغواط، دماد، واد مزي، بئر عبد المجيد، سيدي خالد، بن سنان العبسي، أولاد جلال، بنطيوس (زاوية سيدي عبد الرحمٰن الأخضري) بسكرة، سيدي عقبة الليانة، التراريز، زريبة الوادي (خنقة سيدي ناجي) فركان، قيطون، بادس، زريبة حامد، نفطة، توزر، زاوية سيدي بهلول، السبخة (شط الجريد)، زاوية الرمل. زاوية سيدي حماد، قصر الرومان، الحامة، قابس، زاوية زريق عرم بمواطن الحمرارنة، غردان، برج الملح، زوارة، زراقة، الزاوية، طرابلس، تاجورة، واد المسيد، عيتوت نقّارة، (بلاد ساحل حامد) زليتن (ضريح سيدي عبد السلام) مصرارته (ضريح سيدي أحمد زروق، ماء لورير، حميد، ماء الهيثة، آبار حسن، ماء الزعفران، ماء الحمرين، النخيلة/الكبريت. اليهودية، بريشكة، المنيم، جيبا، عنية، الجابية، آبار سلوق، سروال، البنية، الفرديس. (بالجبل الأخضر)، الدفة، التميمي، عين غزالة، الفقيه الكبيرة، الفقيه الصغيرة، بوصير، الإسكندرية.

تكتسي رحلة العياشي أهمية خاصة بما تقدمه للقارىء من معلومات قيمة. ورغم الطابع الدّيني الذي يغلب عليها والنزعة التصوفية التي تتحكم فيها تعد بحق مصدراً أساسياً لكل باحث في الفترة التي تغطيها والأماكن التي عرفتها إذ يمكنه أن يستقي منها المعلومات الجغرافية والأحداث التاريخية، والأوصاف العمرانية والملاحظات الاجتماعية والتيارات الثقافية، فيستطيع من خلال ذلك أن يكون صورة حية عن العادات والتقاليد وحالة العمران والأحوال المعيشية والصحية والأمنية وأوضاع الزراعة والصناعة، وميول العامة واهتمامات الخاصة ولا سيما فيما يتصل بالمعارف الفقهية وسلوك المتصوفين والفقهاء في القرن الحادي عشر

للهجرة السابع عشر للميلاد، حتى أن القادري وهو يصفها في كتابه التقاط الدُّرَرِ قال عنها بأنها «جمة الفوائد غزيرة النفع في المصادر والموارد».

وكغيرها من الآثار المكتوبة كانت رحلة العياشي تعبيراً صادقاً عن ثقافة العصر ومميزات المجتمع. فقد جاء أسلوبها جافاً بسيطاً يميل إلى الغموض والتكلف والمبالغة لا سيما عند حديثه عن العلماء الصالحين والأولياء والدراويش. كما لا يخلو أسلوبها من الاستطرادات المتكررة. مع غياب النقد وعدم التركيز، والميل إلى الإطناب، فمستوى أسلوبها لا يرقى بأي حال من الأحوال إلى رشاقة وحيوية أسلوب ابن جبير أو جزالة تعابير العبدري.

حظيت رحلة العياشي بعناية العديد من الكتاب والباحثين الذين وجدوا فيها مادة غنية عن المجتمع العربي في القرن السابع عشر لا تتوفر في العديد من المصادر المعروفة، فقام بترجمتها إلى الفرنسية بربروقجي (A. Berbrugger) ونشرها في لوحة «الاستثمار العلمي لإفريقيا» ضمن الجزء التاسع الخاص بالعلوم التاريخية والجغرافية (باريس 1846) وظهرت طبعتها العربية بفاس في جزأين 1898 بخط مغربي صعب القراءة، ثم أعاد تصويرها ونشرها من جديد بالرباط (1977) محمد حجي الذي وضع لها فهارس سهلت الانتفاع بها.

المراجع المعتمدة:

- العياشي (أبو سالم عبدالله) الرحلة العياشية «ماء الموائد»، 2 ج، ط حجرية، فاس، 1898. أعيد تصويرها مع وضع فهارس لها من طرف محمد حجي، الرباط، 1977.
- القادري (محمد بن الطيب)، كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي، دار الآفاق الحديثة، بيروت 1980، ص ص 212 ـ 213.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 808 ـ 809.
- الكحلاوي (محمد) آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994.
- إسماعيل (العربي) دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية، الجزائر 1994

ص ص 189 ـ 191.

- فهرس الفهارس، ج 2، ص 211.
- الأعلام، ج 4، ص .
- صفوة من انتشر.
- الجبرتي (عبد الرحمٰن) عجائب الآثار، دار الجيل، بيروت، 1980 ص 115.
- سعد الله (أبو القاسم) شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون رائد السلفية، دار الغرب الإسلامي. بيروت، 1986.
- سعد الله (أبو القاسم) مع العياشي في رحلته إلى القدس. (بحث غير مطبوع).

- Berbrugger (A.) Voyage dans la Sud de l'Algérie et des Etats Barbaresques de l'Ouest et L'Est par El. Aiachi et Moula Ahmed, in Exploration scientifique de l'Afrique, (Sciences historiques et géographiques), T. II, Paris 1846 .
- Blachère (R.) Extrait ses principaux géographes arabes, Paris 1932, pp. 369-370.
- Brihmat (A.) Voyage d'Abû Salim Àbdellah El. Ayâch'i, in Revue de l'Islam, année 1899.
- Lévi - Provençal, Histoire des chorfa, Paris, pp.262 - 264.
- Silakhdar (M.) Les étapes du pélevin de Sijilmassa à la Mecque et Médine, in Actes du Congrès de fédération des sociétés savantes, Rabat, Avril 1938, Alger T II 1939, pp. 671 - 688.

العياشي يصف مدينة بسكرة

ونزلنا بسكرة ضحى يوم الاثنين (3 رمضان 1074 هـ ـ 1663 م) وكان نزولنا خارج البلد من غربيّه لأجل الوباء، واضطر الناس لدخول البلد لشراء الزاد. . . ولم أدخل البلد لمزاحمة الأشغال إلى عشية يوم الأربعاء ودخلت لزيارة أبي الفضل رضي الله عنه وقبره خارج المدينة وحوله مسجد ومساكن أقوام من جيرانه، ودخلنا المسجد وطلعنا إلى منذنته وهي في غاية الإتقان والطول والسعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها، وأدراجها مائة وأربعة وعشرون درجة، والمسجد في غاية السعة وإتقان البناء. إلا أنه قلّ عامروه وضعف ساكنوه، فلا ترى بِه مدرساً ولا قارئاً مع أن هذه المدينة من أعظم المدن، وأجمعها لمنافع كثيرة مع توافر أسباب العمران فيها، قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد، وماء جار في نواحيها وأرحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حنّاء إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن في أسواقها.

وبالجملة فما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقاً وغرباً أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب العيش، إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر الأعراب، يستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة إلى أن بنىٰ الترك عليها حصناً حصيناً على رأس الماء الذي يأتي إليها فتملكوا البلد وأضروا بأهلها. وأجحَفوا بهم في الخراج، ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي له حياة البلد وأهله، فاجتمعت عليها غارة العرب من خارج وظلم الترك من داخل، وقد

أشرفت على الخراب. وقاربت يَبَاباً لولا ما تأصل من أسباب عمرانها الموجب لرغبة الناس في سكنها، وقد لقيت بها في سنة تسع وخمسين (1059) رجلاً من الصالحين. . . اسمه سعيدي بوطيب نصير. . . ولما رجعت من الحجاز في سنة ستين (1060) وجدته قد توفي بالوباء. الواقع في تلك السنة، وكان وباء مفرطاً مات به في بسكرة على ما قيل نحو من سبعين ألف نفس، وقد دخلنا المدينة عقبه فوجدنا أكثر حوماتها خالية. ومساجدها دائرة. ولقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير متفرد في مسجد له بإزاء داره. . . وخرج إلينا أيضاً من فقهاء البلد سيدي عبد الواحد الرماني. . . ودخلنا البلد ثانياً لزيارة سيدي محمد بن بوعلي. . . وكان ارتحالنا من بلاد بسكرة قاعدة بلاد الزاب يوم الخميس وسرنا على غاية من الوجل، من عرب أولاد نصر لكثرة ما يخوفون الناس منهم.

أبو سالم العياشي، الرحلة «ماء الموائد»، إصدار محمد حجي، الرباط 1977، الجزء الثاني، ص ص 100 ـ 103

أبو عبدالله محمد بن أبي دينار القيرواني

(ت بعد عام 1110 هـ/ 1698 م)

أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني المعروف بابن أبي دينار القيرواني، عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة (النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي) تلقى تعليمه بالقيروان ثم بتونس، فأخذ عن بعض شيوخها مثل ابن الشيخ محمد فناته، والشيخ محمد بن الشيخ وأبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري، وقد تولى القضاء بسوسة والقيروان في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن الثاني عشر، ولا يعرف تاريخ وفاته إلا أن المصادر تذكر أنه كان حياً يرزق حتى حدود سنة 1115 هـ/ 1703 م، اشتهر بعلمه الغزير واطلاعه الواسع، ترك عدة تصانيف منها «تخلص ذوي المودة والصفا بختم أواخر الشفا» وهو تذييل لكتاب الشفا، و «رضاب العقيق في الزمن الأنيق» وهو في مجاراة الإخوان وأحوال الصاحب والصديق. وكتاب «هداية المتعلم» في الأدب والتربية، وضعه كما يبدو نزولاً عند رغبة وطلب «من يكن له الاحترام والتقدير» حسب ما جاء على لسانه.

اشتهر ابن أبي دينار بكتابه «المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس» الذي سجل فيه الأحداث التي عرفتها تونس وبلاد إفريقيا. انتهى من وضعه في منتصف شعبان سنة 1092 هـ/ 1681 م وقد يكون أتم مراجعته قبيل وفاته سنة 1110/1698 م. وهدفه من وضع هذا الكتاب التعريف بماضي تونس، مُتِمّاً به ما كتبه ابن الشماع عن تاريخ تونس، وهذا ما أشار إليه ابن أبي دينار بقوله: «إلا أن مدينتنا الخضراء العلية وعروس البلاد الإفريقية تونس حرسها الله تعالى لم يتقيد لجمع أخبارها

مصنف. . . وقد كنت أتمنى أن أجد من فيه نباهة ليجمع ما حدث في زماننا من الوقائع العجيبة ويضيف إلى ما جمعه ابن الشماع في تلك المدة البعيدة إلى هذه المدة القريبة. وكم تشوقت إلى هذا الجمع بنفسي وملت إليه بحسي وحدسي إلى أن قدر الله علي بفرقة الأحباب وموت الأولاد، فكان هذا هو الباعث لي في هذا التقييد. . . ».

اشتمل كتاب المؤنس على سبعة أبواب، الأول عرف فيه ابن أبي دينار بتونس وذكر أسمائها وجامعها الكبير (الزيتونة) وشيء من آثارها، والثاني تعرض فيه إلى إقليم إفريقية والغرب الأدنى، والثالث تناول فيه الفتح الإسلامي لإفريقيا منذ غزوة عبدالله بن أبي سرح إلى إتمام الفتح على يد موسى بن نصير، مع ذكر ولاة القيروان والحكام الأغالبة، والباب الرابع خصه للدولة العبيدية وتصديها لحركة أبي يزيد صاحب الحمار المناهضة لها، والباب الخامس أفرده لأمراء صنهاجة منذ ولاية بلكين، بعد ذلك خلص ابن أبي دينار في الباب السادس للدولة الحفصية التي توسع فيها فأفرد لها فصلين الأول جعله توطئة لأخبار الحفصيين ذكر فيه فتح الأندلس ومن حكم المغرب إلى غاية دعوة الإمام المهدي «ابن تومرت» وتولي عبد المؤمن بن علي وسلالته حكم الموحدين وما انتهى إليه الأمر من ظهور الحفصيين بتونس، وفي الفصل الثاني (من الباب السادس) تطرق إلى أمراء بني حفص بإفريقيا، وقد خص بالذكر أبا زكريا يحيىٰ، والحرب الصليبية الثامنة، وتدخل المرينيين في شؤون المغرب الأدنى، بعد ذلك توسع في أخبار الحكام الحفصيين الأخيرين، حتى عهد أبي محمد الحسن وظهور أمر خير الدين بربروسة، واشتداد الصراع العثماني الإسباني حول تونس في عهد أبي العباس أحمد ومحمد بن الحسن، أما الباب التاسع فقد عاد فيه ابن أبي دينار إلى الحديث عن الدولة العثمانية منذ ظهورها وتوسعها إلى عهد سليمان القانوني، واستعرض تدخلها في شؤون إفريقيا وطردها الإسبان من تونس وتنصيب الحكام الأتراك عليها، هذا مع ذكر مفصل للدايات الأتراك الذين حكموا تونس منذ عثمان داي وحتى حمودة داي، كما ذكر البايات الذين تولوا أمور الجيش وشؤون الجباية مثل محمد باي ومراد باي، ومحمد باي الحفصي، وعلي باي الذي عاصره ابن أبي

دينار وتوسع في استعراض سياسته وأعماله ومآثره، وفي الأخير وضع ابن أبي دينار خاتمة مطولة لكتابه المؤنس قسمها إلى أربعة فصول مقتضبة، الأول ذكر فيه تطور الحكم بتونس وطبيعة نظام الملك بها على عهد الحفصيين والأتراك، والثاني تناول فيه نظام دولة الأتراك بتونس وما امتازت به عن دولة الحفصيين، أما الثالث فأدرج فيه مفاخر تونس ورقيها وعاداتها وبعض المشاهير من علمائها وصلحائها، أما الفصل الرابع والأخير من هذه الخاتمة، فقد ذكر فيه تقليد ختم البخاري بحاضرة تونس وما كان يتميز به هذا الحدث من مظاهر التعظيم والإجلال.

يعتبر كتاب المؤنس من المصادر الأساسية لفترة الحفصيين وعهد الدايات والبايات بتونس، فقد اعتمد فيه صاحبه على كتب التاريخ المتوفرة والتي تتعرض خاصة لتاريخ تونس وأهمها ما يعود إلى فترة متأخرة (القرن التاسع الهجري) مثل كتاب ابن الشماع. «الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية» وكتاب الزركشي «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» كما رجع ابن أبي دينار لا سيما فيما يخص الجزء الأخير من كتابه إلى العديد من التقاييد والأقوال التي انتهت إليه عن طريق الرواية أو المشاهدة، وهذا ما أشار إليه بقوله: «فجمعت ما كان متفرقاً بالرواية والسند»، وقد أفاد كراتكشو فسكي أنه أقر بأهمية الكتاب كل من أماري الذي ذكر أنه كتاب «جمع بين دفتيه عدداً كبيراً من الملاحظات الطبوغرافية والتاريخية عن إفريقيا منذ الفتح العربي لها إلى الفتح العثماني» واعتبره كوديرا Codera كتاباً «لا يخلو من الأهمية حتى بالنسبة لتاريخ إسبانيا».

يتضمن كتاب المؤنس فضلاً عن الأحداث التاريخية معلومات مهمة تتصل بمختلف أوجه الحياة منها ما يتصل بالعمران والمجتمع، ومنها ما يتعلق بالاقتصاد ومنها ما يمس الوضع الثقافي والديني بتونس وإفريقيا، ففيما يخص العمران نذكر على سبيل المثال بناء المنصورة بإزاء القيروان من طرف المنصور بالله، وبناء جامع القصبة من قبل الأمير زكريا بن يحيى، وبناء جامع التوفيق من طرف أمه عطف، وإكمال الحنايا وتوصيل المياه إليه. وبناء المكتبة العبدلية من طرف الأمير أبي عبدالله محمد بن الحسن الحفصي وكذلك القنطرة التي أنشأها يوسف داي.

أما فيما يتعلق بالنشاط الاجتماعي، فقد ذكر ابن أبي دينار على سبيل المثال الأعياد والمواسم والاحتفال بختم الصحاح وشهر النيروز، هذا دون أن ينسى الإشارة إلى الأوبئة والأمراض كالوباء الذي وقع في عهد أبي الحسن المريني، أما فيما يخص الحياة الثقافية فقد تضمن كتابه المؤنس العديد من الأشعار التي أدرجها على سبيل الاستشهاد بها، دون أن يهمل التعريف برجال العلم والقضاء والمشايخ المشهورين في العهد الإسلامي ولعل أهمها تراجم أسد بن الفرات وسحنون وابن الآبار، بالإضافة إلى ذكر بعض التقاليد العلمية والنشاط الديني كصلاة الحرمين الشريفين على عهد أبي فارس، وخزانة الكتب بجامع الزيتونة وغيرها.

طبع كتاب المؤنس لابن أبي دينار عدة طبعات بتونس أولها كانت بمطبعة الرائد التونسي 1286 هـ/ 1869 م. والثانية بمطبعة النهضة 1350 هـ/ 1931 م. وقد قدم لها محمد البشير النيفر. والطبعة الثالثة أصدرتها المكتبة العتيقة 1387 هـ/ 1967 م بتحقيق وتعليق وتقديم محمد شمام الذي وضع لها مقدمة وأورد فيها حياة المؤلف وأثبت المراجع المعتمدة في التحقيق وألحق بها فهارس للأعلام والقبائل والطوائف.

المراجع المعتمدة:

- أبو عبدالله محمد بن أبي دينار القيرواني (المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس) تونس 1967.
- شجرة النور الزكية، ص 307.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، ص ص 315 ـ 320.
- الأعلام، ج 7، ص 229.
- إيضاح المكنون، ج 2، ص 607.
- مجم مشاهير المغاربة، ص ص 233 ـ 224.
- مشاهير التونسيين، ص 498.

٧١ـ المؤرخون التونسيون، ص ص 157 ـ 174 .
ـ تاريخ الأدب الجغرافي، ص 814 .
ـ معجم المطبوعات، ص 30 .
ـ معجم المؤلفين، ج 11، ص139 .

- Idris (H.R) Ibn Abi Dinar Encyclopédie de l'Islam. (Nov. Ed.) Paris - Leiden 1961, T 3 p. 705.
- Al. Qairoûan: (Ibn Abi Dinar) Histoire de l'Afrique, tra Péllissier et Rémusat, in Exploration scientifque de l'Algérie, Paris, T. VII/1845.

من الأحداث المهمة في ولاية عثمان داي

وفي أيامه كان الفناء الأعظم وذلك في سنة ثلاث عشرة وأربع عشرة بعد الألف وهو مشهور بين أهل الحضرة بحيث اجتمعت ثلاث مسائل الوباء والغلاء وتغيير السكة في زمان واحد، فكان أهل تونس يرون هذه الأمور من أعظم شيء حلّ بهم بحيث بلغ قفيز الحنطة ثلاثين ديناراً. وأدركنا من كان يستعظم هذا الأمر، ولو أدرك ما رأيناه في عصرنا لاستصغر ذلك لأنا شاهدنا الغلاء المفرط الذي لم نسمع بمثله في إفريقية قط بحيث بلغ القفيز من الحنطة أضعاف ذلك. وبيع الصاع من الحنطة بنصف ريال فيكون ثمن القفيز قريباً من المائة ريال وذلك في محاصرة القصبة والمدينة في الكائنة العظمى التي حرقت فيها أبواب المدينة وسيأتي لها ذكر من بعد واجتمعت مسائل غير هذه.

وفي أيام عثمان داي كثرت غنائم البحر كما قدمنا لأن النصارى كانوا في غفلة عن الاستعداد لتشحين المراكب الكبار، وإنما كان يسافر الغزاة في الفراقط وما ظهرت المراكب مثل الشيطيات والبطاشات وغيرها من السفن الكبار إلا في زمن عثمان داي، وكذلك في بلاد الجزائر، وتمادى الحال إلى اليوم وسافر عثمان بنفسه للمحلة مرتين محلة الجريد وهي التي أخذ فيها بلد سدادة، ومحلة الصيف. ومهد البلاد وجعل قوانين للرعايا يكون العمل بها ويسمونها قوانين عثمان داي وقد تغيرت الآن تلك القوانين. . .

وفي هذه السنة والتي تليها جاءت (جالية) الأندلس من بلاد النصارى نفاهم صاحب إسبانية وكانوا خلقاً كثيراً فأوسع لهم عثمان داي في البلاد. وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها

واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن.

ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبرية وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية والقلعة وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد.

ولما استقام لعثمان داي ما أراده عاجله حمامه وأتى عليه ما أتى على غيره ولحق بربه في سنة تسع عشرة بعد الألف وله عقب إلى يومنا هذا.

أبو عبد الله محمد بن أبي دينار القيرواني
المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس
تحقيق وتقديم محمد شمام، المكتبة العتيقة
تونس 1967 ص ص 203 ـ 204.

أبو عبدالله محمد بن الحاج الوفراني
حوالي 1152 هـ/ 1739 م

أبو عبدالله محمد الصغير بن الحاج محمد بن عبدالله الوفراني، وقد يرد الإفريني، أو اليفرني، أو اليفراني، ولد بمراكش حوالي سنة 1080 هـ/ 1670 م من أسرة يرجع نسبها إلى قبيلة أفران أو يفران بإقليم السوس، تلقى تعليمه بمسقط رأسه، وتتلمذ على أبي العباس أحمد بن علي. . . المراكشي، ثم انتقل إلى فاس ودرس بالقرويين على الشيخ أحمد بن عبد الحي الحلبي ومحمد بن عبد الرحمٰن وابن عبد القادر الفاسي، وكان أثناء ذلك يتردد على المدرسة الرشيدية (الشراطين) حيث أقام بها ودرس فيها لبعض الوقت، ونال صداقة أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني إمام زاوية أحمد بن عبدالله، الذي وصفه القادري في كتاب التقاط الدرر بقوله: «العالم الأديب الإخباري النجيب».

من الراجح أن محمد الصغير الوفراني، عمل بالمخزن السلطاني، وقد يكون اشتغل أيضاً في خطة الكتابة ببلاط السلطان مولاي إسماعيل حيث عرف بمقدرته وبراعته في الكتابة، فكلفه السلطان مولاي إسماعيل بوضع تاريخ لدولته حسبما أشار إلى ذلك في كتابه «الظل الظريف» ويبدو أنه مر بفترات صعبة في حياته أثناء إقامته بمراكش 1130 ـ 1139 التي تعتبر أخصب فترات عمره من حيث التأليف، كما يفهم من إشارات واردة في كتبه مثل قوله في نزهة الحادي «ألمت بنا تلك المصيبة الفادحة ورمتنا بأسهمها التي هي في عرض الدين فادحة. . .» وقد قام في هذه الفترة بقراءة وتفسير صحيح البخاري. وتولى كرسي الإمامة والخطابة بجامع

علي بن يوسف، فأثار حسد علماء مراكش ودخل في نزاع معهم وذهب بهم الأمر إلى اتهامه بالزندقة. ولم يجد المساعدة إلا من زاوية الشرقاوة لأبي الجهد (بوجاد) بتبادلا التي كان على اتصال بها، بعد ذلك رجع إلى فاس 1139 حيث حافظ على أسلوب حياته مهتماً بالاطلاع على الأخبار وتسجيل الأحداث وتأليف كتب التاريخ حتى وافته المنية عن سن تناهز التسعين، ودفن بالمسجد اليوسفي (المدرسة اليوسفية) بمراكش أواخر سنة 1152 أو أوائل 1153 هـ/ 1740 م.

ترك محمد الصغير الوفراني العديد من التآليف منها:

- المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل الأندلسي وهو باكورة إنتاجه انتهى من وضعه بالمدرسة الرشيدية عام 1128 هـ طبع بفاس طبعة حجرية 1324 هـ/ 1906 م. وحققه أخيراً محمد العمري بالرباط.

- المغرب في أخبار المغرب وهو في التاريخ العام لبلاد المغرب، لم يعثر عليه حتى الآن ويعتبر في حكم المفقود.

- درر الحجال في مآثر سبعة رجال، وهم من أولياء مراكش، لم يتمكن من إتمامه.

- نظم ياقوتة البنيان وشرحها 1130.

- صفوة من انتشر في أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، وضعه في سن متقدمة (1137 هـ/ 1724م) وتناول فيه سيرة أولياء المغرب في القرن الحادي عشر وانتهى به إلى عام 1137/ 1725 م، وضعه في خمسة عشر كراساً، ورجع فيه إلى خمسة وعشرين كتاباً وقصد منه تتمة تاريخ ابن عساكر، وهذا ما جعله من المصادر المهمة للحياة الثقافية والفكرية للمغرب على عهد السعديين، طبع بفاس طبعة حجرية بدون تاريخ.

- الظل الوريف في مفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، أو روضة التعريف في مفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، وضعه سنة 1133 هـ/ 1721 م بتشجيع من السلطان مولاي إسماعيل على منوال المنتقى المقصود الذي ألفه أحمد بن

القاضي حول المنصور، فجاء في ثمانية فصول لخصها بقوله: «السمط الأول في ذكر نسبه الحسني... والثاني في ذكر ولادته ونشأته... والثالث فيمن أخبر من أهل الكشف والصلاح... والرابع في بيعته وكيفية اتصاله بالملك... والخامس في تمهيده البلاد... والسادس فيما فتح من مدن النصارى... والسابع في ذكر حلمه وعدله... والثامن في أولاده النجباء...».

- فتح المغيث بحكم اللحق في الحديث أنهاه عام 1134 هـ.

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، وهو موضوع هذه الترجمة، وضعه محمد الصغير الوفراني في مستهل رجب 1128 (جوان 1716 م) في سن ناهزت 48 سنة، وقد أشار إلى ظروف وطريقة تأليفه له بقوله: «صرفت لجمعه عنان العناية وبذلت فيه جهدي... من وجدي على قد ما عندي. وقد كنت جمعت محصلة في بطائق. فإذا رمت تهذيبه عاق منه عائق... ونبذت تلك التقاييد بزوايا الهجران حتى نسجت عليها عناكب النسيان. ثم تكرر الطلب إلي وأكد في جمع تلك التآليف علي من لا أستطيع مقابلة أمره بالإهمال... وهو عين الأعيان وصدر أرباب البلاغة والبيان الفقيه الولي الصالح أبو عبدالله محمد الصالح بن الولي العارف سيدي محمد المعطي حفيد أبي عبدالله سيدي محمد الشرقي... فهو الذي أعاد لفكري قوة النشاط. ونشر عليه بساط الانبساط، فانقطع عني سحاب الكسل والحباب. وناديت فكري مع ضعفه للتأليف فأجاب. ورقمت ما فاق به الخطاب وطاب الوطاب».

وقد جمع فيه أخبار المغرب على مدى قرنين تبتدىء مع ظهور أمر السعديين. وتنتهي بعهد مولاي إسماعيل (917 هـ/ 1511 م/ 1140 هـ - 1727 م) مهملا الفترة السابقة لحكم المرينيين وبني وطاس، التي كان ينوي وضع مصنف حولها يكون استكمالاً لقرطاس ابن أبي زرع وروضة النسرين لابن الأحمر.

ضَمَّن الوفراني نزهة الحادي 81 عنواناً أو فصلاً مقتضباً منها 75 للأسرة السعدية، فذكر اتصال السعديين بالملك، وما وقع على عهد السلاطين الأوائل وما

قاموا به من أعمال وتنظيمات (25 عنواناً) مركزاً على مفاخر ومآثر أحمد المنصور الذهبي (28 عنوانا) ومستعرضاً فترة الاضطراب وضعف السعديين أمام القوة المناهضة لهم (وهي حركات المجاهد العياشي والدلائيين وأبي حسون والعلويين) (29 عنواناً) بينما لم يكن نصيب الدولة العلوية (ظهور محمد بن الشريف وعهد مولاي الرشيد واستتباب الملك لمولاي إسماعيل) سوى خمسة عناوين ولذا حاول إخفاء ميله للسعديين وتعلقه بهم بإظهار عظمة الدولة العلوية التي عاصرها وعمل بديوانها. فأثبت مدحاً للعلويين في أول وخاتمة كتابه. ووصف الدولة العلوية بقوله: (إن هذه الدولة الحسينية لم ير الراؤون ولا سمع السامعون مثلها لما اشتملت عليه من المفاخر التي يكل في تعدادها الأول والآخر. ولقد ظهر فيها من الخيرات ما لا يحصى، ورأى الناس من الأمن والرخاء والهناء ما لم يخطر على بال». كما أنه حاول تجنب نقمة مولاي إسماعيل وتحوله عليه بتفضيله على أحمد المنصور فخصه بعبارات تدل على المجاملة أكثر مما تصف الواقع مثل قوله: «وبلغ في ذلك ما لم يبلغه السلطان أبو العباس. أحمد المنصور ولا أحد قبله. . .» وكان قبل ذلك لا يخفي تمجيده لعهد المنصور وتأسفه على هدم قصر البديع من طرف مولاي إسماعيل.

هذا وتتميز نزهة الحادي بكونها كانت تسجيلاً تاريخياً تأثر فيه نهج الأفراني بطريقة ابن خلدون وابن أبي زرع فغلب عليه العرض الأدبي بعباراته اللغوية ومحسناته اللفظية مع شيء من النقد وإبداء الرأي، واتصف بالحنين إلى الماضي الذي لا زال عالقاً بذاكرة الناس بمراكش، ومما زاد في أهمية نزهة الحادي كونها تضمنت عدة رسائل تاريخية في غاية الأهمية مثل رسالة فقهاء مراكش إلى محمد المسلوخ عندما حاول تبرير ألتجائه إلى النصارى ليساعدوه ضد خصمه عبد الملك، وجمعت اقتباسات شعرية كثيرة أغلبها كانت تظهر عناية أحمد المنصور بالعلماء وتشجيعه للشعراء.

يعتبر كتاب نزهة الحادي من أهم المصادر التاريخية حول الأسرة السعدية وذلك لكونه وضع بعد سقوط الدولة السعدية مما جعله بعيداً عن إرضاء الحكام، ونفى عنه تهمة الموالاة التقرب لذوي السلطان، وأيضاً لاشتماله على معلومات

استقاها من الوثائق الإدارية والأوراق الرسمية، والكناشات المتبقية عن بعض ملوك السعديين بمراكش، كما رجع فيه حسبما يستخلص مما أشار إليه إلى 43 مصدراً من كتب عامة ومختصة. أهمها ما كتبه القشتالي (الشماريخ ومناهل الصفا) وابن القاضي (المنتقي ودرة السلوك. ودرة الجمال). وقد أشار الوفراني إلى ذلك بقوله: «واعلم أني ألفت هذا التصنيف من عدة كتب تَزري بزهور الروض المنيف، وسوف أعين لك في الآخر أسماءهم وانصب مدارج الإمالة لمن أراد أن يرقى سماءهم».

توفرت عدة نسخ لكتاب نزهة الحادي مما سهل الانتفاع بها للمؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ المغرب السعدي، وكان في مقدمتهم دوسلان Deslane الذي ترجم فقرات منه بالمجلة الإفريقية (أفريل 1857) وداستوغ في عرضه حول محركة وادي المخازن من خلال مؤرخين مغربيين (المجلة الإفريقية 1857). ومحمد بن رحال في مقاله حول السودان في القرن السادس عشر (في النشرة الجغرافية والأثرية لعمالة وهران 1887) هَذَا وقد طبعت نزهة الحادي أول مرة بفاس طباعة حجرية 1307 هـ، ثم قام بإصدار النص العربي في 315 صفحة مع ترجمة فرنسية هوداس Houdas أستاذ اللغات الشرقية بباريس سنة 1888 م.

المراجع المعتمدة:

- الوفراني (محمد الصغير بن الحاج) نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، نشر هوداس، آنجي، 1888 (ط 2 الرباط 1977).
- الوفراني (محمد الصغير بن الحاج) صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، فاس، د.ت.
- الوفراني (محمد الصغير بن الحاج) المسلك السهل في شرح موشح بن سهل، تحقيق محمد العمري، الرباط (غير منشور).
- التقاط الدرر، ص ص 438 ـ 439.
- الناصري الدرعي. (ابن ناصر محمد المكي) الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة (مخطوط).

ـ العمري (محمد) الأفراني وقضايا الثقافة والأدب في مغرب القرنين السابع عشر والثامن عشر، سلسلة أعلام الفكر والأدب في المغرب العربي، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء 1992.

- Lévi - Provençal. (E.) Les historiens des Chorfa, Larose, Paris, 1922, pp. 112 - 131.

وكان السيد محمد الحاج رحمه الله أحسن سيرة الفقهاء وسيرة الملك، فقام بالوظيفتين وأجمل في الطريقتين وفي أيامه تكامل أمر أهل الزاوية الدلائية وشاع وعلا صيته وذاع حتى ملأ الأسماع وتمهد الأمر لأبي عبدالله محمد الحاج وأولاده وإخوته وبني عمه إلى أن تملك مدينة فاس ومكناس وأحوازهما وكافة القطر التادلي، واجتمعت برابر ملوية إليه وأذعنوا له بالطاعة واعصوصبوا عليه ووقعت بينه وبين السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي وقعة أبي عقبة فهزم السلطان المذكور وانتشر جمعه، وذلك في حدود الخمسين والألف، ومن ثم قطع النظر عما وراء وادي العبيد وفي ضحى يوم السبت ثاني عشر ربيع النبوي سنة ست وخمسين وألف كانت وقعة القارة بينه وبين صاحب سجلماسة أبي عبدالله محمد بن الشريف الحسني فوقعت الهزيمة على السيد محمد بن الشريف ودخل السيد محمد الحاج سلجماسة، وفعل البربر فيها الأفاعيل العظيمة ثم انبرم الصلح بينهما على أن من الصحراء إلى جبل بني عياش فهو لمولاي محمد بن الشريف، وما دونه لأهل الدلاء وشرط أهل الدلاء على مولاي محمد خمسة مواضع مما هو تحت يده وجعلوها لهم، وهي الشيخ مغفر في أولاد عيسى والسيد الطيب في قصر السوق وأحمد بن علي في قصر بني عثمان وقصر حليمة في وطن اغريس واسرير فركلا فهذه الخمسة الأماكن شرطوا عليه ألا يحرك لهم فيها ساكن وانبرم الصلح بينهما على ذلك ورجع أهل الدلاء بجموعهم. . .

ولم يزل مولاي محمد بن الشريف رحمه الله مقتصراً على ما وقع عليه الصلح بينه وبين أهل زاوية الدلاء إلى أن بعث له أهل فاس كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، فبايعوه وأقام عندهم مدة فجهز له السيد محمد الحاج جيشاً عظيماً فوقعت الكائنة على ظهر الرمكة بظاهر فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة تسع وخمسين وألف فهزم مولاي محمد مع أهل فاس هزيمة شنيعة وذهب مولاي محمد لسجلماسة ودخل أهل الزاوية مدينة فاس وعادت لهم الدولة فيها ولم يزل

أمر أهل الزاوية مستقيماً بعد إلى أن ثار السلطان الأفخم مولانا الرشيد ابن مولاي الشريف ببلاد الجريد وقدم بجيوش يقودها من عرب أنفاد ومن أنجادها وكماتها: فحاصر مدينة فاس مدة إلى أن استولى عليها كما سيأتي إن شاء الله. ثم توجه نحو الدلاء فجهز له أبو عبدالله الحاج عسكراً عظيماً من البربر وغيرهم فالتقت الفئتان بموضع يقال له بطن الرمان فوقعت الهزيمة على أهل الدلاء وذلك أوائل المحرم فاتح سنة تسع بمثناه وسبعين بتأخير الموحدة وألف، قال الشيخ أبو علي اليوسي في محاضراته: ولما وقعت الهزيمة دخلت على أبي عبدالله محمد الحاج وكان لم يحضر المعركة لكبر سنه فأظهر أولاده وإخوانه حزناً شديداً وضيقاً كثيراً وجزعاً عظيماً، فلما رأى منهم ذلك قال لهم ما هذا الجزع وما هذا الحزن إن قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى، ولما دخل مولانا الرشيد الزاوية غير محاسنها وفرق جمعها وطمس معالمها. وصارت حصيداً كأن لم تغن بالأمس، وكانت مشرقة كإشراق الشمس فمحت الحوادث ضياءها، وقاصت ظلالها وأفياؤها وطالت ما أشرقت بأبي بكر وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت وارتحلت عنها فرسان الأقلام الذين ينجاب بوجوههم الظلام، وبانت منها ربات الخدور وأقامت آثاراً للصدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم وأذهبت أبدانهم وأبقت أخبارهم. . . .

. . . وأمر الرشيد سيدي محمد الحاج وأولاده وأقاربه أن يحملوا لفاس ويسكنوا بها فحملوا إليها واستوطنوها مدة، ثم أمر بهم أن يذهبوا عنها لتلمسان فذهبوا إليها وسكنوها، وحدثونا أن السيد محمداً الحاج لما دخل تلمسان قال وجدت في بعض الحدثان أني أدخل إلى تلمسان فظننت أني أدخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون ولم يزل بها إلى أن توفي رحمه الله بعد الثمانين ودفن بضريح الإمام السنوسي رضي الله عنه، ولما توفي مولانا الرشيد رحمه الله رجع أولاده وأقاربه إلى فاس. فسكنوها بإشارة من السلطان المظفر مولانا إسمعيل قدس الله روحه في الجنان.

أبو عبدالله محمد الصغير بن الحاج الأفراني (الوفراني)

نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي

نشر هوداس، أنجي، 1888 ص ص 281 و 283 ـ 285

أبو عبدالله محمد بن ميمون الجزائري

(ت بعد 1159 هـ/ 1746 م)

أبو عبدالله محمد بن ميمون الزواوي النجار الجزائري. ولد بمدينة الجزائر من عائلة اشتهرت بالعلم، فقد كان جده أبو العباس أحمد بن عبدالله الزواوي (ت 1479 م) عالماً بالفقه واللغة وواضع «المنظومة الجزائرية» في التوحيد.

أخذ أبو عبدالله محمد بن ميمون العلوم الفقهية واللغوية على العديد من علماء مدينة الجزائر وفي مقدمتهم أبو عبدالله محمد الشغيري الجزائري. وعرف بثقافته الأدبية وميله إلى التصوف وولعه بنظم الشعر، تتلمذ عليه ابن حمادوش، وقرأ معه العديد من الكتب مثل مسائل ابن حجة في الأدب، والقلصادي في الحساب والفرائض، وتاريخ الكردبوس. وصحيح بخاري ومسلم. وقد ذكره عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته «لسان المقال» بقوله: «القاضي الأديب، له ثقافة واسعة» ووصفه محمد بن عبد الرحمٰن الجامعي بـ «الأديب الأريب».

تولى محمد بن ميمون خطة قضاء الجزائر لفترة زمنية على عهد الداي محمد بكداش (1118 ـ 1122 هـ/ 1707 ـ 1710 م) وشغل بعض الوقت خطة المواريث زمن الداي إبراهيم باشا (1745 ـ 1748 م) وعرف بنظمه للمقامات ومشاركته في «مجالس علم وأنس» التي تميزت بما كان يثار فيها من نقاشات ومطارحات بين بعض علماء الجزائر آنذاك مثل ابن علي وابن عمار، ومحمد بن سيدي، ومحمد بن نيقرو، وعبد الرزاق بن حمادوش، فلم تخل تلك اللقاءات من تنافس تحول إلى عداوة مع المفتي محمد بن نيقروا. ولعل هذا ما جعل محمد بن ميمون يشتكي من حسد بعض المعاصرين له، ويميل إلى العزلة للتأليف قبل أن

تنقطع أخباره بعد عام 1159 هـ/ 1747 م) وقد عبر عن ذلك في التحفة المرضية بقوله: «على أن أبناء العصر أبتلوا بالحسد ويطلقون ألسنتهم بالفحشاء في كل مرصد، ومن كانت له ملكة، فليصنف وإلا فلينصف. . .» وهذا ما التزم به فعلاً محمد بن ميمون، فقد اعتزل الوظيف وتفرغ للتأليف ونظم الشعر، ومن القصائد التي نظمها في هذه الفترة تلك التي هنأ فيها الحاج محمد خوجة بن الداي عبدي على عودته منتصراً على الثائر بوزيد بالغرب الجزائري عام 1141 هـ/ 1728 م) منهاهذه الأبيات:

قالوا لبوزيد رئيسهم الذي	قد لج في الإبراق والإرعاد
اخسأ فهذا سيف عبد(ي) صادياً	ودم الأعادي ري ذاك الصياد
ولئن تخطاه الحمام فإنه	لا بد أن ينساق في الأقياد

اشتهر محمد بن ميمون بتأليفه سيرة الداي محمد بكداش التي وضع لها عنواناً «التحفة المرضية في الدولة البكداشية» والتي كانت مثار اهتمام وتقدير معاصريه. فقد ذكره محمد بن عبد الرحمٰن الجامعي في شرحه لأرجوزة الحلفاوي بقوله: «فإنه (أي محمد بن ميمون) ألف في سيرة هذا السيد (محمد بكداش) نصره الله كتاباً سماه بالمقامات وهي في الحقيقة قلائد عقيان ولولا مشاهدة رقم سطوره في لباب طروسه لقلت وسجعات حمائم البستان».

كان الدافع لمحمد بن ميمون على تأليفه للتحفة المرضية في شبابه تقديره ومحبته للداي محمد بكداش، ورغبته في التقرب إليه وهذا ما صرح به في المقدمة بقوله: «أردت أن أخدم مجلسه العالي بزف هذا الكتاب إليه». فكان بذلك في مكانة شاعر البلاط غير الرسمي الذي يتقرب إلى الحاكم بدون مذلة، فهو يشيد بمحاسن وخصال الداي محمد بكداش ويحاول الحط من أعدائه، وقد ذهب به الأمر إلى حد وصف أعمال هذا الداي بالجهاد الخالص لوجه الله وإلى إرجاع أصله إلى النسب الهاشمي الشريف، وإلى المبالغة في عبارات الثناء والتعظيم فيقول فيه مثلاً: «أبو النصر سيدي محمد أنارت أنواره جميع البلدان وألف ملكه بالإحسان التفاف الساق بالساق. . .».

ضمن محمد بن ميمون التحفة المرضية العديد من القصائد الشعرية بلغ عددها 795 بيت شعر، مما جعلها في شكل مقامات بلغ عددها ست عشرة مقامة كل واحدة منها تحمل عنواناً حسب موضوعها، فكان بذلك متأثراً بالمدرسة الأندلسية ومقلداً للفتح بن خاقان، وهذا ما أشار ابن ميمون إليه بقوله «قلد البلغاء قلائد العقيان في النظم والنثر...».

تشتمل المقامات التي تتألف منها التحفة المرضية على معلومات تاريخية في غاية الأهمية فيما يتصل بأوضاع الجزائر في مستهل القرن الثامن عشر الميلادي لا سيما ما يتصل منها باسترجاع وهران الأول (1708 م) ويمكن التعرف على مضمون هذه المقامات بذكر عناوينها وهي كالتالي:

1 - **المقامة الأولى**: في نبذة من أخلاقه المرضية ومما أشار به عليه بعض السادات الصوفية.

2 - **المقامة الثانية**: في كونه «سانجاق الدار» بلغة المجاهدين الأخيار.

3 - **المقامة الثالثة**: في توليته على تقسيم خبز العسكر وكيف نزع الظلم حين طغى وتجبر.

4 - **المقامة الرابعة**: على أنه يتصدى ملكاً للإيراد والإصدار.

5 - **المقامة الخامسة**: في تغريبه من الجزائر ورجوعه إليها بقدر الحكيم القادر.

6 - **المقامة السادسة**: في استفتاح الملك صباحاً وما جرى لأهل الدولة غدواً ورواحاً.

7 - **المقامة السابعة**: في اسمه وأهل مملكته ورسمه.

8 - **المقامة الثامنة**: في تهنئة الشعراء ومدحهم له وتعريف كل واحد بما سطره أو نقله.

9 - **المقامة التاسعة**: في ذكر الخروج لوهران بقصد غزو الكفرة وما حدث بعده من مقاتلة اللئام الفجرة.

10 - **المقامة العاشرة**: في حصر حصن العيون وكيف استفتحه عنوة المسلمون.

11 - **المقامة الحادية عشرة**: في استفتاح حصن الجبل وكيف نزعه من أيدي الكفرة عن عجل.

12 ـ المقامة الثانية عشرة: في حصر حصن بن زهوة وكيف استفتحه المسلمون عنوة.

13 ـ المقامة الثالثة عشرة: في استفتاح مدينة وهران وكيف صار عز الكفر إلى هوان.

14 ـ المقامة الرابعة عشرة: في استفتاح برج الأحمر والجديد وكيد ألقوا لأبي الفتوح المقاليد.

14 ـ المقامة الخامسة عشرة: في حصر حصن المرسي وكيف افتتحه المسلمون وزال باختتامه الأسى.

16 ـ المقامة السادسة عشرة: في إياب خليفة سيدنا نصره الله للجزائر سالماً غانماً بالأسرى والذخائر.

جمعت التحفة المرضية الأسلوب الأدبي والعرض التاريخي، فجاءت عباراتها متينة واضحة في بناء لغوي بليغ محكم يغلب عليه السجع ويميل إلى المحسنات البديعة شأن طريقة المقامات مع اقتباسات من الذكر الحكيم والحديث الشريف وعيون الشعر، وأستطرادات في ذكر النوادر والروايات وتكرار في العبارات وتصنع في اللفظ في بعض الأحيان.

التزم محمد بن ميمون في التحفة المرضية بترتيب الأفكار وتسلسل الأحداث سواء في عرضه لسيرة الداي محمد بكداش أو في روايته لمراحل فتح وهران (1120 هـ/ 1708 م) كما أمتاز بالصدق فيما سجله من أخبار أو ما أورده من أحداث. فهو يقول: «لم آل جهداً في تنقيحه...» ويعتبر أن الكاتب يجب أن يكون: «صادق الخبر وصحيحه من ألفاظ لغوية وأنواع بديعية وأخبار مستلمحة وكتابة مستملحة». وهذا ما التزم به عندما أشاد بخصال حسن خوجة الشريف ولم يتردد في وصف القائد أوزن حسن صهر الداي محمد بكداش بقوله: «إنه كان قبل مصاهرته للداي على المدامة معتكفاً ولثغور البطالة مرتشفاً لا يغدوا إلا ثملاً ولا يروح إلا بنشوة مشتملاً».

توجد عدة نسخ مخطوطة من التحفة المرضية، منها نسخة بالمكتبة الوطنية

بباريس تحت رقم 1625 كانت في مكتبة فاليبي (Vallier) يعود تاريخ نسخها إلى عام 1121 هـ/ 1709 م، وقد قام ليون فاي (Léon Fey) بترجمة التحفة إلى الفرنسية ونشرها عام 1846، وظل الأصل العربي غير مطبوع، ولم يصبح في متناول القراء إلا بعد أن قام الباحث محمد بن عبد الكريم بتحقيقه اعتماداً على عدة نسخ مع دراسة موسعة لأوضاع الجزائر ووصف خاص لمدينة وهران في العهد العثماني. ونشر بالجزائر عام 1972 في 413 صفحة.

المراجع المعتمدة:

- ابن ميمون، (محمد الزواوي الجزائري)، التحفة المرضية في الدولة البكتاشية في بلاد الجزائر المحمية. تحقيق وتقديم، محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1972.
- الجامعي، (عبد الرحمن الفاسي)، شرح أرجوزة محمد بن أحمد الحلفاوي (مخطوط).
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص ص 127 ـ 218.
- سعد الله، أبو القاسم، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، الجزائر، 1978، ص ص 135 ـ 141.
- المهدي البو عبدلي، الثقافة بالجزائر في العهد العثماني (محاضرة) بملتقى الفكر الإسلامي، الجزائر 26 ـ ديسمبر 1969.
- معجم مشاهير المغاربة، ص 527.

- Fagnan Catalogue général des manuscrits, Paris, 1893, p. 452.
- Fey (L.) Histoire d'Oran, Oran 1858, pp. 125 - 136.

طرد الإسبان من وهران

(1119 هـ/1708 م)

لا شك أنها مدينة بلقاء الشهرة، وغاب البسالة، ومنبت الشوكة. وعقاب القواعد المغتصبة للمسلمين. ومحتط طائفة العرب العامريين، الخصيبة النبات والمستبحرة الماء والجنات، حيث الزرع يمتار منه العباد والبلاد، مدد الوفود والكروم، التي استثمرها الروم تفهق لها الجوابي الجوب بدم العنقود. الجِناب الأعشب، والموضع المبهت المعجب، حجراً لأرقم المختالة في جلود الزَرود والليوث الباطشة فوق فيول الخيول، ومصرخ النواقيس الصائلة. ومنصب التماثيل المائلة، لا يخفى أنها كانت شجى في حلق الدين. وقذى في أعين المسلمين، تنتهب المراكب براً وبحراً. وتشن الغارات على أطراف البلاد قتلاً وأسراً، حتى أتى الله بهذا السيد الذي أشرقت بطلعته ـ في سماء هذه المملكة ـ شموس الفتوح، بما منحه الله من النصر الممنوح. فاستدعى/ أهل الجهاد، وضيق عليها فسيح البلاد، واستكثر رايات القتال، ورفع المجانيق على الأعجال، وأفاض العطاء الذي تجاوز شهور الاستحقاق إلى ما ورائها مما لم يستهل حين هلاله، ولا وسمت خيلان الليالي صفحة جماله، وواصل الجيوش من المطوعة الغازين المدونين، إلى حقوقهم من المغنم المتقدم والنفل المبارك المعين، فتضاعف بذلك يقينهم، وازداد به على قتال العدو حرصهم وطابت على الموت نفوسهم.

وتبوأ مقاعد القتال كماة الرماة. ففرعوا للحين سورها واقتحموا منازلها ودورها. وصدقوا حاميتها الضمة. وولوا عليها شدة، حتى أزعجوهم عنها عنوة، واستلحموا منها جملة، وتعلقوا بسور البلد وبادروا الهيعة. وقد هزت رياح النصر عذبات الرايات، وسد ما بين الخافقين علو كلمة الشهادات. باختلاف الأصوات، وصكت الأسماع رعود الطبول، واستنجز المؤمنون الصابرون من ربهم ميقات

الوعد المفعول، فلا ترى إلا هاوياً من ذرى شرفة تخلفه جمة، أو شهيداً تتراحم على مواقفه لمة، أو ثنية تفرع، أو شعاراً يسمع، ونزل الصبر. وأنجز الوعد، وقذف الله الرعب في قلوب الكافرين، وأمد أولياءه بالملائكة المسومين، ففزعت أسوار المدينة، ودخلت والحمد لله عنوة، وقد شهرت السيوف، وتخارقت الرماح، وحق عليهم القول، وأخذتهم الرجفة، ولولا أنهم هربوا ليلاً لهبروهم بالسيوف، وعاجلوهم بالحتوف. واستولى على أقطار المدينة استيلاء عجل المجانيق عن الركوع، وصواعق الصخر عن الوقوع، ولولا أن العدو كان متأهباً للفرَاغ، وأنه حمل متاعه إلى عدوتهم التي زعموها محل القرار، لانطلقت الأيادي على ما لا يناله الحصر، ولا يدركه العد، من الذخائر المصونة وآنية الرقة الثقيلة، والأسلحة المستجادة، وعاثت في الخزائن الطامية، والأقوات الهائلة، ودنان الأدهان المدخرة، والخمور المفوهة. إبادة وعبثاً. وإراقة ونقلاً، إلى ما يكاثر الحصى، وأجزاء الهباء، وقيدت نواقيسها بالحبال التي حركت جبالها، وقلقلت هضابها، فأبرزت خاسئة فاغرة، وتركتها ـ بعد سل لسانها ـ دامية ثاغرة، وكفى الله شرهم، ودفع ضررهم، واستأثر هذا السيد ـ نصره الله ـ بالسعد المعجل. فدخلها خليفته وعسكره. المنصور بالله في اليوم الأغر المحجل، من شوال سنة تسع عشرة ومائة وألف (1119 هـ) وحصلوا عليها من غير سلاح يعمل، ولا حق يهمل، ولا نفس ريعت ولا حرمة للدين أضيعت، فانتظمها سلك الأمير السعيد، واتصل الأمر القريب منها بالبعيد، فأقيمت فريضة الشكر ـ والحمد لله ـ لوقتها، وتليت في بساط الاعتبار بالنعم: ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾.

محمد بن ميمون الجزائري

التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية

تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر،

الجزائر، 1972، ص ص 225 ـ 228.

أبو عبدالله محمد بن مسايب التلمساني

(ت 1190 هـ ـ 1176 م)

أبو عبدالله محمد بن مسايب أو آمسايب التلمساني، ولد بتلمسان في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة، أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وهو من أسرة أندلسية نزلت بفاس ثم بوجدة ثم استقرت بتلمسان بحي باب الزير حيث نشأ محمدبن مسايب، وتلقى تعليمه بالكتاب القرآني. فحفظ بعض الأجزاء من القرآن الكريم وأصبح على دراية بمبادىء الفقه والنحو، ثم اندمج في الحياة العامة وتعلم منها الشيء الكثير، فاشتغل في صناعة الزرابي والحياكة (الدرازة) وقد أظهر أثناء ذلك ميلاً لنظم الشعر الملحون الذي يعتمد على الألفاظ العامية والتراكيب الموزونة، حتى قيل عنه أنه جمع بين الصناعتين نسج الزرابي ونسج الكلام وشهد له معاصروه بالعلم والولاية في هذا الفن، بعد أن اكتسب مهارة في الموسيقى والغناء، فكانت هذه القصائد المعناة أشبه بأدب التروبادور الذي لم يكن بعيداً عن بيئة أجداده بشبه الجزيرة الإيبيرية.

ومما زاد في قيمة شعره والرقي بمستواه الثقافي أنه كان يواظب على مطالعة الكتب ويتردد على مجالس العلماء، كما زاد من عمق تجربته الشعرية ذلك الحب الذي كان يكنه لفتاة تعلق بها، وهي عائشة آبنة معلمه في مشغل الحياكة التي تعرف عليها عندما كانت تتردد على محل أبيها لقضاء ما كانت تحتاج إليه والدتها من متطلبات المنزل، وقد حاول ابن مسايب التقرب منها والبوح لها بحبه فزاد ذلك في إرهاق حسه وعمق عاطفته وشغفه بالجمال الأمر الذي أذكى قريحته وتفتقت ذهنيته عن نفس شاعرية نتجت شعراً غزلياً جميلاً خلد به ذكر تلك الفتاة التي أصبحت مثار حديث الناس الذين تناقلوا قصائده. ورغم أنه تزوجها إلا أن تجربته هذه

جعلته طول حياته مغرماً بالحسن مولعاً بالجمال، فلم يتورع عن وضع بعض الأشعار متغزلاً فيها بنساء بعض أكابر تلمسان، ومنهن زوجة الحاكم التركي، مما جلب النقمة عليه، ففر ناجياً بنفسه من الهلاك، وتحول من تلمسان إلى قرية عين الحوت القريبة منها مستجيراً بشرفائها وقد عبر عن ورطته تلك بأبيات منها:

يـا أهـل الله أغيثـوا الملهـوف	قبـل أن تبـرد نـار الجـوف
كيـف يهنـأ مـن سكنـه خـوف	وانهـرم طـلابـه لحقـوه

توجه ابن مسايب من قرية عين الحوت إلى مكناس آملاً أن يجد الرعاية من أبناء السلطان العلوي مولاي إسماعيل، فلم يخب ظنه وحظي بالتكريم لمواهبه الشعرية، ولروحه المحببة لكن وازع الحنين إلى الوطن جعله يتحول من جديد نحو تلمسان حيث الأهل والخلان وحيث الذكريات لا تزال ماثلة للعيان وبعد أن تمكن أخواله من عائلة بن حاجي أن يتحصلوا على عفو له من القائد التركي.

لقد كان لعاملي السن والتجربة تأثير على سلوك ابن مسايب الذي تحول عن حياة الاندفاع واللهو والاستمتاع بمناهل الحياة إلى الزهد والتصوف منذ حوالي 1150 ـ 1737. فأدى فريضة الحج وابتعد عن نظم الغزليات وتحول إلى نظم قصائد في المديح النبوي، وغلب على شعره إبداء التوبة والتوسل وطلب الغفران، فجاءت قصائده التي صاغها في هذه الأغراض تميل إلى استخدام الرموز الصوفية على غرار ما نظمه الشاعر الصوفي ابن الفارض، كما صارت أشعاره تتسم بالأسى والحسرة على أمجاد بلده تلمسان التي انحسر عمرانها وساءت أحوالها وتعرضت لضغط البداوة، وتعسف الحكام، وتواطؤ الأعيان، كما جاء في هذه الأبيات:

ربـي عليهـا والـوقـت دعـاهـا	في السابق المقدر كان اللي كان
عدمت وياك فسدت والظلم خلاها	مـدينـة الجـدار بلـد تلمسـان
كبـارهـا بـوادي وحضـر	متفقيـن علـى الـدونيـة
هـم أسبـاب كـل مشقـة	والخلـق صـابـر لبـلاهـم
خـرب البـلاد المخـزن وكـلاهـا	الأسـواق خـاليـة والبـاطـل رنـان

بعد الهنا وبعد الزهر تلمسان

كان محمد بن مسايب القلب الخافق واللسان المعبر عن مجتمعه التلمساني، فتناقل العامة قصائده في الزهد والتصوف، كما تعلقت بأشعاره الغزلية، وحاز كل التقدير والاحترام ممن عرفه وتذوق شعره، وظل كذلك إلى أن وافته المنية سنة 1190 هـ/ 1776 م. ودفن بالقرب من ضريح الولي الإمام السنوسي بمقبرة وازوته وصار ضريحه مزاراً يتبرك به الناس ويدعون عنده لرجوع الغائب وعودة النازح.

اشتهر ابن مسايب في مجال التراث التاريخي الجغرافي بقصيدته التي نظمها في وصف الرحلة من بلدته تلمسان إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وخاطب فيها الطائر المعروف «الورشان» وعرفت بقصيدة الورشان ومطلعها:

يا الورشان اقصد طيبة   وسلم على الساكن فيها

يا للورشان تمت وبالخير عمت

والتي اخترنا مقاطع منها في النص الملحق بهذه الترجمة، وقد وصف بن مسايب في هذه القصيدة التي أدرجت اسمه بين ناظمي الرحلات الحجية طريق الحج التلمساني، فذكر أهم المدن والمحطات التي يمر بها الحاج مع الإشادة بفضل أولياء وصلحاء تلك المدن والأماكن والتوسل إليهم لقضاء الحاجات، وبالاعتماد على هذه القصيدة يمكننا التعرف على الطريق الشمالي (التل) الذي يسلكه حجاج مناطق فاس وتلمسان خاصة، فمن تلمسان إلى الدير وهو جبل صغير بالقرب من قرية عين الحوت ثم تسالة فتليلات وهبرة، وقد يعرج الحاج على مستغانم وقد يفضل التوجه إلى القلعة ثم يتحول إلى يلّل (الهليل) على وادي مينا، ومنها يساير وادي الشلف من سيدي عابد ووادي الفضة والعطاف ومقطع الشلف ثم يمر بمليانة فمقطع بوحلوان ثم يجتاز وادي جرومتيجة فيصل إلى البليدة وبوفاريك، ويدخل الجزائر عاصمة القطر الجزائري الذي يذكرها بن مسايب باسمها القديم «جزائر بني مزغناي» ومن مدينة الجزائر يسلك الحجاج الطريق السلطاني المؤدي إلى مدينة قسنطينة عبر جبل عمّال ومضايق البيبان وسهول مجانة وقصر الطير. ومن قسنطينة يتوجّه نحو الكاف أول مدينة بالإيالة التونسية ومنها إلى مدينة تونس، بعدها يتوجه جنوباً ثم شرقاً نحو طرابلس، حيث يستريح الحجاج بمحطة المنشية ومنها إلى مصراته حيث وجبت زيارة ضريح الشيخ زروق، بعد ذلك يسير بمحاذاة ساحل

البحر نحو برقة ومنها إلى الإسكندرية فالقاهرة، بعد ذلك يذكر ابن مسايب محطات الطريق إلى مكة المكرمة ابتداء من محطة قصرة. فوادي الحمراء (بين القاهرة والسويس) ثم عجرود والعقبة ومغارات شعيب وآبار السلطان ووادي النار (على الساحل شمال ينبع) ورابغ حيث ميقات الإحرام، لينتهي إلى مكة المكرمة ومزارات الحج بها مثل عرفات ومنى والمدينة المنورة التي يفضل أسمها المعروف طيبة.

إن ابن مسايب بهذه القصيدة«الرحلة» وبغيرها من القصائد والمنظومات التي نظمها في الغزل والتصوف التي قيل إنها لا تقل عن الألفين والتي لم يبق منها سوى سبعين قصيدة منها أربعة وستون تضمنها ديوانه المنشور بتلمسان من طرف محمد بخوشة سنة 1370 هـ. والذي أعاد نشره محققاً كل من الحفناوي أمقران السحنوني. وأسماء سيفاوي.

بكل هذا الإنتاج الشعري المعبر عن قضايا عصره وحاجات بيئته يعتبر ابن مسايب بحق أحد المساهمين في إغناء التراث التاريخي الأدبي للمغرب العربي في العصور الحديثة.

المراجع المعتمدة:

- ابن مسايب، (أبو عبدالله محمد) الديوان نشره محمد بخوشة بتلمسان (1370 هـ) ثم أعاد نشره محققاً الحفناوي أمقران السحنوني، وأسماء سيفاوي، الجزائر، 1989.
- بخوشة (محمد)، ابن مسايب شاعر الحب والوطن، الحب والمحبوب محاضرة تلمسان 1939.
- تعريف الخلف.
- شاوش، ،الحاج محمد بن رمضان)، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 ص ص 549 ـ 556
- Bencheneb (M.) Itinéraire de Tlemcen à La Mekke, par Ben-Messaib, (XVIII[e] siècle), in Revue Africaine, 44 année, 1900, n° 238 - 239, pp. 261 - 282.
- Hamidou (Ab.) Aperçu sur la poésie vulgaire de Tlemcen, les deux poétes populaires de Tlemcen: Ibn M'saib et Ibn Triki, in Actes de 2[e] vongrés de Fédération des sociétés savantes, (14 - 17 Avril 1936), Tlemcen, T.II, p. 1015 - 1031.

قصيدة يا الورشان أقصد طيبة

يا الورشان أقصد طيّبة — وسلم على الساكن فيها

* * *

يا الورشان اقصد طيبه — وزروا فقد مرسم شيبه
تخم في أمر الغيبَة — ولا تحدث نفسك بها

* * *

يا الورشان اعزم بمشيك — واتكل على الله وعليك
ذي الوصاية بها نوصيك — خذها وآنهلّ فيها

* * *

نرسلك من باب تلمسان — سر في حفظ الله مأمان
بعسد ما تزور بلا تمنان — كل ما من صالح فيها

* * *

زر قطب العِبَاد وزِدْ — للسنوسي مولى التوحيد
لا تخلف من أهل الله سيد — كلها جملة واحْصِهَا

* * *

قل لهم يا جمع الصلاح — ما ملكت صَبَّز عقْلِي راح
حَيتكم فيدوني نرتاح — وارسلوني في ساعة ليها

* * *

قل لهم يا أهل الديوان — جيتكم وأنا طير فسلان
سَرّْحوني في ساعَ عجلان — بحرمة الزهراء وأبيها

* * *

وادع أهل التصريف وسر — شرّف قبالة خد الدّير
صاحب الحكمة والتدبير — يمنع النفس ويحظيها

* * *

قصر اليوم كفاك الوعد — بت ليلة وأصبح جداد
سر يا الورشان الوكّاد — تسّالة وجُزْ عليها

قـــم قبـــل طلـــوع الـــزهـــرا وافطـــع تليـــلات وهَبْـــرا
مستغـــانـــم وقـــرى أخـــرى تـــوصـــل القلعـــة بحصنهـــا

* * *

واذهَـــا يسمَـــى يلّـــل تحتهـــا بميـــاه يهـــوطـــل
علـــى رحيهـــا لا بـــد سـايـــل هـــابـــط لمينـــة يلقـــاهـــا

* * *

قـــم مـــن ثـــم امـــش دبّـــاب علـــى يمينـــك وأصبـــح رقـــاب
رآه سيـــدي عـــابـــد فـــي البـــاب قُبّتُـــه جُـــزْ تـــســواليهـــا

* * *

قـــابلـــة وتلحـــظ لحظـــة وشَيّـــا أعطـــاك بهـــا أرضَ
طِـــزْ وانـــزل واد الفضّـــة ميّـــز الأرض وتمشّـــاهـــا

* * *

ميـــز الأرض وأصبـــح شـــوّاف واعمـــد قبـــالـــة للعطّـــاف
اقطـــع شلَـــفْ ســـامِ الأجـــراف بَـــت مـــن هـــذيـــك الجِهـــا

* * *

اقطـــع المشـــرع وتهـــدب وبـــت مـــن ثـــم لا تلهـــف
زر سيـــدي أحمـــد بـــن يـــوســـف وبـــت مليـــانـــة داخلهـــا

* * *

قـــم قبـــل طلـــوع الغـــرّار واوعـــد المـــدفـــون فـــي زكّـــار
زر وادخـــل عنـــده الـــدار وعـــدتـــه لا بـــد تعطيهـــا

* * *

قـــم يـــا طيـــر امـــش عجـــلان بـــاش تخـــرج لبـــو حلـــوان
بـــت مكـــروم علـــى الأمـــان عنـــد نـــاس بـــلادك فيهـــا

* * *

قـــم قبـــل الفجـــر وبكّـــر بـــاش تخـــرج ســـاعَ لَـــوّاجَـــر
شُـــفْ متيجـــة واستخبـــر البليـــدة بيّـــت فيهـــا

* * *

زُرْ مُـــولَـــى ســـاكـــة نـــوصيـــك طِـــر مـــن ثَـــمْ لبـــو فـــريـــك
اعمـــل الـــدرك علـــى جنحيـــك تبـــات بَلْـــدالجيـــر نـــراهـــا

بت زاهي وأصبح مسرور — بَيْنَ مآو منازه وقصور
خذ وعدة سيدي منصور — قَبَلْ الأ تسدخل هيُّها

* * *

قُمْ كي تنحلّ البيبان — للجزائر داخل فرحان
زر سيدي عبد الرحمٰن — بركته ينفعنا بها

* * *

ليلة الجمعة اطلع للشيخ — ترسلك وإذا كنت صريخ
تُورَّخْ منازلها تُورْيخ — واعرف الدار ارجع ليها

* * *

ادخل مزغنّة يا صاح — عندهم اتمتع وارتاح
تنسقى من كيسان الراح — من خمور الودّ اسقها

* * *

قم يا طير جلوسك طال — طر وانزل في جبل عمّال
اخرج على البيبان وسّل — جُزْ مجّانة خليها

* * *

قم من قصر الطير ورح — تبلغ قسنطينة مشروح
ادخل وباب الله مفتوح — كلها النّاس تراعيها

* * *

قم يا طير مناش تخاف — ريَّخ النفس وادخل للكاف
عندهم تأدب واظرف — يعجبك صوت مغانيها

* * *

قم يا طير ادخل تونس — زر الباجي وابن يونس
تبات طول الليل موتّس — بهم النفس ترقّيها

* * *

طابعك بغيته نديّسة — ابن مسايب يتبرك بِه
يمسكُه عنده ويخَبّيه — لليلة القبر وأهوالِها

* * *

يا الورشان اقصد طيبة — وسلم على الساكن فيها
يا الورشان

محمد بن سايب، قصيدة يا الورشان،
نشر محمد بن شنب، المجلة الإفريقية، سنة 1900، ص ص 275 ـ 282

أبو المكارم عبد القادر المشرفـي
(ت حوالي 1192 هـ/ 1778 م)

أبو المكارم سيدي عبد القادر بن عبدالله بن محمد بن أحمد أبو جلال الغريسي المعسكري، تعلم على يد شيوخ غريس بالغرب الجزائري وتتلمذ على علماء عصره مثل محمد بن محمد بن عربي البناني المكي وعلي بن محمد الميلي، ومحمد بن محمد شهاب الدين الأنصاري المدني، والهادي بن محمد الحسني ومحمد بن حسن الميقاتي الإسكندري، ومحمد سعيد القادري، ومحمد بن عبد الرسول العطار المكي. وشمس الدين محمد بن علي الشنواني وغيرهم.

اشتغل عبد القادر المشرفي بالتدريس وتتلمذ عليه علماء أجلة منهم أبو راس الناصري المعسكري الذي وجد فيه الموجه والمشجع على التأليف والاهتمام بالتاريخ. وظـل يحظى بتقدير طلبتـه وإجلال عامة الناس حتى وافتـه المنية بموطنـه غريس يوم الخميس عاشر رمضان 1192 (أكتوبر 1778 م) ودفن بمقبرة الكرط.

ترك عبد القادر المشرفي عدة مصنفات منها رسالة محمد بن علي الخروبي المعروفة بـ «الدرة الشريفة على أصول الطريقة» نظماً بعنوان «عقد الجمان الملتقط من قعر قاموس الحقيقة الوسط» وكان هذا الشرح محل تقدير أبي راس الناصري، ومحمد بن مالك قاضي الجزائر (1226 هـ) كما علق عليه ولده محمد الطاهر المشرفي.

كما ترك أيضاً مجموعة رسائل إخوانية جمعت الاهتمام بالفقه والأدب من ضمنها رسالة موجهة للشيخ الحبيب الفيلالي توجد ضمن أوراق الخزانة العامة

بالرباط (تحت رقم 258 د) هذا وقد ذكر الأستاذ د. عبدالله الركيبي في كتابه تطور النثر الجزائري أن للمشرفي رحلة توجد ضمن مخطوطات زاوية الهامل.

على أن ما اشتهر به عبد القادر المشرفي ليس ذلك الشرح أو تلك الرسائل وإنما تأليفه عن قبائل وهران وعلاقتها بالإسبان، والمعروف بـ «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر» فقد أشار في هذا التأليف الموجز إلى الإسبان وأصلهم وموطنهم قبل أن يتعرض بالتفصيل لقبائل بني عامر ونسبهم وأعمالهم وما اشتهروا به بنواحي وهران أثناء الوجود الإسباني بها مع بيان الحكم الشرعي في تعاونهم مع الإسبانيين، بالإضافة إلى إشارات عابرة إلى علماء عصره ورجال الدولة على عهده، وقد بين في عرضه هذا المهام التي كان يقوم بها الأعراب المتعاونون مع الإسبان والدوافع التي شجعتهم على التعامل مع الحامية الإسبانية بوهران، ومما جاء في ذلك «أن بني مسخن (ما سرقين) من طوائف الأعراب... انحازوا إلى الإسبان فصاروا خدمة لهم ومن جملة جيشهم... فسنوا بهم الغارات وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات... وسبب ذلك الطمع في عَرضهم الفاني الذي صير المسلم مجرماً جانياً...» وحاول أيضاً تحديد التبعات والمسؤولية فيما كان يقوم به هؤلاء الأعراب، فأشار إلى أن كرشتل هم المغاطيس الذين يبيعون الناس للإسبان، «ويقال لهم المغطسون فهذا الاسم هو لهم على الحقيقة ولغيرهم على المجاز لعملهم اقتداء بهم... وأن شافع من بني عامر صاروا شجىً في حلق الدين باحتكام وقذى في عيون الإسلام وحلاوة في قلوب الكفرة اللئام... فكم غزوا بهم على المسلمين وكم سبوا بهم من المسلمين، وكم جاسوا بهم خلال الديار، وكم سلكوا بهم صعاب الأقطار» وقد كان المشرفي بموقفه هذا يندد ويشهّر بمن كان يتعاون من المسلمين مع الإسبان، ويحث المسلمين على الاحتراس منهم، وكأنه كان يهيىء النفوس استعداداً لاسترجاع وهران على يد محمد الكبير في فترة لاحقة (1205 هـ/ 1791 م).

اهتم بودان (Bodin) ببهجة الناظر، فنشر نصها العربي مع ترجمة فرنسية في المجلة الإفريقية لعام 1924 (ص ص 193 ـ 260) مع عرض لأهم الأحداث التي

عرفتها وهران تحت الإسبان وإشارات إلى بعض العلماء والحكام الذين لهم صلة بمضمون بهجة الناظر. هذا وقد قام مؤخر الأستاذ محمد بن عبد الكريم بنشر بهجة الناظر اعتماداً على مخطوط بلدية وهران (رقم 429) وبذلك أصبح في متناول القراء.

المراجع المعتمدة:

- المشرفي، (عبد القادر)، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت، د. ت.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 350.
- المزاري، (الآغا بن عودة) طلوع سعد السعود، تحقيق وتقديم يحيى بو عزيز، بيروت، 1990 الجزء الأول، ص 188.
- Bodin, Agrément du lecteur: Notice historique sur Les Arabes soumis aux espagnoles pendant leur occupation d'Oran, par Abelkader el Macherfi (texte et traduction), in, Revue Africaine, année, 1924, pp. 193 -260.

العرب المتعاونون مع الإسبان في وهران

ولما استقل قدم الإسبانيين بوهران أنحاز إليهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم. . . فصاروا خدمة لهم ومن جملة جيشهم. وكثر بهم السواد على المسلمين، فكانوا عليهم أعواناً. وفي الدين القاسد لهم إخواناً، فشنوا بهم الغارات، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات. . .

وسبب ذلك الطمع في غرضهم الفاني، الذي صير المسلم مجرماً جانياً ولا محالة أن هؤلاء الأعراب يطلق عليهم اسم «العرب المتنصرة» والمتعلقة بالنصارى بلا شك ولا أرتياب. فمن جملة الجنود الإسبانيين الذين بوهران من الأعراب، بطن من زناتة من مغراوة من أولاد راشد «ويقال لهم كرشتل نسبة لجدهم. . . وهم فرقة في غاية الضعف يبلغون التسعين نوالة شأنهم عمل البحاير (البساتين) والخضر والتجارة إلا أنهم مع ضعف عددهم ـ لهم قوة وشوكة ـ وأصل مسكنهم حيث يصب نهر الشلف بالبحر الرومي ثم انتقلوا إلى تمز غران غربي مستغانم. . . ثم انتقلوا لفم البحر بسيرات ثم جاؤوا إلى أرض متوعرة بسيف البحر فألفوا بها بني زيان، وهم فرقة من البربر من صنهاجة على الصحيح. . . فأجلوهم منها وسكنوا بها في السنة الثامنة من المائة الثامنة من الهجرة (1308 ـ 1310 م) وبنوا بها مدشراً محصناً بالجبال من البر لا طريق له إلا من جهة موعرة، وكانت بتلك الأرض عيون عذبة منهمرة فاستقروا بها للآن، وكان شأنهم من الإسبانيين جلب الأخبار لهم، وتغطيس الناس فهم المغاطيس ويقال لهم المغطسون، فهذا الاسم هو لهم على الحقيقة ولغيرهم على المجاز، لعملهم اقتداء بهم، ويحكى أنهم غطسوا إمامهم الذي يصلي بهم بأن باعوه للإسبانيين غفلة منه، وكيفية التغطيس أنهم يأتون بدوابهم للدواوير (المداشر) على صفة الحضر المتجولين بالدواوير البائعين للعطرية ومعهم مناطقة من الجلود الفلالية، فإذا وجدوا خبراً جلبوه

للنصارى وإذا رأوا فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجعلوا الجلود على فيه كي لا يتكلم وحملوه على دوابهم ومشوا به ليلاً لوهران، فيبيعونه للإسبانيين وينتفعون بثمنه. وهذا دأبهم ـ لعنهم الله وأخزاهم وأخلى الأرض منهم ـ ومَسْكنهم حال انحصارهم بالمسلمين بالأودية التي بساحة وهران حذو «البرج الأحمر» أسفل «خندق النطاح» وكان لهم زوارق يسافرون فيها من مدشرهم لوهران إذا اشتد عليهم الأمر وسدت عليهم الطرق البرية، يحملون فيها للإسبانيين سائر الخضر ونحوها، وكان الإسبانيون لا ينقطعون عنهم في البحر لأخذ ما يفتقرون إليه من عندهم، وكان من الكرشتليين بعض الأعوان للنواحي الشرقية والقبلية.

عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر
تحقيق محمد بن عبد الكريم
بيروت، د. ت، ص ص 12 ـ 14.

العشائر المتعاونة مع الإسبان بوهران

ثم إن هؤلاء الفرق الثمانية الضالة وهم: كرشتل، وشافع، وحميان، وغمرة، وقيزة وأولاد عبدالله، وأولاد علي، والونازرة لما اجتمعوا عند الإسبانيين وصاروا على كلمة واحدة في الدفع والجلب. اشتد بهم عضد النصارى، وقويت شوكتهم، وكثر بأسهم على المسلمين إلى أن صار وطاء سيرات وملاته من جملة مسارح ومزارع العدو، وليس للمسلمين فيه مطمع إلا من لجأ إلى حزبهم وصار من رعيتهم، ودخل في حمايتهم، وأدى لهم الجباية، وكان معيناً لهم على مرادهم. وصار يتجسس لهم الأخبار على المسلمين في السهل والأوعار، حتى أذا تعينوا له يصكهم بخيله ورجله وهم معه، فيقتل ويأسر ويسبي ويفعل ما أراد الله بفعله، واشتد غزوه على المسلمين بهؤلاء الفرق الضالة، التي رغبت في غرضه الفاني، رقيق الدين منهم والجاني فانتهكوا حرمة الإسلام غاية الانتهاك، وصاروا لقنص أهل الإسلام حبائل وأشراكاً، فكانوا عيون العدو الذين يتطلع بهم على عورات المسلمين، وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الأبعدين، وهذا فعل الأعداء المرتدين، حيث جسروا العدو بخيلهم ورجالهم على اقتحام (حلل) المسلمين ودورهم بكلّهم وانتهاك حريمهم، وانتهاز الفرصة فيهم.

عبد القادر المشرفي الغريسي

بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية

الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر. تحقيق محمد بن عبد الكريم

بيروت د. ت. ص37

الحسين بن محمد السعيد الورتلاني
(ت 1193 هـ/ 1779 م)

الحسين بن محمد السعيد بن الحسني الورتلاني، ينتسب إلى أسرة علم تعود أصولها حسب الروايات المتداولة إلى شرفاء تافلالت. استقرت ببجاية ثم تحولت في عهد جده الولي الصالح علي البجائي إلى مواطن قبيلة بني ورتلان بالقبائل الصغرى، وقد يكون أبوه أتى من ميلة وصاهر أسرة محمد شقران صاحب منطقة قنزات كما أثبت ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله، وقد اشتهر أفراد أسرة الورتلاني بالعلم والتقوى والصلاح.

ولد الحسين بن محمد السعيد سنة 1125 هـ/ 1713 م ببني ورتلان وتلقى مبادىء الفقه واللغة على يد أبيه وأشياخ موطنه. ثم اختلف إلى بعض الزوايا ومعاهد العلم بناحية القرقور وجهات جرجرة ودلس والجزائر. وقد ارتبط الشيخ الحسين الورتبلاني بالطريقة الشاذلية وعد من الشيوخ (المرابطين) وظل ملتزماً بحياة الزهد والتقشف ومتصفاً بالجد والعمل والرغبة في الاستزادة من العلوم الفقهية واللغوية.

أدى الحسين الورتلاني فريضة الحج ثلاث مرات، الأولى صحبة أبيه وهو ابن الثامنة عشرة (1153 هـ/ 1740 م) والثانية عندما بلغ الواحدة والأربعين (1166 هـ/ 1752م) والثالثة واستغرقت ثلاث سنوات (1179ـ 1181 هـ/ 1765 ـ 1767 م) أتمها في الرابعة والخمسين من عمره، وقد حرص على أن يوسع معارفه وينمي معلوماته أثناء حجه وإقامته بالحجاز ومصر حيث درس بالقاهرة وأخذ على شيوخ الأزهر آنذاك أمثال محمد البليدي والحفناوي والجوهري

والنفزاوي والعفيفي والملوي والصباغ العمروس وخليل الأزهري وغيرهم، بعد ذلك آثر الاستقرار بمسجد أسرته معتكفاً للعبادة منقطعاً للتدريس والوعظ. وهذا ما جعل الحفناوي ينوه به عندما عرف به في كتابه تعريف الخلف برجال السلف بقوله: «هو الإمام العالم العلامة الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول ﷺ الجامع بين المعقول والمنقول، عبر الحقائق وكثر الدقائق مفيد الطالبين ومربي السالكين وقدوة العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين»، ولقد اشتهر أمره فكان مقصد الزوار وطلبة العلم من مختلف الجهات حتى وافته المنية في شهر رمضان 1193 هـ/ 1779 م عن سن تناهز الثمانية والستين، ودفن بموطنه (قرية آنو) وظل ذكره عطراً لما تركه من ذكر حسن وما خلفه من مصنفات وتآليف عدة، عرف منها على الخصوص: المنظومة القدسية في التصوف للشيخ عبد الرحمن الأخضري، وتعليقٌ على حاشية السكتاني. وكتاب المرادين، ورسالة في شكل جواب على قول بعضهم: «خضت بحراً وقفت الأنبياء بساحله». وشرح لم يكمله على محصل المقاصد لأحمد بن زكري التلمساني، وحاشية على صغير الخرشي، وتعليق على شرح الصغرى للسنوسي، بالإضافة إلى قصيدة ميمية في مدح النبي ﷺ تتألف من خمسمائة بيت، وبعض الرسائل الإخوانية.

اشتهر الحسين الورتيلاني برحلته التي انتهى من إملائها عام 1182 هـ ووضع لها عنواناً استوحاه من مضمونها وهو «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» وضمنها مشاهداته وملاحظاته وتعليقاته أثناء سفره لأداء فريضة الحج وقد وصفها الحفناوي بما يلي: «الرحلة السنية التي سارت بها الركبان وقد دعا لناسخها ومالكها وناظرها فهي حصن حصين...».

تعود أهمية رحلة الورتيلاني إلى ما أشتملت عليه من معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحالة الاقتصادية والمعاشية وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة وطبيعة العادات ونوعية اهتمامات العامة في البلدان التي تعرف عليها في سفره أو أثناء إقامته بالحجاز وهي حسب خط رحلته ذهاباً؛ مجانة، زمورة، قصر الطير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة،

سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي ناجي، نفطة، الحامة، توزر، زوارة، طرابلس، تاجوراء، ليدة، زليتن، مصراته، بلاد سرت، ثم أقليم برقة والإسكندرية والقاهرة والمدينة ومكة. أما في طريق عودته فقد مر بالقاهرة والإسكندرية وطرابلس وتونس والكاف وقسنطينة وزمورة قبل ان يحل ببلده بني ورتلان.

هذا ويتصف إنتاج الورتيلاني فيما سجله في رحلته من ملاحظات أو أورده من معلومات أو وضعه من تعاليق: بمميزات تحدد قيمته التاريخية ومستواه الأدبي أهمها:

- الالتزام بالصدق في كل ما أورده من أحداث ووقائع، فهو يدلي برأيه بكل صراحة ويجاهر بالحق إن رأى في ذلك مصلحة، فلم يتردد مثلاً في مصارحة حاكم طرابلس علي باشا القرامانلي عند مقابلته بقوله: «وقلت له عند اجتماعي به فلا بد أن تجعل محلاً يصل إليه جميع الناس يبثون إليك شكواهم. .، وأما الآن فلا يراك إلا أهل دولتك فربما أظهروا لك غير ما كان شراً أو خيراً».

- تحري الحقيقة، فهو لا يكتفي بما شاهده أو رُوي له بل يلتجىء في بعض الأحيان تأكيداً لروايته أو استكمالاً لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرحالة السابقين أمثال أبي سالم العياشي وابن ناصر الدرعي والتيجاني والعبدري وابن رشد وغيرهم، كما أنه لا يتردد في أن يقتبس أيضاً من فقرات بعض كتب المسالك والبلدان والتراجم والتاريخ، ككتب البكري وابن حوقل والسيوطي، والسمهوري، والمقريزي، والغبريني، وابن فرحون، وابن الشماع، وقد يشير إلى مصدرها وقد يثبتها دون ذكر صاحبها.

- عرض الواقع كما هو وهذا ما جعل روايته للأحداث يطبعها التشاؤم وتتخللها العبارات القاسية فهو شأنه شأن العبدري يشتكي انعدام الأمن بالطرق وظلم الحكام وجورهم وضعف الدين وقلة الرغبة في فعل الخير، ويؤاخذ الناس على طبائعهم التي يراها مجانبة للأخلاق الفاضلة، وينتقد رفاقه وأهله على ما أتصفوا به من سلوك ويصف المجتمع الجزائري قائلاً: «أهل وطننا فيهم الغلظة والجفاء وسوء الأدب وعدم أدعائهم للحكام» ويذكر أن الركب الجزائري

(الحجاج) «لا حكم عندهم أصلاً ولا يتفقون عند الأمر والنهي».

ـ التحلي بالورع والتقوى، فهو يكثر الثناء عند ذكره للأشخاص الذين تعرف عليهم ونالوا إعجابه ويصفهم بعبارات الشكر والتقدير والإجلال. كما يبدو حرصه على التقرب من رجال العلم وزيارة أضرحه الأولياء الصالحين والدعاء عندها كأضرحة عقبة بن نافع وخالد بن سنان، دون أن يهمل التعريف بهم وبأعمالهم، لأنهم حسب قوله: «إنما يكمن في ذكر الإخوان... وبيان أوصافهم... ليحقق الجامع بأحوالهم... وبأوصافهم» وهو مع ذكره للكرامات وروايته لبعض الخرافات فإنه لا يطمئن إليها ولا يسلم بصحتها إذ يسجلها في خانة النوادر واللطائف ويعلق عليها غالباً بقوله «والله أعلم» وقد يثبت الأحكام الشرعية والآراء الفقهية التي لها صلة بها.

ـ التزامه أسلوباً يتميز بكثرة المحسنات اللفظية والكلمات المترادفة في شكل موزون مع اقتباسات عديدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. هذا ومن الراجح أن بعض الأخطاء اللغوية والاستطرادات والتكرار المخل بالمعنى والذي قد يلاحظ في سياق الرحلة يعود أساساً إلى طريقة تسجيل الرحلة ذاتها فقد أملاها الورتلاني على طلبته اعتماداً على مذكرات كان قد كتبها أثناء استراحته وهو في طريق السفر دون أن يقوم بعد ذلك بمراجعتها وتصحيحها.

تعتبر رحلة الورتلاني «نزهة الأنظار» من المصادر الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها للتعرف على أوضاع البلاد الجزائرية وأقطار تونس وطرابلس، ومصر والحجاز في القرن الثاني عشر للهجرة الثامن عشر للميلاد. فهي تسجيل حي للوضع الاجتماعي والاقتصادي ووصف دقيق لحالة المسالك والعمران ومحطات القوافل ونقاط الماء وصورة صادقة للواقع الثقافي، ولعل أهم ما يتميز به الورتلاني في هذا الجانب هو ترجمته للعديد من صلحاء وعلماء ومشائخ وطنه.

قام بتصحيح رحلة الوتلاني محمد بن أبي شنيب اعتماد على أربعة نسخ مخطوطة ونشرها بالجزائر 1908 ثم أعيد نشرها مصورة ببيروت سنة 1974 مما سهل الرجوع إليها والانتفاع بها.

المراجع المعتمدة:

- الورتلاني (الحسين) نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق ونشر محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا الجزائر 1326 هـ ـ 1908 م. ط. 2. بيروت، دار الكتاب العربي 1974.
- تعريف الخلف، القسم الثاني، ص ص 139 ـ 147.
- تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، ص ص 407 ـ 412.
- سعد الله (أبو القاسم) الرحلات الجزائرية خلال العهد العثماني، منشورات جامعة الرياض، أعمال مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، 1979، ص ص 335 ـ 347.
- سعيدوني (ناصر الدين) ليبيا كما وصفها رحالة جزائري معاصر، لابن غلبون (الحسين الورتلاني) كتاب أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، الجزائر 1988، ص ص 99 ـ 119.
- قوقام (يوسف) الشيخ الحسين الورتلاني من خلال كتاب الرحلة، مجلة الثقافة «الجزائر» عدد 35 ـ 1976 ص ص 27 ـ 34.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص 845.
- Hadj Sadouk (M.) A travers la Berberie Orientale au XVIII[e] siècle, avec Le voyageur El. Wartilani, in Revue Africaine, T 95/1951, pp. 364 - 382.

الورتلاني يحل بمدينة قسنطينة

ثم ضعنا منه صباحاً فسرنا أياماً في عافية إلى أن وصلنا إلى مدينة قسنطينة وهي مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا وإن لم يكن فيها السلطان ففيها نائبه السيد الباي وهي مدينة قوية ليست كبيرة جداً ولا صغيرة أيضاً، وعليها سور كبير وفيها أبواب ثلاثة باب الوادي، وباب الجابية، وباب القنطرة، وفيها بويب صَغير يخرج منه الآدمي وفيها أسواق كثيرة ودكاكين طيبة ومساجد للجمعة نحو الخمسة وبعضها في غاية الإتقان كمسجد الباشا في طرابلس وأظن أن صانعها واحد، وهذه المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك بل يموت قطعاً، وفيها قصبة عظيمة وعسكر من الترك بقدر حالها وباي سطوته عظيمة وحاله كبير، وعساكره كثيرة، تنفذ منها للجزائر أموال عظيمة من المغرم ومددها قوي وظلمها كثير وسعرها رخيص، واسعة الأرزاق كثيرة الارتفاق ممدودة الأنفاق كثير فيها اللحم والسمن والقمح والتين، وما أحسنها من زرع ودرع وضرع تأتيها القوافل من كل النواحي، قليلة الفواكه كثيرة المزارع محصنة تحتها واد كبير، وماؤه عذب منه يشربون إذ ينقلون ماءه إلى الديار وفيه يسقون ويستسقون ويغسلون ويغتسلون، وعليه بنيت المدينة من قديم الزمان. . .

حاصله أن كثرة المذاق، توجد للقلب النفاق، وقلة الأرزاق، تيسر الطريق إلى الله بالإنفاق، وذلك معلوم عند أهل الحقائق بقسنطينة لما كثر رزقها واتسع إنفاقها عسر الوصول فيها إلى الله لقلة المساعد، وكثرة المتكبر المعاند، وإن وجد فيها الصلاح فمن البله وقلة المعتني فيها بنفسه حتى لا يظهر فيها صالح أصلاً وعلى تقدير ظهوره فتسرع فيه المنية لأنه عذاب وهلاك لمن خالف طبعه وأساء ظنه وقد قال ﷺ عن الله: «من عادى لي ولياً فقد آذيته بالمحاربة». فيكون هلاكه وسرعته رحمة بأهل وطنه فلا يتأتى إظهار ولي فيها لأن ظهوره يكون سبباً لرجوع

أهل وطنه إلى الله فيكثر فيهم أهل الصلاح وذلك معاكس للحكمة الإلٰهية في أن الفراعنة المتمردة لا تكثر إلا في وطن كثر رزقه وضاقت حقوقه وانكشف نوره وإشراقه، فتنتقل منه الأولياء ويدوم فيه أهل السمعة والكبر والرياء.

الشيخ الحسين بن محمد الورثيلاني
نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار
المشهورة بالرحلة الورتلانية ط 2، دار الكتاب العربي،
بيروت، 1974، ص ص 685 ـ 688.

محمد بن رقية الجديري التلمساني
(ت بعد 1194 هـ/ 1780 م)

محمد بن عبد الرحمن بن الجلالي بن رقية الجديري التلمساني أو محمد بن محمد بن عبدالرحمٰن بن محمد. لا يعرف شيء عن حياته سوى أنه عاش في نهاية القرن الثاني عشر للهجرة. الثامن عشر الميلادي، وتوفي بعد سنة1194 هـ / 1780 م، وكان يعتبر من العارفين بالعلوم الفقهية واللغوية.

عرف محمد بن رقية التلمساني بتصنيفه في تاريخ غارات النصارى على الجزائر الذي وضع له عنوان «الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» والذي انتهى من وضعه حسبما هو مسجل فيه في الرابع عشر من ذي الحجة سنة (1193 هـ/ 1779 م) استجابة لطلب الباي محمد الكبير باي الغرب (ت 1212 هـ/ 1798 م) وهذا ما أشار إليه بقوله: «وذلك عن إذن الأمير. . . سيدي محمد باي نجل. . . عثمان».

اعتمد ابن رقية التلمساني في تأليفه للزهرة النائرة التسلسل الزمني للأحداث فذكر بالترتيب تسعة حملات تعرضت لها الجزائر منذ بداية العهد العثماني منذ قدوم عروج وخير الدين بربروسة وحتى فترة حكم الداي محمد عثمان باشا وهي على التوالي:

1 ـ حملة دييغو دو فارا (Diego de Vara) في عهد المجاهد عروج (922 هـ/ 1516م).

2 ـ حملة هيڤو دو مانكاده (Hugu de Mancade) في عهد خير الدين بربروسة (925 هـ/ 1519 م).

3 ـ حملة الإمبراطور شرلكان (Charles Quint) على عهد حسن آغا (948 هـ/ 1541 م).

4 ـ حملة إنكليزية على عهد رمضان بلكباشي، (1071 هـ/ 1660 م).

5 ـ حملة دوكان الفرنسي (Duquesne) على شرشال والجزائر على عد الداي بابا حسن (1093 ـ 1094 هـ/ 1682 ـ 1683 م).

6 ـ الحملة الثانية لدوكين (Duquesne) على عهد بابا حسن السابق الذكر.

7 ـ الحملة الثالثة لدوكان على عهد ميزومورتو (1095 هـ/ 1683 م).

8 ـ حملة الدانويين (الدانماركيين) بقيادة كاس (Caas). على عهد محمد عثمان باشا (1184 هـ/ 1770 م).

9 ـ الحملة الإسبانية بقيادة أوريلي (O'Reilly) على عهد عثمان باشا (1189 هـ/ 1775 م).

حدد محمد بن رقية الهدف وأوضح الغاية من مصنفه الزهرة النائرة بأنه تنويه بمن استشهد في الدفاع عن البلد وشحذ الهمم لمواجهة النصارى، وهذا ما أوضحه في قوله: «يقول العبد الفقير الجامع إنما حررت هذه الأوراق وجمعت هذه الأحرف لتكون تذكيراً لي ولمن حضر هذه الوقائع. خصوصاً لمن استشهد فيها بالرحمة والمغفرة وإعلاماً لآخر القاطنين والمرابطين بها...».

رجع ابن رقية التلمساني في تسجيله للغارات الأوربية الأولى على الجزائر إلى كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول وإلى وثيقة المحكمة الملحقة به، وهذا ما قلل من أهمية ما سجله بالنسبة للحملات الأوروبية الأولى على الجزائر باعتبار انه يكاد يكون قد نقلها حرفياً عن الغزوات، فيما اعتمد بالنسبة للغارات المتأخرة على الجزائر وما اتصل بها من أخبار حول باشوات الجزائر على أشخاص شاركوا فيها أو سمعوا عنها وهذا ما أكسبها أهمية خاصة، وجعلها مصدراً أساسياً لا غنى عنه بالنسبة للحملات الأوربية على الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي.

تعكس الزهرة النائرة أسلوب ولغة البيئة الجزائرية في القرن الثاني عشر للهجرة، الثامن عشر للميلاد، وتعبر بصدق عن موقف مؤلفها من الأحداث، فابن رقية التلمساني لم يخف فيما سجله عداءه للمهاجمين المسيحيين وتحمسه للمدافعين المسلمين. ورأى أن من واجبه الحث على الجهاد والدعوة إلى المقاومة، فهو يستهل الزهرة النائرة بقوله: «هذه أوراق تحرك على الجهاد أرباب القلوب النافرة وتنمي في اجتهاد المنكب عليه زيادة وافرة». كما أنه بدا معجباً بالجزائر فخوراً

بصمودها وتحديها للمهاجمين، وهذا ما عبر عنه بوضوح في خاتمة الزهرة النائرة حيث جاء فيها: «وليعرفوا قدر الجزائر، إذ ترابُ نواحيها معجون بدماء الكفار، اللهم أدمها دار جهاد، ومحل عزم واجتهاد إلى يوم التناد بحرمة أشرف العباد».

توجد عدة نسخ مخطوطة للزهرة النائرة منها نسخة بالمكتبة الوطنية الجزائرية في حوالي خمسين ورقة تحت رقم 1626 بتاريخ 12 جمادى الثانية 1194 هـ ونسخة بمكتبة ميونيخ بألمانيا تحمل (رقم 419) ونسخة بمكتبة الأستاذ سعد الدين بن شنب، الأمر الذي جعلها في متناول المشتغلين بالتاريخ فقد قام ألفونس روسو (A. Rousseau) بترجمتها إلى الفرنسية بعنوان «يوميات إيالة الجزائر (Chroniques de la Régence d'Alger) ونشرت بالجزائر سنة 1841. إلا أنه لم يحقق النص الأصلي للزهرة النائرة إلا مؤخراً. إذ قام بتحقيقه الأستاذ سليم بابا عمر ونال به دبلوم الدراسات المعمقة من جامعة الجزائر ثم نشره بعد أن وضع له عناوين فرعية في مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 3/1967 (ص ص 322).

المراجع المعتمدة:

- ابن رقية التلمساني (محمد) الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 3، 1967 ص ص 2 ـ 32.
- شاوش، (محمد بن رمضان)، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 ص ص 526 ـ 527.
- روسو (البارون الفونص)، الحوليات التونسية من الفتح العربي، وحتى احتلال فرنسا، ترجمة وتقديم محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1992، ص ص 27 ـ 28.
- Baba Ameur (Salim) A propos d'une histoire du XII^e/XVIII^e siècles sur les expéditions étrangères contre Alger, in Annales de l'Université d'Alger, n° 4/1989 - 1990, pp. 59 - 90.
- Bresnier (J.) Traduction du récit indigène de l'expédition d'O'Reidly, (extrait de la Zahrat - en - Naiyra), in Revue Africaine, T 8/1863 pp. 334 - 346.
- Fagnan (E.) Catalogue des manuscrits de la Bibliothèque nationale d'Alger, Paris, 1893, pp. 452 - 453.
- Rousseau (A.) Chroniques de la Régence d'Alger, Trad. d'un manuscrit arabe intitulé el-zohrat el-nuyerat, Alger 1841.

الواقعة التاسعة: هجوم الإسبان على الجزائر

(1189 هـ/ 1775 م)

وفي سنة تسع وثمانين ومائة وألف. يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الثاني، في إمارة محمد باشا المكروي، عند الزوال، جاءت بلا ندرة متاع [. . .] خبرت بأنها كانت دخلت [. . .] وبها كانت أكثر عمارة الإسبانيول. . .

محمد باشا بعث إلى صالح باي صاحب ناحية الشرق لأنه كان نبهه أن لا يفارق ناحية حمزة، بحيث يقدر أن يأتي إلى الجزائر في يومين أو ثلاثة إذا أمرناه بالقدوم إلى الجزائر وكذلك باي ناحية التيطري. وكذلك بعث إلى خليفة ناحية الغرب لأن الباي كان مشتغلاً بحفظ ناحية مستغانم، وأيضاً كان معترضاً بجهة وهران إذ شاع بأن اللعين أراد أن يبعث جماعة من العسكر من وهران إلى الجزائر في البر. وربما يتمكن من إغارة ناحية تلمسان، أو ناحية معسكر أو مستغانيم [كذا] ولم يكن الباي هنالك. فلأجل ذلك لم يأت الباي بنفسه بل أناب خليفته منابه. . فأجابوا هؤلاء الأمراء الثلاثة للقدوم إلى الجزائر مع وصول السيد محمد باشا.

ففي اليوم الأول من جمادى الأولى. وهو اليوم الثامن من الشهور الرومية ينيه، يوم الخميس، أتى صاحب الناظور من بو زريعة وقال: «إن البحر كله تغطى بقلاع السفائن بحيث لم تر بتلك الناحية فوق البحر إلا القلاع».

فمن ساعته أمر محمد باشا بإخراج مائة خباء من الجزائر، وفي كل خباء ثلاثون نفراً من العسكر. وأمر على أربعين منها السيد حسن الخزناجي. ونصب تلك الأخبية بين عين الرباط ـ الربط ـ ووادي الخنيس.

وبإخراج عشرين خباء إلى ناحية باب الوادي. وأمر عليها السيد مصطفى

خوجة خوجة الخيل . . . ولقلة الريح لم تظهر سفائن الملاعين يوم الخميس. فعند الصبح، يوم الجمعة، وهو اليوم الثاني من جمادى الثانية بدأ ظهور سفائنهم من الصومعات متاع الجزائر، ومع موافقة الريح بزيادة الموافقة إلى وقت خروج الناس من صلاة الجمعة. رست مقدماتهم بالحراش.

وفي أثناء ذلك بدأ الباي صالح بنصب أخبية محلته تجاههم وراء الحراش لأنه أمر كذلك إذ لم يكن له محل يناسب لنزول محلته غير ذلك المحل، لأنه كان عنده جمع كثير من فرسان العرب وأجوادهم ينيف على عشرين ألفاً . . . وفي أثناء ذلك بدأ الباي صالح بدأوا بالفلايك يسرحون في المشي، مر بعضهم إلى بعض ولم ينقطع إلى أن أظلم الليل . . .

ثم في يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء وهو اليوم الخامس والسادس والسابع من جمادى الأول مضت على هذا المنوال، لم يظهر من اللعين جدال لكن حركته حركة الخروج إلى البر.

ويوم الخميس ثامن جمادى الأولى، قبل الغروب بساعتين، قرب اللعين سفينة من السفائن الكبار بالمخطاف بالطوبخانة التي بالخنيس، وباشر يرمي فيه بالمدافع إلى أن أظلم الليل، إن عدة المدافع التي رماه خمس عشرة مائة مدفع. لأن اللعين كان يرمي في غاية السرعة، حتى كان يرمي الستة المدافع بفتيلة واحدت. ومن الطوبخانة كان المجاهدون يقابلونه برمي المدافع. ولكن لم يكن من جهة السفينة إلا سبعة مدافع وتارة كانوا يطلقون مدفعين بفتيلة واحدة. فعند ذلك يفرح المسلمون ويدعون للمدافعين الذين هنالك بالستر والنصر والقوة.

فللّه الحمد سبحانه وتعالى! لم تصل الطوبخانة إلا كورة واحدة من ذلك العدد من الكور. وهدت من حيط الطوبخانة شيئاً قليلاً، فمن ساعته بعث علي آغا لأجل بعث البنائين، فمن ساعته بعث البنائين مع كل ما يحتاجون إليه من المرسي في البحر لأنه كان أسهل، وإلى نصف النهار من الغد أصلحوا ذلك المحل المهدوم.

ومن طوبخانتنا رموا في تلك الليلة قدر خمسمائة مدفع، وما مات في طبخانتنا أحد ولم يجرح أحد مع أن مدفعاً واحداً انشق طولاً لكن لم يتفرقع. فلذلك لم يتضرر به أحد، ومن الواقفين خارج الطوبخانة استشهد رجلان رحمة الله عليهما. وجعل المدافعون والعسكر الذين هنالك وراء حائط الطوبخانة من جهة العدو مترساً جيداً من الشطبة والتراب بحيث غاب الحائط كله في التراب. جزاهم الله خيراً!.

وفي اليوم التاسع من جمادى الأولى وهو يوم الجمعة لم يقع جدال أصلاً. وفي اليوم العاشر من جمادى الأولى وهو يوم السبت بقدر ساعة ونصف قبل الشروق. . . والبرانكية إلى البر. وكذلك أربع أو خمس سفائن كبار من التي تسمى بلغتهم متاع اللينية، وبدأ برمي الدوبلة إلى كل جانب منها بحيث لا يقدر أحد أن يقرب من جهة البحر. فعند ذلك قرب اللعين الصال إلى المحل الذي عين للخروج إليه. إذ لو لم يكن الصال لم يتمكن اللعين من إخراج المدافع والأثقال إلى البر، بل إخراج المدافع بغير إيصال إلى البر بمنزلة المحال. وذلك المحل ما يقابل قبور الشهداء إلى جهة الحراش. فبعد إخراج الصال وربطه بالبر بحيث أنه جزء من البرّ بَدَأَ بخروج العسكر. . .

فعند ذلك جاءت الجمال التي ساقها صالح باي من جهة الحراش. فدهشوا ورجعوا القهقري. فوصول الجمال هو سبب انهزامهم ولم يكن مع الباي صالح إلا شيء من الفرسان قليل.

فعند ذلك هجم العسكر الذي وراء زرب الجنة وراء الملاعين حتى وصلوهم إلى مترسهم، والبعض منهم استشهد والبعض جرح. . . ثم استقر اللعين في مترسه ولم يقدر أحداً أن يصل إلى مترسهم من كثرة الدوبلة. . .

لكن من طوبخانة الخنيس كان المدفعي الذي فيه رمى بالكورة إلى الحائط من الجانب الذي تجاه المترس متاع اللعين، فثقب الحائط فصار يرمي بالمدفع من تلك الثقبة إلى مترس الملاعين، فكان في كل رمية يقتل من الملاعين عدد كثير حتى أخبرنا منهم أنه في الرمية الأولى قتل منهم ستة وثلاثون نفساً: وذلك أن

المدفع المذكور كان محايداً لطول مترسهم. وفي كل رمية كان هذا المدفع يقتل منهم العدد الكثير. . .

وفي الليل فر اللعين وترك سبعة عشر مدفعاً من النحاس والأثقال كلها ولم يرفع من السلاح ولو مكحلة واحدة. . .

وكان عدد مجاريحهم أكثر من ثلاثة آلاف وموتاهم حين رجوعهم تزيد على ثمانية آلاف. اللهم زدا.

وكان عدد موتانا لا يبلغ ثلاثمائة من استشهد في المعركة وممن مات من المجروحين، والحال أن ما رمى الملاعين من الرصاص والكور والدوبلة لا يعلم عدده إلا الله تعالى إذ في مقابلة كل رمية منا يرمي منهم مائة رمية، ولو قلنا مائتا رمية أو ثلاثمائة رمية فليس بكذب، وذلك بعيد عن العقل إلا لمن شاهد المواقعة، لكن الله سبحانه وتعالى لطف بعباده المؤمنين.

محمد بن عبد الرحمٰن بن رقية الجديري

الزهرة النائرة فيما جرىٰ في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، نشر بابا عمر سليم مجلة تاريخ وحضارة المغرب، عدد 3/1967، ص ص 25 ـ 31

عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري

(ت حوالي 1200 هـ/ 1783 م)

عبد الرزاق بن محمد بن أحمد المعروف بابن حمادوش الجزائري، ولد بالجزائر حوالي (1110 هـ/ 1695 م) من أسرة متوسطة الحال يمتهن أفرادها الدباغة وبعض الأعمال التجارية البسيطة، تلقى تعليمه بمسقط رأسه وتتلمذ خاصة على الشيخين محمد بن ميمون ومحمد كنجل، دأب طيلة حياته على القراءة، فتوسعت معارفه وهذا ما أشار إليه بقوله: «لقد أخذت العلم قراءة وليس عن طريق السماع» فأصبح لديه اطلاع واسع في مسائل الفقه وقضايا الأدب والتاريخ وعرف بمعلوماته العلمية الدقيقة في علم النبات والطب والرياضيات والفلك والمنطق والفرائض، وأجازه العديد من العلماء الذين أتصل بهم في الجزائر وخارجها، ففي الجزائر اتصل بالمفتي ابن عمار صاحب نحلة اللبيب، وابن علي، وأحمد البوني والشيخ الورززي المغربي، كما تعرف على الشيوخ محمد بن عبد السلام ومحمد القسنطيني وأحمد المبارك بفاس والشيخ محمد زيتونة بتونس.

عرف ابن حمادوش باعتداده بشرفه ومحافظته على مكانته العلمية وميله إلى التصوف فلم يغير من نمط حياته البسيطة المتقشفة حتى بعد أن تزوج وأصبح مسؤولاً عن أسرته (1125 م) وبعد أن اشتغل ببعض المناصب في الوظيف الديني بالجزائر.

قام ابن حمادوش بعدة أسفار تعرف فيها على بعض بلاد المغرب والمشرق، فقد أدى فريضة الحج مرتين (سنة 1130 و 1161 هـ) وانتقل إلى المغرب الأقصى مرتين على الأقل (1145 و 1156 هـ) حيث مارس التجارة، واتصل بطبيب

السلطان مولاي إسماعيل العلوي العلامة عبد الوهاب الأزرق، قبل أن توافيه المنية حوالي عام 1200 هـ/ 1783 م بمكان مجهول عن عمر ناهز التسعين سنة.

ترك ابن حمادوش مصنفاً في علم النبات والتداوي بالأعشاب عرف بكشف الرموز، والذي رجع فيه إلى مصنفات ابن البيطار والأنطاكي وابن سيناء، وهو الجزء المتبقى من كتاب شامل في الطب ينسب إليه ويعرف بـ «الجوهر المكنون في بحر القانون». وقد قام بضبط رموزه عبد الرحمٰن الأشرف ونشره الرودوسي قدور بالجزائر (1928 م) كما تنسب إلى ابن حمادوش رسالة صغيرة في وظائف واضطرابات الجهاز التناسلي بعنوان «تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج». ألفها ببلد رشيد بمصر عام (1161 هـ/ 1748 م).

اشتهر بن حمادوش في مجال أدب الرحلة والتاريخ برحلته المعروفة بـ «لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال» والذي سجل فيها ما عرض له وما شاهده وما اطلع عليه شخصياً من أحداث ووقائع لفترة تناهز الأربع سنوات من حياته (1156 ـ1161 هـ/ 1743 ـ 1748 م) وقد وضعها في شكل مذكرات شخصية واعتمد فيها الترتيب الزمني حسب السنوات والشهور والأيام، فجاءت مقتصرة على أخبار الجزائر والمغرب الأقصى ومتضمنة بعض قراءاته من الكتب المتوفرة لديه مثل كتاب الاكتفاء لابن الكردوس، وكتاب أنس الجليل في تاريخ القدس والخليل للعلمي.

يفهم مما سجله ابن حمادوش في رحلته لسان المقال أن ما وصل إلينا منها هو الجزء الثاني، بينما باقي الرحلة وهو الجزء الأول وربما الجزء الثالث أيضاً يعتبر ضائعاً أو في حكم المفقود. إذ من الراجح أن ابن حمادوش لم يكتف في كتابة حياته بأربع سنوات وإنما تعداها إلى غيرها من سنوات عمره. إذ ظل مواظباً على تسجيلاته عندما كان مقيماً ببلد رشيد بمصر حوالى عام 1168 هـ.

يتألف الجزء المتبقى من لسان المقال من أقسام ثلاثة الأول خاص بالمغرب الأقصى، والثاني يتعلق بنشاطه الشخصي بالجزائر وما قام به من تدريس وتأليف وقراءات، أما القسم الثالث فيتألف من النصوص والوثائق المختلفة التي تضمنها

لسان المقال مثل قائمة بولاة الجزائر منذ مستهل العهد العثماني إلى عصر المؤلف. ونقولات مطولة من كتاب الاكتفاء لابن الكردوس، وأنس الجليل، ومجموعة من عقود الزواج والنوازل وغيرها.

انفردت رحلة لسان المقال عن غيرها من رحلات الرحالة المغاربة. بكونها خاصة بالمغرب دون المشرق. وهذا ما جعلها مصدراً مهماً ومرجعاً أساسياً للتعرف على الحياة الاجتماعية والثقافية للجزائر والمغرب في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادي) فقد تضمنت رحلة لسان المقال أحداثاً تاريخية ومعلومات متنوعة تتصل بأسماء الأماكن والأعشاب وتتعلق بعقود المعاملات والأحكام، وبالأسعار والنقود والمهن، فضلاً عن أنها تعطي صورة صادقة عن المواسم والأعياد وما كانت تتميز به احتفالات المولد النبوي الشريف وليلة القدر وليالي رمضان من ترتيل القرآن وقراءة صحيح البخاري... وتقدم وصفاً دقيقاً لعلاقة العلماء بعضهم ببعض، وما كان يدور في المجالس من مسائل فقهية وأمور علمية كالإجازات والشهادات والأسانيد وطرق القراءة والإقراء.

لقد حاول ابن حمادوش أن يلتزم في كل ما أورده أو سجله بالموضوعية في الأحكام والصدق في القول والدقة في الوصف، مع شيء من الافتخار بنفسه والاعتزاز بمكانته والاعتداد بشرفه ونقده لبعض علماء عصره، كل ذلك في عبارات واضحة وبسيطة بعيدة عن التنميق والمحسنات البديعية، وإن لم يستطع أن يتخلص من الألفاظ والعبارات العامية، وهذا ما جعل أسلوبه يتصف بالركاكة والاسترسال مع الانقطاع والاضطراب في الرواية نتج عن عدم الانسجام في العرض والالتزام بالترتيب الزمني، كما تميز بالتكرار والاستطراد عند عرض النوادر وشرح بعض المسائل. إلا أن ذلك لم ينقص من حيوية الأسلوب ولم يؤثر على السياق العام. لكون المحور الأساسي في رحلة لسان المقال يقوم على شخصية ابن حمادوش.

حظي ابن حمادوش مؤخراً باهتمام الأستاذ د. أبي القاسم سعد الله الذي عرّف بحياته وأعماله في عدة دراسات، كما نشر رحلته «لسان المقال» (الجزء الثاني) بعد أن حققها وعلق عليها اعتماداً على مخطوط المكتبة العامة بالرباط (رقم

ك 463)، وصدرت (1982) بالجزائر مما جعلها في متناول الباحثين.

المراجع المعتمدة:

- ابن حمادوش الجزائري (عبد الرزاق) لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق أبي القاسم سعد الله، الجزائر 1982.
- ابن حمادوش الجزائري (عبد الرزاق)، كشف الرموز، ضبط عبد الرحمٰن الأشرف، ونشر الرودوسي، الجزائر، 1928.
- تعريف الخلف.
- سعد الله (أبو القاسم)، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، الجزائر، 1982.
- سعد الله (أبو القاسم)، أشعار ومقامات ابن حمادوش الجزائري، مجلة الثقافة الجزائرية، عدد 49/1979.
- تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، ص ص 398 ـ 399 و 438 ـ 450.
- نور الدين (عبد القادر)، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، قسنطينة، 1965، ص ص 215 ـ 220.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص163 ـ 164.
- تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص ص 578 ـ 580.

- Colin (G.) Adderrazzâq el-Jezaïri, in, Le Medecin arabe du XII[e] siécle de l'hégire (Thèse à Montpellier) Alger 1905.
- Leclerc (L.) Histoire de la médcine arabe, T II, Paris 1876.
- Leclerc (L.) Kachf er-Romoz, (traduction), Paris 1874.

من مذكرات ابن حمادوش

يوم الاثنين سادس الشهر المذكور (ربيع الثاني 1157 هـ) جاء أوراق من بر النصارى وأنهم لا يريدون فداء المسلمين، وخصوصاً ابن الحاج موسى ونظرائه من الرأسا (الرياس) المشتهر أمرهم، فغضب أميرنا إبراهيم باشا «صانه الله» وحلف أن لا تبقى كنيستهم في الجزائر، وكانت كنيسة عظيمة إن لم يأتوا بهم بالثمن، فصولح عليهم أن تغلق الكنيسة إلى أن يوجهوا منهم من يقوم بما أراد. وإلا هدمت، فغلقوها. وذهب منهم من ذهب وبقي من بقي في دار قسيس الإفرانصيص البكارين، وها نحن منتظرون ما يقع.

وفي حادي عشر منه (شهر جمادى الأولى) موافق عشرة يونيه دخل رجل من آل عثمان سفيراً، يسمى عندهم قبجي، بات في المرسى، ومن الغد طلع راكباً وحده، لم تتوجه له الاختيارية لعلمهم أن ليس تحت مجيئه منفعة. . .

أول ربيع الأول (الثاني عشر مارس 1158) طائفة من القبائل من زواوة نافقوا (ثاروا) على القائد محمد قائد ساباو الذباح. فبعث إلى إبراهيم باشا فأمرهُ بآغة الصبحايحية معه حانبه (فرقة من اليولداش) نحو المائتين يلداش، فهلكت القبائل وبعث يوم الثلاثاء ثالث ربيع الثاني بثمانية وسبعين رأساً على الجمال، وأرجعها من الغد بأربعة عشر رأساً. ونهبوا أمتعتهم وأموالهم. وحرقوا دشورهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم العظيم. . .

وفي يوم الأربعاء ثالث وعشرين (شوال 1145 هـ) مات إبراهيم، ورفع عليه العلامات الخضر في الصوامع، وأوتي به للجامع الكبير وقرأ عليه ثلاثون رجلاً كل واحد حزبين من القرآن وإعادتهما في ساعته، فكان ذلك ختم القرآن مرتين. وأخذ كل واحد ربع سلطاني ذهباً وانصرفوا، وعتق أمة سوداء عند رأسه جالسة إلى صلاة

الظهر، صلي عليه بعد الصلاة وحمل ودفن في المقبرة التي في باب السوق تحت المكتب بإزاء العين . . .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر الشهر المذكور (محرم 1159 هـ) بلغنا خبر باي الغرب المسراتي (مصطفى بن المسراتي) هرب لوهران، وهي في يد النصارى بسبب أوشى له ذمي كان هنا يخدمه حتى حاز تحت يده مالاً كثيراً. بعث له أن فر بنفسك فإن الأمير يطلبك ومع أنه كان مريضاً فلما هو ادعى أنه له عليه مالاً كذباً وبهتاناً (الذي هو يهودي ليبقى المال الذي جمعه تحت يده).

إلى يوم الاثنين آخر يوم من (محرم 1159 هـ) خرجنا لباب الجزيرة، رمى العلج حسن بونبة واحدة ضحى ارتفاعها ثلاثة وأربعون وعمّر المهراز بأربعة أرطال بارود فانشقّ المهراز ولم يعد ولم يصب الغرض، وتعلمت عياناً ما كنت قيدت عن سيدي عبد الرحمٰن الفاسي.

وفي يوم الجمعة (رجب 1159) وقع الصلح بين الجزائر والدانمارك من النصارى، نوع من الفلامنك.

عبد الرزاق بن حمادوش لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال، تحقيق وتقديم أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 1983 ص ص 119 ـ 120 و 236 و 253 و 257

عادة أهل الجزائر ليلة القدر

وعادة متولي الجامع الكبير يفرغ قنطار أو أكثر شمع يفرقه على ثلاثين شمعة خضر ما بين الثلاثة أرطال إلى الأربعة في كل واحدة، ويأتون بهم إلى دار المفتي أو الوكيل، أيهم يحب الظهور، فإذا صلى العصر أخرج ذلك المؤذنون أو غيرهم في أيديهم ويطوفوا بهم البلاد، وأقله إلى دار الإمارة، ويرجعون من طريق أخرى، وأحد الموقتين ينشد بين أيديهم، ويرفعون أصواتهم بالصلاة والسلام على النبي، حتى إذا دخلوا المسجد وزنوا ذلك وركبوهم في حسك من عود أو غيره معدين لذلك، وأشعلوهم مع ما يكثرون من قناديل القوارير، ويحيون الليل كله إلى الفجر، فإذا قرب الفجر أوتروا وقرأوا ما تيسر من الفواتح، ثم أعلموا الناس بالفجر. فإذا ركع الناس الفجر صلوا بغلس، فإذا فرغوا من التسبيح وأخويه المعدين بعد الصلاة، قرأوا حزب الصبح وما يتبع ذلك، فإذا فرغوا أتي موقد القناديل بأحد تلك الشمع أو غير ذلك إلى المحراب، وكان الإمام فيه، دخل هو وخواصه قبل صلاة الصبح مجتمعين في المحراب، فيفتح كتابه ويقرأ من باب ونضع الموازين القسط يوم القيامة إلى آخر الختم، وهما كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان لله العظيم، فيعيدون هذا التسبيح مائة مرة، وفي هذه المدة يرشون ماء الورد حتى يعم الناس فيها، ثم يسكتون ويشرع الإمام في الدعاء المعد لذلك، وقد تقدم في الجزء الأول، وهو: الحمد لله حمد معترف بذنبه إلخ، . فيقرأون من الفواتح ما تيسر، كلها برفع اليدين، ثم ينصرفون.

وهذه عادة الجزائر دائماً، فيذهب الناس إلى خارج باب الواد، قبر سيدي عبد الرحمٰن الثعالبي، نفعنا الله ببركاته، فيحضرون ختم البخاري أيضاً، على هذه الصفة، ويتهيأون إلى العيد، وأنا حضرت، في الموضعين، مع عامة المسلمين.

عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، الرحلة «لسان المقال»
تقديم وتحقيق أبو القاسم سعد الله،
الجزائر، 1983، ص ص 125 ـ 126

أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي

(توفي بعد عام 1211 هـ/1796م)

أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، ينتسب إلى أسرة من بني راشد لها سابقة في الجهاد، فقد حضر عمه فتح وهران الأول (1120هـ/ 1708م)، ولا يعرف عن حياته إلا القليل فهو من مواليد النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، نشأ بمعسكر وتتلمذ على الشيخ محمد بن عبدالله الجلالي متولى المدرسة المحمدية بمعسكر، وتولى وظيف الكتابة للداي محمد البكير باي الغرب (1193 ـ 1211 هـ) (1779 ـ 1796) ودرس لطلبة الرباط أثناء محاصرة الباي لوهران (1203 هـ/ 1789 م).

ترك ابن سحنون بالإضافة إلى كتابه الذي اشتهر به وهو الثغر الجماني. كتاباً آخر ربما يكون كتاب أدب بعنوان «عقود المحاسن» لم تسمح له الظروف بأن يقدمه للباي محمد الكبير.

يقوم كتاب الثغر الجماني على شرح أرجوزة وضعها ابن سحنون في الفتح الثاني لوهران (1206 هـ/ 1791 م) يدور موضوعها حول الإشادة بفاتحها محمد الكبير، مطلعها:

حمـداً لمـن أزر نصـر الـديـن   ودان نـاصـريـه أسنـى الـديـن
وفتـــح الأقطـــار بـــالجهـــاد   حتـــى غـــدت لينـــة المهـــاد

وقد بدأ في نظم هذه الأرجوزة عندما بلغته أخبار محاصرة وهران من طرف الباي محمد الكبير وهو عائد من الحج، بجزيرة جربة، وأتمها مع فتح وهران، مع

شرحها «الثغر الجماني» في الخامس من شهر رمضان من سنة سبع ومائتين وألف. ونال بهذه الأرجوزة تقدير وتقريض علماء عصره، فاقترح عليه بعضهم تسميتها «الدر والعسجد في مناقب الباي محمد» لتكون أقرب إلى مضمون ما تحتويه من فخر وإشادة بالباي محمد الكبير.

بَيَّنَ ابن سحنون طريقته في شرح أرجوزته المعروفة بالثغر الجماني مشيراً إلى ما قد يلاحظ فيه من تناقض بقوله: «كنت شرعت فيه... أوان الشروع في القصيدة، فما وقع من أمر من متعلقات الجهاد إلا نظمته. ولا نظمت شيئاً آخر إلا شرحته حتى تمت القصيدة بتمام. ثم هو بتمام القضيدة. ومن ثم يوجد في آخره ما ظاهره يناقض ما تقدم في أوله لأنَّ الأمر يقع على حسب ما ذكرت أولاً ثم يطرأ ما يغايره. فأثبته غير منبه ولم يقع ذلك إلا قليلاً...».

أخذ ابن سحنون في شرحه لأرجوته بالطريقة التقليدية، فشرح كل بيت بما يناسب من البديع. ثم يشرح الألفاظ والمعاني قبل أن يستطرد في عرض الأحداث وذكر القضايا والطرائف، حتى يكون القاري على بينة من معاني الأرجوزة، وهذا ما أشار إليه بقوله «لسان النظم محصور وأن مؤداه لا بد فيه من قصور، والنثر أسد منه بياناً إذ به يصير الخبر عياناً وبتذليل النظم به تزداد عبارته تبياناً فعزمت على أن أشرح تلك القصيدة...».

يتألف كتاب الثغر الجماني من حيث المواضيع التي تعرض لها والقضايا التي ذكرها من أربعة أقسام وردت متداخلة دون ترتيب لتقيد ابن سحنون بأبيات أرجوزته، الأول تناول فيه حياة الحكام الذين سبقوا محمد الكبير مثل الباي شعبان ومصطفى بوشلاغم وعثمان باي مع ذكر الداي محمد بكداش، واهتم خاصة بذكر جهودهم من أجل استرجاع وهران من الأسبان، بعدها تعرض لسيرة الباي محمد الكبير، فأورد القصائد التي نظمها فيه كل من أحمد القروسي، ومحمد الطيب المازري، ومرتضى الزبيدي، ولم يغفل عن إدراج قصيدة نظمها هو في مدح الباي محمد البكير وفي هذا القسم ذكر ابن سحنون منشآت الباي محمد الكبير مثل مسجده ومدرسته ودار الإمارة بمعسكر. وأشاد باهتمامه بالتعليم وتشجيعه على

اقتناء الكتب ونسخها وحثه على التأليف. دون أن يهمل خصاله الأخرى كرفقه بالرعية وتصديه للمتمردين. وبسط سلطته على الأقاليم البعيدة بنواحي الأغواط وعين ماضي وجبال عمور، هذا ولم يفته في هذا الباب ذكر علاقته بداي الجزائر ومساهمته بفرق من الجند في الدفاع عن مدينة الجزائر ضد الحملة الإسبانية (1775 م) وصلاته الودية مع حاكمي التيطري وقسنطينة وسلطان المغرب مولاي محمد بن عبدالله وبعض أفراد أسرته العلوية مثل مولاي يزيد.

أما القسم الثاني من كتاب الثغر الجماني، فقد خصه ابن سحنون للتعريف بوهران منذ تأسيسها فذكر فيه علماءها وفي مقدمتهم إبراهيم التازي ومحمد الهواري، ومن حاول فتحها من البايات والباشوات وملوك المغرب الأقصى، وتوسع في فتحها الأول على عهد الداي محمد بكداش (1119 هـ/ 1708 م) واسترجاعها من طرف الإسبان بعد ربع قرن في عهد الداي عبدي باشا، فألقى التبعية في ذلك على الباي بوشلاغم الذي قصر في التنسيق مع داي الجزائر، بعدها أفاض في ذكر جهود محمد الكبير من أجل استرجاعها فذكر استعدادته وما أقام من منشآت عسكرية (أبراج، رباطات، فنادق) ومساعيه لأجل تجنيد المتطوعة وتنظيم الجند، وإسناد مهام قيادته إلى أعوانه مثل صهره محمد بن إبراهيم وابنه عثمان، هذا دون أن يهمل مشاركة العلماء (الفقهاء) في هذا الجهد الحربي، وكان في مقدمتهم محمد بن عبدالله الجلالي، ومحمد بن علي، وأبو طالب المازوني الذي التحق بالرباط رغم كبر سنه رفقه ولديه وبمعية مائتي طالب، فأحيا سنة السلف الصالح في الجمع بين التدريس والجهاد، كما ذكر قاضي معسكر الطاهر بن حواء الذي استشهد أثناء الحصار.

أما القسم الثالث من الثغر الجماني فعاد فيه ابن سحنون إلى عرض تاريخ مدينة الجزائر، فذكر قدوم المجاهد عروج إليها واستقراره بها، وجهاد خير الدين ضد النصارى، ونجاحه في إبعاد الخطر وتوحيد البلاد وإخضاع القبائل، وفرض سلطته على كامل البلاد الجزائرية، وبعد ذلك يخلص إلى أخبار وهران ويعود إلى ذكر محمد الكبير وإقراره على بايليك الغرب من قبل حاكم الجزائر بابا حسن، وتطور العلاقات الجزائرية الإسبانية وتوقيع اتفاق الهدنة بين باشا الجزائر وملك

إسبانيا، دون أن يهمل بعض الأحداث الداخلية مثل عصيان صماته، وموقف الباي محمد الكبير من المتعاونين مع الإسبان من القبائل المقيمة بالقرب من وهران ودخوله إلى وهران بعد جلاء الإسبان عنها وإرساله مفاتيحها إلى باشا الجزائر ليقدمها للسلطان العثماني.

أما القسم الرابع من الثغر الجماني فقد خرج فيه ابن سحنون عن الموضوع الرئيسي وهو تاريخ وهران ومآثر حاكمها محمد الكبير إلى مواضيع تتصل بالثقافة العامة والاطلاع الشخصي، مثل الخيل والصيد والفلك والنجوم والأهرام ونيشان الريشة وسيرة صلاح الدين الأيوبي وهولاكو وتيمورلانك. وأصل البربر ودولهم، ومجادلة الإسبان في قضايا دينية مسيحية. ولعل أطرف ما في هذا القسم هو ما ذكره ابن سحنون عن الثورة الفرنسية التي عاصرها ووصلت إليه أخبارها وقد أشار إلى ذلك بقوله: «ولقد قام في هذه السنة... الفرنج... عن جميع علمائهم (قسيسيهم) فنفوهم من البلاد والسبب في ذلك أن ملكهم كثر مصروفه... فاتصل الشنآن بينهم واتفقوا على أن لا يسود أحدٌ أحداً بعلم ولا غيره وأن الناس كلهم سواء لا شريف ولا دنيء ومتى ظلم أحد أحداً انتصروا له جميعاً... وأبطلوا جمع المكوس والوظائف السلطانية وأخذوا جميع ما بأيدي علمائهم (القسيسين) من الأحباس والأموال ونفوهم من البلد... ثم قتلوا ملكهم وقاموا قوة واحدة على من يعاديهم».

مما سبق يتضح لنا أن ابن سحنون أهتم خاصة بالأحداث التاريخية من مصادرها المختلفة فنقل عن سابقيه وسجل روايات معاصريه فكان مؤرخاً ناقلاً وكاتباً مقيداً للأخبار. التزم الحقيقة وتقيد بالصدق ولم يخف عاطفته الإسلامية، فأكد على فضل الجهاد الذي ارتبطت به عائلته منذ فتح وهران الأول، واستنكر مظالم الإسبان ضد المسلمين وأظهر فضائل العلم ومساهمة العلماء، كل ذلك في أسلوب أدبي تغلب عليه عبارات السجع الخفيف الذي لا يفسد المعنى وتتخلله قصائد المدح، مما يظهر ابن سحنون أديباً شاعراً متذوقاً ومؤرخاً مدققاً.

يعتبر كتاب الثغر الجماني أهم مصدر عن حياة وأعمال محمد الكبير وأوضاع

بايليك الغرب على عهده. ومن المراجع الأساسية للتعرف على الحياة الثقافية والاجتماعية للغرب الجزائري، رغم بقائه بعيداً عن أيدي القراء. إذ لا توجد منه إلا نسخ نادرة منها مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 5114، وأخرى بالملكية التيمورية بالقاهرة تحت رقم 2186، ومخطوطة خاصة في ملكية الشيخ المهدي البوعبدلي الذي قام بنشرها ووضع مقدمة مطولة لها، ونشرها ضمن منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر سنة 1973 (477 ص) وبذلك أصبح الثغر الجماني في متناول القراء.

المراجع المعتمدة:

- ابن سحنون الراشدي (أحمد بن محمد)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، قسنطينة، 1973.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص ص 355 ـ 356.

انتظام الحكم في الجزائر أثناءَ العهد العثماني

ثم إن دولة الأتراك ضربت الأتراك بجرانها، وألقت بهذا المغرب الأوسط كلكلها، ومدت رواقها على ما بين وجدة إلى منتهى أعمال تونس، واتصلت بأطراف عمالة الخليفة في القديم فدوخوا عصاتها. ودانت لهم أهلها. فانقطعت عروق الفتن، وذهبت مواد الشقاق ولم يبق بها صائل غيرهم، ولا ثائر من سواهم، واختصروا ما كان يكثر غيرهم لطلب الملك من الثورة بالقبائل وإقامة الحروب وإثارة الفتن الجلائل، فصار ذلك مقصوراً على دار الملك، لا يتعداها إلى الزقاق وكانوا إذا قام أحد على السلطان فقتله في داره. وكان له أنصار يحمُونه تولى مكانه. فإن مات السلطان بغير قتل اجتمع أهل الربط والحل فتشاوروا فيمن يولونه الملك، حتى يتفق رأيهم على أحد فيقيمونه سلطاناً. ثم ذهبت الشحناء كلها فصاروا يتوارثون السلطة بإيصاء السلطان بها إلى من يختاره منهم، وكانوا قبل ذلك يأتيهم الباشا من عند الخليفة كل عام، فإذا تمت السنة رجع إلى بلده ويحمل معه جميع ما في الخزنة من المال، فأضر ذلك بالدولة لكونهم يحتاجون إلى بقاء الأموال لديهم لمرتب الجند وتحصين البلاد وغير ذلك، وربما مات السلطان فيبقون فوضى بدون سلطان حتى يأتي الخبر عند السلطان، وهم يخافون من توثب العدو عليهم. فكتبوا إلى السلطان يشكونه ذلك، فرضي منهم بالخطبة والسكة وفوض إليهم الأمر في تولية السلطان عليهم، ولما أمر أمرهم واستقر قرارهم جعلوا قواعد عَلى وفق قواعد السلطان الأعظم. وفرضوا على الناس المغارم شتاءً وصيفاً. وعينوا للجند عطاء مخصوصاً يتوصلون إليه بالتدريج ومن بلغ ذلك القدر المخصوص لم يكن أن يزاد عليه شيء جل أو قل، وضربوا عليهم البعوث تخرج في كل سنة أواسط إبريل إلى عمال الجباية فمنها من يرجع إلى الجزائر بعد أربعة

أشهر ومنها من يرجع بعد سنة وغير ذلك. وعينوا لكل ثغر في بلادهم عدداً مخصوصاً من الجند يخرج إليه كل سنة فيمكث به سنة ثم يرجع بعد إتيان غيره، وهكذا، فركدت بذلك رياح الفتن. وشلت أيدي العداة ونسخت أسماء الأمم البربرية في جميع المغرب الأوسط فلا هوارة ولا مغراوة، وصار الجميع مشتركاً في اسم القبائل والأمر لله وله البقاء الدائم.

أحمد بن سحنون الراشدي
الثغر الجماني في أبتسام الثغر الوهراني
تقديم ونشر الشيخ المهدي البوعبدلي
قسنطينة، 1973، ص ص 441 ـ 442.

الثورة الفرنسية كما وصفها ابن سَحْنون الراشدي

ولقد قام في هذه السنة منهم الجنس المعلوم بالفرانسيس وهم الفرنج على جميع علمائهم فنفوهم من البلاد إلى بلاد الإصبنيول وغيرها. وقتلوا ملكهم، وتركوا الناس فوضى لا ملك لهم ولا عالم، فهم يتصرفون كيف شاءوا في أمور الدين والدنيا، والسبب في ذلك أن ملكهم كثر مصروفه حتى ضاق عنه ما في بيت ماله وخاف من الفضيحة بين الملوك فاستشار وزراءه فأشاروا باتخاذ رقاع مطبوعة لا يسوغ بيع ولا شراء ولا نكاح ولا شيء من المعاملات إلا بها، وعين لها ثمناً قليلاً لكن يجتمع منه ثراء كثير، ففعل ذلك. فلما وقف الناس عليه أنكروه وأعلنوا بعدم قبوله. فلما بلغ الملك ذلك بعث لهم فقدم عليه من كل بلد أربعة فخرج عليهم وكلمهم في ذلك فقالوا هذا لا نقبله ولكن هلم نعمل أمراً فيه قضاء دينك والإبقاء على ملكك، وهو أن يحمل إليك كل واحد ربع ما بيده جل أو قل، فتراضوا على ذلك وكانوا على ثلاث فرق: فرق رعية، وفرقة علماء، وفرقة الأكابر الذين لا ينالهم مغرم ولا غيره، فلما وقع ذلك الاتفاق انخزل عنه العلماء والأكابر، فوقع شنآن آل إلى أن اصطلحوا على أن يكتب كل من أراد شيئاً مراده في رقعة ثم يجمعون الرقاع ويحسبونها فإن خرجت رقاع الرعية أكثر عمل بقولهم ففعلوا، فإذا رقاع موافقي الرعية أكثر فاتصل الشنآن بينهم، وخرج الأمر عن الضبط وتغلب العوام فحملوا يوماً على برج لهم عظيم شديد التحصين بحيث لا يرام فهدموه في أقرب مدة وتغلبوا على ملكهم، فبقي تحت يد قهرهم فأجروا عليه رزقاً يكفيه مؤونته وفطموه عن الأمر والنهي. واتفقوا على أن يكون الأمر للديوان بأن يجتمع كل سنة اثنان من كل بلد فيبرموا من الأمور ما شاءوا إبرامه ويفترقون، وازداد التضييق على ملكهم فهرب منهم فظفروا به وقد كاد أن ينجو ثم آل الأمر أن عزلوه عن الملك بالكلية وصيروه من جملة السوقة لا يلقب بألقاب الملك ولا

غيرها ليكون لهم العذر إذا قتلوه بأنهم لم يقتلوا ملكاً وإنما قتلوا شخصاً من عوام الناس، واتفقوا على أن لا يسود أحد أحداً بعلم ولا غيره، وأن الناس كلهم سواء لا شريف ولا دنيء، ينادي بعضهم بعضاً بأخي. ومتى ظلم أحد أحداً انتصروا له جميعاً فأزالوا ظلامته وأخذوا الحق من الظلم، وأبطلوا جميع المكوس والوظائف السلطانية، وأخذوا جميع ما بأيدي علمائهم من الأحباس والأموال ونفوهم من البلاد فتفرقوا في البلاد النصرانية فقاموا بحقهم وبقوا هم بلادين يفعل كل منهم ما أراد من جهة الدين ولا ينكر عليه، ثم قتلوا ملكهم وقاموا قومة واحدة على من يعاديهم. فأخذوا أكثر ما يجاورهم من بلاد الإنبلاذور وإذا ظفروا ببلد قالوا لأهلها: إنما قمنا لنخلصكم من الظلم فكونوا على مثل رأينا. فتسارع الرعايا إلى موافقتهم. وبعثوا إلى جميع أجناس النصارى يأذنونهم بالعداوة وقد كان الملوك عزموا أن يقوموا عنهم جميعاً ليردعوهم عن سلطانهم فلما رأوا فعلهم وتغلبهم على من حاربوه تقاعدوا عنهم وصار كل يطلب أن يكفوا عنهم وهم إلى الآن على ذلك يبلغنا العجب من أخبارهم. والله المسؤول أن يبقي بينهم كيدهم. ويشغلهم بأنفسهم آمين.

أحمد بن سحنون الراشدي
الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني
تقديم ونشر الشيخ المهدي البوعبدلي
قسنطينة، 1973، ص ص 224 ـ 226

أحمد بن هطال التلمساني

(ت 1219 هـ/ 1804 م)

أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن هطال التلمساني، تولى الكتابة لدى الباي محمد الكبير باي الغرب وأصبح من مقربيه ومستشاريه، فقد أوفده الباي في بعض المهام، منها سفارة إلى سلطان المغرب رفقة قاضي المحلة ابن سحنون، حمل فيها هدايا للسلطان العلوي بهدف السماح للباي باشتراء ما يحتاجه من أسلحة وعتاد استعداداً لفتح وهران، فوفق في مسعاه وعاد من جبل طارق بحمولة من البارود تقدر بقنطارين ونصف كما رافق ابن هطال الباي محمد الكبير في غزواته لعين ماضي والأغواط وجبل عمور (1199 هـ/ 1785 م) وكتب عنها وصفاً دقيقاً هو موضوع هذه الترجمة.

بعد وفاة الباي محمد الكبير (1212 هـ/ 1798 م) حافظ ابن هطال على منصب الكتابة لدى ولده وخلفه عثمان باي، وظل في هذا الوظيف عند تولي الباي مصطفى بن عبدالله العجمي بايليك الغرب (1215 هـ/ 1800 م) وقد صاحبه في حركته ضد الشريف الدرقاوي وأتباعه، ولقي حتفه مع العديد من رجال المحلة في واقعة «فرطاسة» بين وادي مينا ووادي العبد في أوائل ربيع الأول من عام 1219 هـ/ 1804 م).

عرف محمد بن هطال بمصنفه الذي سجل فيه وقائع حملة محمد الكبير باي الغرب على الجهات الجنوبية والأقاليم الصحراوية التابعة لبايليك وهران لإخضاع نواحي مثلالة وعين ماضي والأغواط وللحد من عداء التجانيين بتلك الجهات. وقد كان الدافع لابن هطال على تسجيل وقائع هذه الحملة التي اكتسبت طابع رحلة

حسب ما هو مسجل في عنوانها، إعجابه بأعمال محمد الكبير باي الغرب وتقديره للتاريخ باعتباره مسجلاً لأعمال الحكام ومُخلِّداً لأثارهم، وهذا ما صرح به في قوله: «إذ به (أي التاريخ) عرفت به قدماء الأمم وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم. فاشتغلت به علماء كل قطر وصنفت به أدباء كل عصر، . . . وقد أردت أن أذكر منه نبذة أخذهم بها حضرة قامع المبغضين ومدوخ المكارين. . . السيد محمد باي بن مولانا السيد عثمان باي. . . مقتصراً على ذكر خروجه إلى جهة القبلة عام تسعة وتسعين ومائة وألف مقدراً بالسوائع مراحله ومبيناً منازله ومناهله. . .»، وقد جاءت رحلة بن هطال متميزة بالتسلسل في العرض والدقة في الوصف بحيث حدد سير المحلة باليوم والساعة وضبط أسماء الأماكن ومواقع الآبار والعيون وسجل بالأرقام ما تحصل عليه الباي من الغنائم وما تسلمه من جبايات دون إهمال لحالة السكان ووضعية العمران وعلاقة الرعية بالحكام، وهذا ما جعل رحلة ابن هطال مصدراً مهماً للتعرف على أوضاع دواخل وهران وعلى طبيعة العلاقة بين السلطة (البايليك) والسكان (الرعية).

التزم ابن هطال في رحلة محمد الكبير بطريقة تسجيل الخبر التقليدية، ولم يتردد في إثبات العديد من الأبيات الشعرية التي قيلت في مدح الباي محمد الكبير، فقد جاء في قصيدة أوردها للحاج أحمد بن محمد بن علال القرومي ما يدل على تعلق ابن هطال ببليغ الشعر كهذين البيتين في الإشادة بمسجد معسكر الذي بناه محمد الكبير:

ألق العصا وفك رحال ركائبي   بالمسجد المنشي بأم العسكر

المحكم التشييد في شرفاته   فتراهُ يُحسن كالرياض الممطر

هذا ولقد كان أسلوب ابن هطال مرآة تعكس مستوى وثقافة عصره، إذ تميز بالتكلف واستعمال العبارات الركيكة والتعابير الضعيفة مع الالتزام بالمحسنات اللفظية مثل قوله في مستهل رحلته: «فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً ومخرج الأرواح ومصير الأشباح لها وطناً ومفضل الإنسان بالنطق المبلغ إلى كل مبنىٰ. . .».

نشر ڤورڤوس (Gorguos) ترجمة فرنسية لرحلة ابن هطال بالمجلة الإفريقية (18) وظل الأصل العربي مخطوطاً في عدة نسخ منها نسختان في المكتبة الوطنية الجزائرية إحداهما نسخت من طرف محمد بن البشير آقراي التلمساني مؤرخة في 29 ذو القعدة 1182، وقد نشر الأستاذ محمد بن عبد الكريم مؤخراً الرحلة محققة على عدة نسخ بالمكتبة الوطنية الجزائرية ووضع لها مقدمة ضافية تناول فيهاحياة محمد الكبير ومآثره.

المراجع المعتمدة:

- ابن هطال التلمساني (محمد): رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم. القاهرة 1969.
- ابن سحنون الراشدي (أحمد بن محمد) الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي. قسنطينة 1973.
- المزاري (الآغا بن عودة): طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحيىٰ بو عزيز، بيروت 1990، الجزء الأول، ص ص 106 و 304.
- شاوش، (الحاج محمد بن رمضان) باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص ص 528 ـ 529.

- Bresnier (L.J.) Expédition de Chellala par le Bey d'Oran Mohammad El-Kebir, in. Revue Africaine T 4/1859-1860, pp. 175 - 186.
- Deligny et Theuma, Relation de l'expédition du Bey Mohammed El-Kebir Contre Chellala, in. Moniteur Algérien, n° 806 - 809, du 5 au 20 février 1857.
- Gorguos (A.) Notice sur le Bey d'Oran Mohammed El-Kebir, in Revue Africaine n° 6 - 7/1857. pp. 454-463 et 28 - 46.
- Gorguos (A.) Expédition de Mohammed El-Kabir Bey de Mascara, dans Les Contrées au Sud, (traduction), in Revue Africaine, T.3/1858, pp. 51-185 et 246, T4/1859 - 1860, pp. 347, 357.

حملة محمد الكبير باي الغرب على عين ماضي والأغواط

ثم أصبح مرتحلاً قاصداً «عين ماضي» فوصلها في ثلاث ساعات، فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت. وبنوده قد أقبلت، فزعت قلوبهم، وطاشت عقولهم، وغلقوا الديار وعلوا الأسوار وهم مصرخون، وبالطاعة وطلب الشريعة معلنون، فنزلت «المحلة» بقرب السور، بنحو المائة ذراع. . .

ثم إن أهل المدينة مكثوا ساعة لا يرى شخصهم ولا يتبين خبرهم وتحير بعض الناس في أمرهم، حيث رآهم لم يخرجوا خوفاً أن يتغير السلطان عليهم، فيوقع بهم، وبعضهم فارح لتأخرهم. يريد أن يكون له نصيب في غنيمتهم كاللواتي قبلهم، فبينما الناس مترددون في أمرهم، شاكون في قدومهم، وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم. مقدمون النساء أمامهم، وتلك كانت عادتهم، فلما دخلوا إلى «المحلة» أمر السلطان من أوقف النساء بمكان بعيد من فسطاطه مستنكبين عن بساطه، وأذن للعلماء في التقدم، فتقدموا وسلموا عليه، وسألوه أن يرفق بهم ويشفق من حالهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى التي فرضها عليهم، فإنهم لم يقدروا عليها ولا طاقة لهم بدفعها. فلما سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم، وجعل لهم «لزمة» أقل من الأولى وأعطى لنسائهم سوار فضة لكل أمرأة منهن، ورجعوا، فدخلوا مدينتهم فارحين مستبشرين بما أنعم عليهم السلطان.

ويوم نزوله على «عين ماضي» قدم أولاد يعقوب «القبالة» بإبلهم وخيلهم التي اشترطها عليهم، فقبلها منهم، وبالغد أصبحت أهل «عين ماضي» يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدراهم، فدفعوا جزءاً وكملوا الباقي في اليوم الذي بعده، وتعذر عليهم طرف منها. فتفضل عليهم بترك خادم وفرس وحيث رأوا

«المحلة» مقيمة بساحتهم قالوا: فهؤلاء لقد قصرنا في ضيافتهم. فأخرجوا مائة حمل من الشعير: علف للمحلة ثم أقام بها يوم الجمعة منتظراً لقدوم «بني الأغواط» باللزمة، فقدموا في ذلك اليوم، وقد أتوا ببعضها. فدفعوه، وذلك خمسة آلاف ريال «بوجه» وأربعون خادماً. ورجعوا لإكمال الستين خادماً الباقية من المائة، والمائتين جملاً وخمسين جملاً. وأوعدوه بأنهم سيبعثون أربعة من الخيل التي سرقها «المخاليف» تصله في منزله هذا وما بقي من اللزمة، فلم يقدروا على لحوقه في الطريق بها وإنما يحملونها جملة إلى «معسكر» وإن قدرنا على لحوقه فتبارك الله، فهم كذلك وإذا بخيل من «بني ميزاب» قد لحقوا إلى «المحلة» وتركوا عسكرهم نازلاً على «بني الأغواط» طامعين أن ينقض سيدنا عهده مع «بني الأغواط» ويخرجهم من بلادهم ويسلمها «لبني ميزاب» فلم يلتفت لكلامهم ولم يسمع لمقالهم، فلما يئسوا منه وتحققوا أنه غير منقض عهد «بني الأغواط» سألوا منه أن يجعل بينهم وبينهم صلحاً، ويأمرهم أن يطلقوا من كان محبوساً عندهم من «بني ميزاب» فكتب لـ «بني الأغواط» كتاباً: «أن أطلقوا «بني ميزاب» الذين حبستم ولا نسرح أحداً من أولادكم، إلا إذا أتاني كتاب من قبل «بني ميزاب» وأنكم سرحتم أولادهم، وأما الصلح فلا أحملكم عليه فأنتم أعلم بما يصلح بكم والسلام».

أحمد بن هطال التلمساني

رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري،

تحقيق محمد بن عبد الكريم، القاهرة، 1969، ص ص 72 ـ 75.

محمد بن عبد السلام الضعيف
(ت 1233 هـ/ 1818 م)

محمد بن عبد السلام بن أحمد بن آمحمد الضعيف الرباطي. ولد بالرباط عام 1165 هـ/ 1752 م من أسرة مغربية ذات أصول أندلسية، عرف بالعلم والصلاح، وعاش حياة متقشفة، وتأثر منذ صغره بوالده الذي كان يعتبر من المرابطين، وأخذ العلم عن مشايخ عصره بالرباط وفاس وتطوان (1191 ـ 1213 هـ)، وتتلمذ خاصة على الفقيه ابن عبد الرحمن الحايك بتطوان. والشيخ أبي عبدالله محمد بن أبي القاسم السجلماسي بالرباط والفقيه عبد القادر بن شقرون والفقيه بن كيران. . .

ومن أهم الكتب التي أجيزَ فيها ألفية آبن مالك وصحيح البخاري ولامية الزقاق، ومتن الشيخ خليل، ومتن ابن السبكي، وكتاب الشفاء للقاضي عياض وحكم بن عطاء الله في التصوف.

عرف محمد الضعيف بالتواضع والتقوى ومحبة الفقراء والتعلق بالصالحين، فكان له ميل إلى الطريقة الوزانية ولفئة الأشراف الأدارسة الوزانيين. ولبيت الشريف الريسوني خاصة، ولعل هذا الميل هو الذي دفعه إلى زيارة العديد من أضرحة الأولياء مثل المولى عبد السلام بن مشيش بوزان، وأبي شعيب بدكالة، وعبدالله بن ياسين، والمولى إدريس بفاس كما قام بالتجول في ربوع المغرب والتعرف على حواضره مثل مراكش (1189 هـ) وتطوان 1198 م وفاس ومكناس ووزان (1209 هـ).

حظي محمد الضعيف بمحبة العامة لنفوره من الظلم وكرهه للتعسف، ونال تقدير العلماء ورجال المخزن من عمال وقواد الرباط وسالا ومنطقة الغرب لمواقفه الجريئة وخصاله الحميدة.

اكتسب محمد الضعيف معرفة واسعة بأمور الفقه وعلوم العربية لاتصاله الدائم بالعلماء ومواظبته على المطالعة وقدانعكس ذلك في تصنيفه شرحاً على صفي الدين في علم البديع. وأظهر ميلاً لقراءة كتب التاريخ وجمع المعلومات التاريخية حول بلاد المغرب، وقرض الشعر الذي نظم فيه عدة قصائد في المدح والهجاء والتأبين. فمدح الرسول ﷺ في قصيدته (روضة العشاق) وأشاد بالشيخ الدرعي عندما أخذ عنه الورد بفاس (1213 هـ) وأبَّنَ الشيخ أبا شعيب عندما زار ضريحه بدكالة. وهجا القائد أحمد بن علي الريفي الذي ثار ضد السلطان مولاي عبدالله بن إسماعيل قرب سيق، وشهّر بالقائد عبدالله بركاش لظلمه للناس واستبداده بالرعية.

عرف محمد الضعيف بكتابه في التاريخ الذي حمل اسمه (تاريخ الضعيف) الذي أطلق عليه البعض تاريخ الدولة السعيدة، ويعود هذا الاختلاف في تسميه الكتاب لخلوه من العنوان، ولعل ذلك سببه أن الضعيف لم يتمكن من إتمامه فتركه في شكل مسودة أولية بدون تقديم أو خاتمة وبه فراغات وبياضات قد تكون أماكن لتواريخ لم تحقق كان المؤلف ينوي الرجوع إليها لإتمامها، أما السبب في عدم إتمام هذا الكتاب فيعود إما لضياع جزء من الكتاب أو أنه لم يكمله أصلاً. وهذا ما نرجحه اعتماداً على أسلوب الضعيف في جمع الخبر. فقد قضى في جمع مادة كتابه ونسخها مدة تزيد على عشرين سنة، إذ بدأ بالبحث عن المعلومات وتسجيل ما توفر لديه منها مع مطلع عام 1201 ليتوقف سنة 1232، عند أحداث عام 1223، وقد مر أثناء ذلك بأربع مراحل. الأولى سجل فيها المعلومات التي أخذها من زهر الأكم وغيره بمدرسة الشراطين بفاس (1201 هـ) والثانية كتب فيها أحداث عهد مولاي محمد بن عبدالله وبداية حكم مولاي سليمان (1169 ـ 1211 هـ) معتمداً فيها أساساً على الحاج محمد المسناوي، والقادري، وعلى مشاهداته وبعض الروايات التي انتهت إليه، أما الثالثة فتتعلق بالنصف الأول من عهد مولاي سليمان واعتمد فيها أساساً على شاهداته وعلى بعض الروايات التي استقاها من الشخصيات التي كان له اتصال بها ودونها بين (1221 ـ 1222 هـ) والمرحلة الرابعة اقتصر فيها على مشاهداته الشخصية وبعض الروايات التي سجلها

نقلاً عمن عاشوا الأحداث وقيدها خلال سنتي (1232 ـ 1233 هـ/ 1817 ـ 1818 م).

مما سبق يتضح أن كتاب الضعيف يقتصر على تاريخ الدولة العلوية منذ نشأتها (1040 هـ/ 1631 م) إلى منتصف عام (1233 هـ/ 1818 م) أي لفترة زمنية تناهز القرنين مع انقطاع لمدة اثنتين وعشرين سنة (1124 ـ 1146 هـ). وقد وزع الضعيف مادة كتابه حسب حكم السلاطين العلويين وهم مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل وأحمد الذهبي وعبد الملك وعبدالله وعلي الأعرج والمستضيء ومحمد بن عبدالله، أما المصادر التي اعتمدها وهي عديدة فقد رجع في تأريخه لحكم الأسرة العلوية إلى كتب التاريخ المتوفرة لديه وهي زهرة الأكم لعبد الكريم الريفي التي نقل منها حرفياً فقرات كثيرة، ونشر المثاني والتقاط الدرر لمحمد الطيب القادري. والدر السني لعبد السلام القادري، والدرة المكنونة في الدولة الميمونة (العلوية) للعربي بن عبد السلام بن أحمد الفيلالي، ونزهة الحادي لليفرني، ودوحة الناشر لابن عساكر، والمحاضرات لليوسي، والتعريف المفيد لابن العباس أحمد بن فتوح، وروضة النسرين في أخبار بني مرين وغيرها، كما رجع إلى التقاييد والكتابات الخاصة للطيب الفاسي، والزرويلي، والفقيه عمر دعلان، وعمر بن محمد الفاسي، كما انتفع بمشاهداته وبالرسائل الرسمية والمكاتبات الشخصية والروايات الشفوية التي تحصل عليها أو أخذها على من تعرف عليهم من الشخصيات مثل البطاح الرباطي. وقاسم باينا. ومحمد الكاوزي.

جاء كتاب الضعيف على شكل فقرات متقطعة وتقاييد مستقلة لا يربط بينها سوى الترتيب الزمني حسب الأيام والشهور والسنوات، ولم يحد من تواتره سوى تلك الإضافات التي سجلها خاصة في الجزء الأول من الكتاب، والتي كان ينوي تصحيحها ووضعها في مكانها، هذا وقد ترتب على اعتماد الضعيف في كتابه على التسلسل الزمني (الكرونولوجي) اضطراب من حيث طبيعة المادة التاريخية فجاءت الأحداث السياسية والعسكرية الإقتصادية والعلمية والطبيعية متداخلة، ففي الفقرة الواحدة نجده يجمع بين بيعة السلطان أو خلعه وأحداث الزلازل والخسوف والوفيات والحروب، كما أن الأخذ بالعامل الزمني أدي به إلى محاولة إيجاد رابطة

بين ما يجري في الأرض وهيئة الأبراج السماوية دون علة واضحة، أو دلائل صحيحة تبرز ذلك.

ومما يلاحظ أن الضعيف فيما سجله من أحداث حاول تجاوز الوقائع الآنية إلى فهم الأوضاع بنظرة شاملة. الهدف منها إصلاح أمر الأمة ورفع شأنها. فهو مع إبدائه الولاء للأسرة العلوية وعدم تعليقه على الأحداث إلا نادراً. يحبذ استعمال القوة بغرض الإصلاح ولا يخفى إعجابه بالسلاطين الأقوياء الذين حافظوا على وحدة المغرب ومصالح سكانه، ويحضهم بعبارات التقدير لأنهم حققوا ما كان يصبو إليه الناس من تحرير للثغور من الإسبان وجمع لشمل الأقاليم المغربية وإشاعة الأمن والعدل بها، هذا ولعل ما اختص به كتاب الضعيف دون سائر كتب تاريخ المغرب هو عدم اقتصاره على الأحداث السياسية والعسكرية ومآثر السلاطين وأعمالهم، وإنما اهتم بالإضافة إلى ذلك بالقضايا الاقتصادية والعلمية وشؤون الخاصة وقضايا الحياة اليومية مثل الزيارات والأفراح والولائم والزواج والطلاق والولادات والوفيات، والمكوس وحالة المرضى وافتداء الأسرى. ولم يفته إحصاء الكوارث والأوبئة والمجاعات وذكر الأمطار والثلوج والرياح والزلازل والكسوف وظهور الأجرام السماوية، فكان كتابه بذلك سجلاً للمجتمع المغربي في حيويته وتفاعله ومظاهره الرسمية والشعبية، وهذا ما يجعل منه مصدراً أساسياً ومرجعاً متميزاً في تاريخ المغرب الأقصى الحديث، يشد القارىء إليه بأسلوبه المشوق الذي جمع العبارات الفصيحة والتراكيب الدارجة، ويدفع الباحث لتفحصه لكونه تعبيراً صادقاً عن ثقافة المجتمع وصورة حية لواقع الناس بأقوالهم وعاداتهم وتصرفاتهم التي حرص الضعيف على نقلها كما سمعها أو رويت له.

ظل تاريخ الضعيف رغم أهميته مخطوطاً يصعب الرجوع إليه والانتفاع به، إلى أن تمكن أخيراً الباحث أحمد العماري من تحقيقه على عدة نسخ مخطوطة بالرباط وسالا وتطوان، ووضع عناوين فرعية لفقراته مع مقدمة وفهارس وقوائم بالمراجع المعتمدة في التحقيق. وجداول عديدة للأحداث والأوبئة والأعلام والأماكن.

المراجع المعتمدة:

- الضعيف الرباطي، (محمد)، تاريخ الضعيف أو تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، الرباط. 1987.
- بوجندار، (محمد)، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط (مخطوط).
- دليل مؤرخي المغرب، ط 2. ج 1، ص 137 _ 138.
- بن عدادة، (آسيا)، دراسة وتحقيق زهر الأكم لعبد الكريم بن موسى الريفي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص ص 13 _ 22.
- Lévi - Provençal (E.), Historiens des chorfa. E. larose, Paris 1922, pp. 213 - 214.

من واقع العلاقات المغربية الجزائرية

وفي سنة ثلاثة وأربعين المذكورة (1043 هـ/ 1633 م) بعث قائده بو بكر الوديني مع القائد الطاهر القليعي والشيخ منصور بن عثمان إلى ناحية انكاد في جملة من العساكر والأجناد ونهضوا إلى وجدة وأحوازها وأطاعتهم بنو يزناسن وجهاتها ثم خذلهم العرب وهربوا وأرادوا بهم المكر والخديعة كعوائدهم، ورجعت العساكر إلى أمير المؤمنين أبي محمد عبدالله. . .

وفي هذه السنة (1146 هـ/ 1636 م) بعث أمير المؤمنين مولاي عبدالله قائده الجلالي الصفار إلى بلاد تقرارين وتوات وقبض منهم ما يلزمهم.

وبعث السلطان كتاباً لعياد على شأن الباي عصمان ولد الباي محمد المعسكري وذلك أنه إن جاز وجدة فليقبضوا جبايتها وإن لم يجزها فيعلمونه، وكان السلطان في ابتداء الإمارة تسلم وجدة من الباي محمد المعسكري ثم بعد موته ندم عليها وأراد إرجاعها. . .

وفي سنة أربع وستين وألف (1064 هـ/ 1653 م). نهض مولاي بن محمد الشريف لناحية تلمسان وما حولها من العربان، فأوقع بالترك على ظاهر تلمسان وقتل منهم جملة وفر كبيرهم، وأوقع بأعرابها بني عامر وغيرهم، ثم كاتبه رئيس الترك الباشا عثمان الصطنبولي مع ديوان الترك برباط جزائر مزغناي من إنشاء المحجوب الخضري. . .

وفي يوم الخميس 17 جمادى الثانية عام (1220 هـ/ 1805 م) ورد كتاب السلطان على أهل الرباط بأن أهل تلمسان وفدوا بالبيعة على مولانا سليمان، وأتوا مع مولاي العربي الدرقاوي وفي الغد زين سوق الرباط وسلا وتحزموا للعب بالبارود.

وفي يوم الجمعة جاء كتاب السلطان يعلم أهل الربط وسلا بأن أهل تلمسان ومستغانم والبليدة ووهران أنهم وفدوا على السلطان بالبيعة وقتلوا الترك، وخرجوا الانفاض بالرباط وسلا. وفي يوم السبت زينت أسواق العدوتين لأن ولد الباي محمد وهو الباي الحسن صاحب معسكر ووهران ومستغانم والبليدة بعث له باي الجزائر وهو مصطفى علي أن يطلع بالحركة لتونس، فأبى وخاف إن خرج يعقبه ابن الشريف، فوجه باي الجزائر عمارة التركي على أن يطلع الباي الحسن أو يقطع رأسه ويتولى عمالته عمارة المذكور، فكتب لعرب أهل الواسطة وندبهم لبيعة مولاي سليمان.

محمد الضعيف الرباطي
تاريخ الدولة السعيدة أو تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط 1986، ص ص 113، 115، 303، 377.

محمد أبو راس الناصري المعسكري

(ت 1238 هـ/ 1823 م)

محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن ناصر الجليلي المعسكري، ولد بناحية جبل كرسوط حوالي 1150 هـ/ 1737م. من عائلة فقيرة، اشتغل أبوه بتعليم القرآن، اصطحبته عائلته إلى متيجة حيث فقد أمه. وبعدها انتقل مع أبيه إلى حوز مجاجة، وبعد أن توفي أبوه كفله أخوه الأكبر عبد القادر وذهب به إلى المغرب قبل أن يستقر به المقام بمعسكر.

بدأ محمد بن راس تعليمه بالكتاب بمتجية ثم بمجاجة، وحفظ القرآن عندما كان مقيماً بالمغرب. وعندما عاد إلى معسكر تتلمذ على الشيخ عبد القادر المشرفي ولازمه وخدمه مدة، ثم انتقل إلى الريف حيث تزوج واشتغل بالتعليم وتولى القضاء مدة سنتين، ثم عاد إلى معسكر ليقيم بها ستًّا وثلاثين سنة. واشتهر أثناء ذلك بسعة اطلاعه. وبتآليفه وأسندت إليه مهمة التدريس كما تولى الإفتاء فترة ثم عزل منه عام 1217م. ثم خلف أستاذه عبد القادر المشرفي في إلقاء الدروس، وقد بلغ عدد طلبته في الحلقة سبعمائة وثمانين مستمعاً. وظل طيلة حياته التي اتصفت بالتقشف والحرمان يشتغل بالتدريس والتأليف حتى وافته المنية عن سن تناهز التسعين عاماً. (1238 هـ/ 1823 م). وقد أبّنه محمد بن يوسف الزياني في دليل الحيران بقوله: «وفي وقته (أي زمن الباي حسن آخر بايات وهران) مات مجدد القرن الثالث عشر ذو التآليف العديدة، والتصانيف المديدة. الشريف الأمجد، العلامة الفرد الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن ناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الجليل الراشدي المعسكري

والذي ليس له نظير ولا مثيل، يوم الأربعاء خامس عشر شعبان سنة 1238 هجرة من له العز والشرف وصلّى عليه العلامة الأسد الهائج فريد وقته الشيخ أحمد الدايج ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر فنسبت له العقبة وبها اشتهر. وعلى ضريحه قبة نفعنا الله به وأورثنا منه محبة وقرة».

انتقل محمد بن أبي راس الناصري إلى العديد من الأقطار، وتعرف على أوضاعها واتصل بعلمائها. وقد حج مرتين الأولى عام 1204 هـ/ 1790 م. والثانية سنة 1226 هـ/ 1812 م. وانتقل إلى الجهات الشرقية من الجزائر، وزار تونس ومصر والشام وفلسطين، كما توجه إلى المغرب الأقصى وقصد السلطان العلوي مولاي سليمان ومكث مدة بتطوان وفاس (1216 هـ) ولم يخف اهتمامه وتأثره بالأحداث والتطورات التي عرفها العالم الإسلامي مثل هجوم الإنكليز على الجزائر (حملة اللورد اكسموث 1816 م) وفتح وهران الثاني (1791) وتمرد درقاوة بالغرب الجزائري، وظهور الحركة الوهابية بالجزيرة العربية، والحملة الفرنسية على مصر والشام، وتولي محمد علي أمر مصر وإدخال الإصلاحات إلى الدولة العثمانية وغيرها.

اكتسب أبوراس الناصري ثقافة واسعة بانكبابه على المطالعة واتصاله بالعلماء ومواظبته على حفظ العلوم ساعدته على ذلك حافظته القوية حتى عرف بحافظ المغرب الأوسط. وقد كانت له اتصالات وعلاقات بالعديد من علماء عصره الذين رجع إليهم وأخذ عنهم مثل محمد الصادق أفغول، ومحمد بن جعدون وأحمد بن عباد. ومحمد بن الشاهد، وعلي بن الأمين، ومحمد بن مالك بمدينة الجزائر، ومحمد بن الفقون، والحاج علي الونيسي، وأحمد العباس بقسطنينة، ومحمد بن المحجوب وصالح الكراش وإبراهيم الرياحي وأحمد بيرم التونسي بتونس، ومرتضى الزبيري وعبدالله الشرقاوي ومحمد الأمير بمصر.

اشتهر أبو راس الناصري بالتآليف العديدة التي اعتمد فيها على الحفظ والنقل والرواية. فقد ذكر عن نفسه أن ما ألفه بلغ 63 كتاباً ونسب إليه 137 مصنفاً في مختلف الأغراض بين كبير وصغير وبين تأليف وشرح وتعليق وتلخيص منها ما نشر ومنها ما زال محفوظاً ومنها ما يعتبر في حكم المفقود، مثل أخبار ملوك الترك والروم وملوك فرنسا. وأنساب الجن، ومنها ما نسب إليه خطأ مثل «أقوال التأسيس

بما وقع وسيقع للفرنسيس» وقد ذكر أبو حامد المشرفي أن «تآليف شيخه أبي راس أوشكت أن تزيد على عدد أيامه. . . فهو قد ألف في سائر الفنون، فهو أشبه بأسد بن الفرات في غزارة علمه واطلاعه على المذهب المالكي. . . » وقال عنه ابن سحنون الذي تتلمذ عليه بأنه «مقتن لجميع العلوم، عارف بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن مسألة إلا ويجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه. . . »

ومن أهم تآليف أبي الناصري في السير والأخبار والتاريخ الخاص والعام:

- درء الشقاوة في حروب درقاوة.
- زهرة الشماريخ في علم التاريخ.
- الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية وشروحها.
- روضة السلوان المؤلفة بمرسى تطوان.
- الغرض المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب.
- در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.
- الوسائل إلى معرفة القبائل.
- فتح الإلّه ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، أو عدتي ونحلتي في تعداد رحلتي.
- مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمىٰ وذهب.
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.
- الزمردة الوردية في الملوك السعدية.
- الزهرة السمْوية في أخبار الملوك العلوية.
- العز المتين في ذكر ملوك بني مرين.
- القصص الفتانة في ذكر البربر وزناته.
- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون.
- الخبر المعلوم في كل من اخترع نوعاً من أنواع العلوم.
- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.

يعتبر الكتاب الأخير (عجائب الأسفار) موضوع هذه الترجمة من أهم ما كتبه أبوراس وهو شرح لقصيدته السينية الطويلة (118 بيتاً) المعروفة «بنفيسة الجمان في فتح وهران على يد المنصور بالله سيدي محمد بن عثمان» والتي وضعها عندما

كان عائداً من الحج وبلغته الأخبار وهو بجربة بمحاصرة وهران ومهاجمة محمد الكبير لحصونها كما جاء في أحد أبياتها:

أخبـار طـارت فـي الأرض قـاطبـة لا قيناً في «أمروجات» من وراء قابس

وقد أتمّ الشرح وهو موضوع عجائب الأسفار بطلب من الباي محمد الكبير في ظرف سنة واحدة (1206 هـ/ 1792 م) وجعله في جزأين (319 صفحة حسب مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر). وأوضح في مستهله الهدف والغاية من عمله بقوله: «إني قد خضت في هذا الفن (التاريخ) قديماً وضقت بها أديماً ولم أزل في خدمته مستديماً، حتى كثرت عندي أرقامه وامتلأت بقاعه. وصارت نفسي تحدثني بالتدوين والانخراط في سلك المؤلفين... فتحركت العزائم وتجددت العناية بسبب ما أنعم الله به على المسلمين عامة وأهل المغرب خاصة بفتح وهران...» كما لم تفته الإشارة إلى ضعف الثقافة وقصور التأليف وخمول العلماء على عهده، فقد عبر عن ذلك بقوله: «إني في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدت مصادره وموارده، وخلت آثاره ومراسمه، وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب... قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول، يتلهفون على أندراس العلم والفضائل، ويتأسفون على انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل...».

لخص أبوراس الناصري محتوى كتابه عجائب الأسفار فيما يلي: «الجزء الأول في إنشاء وهران وما داولها من الدول وما دهاها من الأمور العظام الطوائم والنوائب العظام ومدة الكفر وأهل الإسلام... وأن الجزء الثاني مشتمل على الفتح العظيم والفخر الجسيم ومدح من فتحها الباي سيدي محمد بن عثمان...» على أنه لم يلتزم بذلك لاعتماده على الذاكرة وما جمعه من أرواق، وهذا ما أضعف تصنيف المعلومات وأضر بترتيب الوقائع، فالجزء الأول ضم أخباراً متفرقة عن بلاد المغرب من حدود مصر إلى مراكش وكذلك أنساب الأولين وأخبارهم مع تركيز وتوسع في أخبار قبائل وهران وما جرى للمسلمين بها أيام حكم النصارى (الإسبان) مع ذكر بايات الغرب الجزائري مثل إبراهيم باشا وعثمان باي، هذا

وقد أولى عناية خاصة لقبيلة مغراوة ورجالها ولعلماء وأولياء وهران، كما لم يهمل أخبار المغرب الأوسط (البلاد الجزائرية) وما كان بها من القبائل وذلك قبل أن يتطرق من جديد لتاريخ وهران في الفترة الإسلامية وما آل إليه أمرها من غزو على يد النصارى وما ترتب على ذلك من صراع مرير بينهم وبين المسلمين وما كان للأتراك في ذلك من جهاد وفضل لنصرة الإسلام، وذلك قبل أن يختتم هذا الجزء بالتعرض إلى الصلح الذي عقد بين الجزائريين والإسبان على عهد محمد عثمان باشا وما سبق ذلك الصلح من غارات النصارى على الجزائر ووهران.

أما الجزء الثاني الذي تميز هو الآخر بعدم ترتيب المعلومات وتداخل الروايات فقد تطرق فيه أبوراس الناصري لأخبار المغربين الأوسط والأقصى ولأقاليم الصحراء وبلاد السودان مع إشارات مهمة تتعلق بالتجارة والعادات في تلك البلاد، وذكر لموقف الشيخ عبد الكريم المغيلي من يهود توات. ثم يعود إلى ذكر أخبار تلمسان وقبيلة الثعالبة بمتيجة وما تعرف عليه من أماكن أثناء حجته الأولى، بعد ذلك يعود إلى ذكر الأندلس وما بها من حواضر، قبل أن يختتم الكتاب بالحديث عن فاتح وهران محمد الكبير وهو في ذلك لا يكتم نقمته على تخاذل الحكام ولا يخفي تأييده للعثمانيين، وإعجابه بشجاعة وبطولة الجند الانكشاري بالجزائر، فهم في نظره مجاهدون في سبيل الإسلام متمنياً أن يكون فتحهم لوهران بداية لتحقيق أمينته في استرجاع الأندلس وإعادتها إلى دار الإسلام.

كل هذه المعلومات جعلت من كتاب عجائب الأسفار مصدراً مهماً ومرجعاً أساسياً لا سيما فيما يتصل بتأسيس المدن وأنساب القبائل ومواطن العشائر وتطور أحداث فتح وهران ومآثر الباي محمد الكبير، وهذا ما لاحظه بعض المستشرقين مثل كوديرا وماسينيون.

أخذ أبوراس في كتابه عجائب الأسفار بالطريقة التقليدية فجعله شرحاً لقصيدته السينية كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وقد انتهج في شرحه ما كان متبعاً في عهده وما اعتمده في شروحه الأخرى مثل شرح العقيدة وأسماع الأصم، فقد كان يثبت البيت ثم يشرح ألفاظه لغوياً ويسجل الأحداث المرتبطة به مع

استشهادات من القرآن والحديث، وإثبات بعض النوادر والحكايات التي غالباً ما يعنونها بـ: «فائدة أو نادرة أو تنبيه أو تتمة غريبة» وهو في كل ما يعرضه من أحداث وما يسجله من وقائع ملتزم بخصائص أسلوب عصره فجاءت لغته منمقة تميل إلى السجع وتتميز بمفرداتها البسيطة وتعتبيراتها القريبة من العامية ولعل هذا ما جعل كتاب عجائب الأسفار يجمع بين محتوى التاريخ ومظهر الأدب إذ امتزجت فيه الرواية بالنقل واصطبغت الحقائق بالعواطف. وإن كانت الروايات التاريخية غلبت على الجزء الأول وطبعت النقول الأدبية الجزء الثاني. وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن أبا راس كان مؤرخاً ناقلاً متتبعاً للأخبار معتمداً على من سبقه من المؤرخين مثل بن خلدون وابن خلكان والتنسي. كما كان أديباً مادحاً مؤثراً في العواطف مستشهداً بأقوال فحول الشعراء مثل المتنبي وأبي فراس وأبي غراب الصفاقسي.

نال كتاب عجائب الأسفار لأبي راس اهتمام المشتغلين بالتاريخ فقام بترجمته إلى الفرنسية آرنو (M.A. Arnaud) تحت عنوان: Voyages extraordinaires et nouvelles agréables, Alger 1883 وطبع بالجزائر سنة 1885 م بعد أن نشرت منه فصول في المجلة الإفريقية لعام 1881 ونشر قسم منه بجريدة المبشر بالجزائر. وقد قام أخيراً الأستاذ أبو القاسم سعد الله بالتعريف به وبمؤلفه في دراسات عديدة مثبتة بالمصادر المعتمدة في هذه الترجمة. على أن بقاء كتاب عجائب الأسفار مخطوطاً إلى الآن جعله بعيداً عن متناول القراء. وحال دون الانتفاع به كما يجب من قبل المهتمين بتاريخ المغرب العربي.

المصادر المعتمدة:

- أبو راس الناصري (محمد بن أحمد) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوطات المكتبة الوطنية، النسخة الأولى بتاريخ 1262 (تحت رقم 1633) والثانية بتاريخ 1243 (تحت رقم 1632).
- فهرس الفهارس، الجزء الأول، ترجمة رقم 40، ص ص 150 ـ 152.
- أبو راس الناصري (محمد بن أحمد) فتح الإله، ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1990.

- أبو سحنون الراشدي (أحمد بن محمد) الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة، 1973.
- الزياني (محمد بن يوسف)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، نشر المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1978 ص 240.
- سي يوسف (محمد) دراسة مخطوط عجائب الأسفار لأبي راس، مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ، جامعة الجزائر، عدد 2، 1986، ص ص 134 ـ 155.
- تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الثاني، ص ص 342 ـ 357 ـ 358 ـ 390 ـ 395.
- سعد الله (أبو القاسم)، مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي، كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول 1978. ص ص 83 ـ 103.
- سعد الله (أبو القاسم)، الحملة الفرنسية على مصر والشام ورأي المؤرخ أبي راس الجزائري، كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني 1986 ص ص 229 ـ 308.
- سعد الله (أبو القاسم)، الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني، كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الأول 1978، ص ص 359 ـ 361.
- بونار، (رابح)، أبو راس المعسكري وتاريخ مدينة الجزائر، مجلة الأصالة، عدد 8/1972، ص ص 129 ـ 138.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ص 846 ـ 848.
- تاريخ الجزائر العام، ج 3، ص ص 570 ـ 577.
- بو عزيز (يحي)، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي بيروت 1995، ج 2، ص ص 234 ـ 252.
- تعريف الخلف، القسم الثاني، ص ص 341 ـ 342.
- Arnaud (M.A.) Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed bou Ras, récits historiques sur l'Afrique septentrionale trad, in. Revue Africaine, années 1881 - 82 et 1884 - 85.
- Faure Biguet (G.) Notice sur le cheik Abou Ras En-Nasiri, in Journal Asiatique, 9e série., 1899, pp. 388 - 420.

غزوات النصارى لمدينة الجزائر

وأول غزو النصارى لها «الجزائر» بعد استيلاء الأتراك عليها سنة خمس وعشرين وتسعمائة في ثلاثمائة وعشرين جفناً فهزمهم الله بعدما قتل منهم خلقاً كثير يزيد على عشرة آلاف، وغزوها مرة أخرى أيام خير الدين أيضاً فهزمهم الله وأسر المسلمون منهم نحو الثلاثة آلاف ثم غزاها الطاغية بنفسه لما استولى المسلمون على برج المرسى وذلك سنة ثمان وأربعين كمامر في زهاء سبعمائة سفينة، فبعث الله ريحاً فكسرت أكثر مراكبهم، ومن خرج منهم للبر قتل حتى أن الطاغية [ذهب] في اثني عشر مركباً. وكل هذا أيام خير الدين رحمهُ الله. . .

وله لقبان الأول باشا كما هو المعروف في نواب السلطان العثماني على الأقطار والثاني دولاتلي. . . وغزا الجزائر أيضاً الإنكليز. . . في أيام رمضان باشا في ثلاث وعشرين مركباً عظاماً فرموها بالبونبة، فلم تفد شيئاً وذلك سنة إحدى وسبعين وألف وغزاها الفرانسيس سنة ثلاث وتسعين وألف في خمسة وعشرين مركباً في ولاية حسن باشا ورموها بالبونبة فهدموا أكثر دورها وبعض مساجدها وكذا رموا على شرشال واقتنص المسلمون مركباً لهم فيه جملة من أكابرهم ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. ورجع الكفرة بلا نايل ولم يحصلوا منها على طايل. ثم غزاها أيضاً الفرنسيس في العام الذي بعده في أيام الباشا المذكور في زهاء ثمانين مركباً لهم فيه جملة من أكابرهم ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. ورجع الكفرة بلا نايل ولم يحصلوا منها على طايل. ثم غزاها أيضاً الفرنسيس في العام الذي بعده في أيام الباشا المذكور في زهاء ثمانين مركباً ورموا بالبونبة في ثلاث أيام من قدومهم فأتت قدرة بونبة بدار الإمارة فضاقت مذاهبه وصالحهم من ساعته على أن يسرح لهم الأسارى بلا مشورة أحد من أهل دولته وعلى أن يبذل لهم ما صرفوه في تلك

الغزات ورجع أعداء الله مسرورين، وبعد ذلك بيسير قتله الأتراك وولوا حسن باشا وكان قبل ذلك يعرف بحسن رايس، فبعث اللعين من ساعته ابعث أسارى المسلمين إن شئت إتمام الصلح على أن لا شيء ذلك [كذا]. فلما سمع اللعين غزاها من عامه، فهدم منها نحو الثلاثمائة دار، واستشهد فيها نحو الأربعين ثم رجع عدو الله من غير طائل، ثم غزاها الإسبانيون سنة تسع وثمانين ومائة وألف في ولاية محمد باشا وخرجوا إزاء الحراش في البر وجعلوا ترساً من حطب ولوح وغير ذلك وأوقدوا نار الحرب وباتوا ليلتهم في موضعهم، فلما كان قبيل الفجر صبيحة يوم الأحد هزمهم الله ومات منهم ما لا يحصى عددهم إلا الله، ورجعوا خاسئين لم ينالوا خيراً واستشهد من المسلمين نحو أربعمائة جعلت لهم مقبرة بإزاء عين الربط وقد أتوا في هذه الغزوة في خمسماية مركب وبقيت عظامهم ماثلة في رمال الحراش.

أبو راس الناصري عجائب الأسفار ولطائف الأخبار
مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1632، ص ص: 140 ـ 142.

غـزو وهـران

أول من غزا وهران من ملوك الأتراك بالجزائر إبراهيم باشا كان قبل الولاية يقال له إبراهيم خوجة، فرماها مدة من المايدة قمة جبل هيدور. . . فلما أيقن أنها ممتنعة عليه انقلب راجعاً إلى دار ملكه، ولما قلد الأتراك بالجزائر إيالة مازونة وما ينضم إليها من البسائط والبلدان لسيدي الباي شعبان في حدود نيف وسبعين وألف صرف همته للجهاد، ومكافحة أهل البغي والإلحاد، فكرر الغزو إليها والتدويخ وقد استعانوا عليها من تلك العدواة بالصريح مع ما أنضم إليهم من ضعفة الدين من المسلمين فاشتد عضدهم واطمأن الكفرة بالثغر قرير العين. فكثير الحال يقع القتال وفي كل ذلك الحرب بينهم سجال، إلا أنه قبض أيديهم عن بسايطها.

وأكثر المرات يكتسح مسارحها. وضيق عليهم أشد التضييق. ولم يكن في الفرج سبيل ولا طريق، وأرصد عليهم الجواسيس والعيون. . .

. . . إن الباي شعبان رحمه الله رجع إلى وهران في نحو أربعة آلاف فيهم نحو ثلاثة آلاف فارس وزحف إليه الكفرة من وهران مع مردة العرب من بني عامر وكيزة وغمزة ونحوهم من أزيد من ثمانية آلاف فيهم ألف خيل والباقي رجالة، فكان مصاف القتال بكدية الخيار، وصبر الفريقان ثم انقضت الكفرة واختل مصافهم. . فقتل في تلك الهزيمة أكثر من إحدى عشر ماية ودامت عليهم الهزيمة حتى انتهى المسلمون إلى باب وهران فحمي الوطيس وفي تلك المعركة قتل الباي رحمهُ الله. . . فبقيت جثته بأيديهم فحزوا رأسه وعلقوه على الباب. . . وذلك سنة 1098 هـ. . إن الذي قتله من المسلمين الذين معهم المسمون عندنا بالمغاطيس.

محمد أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار
مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية(رقم 1632) ص ص 116 ـ 117

مسلم بن عبد القادر الوهراني
(ت 1248 هـ/ 1832 م)

مسلم بن عبد القادر الحميري الوهراني، لا يعرف عن حياته الخاصة سوى أنه تولى في شبابه وظيف «خوجة» للآغا المزاري أحد قواد مخزن الأتراك بنواحي وهران، قبل أن يترقى إلى منصب رئيس الكتاب «باش كاتب» لدى الباي حسن بن موسى آخر بايات وهران الذي ظل على اتصال مباشر به طيلة حكم هذا الباي للغرب الجزائري (1237 ـ 1248 هـ).

شارك مسلم بن عبد القادر في قوة عسكرية أرسلها الباي حسن إلى الجزائر للتصدي للجيش الفرنسي (1246 هـ/ 1830 م) وعندما رجع إلى وهران ترك ديوان بايليك الغرب وغادر مدينة وهران قبل سقوطها في أيدي الفرنسيين ليستقر بعين تموشنت حيث وافته المنية بعد سنتين (1248 هـ/ 1832 م).

يعتبر مسلم بن عبد القادر من ذوي المعرفة بالعلوم الفقهية والفنون الأدبية فقد ذكره أبو راس الناصري بقوله: «إن السيد مسلم بن عبد القادر من أجلّ أدباء هذا الزمان وأحرزهم لنصب السبق في هذا الميدان». ويعني (موضوع الحكم والمواعظ) وأشار إليه محمد الطاهر بن حواء في زهر الآداب بقوله: «أممت وهران بقصد أن أجد بها من تحط لديه رحال المعاني والبيان... ودللت على سيدي مسلم بن عبد القادر... ولما وصلت رحب بي... فناثرته وناظمته فأعياني وقصدته الشعراء من كل فج ومدحته ببديع الشعر المغنج...»

ينسب إلى الشيخ مسلم بن عبد القادر عدة تصانيف منها نظم الجواهر في سلك أهل البصائر وهو شرح لمفردات لغوية وإيضاح لحكم منظومة، وضعه مرتباً

على حروف المعجم وجعل فصوله عدد منازل القمر حسب قوله وطلب من أبي راس الناصري أن يشرحه. فوضع له هذا الأخير شرحاً مختصراً بعنوان «إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم» وقد جاء في مقدمة هذا الشرح: «أن السيد مسلم بن عبد القادر. . . قد أتى من درر النظم والنثر ما يقصر عنه أهل العصر. . . فسار فيه على ما يقتضيه المقام من المواعظ المبكية والمفاكهات أو ما يدل على أسلوب البلغاء في بعض المطارحات. . .» هذا وقد ذكر البعض بأن هذا المصنف من وضع مسلم بن عبد القادر، وهذا ما لا نأخذ به لعدم توفر الدلائل والحجج.

عرف مسلم بن عبد القادر بتأليف طريف في التاريخ بعنوان «خاتمة أنيس الغريب والمسافر في الطرائف والنوادر» وضعه على الأرجح بعد استيلاء الفرنسيين على وهران. وقد ركّز فيه خاصة على أخبار وهران وناحيتها في الخمسين سنة الأخيرة التي سبقت الاحتلال الفرنسي (1192 ـ 1248 هـ/ 1778 ـ 1832 م) وحاول فيه الإلمام بما حدث في عهد البايات المتأخرين وهم على التوالي: محمد الكبير، وعثمان بن محمد الكبير، ومصطفى بن عبدالله العجمي، ومحمد المدعو بالمقلش، والفترة الثانية لمصطفى بن عبدالله العجمي، ومحمد بن عثمان المعروف ببوكابوس، وعلي قاربغلي، وحسن بن موسى.

يفهم مما ورد في خاتمة أنيس الغريب والمسافر أنها وضعت بغرض أن تكون فصلاً ختامياً لكتاب مطول شامل في تاريخ الدول الإسلامية يتضمن اثني عشر باباً وخاتمة استناداً إلى ما أشار إليه مؤلفه مسلم بن عبد القادر، ويبتدىء بسيرة الرسول ﷺ وينتهي بتاريخ بايات وهران المتأخرين منذ محمد الكبير وحتى حسن بن موسى، ونظراً لعدم توفر الكتاب، فإننا نرجح أن مسلم بن عبد القادر يكون قد ضاع منه بعض ما كتبه ولم يبق من كتابه سوى الفصل الأخير، وهو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، أو يكون الكتاب كله ظل مجرد خطة لم يتمكن صاحبها من إنجازها كلها باستثناء ما وصل إلينا في صورة خاتمة. وهذا ما نرجحه لعدم ورود أية إشارة إليه من طرف معاصريه.

اعتمد مسلم بن عبد القادر في خاتمة أنيس الغريب والمسافر على الطريقة التقليدية الموسوعية. فأدرج فيه الأمثال والحكم والقصص إلى جانب التاريخ. وذلك في أسلوب بسيط ولغة سهلة لا تخلو من مفردات عامية وأغلاط نحوية وصرفية، فجاء في مجمله عرضاً تاريخياً مبسطاً شاملاً لأحداث يكون قد شاهدها أو سمع بها أو تعرف عليها عن قرب أو أطلع على تفاصيلها ممن عاشها، وهذا ما أكده مسلم بن عبد القادر بقوله: «وهي خاتمة نذكر فيها ما تيسر لنا من أخبار السنن الماضية في هذا القرن الذي نحن فيه وحوادثه الخاصة والعامة المشاهدة بالعيان والمطروقة بالآذان. . .».

التزم مسلم بن عبد القادر فيما سجله بالصدق وتحري الحقيقة والجهر بالحق، ولم يتردد في إبداى رأيه، فقد أنكر على الباي حسن بن موسى بعض تصرفاته رغم كونه كان موظفاً بديوانه يعيش ضمن حاشيته مدة إحدى عشرة سنة. وهي مدة حكم هذا الباي حسن بن موسى لوهران، كما آخذه على عدم احترامه للعلماء وقسوته على الرعية فذكر أنه: «في آخر عهده فسدت أخلاقه وأبطرته نخوة السلطان فصار يظلم ويتعدى كما ذكرنا من قبل. . .» ولم يفت مسلم بن عبد القادر استخلاص النتائج لا سيما وأنه عايش بداية الاحتلال الفرنسي وعرف نهاية حكم الباي حسن، فأرجع ذلك إلى ظلم الحكام وابتعادهم عن الحق ومجانبتهم للعدل. وقد وضع في ذلك شعراً عامياً نورد منه هذا البيت:

أدبهم ربهم لمّا طغوا — عرفهم بغدرهم لما بغوا

هذا وقد أبدى أسفه البالغ على ما آلت إليه حالة الجزائر فيما نظمه من شعر نقتبس منه هذه الأبيات:

دعي عايك المزاح ونوحي — على الإسلام وبالدمع فاسهدي
واحكي زمان الوصل قد تصرما — وركناً من أركان الدين انهدما
قطر الجزائر به حَلَّ [كذ] البلا — فانحل عقد النظم منه وخلا

تعتبر خاتمة أنيس الغريب والمسافر مع اختصارها مصدراً مهماً للتعرف على الوضع السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي للناحية الوهرانية (بايليك

الغرب)، في الفترة الأخيرة التي سبقت الاحتلال الفرنسي والتي تميزت خاصة بأحداث مهمة تتمثل في حلول المجاعات والأوبئة وحدوث حركات التمرد التي اشتهر منها عصيان درقاوة الذي أولاه مسلم بن عبد القادر اهتمامه وذكر أهم المعارك التي خاضها المتمردون ضد البايليك مثل معارك أولاد الزائر وأجديرة وتافنة وغيرها. . .) فكان بذلك مرجعاً للمتأخرين عنه من المؤرخين مثل ابن عودة المزاري الذي أخذ عنه في طلوع سعد السعود. والكاتب أدريان دالباش (Adrien Delpech) الذي رجع إليه فيما كتبه عن تمرد درقاوة، وترجم ما كتبه مسلم حولها في المجلة الإفريقية لسنة 1874، وقام بتحقيق خاتمة الأنيس مؤخراً الأستاذ رابح بونار اعتماداً على مقابلة نسختين مخطوطتين بالمكتبة الوطنية الجزائرية (رقم 2317 ورقم 1635) ونشرت بالجزائر سنة 1974 (227 ص).

المراجع المعتمدة:

- مسلم بن عبد القادر الوهراني، خاتمة أنيس الغريب والمسافر، أو تاريخ بايات وهران المتأخرين، تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر 1974.
- أبو راس الناصري، إسماع الأصم وشفاء السقم في الأمثال والحكم، (مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 1553).
- ابن حواء (محمد الطاهر)، نظم الجواهر في سلك أهل البصائر، (مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 1893).
- ابن عودة المزاري، (الآغا إسماعيل)، طلوع سعد السعود، تحقيق يحيىٰ بوعزيز، الجزء الأول، بيروت 1990.
- تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 359ـ360.

- Delpech (Ad) Resumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran, in. Revue Africaine, 1874, d'après la chronique d'El. Mossellem ben Mohammed Bach Dafter du Bey Hassan de 1800 à 1813, in Revue Africaine, année 1874, pp. 38 - 48.

قمع عصيان درقاوة بالغرب الجزائري

قال ثم إن باي وهران جمع جمعه، وعول على الحركة لمجاهر، طالباً لأخذ الثأر بدم العسكر الذي قتلوه في السابق لما أن تعرضوا للخليفة في أول قيام الدرقاوي، وتلقوه ببلادهم، وقتلوا العسكر ونهبوا المحلة. . . ولما أن بلغ الخبر لمجاهر بعثوا إلى الدرقاوي ليمدهم بمدد فبعث إليهم خليفته ابن المجاهد، وقل ما في درقاوة مثله لما تربى في المخزن وأخذ ببعض قوانينه، فوصل إليهم واجتمعوا عليه، ودخل الباي بلادهم ولحقهم ضرره فانحازوا إلى موضع يقال له وادي الرمان، واجتمعوا فقصدهم الباي بعسكره كله وحمل عليهم المخزن حملة واحدة فروا أمامه فلقيهم البحر من أمام. وصار فيهم القتال حتى ظهر الدم في ماء البحر. وكان هذا اليوم من مشاهير الأيام، ومن أشهر الأيام أيضاً يوم عين السدرة، موضع باغريس. اجتمعت فيه درقاوة أينما كانت، وحيث كانت بنجوعها وأولادها وأموالها، وجاسوا بلاد اغريس، وأفسدوا زرعه، واحتطبوا جناته، ولم يبق بهم إلا يوم أو يومان ويفتحوا أم العساكر (معسكر) والباي كان بأبي خرشفة يقضي بعض شؤونه، وأهل اغريس يأتونه كل يوم يحرضونه على القدوم إليهم، فركب وصمم نحوهم، بعساكر لا تحصى إلى أن وصل إليهم ولقيهم بالموضع المذكور وفي ذلك اليوم قدم ابن الأحرش على درقاوة من المشرق فازدادوا بقدومه فرحاً وسروراً فاصطفت الصفوف وتلاقى الفريقان بعد تقسم الباي الجيش على ثلاثة أقسام، جناحين وقلباً، الجناح الأيمن فيه أعيان الزمالة وأتباعها والحشم، والجناح فيه الخليفة وجيشه والبرجية، والقلب فيه الباي وأعيان الدوائر وأتباعها، وعساكر الأتراك وأصحاب المدافع، فكان الجناح الأيمن في مقابلة بني عامر والأيسر في مقابلة الدرقاوي والقلب في مقابلة عامة العامة، فتزاحفت لبعضها بعضاً وعلا الغبار، وكبر النهار إذا بالجناح الأيسر قام على ساق واحد، وصبر رجال البرجية

صبر الكرام، حتى ذاق أربعة من كبرائهم كؤوس الحمام، وفي أثناء ذلك قام درقاوة على ساق واحد، وانهزموا هزيمة كبيرة، وتقشعوا تقشع الغمام من السماء، إذا طلعت فيه شمس منيرة، وركب المخزن ظهورهم ولا زال يقتل ويأسر إلى وقت الظهر، وكلت الناس من ذلك، فبقيت نجوع درقاوة كما هي، وأخذت أموالهم، وسبيت نساؤهم. وماتت رجالهم، وذلوا من ذلك اليوم، وفشل ريحهم.

ومن أشهر الأيام يوم أجديرة. وهذا اليوم أفنيت فيه عامة درقاوة وبقيت المحلة بما فيها في يد الباي، ويوم تافنة المعروف بيوم ابن الأحرش الذي ماتت فيه جماعة من الطلبة مع ابن الأحرش ويوم التوتة الذي جرح فيه الباي ومات من درقاوة أناس كثيرون.

مسلم بن عبد القادر الوهراني، خاتمة أنيس الغريب والمسافر
تحقيق رابح بونار، الجزائر، 1974، ص ص 93 ـ 96

أبو القاسم بن أحمد الزياني

(ت 1249 هـ/ 1833 م)

أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي الزياني نسبة إلى قبيلة زيان الصنهاجية بنواحي فاس، ولد بفاس (1147 هـ/ 1734 م) وتلقى تعليمه على يد شيوخ جامع القرويين ومسجد الأندلس ومدرستي العطارين والصهريج، ومنهم محمد بن الحسن بناني، ومحمد بن الطيب القادري وأحمد بن الطاهر الشرقي وعبد القادر البخاري، وأبو حفص عمر الفاسي، وبعد أن أنهى تعليمه وعمره ثلاث وعشرون سنة (1169 هـ/ 1785 م) اتصل بالبلاط الملكي، والتحق بحاشية السلطان، وصار يتنقل في ربوع المغرب، وخدم لفترة طويلة (1169 ـ 1224 هـ/ 1785 ـ 1794 م) سلاطين المغرب ومولاي محمد بن عبدالله (1757 ـ 1790) ومولاي اليزيد بن محمد (1790 ـ 1792) ومولاي سليمان بن محمد (1792 ـ 1822) فكلف بالكتابة، ثم تولي أمر المفاوضات في عدة قضايا مع القبائل لصالح المخزن السلطاني. كما أسندت إليه عدة سفارات وأوامر سلطانية، وأشرف على شؤون عدة أقاليم ومدن المغرب، أهمها قيادة وجدة وتازة ومكناس وطنجة والعرائس ومنطقة تافلالت حيث بقي ثلاث سنوات يدير أمن الإقليم، وقد توسعت آفاق معرفته، وتمرس على معاملة الناس، بفضل توليه الوظائف المخزنية واكتسابه التجارب في رحلاته العديدة إلى أقطار المشرق، كما سنشير إلى ذلك لاحقاً عند الحديث عن مؤلفه الترجمانة الكبرى.

ورغم هذا النشاط الذي تميزت به حياة أبي القاسم الزياني فإنها لم تخل من المضايقات إذ تعرض للعزل والسجن والمصادرة في عهد مولاي اليزيد 1205

ـ 1207 هـ/ 1790 ـ 1792 م الذي صادر أملاكه وأودعه السجن بالرباط إلى أن تولى الأمر مولاي سليمان بعد وفاة اليزيد 1207 هـ/ 1792 م) ثم عزل ثانية من مهامه بأمر مولاي سليمان بعد أن قضى في خدمته إحدى عشرة سنة، ولعل هذا ما دفعه إلى اعتزال الوظيف والتفرغ للتأليف وهذا ما ذكره في قوله: «واسترحت من أهوال المغرب وتقلباته وخلعت رقبة «الرق وتغلباته. .» وقد وجد الفرصة سانحة لتجنب المضايقات التي كان يتعرض لها عندما فشل في إخماد فتنة انقاد (1206 هـ/ 1792 م) وكان آنذاك والياً على وجدة، فالتجأ إلى تلمسان بنية الإقامة بها نهائياً بعد أن ذهبت محلته خوفاً من غضب مولاي سليمان، لكنه اضطر لأسباب عائلية أن يتحول إلى فاس حيث وافته المنية سنة (1249 هـ/ 1833 م).

ترك أبو القاسم الزياني العديد من التآليف بلغت خمسة عشر مصنفاً وإن ذكر هو نفسه أنها تبلغ العشرين عنواناً في التاريخ والجغرافية واللغة والفقه، بعضها كناشات وبعضها من الحجم الكبير، وقد كتب الزياني أغلبها في الفترة التي اعتزل فيها الوظيف وابتعاده عن البلاط الملكي، 1224 ـ 1249 هـ 1794 ـ 1833 م الأمر الذي ساعده على اكتساب نظرة متحررة وسمح له بإبداء أفكاره الجريئة وملاحظاته الشخصية الصريحة وإن كان فيها شيء من المبالغة والاعتداد بالنفس، ومؤاخذة المخالفين له في الرأي، ومما يلاحظ أن بعض مؤلفات الزياني العديدة هي في الواقع ملخصات أو فصول وأقسام مستخرجة من كتبه الرئيسية الثلاث، وهي: الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، والبستان الظريف أو الروضة السليمانية، والترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً، مع العلم بأن هذه الفصول والأقسام المقتبسة من الكتب الثلاثة السالفة الذكر، قد توهم القارىء بأنها مصنفات مستقلة بنفسها لكونها تحمل عناوين خاصة بها، مثل رسالة السلوك فيما يجب على الملوك ورحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق، وتحفة الهادي في نسب شرفاء المغرب، والدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع والزنادقة، هذا ويمكن التعرف على الإنتاج التاريخي للزياني من خلال عرض موجز لكتبه الثلاثة:

1 ـ الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، تعرض فيه للتاريخ العام

منذ نشأة البشرية وحتى عصر المؤلف (أوائل القرن التاسع عشر) وضمنه معلومات مهمة عن الدولة الإسلامية ببلاد المغرب من أدارسة ومرابطين وموحدين وبني مرين وبني زيان، وقد أسهب فيما يتعلق بالسعديين والعلويين، فكان بذلك استمراراً للتقاليد الإسلامية في كتابة التاريخ ونموذجاً لتاريخ الطبري وابن خلدون. نشر هذا المؤلف من طرف هوداس سنة 1886. وترجم قسماً منه إل الفرنسية تحت عنوان: المغرب من 1631 ـ 1812، أما الفصل الذي لم ينشر منه وهو الخاص بالسعديين فقد نشره روجي لوتورنو (R. LeTourneau)، مصوراً عن مخطوطة الرباط مع ترجمة فرنسية بمجلة الغرب الإسلامي والبحر المتوسط عدد 1977/23.

2 ـ البستان الظريف في دولة أولاد مولانا الشريف. أو الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعيلية، وتعرض فيه لتاريخ الدولة العلوية على الأخص، وقد كان الهدف من وراء تأليفه هذا التعبير عن إخلاصه للبيت العلوي وولائه للسلاطين الذين عمل في بلاطهم، وقد أشار إلى ذلك قائلاً: «ألفت كتاب الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ثم ألفت البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف إذ لم أجد في هذه الدولة العلوية تأليفاً ولا أعتنى بذكر حوادثها مشروفاً ولا شريفاً».

3 ـ الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً؛ وتعتبر أطرف كتبه وهي نتيجة رحلاته في العديد من الأقطار وخلاصة اطلاعه على مختلف المواضيع، وضعها في أواخر حياته وانتهى منها وهو في السادسة والثمانين من عمره، وقد ضبط تاريخ الانتهاء منها فيما يلي: «وهنا انتهى بنا الحد في تقييد هذه الرحلة المباركة، وكان الفراغ من كتبها في متم ذي الحجة الحرام من عام ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف (1233 هـ/ 1818 م)، رزقنا الله خير ما عنده بمنه وكرمه آمين...».

ضمن أبو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى ما قيده في رحلاته الثلاث: الرحلة الأولى التي قام بها صحبة أبيه لأداء فريضة الحج والتي استمرت ثلاث

سنوات (1169 ـ 1171 هـ/ 1755 ـ 1757 م) وتعرف أثناءها على مصر والحجاز وعَادَ منها إلى المغرب عن طريق البحر عبر لفورن ومرسيليا فبرشلونة، والرحلة الثانية ترأس فيها سفارة سلطانية بعث بها مولاي محمد بن عبدالله إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول (سنة 1200 هـ ـ 1785 م) وتعرف فيها الزياني على تونس وإسطانبول خاصة ومر بميناء ملقة بالأندلس، أما الرحلة الثالثة (1206 هـ/ 1791م) فكانت إلى الحجاز وتعرف خلالها على البلاد الجزائرية والتونسية وبلاد الشام وعرج في طريقه إلى المغرب على إسطانبول وتونس والجزائر، وقد سمحت له الظروف أثناءها بالاتصال بشخصيات إسلامية مهمة أمثال حاكم تونس حمودة باشا، والمؤرخ المصري عبد الرحمٰن الجبرتي، وكذلك التعرف عن كثب على واقع البلاد العربية الإسلامية في نهاية القرن الثامن عشر، وقد اعتمد في ترجمانته على مشاهداته الشخصية وملاحظاته ومراسلاته مع العديد من الشخصيات مثل رده على رسالة محمد بن عبد الوهاب وأجوبته على علماء تونس التي ألحقها بالترجمانة الكبرى، هذا بالإضافة إلى نقله الوثائق والرسائل التي كانت تحت نظره وفي متناول يده بحكم الوظائف التي شغلها والمهمات التي كلف بها، وما نقله عن كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين الذين سبقوه وقد أشار إلى ذلك بقوله: «أنا رسمت فيها ما شاهدته في الأقاليم التي بلغتها وغيره، نقلته من رحلة العياشي ومحاضرة اليوسي ورحلة البلوي ورحلة ابن نباتة ورحلة السرخسي للأندلس والمغرب، ورحلة الكردي ورحلة البكري، وأخبار الهند والسند والصين من تاريخ الإسلام للذهبي. ومن تواريخ لبعض علماء الهند اجتمعت بهم بالحرم الشريف وبمكة...».

تتضمن الترجمانة الكبرى أخباراً متنوعة يمكن تصنيفها إلَي:

1 ـ المعلومات الشخصية عن حياة أبي القاسم الزياني مثل مولده ودراسته ووظائفه وأسفاره وما صادفه من نكبات وما تعرف عليه من شخصيات وما ناله من حظوة ومكانة.

2 ـ المعلومات التاريخية الصرفة، منها ما يتصل بالسيرة النبوية ومنها ما

يعود إل تاريخ الأندلس وبلاد الشام، ومنها ما يتعلق بفتح القسطنطينية وسيرة آل عثمان بالإضافة إلى أحداث المغرب مثل حركة (غزوة) مولاي إسماعيل للبربر سنة 1234 هـ.

3 ـ وصف المعالم الأثرية والمظاهر العمرانية والطبيعية مثل وصفه لمسجد قرطبة ومدينة طليطلة ونهر النيل وحاضرة إسطانبول، وأخباره عن وهران وتونس ودمشق والقاهرة والقدس الشريف والمدينة المنورة ومكة المكرمة.

4 ـ تعريف الأقاليم الجغرافية السبعة المتعارف عليها لدى الجغرافيين العرب مع تقسيم كل إقليم إلى عشرة أجزاء وذكر أشهر المدن وأهم البحار والجزر والأنهار وعجائب العيون والآبار والجبال وخواص ومنافع الأحجار وغريب الحيوانات بالإضافة إلى وصف دقيق للبلاد التي تعرف عليها أو قرأ عنها مثل الحجاز ومصر والشام والعراق والجزيرة والأناضول والأندلس.

اكتسبت الترجمانة الكبرى أهمية خاصة باعتبارها مصدراً مهماً ومرجعاً أساسياً يتجاوز كتب الرحالة السابقين من المشارقة والمغاربة نظراً للمعلومات الضافية التي احتوت عليها والتي تتصل خاصة بالجوانب الحضارية والمظاهر الجغرافية والعمرانية وبالواقع السياسي والثقافي الذي تأثر به أبو القاسم الزياني وأبدى حوله ملاحظاته الخاصة التي أشار إليها بقوله: «ولي في كل مقام منها مقال وفي كل روض منها مجال فيما يقتضيه الحال ويخطر على البال وما يناسب كل خبر ويؤيده ويعتمد عليه ويعضده» ومما يعطي فكرة للقارىء عن مدى التحرر الفكري للزياني واعتداده برأيه الشخصي ومدى صراحته في الحكم على القضايا أو الشخصيات التي تعرف عليها أو كانت له مراسلات معها قوله: «ويعلم الله ما بدلت وما غيرت ولا داهنت ولا داويت وما ذكرت إلا ما أعلمه وأعتقده» ولعل هذا ما جعله يمحص كل ما سجله ويلتزم الدقة فيما رواه أو شاهده فلم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وسجلها أو عرف بها أو علق عليها وقد قال المؤرخ نقولا زيادة عن الترجمانة الكبرى أنها من «الكتب الطريفة والنادرة في موضوع الرحلات جمعت تقييد المعلومات إلى الترجمة الذاتية وإبداء الرأي الشخصي».

وقد عبر أبو القاسم الزياني عن عصره من حيث طريقة كتابته ومستوى لغته التي جمعت الأسلوب السهل والعبارات الواضحة مع بعض الألفاظ العامية والتعابير الدارجة، وكذلك من حيث اهتماماته بأحداث المغرب على عهد العلويين حتى عد مؤرخ الدولة العلوية، كما أهله إنتاجه الغزير وخدماته في الإدارة المغربية لأنْ يلقب عن جدارة: بـ «ذي الوزارتين»: الوظيف المخزني، والكتابة التاريخية.

المراجع المعتمدة:

- أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً. تقديم وتحقيق عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء المغربية، فضالة، 1387 هـ/ 1967 م.
- الأعلام ج 6، ص 63.
- مردم بك (خليل)، أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع، بيروت، 1971، ص ص 203.
- زيادة (نقولا). أبو القاسم الزياني وكتابه الترجمانة الكبرى، ضمن كتاب إفريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان، منشورات رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1991 ص ص 237 ـ 243.
- معجم مشاهير المغاربة ص ص 271 ـ274.
- تاريخ الأدب الجغرافي، ص ص 848 ـ 852.

- Lévi - Provençal, Les historiens des chorfa, Paris, 1922.
- Houdas, Le Maroc de 1631 à 1812, Paris 1899.

استقبال باي قسنطينة للزياني

وأقمت بقسنطينة خمسة عشر يوماً، وقدم الباي من حركته فساعة دخوله للبلد قدم عليَّ أحد الطلبة المذكورين، وخبرني أن الباي بلغه خبر قدومك وكتب لخليفته أن يكرمك ويحسن نزلك، وهو الذي وجهني الآن للسلام عليك، فقم للسلام عليه فقلت لا يمكن هذا ولاَ آتيه إلا إذا بعث إليّ، فقال يا سيدي، أليس هذا من عمل بلادكم فكل الناس يأتون للسلام على الباي، فما عنده حاجب ولا راد، فقلت لا أتوجه له إلا إذا بعث إلي، فإني في إكرامه وضيافته، وكيف لي بالدخول على رجل لا يعرفني ولا أعرفه ولا بعث لي، وأدخل عليه بغير إذنه، هذا شيء فيه قلة أدب عندنا، فلا أقدم ولا أرتكب إلا ما أعرفه صواباً وجائزاً في دولتنا. فلما رجع إليه وسأله عني أخبره الخبر وما وقع بيني وبينه من الكلام في شأن الملاقاة فقال له هذا من تمام عقله وأدبه، وفي غد إن شاء الله اِصحبه معك، ومن الغد أصبح علي في غير وقت اللقاء، وكان رجلاً مغفلاً ومعه طيش على كبر سنه، وقال لي: إن الباي يدعوك للقدوم عليه فقم بنا إليه، فتوجهت معه إلى أن دخلنا الدار وصعدنا في المدارج إلى محل جلوسه في محكمته، فوجدنا أعيان رجاله وشواشه ومماليكه قائمين يميناً وشمالاً خارج القبة التي هو بها، وهو في داخلها مع كتابه وكبار دولته والرجل معي إلى أن واجهنا باب القبة ووقع نظري على الباي ونظره عليّ فلم أجد الرجل، فلم يسعني الرجوع بعد مقابلته، ودخلت القبة وسلمت عليه وهو جالس على الأرض، وهو يحسب مالاً بين يديه، فرد السلام وقال: هذا فلان، فقلت نعم، فقال مرحباً بك وأهلاً وسهلاً ومد يده لمصافحتي بظاهرها لأن باطنها ملطخ بوسخ الفضة التي كان يعدها. ولحقه من ذلك حياء، فأمر بالإبريق والطست والصابون فغسل يديه، وقام من محله فجلس على مرتبته وأجلسني بجنبه، وأقبل علي بالسؤال، وأمر برفع المال إلى أن أكمل

غرضه من السؤال، وقام فقام القوم لقيامه، وخرج من المحكمة ودخل مقصورة أخرى، ووجه لي كاتبه الكبير محمد بن كشك علي، فأدخلني عليه وأتى بقهوة فشربت، وسار كاتبه أن ينزلني بداره، وخرجت معه إلى الباب فقال لي، تتوجه عندي للدار فقلت إن دارك بالقلعة، وأنا مجاور للمسجد أجتمع مع الطلبة به، وبيتك بعيد عنا فلا أنتقل من محلي فأسعفني وتوجه لبيته وتوجهت لمحلي الذي أنا به.

ولما عاد عشية النهار للباي قال له إن فلاناً لم يرد النزول عندي وأراد البقاء في محله فوجه لي الباي.

ولما قدمت عليه سألني عن أحوال الغرب ومملكته، وعن السلطان مولاي سليمان وهل هو مثل مولاي اليزيد فوصفته له بالعلم والدين والعدل، ثم قال لي لم ترد النزول عند سيدي محمد بن كشك علي، فأجبته بعذري الأول وقلت له لا تسمح نفسي بالنزول عند غيرك وضيافتي في غير بيتك، فضحك وتهلل وجهه، وقلت من يوم قدمنا ونحن في كرامتك فلا تتشوف نفسنا لغيرك فسره ما سمع، وأقمت عنده إلى أن وضعت سفرة غذائه، فأكلنا وافترقنا، وبعد العشاء وجه لي رسوله فقدمت عليه فوجدته في مقصورة جديدة هيأها بالفراش والأثاث والأواني الفضية والذهبية، وفي كل روشن ساعة تَضرب كُلّ ساعة على الآلة. وسلاح كثير معلق بجدرانها. وأصحاب الموسيقى جلوس أمامه وجلساؤه يميناً وشمالاً عنده، فقام للسلام علي على عادتهم في القيام للداخل، وقاموا كلهم، وأجلسني بجنبه قريباً منه، وقال: إنما وجهت لك في هذا الوقت لتتأنس بالسماع، وتزيل الوحشة، لأن هؤلاء الأساتيد، قدموا علي من الجزائر فأردت أن تشرفنا بحضورك، فأثنيت عليه خيراً، وأمرهم باستعمال الموسيقى، وهو يسألني عن أحوال الغرب ومملكته، وعن سيرة مولاي محمد، ويثني عليه، وقام ودخل من باب المقصورة مع مملوك له.

ولما جلس بعد رجوعه استنشقت منه رائحة الخمر، فعاد للحديث معي ساعة ثم قام ودخل من محله الأول والمملوك معه، ثم عاد وجلس فشاعت رائحة

الخمر أكثر مما كانت، وعلا كلامه فارتفع الشك وزال الوهم، ثم قال للمملوك هات يدك وقبضها وقام ودخل فلبس عليه كركاً من السمور وخرج وعاد لموضعه وقال لم لا تعتنون بهذه الأكراك. فإنها نافعة في زمن البرد، فقلت نحن أهل المغرب أهل بادية، لا يعرفون هذا وأشباهه. وبعد أن تأتي هذه الأكراك في هدايا الملوك من المشرق ومن الإسطنبول للسلطان يعطيها لرؤوساء البحر وقواد الطبجية، ثم قال للمملوك هات تلك الزوجة من الكوابيس أشار لها، فناوله إياها فقال: كم تساوي هذه عندكم، فمسكتها ونظرت إليها فقلت كذا، فوضعها وقال للمملوك هات الأخرى، فناوله إياها، وقال لي وهذه. فنظرتها وقلت كذا، فوضعها وقال هات ذلك السيف ومده إلي. وقال وهذا فقلت كذا، بحسب ما ظهر لي، إلى أن فرغ مما كان هناك معلقاً، ثم قال لي أما هذه فثمنها ألف ريال، وهذه ألف وخمسمائة، وهذه ألفان، وهذا السيف كذا، وهذا كذا، وتبين لي في وجهه كراهة ما ذكرت من الثمن.

أبو القاسم الزياني، الترجمان الكبرىٰ في أخبار المعمورة برأ وبحراً، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، فضالة، 967، ص ص 155 ـ 157

تكوين جيش عبيد البخاري

وولع هذا السلطان بجمع العبيد جعلهم عسكراً والسبب في ذلك أنه لما كان بمراكش أتاه طالب من أهل مراكش بدفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور فسأله هل بقي منهم أحد فقال كثيرون بمراكش وأحوازها وقبايلها. وإن كلفني سيدي بجمعهم جمعتهم له فكتب له أمره للعمال يقفون معه في جمع العبيد وأولادهم وتوجه لذلك ولما رجع من مراكش لمكناسة كلف كاتبه محمداً العياشي أن يخرج لقبايل المغرب وبني حسن والجبال لجمع العبيد. وكلف عماله بالقبايل أن يشتروا له العبيد، فجمعوا كل ما وجدوا حتى لم يبق أسود بالمغرب في حاضرة ولا بادية ولو كان حراً أسود أو حرة سوداء، ولما قدم عليه العياشي المراكشي بما جمع وقدم عليه ابن العياشي بما جمع ووجه له العمال ما جمعوا وما اشتروا دفع لهم الكسوة والسلاح وعين لهم قوادهم وأعطاهم ما يبنون به ووجههم لمشرع الرمل فنزلوا به على وادي فلفلة وبنوا وغرسوا واستمر الحال على ذلك إلى أن بلغ أولادهم فأمرهم أن يأتوا في كل سنة بمن بلغ عشر سنين من أولادهم وبناتهم فكان يدفع الأولاد لأهل البناء والنجارة وجميع الصنايع ويفرقهم عليهم ويعلمونهم ويدفع الباقي منهم للخدمة يسقون الجير والتراب إلى أن يكمل السنة، ويدفعهم لسوق البغال وبعد السنة يدفع لضرب المركز والطابية. وبعد السنة تدفع لهم عارية فيتعلمون ركوب الخيل عارية دون سروج حتى يمسكوا رؤوسها سنة فتدفع لهم السروج فيركبونها بها للفرّ والكرّ. ويخرج لهم من البنات اللواتي قدمن معهم وكن مفرقات عند عياله في قصوره يتعلمن الطبخ والفرش والغسل ومن كانت حسناء تدفع لصنعة الموسيقى يتعلمنها فإذا تعلمن أخرجهن لرجالهن بعد كسوتهن وقبض صداقهن، وكل واحدة يقبضها زوجها بيده بعد إثباتها في الدفتر ويدفع الذي يأتي من الوالدان للخدمة والبنات للقصور واستمر على هذا الحال طول أيامه إلى أن

مات، كل عام يتوجه العسكر لمشرع الرمل ويأتي بالأولاد إلى أن كان في الدفتر العسكري من العبيد مائة وخمسون ألفاً سبعون ألفاً بمشرع الرمل وخمسة وعشرون ألفاً بوجه عروص بمكناسة، وباقي العدد مفرق على القلع التي بناها بالمغرب من وجدة إلى وادي نون كلها ظاهرة يعرفها الخاص والعام وأكثرها قايم إلى وقتنا هذا. وهذا العدد وقفت عليه في تاريخ الحميديّ. وفي دفتر سليمان الزرهوني كاتب مولانا إسماعيل رحمهُ الله تعالى، وتواتر الخبر به، وأما عدد القلع التي بناها بالمغرب فهي ستة وسبعون قلعة شاهدنا أكثرها.

أبو القاسم أحمد الزياني ، الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب
نشر هوداس، الطبعة الحجرية 1886، الباب 15 ص ص 11 ـ 12

حمدان بن عثمان خوجة

(ت حوالي 1261 هـ/ 1845 م)

ولد حمدان خوجة بن عثمان خوجة بمدينة الجزائر من أسرة حضرية عريقة ذات ثروة وجاه، اشتغل بعض أفرادها بالتجارة وبتولي الوظائف الإدارية، فقد كان أبوه عثمان فقيهاً مدرساً ومقرباً إلى السلطة الحاكمة بالجزائر (البايليك)، وهذا ما سمح لحمدان خوجة بتولي منصب أمين عام لدى ديوان حكومة الجزائر برتبة مكتباجي، الأمر الذي أسبغ عليه اللقب الشرفي «أفندي» الذي كان يطلق على كبار الموظفين بالجزائر، كما أن خاله كان أحد موظفي الديوان المكلف بالإشراف على شؤون العملة والمعروف «بأمين السكة» ولذا كان صار حمدان خوجة من جملة الأعيان واكتسب مكانة مرموقة لدى طائفة المولدين «الكراغلة» الذين ينتسبون عن طريق العمومة إلى الطائفة التركية، ودفعه فيما بعد إلى أن يتبنى مواقف الحضر والكراغلة وأن يدافع عن مصالحها لدى سلطات الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر (1830 ـ 1833).

صحب حمدان خوجة وهو ابن التاسعة من عمره عمه الحاج محمد في سفارة إلى إستانبول مكلفة بتقديم هدايا ديوان الجزائر إلى مقام السلطان العثماني، وقد تردد بعد ذلك مرات عديدة على مركز الخلافة العثمانية (إستانبول)، فأعجب بمناهجها، وتعلق بمظاهر الحياة الراقية بها، كما زار بعض أقطار المشرق العربي وأقاليم البلقان، وفي طريق عودته من إحدى رحلاته نزل مدينة تونس (1801) وتعرف على معالمها وحظي بحفاوة حاكمها حمودة باشا الذي حضر مجلساً له كان يشكو فيه من تصرفات بعض الجزائريين بتونس.

عاش حمدان خوجة حياة موسرة بمدينة الجزائر واكتسب ثروة كبيرة درتها عليه أعماله التجارية المربحة. ومردود أملاكه الزراعية، فأصبح أحد أثرياء البلد إذ تجاوز رأس ماله ثلاثمائة ألف فرنك حسب ما صرح به هو نفسه للفرنسيين. وهذا ما أكده القنصل الإنكليزي في رسالة له مؤرخة في شهر أفريل 1831 عندما وصف حمدان خوجة بأنه أهم تاجر بالجزائر.

وقد قدرت السلطات الفرنسية ثروة حمدان خوجة بحوالي أربعين مليون فرنك، واضطر أن يدفع عنها ضريبة للفرنسيين ليخلو سبيلهُ قدرت بـ 13200 ف، وقد كانت هذه الثروة موضع تباهي حمدان خوجة وافتخاره فهو يعتبرها امتيازاً له في مجتمع مدينة الجزائر، وقد أشار إليها في كتابه المرآة قائلاً: «إني أملك بسهل متيجة من الأراضي ما يتطلب من البذور من أجل زراعته كل سنة ستين حمولة جمل من القمح وما بين مائة ومائة وعشرين حمولة شعير».

لم تشغل تلك الثروة الطائلة والحياة السهلة حمدان خوجة على تلقي العلم واكتساب الثقافة، فقد عمل على تنمية معارفه الأولية التي تلقاها عن أبيه وشيوخ بلاد الجزائر وهو صغير، ولم يكتف بمبادىء الفقه واللغة العربية، بل، سعى بمطالعاته الخاصة إلى الاطلاع على العديد من الفنون الأدبية والمعارف الفقهية، وأصبح على دراية بمسائل الأصول وعلم الكلام والمنطق والتاريخ والطب، كما حاول تعلم اللغة التركية ونظم الشعر، وقد أكسبته أسفاره العديدة معرفة أولية باللغتين الإنكليزية والفرنسية، كما ساعده اغترابه عن الجزائر مدة سبع عشرة سنة قام خلالها بالعديد من الجولات في الأقطار الأوربية مثل إنكلترا وبلجيكا وسويسرا وفرنسا واليونان على توسيع مداركه وإثراء ثقافته واطلاعه على قضايا العصر وطبيعة الحياة في هذه الأقطار. وأعجب خاصة بالحياة الرّاقية بباريس وقد تأثر في إحدى زياراته لها عند مشاهدة موكب الملك لويس فيليب وأسرته وهو يتجول في شوارعها، وهو الذي تعود على أن حاكم الجزائر حسين باشا (1818 ـ 1830) لم يكن ليغامر بالخروج من حصون القصبة التي كان يقيم بها.

عرف حمدان خوجة بأفكاره التحررية ونظرته المتفهمة للتطورات الاجتماعية

التي كانت تعيشها الشعوب الأوربية، وتتأثر بها أقاليم الدولة العثمانية، وتأثر بالجدل القائم آنذاك بين الليبراليين والمحافظين في إنكلترا وفرنسا، وأدرك بعمق ميزان القوي بين البلدان وطبيعة العلاقات الدولية، فحاول جاهداً تنبيه الداي حسين باشا حاكم الجزائر الذي كان يستشيره في بعض الأمور، من مغبة المواجهة مع الفرنسيين وعمل على إقناعه بضرورة التفاهم معهم وتجنيب الجزائر ما قد ينتج عن غزو الجيش الفرنسي لها، كما دفعته حميته الوطنية إلى مد يد المساعدة للداي في مواجهته للفرنسيين بإعادة تنظيم الجيش الجزائري إثر انهزامه وتراجعه في معركة أوسطاوالى وتقدم الفرنسيين نحو مدينة الجزائر، كما دفعه اطلاعه على التطورات الدولية إلى محاولة الاحتكاك بالإدارة الفرنسية التي نصبها الفرنسيون بمدينة الجزائر عند احتلالهم لها (1830) ولم يتردد في إرسال ابنه إلى قائد الحملة الفرنسية الجنرال دو بورمون سعياً منه للحد من تأثير الإجراءات التي اتخذها الفرنسيون في حق الجزائريين، كما سعى بتكليف من القيادة العسكرية الفرنسية بالجزائر للاتصال بحاكم مقاطعة التطري الباي بو مزراق، وحاكم مقاطعة قسنطينة الحاج أحمد باي، عسى أن يضع حداً لحالة الحرب ويحول بذلك دون التوسع الفرنسي نحو الجنوب والشرق.

شارك حمدان خوجة في اللجنة المكلفة بتحديد التعويضات للمتضررين من الحملة الفرنسية فاصطدم بالإدارة العسكرية الفرنسية، وتسبب له موقفه المعارض لاستيلاء الجنرال كلوزال الحاكم الفرنسي للجزائر على أملاك مؤسسات الأوقاف في تنحيته من هذه اللجنة ثم في تجريده من بعض أملاكه فيما بعد، الأمر الذي دفعه إلى رفع دعوىٰ قضائية وتقديم مذكرة في شأنها للمحاكم الفرنسية بباريس مستنداً في ذلك إلى ما تنص عليه أحكام وثيقة تسليم مدينة الجزائر للفرنسيين (1830) لكن لم ينظر إلى طلبه بجدية وأسقط حكمه بعد ثلاث سنوات باعتبار أن القضية ملغاة من أساسها، لكن حمدان خوجة ظل رغم ذلك متشبثاً بمطالبه في استرجاع أملاكه فرفع احتجاجات للسلطات الفرنسية، وتقدم بشكوى للملك فيليب وللمارشيال مولت وزير الحربية في 3 جوان 1833 في شأن مطالبه والمخالفات التي ارتكبها الجيش الفرنسي في الجزائر، وأثناء ذلك اتصلت

اللجنة الإفريقية (La Commission d'Afrique) التي كونها الفرنسيون والتي كانت تنظر في شأن ما قد تقترحه في شأن مستقبل الجزائر بحمدان خوجة، فمثل أمامها في جلسة 14 جويلية 1833. ولفت انتباه رئيسها إلى التجاوزات التي حدثت في حق الجزائريين، ولم يقتنع بالوعود التي أبدى فيها رئيس اللجنة التزام فرنسا باحترام المساجد وإعادة الأملاك إلى أصحابها، بل حاول جاهداً عرض قضية بلده في عرض شامل كان أساساً لتأليفه كتاب المرآة الذي أنتجه بباريس وظهرت ترجمته الفرنسية سنة 1833.

اضطر حمدان خوجة إلى مغادرة الجزائر بعد أن يئس من عدالة الفرنسيين، وفهم أبعاد سياستهم الاستعمارية التوسعية، فتوجه إلى إستانبول حيث كان يتتبع التطورات بالجزائر، مواظباً على القراءة والتأليف حتى وافته المنية ودفن بمقبرة الصحابي الجليل أيوب الأنصاري حوالي عام 1261 هـ/ 1845 م.

كتب حمدان خوجة العديد من الرسائل والمصنفات عرض فيها قضايا سياسية ومسائل فقهية موضحاً فيها موقفه من الأحداث التي عاشتها الجزائر عند تعرضها للغزو الفرنسي، منها مذكرة قدمها للجنة الإفريقية في 26 أكتوبر 1833 م. اقترح فيها بعض الإجراءات الضرورية في نظره لتجنب الفرنسيين عداء السكان لهم، وعرض فيها لأعضاء اللجنة معلومات عن أوضاع الجزائر وحالة السكان النفسية والاجتماعية وخصائص بعض المناطق، ولعله بذلك كان يريد إبعاد تهمة معاداته للفرنسيين التي حاول بعض الحكام الفرنسيين إثباتها ضده، وقد حفظ نص هذه المذكرة بالأرشيف الفرنسي (تحت رقم 980) وتمكن الأستاذ ج. أيفير G.Yver من نشرها بالمجلة الإفريقية سنة 1913.

ومن رسائل حمدان خوجة أيضاً نشرة ممضاة باسمه رد فيها على مقال صدر بمجلة مراقب المحاكم (L'Observateur des Tribunaux) بتاريخ 25 جويلية 1834. بعنوان «تقاييد على كتاب حمدان خوجة». ورسالة وجهها لشيخه محمد بن علي، وترجمة رسالة الشيخ حسين الشرنبلالي (ت 1659) «نور الإيضاح ونجاة الأرواح» في الفقه الحنفي إلى اللغة التركية تحت عنوان «أمداد الفتّاح».

كما له تآليف في قضايا تتصل بالعقيدة وقضايا المجتمع منها رسالة «حكمة العارف بوجه ينفع لمسألة ليس في الإمكان أبدع» تأثر فيها بأبي حامد الغزالي، وضعها بإستانبول 1836 وهي لا تزال مخطوطة ورسالة أخرى عن مرض الوَباء، ألفها بإستانبول في أسلوب يعتريه الغموض وهي بعنوان «إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز من الوباء. وتعرض فيها لمسائل فقهية وأورد معلومات طبية مستفيداً من تجاربه الشخصية ومعرفته الخاصة بالحقائق الصحية، وحاول فيها إقناع القارىء بضرورة الانتفاع بتجارب الأوربيين وتقليدهم في نظام العزل الصحي «الكرانتينة» عملاً بمبدإ الوقاية خير من العلاج حيث يقول: «ولما رأيت الخلل الداخل على المسلمين بإهمال هذه القواعد وإنكارها. . . ورأيت بالبلاد الفرنجية انتظام أمورهم حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتراز بالاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم إلا بعد تحقيق البراءة والاستبراء. . . وسموا ذلك كرنتينة. . .». وقد كان حمدان خوجة ينوي تقديم رسالته في الاحتراز من الوباء إلى السلطان محمود الثاني تشجيعاً له على الإصلاح وتأييداً له في أخذه بمظاهر الحضارة الأوربية، وترجمت الرسالة إلى اللغة التركية 1836 ونشر نصها العربي بالجزائر أخيراً من طرف الباحث محمد بن عبد الكريم (الجزائر 1968) اعتماداً على مخطوطة المكتبة الوطنية الفرنسية (تحت رقم 2456).

على أن العمل الذي اشتهر به حمدان خوجة وعد به ممن أغنوا التراث التاريخي للجزائر هو كتاب «المرآة» الذي وصلتنا ترجمته الفرنسية الصادرة بباريس عام 1833 بعنوان لمحة تاريخية وإحصائية عن نيابة الجزائر المعنون بالمرآة «Aperçu historique et statistiquc, intituié: Le Miroir»، أما الأصل العربي فهو في حكم المفقود وقد أشار إليه ولده علي رضا باشا في كتابه مرآة الجزائر في النسخة التركية المترجمة عن العربية متحدثاً عن والده «عندما كان مقيماً بفرنسا ألف كتاباً بالعربية وترجمه إلى الفرنسية وطبعه ليطلع وزراء الحكومة الفرنسية على مساوىء الإدارة المدنية الفرنسية بالجزائر» هذا ومن الراجح أن حمدان خوجة كان ينوي إصدار كتاب المرآة في جزأين بدليل أن السنخة الفرنسية الصادرة في شهر جويلية 1833 تحمل عبارة الجزء الأول.

يتألف كتاب المرآة من ثلاثة عشر فصلاً تمس مختلف أوضاع الجزائر استهلها بمقدمة أثار فيها تساؤلات حول الوضع الصعب التي كانت تعيشه البلاد الجزائرية وبيَّنَ فيها الأسباب التي دفعته إلى التأليف والهدف الذي قصد به أن يكون جواباً شافياً وشرحاً مفصلاً للحالة التي آلت إليها الجزائر، أما مضمون الفصول فهي كالتالي: الفصل الأول: في بدو الجزائر في السهول (العرب) والجبال (وهم البربر) مع إشارة إلى فكرة تقديس الأولياء عند البربر. والفصل الثاني: في طبائع وعرب البربر كالألبسة وطريقة العيش، والفصل الثالث: تابع فيه وصف طبائع البربر من حيث المسكن وطريقة الحياة، والفصل الرابع: عرّف فيه بسهل متيجة وسكانه وسكان التل (مناطق الشمال)والصحراء، والفصل الخامس: في أوضاع سهل متيجة وطبيعة سكانها والشروط المناخية غير الملائمة التي يتميز بها هذا السهل القريب من مدينة الجزائر. والفصل السادس: تحدث فيه عن سكان الجهات الغربية من البلاد الجزائرية وأوضاع مدنه مثل تلمسان ووهران ومعسكر ومليانة مع ذكر مدينة المدية الواقعة إلى الجنوب من مدينة الجزائر، وعن ما شاهده من أحداث في أوائل عهد الاحتلال (الفرنسي)، الفصل السابع: في أوضاع مدينة الجزائر البشرية والثقافية خاصة، الفصل الثامن: في أصول الحكم التركي وتنظيماته مع ذكر أسباب مجيء الترك للجزائر وطبيعة حكمهم لها. الفصل التاسع: في كيفية صناعة السفن وطريقة توزيع الغنائم مع مسائل تتصل بالتنظيم العسكري بالديوان، الفصل العاشر: في تحديد مهام الداي وصلاحياته ودور الجزائريين في الحياة العامة وفي إدارة البلاد مع ذكر ألقاب الموظفين الإداريين، الفصل الحادي عشر: في كيفية تحديد الرسم على الأراضي، وفي طريقة جمع الضرائب قبل الاحتلال الفرنسي. الفصل الثاني عشر: في انحطاط حكومة الأتراك وسقوطها وذكر أسباب الضعف السياسي والعسكري الذي أصابها، الفصل الثالث عشر: في ذكر آخر بايات الجزائر في عهد الباشا حسين داي (1818 ـ 1830)، دافع فيه عن هذا الباي وحاول دحض الاتهامات الموجهة إليه.

من خلال عرض مضمون كتاب المرآة يتضح لنا أن مؤلفه تناول فيه أوضاع الجزائر الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بصفة شاملة وبنظرة

متفحصة ومعلومات جديدة تعكس اطلاعه على أحوال الجزائر وتظهر مدى معرفته بواقع الإدارة العثمانية فيها، بعضها كان نتيجة ثقافته الشخصية ومعرفته الخاصة، وبعضها استقاه من الحكام والموظفين والتجار الذين كان على اتصال بهم، وفي طليعتهم التجار اليهود المتنفذين مثل بكري وبوشناق وقد أشار إلى أحدهما في قوله: «لقد أخذت عَن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات».

ومع أن أصل كتاب المرآة بقي مفقوداً، فإن القارىء العربي بإمكانه الرجوع إلى الترجمة العربية للنسخة الفرنسية التي قام بترجمتها كل من الأستاذ محمد بن عبد الكريم (1972) والأستاذ محمد العربي الزبيري (1975).

عبر حمدان خوجة فيما كتبه وخاصة في كتاب المرآة عن مواقفه من الأحداث، وأبدى رأيه في القضايا المطروحة، وحاول قدر المستطاع استخلاص النتائج انطلاقاً من المعلومات التي عرضها والوقائع التي سجلها وهو في ذلك يهدف إلى إقناع القارىء والمتلقي، وقد التزم في كل ما عرضه الدقة والصدق في تسجيل الأخبار لأنهما ضروريان لإقناع مخاطبه كما عمد إلى ترتيب المعلومات ومقارنتها مما أكسبها منطقية وقربها من ذهن القارىء.

لقد تعامل حمدان خوجة مع أحداث عصره وقضايا مجتمعه بفكر أوربي إذ تفاعل مع النزعة الرومانسية والتوجه القومي والسلوك الليبرالي الذي طبع الثقافة الأوربية والفرنسية خاصة، وقد حرص من خلال فهمه لأوضاع عصره واحتكاكه بالأوربيين وتعامله مع الفرنسيين على تجنب أسلوب المواجهة والتحدي، فحاول أن يسلك سبيل إقناع النخبة المثقفة والحاكمة في فرنسا، فعمد إلى مخاطبتهم انطلاقاً من الأفكار التي يسلمون بها، ومن أقواله في ذلك: «إن قضية الجزائر قضية خطيرة ما دامت تتعلق بحياة أمة» وأن «الجزائر أمة لها مقومات شخصياتها كالدين واللغة والعادات والتقاليد، وأن ما يقوم به الجيش الفرنسي في الجزائر مناف للسلوك الإنساني ومتناقض مع مبادىء العدالة والحق وإن قادة فرنسا مدعاة للفخر فالجنرال لويردو رجل الشرف والعظمة والمثير للإعجاب والجدير بالانتساب إلى الأمة العظمى (فرنسا)».

بمثل هذه العبارات حاول حمدان خوجة كسب عطف الشخصيات الفرنسية المؤثرة، وكان يأمل من وراء ذلك التأثير على مُخططات فرنسا في الجزائر، وقد أدى به ذلك في موقف حرج فهو من جهة يحاول كسب رضا الفرنسيين حتى يحافظ على عضويته في بلدية الجزائر، وفي اللجنة المكلفة بالنظر في تعويض الأشخاص الذين هدمت منازلهم للمصلحة العامة على عهد إدارة كلوزال للجزائر، وفي الوقت نفسه يحاول بكتاباته الحدّ من مظالم الجيش الفرنسي على الجزائريين ويصرفهم عن سعيهم للعمل على ضم الجزائر واستعمارها، ففي الفصل الرابع من المرآة يحاول إقناع الفرنسيين بالعدول عن فكرة الاحتفاظ بالجزائر بحجة أنها عديمة الفائدة لفرنسا بالنسبة لإمكانياتها الطبيعية والبشرية، وأن سهل متيجة القريب من مدينة الجزائر والذي كان هدفاً لأطماع المعمرين الفرنسيين؛ هو مصدر للأمراض المختلفة لانتشار المستنقعات به وأن إنتاجه من الحبوب من النوع الرديء.

إن حمدان خوجة بمثل هذه المواقف وتلك الأفكار كان يتصرف بنظرة مثالية وعاطفة رومنسية مبهورة ببريق الحضارة الغربية، كما كان يتعامل في نفس الوقت بدافع المصلحة الذاتية والفهم الآني للسياسة الفرنسية بالجزائر التي من الراجح أنه لم يكن يعرف أبعادها، وهذا ما جعل أفكاره رغم جِدَّتها وحداثها تبدو غير واقعية بل ساذجة في بعض الأحيان، ونابعة من عاطفة رومانسية جياشة كما يبدو ذلك من قوله: «إن ما فيه وطني كان يقلقني باستمرار، وكثيراً ما كنت خلال تسجيلي لهذه التعاسة أضع قلمي لأترك دموعي تنهمر».

إن التفاعل الذي أظهره حمدان خوجة مع قضايا عصره وحاجات مجتمعة، والأفكار التي عبر عنها في كتاباته وخاصة في المرآة من قبيل المطالبة بالأخوة والعدالة وحق الشعوب في الحرية والسيادة، تجعله في طليعة المثقفين المسلمين الذين دعوا إلى الأخذ بالقيم الحضارية الغربية في مجتمعاتهم، كما يعتبر واضع أسس مطالب النخبة السياسية الجزائرية في الربع الأول من القرن العشرين، وهذا ما يجعل منه بحق مصلحاً سياسياً. ولعل هذا ما جعل الأستاذ أبا القاسم سعد الله في معالجته لتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية يعتبر حمدان خوجة ليس فقط رائداً

للحركة الوطنية في الجزائر وإنما رائداً لعصر التنوير في العالمين العربي والإسلامي الذي نتج عن الاتصالات الثقافية بين الشرق والغرب.

المراجع المعتمدة:

- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت 1972.
- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، لمحة تاريخية وإحصائية عن إيالة الجزائر، ترجمة محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1975.
- حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968.
- حمدان بن عثمان خوجة، مذكرات، ترجمة محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1973.
- التميمي (عبد الجليل) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي (1816 ـ 1871)، الدار التونسية للنشر، تونس 1972.
- سعد الله (أبو القاسم) الحركة الوطنية الجزائرية ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992 ج/ 2 ص ص 29 ـ 36.
- زوزو (عبد الحميد) حمدان خوجة ومنهجه في كتابة التاريخ، مجلة الأصالة، الجزائر عدد 4/ 1971، ص ص 86 ـ 98.
- ابن عبد الكريم (محمد) حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، بيروت، 1972.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 169 ـ 170.
- تاريخ الجزائر العام، ج 4 ص ص 32 ـ 43.

- Hamdan ben Othman Khoja, Aperçu historique et statistique, sur la Régence d'Alger, intitulé Le Miroir, Paris 1933.
- Yver (G) Hamdan ben Othman Khoja, in Revue Africaine, 1913.

موظفو البايليك

وللباشا أو الداي نائب يحتفظ بمفتاح الخزينة ويسمى الكاهية، ومن جملة أعضاء الحكومة يوجد اثنان أحدهما يسمى وكيل الحرج، وثانيهما يسمى الخزناجي ومن بين هؤلاء الأشخاص يختار الداي، لأن الحكم في الجزائر، ليس وراثياً، إذ أن الاستحقاق الشخصي لا ينتقل إلى الأطفال، وبعبارة أوضح نستطيع القول بأن الجزائريين اختاروا مبادىء الحكم الجمهوري، ورئيس الجمهورية هو الداي.

وبعد الوظائف التي ذكرناها تأتي مرتبة الآغا وهي درجة سامية، إذ هو الذي يقود وحدات الفرسان التي تتكون في معظمها من العرب أو القبائل، وعليه يتحتم على الآغا أن يتكلم العربية ليتمكن من إعطاء الأوامر وتسيير جيوشه.

وبعد الآغا يأتي خوجة الخيل الذي يشرف على الأملاك الوطنية، وتدخل في اختصاصاته أيضاً إدارة الحارات والتصرف في الجمال المخصصة لنقل الجيوش والعتاد الحربي، وهو الذي يأمر بتوزيع هذه الخيول والجمال على مختلف قبائل الإيالة التي تتولى الاعتناء بها والمحافظة عليها، وذلك بعد أن تدمغ بخاتم الدولة، وإذا وقع حادث يؤتي بقطعة الجلد التي تحمل العلامة للتدليل على موت الحيوان، ونتيجة لهذه الطريقة في العمل يحظى الحيوان بعناية وتمنح الثقة لتلك القبائل التي تجد منفعة في استعمال الحيوانات لقضاء حاجتها. وبالإضافة إلى ذلك تعمل هذه الوسيلة على تمكين الرباط بين القبائل ومصالح الحكومة، ويحدث في بعض الأحيان أن رعاة الخيل والجمال هؤلاء يحتاجون إلى دراهم فيبيعون صغارها. عندئذ يحدد خوجة الخيل سعر المبيعات بأثمان تكون دائماً معتدلة، ولتسهيل الأمور على هؤلاء الرعاة، غالباً ما يعطيهم أجلاً للدفع يتراوح ما بين عام وعامين،

وكثيراً ما يقدر الحيوان المباع بثمن أقل من سعره الحقيقي، وذلك لشدهم إلى الدولة وللحصول على طاعتهم طوعاً، وإقناعهم بعدل الحكومة إزاءهم وبالعناية التي توليها لإسعادهم.

وهناك شخص آخر هو رئيس الكتبة ويسمى المقطعجي، وهو الذي يشرف على سجل محاسبات الدولة وسجل القوانين العسكرية الذي يحتوي على الأسماء والألقاب والدرجات المختلفة بالنسبة لكل فرد. ويوجد تحت تصرف هذا الكتاب الأول وثلاثة أشخاص مكلفين بالسجلات. يسهر أحدهم على المحاسبات الخاصة بالعسكريين وعلى كل ما يتعلق بهم، ويقوم الثاني بالمحاسبات العامة فيما يخص الدولة، أما الثالث فيعتني بسجلات الجمارك، وتنقل هذه السجلات الثلاثة على سجل رئيسي كبير، لأن كل واحد منها يعتبر كمجرد دفتر يقيد فيه بالضبط كل ما يجري لتجنب سائر أنواع الخطأ والنسيان.

إن مهمة المقطعجي أو الكاتب الأول لفي غاية الأهمية. وتعتبر كمهنة شيخ الإسلام الذي هو المفتي الحنفي. ومن الواجب على هذا الكاتب الأول، الذي يستشيره العاهل في جميع الحالات. أن يعرف القوانين الأساسية والتاريخ وحقوق الإنسان حتى لا يقوم بأي عمل ضد القانون، كما أنه يحظى بلقب أفندي الذي لا يلقب به سوى الداي والمفتي، وعلى الرغم من أن رتبة الخزناجي مساوية لدرجات هؤلاء الأشخاص الثلاثة. فإنه لا يتمتع بهذا اللقب، وعندما يحضر أحد هذه الشخصيات الأربع يتحتم الوقوف على جميع القادة العسكريين الذين يكونون الديوان. وإذا كان الخزناجي يحظى من العامة بنوع من الاحترام فلأنه من الممكن أن يصبح داياً في يوم من الأيام، ولذلك يتوددون إليه مسبقاً.

حمدان بن عثمان خوجة

المرآة، تعريب وتقديم محمد العومي الزبيري

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص ص 127 ـ 129.

ضرورة الوقاية من الوباء

لما رأيت الخلل الداخل على المسلمين بإهمال هذه القواعد وإنكارها (التوسط في الأمور وإعطاء كل ذي حق حقه) والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة وملاحظة أغوارها في كثير مما ابتكره الإفرنج بدعواهم، واشتهرت نسبته إليهم مما يتعلق بأمور دنياهم، حتى بعضهم أنكر على الذين يستحسنونها، وعدوا ما يطرأ لهم من المضرة قربة يحتسبونها. وكنت قد تجشمت أسفاراً. . . وصرفت فيها برهة من العمر. . . فكنت رأيت بالبلاد الفرنجية انتظام أمورهم واعتناءهم بأمور السياسة في حياة جمهورهم وخصوصاً حيث التزموا لدفع الوباء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتراز بالاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم إلا بعد تحقيق البراءة والاستبراء. وجعلوا لذلك حكاماً في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط، وسموا ذلك كرنتينة، فأصابوا في بعض ما فعلوا، وأخطأوا في إسنادهم التأثير فيها للأسباب التي كان موجباً لنفرة المسلمين عن كل ما فعلوا، عوضاً عن النفرة عن خصوص ما اعتقدوه في هذا الباب. . .

لقد حضرت في مدة حياتي، وهي تنيف عن الستين، وقوع الوباء بالجزائر متفرقة على سنين، كان مجموع تلك المحنة عشرين سنة، فشوهت خلقة الجزائر بعد أن كانت عذراء ممتحنة، فأقفرت معالم البلاد، وتشوشت أحوال العباد، واضمحل العلم، وذوو الاستعداد وانقرض من الفكر من كان عدة في العمران والفلوات. . . ففشى فيها ـ يومئذٍ ـ الفساد واكتهل، واتسع الخرق ولم يبق للراقع محل، فيا لها من رزية تقشعر لها الجلود الحساسة. ويا لها من خسارة ومبدؤها إيراد ممرض على مصح، كما أن مبدأ الحريق شرارة، هذا والفرنج التزموا غاية الاحتراز، فلم تطرف ساحتهم، حتى زعموا أن لهم عمراً طبيعياً يبلغونه ويغتنمون

راحتهم، فتوارثوا الصنائع المهمة، وزاد فيها آخرهم عن الأول وتوفرت عساكرهم ومتاجرهم، اللتان عليها المعول، واستدرجوا فاكتفوا بقلة حزمنا عن قتاله، حيث ضعفت قوانا واستأصلنا معظم رجالنا، فيا للعجيب من قوم ﴿يخربون بيوتهم﴾ ويجعلون الضعف قوتهم والرأب قوتهم. . .

عثمان بن حمدان خوجة
إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء
تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1968، ص ص 44 ـ 48

حسن الفقيه حسن

(ت حوالي 1284 هـ/ 1867 م)

ولد حسن الفقيه حوالي عام 1195 هـ/ 1780 م بطرابلس، من أسرة تولى بعض أفرادها خطة الإمامة، فعرفوا بلقب الفقيه، وتلقى تعليماً أولياً في الكتاب قبل أن يشتغل مع أبيه أحمد الفقيه بالأعمال التجارية، وبعد موت أبيه سنة 1226 هـ ـ 1811 م ورث عنه نشاطه التجاري وتوسع فيه خاصة في المجوهرات والمعادن الثمينة، وارتبط عن طريق المصاهرة بإحدى العائلات ذات النفوذ بطرابلس، مما نمّىٰ ثروته وبَوّأَهُ مكانة اجتماعية مرموقة وأهله لأن يكون متعاملاً مالياً مع حاكم طرابلس يوسف باشا القرامانلي (1248/1251 هـ) فقصده الناس للتوسط لهم في قضاء حاجاتهم.

هذا وقد أهلته خبرته هذه لأن يتولى نظارة ختم الفضة فيما بعد وبالتحديد في عهد الوالي العثماني عزت باشا (1260 هـ/ 1850 م) وأن يصبح عضواً في مجلس المشورة للإيالة الطرابلسية، فأعفي من العديد من المطالب المالية، واعتبر من أكابر البلد «الأعيان» وقد ساعده وضعه هذا على الاطلاع عن كثب على مجريات الأمور، والوقوف عن قرب على الأحداث المهمة التي عرفتها طرابلس مثل وقائع حملة الأسطول النابولي على طرابلس على عهد يوسف باشا، وتقلبات الحرب الأهلية الطاحنة بين أفراد الأسرة القرامانلية بطرابلس، (1248 ـ 1251 هـ) (1832 ـ 1835 م) وما صاحبها من سقوط ضحايا ونهب ومجاعة وأمراض، وما أعقبها من فرض للحكم العثماني المباشر على طرابلس، فكان حسن الفقيه في خضم هذه الأحداث المهمة التي وضعت حداً لحكم الأسرة القرامانلية والتي

تميزت خاصة بثورة العامة على علي بن يوسف باشا بزعامة كل من محمد وأحمد حفيدي يوسف باشا، وواجه فيها سكان المنشية والساحل وباقي جهات إقليم طرابلس سكان مدينة طرابلس حيث كان يتحصن يوسف باشا وابنه علي لمدة ثلاث سنوات، والتي لم تنته إلا بعد أن أرسل السلطان العثماني إلى طرابلس المشير مصطفى نجيب مع مجموعة من الموظفين وقوة عسكرية تمكنت من وضع حد للفوضى وإقرار حكم عثماني مباشر (1251 هـ/ 1835 م).

ساعد حسن الفقيه على كتابة المذكرات التي بدأها أبوه عام (1222ـ1807 م) ما ناله من ثروة وخبرة، وما اكتسبه من ثقافة عملية، وكان شغفه بتسجيل الأمور المتصلة بالمعاملات التجارية دافعاً له على تقييد مختلف القضايا والأحداث، فواظب على تسجيلها بخط يده في أوراق منفصلة منذ عام (1226 هـ ـ 1811 م) واستمر في ذلك دون انقطاع حتى سنة (1283 هـ ـ 1866 م) أي قبل وفاته بعام واحد، وقد أضاف إليها بعض اليوميات والنقول التي اقتبسها عن وثائق سابقة، كل ذلك بلغة قريبة من اللهجة المحلية لما خالطها من ألفاظ عامية وكلمات تركية وأوربية كانت شائعة على ألسنة الناس آنذاك.

تتضمن يوميات حسن الفقيه معلومات مهمة تتصل بوضعية الأسعار والعملة والحالة المعاشية والصحية وإجراءات الجمارك وقضايا الضرائب وجباية الأموال وبيع الامتياز وأنواع الحرف والمواد الأولية والاستهلاكية، ونقل البضائع عن طريق القوافل وحركة ميناء طرابلس مع باقي موانىء البحر المتوسط وضبط الأملاك العقارية لعائلة الفقيه داخل وخارج طرابلس 1234/1237 هـ/ 1819 ـ 1821 م مع إشارات إلى الأمور المتعلقة بذلك مثل الأزمات التي عرفتها طرابلس وتسبب فيها الغلاء أو نتجت عن حدوث الوباء والتي صاحبتها الوفيات وتخللتها الكوارث الطبيعية، فكانت بذلك يوميات حسن الفقيه تسجيلاً حياً لتفاصيل الحياة اليومية لشؤون عامة الناس ومؤشراً صادقاً لمراكز النشاط التجاري بطرابلس ولا سيما سوق الثلاثاء وسوق الجمعة، ورصداً دقيقاً للأحوال الاجتماعية والاقتصادية وما يتصل بها من قضايا سياسية ووقائع حربية لطرابلس الغرب، وهذا ما جعلها مصدراً أساسياً ومرجعاً لا غنىً عنه في تاريخ طرابلس في العهد العثماني عامة والخمسين

سنة الأخيرة منه بصفة خاصة أي فترة حكم كل من يوسف باشا قرامانلي وابنه علي والولاة العثمانيين الأوائل حتى ولاية نديم باشا.

تتألف يوميات حسن الفقيه من ثلاث مجموعات اختلط فيها تقييد المعاملات اليومية بالأحداث التاريخية، وأخذت في بعض الأحيان شكل قوائم وأعمدة تحمل أرقاماً وصل عددها إلى 1706 أرقام متسلسلة، أغلبها يتعلق بالأسعار والوفيات، المجموعة الأولى منها تتضمن سبع عشرة يومية (ترقيماً) من 1137 ـ 1209هـ/ 1725 ـ 1795 م والثانية وهي أطولها تشتمل على 94 يومية وتغطي أغلب العهد العثماني 958/1212 هـ 1551 ـ 1798 م، والثالثة تتألف من 17 يومية وهي أقل المجموعات، عثر عليها حسن الفقيه عند سيدي إبراهيم ولد باي بنغازي، وهي في الأصل تقاييد كناش الشيخ محمد النحاس الكبير الذي ذكر فيه «محروسة طرابلس وما وقع فيها من الأمراض والحوادث في سنوات 1030/ 1177هـ/ 1620 ـ1764م.

أما من حيث الترتيب الزمني للترقيم الوارد في المذكرات فيمكن تقسيمه إلى ثلاث فترات متميزة بالنظر إلى ما وقع فيها من أحداث وما سجل فيها من وقائع، وهي الفترة الأولى للحكم العثماني لطرابلس (958 ـ 1243 هـ/ 1551 ـ 1832 م) والفترة الأخيرة لحكم آل القرامانلي التي تميزت بالحروب الأهلية (1248 ـ 1251 هـ) (1832 ـ 1835 م) وفترة الحكم العثماني المباشر حتى منتصف القرن التاسع عشر (1251 ـ 1277 هـ) (1835 ـ 1861 م).

ضاع العديد من أوراق مذكرات حسن الفقيه بسبب تعرض عائلته التي احتفظت بها للتفتيش من طرف الإيطاليين (سنة 1922) ثم الإنكليز (عام 1948) الذين اعتقلوا حفيد الكاتب علي الفقيه لنشاطه السياسي آنذاك وصادروا ما وجدوه عنده من أوراق وقد أدى ذلك إلى تبعثر أوراق المذكرات وضياع جزء منها، ففقدت اليوميات تسلسلها التاريخي ولم يبق محافظاً على ترتيبه منها إلا ما يتعلق بالسنوات السبعة والثلاثين الأخيرة (1240 ـ 1278)، وقد قام أخيراً كل من محمد الأسطي وعمار جحيدر بجمع هذه المذكرات وتحقيقها والتعليق عليها، ونشر القسم الأول منها بطرابلس (1984).

المراجع المعتمدة:

- حسن الفقيه (حسن) اليوميات الليبية، الجزء الأول (958 ـ 1248 هـ ـ 1551 ـ 1832 م)، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر. منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين، جامعة الفتح، طرابلس، 1984.
- حسن الفقيه (حسن) حملة نابولي على طرابلس (1828)، تحقيق محمد الأسطي و (عمار) جحيدر، وتقديم حفيد المؤرخ علي الفقيه حسن. منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين، طرابلس 1978.
- جحيدر (عمار) من وثائق تاريخ ليبيا الاقتصادي في أوائل القرن التاسع عشر، دفتر تجاري للمؤرخ الطرابلسي حسن الفقيه حسن، المجلة التاريخية المغربية، تونس عدد 39 ـ 40/ 1985، ص ص 461 ـ 472.
- المصراتي (علي) مؤرخون من ليبيا، مؤلفاتهم ومناهجهم، عرض ودراسة، طرابلس، 1977. ص ص 153 ـ 159.

ـ يوم الجمعة 1 ربيع الثاني 1228 هـ.

سافر محبنا الحاج حسين الباوصي إلى الجزائر ومحبنا الحاج محمود بن سليمان ومحمد بانون ومحمد التارزي.

ـ يوم الخميس 16 رجب 1228 هـ.

الحمد لله ـ قدم علينا محبنا محمود بن سليمان من الجزائر، وفيه: الصنادلي وسيدي الحاج محمد الشيخ الطويل، وولده الصغير، وسيدي أحمد الشيباني القصير، وسيدي أحمد الصنادلي والباوصي وأحمد الحوات، وولد محمد التارزي، والحاج عثمان الغندوسي ومحمد بانون، وسليم خديم محمد المذكور.

ـ أيضاً في اليوم المذكور (السبت 19 ذي القعدة 1228 هـ).

سافر الرايس محمد ولد الدبصكي إلى كريت في المرتقاوة (نوع من السفن) بالقمح الذي جابوه من عنابة وفيها سيدي محمد الربع وكيل على بيع القمح وسيدي إبراهيم بالخير قادم إلى كريت.

ـ يوم الاثنين 9 رجب 1232 هـ.

سافر الرايس عمار الشيلي في القريبطة (سفينة حربية صغيرة) ورفع معه علي الوصيف متاعنا وهدية إلى الجزائر.

ـ يوم الأربعاء 10 ذي الحجة 1240 هـ.

قدم علينا خبر محبنا عليوة البارودي توفي بالجزائر ـ رحمة الله عليه ـ وقد جعل علي بن حريز وكيله، وتولى جميع أموره بالجزائر.

- يوم الأربعاء 5 ربيع الثاني 1241 هـ.

قدم علينا القبطان مراد رايس، وجاب بيده سكونة غنيمة. الوسق متاعها: ملخة (جلد سميك لصناعة النعال) وكشنيلية، وصناديق صابون وملح وفيه: سيدي محمد البارودي وعلي بن حريز وجدهم في الجزائر روح بهم.

- يوم الاثنين 18 رجب 1243 هـ.

قدم علينا محمد خبول من بنغازي في البر. ومعاه شاوش من الجزاير كان في الحج، وحطوه بحوش الباشوات، وبيده جوابات من الرّياس متاع الجزائر إلى الجزاير.

- يوم الجمعة 29 ذي القعدة 1243 هـ.

قدم علينا جفن مريكان من مالطة إلى تونس 3 أيام، وإلى طرابلس من تونس يوم واحد وأخبرنا بأن السلطان علم القيرة مع الموسكو والفرنسيس يبغي يعمل الصلح مع الجزاير وجاب بيده جوابات رماهم وسافر، ولن عملوا عليه سالوتي، لأنه توجه وسافر.

- يوم السبت 29 ذي الحجة 1243 هـ.

قدموا علينا جوز بريكات وقربيطة وفرقاطينة وسكونه سويد قيرة(حربية) وبعد العصر سلم عليهم سيدنا ـ دام عزه ـ 33 مدفع. ورجعوا هم من المركب قدرهم وطلب القنصل من عند سيدنا ـ دام عزه ـ أن يطلق على الباشا دور الذي عنده في الشقوف مثل ما طلقوا عليه في الجزائر وتونس 7 مدافع، وحين يقابل سيدنا 7 مدافع فأبى سيدنا ـ دام عزه ـ وذكر لهم بأن هاذون ليس مذكورين في الصلح عندنا، وطلبوا من سيدنا: يبغوا يملوا الماء من العوينة، فأرسل إلى رايس المرسى مصطفى قوجي. وأذنه أن يرسل معاهم أحد ويملوا الذي يبغوا.

- 8 محرم 1244 هـ.

أرسل سيدي الباي خليل بنغازي مع الحاج على التارزي حين توجه من طرابلس غرب إلى عنابة والجزاير في بريك الأرنغوط كشمير من الأفخر، ذكر أنه

اشتراه بمائة وعشرة دورو، وشال كشمير من الأوسط من غير أباقيل «غير مزخرف» وأذنه يبيعهم له ويأخذ له: حزام حرير بالفضة كنالو من سعر 30. وكذلك حزام ثاني مور بالفضة سعر الأول، وبرنوس بيدي من غير تخطيط وقنطار شمع أبيض والباقي كسكسو وإلا محمصة ـ ربنا يحمله بسلام.

ـ ليلة الأحد 4 ذي الحجة 1224 هـ.

بعد العصر بان شقف بريك محمد علي والي مصر، لأنه قبل التاريخ بيومين قدم علينا الرايس محمد الداقير من تونس. وأخبرنا بأنه جاء بريك من سكندرية من عند محمد علي إلى تونس. وحاب جواب، ولن قعد بها إلا أربع ساعات وتوجه إلى الجزاير، ومن الجزاير قادم إلى طرابلس غرب.

ـ ليلة الخميس 2 محرم الحرام 1245 هـ.

توجه الرايس محمد الزريق من محروسة طرابلس غرب في البرقنتي الجديد، رياسة محمد بن الحاج. لأجل يأتينا بأخبار الجزاير والفرنسيس ـ ربنا يسمعنا خبر خير.

ـ يوم الخميس 3 ربيع الأول 1245 هـ.

قدمت علينا قربيطة إنقليزة من تونس ومن الجزائر، ولها من تونس أربعة أيام ومن الجزائر خمسة أيام وأخبرت علي قنصلير الإنقليز الذي توجه من طرابلس إلى فرنسا بأنه مرض ودخل تونس، وأما من ولده ريقو الذي معاه توجه إلى فرنسا، وأما من ولد حسونة جاء مع القربيطة المذكورة أعلاه، هذا ما سمعنا والسلام. وكذلك أخبرونا على حسونة الدغيس الذي سافر مع القربيطة المليكانة بأنها دخلت تونس وقعدت في تونس 8 أيام والسلام. وطلق لهم سيدنا السالوتي وردوهم يوم السبت دخلوا الحصار، وطلق 9 مدافع.

ـ ليلة السبت 10 رمضان 1245 هـ.

قدمت علينا مركب من القورنة، وجابت أرواق من عند حاي موشيك وغيره في قضية محمد علي والي مصر: بأنه طالب الوجاكات الثلاثة، تونس والجزاير

وطرابالس يبغيهم. وأنه مجهز روحه بالقدوم إليهم بر وبحر إلى طرابلس وتونس، وأما من الجزاير. أن الفرانسيس تكلم معاه وقال له: أنا نهيك منها، وأن القيرة باقية بينهم والسلام هذا ما سمعنا من الأخبار.

- يوم الجمعة 19 ذي القعدة 1245 هـ.

قدم علينا رقاص من تونس، وبيده جواب من عند الباشا متاع الجزاير (حسين داي) وجواب من سيدي حسن باي تونس. ومضمون جواب الجزاير. بعد السلام والتحية والإكرام إلى آخره، ومن شأن ورد علينا خبر من جانب محمد علي والي مصر والإسكندرية بأنه متوجه إلي جانب الوجاكات تعلم محبنا أنك ترد بالك من روحك ومن بلادك ومن ناسك. ونحن إخوان. جميع الذي تحتاج له عندنا في ذلك زيادة. ونحن مشغولين من جانب اللعين الفرنساوي، وعندنا معاه القيرة، ونترجوا فيه متى يقدم علينا مثل ما عندكم قيرة. ولو ما كان عندنا هذه الشغلة لكنا نرسلوا لكم ناسنا. ولكن الخيرة في الواقع والسلام.

- يوم الاثنين 20 محرم الثاني 1246 هـ.

قدمت علينا فرقاطة فلمنك من تونس على أربع أيام، وخبرتنا على الطراد الذي وقع في الجزائر مع الفرنساوي، بأنهم نزلوا إلى البر قدام سيدي فرج ووقع بينهم العراك في البر، ومات من الفرنساوي 1300 - ألف وثلاثمائة ومن الإسلام كذلك مات لن عرفوا قدرهم - رحمة الله علينا وعليهم.

- أيضاً يوم الخميس 1 صفر 1246 هـ.

قدم علينا رقاص من تونس على 10 أيام وأخبر بل جاب جوابات عند الوكيل سيدي محمد بن علي قاسم وسيدي قاسم المرابط ومن الحاج محمد الرزيق. وأخبرونا بأنه في يوم 24 ذي الحجة 1245 هـ. قدموا شقوف الفرنساوي إلى الجزاير. وأطلقوا المدافع على سيدي فرج مسير 3 ميل على الجزاير. ووجدوا عربان كثيرة وخلوا لهم الفضوة حتى نزلوا البر. وبعده هجموا عليهم العربان، ونصرهم ربنا على الكفار.

ـ أيضاً يوم الاثنين 5 صفر 1246 هـ.

قدمت علينا مركب من مالطة وأخبرت على عمارة الفرنسيس أنهم ملكوا الجزاير والسلام.

ـ يوم السبت 1 ربيع الأول 1246 هـ.

قدموا علينا جوز مراكب من القورنة وأخبرونا: بأن الجزائر صحيح خذاها الفرنسيس، وصار فيها الفي (الغنيمة) ثلاثة والباشا متاعها ظهر منها ورفع معاه من ناسه وأحبابه وحريمه وغيره جملة أنفار عدد 49، ومشى إلى بورت ماهون. وبعده توجه إلى نابل (نابلي) وكذلك أخبر بأن فرانسا ناضت على الراي ومات من البلاد أنفار عدد 22000 ـ اثنين وعشرون (ألف) والداي هرب إلى حد عمالة فرانسا، وأما خبر محمد على المذكور أعلاه لن عنده خبر عليه. هذا ما سمعناه به. وذلك بتاريخ أعلاه في 1 ربيع الأول 1246 هـ.

حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، الجزء الأول: 958 ـ 1248 هـ/ 1551 ـ 1831
تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر
منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين جامعة الفاتح، طرابلس 1984
ص ص 86، 107، 141، 237، 486، 544، 675، 745،
759، 769، 853، 870، 919، 1001، 1043،
1089، 1096، 1103، 1105، 1162

الحاج أحمد المبارك بن عمر بن محمد بن العطار القسنطيني

(ت 1287 هـ ـ 1870 م)

الحاج أحمد بن عمر بن محمد بن العطار القسنطيني المعروف بالحاج أحمد المبارك ولد بقسنطينة حوالي 1790، وقضى طفولته بميلة عند أعمامه بني العطار حيث درس مبادىء الفقه والعربية بزاويتهم، ثم انتقل إلى قسنطينة لتلقي العلم بها على بعض شيوخها المشهورين منهم: الشيخ عمار الغربي، وعمار الميلي، ومحمد العربي بن عيسى، والشيخ العباسي الذي تأثر به كثيراً.

اشتغل الحاج أحمد بالتجارة في شبابه، وكان يتردد على تونس للتزود بالبضائع كعمائم الحرير وأنواع العطور، وقد حضر أثناء وجوده بتونس بعض الدروس بجامع الزيتونة، وبعد أدائه فريضة الحج استقر بقسنطينة وتولى التدريس بالجامع الأعظم خلفاً لشيخه العباسي بعد وفاته، ثم أسند له الإفتاء المالكي بعد وفاة محمد العنابي، وعين نظراً لمهامه هذه عضواً بالمجلس الشرعي الإسلامي بقسنطينة (L'assisseur au tribunal musulman) وتولى أثناء ذلك مهمة التعليم بالمدرسة الحكومية «La Medersa» تحت إدارة الشيخ محمد الشاذلي، ثم لم يلبث أن عزل عن مهامه بعد أن ثبت اتصاله سرياً بالحاج أحمد باي المغضوب عليه من طرف الإدارة الفرنسية، بعدها ظل وفيّاً للطريقة الحنصالية المنتسب إليها والتي أدخلها إلى قسنطينة الشيخ أحمد الزواوي، واعتبر الحاج أحمد المبارك لدى أتباع هذه الطريقة من مساعدي المرابط حمّو بن الزواوي مقدم الحنصالية، غير أن الحفناوي في كتابه تعريف الخلف لم يثبت نسبه إلى الطريقة الشاذلية. هذا وقد ظل الحاج أحمد منتمياً لهذه الطريقة حتى وافته المنية في مستهل رجب من عام

1287 هـ الموافق لـ 5 أكتوبر من سنة 1870 م، وحمل من طرف إخوان الزاوية الحنصالية ليدفن بمقر الزاوية الواقع بجبل شطابة على بعد عدة كيلومترات من قسنطينة.

وصف الحفناوي في كتابه تعريف السلف الشيخ أحمد المبارك القسنطيني بأنه وقاد القريحة بديه الإدراك واسع الفكر عريض الفهم.

ترك الشيخ أحمد العديد من التقاييد منها منظومة في الإشادة بشيخه العباسي، وقصيدة في مدح الرسول ﷺ، وميثاق للطريقة الحنصالية بعنوان «السلسلة في طريقة الشيخ الزواوي». وحاشية على منظومة الشيخ عبد الرحمن الأخضري: «الجوهر المكنون في الثلاثة فنون» وهي أصناف البلاغة من معاني وبيان وبديع، وضعها تحت عنوان «سلم الوصول مع الصلاة على الرسول».

هذا على أن ما اشتهر به الشيخ أحمد المبارك وعرف به هو تاريخه حول مدينة قسنطينة المعروف بـ «تاريخ حاضرة قسنطينة» وهو مصنف صغير الحجم لا تزيد صفحاته عن 38 غير أنه يحتوي على معلومات مهمة، تعرض فيه باختصار للأحداث التي عرفتها قسنطينة في العهد العثماني، مع إشارة خاطفة في مستهله إلى تأسيس المدينة وموقعها وتحصيناتها وقد ركز فيه بالخصوص على بعض الأعمال العمرانية لصالح باي وقصة مقتله، وتولى حسن باي مكانه، مع ذكر بعض الحصارات التي تعرضت لها قسنطينة من الأعراب الهلاليين ومن أبي عنان المريني ومراد الباي التونسي وحمودة باشا الحسني التونسي والثائر ابن الأحرش الدرقاوي، هذا بالإضافة إلى تعريف موجز ببعض البايات الذين تولوا حكم بايليك قسنطينة مثل حسين الكلياني، وحسن بوحنك، وحسن أزرق العينين، وأحمد باي القلي وصالح باي قبل أن يختتم كتابه بترجمة لكل من الشيخين فتح الله وأحمد القبائلي.

اعتمد الشيخ أحمد المبارك في كتابه تاريخ حاضرة قسنطينة على بعض الكتب المتداولة ذكر منها: المؤنس لابن أبي دينار القيرواني، على أن مصادره الأساسية هو ما أخذه عن الشيوخ الذين عاصروا الأحداث وتناقلوها عن طريق الرواية.

لقد تميز تاريخ حاضرة قسنطينة بأسلوبه السهل الذي يغلب عليه ضعف الربط

وبلغته البسيطة التي تتخللها الألفاظ الدارجة والتراكيب العامية التي تعكس مستوى ثقافة عصره، ووضع الكتاب حوالي سنة 1852 بطلب من مدير المكتب العربي بقسنطينة (بواسوني) وهذا ماجعله يهمل الحياة الثقافية والأوضاع الاقتصادية ويركز على الأحداث السياسية التي تميزت بتعدد الاضطرابات والفتن وكثرة مظالم البايات التي أثارت حفيظة السكان، وكأنه بذلك يريد أن يثبت محاسن الإدارة الفرنسية التي يمثلها بواسوني والتي كانت تتظاهر بفرض النظام وإقرار العدل قبل أن تظهر للعيان الآثار السلبية للسياسة الاستعمارية الفرنسية المعادية للمقومات الحضارية للأمة الجزائرية. فهو أشبه في هذا المجال بمعاصره صالح العنتري.

قام بترجمة تاريخ حاضرة قسنطينة إلى الفرنسية مدير المدرسة الرسمية بقسنطينة ألفريد دورنون (Alfred Dournon) ونشره بالمجلة الإفريقية (سنة 1913) اعتماداً على نسختين إحداهما بالمكتبة الوطنية الجزائرية وهي أكمل النسخ والأخرىٰ بمكتبة مدرسة الجزائر وهي بخط جميل ومؤرخة في 23 صفر 1269 هـ (5 ديسمبر 1852 م) وقد قام بعد ذلك بإصدار الأصل العربي مع تصحيحه والتعليق عليه ووضع عناوين لفقراته نور الدين عبد القادر بالجزائر سنة 1952.

المراجع المعتمدة:

- الحاج أحمد المبارك، تاريخ حاضرة قسنطينة، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، منشورات المدرسة التطبيقية للدراسات الإسلامية، المطبعة الرسمية، الجزائر، 1952.
- تعريف الخلف، القسم الثاني.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 360 ـ 362.

- Dournon (A.) Kitab tarikh Aosantina, par El. Hadj Ahmed El. Mobarek., in Revue Africaine n° 289/ 1913, pp. 265 - 305.
- Mercier (E.), Histoire de Constantine, F.Biron et J.Marle, Constantine 1903.
- Saint Calbre (H.) Constantine et quelques auteurs arabes Constantinois, in, Revue Africaine n° 288 T. XII / 1913, pp. 70 - 95.

نهاية صالح باي

ثم كثرت الوشاة بصالح باي عند صاحب الجزائر فعزله وولى مكانه إبراهيم بوصبع وكان إبراهيم هذا قايد الزمالة لصالح باي وأحد كبراء دولته وله وجاهة بالجزائر ومحل عظيم عند كبراء الدولة، ولما عزله صالح باي عن الزمالة تخوف منه ذهب إلى الجزائر وتولى قيادة سباو...

ولما أشرف إبراهيم باي على المحلة سار إليها ونزل على آغا المحلة واجتمع الديوان وقرؤوا ظهير الباشا يأمر بطاعة إبراهيم باي وتكلمت الطبول على عادتهم وبعث إبراهيم باي فأتاه ومعه العسكر فأمنه ولاطفه وقال له إني أخوك وليس بيني وبينك إلا الخير، فعليك الأمان التام إن شئت أن تبقى معي في قسنطينة معظماً مكرماً، وإن شئت رفعت أموالك وحريمك وأولادك وذهبت إن شئت إلى الحرمين الشريفين أو إلى أي بلد شئت، وركب إبراهيم باي وصالح باي معه إلى أن دخلوا إلى قسنطينة، فأما صالح باي فذهب إلى داره بسوق العصر. وأما إبراهيم باي فنزل بدار الإمارة، ثم إن صالح باي لم يرض بهذا فتكلم مع خواصه سراً من الأتراك والمماليك الذين بدار الإمارة واتفقوا على قتل إبراهيم باي ليلاً، فلم يبت إبراهيم باي إلا ثلاث ليال، ولما كانت الليلة الرابعة ومضى جزء من الليل اجتمعت خواص صالح باي بلا حرص وقصدوا دار الإمارة ففتح لهم المماليك الأبواب ودخلوا إلى إبراهيم باي ذبحوه ووضعوا السيف فيمن أتى معه حتى جرت الدماء بالأزقة وأصبح صالح باي بدار الإمارة وفرق الأموال على العساكر وصرح بخروجه عن طاعة الجزائر وأوصى العساكر أن يتحاموا أهل البلد فلا يقربوهم بإذاية ولا مكروه، ونادى مناديه في البلد يا أهل البلاد افتحوا أسواقكم وبيعوا واشتروا لا خوف

عليكم وإنما نحن مع بعضنا بعض وأنا خير لكم ولا عليكم من الجزائر وكلاماً مثل هذا. . .

ووقعت فتنة عظيمة في البلد وأنحاز الأتراك إلى صالح باي، وبات حسن باي قرب قسنطينة، ومن الغد أصبح بجنوده قرب المحلة بواد الرمل وبعث إلى آغا المحلة والديوان بظهير الولاية فقرؤوه على من بالمحلة من الكبار، وقال لهم إن كنتم في طاعة الجزائر والوجاق فبها ونعمت وإن خرجتم عن الطاعة وأغريت لكم العرب فلا يبقى منكم أحد إلا قتلوه.

ثم إن الأتراك راسل بعضهم بعضاً وتلاموا في الخروج عن الطاعة وجعلوا يتسلّلون على صالح باي حتى لم يبق معه إلا القليل.

فعند ذلك أتاه الشيخ سيدي عبد الرحمن الفقون. وهو إذ ذاك شيخ البلد وصاحب مبرة الولاة التي جعلوها له، فخاطب صالح باي وقال له: اذهب معي إلى داري وأكاتب عليك الباشا، فإنه لا يخفر ذمتي وأذهب أنا وأنت إلى الحج فأطاعه، وخرج معه وذهب من كان معه إلى حال سبيله، فلما وصل إلى قرب داره وجد الديوان أعني ديوان القصبة، فمسكوا صالح باي، فالتفت إلى الشيخ وقال له غدرت فأجابه الغدر سبق منك، فيك ولا في أهل البلد، وذهبوا به إلى القصبة فخنقوه وبعثوا بموته إلى حسين باي، فعند ذلك نزل إلى المحلة على عادة الولاة ودخل قسنطينة وتم له الأمر.

الحاج أحمد المبارك

تاريخ حاضرة قسنطينة

تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر

المطبعة الرسمية، الجزائر، 1952، ص ص 26 ـ 28

هزيمة محلة عثمان باي على يد أنصار ابن الأحرش

وغزاها الشريف بن الأحرش سنة 1219 وهو رجل مغربي. . . وكان حاكم قسنطينة إذ ذاك عثمان قاي بن قارة محمد باي وهران بمحلته في نواحي جبل بابور فزحف الشريف بالقبائل إلى قسنطينة. . .

وقاتلهم أهل البلد من فوق الأسوار ورموهم بالمدفع، فانهزم الشريف. . .

ولما سمع عثمان باي بذلك عجل بالدخول إلى البلد فلم يلحق الواقعة وتهيأ لغزو القبائل وجمع عسكراً عظيماً وخيلاً كثيراً من الدائرة والأعراش وخرج بمحلة لا قبل لأحد بها يريد الشريف بواد ازهور بين جيجل والقل، وكلما وصل إلى فرقة من القبائل طلبوا الخدمة والأمان فيؤمنهم ويقبل منهم الخدمة إلى أن وصل واد ازهور جاءه القبائل وقالوا ابعث معنا الخيل نمسكوا الشريف ونأتوك به، وذلك مكر منهم وخديعَة. فبعث معهم آغا الدائرة في خمسمائة فارس، فلما وصلوا إلى واد هناك صعب أحاط بهم القبائل وعزموا على قتلهم وألجاوهم إلى سفح الجبل، فلما رأو كثرة القبائل ودورانهم بهم من كل جهة نزلوا على خيولهم وحفروا بسيوفهم حفيراً تترسوا به وبقوا هناك ثلاثة أيام أو أربعة أيام، هم وخيلهم جوعاً وعطشاً.

فلما سمع عثمان باي بهم أمر المحلة بالرحيل وركب هو وجنوده وقصد نحوهم. فجاء القبائل من خلفه، وقطعوا الأشجار في الطريق وعرضوا الخشب وطلقوا الماء على الأرض حتى صار وحلاً، ولما قرب عثمان باي من القوم الذين بالمتارز وسمعوا به ركبوا خيولهم وخرجوا ولم يقصدوا الباي بل خرجوا هاربين. فوقعت الهزيمة في المحلة وصاحت القبائل من كل جهة، وحصلت الناس في الطين ولم يعرفوا طريقاً، فلم ينج من تلك المحلة إلا القليل، وأخذ القبائل جميع الأموال والخيول والسلاح، وقتلواعثمان باي وقبره هناك اليوم معروف.

الحاج أحمد المبارك

تاريخ حاضرة قسنطينة، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر

المطبعة الرسمية، الجزائر، 1952، ص ص 13 ـ 14

الحاج أحمد الشريف الزهار

(ت 1289 هـ ـ 1872م)

الحاج أحمد بن علي النقيب ولد بالجزائر سنة 1196 هـ ـ 1781 م من عائلة يعود نسبها إلى الأشراف الأدارسة وتوارثت نقابة أشراف الجزائر أباً عن جد، تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه وظل يَحْظَى بمكانة متميزة في مجتمعه حيث كان على صلة بموظفي البايليك ورجال الديوان، مما سمح له بتولي رئاسة نقابة الأشراف بعد والده، شارك وهو كهل يقارب الخمسين من عمره في الدفاع عن مدينة الجزائر عند تعرضها للغزو الفرنسي (1830) وأبعد من طرف الإدارة الفرنسية بالجزائر فالتحق بتونس 1832، وصار يتردد على حلقات جامع الزيتونة وواظب بالخصوص على دروس الشيخ إبراهيم الريحاني والحاج الطيب بن عيسى الجزائري، وبعد ذلك عاد إلى قسنطينة وشغل فترة خطة الكتابة لدى الحاج أحمد باي، وإثر سقوط قسنطينة في يد الفرنسيين (1837) تحول إلى زاوية سيدي الحبش قرب بوفاريك ليقيم فيها بعض الوقت، ومنها اتصل بأعوان الأمير عبد القادر بَمليانة، ثم التحق بمعسكر وتولى كتابة سر الأمير وكان يصحبه في تنقلاته، وبعد وقوع العاصمة المتنقلة للأمير (الزمالة) في الأسر في واقعة (طاقين) تحول الحاج أحمد إلى المغرب الأقصى ومكث بتطوان ثلاث سنوات يستزيد من العلم والمعرفة ويعطي دروساً للطلبة، وساعده ذلك على التعرف على الوسط العلمي هناك بعد أن زار فاس، لكن تقدمه في السن وظروف الحياة الصعبة اضطرته إلى العودة إلى الجزائر رفقة ولديه الحاج قدور وسيدي محمد ليتولى نقابة الأشراف من جديد تحت الإدارة الفرنسية وهو في الثالثة والستين من عمره، 1259 م ـ 1843 م

ومنذ ذلك الحين وحتى وافته المنية عن سن تناهز التسعين (1289 هـ 1872 م) واظب على تسجيل ما انتهى إليه من الأخبار وما شاهده من الأحداث. يَدفعه إلى ذلك حَنينه إلى ذكرياته وولوعه الفطري بتسجيل الوقائع وساعده على ذلك اطلاعه على الأحوال ومعرفته بالتطورات التي عرفتها بلاد لمغرب العربي آنذاك.

أثبت الحاج أحمد الشريف الزهار ما سجله في شكل مذكرات في دفاتر وكراسات خاصة بعضها كان مستعملاً لتقييد حسابات عائلية. ولم تسمح له الظروف بتصيح ما كتبه وتنقيحه وإتمام ما كان ناقصاً منه وسد الفراغات التي تركها للتحقق من شأنها، وملء انقطاع التسلسل التاريخي في سرد الأحداث، حتى أن الكراس الذي سجل فيه أحداث العهد العثماني ترك في مستهله ثلاث عشرة صفحة فارغة دون أية تقاييد. وهذا ما جعل مذكراته تبتدىء بولاية الداي علي باشا بوصبع (1168 هـ 1754 م) كما أنها لا تتضمن سوى إشارات مقتضبة لحكم عروج. ولعله كان ينوي الرجوع إلى كتب وتقاييد بحوزته لتغطية تلك الفترة من تاريخ الجزائر.

هذا ومن الملاحظ أن مذكرات أحمد الشريف الزهار التي بحوزتنا هي في الواقع جزء من مجموعة متكاملة من التقاييد الشخصية تتناول بالخصوص الفترة الأخيرة من العهد العثماني وفترة المقاومة بزعامة كل من الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر، وقد أرجع الأستاذ أحمد توفيق المدني الذي قام بتصحيح وتبويب ونشر هذه المذكرات هذا النقص الملاحظ في مذكرات الشريف الزهار إلى ضياع قسم منها، وهو الخاص بسنوات المقاومة المنظمة ضد الفرنسيين (1830 ـ 1847) ولعل ذلك راجع إلى أن ما كان في حوزة الحاج قدور من هذه التقاييد والذي يتعلق بالسنوات الأولى للاحتلال تعرض للضياع أو أخذه منه مدير الشئون الأهلية بالإدارة الفرنسية لوسياني ولم يحافظ عليه فلم تبق منه سوى نتف تتصل بعادات أهل الجزائر وذكر بعض علمائها أثبتها أحمد توفيق المدني في آخر ما نشره من المذكرات، أما القسم الذي كان من نصيب سيدي محمد وهو الخاص بالفترة الأخيرة من العهد العثماني فقد وصل إلينا كاملاً بعد أن احتفظ به صاحبه لفترة طويلة وظل يحافظ عليه ابنه سيدي محمود بن محمد ورفض تسليمه لمدير الأمور

الأهلية ميرانت خشية ضياعه وفضل أن يسلمه للأستاذ أحمد توفيق المدني الذي حرص مشكوراً على نشر قسم منه يتعلق بسيرة محمد عثمان باشا سنة 1937 قبل أن يتمكن من نشره كاملاً مع تعاليق ضافية وتبويب لطيف وكان ذلك في 1974.

تتميز تقاييد أو مذكرات أحمد الشريف الزهار بأنها سجل حي وواقعي للأحداث التي عرفتها الجزائر منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى السنوات الأولى للاحتلال فهي أشبه شيء بيوميات حسن الفقيه الطرابلسي (1781 ـ 1968) التي قيد فيها الوقائع التي عاشها بطرابلس الغرب، هذا ومما زاد في قيمة تقاييد الحاج أحمد أنها سجلت بأسلوب بسيط مؤثر يميل إلى اللغة العامية لم يخضع لمراجعة أو تصحيح فبقيت محافظة على هدفها، وبالتالي فهي صورة صادقة عن أحوال الناس وطبيعة الأحداث التي كانت مثار اهتمام العامة، ومن خلالها يمكن التعرف على شخصية الشريف الزهار فهو حسبما يستنتج مما قيده. رجل يتفاعل مع الأحداث ولا يتردد في إبداء رأيه والحكم على سلوك وتصرفات الأشخاص، وهو متعاطف مع الجهاد ضد النصارى متحمس للدفاع عن الإسلام متأثر بما أصاب المسلمين ناقد لتصرفات الحكام وسلوكهم الجائر محب للإصلاح معجب بعظيم الأعمال يذكر بكل أسى وحسرة مقتل صالح باي ويحيىٰ آغا فيشير إلى الأول بقوله: «انظر في أمر هؤلاء ملوك الأتراك كيف يقتلون رجالهم وخصوصاً خيارهم» ويقول عن الثاني: «يحيى آغا هو أحسن رجال تلك الدولة عقلاً ومعرفة والذي تولى بعده مثله مثل الحمار، لا يعرف إلا الأكل والنكاح لعنة الله عليه» كما نجده ينتقد تصرفات حسين داي ويأخذ عليه أنه: «كان يغتر بأهل البدع فيحسن اعتقاده فيهم ويكرمهم ويستبشر بمقالتهم، وكان الواجب عليه التغيير على أهل البدع وزجرهم على فعلهم القبيح ومخالفتهم للسنة».

وبذلك يعتبر أحمد الشريف الزهار بما قيده من أحداث وما أبداه من آراء وأحكام من أهم مؤرخي الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، وذلك بما امتاز به من أصالة في الرأي وصدق في الرواية. وابتعاد عن محاباة الحكام، فكان ما كتبه مرآة صادقة وصورة حقيقية لأوضاع الجزائر قبل الاحتلال.

المراجع المعتمدة:

- الشريف الزهار (الحاج أحمد)، مذكرات «1754 - 1830». نشر وتحقيق وتعليق أحمد توفيق المدني، الجزائر 1974.
- المدني، أحمد توفيق، محمد عثمان باشا وخلاصة مفصلة عن تاريخ الجزائر في العصر التركي، الجزائر، 1937.
- نور الدين (عبد القادر)، صفحات من تاريخ مدينة الحزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التكري، منشورات كلية الآداب جامعة الجزائر، قسنطينة 1965.
- معلومات من مصادر شفوية مستقاة من أسرة ومعارف الشريف الزهار، استقيناها من بعض حفدته.

التنظيم الإداري والجبائي للجزائر في العهد العثماني

كان للأتراك بأرض الجزائر ثلاثة بايات: باي وهران، وباي قسنطينة، وباي المدية وهم مرتبون على حسب فتوحات الأتراك الأوائل، فأول فتوحهم كان ناحية تيطري، فأولوا هنالك بايا وأسموه باي البايات وأسكنوه المدية، وجعلوا له خليفة وأعواناً وآغوات: آغا الدوائر، وهم من الأعراب. وآغا الصبايحية وهم من الأتراك.

ثم لما فتحوا ناحية الغرب، تلمسان وأحوازها، ومعسكر ونواحيها، والقلعة ومستغانم وما جاورها، جعلوا في معسكر بايا يسمونه باي الغرب.

وأخيرا فتحوا الناحية الشرقية، ونصبوا فيها باياً وسموه باي الشرق، وكانت قسنطينة بيد ملوك تونس فلما رجعت لحكم الجزائر، سكن باي الشرق فيها، فكان هذا الباي هو أصغر البايات في التقديم، وأما من حيث القوة ووفرة الرعية فلا يضاهيه باي تيطري وباي الغرب، ولزمته لا تعدلها لزمتها.

ثم بنى الأتراك برجاً في سباو، قرب زواويت، وجعلوا فيه قائداً، ولم يسموه باياً، وكان هؤلاء البايات يدنشون كل ثلاث سنوات، وخلفاؤهم يدنشون مرتين كل سنة وعندما يدنش البايات، لا يدنش خلفاؤهم.

فكان قدوم باي تيطري، وباي الشرق وقائد سباو، يقع في الربيع كل ثلاث سنوات، وقدوم باي الغرب يقع كذلك في الخريف، ولم يكن لقائد سباو خليفة مثل البايات.

الخلفاء يأتون في آخر الربيع، فيخرجون معهم الأمحال ليستخلصوا الخراج

والزكاة والأعشار، وهكذا وضع الأوائل الجباية على المنهج الشرعي والأواخر صاروا يخرجون المحلات لاستخلاص المغارم والظلمات ونهب أموال المسلمين، وما وقع هذا، حتى صار الناس فجاراً والأمراء ظالمين.

فأما محلة الغرب فتخرج في أبريل وتقيم أربعة أشهر، ومحلة تيطري تخرج في الصيف وتتم ثلاثة شهور، ومحلة الشرق تخرج في اليوم الأول من الصيف وتقيم ستة شهور، وأما قايد سباو فلا محلة له وإن وقع عصيان في رعيته تأتيه محلة مخصوصة يقضي بها مآربه مع الباغي وترجع، وليس ذلك كل سنة.

وكل باي من البايات له في مدينة الجزائر وكيل كاتب وله دكان، قرب دار الملك يقيمون فيه، فإذا جاء السيار من عند الباي للجزائر فإنه ينزل عند الوكيل بالدكان ويدفع للوكيل المكاتيب التي جاء بها. فيقرأ الوكيل الكتاب. ويطلع على ما فيه ليعرف كيف يتكلم مع الأمير، ومعه السيار، فحين يدخلون على الأمير يسلم له الوكيل الكتاب ويقف، فيأذن لهما بالجلوس، فإذا جلسا يسألهما عن الباي فيبلغان له سلامه، وإذا كان عندهما أمر يتكلمون فيه، فيأتون لهم بالقهوة، فإذا شربوا وانتهى الحديث سلما عليه وخرجا، وبعد خروج الوكيل من عند الأمير يسلم المكاتيب التي باسم الوزراء، والسياريبيت بدار الملك.

الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر

مذكرات، تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني

الجزائر، 1974 ص ص 35 ـ 36

مداخيل البايليكات (المقاطعات)

أما اللزمة فإن باي الغرب يقدم بين يدي الأمير كما قدمناه ثمانين ألف ريال صغيرة كوارط وباي الشرق يقدم ثمانين ألف ريال كبيرة بجة، وأما باي تيطري فهو يدفع 14 ألف ريال صغير، وهو مثل من تقدم في الملاقاة والضيافة، وأما هديته وعوائده التي يدفعها فأقل من باي الغرب وباي الشرق، وكل الخلفاء يدفعون اللزمة كل ستة أشهر نصف ما يدفعه البايات وقائد سباو يدفع نحو ما يدفعه باي تيطري في دنوشه، إلا أن مقامه صغير وليس له خليفة، فهو يدفع ألف ريال كبير لزمة. . .

أما الزكاة والعشور التي يدفعها البايات عن أوطانهم فباي الغرب يدفع عشرة آلاف صاع قمحاً، ومثلها شعيراً، ويوزع على أصحاب الدولة وخدامهم نحو ألفي صاع قمحاً ومثلها شعيراً، والغنم ستة آلاف رأس، ويوزع أيضاً على أصحاب الدولة وخدامهم مرتين في السنة في أفريل وفي سبتمبر، ويعطي العوائد في العيد الصغير، والعيد الكبير، ويوم عاشوراء، والمولد النبوي الشريف، للأمير ووزرائه وكتابه وجميع خدامه.

وباي الشرق مثله في عوائد المواسم، وفي زكاة القمح والغنم، أما الشعير فلا، وباي الشرق يزيد نحو ألفي رأس من البقر للبايليك، وألف رأس عوائد ويفرق القمح للعوائد كذلك، والتمر والزيتون في كل سنة من أينار، ويبعث في صيف كل سنة مركباً مشحوناً بالشحم والسمن للمراكب الجهادية، من مرسى عنابة.

وباي التيطري يبعث زكاة الغنم لبيت المال، ويوزع شيئاً على أرباب الدولة وكذا في عيد الأضحى، لا غير، أما العشور فلا يبعث، لأن عمالته أغلبها صحراء وسكانها العرب أصحاب غنم ولا حرث لهم - والذي يقبضه من الرعية شيء قليل يكفيه هو ومحلته أما عشور بلدة المدية فيجمعه، ويعمله عولة وله وكيل عولة، ويدفع تلكل العولة لدار الإمارة كل شهر.

وقائد سباو يدفع ألفي قلة زيت للبايليك، ونحو خمسمائة قلة لأصحاب العوائد وألف قنطار كرموس، ومائة قنطار شمع، ويدفع خمسمائة صاع قمحاً ومثلها شعيراً، لأن وطن سباو، ووطن تيطري، لو اجتمعا معاً، لما كان قدر ثلث وطن وهران، أما وطن قسنطينة فإنه كبير جداً، حتى العارفين بالأرض قالوا أن وطن قسنطينة يلزمه أربع بايات.

الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر
مذكرات، تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني، الجزائر، 1974، ص ص 46 ـ 47

أبو العباس أحمد بن أبي الضياف

(ت 1291 هـ/ 1874 م)

أبو العباس أحمد بن الحاج الضياف سليل ابن مجذوب سيدي أحمد الباهي العوني نسبة إلى قبيلة أولاد عون، ولد بتونس 1217 هـ ـ 1804 م وحظي بتربية جيدة من والده الشيخ أبي الضيف كاتب الوزير يوسف صاحب الطابع، ودرس على علماء بلدته وأغلبهم من القضاة والمفاتي كإسماعيل التميمي، ومحمد البحري بن عبد القادر ومحمد بيرم الثالث، وإبراهيم الرياحي، ومحمد بن الخوجة، وأحمد الأبي، ومحمد ملوكة، ومحمد بن سليمان المناعي، وعبد الرحمٰن الكامل، فاستوعب العديد من المقررات الدراسية التقليدية مثل تذكرة القرطبي والمختصر والسعد، والمكودي، والقطر، والأشموني، والدرة وغيرها، فاكتسب بذلك ثقافة أدبية ومعارف فقهية ولغوية أهلته لأن يتولى على صغر سنه خطة العدالة بديوان الحكومة (1822) ثم خطة الكتاب (1827) وعرف لدى الباي حسين فقربه منه وأصبح كاتب سره وألحق بالوزير صاحب الطابع محمد شاكير، وتولى إنشاء المراسلات مع الباب العالي بالعربية وكانت قبله تكتب باللغة التركية.

عند تولي المشير أحمد باي مقاليد الحكم بتونس (1837 ـ 1855م) إرتقى أحمد بن أبي الضياف في مناصب الدولة وتدرج في الرتب السامية (1841ـ1843م) ورقي إلى رتبة أمير لواء، وقلد نيشان الافتخار من الصنف الأكبر (1849) واختير ضمن سفارة الباي للدولة العثمانية، كما اصطحبه الباي معه في زيارته لباريس.

حافظ أحمد بن أبي الضياف على مكانته المرموقة في جهاز الدولة في عهد المشير محمد الصادق باي، وعين عضواً في مجلس الشورى الخاص الذي يرأسه

الباي، ورقي إلى رتبة وزير القلم (1277 هـ 1860 م) كما اختير لشرح القانون الأساسي (قواعد عهد الأمان) فأجاد عمله إجادة فائقة، وتولى رئاسة المجلس المؤقت للفصل فيما يعرض من القضايا بين الرعايا التونسيين والأجانب، ثم أصبح كاهية بالمجلس الأكبر (1279 هـ ـ 1862 م) وعندما تقدمت به السن أعفي من مهامه واحتفظ بامتيازاته، وأجريت له جراية حتى وافته المنية في شهر شعبان (1291 هـ ـ 1874 م) ودفن بجامع يوسف صاحب الطابع بتونس.

عرف أحمد بن أبي الضياف بطيب خلقه وحسن سلوكه وسعة معارفه وغزارة علمه فقد ترك شعراً جيداً ورسائل بليغة منها رسالة في المرأة نشرها المنصف الشنوفي 1968، والمقامة البشرية في الأنوار البشرية وهي لا تزال مخطوطة بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم (4346) على أنه اشتهر خاصة بكتابه «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» الذي أظهر فيه معرفة عميقة بالمسائل الفكرية والقضايا العمرانية، وقد كان الدافع له على تأليفه الرغبة في تسجيل أحداث البلاد التونسية القريبة من عهده أو التي عاشها، لا سيما وأنه كان على اطلاع واسع بالأمور ومعرفة شاملة بالأحداث وصاحب رأي وموقف منها.

يتألف كتاب إتحاف أهل الزمان، من أربعة مجلدات مقسمة إلى مقدمة وثمانية أبواب منها بابان خاصان بالتراجم، وخاتمة.

تشتمل المقدمة على عقدين الأول في الملك وأصنافه في الوجود، وهو عرض نظري يبرز نظرة ابن أبي الضياف الإصلاحية، ودعوته لتقييد الحكم المطلق في تونس بالقانون والشرع، وتنويهه بالتنظيمات التي تحدد الحقوق والواجبات وقد حاول إقناع القارىء بجدوى هذه التنظيمات بالحجج المختلفة بهدف وضع حد لشهوة الملك وفساد الحكم وظلم الحكام، أما العقد الثاني من المقدمة فقد خصصه ابن أبي الضياف للتعريف بأمراء إفريقيا من الصحابة والتابعين منذ غزوة العبادلة، وحتى عهد علي باشا الحسيني (1759 ـ 1783 م) واعتمد فيه على كتب ابن خلدون والزركشي وابن أبي دينار والوزير السراج وحمودة بن عبد العزيز وغيرهم.

أما محتوى كتاب إتحاف أهل الزمان، فقد خصه لحكم بايات تونس المتأخرين (أي منذ 1782) فأفرد لكل باي باباً خاصاً به، الأول لدولة حمودة باشا، والثاني لدولة عثمان باي، والثالث لدولة محمود باي والرابع لدولة حسين باي، والخامس لدولة مصطفى باي، وقد رجع في كل ما سنجله إلى الوثائق الرسمية، ولم يهمل الروايات الشفوية والشهادات الشخصية، فجاء كتابه غزير المادة متنوع المعلومات، دقيق الملاحظات أما الخاتمة فقد أورد فيها تراجم بعض الأعيان المتأخرين من العلماء والوزراء والكتاب، وقد غلب على الكتاب التاريخ الحولي ومال إلى التعرض للمواضيع التي تتصل بالعهد الحسيني، كما حاول المؤلف فيه أن يقلد أسلوب لسان الدين بن الخطيب الذي كان معجباً به لا سيما رسائله للحضرة النبوية.

تكمن أهمية كتاب إتحاف أهل الزمان التاريخية في المعلومات الدقيقة التي يتضمنها والتي تتصل خاصة بأوضاع تونس في القرن التاسع عشر الميلادي، والتي تتعلق بالنظام الإداري والقضائي والمالي والجبائي وبأوضاع الاقتصاد من صناعة وتجارة وفلاحة، وتمس الحياة الاجتماعية، من أنماط المعيشة وحياة القصر وسلوك الحامية وواقع الجماعات في الوسط التونسي بالبوادي والحواضر وما امتازت به الطوائف من معاملات خاصة كالمماليك والعبيد والجواري واليهود والنصارى وبالإضافة إلى ذلك اشتمل كتاب إتحاف أهل الزمان عرضاً ضافياً عن الحياة الثقافية والفكرية لما تضمنه من ذكر رجال الدين والعلماء والأدباء والمصلحين والأعيان والموظفين، وما تميز به سلوكهم وعلاقاتهم بالآخرين، وما قاموا به من أعمال ونشاط، كما أورد المؤلف عرضاً عن الحياة السياسية بتونس وعلاقة البايات بالدول الأوربية، وصلتهم بالباب العالي. وهو في كل ذلك يعرض آراءه ويسجل مواقفه من الحكام والعلماء، ولا يتردد في إثبات النصوص والوثائق التي قد يعتمد فيها على ذاكرته دون الحاجة إلى نقلها حرفياً من مصادرها تماشياً مع قوله في مقدمة الإتحاف: «فحركتني رياح الوطن إلى إطناب ربما استحسن في هذا الباب» وهذا ما جعل كتاب الإتحاف من أهم ما كتب في تاريخ الدولة الحسينية، ومن أحسن المصادر للفترة المتأخرة التي تميزت بأحداث مهمة وقوانين

وعلاقات خاصة كان لها التأثير البالغ في تطور البلاد التونسية قبل وأثناء الحماية الفرنسية، اعتمده كل من كتب عن تاريخ تونس الحديثة، ومنهم رشاد الإمام في سياسة حمودة باشا في تونس الذي ذكر بأنه (أي إتحاف أهل الزمان) كتاب هام جداً غني بالوثائق، فيه من الأخبار والمعلومات ما يجعله يتمتع بمرتبة خاصة لا يشاركه فيها أي كتاب آخر» وقد حظي الكتاب مؤخراً بعناية الدولة التونسية، فطبعت مقدمته بالمطبعة الرسمية التونسية، ثم نشرت نسخه كاملة دون تحقيق في ثمانية أجزاء بمبادرة من وزارة الثقافة التونسية (1963 ـ 1966) بعد ذلك قام أحمد عبد السلام بتحقيق الباب السادس (1971) وأحمد الطوبلي بتحقيق الأجزاء الأول والثاني والثالث 76 ـ 1979.

المراجع المعتمدة:

- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تصدير محمد شمام، 4 ج تونس 1976 ـ 1979، (طبعة أخرى في 8 أجزاء تونس 1963 ـ 1966).
- ابن أبي الضياف (أحمد)، من رسائل ابن أبي الضياف، ضمن وهو تتمة لإتحاف الزمان، نشر محمد مزالي، تونس، 1969.
- مخلوف (محمد) ابن أبي الضياف، ضمن أعمال ملتقى: «أبي الضياف في الفكر السياسي والاجتماعي الحديث»، منشورات مجلة الإتحاف، تونس 1989.
- إيضاح المكنون، ج 1، ص 16.
- الأعلام ج 1 ص 138.
- السويسي (محمد) أقدم ترجمة لابن أبي الضياف، (تحقيق) حوليات الجامعة التونسية، العدد 5 / 1968، ص ص 49 ـ 118.
- عبد السلام (أحمد)، ابن أبي الضياف حياته ومنزلته ومنتخبات من آثاره، تونس 1984.
- عبد الوهاب (حسن حسني)، خلاصة تاريخ تونس، ط 3، تونس 1973 ص 170.
- المؤرخون التونسيون، ص ص 383 ـ 437.
- مشاهير التونسيين، ص 104.

- معجم المؤلفين، ج 1، ص 255.
- الكعبي (المنجي)، النظام الجمهوري في نظر ابن أبي الضياف، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 49/1979، ص ص 107 - 115.
- محفوظ (محمد) ابن أبي الضياف، نظرات في تاريخه، مطبعة ابن سلامة، تونس 1983.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 3 ص ص 264 - 268.
- شجرة النور الزكية، ص 394.
- المروزقي (رياض)، أحمد بن أبي الضياف. دائرة المعارف التونسية، الكراس الأول، 1990، ص ص 12 - 15.
- عنوان الأريب، ج 2، ص 130.
- هدية العارفين، ج 1، ص 190.
- جدي (أحمد)، الإشكالية الاقتصادية في الفكر التونسي الحديث من خلال أحمد بن أبي الضياف وخير الدين باشا، المجلة التاريخية المغربية 55/56 سنة 1989، ص ص 65 - 80.
- خشانة (رشيد) التونسيون يكتشفون مجدداً المصلح والمؤرخ أحمد بن أبي الضياف، جريدة الحياة (لندن) 2 نوفمبر 1996، ص 21.
- الإمام (رشاد)، سياسة حمودة باشا في تونس (1782 - 1814) ، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1980، ص ص 35 - 36.
- المنصف الشنوفي رسالة أحمد بن أبي الضياف في المرأة، تونس 1968.
- الطويلي (أحمد)، محاولة بيبليوغرافية عن أحمد بن أبي الضياف، مجلة الهداية، عدد 1 السنة 9/1401 - 1981، ص ص99 - 100.
- Abdesselem (A) Les historiens tunisiens des XVII^{e}, XVIII et XIX^{e} siècles, Essai de l'histoire culturelle, Paris-Tunis, 1973, pp. 332-382.
- Ben Smail (M) Valensi (L), Le Régne de Hammouda Parcha dans la chronique d'Ibn Abi-d-Diyaf, in Les cahiers de Tunisie, T XIX, n° 73-74, 1-2 tri 1971.
- Ganiage (J.) Les origines du Protectorat français en Tunisie, (1861 - 1881), Paris, 1959, p. 86.

أسر إبراهيم الشريف وتولي حسين بن علي

ولما استقر إبراهيم الشريف بتونس، ثبت عنده أن صاحب الجزائر عشي مصطفى عزم على حربه، واستعد للخروج. فتجهز، وحصن قلعة الكاف. وشحنها بالذخائر والميرة وآلات الحرب، وبعث إليها أخاه محمد في جند، وأسرع في بناء البرج الكبير في الجبل الأخضر، وأمر ببناء البرجين بالجبل.

ولما تحقق خروج الجزيريين، خرج للقائهم، باحثاً على حتفه بظلفه، يوم السبت غرة محرم سنة 1117 سبع عشرة ومائة وألف، (25 أفريل 1705 م) ونزل بمحلته قريباً من الكاف. ولما أقبلت محلة الجزائر وتراءى الجمعان، فرت عنه أولاد سعيد إلى الجزيريين وتبعهم كثير من العرب الذين استباح أموالهم وقتل ذريتهم، واستاق إبلهم وخيلهم، وهذا أقل ثمرات العدوان.

ثم فرعنه وزيره وصاحب سره محمد بن مصطفى المعروف بابن فطيمة، وتبعهم دريد. ولم يبق معه من الفرسان إلا صبايحية الترك، وشرذمة من العرب الذين آثروا حق الوطن على أنفسهم.

وقد كان أرسل طائفة من الجند مع أخيه لحماية الكاف ـ كما تقدم ـ وبقي في قل من الرجل، وهو ـ مع ذلك ـ يظهر التجلد. لم يخامر قلبه الخوف، وكان شهماً شجاعاً.

ثم راسله صاحب الجزائر في الصلح، وطلب منه مقداراً عظيماً من المال وألف بعير، وأن يبعث إليه أولاده، تبقى عنده رهناً في المال حتى يخلص، فعظم عليه إرسال أولاده وقال: «لا أفعل هذا أبداً» فقال له كاهيته حسين بن علي: «أكون أنا رهناً عنده حتى توفي له ما شرط» فرضي بذلك، ورجعت به الرسل إلى

صاحب الجزائر، وظهرت بارقة الصلح.

وبينما الناس ينتظرون رجوع الرسل بالجواب، إذ أمر إبراهيم الشريف بالرحيل للقتال، والدول إذا زالت صارت حيلها وبالاً عليها، وعارضه كاهيته وطلب منه التربص لرجوع الرسل، فأبى وصمم على القتال. والعجلة والندامة فرسا رهان، والتواني والحسد رضيعا لبان.

ولما عبأ جيشه، أمر كاهيته المذكور - وهو يومئذ آغا صبايحية الترك - بالوقوف في عقد من الخيل على ربوة عينها له، ليحميه من خلفه، وتقدم بالعسكر هاجماً، فوقعت ملحمة انجلت عن أسره بيد الجزيريين، ولا يعدم الصرعة صاحب السرعة.

وحملوه إلى محلتهم وقيدوه، وفر من معه ناجين بأنفسهم، وتركوا محلتهم راضين من الغنيمة بالإياب، وقنع بها الجزيريون عن اللحاق.

ثم أرسل صاحب الجزائر لمحمد أخي إبراهيم الشريف بمكانه من قلعة الكاف يخبره بأسر أخيه. وآية صدق ذلك ختم أخيه بالمكتوب، وأمره بالنزول عن القلعة طوعاً، وإلا استنزله كرهاً، فاختلف من معه من الجند: فبعضهم اختار النزول وقال: «ما يغني دفاعنا وأميرنا عندهم؟ وأعراب المملكة - وهم السواد الأعظم - أعداء لنا». وبعضهم قال: «نقاتل ولا نلقي بأيدينا»، فقال أحد شجعانهم - اسمه سلاقجي أحمد -: «أنا أنطلق لمحلة الجزائر، فإن وجدت أميرنا عندهم، كما زعموا، لم يسعنا إلا النزول، وإن كان الواقع خلاف ذلك، ثبتنا على القتال، فأنطلق ورجع لهم بصحة الخبر.

فطلب محمد أخو إبراهيم الأمان، فبذلوه له، وسلم القلعة للجزيريين، ولما حصل بأيديهم قيدوه مع أخيه، واستولوا على جميع ما بالقلعة، وعاثوا في الكاف وامتلأت أيديهم من نهبها، وكان ذلك أواسط ربيع الأول من السنة 1117 (أوائل جويلية 1705 م).

وانقرضت دولة إبراهيم الشريف، ومدتها ثلاث سنين وشهران وأيام.

ولما بلغت المنهزمة إلى الحاضرة، جزع أهلها وخافوا هجوم العدو عليهم، وهم فوضى بلا أمير يجمع عصابتهم، ويدافع بهم عنهم.

فتفاوضوا في هذا الأمر الواجب شرعاً وعقلاً، وهو البيعة لإمام، واتفق أهل العقد والحل من العلماء وأكابر الجند ووجوه الحاضرة على المبايعة لحسين بن علي، لما يعلمون من حميد خلاله وحزمه، وقد كان انتهى إلى زاوية الشيخ أبي عبدالله حسين السيجومي خارج الحاضرة، وأرسل بمن يأتيه بحرمه وما خف من كسبه، عائذاً بالفرار إلى محل منجاته.

فخرج إليه أهل الحل والعقد، وكثير من أهل الحاضرة، وطلبوا منه قبول بيعتهم وجمع كلمتهم، فامتنع مصراً على عدم القبول، فقال له العلماء: «يجب عليك القبول، لا سيما والحالة هذه»، فأجاب دعوتهم، ودخل معهم الحاضرة لقبول البيعة.

أحمد بن أبي الضياف
إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،
إخراج محمد شمام، تونس 76 ـ 1979
الجزء الثاني، ص ص 101 ـ 103

حملة سليمان الكاهية على قسنطينة

وسافرت المحلة لقسنطينة يوم السبت منتصف ذي القعدة سنة 1221. إحدى وعشرين ومائتين وألف (24 جانفي 1807 م) وأميرها ووزيره وثقته أبو الربيع سليمان كاهية الأول وخرج معه الآغا أبو العباس أحمد الجزيري، ومعه علي ابن الحاج مصطفى أنقليز، والكاتب الفقيه أبو عبدالله محمد المسعودي، واقتصر الباي هذه المحلة على عسكر الترك والمخازنية من الصبايحية والجوانب، وقبيلة دريد خرجت بنسائها على عادة العرب في أسفارها، وانتدب للسفر فرساناً من عروش ونيفة، بعد أن ملأ خزائن الكاف بالقمح والشعير والزيت وسائر ما يلزم المحلة.

ثم أمده بمحلة ثانية لنظر أبي الربيع سليمان كاهية وهو يومئذ آغة وجق باجة، ومعه الحاج مصطفى أنقليز. ثم أمده بمحلة من فرسان الأعراض لنظر عالمه أبي العباس حميدة بن عياد، والكل في إمرة سليمان كاهية الأول، وكان مغفلاً، بعيداً عن الحزم ضعيفاً عن حمل ثقل العهدة، يتوقف في أقل الأمور على المشورة، وأضاع بذلك التوقف فرصاً كثيرة، مع ديانته وأمانته.

ولما وصلوا قسنطينة، عاثوا في نهب عربانها، وأخذوا بمخانق حصرها، وألحوا عليها بالمدفع والبونبة، حتى أشرفوا على أخذها، فأتت لنصرتها محلة من الجزائر، وقد ملّ القوم من طول أمد الحصار في محل واحد، وأشدهم مللاً دريد، فإنهم يختارون الأخذ الوبيل على المقام الطويل، سمعت من بعض أعيان المحلة أنهم تمنوا الهزيمة، ورأوها أخف عليهم من ملل المقام بمكان واحد.

وقد كان الباي عين لهم مدداً بأربعمائة جندي اختارهم، وزادهم من البونبة، وقبل وصول هذا المدد وقعت مناوشة حرب بين الفريقين. أثارتها معركة بين رعاء من الرعاع هرب فيها بعض فرسان دريد، ففر الذي أمامه، والذي خلفه، حتى

انهزم سليمان كاهية ومن معه من المحلة، فلم يسعه إلا الفرار، حتى كأن الهزيمة وقعت بتدبير، وكان ذلك يوم الأحد الخامس والعشرين (من صفر سنة 1222). اثنتين وعشرين ومائتين وألف (3 ماي 1807 م) وبقي أناس من دريد بنسائهم وأولادهم، احتوت عليهم محلة قسنطينة وعربانها، ولم يقدروا على التخلص منهم، وأنزلهم باي قسنطينة أرضاً تسمى الآن بحيرة دريد، وتملكوا بها إلى وقتنا هذا، ورجعوا إلى الكاف وتسللوا للحاضرة، وكل من يصل من أعيان المحلة يعيرة الباي ويأمر بسجنه، وكان ممن أتى حميدة بن عياد أمير محلة الأعراض، ولما وقف بين يديه عيرة وأمر أبا محمد حمودة الأصرم خوجة زواوة بإيصاله إلى السجن، فحاذاه وماشاه فانتهره الباي وقال: «ضع يدك عليه مثل المسجونين، وحسبه من الاحترام أن أمرتك بإيصاله، ولم نبعثه مع أحد الأضه باشية».

ولما أتى سليمان كاهية أمير المحلة وقف بين يديه باكياً أسيفاً. فقال له: «لا أعتقد فيك خيانة ولا جبناً، ونعلم ما أنت عليه من الغفلة، فإضاعة الحزم ـ والحالة هذه ـ مني، وقد خدمت أبي وحملتني صغيراً على عاتقك، والحياء يمنعني أن أفعل بك ما فعلته بأمثالك، فالمناسب أن تستريح بمحلك على احترام ما سلف من خدمتك». فرجع لداره وتوفي أواخر رجب السنة 1222 (أوائل أكتوبر 1807 م).

وأولى عوضه سليمان كاهية الثاني لما ثبت عنده وعند الناس من صبره وإقدامه وأنه يوم الهزيمة عرض نفسه للموت مراراً فدافع عنه الأجل.

ولما سافرت هذه المحال لم يشك أحد في أخذهم قسنطينة، وأمر الله وراء ذلك. ولما بلغ الباي خبر الهزيمة، قبل وصول المنهزمين، وأن محلة الجزائر قادمة في أثرهم للحاضرة بقوتها وما ازداد لها من المدافع والخيل والإبل وغير ذلك من آلات محلة تونس، أصبح حزيناً خائفاً يترقب، فالتفت عليه رجال دولته. وأول من كلمه في ذلك أبو الثناء محمود بن بكار الجلولي، قال له:

«الغنيمة هي سلامتك، وما مضى فات، واستقبل الأمر بالحزم والثبات».

أحمد بن أبي الضياف

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،

إخراج محمد شمام، تونس 76 ـ 1979، ص ص 57 ـ 59

صالح بن محمد العنتري

(ت بعد 1293هـ / 1876هـ)

ولد صالح بن محمد بن أحمد العنتري بقسنطينة في أوائل القرن التاسع عشر ما بين 1205 هـ/ 1790 م أو 1800/1215 م. وتوفي بها بعد سنة 1876. في نهاية الثمانينات من القرن الماضي، ينتسب إلى عائلة عريقة اشتهرت بالاشتغال بوظائف الكتابة والمهام الإدارية، فقد عمل جده أحمد كاتباً بديوان صالح باي (1771 ـ 1791) وتولى أبوه محمد وظيفة كاتب خاص لدى أحمد باي (1826 ـ 1837) كم اشتغل هو بوظيف الكتابة بالمكتب العربي (Bureau arabe) الذي أنشيء بقسنطينة تحت إشراف الضابط الفرنسي بواسوني (Boissonnet) برتبة «خوجة الدائرة».

تلقى صالح العنتري تعليمه بقسنطينة على شيوخ أجلاء أشهرهم أحمد العباسي وعلي الونيسي وعمار المغربي ومحمد عبد الرحمٰن باش تارزي، وأظهر منذ صغره ولعه بالأخبار والتواريخ، وميلاً إلى العمل الإداري، فالتحق بالوظيف باكراً وتولى كتابة تحرير الكتابات باسم الضابط الفرنسي بواسوني وأثناء ذلك اكتسب اطلاعاً على الثقافة الفرنسية واشتغل مدة بالتدريس، ثم تولى القضاء بقسنطينة وعُدّ من مجموعة علماء قسنطينة وأعيانها الذين شاركوا في رحلة إلى باريس سنة 1844. واطلعوا على المظاهر العمرانية بها، وهم محمد بن القاضي، ومحمد الشاذلي، وأحمد بن المبارك وبلقاسم بن محمد بن عيسى، ومحمد بن المسبح، وأبو منصور عمار بن شريط، وعمار الغربي، ومصطفى شاوش.

ترك محمد العنتري العديد من المصنفات أهمها:

1 ـ «تاريخ قسنطينة» وضعه تلبية لطلب الضابط بواسوني متولي المكتب العربي بقسنطينة، وانتهى من تأليفه أواخر عام 1846، وتوقف فيه عند أحداث زيارة الدوق دومال لقسنطينة صيف 1846، وقد عرف هذا المصنف بعناوين مختلفة منها: «كتاب الأخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينة» أو الأخبار المبنية في تاريخ قسنطينة، وفريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها. وذكر شيء مستفاد من سيرة باياتها إلى انقضاء دولتهم واحتواء الفرنسيس على مملكتهم، وتضمن المصنف أخبار قسنطينة في العهد العثماني منذ فرحات باي، (1057 هـ/ 1647 م) مع التوسع فيما يتعلق بأحمد باي والفترة الأولى للاحتلال.

يعتبر تاريخ بايات قسنطينة للعنتري من أوائل الكتب التاريخية التي عالجت تاريخ قسنطينة بالتفصيل، اعتماداً على الروايات والمشاهدات، والاستناد إلى وثائق العائلات العريقة بالمدينة، والوثائق الرسمية التي وضعها المكتب العربي تحت تصرفه، وهذا ما جعله ينفرد بإيراد أخبار لم يذكرها غيره من معاصريه مثل أحمد المبارك والنميري، على أن ما يلاحظ عليه هو تهجمه على الحاج أحمد باي، ذلك لأن العنتري ظل يُحمِّل هذا الباي مسؤولية قتل والده (1837) بعد أن اتهم من طرف منافسيه وعلى رأسهم ابن عيسى قائد الباي بأخذ الرشوة من الفرنسيين مقابل عمله على تثبيط عزائم المسلمين عندما أوفده الباي أحمد باعتباره كاتبه الخاص للتفاوض مع قائد الجيش الفرنسي داميريمون في نواحي حمام المسخوطين بالقرب من قالمة، ولعل هذا ما جعل العنتري يميل إلى الفرنسيين ويبدي إعجابه بإنجازاتهم مدفوعاً بتأثير الضابط الفرنسي بواسوني عليه ومحاولته إقناعه بذلك، وقد أدى به نفوره من أحمد باي إلى إثارة حفيظته على الحكام العثمانيين لا سيما المتأخرين منهم ووصفهم بالضعف والظلم والاستبداد، وهذا ما عبر عنه في فريدة مؤنسة بقوله: «إن الأتراك في بدء أمرهم حين لم يتمكنوا من الوطن كل التمكن عدلوا بين الناس ولم يظلموا أحداً، وحين تمكنوا صاروا يظلمون الناس، ويسفكون دماءهم ويأخذون أموالهم بغير حق، ويعدون ولا يفون ويؤمنون ويغدرون، كما يعلم مما تقدم، ولم يزل ظلمهم يزداد حتى تجاوز الحد

في ولاية الحاج أحمد بن محمد الشريف الذي أخذت قسنطينة في زمان ولايته».

تميز كتاب تاريخ قسنطينة بالبساطة في التعبير والوضوح في اللغة إلا أنه لا يخلو من أخطاء لغوية وضعف في التركيب مع الميل إلى الإنشاء الديواني وأسلوب السجع والتكلف واستعمال بعض التعابير العامية المتداولة.

تم نشر تاريخ بايات قسنطينة لأول مرة بقسنطينة بمطبعة ڤان سنة 1846 ثم قام السيد دورنون (Dournon) بعد سنوات من ذلك بترجمته إلى الفرنسية ونشره في مجلة مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينية لعام 1929، وقد حاول أحمد سيساوي مؤخراً تحقيقه لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث بجامعة قسنطينة (1981) كما قام بنشره الأستاذ يحيىٰ بوعزيز اعتماداً على عدة نسخ، لكن الطبعة جاءت رديئة الإخراج لا تخلو من أغلاط وهفوات، الأمر الذي يوجب مراجعتها وإعادة نشرها.

2 ـ أما «سنين القحط والمسغبة ببلدة قسنطينة» فقد ألفه سنة 1870 باقتراح من الضابط الفرنسي دوليو الذي تولى أمور المكتب العربي بقسنطينة في تلك الفترة، وقد تعرض العنتري في تأليفه هذا إلى الأوضاع الاقتصادية وما تميزت به من أزمات أواخر العهد العثماني وأوائل فترة الاحتلال، وقد اهتم فيها صالح العنتري خاصة بإبراز الظروف التي تسببت في حدوث القحط والغلاء. ما بين سنتي 1803 و 1868. والتي حددها بالسنوات التالية 1218 هـ/ 1803م، 1219هـ/ 1804م، 1223هـ/ 1808م، 1254هـ/ 1838م، 1264هـ/ 1847م، 1267 هـ/ 1850 م، 1283هـ/ 1866م، 1285هـ/ 1868م، وقد قام بتحقيق المخطوط الأستاذ رابح بونار اعتماداً على نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر (تحت رقم 2330) ونشره تحت عنوان مجاعات قسنطينة مع مقدمة ضافية، وذلك بالجزائر سنة 1974 (في 76 صفحة)، ويعتبر المخطوط في موضوعه من ألطف التآليف وأهمها. فقد عالج فيه العنتري بعض المسائل التي تتعلق بالأسعار والغلاء وتأثيرها على حياة السكان بأسلوب سليم ولغة سليمة وروح علمية ونظرة مبتكرة متلمساً العلل عارضاً الأحكام والظواهر الاقتصادية مقارناً بين العهد العثماني وفترة

الاحتلال الفرنسي، معتمداً في ذلك على معلومات تاريخية استقاها من شيوخ مسنين ورواة ثقاة عاشوا تلك الفترة وتأثروا بأحداثها. فكان في ذلك شبيهاً بالمقريزي (ت 845 هـ) في رسالته «إغاثة الأمة بكشف الغمة». وخاصة فيما يتصل بارتفاع الأسعار وقيمة النقود، وقد كان العنتري مُدركاً لطرافة موضوع كتابه وفائدته حيث قال عنه في مقدمته: «إن في هذا الكتاب أموراً سيستحسنها أهل الرأي والتقدير الساعين إلى جلب المصالح للكبير والصغير».

3 ـ «هدية الإخوان» في موافقة التاريخين وتوقيعات الزمان وفوائد متفرقة لها شأن». وهو عبارة عن تقويم مقارن للتاريخ الهجري والميلادي أدرج فيه فقرات من الإنجيل وبعض آراء الجزائريين في الحضارة الغربية، ودروساً في اللغة الفرنسية وذلك بهدف اطلاعهم على الثقافة الفرنسية وتقريبهم من الإدارة الفرنسية حسبما أوعز له بذلك بواسوني.

4 ـ «إخوانيات» وهي عبارة عن رسائل شخصية للعنتري كان قد كتبها لبعض أصدقائه ومعارفه منها رسالة وجهها إلى المترجم فيرو يعرض فيها حالته ويشكو من معاملة الفرنسيين له وعدم تقديرهم لخدماته، وتعتبر نموذجاً لهذا النوع من الرسائل الإخوانية التي تعكس جانباً من حياة صالح العنتري.

تميز صالح العنتري فيما كتبه عن تاريخ قسنطينة أو ما سجله من أزمات اقتصادية بالشرق الجزائري بوفرة معلوماته وتنوعها بالمقارنة إلى الشيخ أحمد المبارك وكذلك بدقة ملاحظاته ونظرته المحايدة فضلاً عن احترامه سياق العرض التاريخي للأحداث مع تجنبه للاستطراد إلا فيما يراه ضرورياً كضرب الأمثال الشعبية وإثبات أقوال الأولياء، ولعل ما يؤخذ عليه إعجابه بالحكم الفرنسي وتفضيله على الإدارة العثمانية في موقف المقارنة بينهما، ويعود ذلك إلى موقعه من الأحداث وتأثره بالتطورات التي عرفتها قسنطينة أثناء وبعد حكم الحاج أحمد باي لها.

يعتبر تاريخ العنتري مصدراً أساسياً للفترة الأخيرة من العهد العثماني والسنوات الأولى للاحتلال كما أشرنا آنفاً، وقد أخذ عنه بعض من كتب عن هذه

الفترة مثل مرسي (Mercier) وفايست (Vayssettes) واللنباري (Lambary) الذين اعتمدوا على تاريخه فيما كتبوه عن تاريخ قسنطينة ولا سيما في الفترة الأولى للاحتلال 1837 ـ 1846 م.

المراجع المعتمدة:

- العنتري (صالح)، فريدة مؤنسة أو تاريخ قسنطينة، قسنطينة 1846.
- العنتري (صالح)، سنين القحط والمسغبة أو مجاعات قسنطينة، تحقيق ونشر رابح بونار، الجزائر، 1974.
- أبو القاسم (سعد الله)، محمد الشاذلي القسنطيني 1807 ـ 1877، الجزائر، 1974.
- أبو القاسم (سعد الله)، رسالة من العنتري القسنطيني إلى المترجم فيرو، مجلة الدراسات التاريخية معهد التاريخ، العدد الأول 1986، ص ص 101 ـ110.
- العيد (مسعود)، المجتمع الجزائري في العهد العثماني، معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة (رسالة جامعية غير منشورة).
- العنتري (صالح)، فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة وأستيلائهم على أوطانها المعروفة بتاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتحقيق يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1991.
- معجم مشاهير المغاربة، ص ص 395 ـ 398.

- Mercier (E.) Histoirte de Constantine, Constantine, 1903.
- Saint Calbre (Ch.) Constantine et quelques auteurs constantinois, in Revue Africaine N° 288/ 1913, pp. 70 - 95.
- Vayssettes (E.) Hsitoire de Constantine sous la domination turque de 1517 a 1837, Constantine, 1869.
- Dournon Constantine sous les Turcs d'après Salah al-Antari, Constantine, 1929.

دخول الفرنسيين إلى قسنطينة

رحلوا وتقدموا إلى قسنطينة فرحل أيضاً حاج أحمد باي من فج سيلة، وتقابلوا في ناحية عقبة العشاري ومن هناك بدأ الفتن بين المسلمين والفرانسيس، فمات رجم شيخ الحراكتة ومات محمد الشريف بن الحملاوي قايد عامر الغرابة في ذلك الوقت، ومات سيدي عبدالله بن الأحرش، كانوا أوائله في المخزن، ومات من الجيوش غير معروفين في ذلك اليوم ومات أخو سي مقران في خنيفة الزناد ولا زال الفتن من الجانبين إلى أن نزلوا على قسنطينة وقابلوها من ناحية سطح المنصورة، ومن ناحية الكدية، فركبوا آلة حربهم، ورتبوا عساكرهم ونشأ الطراد بين الفرانسيس وناس البلاد وتمادى القتال بين الجانبين فكان ذلك ثمانية أيام، وكان في اليوم السادس مات الماريشال المذكور بكورة نزلت عليه من الصور، ومن بعد موته ترجع مريشال آخر الذي اسمه كونت فاله فكان صاحب حرب وفطانة فحين ترجع أمر بحفر المتارزات، وجعلهم صفاً بعد صف، إلى أن وصلوا قريباً من صمعة سيدي بوقصيعة. ثم رجع المدافع وقابلهم للصور، ونزل عليه برمي البومبة والكور حتى انهدم وصار في العدم. . .

هذا الوقت نزل بناس البلاد الرعب والفتور فهرب ابن عيسى المذكور من ناحية الطابية ولحقوه الكثير من ناس البلاد العامة وتبقى ابن البجاوي قائد الدار ومعه من ناس البلاد الأعيان الذين ليس لهم نسبة في البيدوان، فتقوى من الجانبين الطراد، واشتد ذلك بين أبواب البلاد، فانزعج قائد الدار المذكور ورفعوه إلى داره مجروحاً فعند ذلك هجم عسكر الفرانسيس من كل جهة ودخل إلى البلاد، وصارت مقتلة عظيمة ومعركة شهيرة بقرب الموقف، وتخلطوا مسلمين وفرانسيس وبطل البارود فصار المسلم يضرب بالسيف والفرانسيس يضرب بالشفرة، ولا يزالوا كذلك حتى يقعان في الأرض ميتين متعانقين، ومات في تلك الساعة من

ناس البلاد المعروفين منهم: السيد علي بن سيدي عمر الوزان، وسي علي بن المسبح، وإمام جامع سيدي الدّبي، وسي بلقاسم بن المغلاوي، وسي إسماعيل بن الذيب، وبوذن، وابن السبكي، والهاشمي خديم قائد الدار، وسي أحمد بن صالح السراج، وابن العمودي كان قائد الباب، وحاج حسن الجيحلي، وغيرهم.

وأما قائد الدار لما رفعوه إلى داره ودخلوا إليه بعض أطباء الفرانسيس وعالجوه وقد مات في يومه بعد العصر، ولمّا انجرح قايد الدار ورفعوه إلى داره فرُّوا المسلمين والتجأوا إلى سيدي الشيخ بن الفقون مستغيثون قائلون (كذا) كيف يكون خلاصنا وأين السبيل إلى فرارنا وفي أي مكان يكون استقرارنا، فأشار عليهم بتعليق بنديرة طلب الأمان، التي هي علامة الدخول في الطاعة وانقطاع الافتتان، وكتب جواباً في الحال وأعطاه للبعض من أعيان البلد وأمرهم يمشون بالفور لأجل مقابلة السلطان والماريشال فيطلبون العفوة (كذا) ويتوثقون منهما بالأمان، فلما انفصلوا من عنده وصاروا في أثناء الطريق وجدوا عسكر الفرانسيس برحبة الجمال والناظر عليه والمتولي أموره كما نده اسمه بيدو، فلما رآهم قاصدين له وهم في غاية الرهب والدهش تحقق أنهم أتوا لأمر يطلبونه فحينئذ أمر العسكر بعدم الرمي فامتثلوا ولما وقفوا بين يديه أول ما سألهم عن طريق القصبة وأين محلها فقالوا له نحن نوصلكم إليها، ثم سألهم عن سبب قدومهم فأخبروه أنهم يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد على أولادهم ونسائهم وأملاكهم فأجابهم إلى ذلك وأعطاهم الأمان، وكان عنده الإذن في ذلك الشأن لكن بشرط أن يدفعوا السلاح في القصبة ليكون العفو والسماح فامتثلوا لذلك الأمر طائعين، ثم أمر برجل من ذلك الناس يمشي مع البعض من الفرانسيس ليعرفهم بطريق القصبة والبعض أرسلهم إلى ولد السلطان والماريشال، فلما بلغوهما طلبوا منهما الأمان على ما تقدم فأجابهما بذلك وفرحوا بهما، ثم رادّوهم (كذا) إلى الكماندة بيدو.

ولما وصلوا ذهب معهم إلى دار سيدي الشيخ بن الفقون ليطمن أهل البلاد في الأمان على ما تقدم ليسكن خوفهم فلما وصلوا قام سيدي الشيخ إلى الكوماندة المذكور واستكثر من خيره وقال له إن هذه البلد لم تدخل عنوة من قديم الزمان إلا هذه المرة فقد مكّنكم الله تعالى منها فيجب عليكم أن تعملوا الخير وتعطوا الأمان

إلى ناس البلد، فبذلك يتمهد لكم الأمر وتذعن إليكم الرعية والعباد.

فأجابه الكماندة المذكور قائلاً له ما يكون لكم إلا الأمان التام، وما عليكم من الدولة الفرانسوية إلا العافية والاحترام لكم ولأولادكم وحريمكم، ودياركم، وأرزاقكم، فلما تكفل لهم بذلك وسمعوا كلامه الخاص والعام فرحوا أهل البلد فرحاً شديداً وطمأنت نفوسهم وسكن روعهم والكماندة بيدو أول من أدخل السرور والفرح على أهل البلاد، فله عليهم مزية كبيرة ثم تكلم معه بوزيان بن العامي قائلاً له حيث أعطيتمونا الأمان نحن أهل البلد: أعطونا الأمان لأهل الوطن ليحصل لهم الهناء، وتكون القدرة على جلبكم (كذا) لخدمتكم. ويصير الحال أحسن مما كان في زمان حاج أحمد باي، فقال له عندي الإذن نؤمن أهل البلد دون البادية ولكن نستأذن ولد السلطان والماريشال في ذلك ونخبركم بما يأذنان به، فذهب إليهما وأخبرهما أن يعطي الأمان للرعية، فرجع الكماندة المذكور إلى دار الشيخ وأخبرهم بالواقع، وأعطى الأمان لأهل الوطن فبذلك زاد الفرح والسرور عند ناس البلد، وزال عنهم الخوف والنكاد وكان ولد السلطان والماريشال من بعد ما رجعوا من عندهم ذلك الناس بالأمان تراهم تقدموا، ودخلوا في قسنطينة ومعهم كل الجنيرالات وأرباب الدولة الفرانسوية، ونزلوا في الدرب الذي هو محل سكنى حاج أحمد باي فاستقروا فيه، واحتووا على ما كان من ذخائره، وكان ذلك يوم الجمعة وقت الضحى الثالث عشر في أكتوبر عام 1837 سبع وثلاثين وثمانمائة وألف بالحساب الفرنجي وأما حساب أهل قسنطينة، أنهم يقول دخول الفرانسيس يوم الرابع عشر في رجب عام 1253 هـ. ومن بعد دخولهم خرج التنبيه على السلاح إلى ناس البلد أن من يخفي سلاحه ولم يدفعه في القصبة تلزمه العقوبة فترى كل الناس بادروا بدفع سلاحهم واختاروا العافية لهم ولأولادهم، فحينئذ استقر كل واحد من أكابر الفرانسيس بما يناسبه من المنازل، فكان منزل الكماندة بيدو في دار باي خزناجي متاع أحمد باي.

صالح العنتري

فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، تقديم ونشر يحيىٰ بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991 ص ص 110 ـ 114

أزمة عام 1219 هـ / 1804 م

وفيها مات عثمان باي (أي سنة 1219 هـ/ 1804 م) وتلفت خزائنه وكل ما احتوت عليه محلته من أرزاق ومال ونحو ذلك، وهاته الواقعة مشهورة بوادي زهور وجلبناها هنا لما أنها أحد الأسباب التي نشأت عنها المجاعة وقلة الحبوب من كثرة الهول واضطراب الرعية بموت الباي وتشتيت أهل محلته فإن أهل الأعراش قاموا على بعضهم بعضاً بالنهب والفساد ومن أجل ذلك الاضطراب انعدمت الحراثة في تلك السنة أيضاً في جهات كثيرة، وانفقدت حبوب الزرع بقيام ذلك الهول، وعز إخراجها وقل من يأتي بها للأسواق مخافة الطرقات وقتئذ.

فحصلت للناس شدة ومجاعة قد أشرف فيها الضعفاء على الهلاك خصوصاً بعض نواحي القبلة فإنهم تشتتوا عن منازلهم وتفرقوا بسبب الهول الواقع في وطنهم مع الشر والمصائب التي حلت به من قبل من يبس الزرع، وعدم الحرث، ونزول القحط والفتن إلى غير ذلك مما تقدم ذكره، حتى صاروا يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح اقتياته إلا أن ذلك الأمر خاص بأولئك الناس المذكورين في السنة الأولى فقط، ثم ارتفع عنهم وليس هو عام سائر الضعفاء مثل ما وقع في زماننا هذا لأناس كثيرة في نواحي متفرقة كما لا يخفى.

والحاصل بعد أن كان ذلك كذلك ارتفعت أسعار الحبوب إلى ما لا نهاية له فبيع الصاع الواحد من البر وقتئذ بخمسة عشر إريالة سكة الوقت، والصاع من الشعير بسبعة إريالات ودام القحط والغلاء في الحبوب كذلك مدة سنة كاملة وهي سنة 19 «يعني سنة 1219 هـ/ 1804م» ثم بعد ذلك نزل سعره شيئاً فشيئاً غير أن

حال الوطن لم يعتدل بعدها ولم يرجع لأصله إلا في سنة 1223 هـ/ 1808 م حسبما يأتي بيان ذلك.

وأما باقي الغلل من مكولات ومشروبات كلها رخيصة السعر إلا أن الدراهم قليلة بأيدي الناس في ذلك الزمان جداً، وعَزيزة إلى الغاية ليست كوقتنا هذا، إذ لو كانت كثيرة وميسرة لما لحق الفقير في الناس من ذلك الشر شيء لأن البقرة الغاية في ذلك الزمان تباع بأربعة إريالات وخمسة. والكبش الغاية يباع بخمسة أثمان والكيلو منه بتونسية أعني صوردين، وقدحة الزبدة التي تزن زوج كيلو أو أزيد بربع الريال، والرطل من التمر بريالين ونصف وقس سائر المأكولات المعدة للاقتيات على ذلك السعر تجدها كلها في غاية البخس ما عدا الزرع. وقد كانت قيمة الزرع قبل تلك المجاعة والقحط ما بين ريال وريال ونصف للصاع الواحد، بحيث أنك لا تجد في ذلك الزمان ولا في الذي قبله وبعده من يهتم من أمر الزرع أبداً. ومن أجل بخس قيمته كانت أمور الحراثة في زمان الترك ضعيفة لم تتعلق بها أغراض الناس كوقتنا هذا، فلا تجد معتنياً بها إلا أهل البادية قدر ما يكفيهم لاقتياتهم فقط وأصحاب المخزن.

صالح العنتري

سنين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة

(مجاعات قسنطينة)، تحقيق وتقديم رابح بونار

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص ص 33 ـ 35

أحمد بن عبد الرحمن الشقراني

(ت بعد 1301 هـ/ 1883 م)

أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي من قبيلة بني شقران القاطنة ما بين غريس ومستغانم بالناحية الوهرانية، يكتنف الغموض حياته. إذ لا نعرف عنه سوى أنه مكث مدة بمدينة معسكر حيث تلقى العلم على بعض الفقهاء بها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي)، وقد دفعت به مطالعته للكتب وتأثره بالأحداث التي عاشتها الجزائر إلى وضعع مصنفه «القول الأوسط» في نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر الميلادي حسبما يفهم من فقرة وردت في الكتاب تتعلق بتاريخ وفاة الأمير عبد القادر (1883).

أوضح أحمد بن عبد الرحمن غرضه من وضع تصنيفه «القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط»، بقوله: «إني لما رأيت مغربنا الأوسط قد سكنته أمم وانقضت وملكته دول وأنقرضت وثارت به ثوار جسيمة، أردت بعون الله أن أجمع فيه ما قيدته وأنقل ما وجدته في الواقع الذي شاهدته».

يستعرض أحمد الشقراني في القول الأوسط الأحداث التاريخية باختصار حسب الترتيب التصاعدي فيبدأ بالأحداث التي عاصرها في القرن التاسع عشر وينتهي بالفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي وهذا ما أشار إليه المؤلف بقوله: «ماشياً فيه القهقري سالكاً فيه مهيم السادات والفقراء». وهو في ذلك إما أن يسجل الأحداث التي عايشها أو بلغت إليه عن طريق الرواية في الفترة القريبة منه أو ينقل الأخبار عن المصادر التي سبقته كما هو الحال بالنسبة للفترة الإسلامية وحتى العهد العثماني. ومما شاهده أو عاصره تَسْجيلَه لثورة بو عمامة (1864

ـ 1904م) التي اعتبرها عملاً شخصياً اتصف بالتسرع وعدم التبصر بل رأى في ثورته هذه سبباً في توسع النفوذ الفرنسي بمناطق الجنوب الصحراوي الجزائري، وحجته في ذلك أن الوقوف في وجه فرنسا ومقاومتها لا يجدي نفعاً بعد أن فشلت كل محاولات التمرد على الحكام والثورات التي قادها كل من الشريف الدرقاوي والشيخ التجاني وبوسف الخويلدي وولد سيدي حمزة بن الشيخ، ويرى أن نهاية مقاومة الفرنسيين كانت مع نهاية كفاح الأمير عبد القادر الذي يذكره بكل احترام وتقدير ويرى أن شخصيته شخصية فذة معقباً على عدم نجاحه في التصدي للاحتلال بقوله: «إن الفرج من عند الله القادر على تبديل الأحوال ما دامت الأيام لا تدوم على حال». هذا وقد تميز الشقراني في استعراضه للأوضاع التي ارتبطت بالاستعمار الفرنسي بخروجه عن الموضوع والانتقال إلى مواضيع بعيدة عن سياق التاريخ كذكره لحقيقة الرؤيا في المنام والفرق بين الرؤيا الصالحة وغيرها من الأحلام مستشهداً في ذلك ببعض الأحاديث النبوية الشريفة.

بعد ذلك ينتقل أحمد بن عبد الرحمن الشقراني إلى الحديث عن الفترة التي حكم فيها الأتراك الجزائر مشيراً باقتضاب إلى تسلط الفرنسيين على البلاد من بعدهم. ثم ينتقل إلى مبايعة الأمير عبد القادر وجهاده ومعاركه مع الجيش الفرنسي وما آل إليه أمره بعد ذلك، كما يذكر بعض الكوارث الطبيعية بالناحية الوهرانية من مجاعات وأوبئة وفياضانات ثم يستعرض أهم القبائل بأقاليم المغرب وكذلك بعض المدن المهمة مركزاً على وهران التي أشار إلى تأسيسها وتحصيناتها ووليها الصالح سيدي الهواري، ولم يفته ذكر ما تعرضت إليه وهران من غزو خاصة من طرف الإسبان مشيداً بفضل الأتراك في مواجهتهم للنصارى ووضع حد للأعمال الشنيعة التي كان يقوم بها النصارى مثل خطف المسلمين وتنصيرهم أو بيعهم أسري يساعدهم في ذلك اليهود وبعض القبائل المتحالفة معهم. (المغطسون).

وقد جره الحديث على وهران إلى ذكر حكم المرابطين والموحدين والزيانيين لوهران بأختصار، لينتقل بعد ذلك إلى ذكر بلاد المغرب وعواصم كل قطر فيها وأهم الأنهار بها ليعود من جديد إلى استعراض الأحداث التاريخية بالحديث عن تلمسان وتأسيسها ومن تولّى شأنها.

وقد ضم مصنف القول الأوسط معلومات متفرقة عن البارود والمنجنيق وأول من استعمله، وشيئاً من أخبار كسيلة وانهزامه، وقصة عقبة بن نافع الفهري ومسجده وأصل الفرنج والإسبان والعلة في تسميتهم، وهذا ما يدل على أنه لم يضع نهاية لتاريخه وإنما اضطرته الظروف إلى التوقف لسبب نجهله.

يعتمد أحمد بن عبد الرحمن الشقراني في مصنفه القول الأوسط على السرد التقليدي للأحداث دون وضع عناوين للمواضيع التي تضمنها، وإن كان في مجمله يتميز بسلاسة اللغة واستقامة الأسلوب والميل إلى استعمال المحسنات اللفظية كالسجع والترادف. وإن غلب على بعض الفقرات ضعف في البناء وركاكة في اللغة واستعمال بعض الألفاظ الدارجة والتعابير العامية مثل البابورات (البواخر)، وعلى كل فهو يعكس لغة عصره وثقافة بيئته ومستواه الثقافي الذي يدل على اطلاعه على معارف وثقافة دينية سمحت له بحسن عرض الأفكار، والاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض الأبيات الشعرية.

رغم صغر حجم القول الأوسط إذ لا يتعدى عدد صفحات المخطوط الأصلي 29 صفحة من الحجم الكبير إلا أنه يتميّز بتنوع معلوماته واختلاف مواضيعه وتسجيل بعض الملاحظات، وهذا ما جعله أقرب إلى المذكرات الشخصية منه إلى الكتب التاريخية العادية، وهو يتألف من قسمين الأول منهما لم يأت فيه المؤلف بجديد فهو ناقل عن الكتب المتداولة ككتاب ابن خلدون وابن أبي زرع وأبي راس الناصري وعبد الرحمٰن الجامعي. والثاني وهو المهم سجل في الشقراني مشاهداته وعرض آراءه، فهو يرى أن الرجل الوحيد المؤهل لمنازلة الفرنسيين هو الأمير عبد القادر، وهذا ما جعله ينكر على بوعمامة قيامه بالثورة لتخوفه من انتكاسات أخرى تكون في غير صالح المسلمين، كما سجل انطباعاته عما شاهده من أحوال العمران وظروف المعيشة وهو في ذلك أقرب إلى معاصره العنتري الذي اهتم بالأوضاع الاقتصادية للشرق الجزائري في كتابيه «فريدة مؤنسة» أوْ «تاريخ بايات قسنطينة» و «سِنِين القحط والمسغبة ببلد قسنطينة» وَوجه الشبه كبير بين العنتري والشقراني. الأول يتخذ موقفاً عدائياً من الحاج أحمد باي.

والثاني يتحيز للأمير ويقف ضد بوعمامة. وكلاهما يبدي إعجابه بالفرنسيين ويدعو إلى الرضا بالأمر الواقع. (راجع ترجمتنا للعنتري: موسوعة أعلام المغاربة».

يعتبر القول الأوسط من المصادر المهمة للتاريخ الجزائري فيما يخص النصف الأول من القرن التاسع عشر ولا سيما ما يتصل منها بالتوسع الفرنسي في الجنوب الوهراني، وما أنجرّ عنه من مقاومة وما صاحبه من أحداث، وقد نقل عنه من عاصره مثل محمد بن يوسف الزياني صاحب «دليل الحيران وأنيس السهران» والمزاري في «طلوع سعد السعود» وقد ظل لفترة طويلة مخطوطاً في غير متناول الباحثين قبل أن يحقق ويقدم من طرف ناصر الدين سعيدوني، وينشر ببيروت (1991).

المراجع المعتمدة:

- الشقراني (أحمد بن عبد الرحمن)، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.
- المزاري (إسماعيل بن عودة)، طلوع سعد السعود، تحقيق ونشر يحيىٰ بوعزيز، بيروت ج1، 1990.
- الزياني (محمد بن يوسف)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقدم وتعليق المهدي بوعبدلي، الجزائر، 1979.
- معلومات أخذت عن الشيخ المهدي بوعبدلي في محادثة خاصة.

المجاعة والفيضانات بالغرب الجزائري
(1283ـ1287هـ/ 1866ـ1870م)

وفي سنة أربع وثمانين ومئتين وألف وقعت مسغبة كبرى ومجاعة شديدة عظمى مات منها خلق كثير من الآدميين والمواشي والدواب لعدم الأقوات والعشب والمراعي، لأن المطر لم ينزل في تلك السنة قط حتى فقد الحب ولم يوجد إلا عند بعض الناس الفلاحين وتجار اليهود والنصارى، ولولا أنه وجد عند هؤلاء لمات أكثر الخلق وهذا من لطف الله ورحمته بعباده، وأكلوا خشاش الأرض كاليبوش والسلاحف والضفادع والسراطين حتى أنه لم يبق خشاش على وجه الأرض وأكلوا الكلاب وميتة الدواب وبلغنا منهم من أكل ميتة الآدمي وسارعوا إلى بيع العقار والحلي والسلاح والأمتعة وأواني البيت المحتاج إليها بأبخس ثمن ووقع في الناس الرعب والفزع والهرج والجزع وجال بعضهم فيبعض وتشتتوا وتفرقوا في الطرق والحلل والمدون (كذا) والقرى ذكور وإناثاً ومن أجهده الجوع في مكان مات فيه عامراً أو غامراً وأكلته الكلاب والسباع وهوام الأرض، ومن العجب أن من أجهده الجوع وشبع مات ولا يؤثر فيه الأكل ولا يفيده، وغالب الأموات لم يدفن بل بقي على وجه الأرض حتى تأكله السباع لعدم قدرة الأحياء على دفن الأموات، وكم من امرأة تزوجت بغير ولي وصداق وكم من شريفة تزوجت برعاع الناس وخسيسهم وأوباشهم، وكم من رجل زوج زوجته مدعياً أنها قريبته وأنه وليها، وذهبت أنا عبدالله ذات يوم من أيام الله إلى إيفكان، فوجدت المرة بعد المرة الكلاب والذياب يأكلان في الأموات مع الطريق، وفي السنة الثانية وهي سنة خمس وثمانين ومئتين وألف ظهر الوباء في الناس ومات كثير منهم وذلك أن الضر ينزل أولاً على القلب

فينشأ عنه. . . وإسهال البطن فيموت الآدمي بذلك وفي سنة المسغبة مات العلامة ولي الله وشيخ الطلبة السيد عبد القادر الحمياني رحمه الله، وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف فاض وادي الحمام فيضة كبيرة أخذ فيها دوار الزمامرة بما فيه من الرجال والنساء والأموال والأمتعة. ولم ينج من أهله إلا القليل، وكان ذلك وقت الصيف والناس يحصدون وذلك أن الرعد تكلم في القبلة عشية الأربعاء وهم نازلون بمكان منبطح من الأرض بلصق الواد آمنون من حملته في ذلك الوقت وكنا نقرأ نحن وطلبتهم في المعسكر فعوشرنا يوم الأربعاء، فخرج طلبتهم من المعسكر عشية الأربعاء ومعهم السيدان حواء ولد السيد أحمد بن حواء بن يخلف ذاهباً عند بعض قرابته بالدوار المذكور فصكهم الماء ليلة الخميس سحراً وهم نيام بحيث وصل لمحلنا هذا وقت الإسفار.

ثم إن أهل الأموات صاروا يفتشون عليهم مع مجرى الواد فوجدوا بعضهم في محلنا هذا وغالبهم من سيرات، ثم فاض مرة أخرى في فصل الربيع في رجب الفرد الأمم سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف وذلك أن المطر نزل ليلة الخميس ودام إلى ليلة الجمعة ففاض في تلك الليلة وكسر جميع القناطير التي بناها الفرنسيس، وانتشر عن مجراه الأصلي بكثير ومن لطف الله ورحمته لم يضر أحداً.

وفاضت أيضاً جميع الأودية مثل سيق وغيره وكسرت جميع القناطير أيضاً ولا زالت تلك السنة تعرف بعام القناطير.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف ابتدأ الفرانسيس بناء السد الكائن بالمرج البيضاء بوادي الحمام وفرغوا من بنائه سنة سبع وثمانين ومائتين وألف فاجتمع فيه ماء كثير ودام إلى آخر ليلة الخميس الموفية ثلاث وعشرين من المحرم الفاتح لسنة تسع وتسعين ومائتين وألف انكسر فهلك بذلك خلق كثير من المسلمين واليهود والنصارى وبربر المغرب والمواشي والدواب والأمتعة والخيام بما فيها، وكل ما وصله الماء من الأحجار الكبار والأشجار العظام إلا أقلعها وأزالها عن محالها ومقارها وأفسد الأرض التي وصلها بحيث صارت دوامس وشعبا وكفهفا لا يصلها إلا الطير وما رأينا أعجب من هذا وسبب تكسره أن المطر نزل يوم الثلاثاء

الموفي واحد وعشرين من الشهر المذكور ودام بعده إلى يوم الخميس فامتلأ السد بتكرر حملات الأودية والسيول حتى رجع ماء النهر الكبير صاعداً على عقبه بمسافة بعيدة تقرب من مشرع حسين. فحينئذ تكسر نصف الليل وسمع له دوي كبير يوقظ النائم ويفزع اليقظان. ودفع مع مجراه الأصلي وانتشر يميناً وشمالاً وارتفع إلى أعلا شاهق وأكمة وخراب وأفسد طريق البابور البري حتى أوقف جريه وسفره، واستأنفوا له طريقاً مشيداً ودخل الماء مدينة باريق وأفسد ما فيها من السلع والحبوب وأخذ بعض الديار بأهلها وأما الأموات التي أخذها فرماها مفترقة حيث انتشر الماء في أرض سيرات وغالبها فيما يلي أرض الشراقة، فمن رحمة الله سبحانه أن حكام الفرانسيس أمروا القياد أن يجمعوا الناس ويفتشوا على الأموات فمن لم يستره الرمال والحامول وجد ومن ستره لم يوجد إلا بعد أيام ومنهم من لم يوجد أصلاً. وجمعوا في مدينة باريق فمن كان له أهل حملوه ومن لم يكن له أهل أمر الحكام بدفنه وصار فساق المسلمين وظلمتهم يفتشون على الأموات ليأخذوا ما معهم من الثياب ونحوها ويتركونهم عراة، ومن العجب أن امرأة شريفة الأصل والنسب من ذوات القدر والحسب، بديعة الحسن والجمال، فريدة العظمة والجلال، من بنات قطب الأولياء الصالحين، وإمام الأتقياء والعارفين وطراز عصابة الأصفياء والخاشعين، السيد دح بن زرقة وجدها بعض من لا يراقب الله وبيديها منفاخ ذهباً وبإصبعها خاتم وبرجليها خلخال فلم يقدر على نزع ذلك لتورم أعضائها بالمياه فقطع يديها وإصبعها ورجليها وأخذ الحلي بتمامه، وترك أطرافها مع جسدها وذهب لا أفلحه الله.

وأقام الحكام بأكفان الأموات وغرمُوا قيمة كل ميت شيئاً من الدراهم جعلوه كالدية لا يفي بنصفها وغرمُوا لأهل ما أفسده الماء وأتلفه من الأرض وغيرها، وهذا النهر كثير الضرر والمصائب شديد البأس والغرائب فلا تؤمن غائلته وطولته ولا تنقطع غارته وصكته.

الشيخ أحمد بن عبد الرحمٰن الشقراني الراشدي

القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط،

تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني

دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991، ص ص 44 ـ 49

خير الدين باشا التونسي
(ت 1308 هـ/ 1890 م)

ولد خير الدين بقبيلة إباظة بمنطقة نهر الكوبان من بلاد الشركس بالقوقاز، سنة 1237 هـ/ 1822 م. وأخذ في إحدى الغارات أسيراً إلى إستانبول، وتولى تنشئته حسين بك بعد أن اشتراه من سوق الرقيق، قدم إلى تونس وهو شاب يافع لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره (1839) عندما اشتراه من سيد حسين بك مبعوث المشير أحمد باي فتربى بقصر الباي بتونس (قصر باردو) حيث حفظ القرآن وتلقى مبادىء العلوم، ثم دخل المكتب الحربي فتعلم اللغة الفرنسية والعلوم العصرية كالرياضيات على يد خبراء فرنسيين وتخرج ضابطاً متشبعاً بالثقافة العسكرية ومطلعاً على العقلية الأوربية ومؤمناً بالمبادىء والقيم الإسلامية.

ارتقى خير الدين في سلم الخدمة العسكرية فتولى خطة قائد الخيالة في الجيش (بنباشي) 1840 ثم شغل رتبة قائد أول (آلاي أمين) ثم أسندت إليه قيادة لواء الخيالة (أمير آلاي) 1852. وقد ساهم في تجهيز العساكر التونسية للمشاركة في حرب القرم وعين وزير للبحر، وبجانب هذه المهام العسكرية شغل خير الدين وظائف إدارية وسياسية سامية، إذ عين عضواً في لجنة شرح قواعد عهد الأمان وكاهية (نائب رئيس) المجلس الأكبر (البرلمان 1860) ثم أسندت إليه رئاسته بعد وفاة مصطفى صاحب الطابع (1861)، وتعبيراً عن معارضته لمبدإ الاقتراض من أوربا طلب إعفاءه من وزارة البحر ورئاسة المجلس الأكبر، لكنه استدعي من جديد للمشاركة في المجلس الخاص للباي للاستشارة (1862 ـ 1864 م) ثم عين رئيساً للجنة المالية (الكومسيون) 1869. وألحق بديوان الوزير الأكبر برتبة وزير 1870 وعندما توفي صهره الوزير الأكبر خزندار خلفه في رئاسة الوزارة

الكبرى مع احتفاظه بالإشراف على اللجنة المالية (1873) فقام بتنظيم الوزارات والإدارات وسلك القضاء وأمور الاقتصاد والأحباس والتعليم، وقد توجت جهوده بتأسس المدرسة الصادقية وضبط أمور العدالة وإنشاء جمعية الأوقاف وإصلاح نظام السجون والبلدية وإدخال الإنارة إلى تونس بالغاز. . .

هذا وقد كان لخير الدين نشاط دبلوماسي مميز، فقد قام بعدة زيارات لأوربا والدولة العثمانية لتوطيد علاقة تونس بها وتدعيم مكانة الباي، فتوجه إلى الآستانة (إستانبول) لطلب فرمان التولية باسم صادق باي (1859) وعاد إليها عام 1864. للاطلاع على أوضاع تونس بعد ثورة علي بن غداهم، وقام برحلات متكررة إلى أوربا في سنوات 1846، 1853، 1856، 1863، 1867، منها ما كان برفقة باي تونس، ومنها ما كان في شكل زيارة مجاملة لملوك أوربا وإطلاعهم على مساعي تونس في مجال الإصلاح الدستوري والتنظيم المالي.

انتهت حياة خير الدين الرسمية بتونس عندما عزل من الوزارة الكبرى، ونحي عن رئاسة اللجنة «الكومسيون» 1877. فتحول إلى إستانبول بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني الذي عينه رئيساً للجنة اقتصادية ومالية 1878. ثم رقاه إلى مرتبة الصدر الأعظم للخلافة العثمانية (1878 ـ 1879) وأثناء ذلك صفى خير الدين أملاكه بتونس (1880). ليستقر نهائياً بإستانبول، حيث حافظ على مكانته لدى السلطان بعد أن استقال من منصبه عندما أحس بتحول السلطان عنه بتأثير من حاشيته فعين عضواً بالمجلس الاستشاري وفي مجلس الأعيان وفي مجالس وزارية أخرى، وظل يحظىٰ برضى الدولة العثمانية وتقديرها حتى وافته المنية بإستانبول سنة 1890 عن سن تناهز 78 سنة.

مال خير الدين إلى الإصلاح متأثراً في أول الأمر بأستاذه في العربية والفقه محمد قبادو، وزاد اعتقاده بضرورة الإصلاح عندما اطلع على أوضاع أوربا وما وصلت إليه من تقدم وازدهار وحالة الجمود والتقهقر التي آلت إليها الدولة العثمانية، وقد تأثر في أفكاره الإصلاحية بأنصار التنظيمات العثمانية ومواقف الشبان الأتراك، وآراء رفاعة الطهطاوي، كما يكون أيضاً قد أخذ من نظريات ابن

خلدون في العمران ومواقف مفكري عصر التنوير مثل مونتسكيو وستيوارت ميل وغيرهم. وكان كل ذلك دافعاً له على وضعه كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» الذي ضمنه مقدمة طويلة حلل فيها وضع البلدان العربية الإسلامية في إطار الدولة العثمانية وما تميزت به من قوانين وتنظيمات لشؤون الحكم، وما يراه من حلول للمعضلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تتخبط فيها، وقد أدرج أفكاره في شكل مطالب بدأها بمطالب ما يسوغ موافقة غير المسلم في الأفعال الحسنة، وختمها بمطالب تفويض إدارة حكم المملكة لشخص واحد عند الضرورة.

وضع خير الدين باشا كتابه أقوم المسالك في قسمين، الأول يحتوي على عشرين باباً والثاني يشمل ستة أبواب، وضمن القسم الأول عرضاً لأوضاع الدول على عهده فذكر حالة الدولة العثمانية، ثم تطرق إلى أوضاع باقي الدول الأوربية: فرنسا وإنكلترا والنمسا وروسيا وبروسية وحرمانية وإيطاليا وإسبانيا والسويد والنرويج وهولندا والدانمارك وأوربا وبلجيكا والبرتغال وسويسرا وممالك البابا وفورتنبورغ وبادن والإغريق، وختمه بخلاصة عن القوة المالية والعسكرية لمجموع الدول الأوربية. أما الكتاب الثاني فكان: «في الكلام عن أقسام الكرة الأرضية» حسب القارات: أوربا وآسيا وإفريقيا وأمريكا وجزر الأقيانوس، وأقسام البحر، وهذا ما جعل القسمين الأول والثاني من كتاب أقوم المسالك عبارة عن معلومات محدودة القيمة، فهي عرض تاريخي عادي ومعلومات جغرافية بسيطة بينما تكتسي المقدمة أهمية كبرى لأنها تقدم صورة عن تطور الفكر الإصلاحي في العالم الإسلامي وعن نظرته للأوربيين، والحكم على الأوضاع الفاسدة، فكانت هذه المقدمة أهم ما كتب بالعربية في القرن الماضي في أمور السياسة والاجتماع، تضمنت نظرة خير الدين إلى مشاكل العالم الإسلامي التي كانت خلاصة اطلاعه على أوضاع أوربا، وتجربته في توليه للمهام الإدارية والوظائف السياسية والعسكرية السامية، واحتكاكه بالواقع المعيش بتونس وإستانبول، وهي لهذا لا تشكل برنامجاً إصلاحياً لوضع تونس فحسب بل لكل البلاد الإسلامية التي كانت على شاكلتها، وتقييماً لتجربة حية عاشها خير الدين من خلال الرغبة في تطبيق

النظام الدستوري 1857. بإعلان عهد الأمان 1861 وسن الدستور ثم تعليقه بسبب ثورة علي بن غداهم 1864.

تتلخص أفكار خير الدين الإصلاحية في جواز الاقتباس شريطة أن نعرف ماذا تقتبس وكيف نقتبس، وفي ضرورة إصلاح نظام الحكم انطلاقاً من أحكام الشريعة الإسلامية التي يراها كاملة وصالحة لمسايرة التقدم، والعمل على الابتعاد عن الظلم والاستبداد لأنه «مؤذن بخراب العمران» واحترام مبدإ سلطة الخليفة والتقيد بالشورى عن طريق البرلمان ورعاية شؤون الناس بضمان حريتهم والسهر على مصالحهم الاقتصادية، وهو في ذلك يقر بمبدإ اختيار ما نأخذه عن الأوربيين فقد جاء في تقويم المسالك قوله: «أن الغرض في ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوربية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقاً ونصوص شريعتنا موافقاً».

انطلق خير الدين في عمله الإصلاحي من مسلمات أهمها:

(1) أن الشريعة الإسلامية ليست معارضة للأخذ بأسباب الرقي لدى الأمم الأخرى ودليله على ذلك هو: «إن الشريعة الإسلامية أعطت أحسن النتائج في الماضي، فليس ثمة مانع البتة من أن تعطي نفس النتائج في الحاضر والمستقبل. . . وأن الشريعة الإسلامية كافلة لمصالح الدّارين».

(2) وأن الأخذ بأسباب الرقي لدى أمم أوربا يتطلب حسن الاختيار حسب مقتضيات الظروف الخاصة بكل بلد: فهو يقول: «إنه مبدئياً من المحال نقل مؤسسات بلد ما إلى بلد آخر حيث تكون فيه طبائع البشر مغايرة وكذا أخلاقهم وتربيتهم وظروف مناخهم. . .» ويرجع فشل الإصلاح إلى إهمال هذه البديهية فهو يذكر أن حكام المسلمين «لم يجنحوا إلى إصلاحات جوهرية تتلاءم والحاجات الحقيقية للبلاد وطبائع السكان».

(3) وأن التقدم الأوربي شيء عارض حصلوا عليه بالتنظيم الدنيوي: «إن الحالة الراهنة في ممالك أوربا لم تكن ثابتة لها من قديم الزمان. . . ولا يتوهم أن أهلها (أي أوربا) وصلوا إلى ما وصلوا إليه بمزيد خصب واعتدال في أقاليمهم إذ

قد توجد في أقسام الكرة ما هو مثلها وأحسن. . . ولا أن ذلك من آثار ديانتهم. . . إنها لا تتدخل في التصرفات السياسية لأنها تأسست على التبتل والزهد في الدنيا. . . »

(4) أن إنجاح الإصلاح وإمكانية الأخذ به تتطلب إقناع الحكام بضرورته وتنبيه العوام لفوائده ويبدو أن هذا ما دفعه إلى وضع كتابه أقرب المسالك. فهو يورد في مقدمته: «إن الباعث الأصلي على ذلك أمران. . . أحدهما إغراء ذوي الغيرة من الحكام والخدم من رجال السياسة والعلم بألتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى أحسن حال الأمة الإسلامية، والثاني تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الإعراض عما يحمد في سيرة الغير الموافقة لشرعنا. . . ».

(5) الإيمان بوحدة مصير المسلمين والتسليم بالحقوق التاريخية للدولة العثمانية على تونس، وقد أوضح ذلك في قوله: «لقد كنت مؤمناً راسخ الإيمان أن المملكة التونسية ينبغي أن تجد في الروابط التي تربطها بالخلافة العثمانية أمنع حصن يصونها من أطماع الدول الأوربية المختلفة وعلى مر الزمن. . . لم أنفك أؤيد حقوق تركيا على تونس وأنصح بايات تونس بإقرار الروابط مع الإمبراطورية العثمانية وتوطيدها. . . إن هذه الروابط ضمان للاستقلال، فما دامت الخلافة قائمة فإن الإيالات التابعة لها لن تخشى شيئاً، لأن كيانها رهين حل المسألة الشرقية».

بهذه القناعات حاول خير الدين أن يقنع حكام تونس بضرورة الإصلاح الإداري والمالي والتشريعي على النمط الأوربي، بهدف الوصول إلى النظام الشوري والحكم الدستوري الكفيل بتحقيق العدل وضمان الحرية وضبط الاقتصاد وإصلاح الإدارة لأن ذلك «التنظيم الدنيوي أساس متين لاستقامة نظام الدين» حسب قوله. وقد وجد التأييد على ذلك من صهره الوزير خزندار، والشيخ أحمد بن أبي الضياف صاحب الإتحاف، لكن المؤامرات الداخلية والضغوط الخارجية وانعدام النخبة المتميزة في جهاز الحكم حكمت على مساعيه بالفشل وأضطرته إلى الهجرة إلى إستانبول حيث تطلبت منه الظروف مسايرة رغبات

السلطان قبل أن يعتزل الوظيف نهائياً.

أصدر خير الدين كتابه أقوم الممالك سنة 1284 ـ 1867. وترجمت مقدمته إلى اللغة الفرنسية تحت إشرافه. وطبعت بباريس (1868) ثم توالت طبعاته التي كان آخرها ما قام بتحقيقه ووضع دراسة حوله الباحث التونسي المنصف الشنوفي ضمن منشورات بيت الحكمة بمناسبة الذكرى المائوية لوفاة خير الدين (تونس 1990).

المراجع المعتمدة:

ـ خير الدين باشا، أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك. الطبعة الأولى، المطبعة الرسمية، تونس، 1867. (النسخة المحققة من طرف المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، تونس، 1990).

ـ ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وملوك أهل الأمان، تونس، 1984 ج 4، (في صفحات عديدة).

ـ ابن عاشور (محمد الفاضل) خير الدين، مجلة الرؤيا، تونس، السنة الأولى، عدد 1944/6.

ـ الشنوفي (المنصف) متن الرحلة عند خير الدين، نشرة اللجنة الثقافية القومية، تونس 1990.

ـ زيادة (معن)، خير الدين التونسي وكتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، بيروت، 1985.

ـ مزالي (محمد الصالح)، بعثات خير الدين إلى الآستانة، المجلة الزيتونية المجلد الثالث عدد 8/7.

ـ كرو (أبو القاسم)، خير الدين التونسي، سلسلة منشورات البعث، تونس، 1958.

ـ ابن عاشور (محمد الفاضل)، الحركة الأدبية والفكرية بتونس، تونس 1972، ص 29 وما بعدها.

ـ عبد السلام (أحمد)، إحصاء وتلخيص لوثائق خير الدين الخاصة، تونس، 1986.

ـ ابن عاشور (محمد الفاضل)، تراجم الأعلام، تونس، 1970، ص 47 ـ 49.

- أمين (أحمد)، زعماء الإصلاح الحديث، النهضة، القاهرة، 1949، ص ص 146 ـ 183.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2 ص ص 271 ـ 279.
- ضاهر (مسعود)، مقدمات منهجية لدراسة الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي، مجلة الفكر العربي، عدد 15/ ماي ـ جوان/ 1980، ص ص 169 ـ 181.
- Abdesselem (A.) Les historiens tunisiens des XVII^e, XVIII^e, XIX^e siècles, Essai d'histoire culturelle, Paris-Tunis 1973.
- Demeerseman (A.) La doctrine de khereddine en matière de politique, in IBLA. Tunis, 1958.
- Demeerseman (A.) Idéal politique du khereddine, in IBLA, Tunis, 1479 - 1958.
- Fontaine (J.) khereddine, réformiste ou moderniste in. IBLA., 1967, p. 57.
- Smida (M.) khereddine ministre réformateur 1873 - 1877, éd tunisienne, Tunis 1971.
- Mzali (M.S.) et Pignon (J.) khereddine, homme, l'Etat, mémoires, Tunis 1970.
- Sfar (M.) khereddine, Rene Assadikia, Tunis, N° 2 - 1920.
- Tlili (Bachir) Culture idéologique et penseurs tunisiens dans la première moitié du XIX^e siècle, thèse - Nice 1970.
- Tlili (B.) Les rapports culturels et idéologiques entre l'orient et tunisie au XIX^e Siècle, pp. 516 - 520, 554 - 614.
- Van Kreiken Khayral - Din et la Tunisie 1850 - 1881, Leiden Brill, 1976.
- Ganiage (J.) Les origines du Protectorat français en Tunisie, 1861 - 1881, Paris 1959, p. 81, note (23), 437 -491.

مطلب لزوم الاتحاد بين رجال السياسة
والعلماء في جلب مصالح الأمة ودرء مفاسدها

هذا وإن الأمة الإسلامية لما كانت مقيدة في أفعالها الدينية والدنيوية بالشرع السماوي والحدود الإلٰهية الواردة على الميزان الأعدل المتكفلة بمصالح الدارين، وكانت ثمة مصالح تمس الحاجة إليها بل تتنزل منزلة الضرورة يحصل بها أستقامة أمورهم وانتظام شؤونهم، لا يشهد لها من الشرع أصل خاص كما لا يشهد بردها؛ بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالاً، وتلاحظها بعين الاعتبار، فالجري على مقتضيات مصالح الأمة والعمل بها حتى تحسن أحوالهم، ويحرزوا قصب السبق في مضمار التقدم متوقف على الاجتماع، وانتظام طائفة من الأمة ملتئمة من حملة الشريعة ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة، متبصرين في الأحوال الداخلية والخارجية ومناشىء الضرر والنفع، يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة بجلب مصالحها ودرء مفاسدها؛ بحيث يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً». وكما قال ـ ﷺ ـ: «المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد». فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشىء الضرر، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة.

وأنت إذا أحطت خبراً بما قررناه علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على المقصد المذكور، من أهم الواجبات شرعاً لعموم المصلحة، وشدة مدخلية الخلطة المذكورة في اطلاع العلماء على الحوادث التي تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها. ومعلوم أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب.

وبيان ذلك أن إدارة أحكام الشريعة، كما تتوقف على العلم بالنصوص تتوقف على معرفة الأحوال التي تعتبر في تنزيل تلك النصوص، فالعالم إذا اختار العزلة والبعد عن أرباب السياسة فقد سد عن نفسه أبواب معرفة الأحوال المشار إليها، وفتح أبواب الجور للولاة، لأنهم إذا استعانوا به فامتنع صاروا يتصرفون بلا قيد.

نعم يعاب على العالم شرعاً وعقلاً التكلف في الدين، والتمحل في النصوص الظاهرة في خلاف ما أراد منها، وارتكاب الأقوال الضعيفة لموافقة الأهوية والأغراض، لا لأجل مصالح تتنزل منزلة الحاجة والضرورة، حتى ينقلب ذلك الضعيف قوياً.

وحيث كانت إدارة المصالح السياسية مما لا يتيسر لغالب الولاة إجراؤها على الأصول الشرعية لأسباب شتى يطول شرحها، وتقدمت الأدلة على ما يترتب على إبقاء تصرفاتهم بلا قيد من المضار الفادحة، رأينا أن العلماء الهداة جديرون بالتبصر في سياسة أوطانهم، واعتبار الخلل الواقع في أحوالها الداخلية والخارجية، وإعانة أرباب السياسة بترتيب تنظيمات منسوجة على منوال الشريعة، معتبرين فيها من المصالح أحقها ومن المضار اللازمة أخفها، ملاحظين/ فيما يبنونه على الأصول الشرعية، أو يلحقونه بفروعها المرعية. ذلك المقال الوجيز المنسوب لعمر بن عبد العزيز: «تحدث للناس أقضية بحسب ما أحدثوه من الفجور»، وما في معناه من أدلة أن الشريعة لا تنسخها تقلبات الدهور.

خير الدين باشا التونسي

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي

منشورات بيت الحكمة، تونس، 1990، ص ص 175 ـ 176

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي
(ت 1315 هـ/ 1897 م)

أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري السلاوي، ولد بسلا في نهاية سنة 1250 هـ ـ 1834 م. ينتمي إلى أسرة شريفة تنتسب إلى أبن ناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بتامكروت، عرفت بالعلم والتقوىٰ وتولي الوظائف المخزنية، درس أحمد الناصري بمسقط رأسه العلوم الفقهية واللغوية على علماء أجلاء منهم الحاج محمد لعلو السلاوي، ومحمد بن الجلالي الحمادي ومحمد بن طلحة الصباحي، وعبد السلام بن طلحة، ومحمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوي، وأبو بكر بن محمد عواد السلاوي وغيرهم. ثم وسع معارفه واطلاعه بمطالعة الكتب والجرائد فاستوعب كتب الأدب ومنها دواوين البحتري وأبي تمام والمتنبي، فتحسنت ملكته اللغوية وأصبح متمكناً من الخطابة والتأليف. وآشتغل بتدريس قواعد اللغة العربية وآدابها وتفسير القرآن، وعرف عنه تعلقه بأمور الشرع وعمله على إحياء ما أندثر من العلوم، وبتنكره لأهل البدع وتنديده بأهل الأهواء، وقد ذكره أبو عبدالله محمد بن علي الدكالي في تاريخه أزهار البستان في أخبار العدوتين ومحاسن الأعيان بقوله: «الشيخ العلامة المشارك الأستاذ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري الجعفري، أتقن العلوم الآلية فكان فيها إماماً. وحرر المقاصد من سواها. فملك منها زمام مشارك محصل مضطلع في علوم شتى».

ارتبط أحمد الناصري بالوظيف الحكومي (المخزن) فتولى خطة الشهادة نيابة عن قاضي سلا (1280 هـ/ 1883 م) ثم خطة العدالة والأحباس فأظهر كفاءة وإخلاصاً وحزماً، واشتهر أمره فعين كاتباً شرعياً وناظراً على أملاك الدولة بالدار البيضاء ومراكش، وأمين الديوانة بمازغران، فتعرف أثناء ذلك (1863 ـ 1873م)

على أوضاع المغرب، وبعد سنة 1895، تفرغ من الوظيف وانقطع للمطالعة والتقييد، وتجنب الخوض في الأمور السياسية. وظل مواظباً على التأليف حتى وافته المنية بسلا في 16 جمادى الأولى 1315 هـ/ 12 أكتوبر 1897، ودفن بمقبرة باب المعلقة، وقد رثاه تلاميذه وأصدقاؤه ومنهم محمد بن علي الدكالي، والحاج الطيب عواد أديب سلا.

ترك أحمد الناصري العديد من التآليف في مختلف الأغراض والمواضيع منها:

أ ـ رسائل وتقاييد عدة في مسائل وقضايا مختلفة، مثل رسالته في الرد على الطبيعيين، ورسالة في تحقيق أمر سبعة رجال دفناء بمراكش، ورسالة الحواريين، ورسالة الموسيقى ورسالة في تحديد سلطة الولاة. ورسالة في الفوائد المحققة في إبطال دعوى أن التاء طاء مرققة بسبب خلاف في نطق الحرفين، وتقييد مختصر لأخبار دولة بني مرين بعنوان «كشف العرين عن ليوث بني مرين»، وتقييد مختصر في حصر جمهرة آل نصر، وتقاييد عن البربر، ورسالة «طلعة المشتري في النسب الجعفري» في تحقيق نسب ابن ناصر.

ب ـ تعاليق وشروح وحواشي، مثل تعليقه على قصيدة عمرو بن مدرك الشيباني، وتعليق آخر على شرح ابن بدرون لقصيدة ابن عبدون الأندلسي، وتعليق على سفينة الراغب للشيخ محمد راغب الكماني، وتعليق على ديوان المتنبي، وتعليق على رقم الحلل في أخبار الدول لابن الخطيب السليماني، وتعليق على بداية القدماء وهداية الحكماء، وهو تأليف فرنسي ترجمه إلى العربية الشيخ رفاعة الطهطاوي، وحاشية على الفلك المشحون بنفائس تبصرَة ابن فرحون، وشرح قصيدة مشاهدة الإخوان لمحمد بن ناصر، وشرح أرجوزة الشمقشقية في متون اللسان العربي بعنوان: زهر الأفنان من حديقة بن الوزان. وقانون في الترتيب الإداري والجبايات المالية بالمغرب.

جـ ـ فتاوى ونصائح وعظات وأشعار، منها وصية وعظة لابنه الأكبر عندما عزم على زيارة المولى عبد السلام بن مشيش، ونصيحة توجه بها لأهل الأهواء

والبدع المحدثة في الدين بعنوان «تعظيم المنة بنصرة السنة» ومجموعة أشعار في مختلف الأغراض بعضها أثبته في كتابه الاستقصا مثل القصيدة التي مدح فيها الملك الحسن الأول عند زيارته لسلا.

إلا أن أبو العباس أحمد الناصري اشتهر بكتابه في تاريخ المغرب المعروف بكتاب الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، موضوع هذه الترجمة الذي بدأ في تأليفه عام (1297 هـ وانتهى منه سنة 1881 م). وبه اشتهر الناصري وعُدَّ في مقدمة مؤرخي المغرب في القرن التاسع عشر الميلادي.

يتعرض كتاب الاستقصا لتاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي، فجاء القسم الأول منه عبارة عن مقدمة في فضل علم التاريخ وفوائده، ونبذة عن حياة الرسول محمد ﷺ والخلفاء الراشدين، وأخبار فتح إفريقيا وولاتها والدولة الإدريسية وأئمتها، ودولة زناتة من مغراوة وأمرائها، بعدها تعرض بتوسع لتاريخ المرابطين والموحدين، أما القسم الثاني فتناول فيه تاريخ المرينيين بتوسع فذكر نسبهم وظهور أمرهم وتوليهم الإمارة على يد عبد الحق وأبنائه ونشأة دولتهم على عهد أبي بكر وأبي حفص وبلوغها أوج عظمتها في عهد المنصور بالله يعقوب، والناصر يوسف بن يعقوب، وأبي ثابت، وأبي الربيع، وأبي سعيد، وأبي الحسن، وأبي عنان فارس، وبعد هذا يستعرض فترة ضعف الدولة على عهد خلفاء أبي عنان وهم: أبو بكر، أبو سالم، تاشفين، أبو زيان محمد، أبو فارس عبد العزيز، وأبو زيان محمد المستنصر، وأبو العباس أحمد إلى أن آل الأمر إلى حجابهم من بني وطاس، وظهور أمر السعديين.

أما القسم الثالث فأفرده للدولة السعدية في مراحلها المختلفة، وقد تناول تاريخ ملوكها وأوضاع المغرب على عهدها. واهتم خاصة بكل من السلطان محمد الشيخ المهدي والسلطان أحمد المنصور، وأورد حركات التمرد واستقلال الأقاليم بشيء من التفصيل، وفي القسم الرابع والأخير ركز على الدولة العلوية منذ نشأتها بسجلماسة على يد المولى الشريف بن علي وتحولها إلى دولة على يد محمد بن الشريف وأخيه المولى الرشيد، ثم بلوغها أوج عظمتها على عهد مولاي إسماعيل،

إلى أن تصل إلى فترة الاضطراب في عهد أبناء المولى إسماعيل، وهم أحمد الذهبي وعبد الملك وعبدالله وعلي ومحمد بن عربية والمستضيء وزين العابدين، ثم تجدد الدولة العلوية على يد محمد بن عبدالله واستمرارها إلى عهد المولى يزيد وسليمان وعبد الرحمٰن، والحسن بن محمد الذي انتهى إلى عهده، وقد حاول الناصري في كل ذلك الإحاطة بذكر الوقائع والأحداث التي عرفها المغرب، وتميزت بها فترة حكم كل ملك من ملوكه، فجاء تاريخه عرضاً شاملاً لماضي المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي إلى عصره.

اعتمد الناصري في كتابه الاستقصا على المصادر التقليدية والوثائق المحلية والروايات الشفوية والمشاهدات الشخصية. فرجع فيما قيده حول بني مرين مثلاً إلى تقييده «كشف العرين عن ليوث بني مرين» وروض القرطاس لأبي زرع، والروض المعطار لعبد المنعم الحميري، وجمهرة الأنساب لابن حزم، وكتاب العبر لابن خلدون، ومناهل الصفا للفشتالي، ونزهة الحادي للأفراني، وجذوة الاقتباس لابن القاضي، والجيش لاكنسوس، والترجمان والبستان للزياني، ومما زاد في أهمية مصادر الناصري أنه استطاع أن يطلع على العديد من الكتابات والكراريس والتقارير والتقاييد الخاصة بحكم وظيفته في المخزن واتصاله الدائم بعمال المدن وحكام الأقاليم وتمكنه من الرجوع إلى الكناشات والمكاتبات والإحصائيات والظهائر السلطانية التي كانت تتوفر عليها الخزائن المخزنية والمكاتب الحكومية، فكانت مادة أولية لأخبار الدولة العلوية وما يتصل بأوضاع المغرب في عهدها من حركات سلطانية (حملات) وإجراءات اقتصادية وأوامر إدارية، كما استعان أيضاً بكل ما وصلت إليه يده من الكتب العامة والخاصة في التاريخ وبما ترجم له من كتب أجنبية تتعلق بأوضاع المغرب الخارجية مثل كتاب لويس ماريا دوكونتودا البوكرك داكُونْهَا: «مازغران الجديدة» تحت البرتغاليين (لشبونة 1864)
«L.M. da Conto de Abulquarquc da Cunha Memorias par historia da parça de Mazagan»

جاء تاريخ الناصري «الاستقصا» على شكل مدونة عامة في تاريخ المغرب جمعت التقليد والتجديد والإحاطة والتفصيل، فأعجب به المستشرقون، ونوهوا به

ونال رضا معاصريه واعتبروه أحسن ما كتب عن المغرب الأقصى فأورد عنه أبو عبدالله محمد الدكالي «أن شيخ الحرمين أحمد بن زين عندما رغب في كتاب مستوعب لأخبار ملوك المغرب من لدن الفتح إلى عصرنا، لم يلق على هذه الصفة إلا تأليف شيخنا المعنون بالاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، وذكره ابن سودة في تسجيله للتآليف المغربية بقوله: «أجمع تاريخ يوجد لهذا القطر السعيد».
أما المؤلف نفسه فقد عرف كتابه والغرض منه بقوله: «هذا بعون الله كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى كتاب جمعته لنفسي ولمن شاء الله من أبناء جنسي ذكرت فيه دول هذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلى وقتنا هذا آخر القرن الثالث عشر، سالكاً فيه ما أنقله من ذلك سبيل الاختصار آتياً منه بما تسمو إليه النفوس من حوادث الأعصار ملماً بها لا بد منه من وفيات بعض الأئمة المقتدى بهم في الدين متبركاً أولاً بذكر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين متحرياً من الأقوال أصحها، ومن العبارات أفصحها، والله تعالى المتولي في بلوغ المأمول...».

لم تسمح الظروف بنشر كتاب الاستقصا مبكراً بالمغرب رغم أهميته وحاجة الناس إليه فقد قدم الناصري نسخة منه للسلطان الحسن الأول الذي استحسنها وكتب له ظهيراً شريفاً في التنويه بها، لكنه أخذ عليه أنه خص وزراء ملوك العلويين المتأخرين بدور مهم بسيء إلى ملوكهم، وهذا ما لم يشجع على طبع الكتاب فظل مهملاً، وعندما تولى السلطان عبد العزيز العرش سارع الناصري بطبع النسخة التي احتفظ بها لنفسه بخط النساخ محمد المكي بن البشير بالقاهرة بواسطة تاجر فاسي في أربعة أجزاء (1312هـ/ 1894 م) ثم أضاف إليها زيادات هامة عندما طبع الكتاب مرة ثانية، وذلك قبل أن يصدر بالمغرب الأقصى وتتعدد طبعاته وكان آخرها الطبعة التي أصدرها نجلا المؤرخ مع تعليقات والدهما في تسعة أجزاء بالدار البيضاء (1954 ـ 1956م) وقد قام باختصار الاستقصا أحمد بن محمد التطواني بعنوان «تقريب الأقصى من كتاب الاستقصا» (طبع بتطوان 1927) ثم اختصره كذلك الشيخ التهامي الوزاني في جزأين وأضاف له جزءاً آخر خصصه للأحداث التي وقعت بعد وفاة مؤلفه الناصر السلاوي (طبع بتطوان 1940)، كما

تمت ترجمة الاستقصا إلى الفرنسية، ونشر بمجموعة الأرشيف المغربي (Archives marocaines). قام بترجمة القسم الأول كرول (Graule) والثاني كولان (G.S. Colin) والثالث إسماعيل حامد الجزائري، والرابع ابن المؤلف محمد، والخامس فيمي (Fumey) كما نقلت نبذة منه في السياسة والاجتماع المغربي إلى الإسبانية والبرتغالية والإنكليزية.

المراجع المعتمدة:

- الناصري السلاوي (أبو العباس أحمد)، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، 9ج، الدار البيضاء، 1954 ـ 1956م.
- الناصري السلاوي (أبو العباس أحمد)، طلعة المشتري في النسب الجعفري، فاس 1320 ـ 1902 م.
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى، (ط. 2) ج 1، ص 130.
- Lévi - Provençal, Historiens des Chorfa, Larose, Paris, 1922, pp. 360 - 372.

انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بإسلي والسبب في ذلك

ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الأوسط وصار الحاج عبد القادر ينتقل في أطرافها، فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن، وتارة بوجدة والريف وغير ذلك، وربما استكثر في هذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده، فمد الفرنسيس يده إلى إيالة السلطان رحمه الله، فشن الغارة على بني يزناسن. وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة، ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتهبها وكثر عيثه في الحدود، فكلم من جانب السلطان رحمه الله فيما ارتكبه من إيالته فتعلل بأن الهدنة قد انتقضت بإمداد الحاج عبد القادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة، وبمحاربة جيش السلطان المرابط على الحدود له وبمحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتد به، وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيته أيضاً في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة، ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بأمره وشرى الشر وتفاقم الأمر، فعمد السلطان رحمه الله على حرب الفرنسيس وتقدم إلى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة وإرهاف الحد لما عسى أن يحدث، ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها إلى ناحية وجدة وعززه بالفقيه أبي الحسن علي بن الجناوي من أعيان رباط الفتح، فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيس التي هنالك، ثم أخذ السلطان رحمه الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل. . .

فاجتمع للسلطان رحمه الله في هذا الاستنفار ثلاثون ألف فارس تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً فيها الجند وحصص القبائل في أكمل شكة وأحسن زي ولم يشهدها من الودايا سوى نفر يسير لأنهم كانوا في زاوية الإهمال عند السلطان، ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمٰن، وسار حتى نزل بوادي

ايسلي من أعمال وجدة وكان الحاج عبد القادر لا زال جائلاً في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط، ولم تبق له هنالك كبير فائدة، بل انقلب نفعه ضرراً وحزمه خوراً بفسادنيته، واستفساده لجند السلطان ورعيته، ولما احتل الخليفة سيدي محمد بايسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر: إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء، ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض وإلا فإن العدو متى رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليه عساكره، وبين كيف كان هو يقاتله. وكان هذا الكلام منه صواباً، إلا أنه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة إلا بالله. وربما انتهره بعض حاشية الخليفة، على التفصح بمحضره والإشارة عليه قبل استشاره، فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه، وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول: لم آمر بها ولم تسؤني، ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب ابن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلا عليه وقالا: إن العدو عازم على أن يصبحكم غداً إن شاء الله فاستعدوا له واعلموا الأمير، فيقال إن الحاجب قال: إن الأمير الآن نائم ولست بالذي أوقظه، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الأولين، ولمّا طلع الفجر وصلّى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو. وأنهم تركوه قد أخذ في الرحيل، فأمر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة إلا الرماة وكانوا دون الألف، وبعث إلى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر، وراياتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع، وكان الخليفة سائراً في وسطهم ناشراً المظلة على رأسه راكباً على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز

من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس.

ثم لمّا التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلساً آخر فاختفى حينئذ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها إقحاماً، وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون: إن الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة، فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له: يا مولانا إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضاً ويسلب بعضهم بعضاً، فقال: يا سبحان الله! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه. وانهزم مَن كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو برمي الكور والطوبلي من غير فترة، وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة، ولكن سال الوادي فطمى على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزم المسلمين كما رأيت، ولما استولى العدو على المحلة فَرّ الذين كانوا بها وبقيت في يده بما فيها. وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها، وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف. ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذرمذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنكاد يستلبنهم كيف شئن، وانتهى الخليفة إلى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع إليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاساً. وكان السلطان رحمه الله قادماً من مراكش إلى فاس.

أبو العباس أحمد الناصري السلاوي،

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ،

دار الكتاب، الدار البيضاء 1956الجزء التاسع، ص ص 49 ـ 53.

أبو إسماعيل بن عودة المزاري

(ت بعد عام 1315 هـ/ 1897 م)

أبو إسماعيل بن عودة بن الحاج المزاري البحثاوي، ينتسب إلى أسرة تولت الوظيف ببايليك الغرب، فقد شغل أبوه الحاج محمد وعم أبيه مصطفى بن إسماعيل وظيفة كاتب «الآغا» لدى الأمير عبد القادر قبل أن ينضما إلى الفرنسيين في شهر شعبان 1251 هـ، ديسمبر 1835 م.

لا يعرف عن حياة ابن عودة المزاري الشيء المهم بعد أن ضاع ما أدرجه عن سيرته الشخصية في الصفحات المفقودة من كتابه طلوع سعد السعود ص ص 538 ـ 545 ويفهم من سياق عرضه أن له ولدين هما إسماعيل والحسين، وأنه تولى بدوره مثل أبيه منصب «الآغا» لدى الإدارة الفرنسية ومن الراجح أنه ظل على قيد الحياة إلى ما بعد عام 1215/ 1897، وقد يكون قد توفي في مطلع القرن الحالي.

عرف ابن عودة المزاري بكتابه طلوع سعد السعود الذي وضعه عن تاريخ وهران وباياتها ومخزنها، وضمنه عرضاً بأخبار ملوك فرنسا، مما جعل منه موسوعة تاريخية اشتملت على تراجم العديد من الشخصيات وجرد لأحداث ووقائع مختلفة مع أقتباسات متعددة أغلبها جاء في شكل نوادر وقطع شعرية، وهذا ما أخل بتوازن المادة التاريخية مما جعل كتاب طلوع سعد السعود يبتعد على التسلسل التاريخي والترتيب المنطقي للأحداث.

جعل أبن عودة المزاري كتابه طلوع سعد السعود في شكل مقاصد أبتدأها بمن بنيْ وهران واستعرض من خلالها أولياء وعلماء وهران والدول التي تعاقبت على حكمها من مغراوة وفاطميين وأدارسة ومرابطين وموحدين وزيانيين ومرينيين، بعدها ذكر استيلاء الإسبان عليها وعلاقتهم بحكام الجزائر ومحاولة الأتراك

استرجاعها وذلك قبل أن يتطرق إلى أوضاع بايليك الغرب وباياته وما وقع في عهدهم من الأحداث المهمة مثل ثورتي درقاوة والتيجانية.

مهد المزاري لفترة الحكم الفرنسي بذكر تاريخ ملوك فرنسا في مختلف الفترات التاريخية وتوسع في أحداث المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي وركز أساساً على جهاد الأمير عبد القادر وعلاقته بالفرنسيين وصلاته بمختلف قبائل الغرب الجزائري ووقائعه مع الجيوش الفرنسية، وذلك قبل أن يختم كتابه بذكر نسب القبائل التي كانت تشكل مخزن وهران وفي طليعتها القبائل البحثاوية التي ينتسب إليها المزاري. هذا وقد ذكر المزاري خطة كتابه في مستهله بقوله: «فإني لما طالعت كتاب التاريخ واجتمعت عندي منه وقائع جليلة تاقت نفسي إلى جمع تأليف جليل في أخبار وهران ومخزنها القساور... ورتبته بإذن الله تعالى على خمسة مقاصد: الأول فيمن بنى وهران، والثاني في ذكر أوليائها، والثالث في ذكر بعض علمائها والرابع في ذكر دولها، والخامس في ذكر مخزنها وهو عين المراد والتعرض إلى سيرتها الجميلة التي لا يكون فيها الانتقاد.

دفع التشابه بين مضمون دليل الحيران للزياني وطلوع سعد السعود للمزاري بعض الباحثين إلى القول إن جزءاً من طلوع سعد السعود من تأليف الزياني. ومما يؤكد ذلك في نظرهم هو توقف هذا الأخير في كتابه دليل الحيران عند ذكر أخبار دولة الفرنسيين التي نجدها لدى المزاري في عرضه عن الدولة التاسعة التي حكمت وهران، وقد ذهب بودان (M. Bodin) 1924 م إلى القول بأنه من الشائع عند متعلمي وهران أن كتاب طلوع سعد السعود هو من عمل سي محمد بن يوسف الزياني الذي يكون قد تنازل عنه للمزاري مقابل نيله وظيفة القاضي، على أن قراءة متأنية لطلوع سعد السعود تبعد هذه الشكوك في نسبته للزياني. فرغم كون المزاري رجل سيف وليس صاحب قلم إلا أن تقديمه لمعلومات تخص حكومة الباي حسن وتتصل بأفراد عائلته التي خدمت الفرنسيين وسكوته عن بعض الأحداث التي لها صلة بقتل الباي لصهره مصطفى التشورمي، تؤكد لنا صحة تأليفه لطلوع سعد السعود. دون أن تنفي إمكانية النقل أو الرجوع إلى ما كتبه الزياني حول بايليك الغرب.

اعتمد ابن عودة المزاري على المصادر التاريخية التقليدية بالنسبة لأحداث

الفترة الإسلامية والعهد العثماني مثل ابن خلدون، وابن خلكان، وأبي راس، والزياني، فيشير إلى اسم الكاتب وقد يذكر عنوان الكتاب عندما يعمد إلى النقل مباشرة، أما الفترة المتأخرة فقد اعتمد فيها على الروايات التي جمعها والأحداث التي عاشها، وهذا ما جعل القسم الأخير من كتابه في غاية الأهمية، بينما غلب على القسم الأول السرد والنقل مع ورود أخطاء وتضارب في المعلومات، كل ذلك في لغة سهلة وبسيطة لا تخلو من أخطاء نحوية وإملائية، ويغلب عليها السجع المتكلف الذي لا يلتزم معه بقواعد اللغة، وإنما يركز على توافق أواخر الكلمات.

يعتبر كتاب طلوع سعد السعود من المصادر الأساسية لتاريخ الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني، وفترة الحكم الفرنسي من احتلال وهران إلى حكم الوالي العام تيرمان (1881 ـ 1890) وإدارة محافظ وهران كارنو (1888).

قام الأستاذ يحيىٰ بوعزيز مؤخراً بتحقيق كتاب طلوع سعد السعود ونشره مع مقدمة وقوائم مفصلة لحكام وهران الأوائل وللسلاطين العثمانيين وحكام الجزائر، وبايات الغرب، وملوك قشتالة والأراغون وملوك فرنسا والأباطرة الرومان، مع ثبت بمراجع مساعدة على فهمه وفهارس تسهل الرجوع إليه. وطبع بدار الغرب الإسلامي ببيروت في جزأين (1990).

المراجع المعتمدة:

- ابن عودة المزاري (الآغا إسماعيل)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، تحقيق ودراسة يحيىٰ بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2 ج 1990.
- الزياني (محمد ابن يوسف)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1978.
- Bodin (Marcel) La brève chronique du Bey Hassan, Extraite et traduite de la Talàt. Saad-Issoud de Mozari, in Belletin de la Société de géographie et d'archeologie d'Oran, T 44/1924.

بايليكات الجزائر وأقسامها

أولهم باي تطري وهو أكبر البايات اسماً لأنه أول من ولته الدولة التركية بذلك المحل، وقاعدته المدية، وثانيهم باي الشرق يعني الجهة الشرقية وقاعدته قسنطينة، وثالثهم باي الغرب يعْني الجهة الغربية.

بايليك الغرب الوهراني وعواصمه وباياته

وفي الحقيقة أنه هو الثاني في المرتبة لكون الترك تولوا على الجهة الغربية وجعلوا فيها باي قبل الجهة الشرقية. وقاعدته وهران، وهذا الثالث كان منوعاً على نوعين أحدهما مازونة وأول باياتها حسن بن خير الدين باشا وسلم في وظيفته، ثم أبو خديجة ثم صواق ومات مسموماً من سم سقته له زوجته، ثم السايح وبقي في الملك إحدى عشر سنة ومات، ثم ساعد، ومنه إلى محمد ابن عيسى تولى بمازونة عشرة بايات وذهب عن حفظي ما تعلق به منهم، ثم محمد بن عيسى وهو السادس عشر من باياتها، ثم شعبان الزناقي الذي توفي بالجهاد في وهران، وثانيهما تلمسان ولم يبق بحفظي من باياتها إلا عصمان، ويوسف المسراتي، ثم جمعا في الثامن وتسعين وألف لواحد وصارت القاعدة قلعة بني راشد. ثم صارت المعسكر، ثم صارت وهران في الفتح الأول، ثم صارت مستغانيم، ثم صارت المعسكر، ثم صارت وهران في الفتح الثاني واستمر الحال على ذلك إلى انقطاعهم...

أقسام بايليك وهران الستة

ولباي وهران في دائرته تقسيم: فالقسم الأول المرسى يكون على يد قايد

المرسي وهو أعلا (كذا) رتبة من سائر القواد لكون وسق البحر على يده مدخولاً ومخروجاً، وعلمه بمن يأتي من الأفاقين وغيرهم، واطلاعه على إتيان العدو للاختلاس، والقسم الثاني دائرة آغا الدوائر غرباً وبحراً وشرقاً وقبلة، والقسم الثالث دائرة قايد الزمالة وهي الأعراش الخمسة المارة، والقسم الرابع دايرة خليفة الشرق، وذلك من مينا إلى انتهاء رعيته وهران شرقاً وبحراً وطاء (كذا) وجبالاً ومخزنه المكاحلية وأولاد سيدي عريبي ومن انخرط في سلكهما من أهل القضاء وغيرهم نائبة له كما أن ما عدا الدوائر والزمالة والغرابة والبرجية نايبة للأكابر وهم رؤساء الدواير والزمالة وغيرهم من أعيان الدولة المخزنية بوهران.

والقسم الخامس المدن كوهران وتلمسان والمعسكر والقلعة ومستغانيم ومازونة وأحوازهم وهؤلاء على يد قايد البلد، وتحته شيخ عرفي يقال له شيخ البلد، والقسم السادس فليتة وهم على يد قايد فليتة، ومن يتولى قيادة فليتة وتلمسان فإنه يسوغ له أن يتولى باياً إذا كانت له إعانة بالجزائر.

ابن عودة المزاري طلوع سعد السعود، نشر يحي بوعزيز،
دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، الجزء الأول ص 270 ـ 274

محمد بن عثمان السنوسي

(ت 1318 هـ/ 1900 م)

محمد بن عثمان السنوسي ولد في مدينة تونس في خريف عام 1267 هـ/ 1851 م. من أسرة ذات أصول مغربية اشتهرت بالعلم، وارتقى بعض أفرادها في خطط القضاء المالكي، فكان لذلك تأثير في نشأة محمد السنوسي، فبعد أن درس بجامع الزيتونة وتتلمذ على كبار الشيوخ به كالشيخ محمود قاباو ومحمد بيرم الخامس، ومحمد الطاهر النيفر، والشيخ علي العفيف والشيخ سالم ابن الحاجب، وأحمد بن خوجة، وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ عبد القادر البارودي متولى سراية المحمدية، تحصل على إجازة التطويع من جامع الزيتونة 1287 هـ/ 1870 م، وتصدر التدريس به، ذكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور مواهبه التي تفتقت أثناء الدراسة والتي أهلته لأن يكون أحد أعلام الفكر والأدب بقوله: «التحق بجامع الزيتونة الأعظم فبدت نجابته الفائقة ومواهبه الخارقة واختلط بأعلام النهضة الفكرية والتدريس في ذلك العصر فبلغ بهم ذروة الكمال العلمي، واشتهر اسمه في أوساط العلم والتدريس، وبكر بدافع نبوغه الوثاب إلى الانتصاب لإلقاء الدروس... فكانت دروسه مَظْهَراً لِمَا أوتي من المواهب العجيبة في سعة العلم ومتانة الفهم والفصاحة، وكانت ملكته الأدبية مع ذلك أسمى وأظهر من ملكته العلمية فقد اشتهر بسرعة التحرير وسعة المطالعات التاريخية والأدبية والموهبة الشعرية الجيدة والملكة الإنشائية الرفيعة بما جعل التآليف والتحارير الصادرة عن قلمه السيال مكونة لأكثر ما صدر عن فرد في ذلك العصر».

اتصل محمد السنوسي برجال الإصلاح والإدارة بفضل مساعي الشيخ قاباو والشيخ ابن الحاجب، وكلف بتدريس الشاب محمد ناصر باي لفترة، كما تولى كتابة مجلس جمعية الأوقاف، ثم أسندت إليه بفضل مساعي محمد بيرم والوزير حسين مهمة التحرير بالجريدة الرسمية (الرائد التونسي)، وقام بتحرير العديد من افتتاحياتها كما أشرف على طبع العديد من الكتب بمطابعها.

كان للنشاط العلمي المتميز والمهام الإدارية التي تولاها السنوسي دور في احتكاكه بالأفكار الإصلاحية التي حملها خير الدين باشا والتي كانت تهدف إلى إنشاء المجالس المنتخبة بهدف إصلاح حال الأمة، لكن التطورات التي عرفتها تونس والتي أدت إلى فشل حركة الإصلاح بذهاب خير الدين باشا وتنحية محمد خزندار، ومجيء مصطفى بن إسماعيل خيبت أمله في إمكانية الإصلاح ولم يطل به الحال حتى فصل عن كتابة الأوقاف وتحرير الرائد التونسي مع فرض الحماية على تونس 1298/1881 م، فعقد العزم على مغادرة تونس، متعللاً بأداء فريضة الحج فسافر في 7 رجب 1299 هـ/5 ماي 1882. بحراً باتجاه نابلي، وسمحت له الظروف بالالتقاء بصديقه الوزير حسين الذي كان موجوداً بإيطاليا آنذاك فقام بزيارة عدة مدن إيطالية، والتقى بالأديب والسياسي المصري إبراهيم المويلحي، ثم قصد إستانبول واتصل بمحمد بيرم الخامس، وبالوزير خير الدين باشا، ومن إستانبول توجه نحو الشام ومنها إلى الحجاز فأدى فريضة الحج في خريف عام 1299 هـ/1882 م، ثم عاد إلى دمشق وزار الأمير عبد القادر الجزائري وبعد غياب دام تسعة أشهر عن تونس عاد إليها عن طريق بيروت وبورسعيد فمالطة في 26 ربيع الأول 1300 هـ/5 فيفري 1883 م، واندمج من جديد في الحياة العامة بتوليه كتابة جمعية الأوقاف، وبمعاودة نشاطه الإصلاحي فَروَّج لجريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني في باريس، كما ساهم في تأسيس جمعية الوثقى السرية بتونس، وكان من الذين استقبلوا بحفاوة الشيخ محمد عبده لدى زيارته لتونس ديسمبر 1884، وقد أدى به موقفه الداعي إلى الاحتجاجات وتزعم المظاهرات على إجراءات سلطة الحماية الفرنسية على عهد المقيم جول كامبو إلى عزله من منصبه في جمعية الأوقاف

ونفيه إلى قابس لمدة ثلاثة أشهر (ماي ـ أوت 1885).

كان عزل السنوسي من منصبه ونفيه إلى قابس نقطة تحول في جهوده الإصلاحية فانقلب من المواجهة إلى المهادنة، وتحول من الاحتجاج إلى تبرير إجراءات الإدارة، ولعل فشل المعارضة وشعوره بالإحباط لتخاذل الأنصار، ثم للمعاملة الحسنة التي لقيها من القائد الفرنسي أليغرو (J.Allègro) دور في هذا التحول في السلوك وفي النظرة إلى سلطة الحماية الفرنسية بتونس، فتولى الكتابة للمجلس العقاري المختلط الذي أحدثه الفرنسيون بتونس، ثم عُيّن حاكماً في المحكمة المختلطة ثم العدلية التونسية المدنية ثم الجنائية، وشارك في تحرير جريدة الحاضرة 1889، وفي صيف عام 1306 هـ/ 1889 سافر إلى باريس لزيارة المعرض الدولي، فأعجب بمظاهر الحضارة الفرنسية وزاد ارتباطه بالإدارة الفرنسية في تونس، فسايرها في بعض إجراءاتها التي أغضَبت الشارع التونسي مثل «القانون العقاري» الذي اعتبره مطابقاً في أساسه للشريعة الإسلامية، ومنع التونسيين من أداء فريضة الحج بحجة انتشار الوباء بالمشرق، على أن السنوسي تخلى عن مواقفه هذه في أواخر حياته وهذا ما جر عليه غضب سلطة الحماية الفرنسية في السنة الأخيرة من حياته التي كان يعاني فيها المرض الذي أودى بحياته في 24 رجب 1318 هـ الموافق لـ 17 نوفمبر 1900. فودعت تونس بدفنه في مقبرة الزلاج أحد رجالها المثقفين الذي جمع العلم والعمل. والتاريخ إلى الأدب، والشعر إلى الدين، والخطابة إلى الكتابة، فاحتل مكانة متميزة في مجال التراث التاريخي المغربي.

وترك محمد السنوسي العديد من المؤلفات يمكن توزيعها حسب الطابع الغالب عليها على ثلاثة أصناف:

1 ـ المؤلفات ذات الصبغة الفقهية والقانونية:

- تفتيق الأكمام عن حقوق المرأة في الإسلام ألفه سنة 1314 هـ/ 1897م.
- الأجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادة الأشراف، وهي لامية في مدح المقام النبوي.

- الروض الزاهر في إسناد الحسن للإسلام الزاهر، رسالة كتبها سنة 1308هـ/ 1891م.
- تراجم مختصر خليل، تناول فيه نحو سبعين من شروح مختصر خليل. (مخطوط).
- ديوان خطب جمعة ألقاها بجامع سيدي أبي سعيد الباجي.
- تحفة الأخبار بمولد المختار، طبع 1307 هـ/ 1890 م.
- المورد الأمين في ذكر الأربعين، وضعه سنة (1308 هـ/ 1891 م)، ذكر فيه أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي.
- رسالة نظام المدينة المفيد لكتاب العصر الحديث ألفها سنة 1305 هـ/ 1888 م.
- مطلع الدراري بتوجه النظر الشرعي على القانون العقاري حاول فيه التوفيق بين القانون المدني التونسي فيما يخص العقارات، وأحكام المذهب المالكي والحنفي. الأمر الذي جلب له انتقادات شديدة لتبريره إجراءات القانون العقاري الذي سنته سلطة الحماية الفرنسية.
- رسالة في مسألة الضريبة الشخصية (المجبى).
- رسالة نشط البساط في نازلة الفسفاط، حول مناجم الفسفاط بالجنوب التونسي 1314 هـ/ 1896 م.

2 - المؤلفات ذات الطابع اللغوي والأدبي:

- شفاء النفوس أو مجمع الدواوين التونسية، انتهى من وضعه سنة 1292 هـ/ 1875 م، جمع فيه ما أمكنه من معلومات وأشعار لنحو ثمانين شاعراً تونسياً في الفترة الحسينية نشر منها ما يخص محمد قاباو وفي جزأين 1294 - 1877.
- غرر الفرائد بمحاسن الرائد (طبع 1295 هـ/ 1878 م)، جمع فيه مقالاته المنشورة في الرائد التونسي.
- درّة العروض (1292 هـ/ 1875 م) وهي منظومة مدرسية في علم العروض والقوافي طبعت 1297 هـ/ 1880 م، وضع لها شرحاً بعنوان كشف الغموض عن دائرة العروض، ط في 1297/1880.

ـ الرياض الفاخرة بمقالات الحاضرة، جمع فيه مقالاته المنشورة في جريدة الحاضرة 1295/1878.
ـ ديوان شعر وبعض رسائله إلى أدباء عصره (مخطوط).
ـ الكشكول في محاسن القول، ذكره الشيخ عبد الحي الكتاني.
ـ الفريدة في المخترعات الجديدة، وهي مائة وستة عشر قصيدة جمعها في الجزء الأول من رحلته، ونشرت متفرقة في جريدة الأهرام القاهرية والجنان البيروتية.

3 ـ المؤلفات ذات الطابع التاريخي:

ـ مسامرات الظريف بحسن التعريف، في تراجم القضاة والمفتين وأئمة الجامع الأعظم على عهد بداية الدولة الحسينية (طبع بتونس 1309 هـ/ 1890 م).
ـ خلاصة النازلة التونسية، تناول فيها الحركة الاحتجاجية لسكان مدينة تونس على القوانين البلدية التي سنتها سلطة الحماية الفرنسية، جمادى الأولى 1309 هـ/ 1892 م.
ـ النبذة التاريخية في منشإ الوزير مصطفى بن إسماعيل، وهي رسالة شارك من خلالها في الحملة التي قام بها التونسيون في إيطاليا وتركيا ضد السياسة الفرنسية بتونس، وبين فيها موقف الوزير حسن ومحمد بيرم الخامس، وقد حررها بليفورن 1882 م.
ـ الاستطلاعات البارسية في معرض 1889، (طبعت 1309 هـ/ 1892 م).
ـ تحرير مواد تتعلق بالتاريخ التونسي الحديث في دائرة معارف بطرس البستاني.

أما أهم أعمال محمد السنوسي فهي بلا شك «رحلته الحجازية»، التي سجل فيها ما شاهده واطلع عليه أو اتصل به في البلدان التي زارها أثناء رحلته إلى الحج، وقد استغرقت رحلته هذه تسعة أشهر وزار فيها كلاً من إيطاليا وتركيا والشام والحجاز، فوضعها في ثلاثة أجزاء الأول تعرض فيها لفوائد الأسفار والغرض من الرحلة التي في رأيه «ليست الهدف منها التفرج، وإنما النظر في

المواقع البعيد منها والقريب وفي الخطوط البحرية التي تربط البلدان» وفي الرغبة في الاطلاع على الحالة العلمية للأمة وعلى طبيعة الآداب والأخلاق السائدة بها، وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية التي تقوم كما يقول: «على اتحاد الكلمة في المصلحة والانتظام في حفظ حقوق الأفراد، وصيانة موازين المعاملة التي تحفظ المكاسب». مع وصف شامل للمدن التي زارها بإيطاليا، ونابولي، وروما، وليفورن، وبيزة، ومنتكاتيني، أما الجزء الثاني فقد تحدث فيه عن سفره إلى إستانبول ومروره بأزمير، وبورسعيد، ثم وصوله إلى مكة والمدينة ومنها إلى دمشق وبيروت، والعودة إلى تونس عن طريق مالطة، وسجل كل ما أثار انتباهه من معالم أثرية ومنشآت علمية من مساجد ومدارس ومكتبات ولم يفته ملاحظة طرق التدريس بالحرم المكي، وأوضاع ركب الحجيج الذي صحبه في انتقاله من المدينة المنورة إلى دمشق. أما الجزء الثالث فقد خصه لتراجم بعض العلماء وللتعريف بالشخصيات التي كان يحرص على الاتصال بهم والتعرف عليهم والاستفادة من علمهم أثناء أسفاره إذ يقول: «ينبغي عليه أن يكون بالمرصاد من الرجال الذين لا يمكن له الاجتماع عليهم بغير السفر إذ كثير منهم لا يخرج من بلده». فعرف بخمسة وعشرين من الرجال الأعلام في عالم العلم والسياسة واستعرض تآليفهم وأشاد بأعمالهم ونوه بمواقفهم، ومن جملة من ذكرهُم في هذا الجزء عرابي باشا وجمال الدين الأفغاني والأمير عبد القادر الجزائري الذي زاره في منزله بضواحي دمشق بتوصية من شيخه محمد بيرم الخامس، وقد نظم فيه شعراً نوه فيه بجهاده وأبدى إعجابه بشخصيته التي اكتسبت مكانة خاصة في منفاه.

تميز محمد السنوسي في رحلته بأسلوبه الذي يتصف بالدقة والوضوح والذي لا يخلو من الاستدلال البرهاني واستعمال المصطلحات العلمية القديمة منها والحديثة، والمعرب والدخيل، مما يدل على غنى رصيده اللغوي وزاده الأدبي بل يؤكد ثقافته الموسوعية التي جمعت تراث المنقول والمعقول وزاوجت بين الطابع التقليدي والمسحة العصرية.

أما من حيث الأفكار التي عرضها فهي تلخص فكرته عن الإصلاح ورأيه في

المجتمع وفهمه لمتطلبات عصره والتي يمكن إجمالها في تمسكه بالقيم الإسلامية، وإعجابه بمظاهر الحضارة الأوربية، وتتجلى عاطفته الإسلامية وتمسكها بالمبادىء الإسلامية والسنة النبوية الشريعة فيما كتبه من نثر ونظمه من شعر في قبيل تلك القصيدة التي أنشدها في المقام النبوي الشريف والتي مطلعها:

وإلى خير خلق الله أَحْدُو النجائبا   وألقي عصا التسيار إذ جئت حانيا

كما يبدي تفهماً لأوضاع المشرق وتوجه رجال السياسة والثقافة فيه، ويسوؤه ما عرفه من حياة المكائد وأسلوب الدسائس التي زهدته في الإقامة بإستانبول خاصة، وأضعفت إيمانه بالجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية بعد أن خبر سياسة محمد ظافر المسراتي المقرب من السلطان عبد الحميد.

أما إعجابه بمظاهر الحياة الأوربية فهو صادر عن فهمه العميق لدواخل الحياة الأوربية وتكوينه في السياسة والأدب الذي تبلور في نزوعه إلى إصلاح المجتمع والأخذ بالجديد، سواء أكان ذلك قوانين وأنظمة تنبني حسب رأيه على تحقيق العدالة الاجتماعية، أو فيما يحصل بالانتظام والعصبية ويضمن المساواة في المعاملة بين أفراد الأمة والتي يحث عليها الحديث النبوي الشريف «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً». وضمان الحرية عن طريق المجالس الشورية، وحكم الشعب لنفسه، وفي هذا يقول: «أحزم الناس أمم قامت بواجباتها وناطت رئاستها بمن تختاره الأمة، فحمت نفسها من ظلم الملوك وجهل عبيدهم أو من حل محلهم من أراذل الجاهلين». كما يرى السنوسي أن التطور الاجتماعي وتقدم الأمم لا يكتمل إلا بالسعي للاستفادة من المخترعات الحديثة التي أنجزتها أوربا مثل الكهرباء التي وصفها مبهوراً بها: «أول ما وقع بصري على قوانين الكهرباء، فرأيت قوة نورها العجيب ليلة الخميس الثاني والعشرين من شعبان (6 جويلية 1882) ورأيت كأن الشمس طلعت بنور أبيض أشبه بلون نور القمر وأشد قوة منه» ومد خطوط السكك الحديدية التي نظم فيها قصيدته النونية المؤلفة من مائة وعشرين بيتاً:

أرأيت كيف تقارب البلدان   بالمزجيات جرت على القضْبان

بمثل هذه الأفكار عبر محمد السنوسي عن ثقافة عصره وانشغالات مجتمعه مما جعل منه مفكراً مصلحاً وداعية منوهاً بإنجازات الحضارة الأوربية انتقل من صفوف الحركة الإصلاحية الاحتجاجية المتشبعة بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إلى التعامل مع النظام القائم وإقرار ما يسنه من قوانين، ولعل هذا ما دفع الشيخ محمد الفاضل بن عاشور إلى القول أن محمد السنوسي «ترك وراءه للأجيال ما مثل حياة قرنه خير تمثيل» وجعل الأستاذ علي الشنوفي يعده من جملة مصلحي النصف الثاني من القرن التاسع عشر باعتباره «داعية ماهراً أذاع تصورات عصره المتصلة بيقظة الإسلام والمسلمين، ورجل سياسة يناصر يقظة المسلمين من نوم الغفلة قصد تحرير البلاد الإسلامية من الهيمنة الغربية».

المراجع المعتمدة:

- السنوسي (محمد بن عثمان) الرحلة الحجازية، تحقيق ونشر علي الشنوفي 3 ج، الدار التونسية للنشر، ج 1/1976، ج 3 1978.
- السنوسي (محمد بن عثمان) مسامرات الظريف. بحسن التعريف (تراجم علماء تونس)، تحقيق وتعليق، محمد الشاذلي النيفر، ج 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994.
- بسيس (محمد الصادق) محمد بن عثمان السنوسي، حياته وآثاره، تونس 1978.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 3 ص ص 73 ـ 83.
- الشنوفي (علي) مفكرٌ من أهل القرن التاسع عشر؛ محمد السنوسي، حياته وآثاره، تونس، 1977 (بالفرنسية).
- الشنوفي (علي) محمد السنوسي، دائرة المعارف التونسية، الكراس الثالث/ 1993، ص ص 22ـ29.
- ابن عاشور (محمد الفاضل)، الشيخ محمد السنوسي، المجلة التونسية الجزء الثالث، المجلد التاسع 1955، ص ص 143 ـ 148.
- ابن عاشور (محمد الفاضل)، أركان النهضة الأدبية، تونس 1965، ص ص 21 ـ 27.

- معجم المطبوعات ص 1058.
- معجم المؤلفين. ج 10، ص 285 ـ 286.
- المؤرخون التونسيون، ص ص 467 ـ 511.
- عنوان الأريب، ج 2 ص ص 145 ـ 153.
- شجرة النور الزكية، ص ص 416 ـ 417.
- قطان (إسحاق)، تأبين الشيخ السنوسي، المجلة التونسية، المجلد الثامن (1901)، ص ص 101.
- الجاسر (محمد)، في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج، «رحلة السنوسي التونسي»، مجلة العرب (الرياض)، المجلد 13، رجب 1398، جمادى الآخرة 1399.

موكب قدوم المحمل الشريف إلى المدينة المنورة

وأعظم المواكب في المدينة المنورة يوم قدوم المحل الشريف صحبة الركب الشامي يخرج فيه جمع الموظفين والرؤساء والأعيان والعامة إلى ظاهر المدينة لتلقي المحمل الشريف، وقد كان اجتماع الخاصة في بيت هنالك حضرته بالاستدعاء فكان به شيخ الحرم والقاضي والمفتي وكبار الأئمة، وقد اتفق في هذا المجلس المجتمع لانتظار قدوم المحمل أن شيخ الحرم عرض علي استعمال التدخين وقد التزمت في جميع سفري بالبلاد الأوربّاوية والبلاد التركية والبلاد الحجازية أن لا أغير شيئاً من عاداتي، وأنا أكره التدخين والنشوق فلم أستعمل شيئاً من ذلك لأجل. وكنت أعتذر بما لا يحتاج إلى إقامة برهان بتعلّل بأني أكره ذلك.

هذه أول مرحَلة تنقل إليها ركاب المحمل الشريف خرجنا إليها على الأحمرة ووصلنا بعد العصر بعد أن سبقتنا أمتعتنا وما تستتبعه. وذلك عشية يوم الاثنين السادس عشر من المحرم الحرام فإذا بالخيام مضروبة، على أختلاف ألوانها وأوضاعها سموطاً والإبل مصطفّة حولها والناس في ارتجاج فكان أمير الركب سعيد باشا وهو رجل شهم حازم يحسن اللسان العربي بسبب كثرة إمرته على الحج في نحو العشرين سنة، وهو صاحب الإمارة العسكرية هنالك، وأمين الصرة في هاته السنة هو أصف باشا وهو رجل خير ولي قيادة كثير من أعمال الترك، وكان في هذه السنة مدير البلدية بالسكودار (كذا) وهو في رتبة بيلاد باي (كذا) من بيت أصيل كان جده تبرلنلي علي باشا والي يانيه حتى ادّعى فيها الاستقلال وثار على السلطان محمود.

واسم الصرَّة عبارة عن المال الخارج من دار الخلافة لإقامة شعائر الحرمين الشريفين من شموع وزيت وقناديل ولازم الإيقاد والفرش وجراية المستحقين من

أهلها وعوائد جميع أهل الأراضي الحجازية في أثناء مرور الركب.

أخبرني أمين الصرّة أن مبلغ ذلك نحو خمسة ملايين ونصف قروش، وذلك نحو إحدى عشرة مائة ألف فرنك من خصوص المال عدا القفاطين والعوائد وأدوات الإيقاد وغيره. ومجموع مبلغ الصادر نحن المليونين ونصف من الفرنكات. والقفاطين تخرج لجميع خطباء الأراضي الحجازية ولخصوص شريف مكة قفطان مجوهر تبلغ قيمته نحو الستين ألف قرش، أي اثني عشر ألف فرنك.

أما مرتب أمين الصرّة فهو ستة آلاف ليرة يقوم منها بجميع لوازم أبهته من أتباع ومراكب وخيام ومطابخ وغير ذلك. أما وقف السلطان سليم فقد جعل فيه ستمائة قرش لأمين الصرة فقط ولذلك لم تزل عادة السلاطين عند حضور خروج المحل الشريف يعطون بأيديهم لأمين الصرة ستمائة قرش من ريع الوقف، على أنها أجر الواقف. ولذلك شأن عظيم وآخذها يتبرك بحفظها حيث إنها من ريع الوقف السلطاني ووقع تلقيها من خصوص اليد سلطانية، أما مخروج مال الصرة كلها فهو من نظارة الأوقاف بالدولة العلية.

محمد السنوسي الرحلة الحجازية
تحقيق علي الشنوفي
الشركة الوطنية للنشر، تونس 1981،
الجزء الثاني. ص ص 214 ـ 219

مكـة المكرمـة

هذه أم القرى، ومهبط الوحي، ومحل وجود خير الوجود، ومظهر الشريعة الإسلامية وفيها كعبة العرب وموضع اجتماع قبائلهم، وهي محل حكومتهم العظمى، ومقر أشرافهم، وتسمى مكة لقلة مائها وتسمى المعطشة، وتسمى بكة وأم كوثي وهو محل من قعيقعان، وفاران، وتسمى قرية النمل، والباسة.

وطولها من باب المعلى إلى باب الماجن أربعة آلاف ذراع، واثنان وسبعون ذراعاً، وطولها من طول المعلى إلى باب الشبكية أربعة آلاف ذراع ومائة واثنان وسبعون ذراعاً، وغير خاف على مطالع السيرة النبوية خروج رسول الله ﷺ من مكة، بعد أن أرسله الله، فخرج مهاجراً إلى المدينة إلى أن جاءه نصر الله والفتح.

وقد وقع الخلاف في فتح مكة هل كان عنوة فتكون مقسومة، ولم يقسمها النبي ﷺ وأقرها على ذلك لا تباع ولا تكرى، ومن سبق إلى موضع فهو أولى به، وبه قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعي، أو كانت صلحاً فبقيت ديارها بيد أهلها يتصرفون في أملاكهم بالسكنى والبيع والإجارة وبه قال الشافعي وغيره، وعليه جرى عمل الناس قديماً وحديثاً، وهذا الخلاف إنما هو في أرضها، وأما أبنيتها الحديثة فلا خلاف في أنها تباع، على قاعدة من بنى في أرض في الوقف حيث يجوز له بيع ما بناه.

وقد اختلف العلماء أيضاً في حكم المجاورة بمكة، فمذهب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي كراهة ذلك، تخوف ضعف الاحترام للبيت العتيق، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يدور على الحاج بعد قضاء النسك بالدرة ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم، ويا أهل العراق عراقكم، فإنه أبقى

لحرمة ربكم في قلوبكم، وسئل مالك: هل الحج والجوار أحب إليك أو الحج والرجوع؟ فقال: ما كان الناس إلا على الحج والرجوع. وذهب أبو حنيفة والشافعي وأحمد إلى استحباب المجاورة ـ أي مع المحافظة على واجب الاحترام للبيت الحرام.

أما [بناء] الكعبة المشرفة التي كانت إقامتها للطواف من عهد آدم عليه السلام على نحو طواف الملائكة بالبيت المعمور، لطاعة ربهم فيما أمرهم به، وقد رفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت بنص القرآن، وروى الأزرقي عن ابن إسحاق أن إبراهيم رفع البيت تسعة أذرع، وجعل طوله من الحجر الأسود إلى الركن الشامي اثنين وثلاثين ذراعاً، وعرضه من قبل الميزاب من الركن الشمالي إلى الركن الغربي المسمى ركن العراق اثنين وعشرين ذراعاً، ومن جانب ظهر البيت من الركن الغربي إلى الركن اليماني [أحد وثلاثين ذراعاً، وجعل عرض شقها اليماني] إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً. وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مبوب، إلى أن جعل لها تبع الحميري باباً يغلق، وحفر إبراهيم في بطن البيت عن يمين حفرة لتكون خزنة البيت، يوضع فيها ما يهدى إلى البيت، وكان إبراهيم يبني وابنه إسماعيل ينقل الحجارة على عاتقه حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود فقال: ائتني بحجر أضعه هنا، يكون علماً للناس، يبتدئون منه الطواف وكان الحجر الأسود مستودعاً بجبل أبي قبيس، فوضع مكانه، ولم يكن للبيت سقف.

وهنالك كان حفر بئر زمزم: «ماء زمزم لما شرب له». وروى أن الحجر الأسود كان نوراً يتلألأ ويضيء، فسوّدته أرجاس الجاهلية، وفي الحديث: «الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما».

محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي،
الشركة التونسية للنشر، تونس 1981 الجزء الثاني
ص ص 165 ـ 167 .

مع الأمير عبد القادر الجزائري

ولما وصلنا إلى ضيعة الأمير وجدناه عند باب المنزل فأحسن تلقينا وصعد بنا إلى علوه، وجلسنا معه تلك العشية كلها.

ورأيت من حسن أناته ومواقع أسئلته ولطف محاورته ما صدق حسن فكره ومع ذلك سألني عن راحة نزولي وعن صنيع ابنيه اللذين لا أقدر أن أفي لهما بالثناء على برهما جزاهما الله خيراً. وبعد طول المجالسة وأخذها حقها طلبنا منه الإذن فأذن لنا بذلك.

وبعد أن أدى له الحاضرون تحية الإياب وأخذوا في الخروج تقدمت إليه لأدائها فأجلسني إلى جنبه وسألني عن أحوال البلاد التونسية وعن حال التونسيين وما يجدونه من الأحوال الحاضرة، كما سألني عن خصوص عائلتنا بتونس وعن نسبتي من المولى الجد الشيخ السنوسي وعن مدة حلولنا بتونس إلى غير ذلك من المسائل.

ثم عند فراغنا قام معي ونزل إلى خارج المحل فوجدنا الجماعة في انتظارنا فإذا هو خرج لمشايعتنا بنفسه إلى الباب الخارجي على طول ذلك الطريق، وهو حسن القامة طويل اللحية أسود الشعر كله يلبس جوخة من الملف الأزرق ونعلاً من الجلد الأصفر وعمامة بيضاء، منخفض الطرف إلى الأرض يتحدث الهويناء ويمشي كذلك تلوح عليه الشهامة، وأكثر شغله المطالعة والذكر مع ملازمة الخلوة في الأشهر الثلاثة المعظمة.

وقد أذن لي بإجابة دعوة الداعين لحضور الطعام خاصة ومنعني من التحول بالسكنى في بيته، ولازمني ولداه في الزيارات وإجابة الدعوة مع كمال المؤانسة وحسن المجالسة التي لا يفارقاني بها إلا عند النوم بل إنهما ربما وقفا على دخولي إلى الفراش جزاهما الله عني أحسن الجزاء...

وقد وقفت على نحو الثلاثين كراساً في تفسير آيات بطريق باطني عالي

المشرب من تحريرات هذا الأمير تدل على صدق اعتقاد أهل دمشق فيه بأنه على قدم الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن العربي، ووقفت له على رسائل فقهية ولطائف أدبية تدل على أن له من الأدب والفصاحة عنواناً جميلاً.

وبالجملة فهذا الأمير عبد القادر قد جمع الله له خصالاً حميدة من سعة العلم والأدب والصلاح والخيرية وسعة الفضل والكرم وكرم النفس والشجاعة ورغد العيش وطول اليد ونفوذ الكلمة وبرور الأبناء مع حسن الأخلاق العذب المذاق، أخبرني الشيخ محمد الأدهمي الطرابلسي الشاعر المشهور ببديع الزمان أنه لما شاع خبر الجرنالات في أواسط سنة 1298 بخبر وفاة الأمير عبد القادر فبادرت إلى رثائه ونشرت قصيدة رثائه في بعض الجرنالات فلم نلبث أن ورد الخبر بتكذيب ذلك الإرجاف. قال: فوقعت في خلج عظيم صرت به أتوارى من أعين الناس، وكل من كان يعرفني يشير إلي إذا رآني، وبعد مدة لم ألبث أن ورد إلي مكتوب من الأمير عبد القادر يتضمن أنه وقف على القصيدة المرثية وتحقق بها مصداق التي أظهرها عند خبر الوفاة. ولا شك أن الود بعد المماة أعظم منه في حالة الحياة، وعين لها مبلغاً من المال جائزة له على تلك المرثية فكان ثاني شاعر نال جائزة عن مرثية ممن رثاه.

ولما اطلع الأمير عبد القادر على ما نعتته به الجرائد في ذلك العهد كتب لبعضها كتابة تتضمن الثناء على جميع أصحاب الجرائد الذين ذكروا خبر وفاته وقال لهم قد علمت أني بعد مماتي أكون حسن الذكر عندكم وشكر فضلهم على ذلك.

وهذه مكارم غاية الأخلاق منه رضي الله عنه. وقد تركته بدمر يضاجعه الضعف والهرم وهو هنالك يتطلب حسن الهواء معتكف على تهجده وتبتله وإنابته إلى ربه إلى أن أدركته المنية منتصف ليلة السبت الثامن عشر من رجب الأصبّ سنة 1300 ثلاث عشرة مائة الموافق للسادس والعشرين من ماية الإفرنجي سنة 1883 مسيحية.

محمد السنوسي، الرحلة الحجازية،

تحقيق علي الشنوفي،

الشركة الوطنية للتوزيع، تونس 1978، الجزء الثالث، ص ص 217 ـ 220

محمد بن يوسف الزياني
(ت بعد 1320 هـ/ 1902 م)

محمد بن يوسف الزياني البرجي نسبة إلى برج عياش (برج ولد المخفي بناحية معسكر) ينتمي إلى أسرة علم اشتهر منها عمه العالم أحمد بن يوسف الذي كان على صلة بالباي إبراهيم الملياني، (1770 هـ/ 1757 م).

تعلم محمد بن يوسف بمسقط رأسه وتوسع في ثقافته بما قرأه من الكتب وتولى منصب القضاء بالبرج (1278 هـ/ 1861 م) حسبما هو مسجل في إحدى المراسلات الموجهة إليه من طرف الحاكم العسكري الفرنسي للناحية، بعدها انتقل إلى وادي تليلات حوالى سنة 1883 قبل أن يستقر نهائياً بسيق مع أسرته حيث تولى أحد أبنائه الإمامة بأحد المساجد الحرة وكانت لابنته حليمة مشاركة في الحياة العامة في وقت كان من الصعب على المرأة أن يكون لها دور في النشاط الاجتماعي، وقد ظل مقيماً بسيق حتى وافته المنية في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري على الأرجح (أي بعد عام 1320 هـ/ 1902 م).

حظي محمد بن يوسف بتقدير معاصريه لما عرف عنه من علم بأمور الدين واطلاع على التاريخ. فقد ذكره الآغا بن عودة المزاري في طلوع سعد السعود بقوله: «شيخنا الشريف الحسيني الصمداني والقدوة الرباني» وظل محمد بن يوسف على صلة ببعض علماء الجزائر مثل الشيخ علي بن عبد الرحمٰن الجزائري مفتي وهران الذي وصلتنا إجابته عن رسالة كان محمد بن يوسف قد وجهها إليه وذلك بتاريخ 1320 هـ.

ترك محمد بن يوسف مجموعة من الفتاوى والتقاييد والمراسلات الشخصية واشتهر خاصة بتأليفه في التاريخ المعروف «بدليل الحيران وأنيس السهران في

أخبار مدينة وهران»، والذي حدد في مستهله حافزهُ وهدفه منه بقوله: «وبعد فيقول العبد الضعيف الفاني المفتقر إلى رحمة مولاه الكريم الغني محمد بن يوسف الزياني، أن علم التاريخ والأخبار لما كان من العلوم التي ينبغي الاعتناء بها ولا تجعل في زوايا الأدخار وكان وقتنا الذي فيه يفر جيش الأعمار. . . وسكت فيه أهل العلم ولازموا غض الأبصار. وفاه فيه بلسان الضلالة إلى أن سكنوا وأسكنوا تابعهم بدار البوار. . . رأيتهم يخوضون بالجهالة والضلالة في زاخر البحار، أردت بعون الله وحوله وقوته أن أضع تأليفاً كافلاً بأخبار وهران وتابعها في غاية الأسرار وبادرت لوضعه بعد استخارة لمولج النهار في الليل والليل في النهار وسميته بدليل الحيران وأنيس السهران. . .».

يتألف كتاب دليل الحيران من قسمين الأول يشتمل على أربعة فصول ذكرها محمد بن يوسف بما نصه: «ورتبته على أربعة فصول بإتقان الأول في التعريف بوهران والثاني في ذكر من اختطها وأي وقت ولماذا سميت بوهران، والثالث في ذكر بعض علمائها وأوليائها ومن جلب الماء لها إلى هذا الزمان مورد ضمآن. والرابع في ذكر من ملكها من حين أن اختطت إلى هذا الزمان». وقد ركز المؤلف في القسم الأول على ولي وهران محمد الهواري (ت 843 هـ) وتلميذه إبراهيم التازي (ت 866 هـ) وعلى حكم أمراء مغراوة وعمال الأمويين بالأندلس وأمراء المرابطين من صنهاجة معتمداً في ذلك على كتاب أبي راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار رغم أن هذا الأخير اعتمد هو الآخر على ما سجله ابن خلدون في كتاب العبر.

أما القسم الثاني من كتاب دليل الحيران وأنيس السهران، فتناول فيه محمد بن يوسف حكم بني زيان منذ عهد أبي حمو موسى الثاني وصراعهم مع المرينيين قبل أن يتطرق إلى أصل الإسبان وبلادهم واحتلالهم لوهران باعتبارهم الدولة السابعة التي حكمت وهران، بعد ذلك تعرض إلى الفترة العثمانية وهي الدولة الثامنة في رأيه، فذكر أصل الأتراك ونشأة دولتهم بالمشرق، وظهور أمرهم ببلاد المغرب مع قدوم عروج وخير الدين وتولي الباشوات حكم الجزائر، وقد توسع خاصة فيما يتصل بطبيعة الحكم التركي وذلك من خلال تحديد وظيفة

البايات وتصرفاتهم واهتمامهم بالعوائد والجبايات، بعدها أورد أخبار البايات الذين تولوا أمر الناحية الغربية للقطر الجزائري. هذا وقد بقي الكتاب بدون خاتمة، إذ وضع محمد بن يوسف عنواناً للفصل الأخير وأفرده لأصل الفرنسيين (الإفرنج) معتبراً إياهم الدولة التاسعة في تاريخ مدينة وهران واكتفى بالعنوان محجماً عن ذكر احتلالهم وحكمهم للجزائر، والظاهر أنه لم يقدم على كتابة ذلك الفصل حتى لا يورط نفسه مع الإدارة الفرنسية، أو أنه هذا الفصل اقتطع من الكتاب وأصبح موضوع تأليف آخر، إن لم يكن هو مضمون الكتاب الذي نسب إلى أبي راس الناصري بعنوان: «أقوال التأسيس عما وقع وسيقع من الفرنسيس»، أو عجائب الأخبار ذات التأسيس فيما وقع وسيقع للفرنسيس» والذي هو عبارة عن مصنف في ذكر أصل الفرنسيين وتاريخهم مع إشارات وتنبؤات بما سيقع من الفرنسيين وما يؤول إليه أمرهم بالجزائر، ومما يدفع على القول بأن محمد بن يوسف نسب هذا الفصل الأخير وهو (أقوال التأسيس) إلى أبي راس ليتجنب متابعة الإدارة الفرنسية لما ورد فيه من أحكام وتنبُؤات لا تخدم الإدارة الفرنسية لكون أبي راس الذي ظل يحظى بثقة العامة والذي توفي بسنوات قبل الاحتلال الفرنسي لا يمكنه أن يكتب عن أحداث ووقائع متأخرة عنه، ومما يدعم رأينا هذا هو محاولة الإدارة الفرنسية منع تداول كتاب أقوال التأسيس وسعي رجالها لمصادرة بعض النسخ الموجودة منه لدى بعض الطلبة باعتباره معادياً للفرنسيين ومحذراً للجزائريين مما يؤول إليه أمرهم جراء هذا الاحتلال.

اعتمد محمد بن يوسف التقسيم المنهجي لمادة كتابه دليل الحيران فرتب فصوله حسب الدول التي حكمت وهران وكانت لها سلطة على الناحية الغربية للبلاد الجزائرية لكنه لم يستطع تغطية تلك الفترة الزمنية كلها مما جعل الكتاب يفتقر إلى التوزيع المتوازن للمادة التاريخية، فهو يكاد يهمل فترة مهمة من تاريخ وهران على عهد المرابطين والموحدين والزيانيين قد تكون ضاعت من الكتاب في الوقت الذي ينصب اهتمامه على الإسبان وحكمهم لوهران، ويحاول الإلمام بتفاصيل الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر سواء بالنسبة للباشوات بالجزائر الذين حدد عددهم بخمسة وسبعين أو البايات الذين أوصل عددهم إلى ثلاثة وثلاثين باياً.

هذا ومما أنقص من قيمة العرض الشامل لتاريخ وهران وناحيتها إهمال الزياني لفترة الحكم الفرنسي، وأكتفاؤه ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ بعقد عنوان للدولة التاسعة وهم الفرنسيون (الإفرنج) وهذا ما ضيع على القارىء فرصة التعرف على أحداث هذه الفترة التي عايشها المؤلف وتأثر بها وكانت له نظرته الخاصة إليها.

ويغض النظر عما تميز به أسلوب دليل الحيران من ضعف وَمَا داخل لغته من عبارات دارجة وأخطاء في قواعد اللغة، فإن ما اشتمل عليه من معلومات تاريخية يكسبه أهمية خاصة ويجعل منه مصدراً تاريخياً رئيسياً، إذ استند في تأريخه للفترة الإسلامية إلى العديد من الكتب التاريخية التي ظلت متفرقة وصار من الصعب الرجوع إليها، وإن لم يحاول التحقق من صحة بعض رواياتها، ولعل ما نقله عن أصل مغراوة يقدم لنا نموذجاً لطريقته في تسجيل الخبر دون إخضاعه للمراجعة والتحري، بينما في الفترة المتأخرة من الفترة العثمانية لم يكتف محمد الزياني بالنقل وإنما تحرى أخبارها وتتبع وقائعها عن كثب مما جعلها تكتسي أهمية خاصة، فهي تقدم عرضاً مفصلاً ووصفاً دقيقاً للحياة السياسية والإدارية والاجتماعية للبلاد الجزائرية بصفة عامة وبيايليك الغرب بصفة خاصة. ففي تمرد درقاوة لم يكتف المؤلف بما كتب عنه ولم يقتصر على نقل ما جاء في دار الأعيان في أخبار مدينة وهران لحسن خوجة، وخاتمة أنيس الغريب والمسافر لمسلم بن عبد القادر. ودرء الشقاوة في فتنة درقاوة لأبي راس الناصري، بل رجع في تأريخه لهذه الحركة التمردية إلى أقوال الرواة وأنطباعات الشهود. وما نظم فيها من شعر، فجاء موقفه محايداً ونظرته شاملة لتلك الحركة التمردية التي حاول جل من كتب حولها وصفها بالفتنة والخروج عن الجماعة والإضرار بالمصلحة العامة.

هذا وقد حاول محمد بن يوسف تجاوز الخبر وعرض الوقائع إلى إبداء الرأي وتحديد الموقف بالنسبة للحكم العثماني خاصة، ولعله في ذلك كان متأثراً بالنهاية المأساوية لهذا الحكم وما أعقبه من مقاومة للاحتلال الفرنسي، فقد أرجع محمد بن يوسف نهاية الوجود العثماني والقضاء على الدولة الجزائرية على يد الفرنسيين إلى تصرفات بعض بايات وهران الذين كثر ظلمهم وفسادهم وعتوهم وعنادهم حسب قوله، وقد حمّل آخرهم وهو الباي حسن بن موسى مسؤولية ما

انتهى إليه أمر الجزائر من احتلال وغزو، ونندد بتصرفاته وشهّر بظلمه وتعسفه وذكر أنه: «صار مهما مات أحد وهو ذو مال ومكوس إلا صير نفسه واحداً من ورثته فيأخذ حصة معهم على عدد الرؤوس». كما ذكر عنه أنه: «كثر عبثه وظلمه وتعديه واجتراؤه على العلماء والأعيان والرعية».

لم تخف أهمية كتاب دليل الحيران على المهتمين بتاريخ الناحية الغربية من البلاد الجزائرية، فقد أخذ الكثيرون عنه، واستشهد به الآغا بن عودة المزاري في طلوع سعد السعود الذي قد يكون جزء منه نقلاً حرفياً عن دليل الحيران إن لم يكن كتاب طلوع سعد السعود من تأليف الزياني. كما رجع إليه ولسن استرهازي (W. Esterhazy) فيما كتبه عن مخزن وهران، وترجم بعض المقاطع المتعلقة منه بأحداث بايليك الغرب في كتابه حول تاريخ الهيمنة التركية في إيالة الجزائر. «De la domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger». هذا وقد نشر مؤخراً النص الكامل لكتاب دليل الحيران من طرف الشيخ المهدي البوعبدلي اعتماداً على مخطوط الشيخ البشير محمود البرجي مع مقدمة مطولة عرّف فيها المحقق بمضمون الكتاب وبعض الأحداث المهمة التي تناولها مثل حركة درقاوة، وطبع بالجزائر ضمن سلسلة إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية 1978 (في 295 صفحة).

المراجع المعتمدة:

- الزياني، محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر 1978.
- المزاري، (الآغا بن عودة) طلوع سعد السعود، تحقيق ودراسة يحيىٰ بوعزيز، بيروت، الجزء الأول والثاني 1990 (ص 368).
- بوعزيز (يحيى)، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ج 2 ص ص 259 ـ 250.
- Esterhazy (W.) De la domination turque dans l'ancienne Régence d'Alger, Ch. Gosselin, Paris 1840.
- Esterhazy (W.) Notice historique sur Le Maghzen d'Oran, Barrier, Paris, 1849.

مهـــام البـــاي

اعلم أن الباي عند أتراك الجزائر لقب لمن ولي إيالة تلمسان أو تيطري أو قسنطينة فقط والباشا لقب للذي يولي البايات. . .

ومراتب الباي ثلاثة أولهم باي تيطري، وهو أكبر البايات اسماً لأنه أول من ولته الدولة التركية بذلك المحل وقاعدته المدية، وثانيهم باي الشرق يعني الجهة الشرقية وقاعدته قسنطينة وثالثهم باي الغرب يعني الجهة الغربية وقاعدته وهران وكان هذا الثالث منوعاً على نوعين أحدهما مازونة وثانيهما تلمسان ثم جمعا في الثامن عشر من القرن الثاني عشر لواحد، وصارت القاعدة قلعة بني راشد ثم صارت أم عسكر ثم صارت وهران في الفتح الأول ثم صارت مستغانم ثم صارت المعسكر ثم صارت وهران في الفتح الثاني واستمر الحال على ذلك إلى انقطاعهم، ولبايات هؤلاء القواعد التصرف المطلق في الرعية بالقتل للعرب والضرب والسجن والعقوبة بكل وجه والخطية للعرب وغيرهم دون تعرض أحد لهم في ذلك غير أن الباي لا يقدر أن يقتل أحداً من الأتراك إلا بمشاورة الباشا بالجزائر وللباي خليفتان أحدهما ينوب عنه في الخروج للرعية لأخذ مال الدولة منها وفي القدوم إلى الجزائر عند الافتقار، والآخر يقال له خليفة الكرسي ينوب عنه في قاعدته إن غاب وله كاتبان عربيان يكتبان له جميع الأوامر أحدهما كاتب السر ويقال له باش تافتار وهو الكبير والآخر يكتب الرسائل ويسجلها إلى غير ذلك وهو الصغير، وله وزيران من العرب ويقال لكل منهما آغا يشتريان هذا المنصب من الباي بمبلغ وافر من المال وهما يقبلان دعاوي العرب ثم يعرضانها على الباي

ولهما مدخل عظيم في ذلك فلا بد للباي من مشورتهما كل منهما فيما يليه وتارة يجمعهما للمشورة وله أربعة شواش أعوان تركا لباسهم مخالف للباس شواش الباشا فهم كسائر العسكر لكون خدمتهم ليست موظفة لهم كشواش الطرطورة والقفطان. وإنما توظيفهم من عند الباي خاصة فله أن يأخذ من شاء لقطع الرأس ونحوه وتسميتهم شواشاً ما داموا عند الباي وآخرون من العرب لتقديم الناس وتأخيرهم وضبط أحوال الباي، يقال لهم شواش بني عرب، وله سبعة طبول وغوائط ونغارات وعدة سناجيق يجمعهم معه حال ركوبه وفسطاطه... تحمله اثنا عشر جملاً فضلاً عن البغال. ولا بد للباي في كل ثلاث سنين من دخوله للجزائر إن لم يلحقه عذر من مرض ونحوه. وإلا بعث خليفته الأول عوضاً عنه، ويسمى هذا الدخول عندهم بالدنوش وعلة دخوله في كل ثلاث سنين هي إعطاؤه مال الدولة بيد الخزناجي وإعطاؤه للعوائد، ويقع يوم دخوله مهرجان عظيم وتخرج أكثر الناس لملاقاته.

محمد بن يوسف الزياني
دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران
تقديم وتحقيق الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر 1978،
ص ص 189 ـ 190

محمد بن عثمان الحشائشي

(ت 1330 هـ/ 1912 م)

محمد بن عثمان الحشائشي الشريف التونسي، ولد بتونس في 26 رمضان 1271 هـ/ 12 جويلية 1855، ونشأ في بيت علم وجاه ينتسب إلى الأشراف. فقد كان جده متولي قضاء المواريث على عهد حمودة باشا، وكان والده من شيوخ جامع الزيتونة وموظفاً بالديوان الشرعي.

عرف محمد الحشائشي منذ صغره بذكائه وفطنته وقوة حافظته، مما ساعده على اكتساب ثقافة عربية أصيلة في العلوم الدينية والأدبية خاصة، تلقاها على شيوخ أجلة منهم أحمد الورتتاني الذي لازمه مدة، وسالم بوحاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد بيرم الخامس ومحمود بلخوجة، وعندما استكمل دراسته بجامع الزيتونة بحصوله على شهادة التطويع انتدب للتدريس به، ثم أسندت إليه خطة التوثيق (العدالة) في سنة 1293 هـ/ 1876 م، وظل مرتبطاً بالتدريس مواظباً على الإشراف على خزائن الكتب العلمية بالجامع الأعظم (الزيتونة) حتى وافاه أجله في 3 ذي الحجة (1330 هـ 1912 م).

تميز محمد الحشائشي في الوسط العلمي بحسن أخلاقه وحبه للسفر واهتمامه بالعادات والفنون الشعبية التي وجد فيها الصورة الصادقة لحياة الشعب، وهذا ما عكسته كتاباته في الصحف حول الصناعات والحرف والمهن والتقاليد التونسية وعبر عنه في ديوان شعره، أو ما سجله في وصف معرض باريس 1900 الذي زاره وأعجب به، أو في ما وضعه كتقاييد حول «تاريخ جامع الزيتونة» والذي

جمعه ونشره مؤخراً الجلالي بن الحاج يحيىٰ. وكذلك فيما نظمه في مقامة مسجوعة بعنوان رحلة الشتاء أو «العهد الوثيق في هناء الصديق» بمناسبة عرس صديقه الحاج محمد بن خليفة رجب 1312 ـ 1895. على أن ما اشتهر به الحشائشي وعد من أجله من كتاب الرحلة الاستطلاعية، هو تسجيل رحلته إلى طرابلس وأعماق الصحراء الليبية.

تقوم رحلة محمد الحشائشي على وصف مفصل لما شاهده في سفره من تونس إلى طرابلس تلبية لدعوة أحد الشخصيات السياسية الفرنسية المركيز دي موريس (Marquis de Morès) الذي تعرف عليه الحشائشي في تونس بواسطة صديقه الظاهر اللجمي. وأعجب بشخصيته وقدر فيه طموحه وعواطفه الإنسانية، فارتبط معه في مشروع رحلة إلى دواخل ليبيا بعد أن عرض عليه تمويل نفقات السفر وأوضح له الهدف منها، وهو الاتصال بالمهدي السنوسي بغية إنشاء زاوية في الجنوب التونسي تكون محطة للتجارة عبر الصحراء في إطار مشروع كبير يهدف إلى تحويل التجارة الصحراوية عن مناطق النفوذ الإنكليزي إلى الأراضي الخاضعة لسلطة فرنسا بشمال إفريقيا، والعمل على تعزيز الوجود الفرنسي بأعماق الصحراء (التشاد) لحصر النفوذ الإنكليزي الذي بدأ يتوسع في وسط إفريقيا انطلاقاً من النيل الأعلى، وهذا ما جعل نجاح الخطة مرتبطاً بمدى تفهم الطريقة السنوسية لها وتعاطف قبائل التوارق مع هذه المساعي، وقد كانت الآمال معقودة على نجاح هذا المشروع ما دام يخدم القبائل الصحراوية، ويمهد لتحالف السنوسية بواحة الكفرة مع المهدي بالسودان ضد تطلعات الإنكليز، وكانت خطة السفر تقتضي أن يلتقي الحشائشي بالمركيز دي موريس بواحة غات موطن التوارق بعد أن يكون الحشائشي قد مهد للاتصال بالسنوسيين بواحة الكفرة، فَغَادَرَ الحشائشي تونس لهذا الغرض ووصل بني غازي ومكث بها شهراً توجه في نهايته إلى واحة كفرة، حيث استقبله المهدي السنوسي، وفي طريقه إلى غات (في 30 جويلية 1896) علم بمقتل المركيز دي موريس فاستراح بواحة مرزوق (5 ـ 10 سبتمبر 1897) وصرف النظر عن السفر إلى غات. فتحول نحو الشمال ووصل مصراته ومنها انتقل إلى طرابلس ثم ركب منها البحر إلى تونس في 18 فيفري 1897.

استغرقت رحلة الحشائشي حوالي تسعة شهور (1313 هـ/ ماي 1896 - فيفري 1897م) وكانت أقرب إلى المغامرة السياسية منها إلى الرحلة الاستطلاعية، وقد كان في أول الأمر متردداً في تسجيلها إلا أنه وبعد إلحاح من بعض أصدقائه بدأ في تسجيلها في شهر ذي القعدة 1313 هـ مارس أفريل 1897 م، وهذا ما ذكره قائلاً: «فقد سألني بعض الأحباء والأصدقاء النجباء الألبّاء من أهل العلم والأدب أن أحرر له كتابة مفيدة. فيما يتعلق بتاريخ طرابلس الغرب علماً منه أني أحسن صنع هذا المطلوب، حيث اشتهرت سياحتي إلى تلك المسالك والدروب، ومكثي بين تلك القبائل والشعوب فبت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى أتردد في الإقدام والإحجام، لا أدري أيهما أحرى، ولما وقع الإلحاح في المسألة، وتواردت علي في هذا الغرض عدة أسئلة: «استخرت الله في الموضوع وطلبت منه فيض مدده الرباني للاستعانة على المشروع، راغباً من ذوي الإحسان وأهل الفضل والشأن غض الطرف عن الخطإ والنسيان، فإني معترف بقصور الباع، وعدم الاستطاعة والاطلاع».

وضع الحشائشي خطة لإنجاز رحلته معتمداً فيها على الذاكرة مستعيناً في وصف ما يعرض له بما يقتبسه من الكتب المتوفرة لديه لتكون دليلاً على صدق روايته وتدعيماً لوصفه، فجاءت الرحلة بعيدة عن أسلوب المشاهدات وعرض اليوميات والوصف المركز، فهو ينتقل من وصف بلد إلى آخر ثم يعود إليه من جديد حينما يتذكر شيئاً جديداً أو يعرض له ما يتعلق به، رغم تحديده لموضوع الرحلةِ الذي أوضحه في قوله: «تتضمن ذكر ما يتعلق بمدينة طرابلس في القديم والحديث وذكر أول فتح لها. . . ثم من ملكها. . . وذكر أعمالها وبلدانها وقراها ووصف أراضيها. . . وذكر شعوبها وقبائلها، وأثمارها. . . ومسافات طرقها وأصناف التجارة. . . وقوانين الدولة، وأخلاق أهلها. وطبائعهم. . . وبعض من اشتهر من أعلامها الفقهاء والمحدثين والشعراء وأرباب الأقلام. . . وذكرت الصالحين. . . وما اشتهر من مساجدها وزواياها ومدارسها، ثم ما يوجد بأعمالها من الطرق الصوفية ورجالها وخصوصاً الطريقة السنوسية».

حملت رحلة الحشائشي في أول نسخة لها عنوان: النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية، وعندما قام بمراجعتها مجدداً وكان متأثراً بالعدوان الإيطالي على طرابلس، نقحها وأضاف ما رآه ضرورياً من معلومات وأشعار، وجعل لها عنواناً آخر مستمداً من واقع طرابلس آنذاك وهو: «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» وذلك في الشهور الأخيرة من حياته (ربيع 1912).

تعتبر رحلة الحشائشي وثيقة حية عن ليبيا الحديثة، فقد ضمنها أخباراً تاريخية استمدها من مصادر عدة وسجل فيها انطباعاته ومشاهداته وما سمعه من روايات شفوية، وقد ركز فيها خاصة على النشاط الديني والعلمي للسنوسية، وعلى حالة طرابلس قبيل تعرضها للغزو الإيطالي وقد بين أهتمامه بذلك لما لاحظه من نقص الكتب التي تعرف بالبلاد الطرابلسية وتصف أحوالها: إذ قال «والحال أنني لم أظفر بتاريخ يخص هذه البلاد إلا ما تصفحته من الرجال وبعض ما يعتمد عليهم من فحول الرجال على ما شاهدته الباصرة. وقيدته الفكرة القاصرة، وبعض ما ذكره المؤرخون على سبيل الاستطراد فيما يتعلق بأحوال البلاد».

ورغم أن ما تحتويه رحلة الحشائشي من معلومات قد تضمنته تقارير القناصل وتناولته الكتب التاريخية حول طرابلس إلا أنها تعتبر مرجعاً لمعرفة ميول المهدي واهتمامه بقضايا التجارة وموقف التوارق، كما تعدّ وثيقة تاريخية هامة تضمنت عرضاً عن أوضاع طرابلس غداة تعرضها للاجتياح الإيطالي، فضلاً عن قيمة الرحلة التاريخية العامة ومكانته الأدبية الخاصة، ولعل هذا ما جعلها موضوع اهتمام الباحثين إذ ظهرت ترجمة مختصرة لها بالفرنسية (1930) بقلم فيكتور سار (V. Serres) ومحمد الأصرم وقام بتحقيقها مؤخراً الأستاذ مصطفى المصراتي (1965) فصارت في متناول القراء والمهتمين.

المراجع المعتمدة:

- الحشائشي (محمد بن عثمان)، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحقيق ونشر علي مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1965.

- الحشائشي (محمد بن عثمان)، تاريخ جامع الزيتونة، تحقيق وتقديم الجيلاني بن الحاج عمر، المعهد القومي للآثار، بتونس 1974.
- زيادة (نقولا)، الحشائشي ورحلته إلى ليبيا ضمن كتاب إفريقيات، منشورات رياض الريّس، لندن 1991، ص ص 224 ـ 271.
- تراجم المؤلفين التونسيين، ج 2، ص ص 144 ـ 147.
- معجم المؤلفين، ج 10 ص 282.
- الأعلام ج 7 ص 46.

- Serres (V.) Al. Asram (M.) Voyage au pays des Senoussia à travers la tripolitaine et les pays Touaregs, (tradutction de Nafahat El-Meskia), Paris 1930.
- Martel (A.) Les confins Saharo - Tripolitains de la Tunisie (1881 - 1911) P.U.F. Paris T. 1, 1965, pp. 685, 708-709.

إقليم فزان ومدينة مرزق

يحتوي هذا الصقع على ثلاثمائة قرية بناؤها من الطوب إذا أصابها الغيث الوابل تنهدم سريعاً، وماؤهم من الآبار والعيون وبكل قرية من النخيل ما لم يعلم علمه إلا الله تعالى، إذ لم يحصَ عدده، والصحراء والتوارك (الطوارق) يمتارون منه، وغالب أراضيه ليست بصالحة للفلاحة ولا وجود للبقر بأراضيهم إلا بقر الوحش البري، وأغلبها (أي الأرض) إن لم نقل كلها رمال وجبال من الرمال رحالة وجبال من الحجر لونها أكحل لا نبات فيها، وتبلغ الحرارة هناك إلى درجة عالية، ويقع عندهم الجمود في المياه فكثرته من أكتوبر (تشرين الأول) إلى فبراير (شباط) إن هبت عليهم الرياح الغربية، والرقيق في بلدانهم كثير يباع ويشتري من غير إشهار ويمكن أن الثلاثة أيام أو أربعة تمشي في أراضي لونها كالقار أو أشد سواداً. وجبالها وأراضيها صلدة لا نبات فيها. وأياماً تمشي في رمال متصلة بعضها ببعض، وبها جبال شامخة من الرمل رحالة. وأياماً في بساط متسع ممتد الأطراف، ومجاهل تمكث فيها القوافل العديدة، وأهلها لا خدمة لهم إلا حركة النخيل، وفيهم التجار الذين يذهبون إلى السودان وبلدانه، وكثير منهم يقصد بنغاري وطرابلس وتونس لأجل الخدمة والتمعش، ولهم محبة عظيمة في خوض تونس على غيرها لكثرة أرباحهم بها. ومن مكث مدة في تونس ثم رجع إلى بلده يحسب غنياً في عرفهم. ويتفاخرون بالذهاب إلى تونس.

وطباع أهلها التأني والرزانة وغالبهم على طريقة الشيخ السنوسي إلا القليل، ولا توجد بلدة من بلدانهم المشهورة لم تكن به زاوية من زوايا السنوسيين.

أما بلدانهم الكبيرة المشهورة فأولها مرزق: هي قاعدة فزان الكبيرة التي بها المتصرف والعسكر، تبعد على طرابلس بمسير ثلاثين يوماً تقريباً للقوافل. . .

إن عمل فزان كان مستبداً، ليس داخل تحت طرابلس، وله حاكم خصوصي من قبيلة أولاد محمد، ومحل ملكه مدينة مُرزُق، ولا زالت طائفة منهم ببلد مرزق إلى يومنا هذا، ومكث فزان بأيديهم إلى أن أخذه منهم يوسف باشا سنة (1244 هـ/ 1828 م) في مدة ولايته على طرابلس. من بلدانهم المشهورة غير مرزق القاطرون ثم سوكَنَه، ثم هُون ثم ودّان ثم الزيغِن ثم سمنو ثم القُرضة ثم سبهة ثم ديلم ثم الشاطىء.

تنبهات مفيدة في وصف مرزق:

بلد كثير العيون والنخيل، وماؤه في غاية العذوبة، وتكثر به أمراض السخانة في الصيف دخلت هاته البلاد في مدة سياحتي الصحراوية سنة 1895 م/ 1313 هـ في يوم 27 من شهر ربيع الأنور قبل الزوال، فتوجهت في الحين إلى زاوية الشيخ أحمد مختار شيخ مشايخ السنوسيين بعمل فزان وقد بلغته قدومي قبل أن نأتيه بأيام، مع حسن الوصاية عني ورد البال مني، وقد وجدته يُقرِىءُ في «كفاية الطلاب» للشيخ صالح المشهور عبدالله بن أبي زيد القيرواني بالزاوية، فلما تم درسه أقبل علي بشراشر قواده هو وجميع كبار الطريقة السنوسية، وبتّ تلك الليلة بالزاوية مكرماً مبرراً، ومن غد اكتروا لي محلاً لنزولي، وهي دار ذات طابقين على ملك محمد باشالي أحد التجار الطرابلسيين فاسترحت بها. . .

ومرزق كانت محط رحال القوافل السودانية والصحراوية، وهي منتصف الطريق لمن قدم من طرابلس قاصداً مدينة برنو يعني كوكة يقصدونها من واداي ومصر وجَالو وتوات. وكان يأتيها الركب التواتي قاصداً حج بيت الله الحرام، يتألف من آلاف من البشر، فيقيم هناك مقدار خمسة أيام وعشرين يوماً: يبيع ويشتري ثم يسافر، ونمت بها التجارة إلى أن بلغت حداً عظيماً من الرفاهية، لكن لما وقع المنع من أحد متصرفي فزان بعدم تجارة الرقيق، وأعتق جميع من في البلد منهم، ومنع دخول العبيد الأرقاء إليها، تقهقرت تجارتها ولم تأتها القوافل وصار محل التجارة بلد غات إلى هذا اليوم، وبمرزق وجدت من العسكر النظاميين ما يقرب من المائتين.

ودخلها السنوي ما يقرب من ثلاثمائة ألف قرش، هي وأعمالها تستخلص على النخيل وبعض الرقاب وبعض الأملاك بغير قوانين منظمة، وجميع بناءات البلد مبنية بالطين والتراب والجير، وبها قشلة للعسكر. وبها قصر كبير يسكنه متصرف البلد في الغالب. وهو محل إدارة الحكومة به أربعة مدافع من الطراز القديم، وبه مجلس بلدي رئيسه المتصرف به عشرة أعضاء من أهالي البلد، يجتمع يوم الخميس ويوم الاثنين من كل أسبوع ينظر في مصالح البلد بلا راتب شهري.

محمد بن عثمان الحشائشي
جلاء الكرب عن طرابلس الغرب
تحقيق علي مصطفى المصراتي، (مخطوطة مكتبة الإسكندرية)
عن نقولا زيادة: إفريقيات، دراسات في المغرب
العربي والسودان الغربي - منشورات رياض الريّس، لندن 1991
ص ص 259 ـ 261

أبو عبد الله محمد باشا عبد القادر بن محيي الدين الجزائري

(ت 1331 هـ/ 1913 م)

أبو عبدالله محمد بن عبد القادر بن مصطفى بن المختار، الابن الأكبر للأمير عبد القادر، ولد بالقيطنة الواقعة على وادي الحمام بالقرب من مدينة معسكر بالغرب الجزائري سنة 1256 هـ ـ 1840 م. عرف طفولة مضطربة بفعل الحرب التي شنها الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بيجو للقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر (1841 ـ 1847) والتي انتهت باستسلام الأمير عبد القادر وترحيله مع أسرته إلى فرنسا.

قضى محمد بن عبد القادر بجانب أبيه ومع بقية الحاشية خمس سنوات في الحجز بمنطقة بوردو كما عاش فترة بقصر الأمبواز، وقد اصطحبه والده في نهايتها إلى باريس عند ذهابه لمقابلة الأمبراطور نابليون الثالث قبل التحول للإقامة في ربوع الدولة العثمانية (1851) وعند حلوله بإستانبول حظي بمقابلة السلطان عبد المجيد الذي استقبل الأمير عبد القادر، ثم أقام مع أبيه وباقي الأسرة ببورصة سنتين ونيفاً، ثم تحولوا نهائياً إلى دمشق، وقد ذكر محمد بن عبد القادر حياة الترحل التي عرفها في طفولته وشبابه المبكر بقوله: «فارقنا البلاد وأرتحلنا عن محل الطارف والتلاد... فلبثنا في فرنسا خمسة أعوام... إلى أن وصلنا إلى إسلامبول فمكثنا بها سبعة أيام... وتشرف سيدي الوالد بمقابلة حضرة صاحب الجنان مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان... ثم توجهنا إلى بورصة... فأقمنا بها عامين وستة أشهر في عز وكرامة. وكان سبب خروجنا منها زلزلة عظيمة... فيمّمنا البلاد الشامية ونزلنا بالديار الدمشقية وألقينا بها عصا الترحال، وحللنا عقدة الرحال فائزين بكامل التبجيل والاحترام».

أصبح محمد كبيرَ العائلة بعد أن توفي الأمير عبد القادر في 24 ماي 1883. وأقر له بذلك بعض إخوته ونال امتيازات عديدة منها حصوله على ريع سنوي من أوقاف أبيه يقدر بـ 1400 فرنك، وقد ظل أثناء ذلك يتمتع بالسمعة الطيبة ويحظى بالمكانة المرموقة، حتى وافته المنية بإستانبول سنة 1331 هـ/ 1913 م.

عمل محمد بن عبد القادر جاهداً على إدماج الجزائريين المقيمين بالشام في الوسط الشامي والمحافظة على مكانتهم المميزة في إطار المواطنة العثمانية، وقد أدى هذا إلى فتور علاقته بأبيه الأمير، وأثناء ذلك أصبح سلوك محمد باشا مثار تحفظ من طرف السلطة العثمانية. وتخوف من الممثلين الفرنسيين في الشام فقد رأوا فيه عائقاً لسياستهم الرامية إلى توفير الحماية الفرنسية للجزائريين المقيمين بالشرق بهدف تقوية نفوذ فرنسا في الدولة العثمانية، مع أن محمداً بن عبد القادر لم يبد أي عداء صريح للسياسة الفرنسية بالشام، ولعل هذا ما جعله محل رضا السلطان العثماني وساعده على المحافظة على صلاته بوالي دمشق، بل أهله أن ينال لقب باشا ومرتبة فريق بالجيش العثماني.

ظل محمد باشا بعيداً عن النشاط السياسي الذي ميز الوسط الشامي، فقد أتخذ موقفاً محافظاً من قضايا عصره متأثراً في ذلك بسلوك والده المتصوف. مفضلاً المحافظة على علاقته الحميمة بموظفي الدولة العثمانية، فلم يشارك في أي جمعية سياسية أو إصلاحية. غير أن ذلك لم يمنعه من تجاوبه مع القضايا الوطنية أو تعاطفه مع أوضاع الجزائر المستعمرة. ولم يبعده عن تفهم مرامي دعاة الحركة الإصلاحية والجامعة الإسلامية الذين تتبع أخبارهم وتعرف على البعض منهم في مجالس والده مثل محمد عبده، ومحمد شامل الداغستاني.

لم يتلق محمد باشا في صغره تعليماً منظماً بالمدارس الحكومية لظروف حياته المضطربة، فأخذ مبادىء دراسته الأولى أثناء إقامته مع أبيه بفرنسا على يد قريبه مصطفى بن التهامي. وواصل تعليمه غير المنظم بدمشق وانتفع خاصة بصحبة والده الذي أخذ عنه أولويات علم التوحيد والحديث والنحو، وسمع عنه الكثير من الأخبار، فكانت ثقافته بعيدة عن التخصص الدقيق أو الاطلاع الواسع، إذ كانت

نتيجة جهد شخصي وثمرة احتكاك متواصل بمجالس العلماء والأعيان بدمشق، وقد ساعده ذلك على الإلمام بالعلوم اللغوية والاطلاع على العلوم الدينية، ومعرفة عملية باللغة التركية، وقد عكست كتاباته مدى قدرته على عرض الأفكار والسيطرة على مقاليد اللغة، بالرجوع مثلاً إلى كتابه تحفة الزائر نجد أن لغته مع سلاستها وغناها اللفظي تتخللها الانقطاعات ويغلب عليها السجع والاستطراد واللجوء إلى إثبات أشعار المديح والرثاء أو اقتباس بعض الأقوال والأمثلة من بعض الصحف.

اشتهر محمد باشا بكتابه تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر الذي انتهى من تأليفه عام 1307 هـ/ 1890 م وقدمه إلى السلطان عبد المجيد، وقد تضمن الكتاب أخباراً عن البلاد الجزائرية ووقائع مفصلة عن كفاح الأمير عبد القادر، فكان أول تأليف باللغة العربية يتعرض للسنوات الأولى للاحتلال.

استهل محمد باشا كتابه بمعلومات عن جغرافية الجزائر وماضيها في الفترة الإسلامية وكانت تمهيداً لمضمون الكتاب الذي قسمه إلى جزأين. الأول خاص بكفاح الأمير عبد القادر بالجزائر 1830 ـ 1847 واتصف بالطابع التاريخي والسياق الملحمي، أما الجزء الثاني فقد أفرده لأخبار الأمير بعد خروجه من الجزائر وحتى وافته المنية 1847 ـ 1883م. وغلبت على هذا الجزء النزعة التصوفية والعرض الأدبي لأقوال وأشعار الأمير.

هذا وقد أشار محمد باشا إلى هذا التصنيف الذي اتبعه في كتابه بقوله: «ولما فرغت من ترتيبه وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه حصرته في قسمين الأول في سيرته السيفية والثاني في سيرته القلمية».

اعتمد محمد باشا بالنسبة للفترة الإسلامية التي استهل بها كتابه تحفة الزائر على بعض الكتب العامة مثل كتاب العبر لابن خلدون، بينما رجع في جل الكتاب لا سيما فيما يتصل بكفاح الأمير عبد القادر وحياته بالشام على مشاهداته واطلاعه الشخصي على الأحداث وعلى بعض الصحف المعاصرة بالإضافة إلى العديد من الوثائق والمراسلات والتقاييد الخاصة بأسرته أو الصادرة عن الجهات الرسمية،

وقد كان لذلك أهمية خاصة نظراً لنوعية المعلومات التي سجلها والتفاصيل التي أوردها.

على أن النظرة الذاتية للأحداث التي تميز بها محمد باشا والاعتماد الكلي في بعض ما أورده على أقوال الأمير دون مقارنتها بما تضمنته بعض الوثائق أنقص من قيمة ما سجله. وإن كان علّل ذلك بقوله: «وضعت الأخبار في ميزان واحد وجعلت الحكم العدل شهادة سيدي الوالد (الأمير) فإنه رب تلك المشاهدة ولا يستوي الغائب مع الشاهد. . .».

بالإضافة إلى تحفة الزائر ترك محمد باشا بعض المصنفات الأخرى. نشر منها «عقد الأجياد في صافنات الجياد» انتهى من وضعه سنة (1290 هـ/ 1873 م) وقد وضع له بعد ذلك (1323) ملخصاً بعنوان: «نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد» فجعل له مقدمة وستة أبواب وخاتمة وضمنه معلومات عامة تتصل بأوصاف الخيل وآدابها وسلالاتها. وقد صدرت له طبعتان ببيروت (1876 ـ 1908). وأعيد طبعه مؤخراً بدمشق (1963).

وهناك كتاب آخر لمحمد باشا تحت عنوان «نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر» طبع بمصر بدون تاريخ وهو حسبما يدل عليه عنوانه يتضمن أشعار الأمير مع بعض الرسائل في المسائل الفقهية والقضايا الفكرية منها مقالة: ذكرى ذوي الفضل في مطابقة أركان الإسلام للعقل»، ومقالة «كشف النقاب عن أسرار الحجاب» تستعرض مقاصد وأهداف الحجاب. ومقالة «الترياق في تعدد الزوجات والطلاق، وتبحث فيما أثير حول هاتين القضيتين من آراء وأقوال.

بهذه الحياة الحافلة بالنشاط الاجتماعي، وبهذا الإنتاج الذي يسجل أحداث التاريخ ويثير قضايا الفكر ويتصل بمسائل الفقه تبوأ محمد باشا بن الأمير عبد القادر مكانة خاصة وعد من الشخصيات التي لها وزنها في البيئة الشامية بصفة خاصة والدولة العثمانية بصفة عامة.

المراجع المعتمدة:

- محمد باشا، تحفة الجزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الطبعة الأولى، الطبعة الأهلية، الإسكندرية 1903، الطبعة الثانية، دار اليقظة، بيروت 1964.
- إيضاح المكنون، ج 2.
- تشرشل (هنري)، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبي القاسم سعد الله، تونس، 1974.
- الأعلام، ج 7 ص 82.
- معجم المطبوعات، ص 694.
- سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، الجزائر 1986، ص ص 115 ـ 145.
- طرشون (نادية)، الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام، (1847 ـ 1911)، رسالة ماجستير دمشق 1985 (غير مطبوعة).
- الحسني الجزائري (الأميرة بديعة)، أصْحَاب الميمنة إن شاء الله (مفاخر الأمير عبد القادر وأبنائه وأحفاده)، دار سلام للنشر، دمشق 1997، ص ص 251 ـ 262.
- معجم المؤلفين، ج 10 ص 184.
- محمد باشا، عقد الأجياد في الصافنات الجياد، دمشق 1963.
- محمد باشا ، نخبة الأجياد في الصافنات الجياد، بيروت 1908.
- محمد باشا، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، مصر، د. ت.
- معجم أعلام الجزائر، ص 156.

- Bradin (P.) Algériens et tunisiens dans l'Empire ottoman de 1848 à 1914 éd C.N.R.S., Paris 1979.

مبايعة الأمير عبد القادر

لما طال على أهل الوطن الأمد، وتوالى عليهم فيما بينهم الكرب والنكد، وتسلط على بلادهم العدو، ومنعهم القرار والهدو، وسطا القوي على الضعيف، وتطاول اللئيم على الشريف، اجتمع الأشراف، والعلماء وأعيان القبائل: من العرب والبربر، وقدموا على حضرة سيدي الجد، وألزموه أن يقبل بيعتهم على الإمارة لنفسه، أو لولده سيدي الوالد، وحاجوه في ذلك، بما أعجزه من الاعتذار، فأمعن النظر في هذا الأمر، فرأى أن الاهتمام به واجب، وتعين عليه ـ شرعاً ـ أن يقوم به، لأنه سموع الكلمة، نافذ الأمر، غير أنه لما كان عاجزاً عن القيام بأعبائه، ورأى أن ولده المنوه به، قد بلغ أشده وأرهف حده، وترشح للإمارة وتأهل لها. . .

وعلم أنه لا مندوحة له عن الإجابة والقبول، إما له أو لولده، فحينئذ استخار الله تعالى، وقدم ولده للإمارة، ومدافعة أهل الشرك، متوكلاً في نصره وتأييده على مالك الملك، فذهبته البشائر بذلك إلى أقطار الوطن. . .

وتباشر الناس لذلك، لما رأوا من إقدامه للزحف. واقتحامه الصف بعد الصف، وشاهدوا فيه من الصفات العلية، والنعوت السنية، فاجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم، وتداعى صغيرهم وكبيرهم، وخيموا «بوادي فروحة» من «غريس» عند شجرة الدردارة، وهي «شجرة عظيمة» كانوا يجتمعون إليها، للشورى بينهم وجاء سيدي الجد في بنيه وأقاربه وذويه، ولما تلاحق الناس، الذين يعتد بحضورهم للبيعة، وجلس سيدي الوالد تحت الشجرة، قام والده، فبايعه على السمع والطاعة، ودعا له ثم لقبه «ناصر الدين» وقام عمه سيدي الجد لأمي السيد

«علي أبي طالب» وبايعه، وكذا الإخوة، وسائر القرابة، ثم الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء. على حسب مراتبهم وطبقاتهم، بايعوه على ما بايعه عليه والده، ولا يخفى على ما في وقوع هذه البيعة. تحت الشجرة من الاتفاق الغريب، وما فيه من الإشارة إلى متابعة سيدنا رسول الله ﷺ. واقتفاء أثره في بيعة الرضوان...

وبعد أن انتهت البيعة لسيدي الوالد، ركب سيدي الجد إلى مدينة «معسكر» حاضرة الإمارة، ولما أن دخلها، وجد السرور والبشر قد عم عامة أهلها، وقد طلع على أهل الصلاح؛ فجراً صادقاً، وعلى أهل البغي والفساد؛ نجماً طارقاً، فتهلل وجه الصالحين وأيقنوا بصلاح الحال. وتكدر عيش المفسدين، وأيقنوا بالوبال في الحال، وفي المآل، ثم أقبل الأمير بعده في جموعه. وكانت زهاء عشرة آلاف فارس. فبرز أهل البلد احتفالاً به. واستقبلوه في الموضع المعروف «بخصيبية» على نصف ساعة منها، مظهرين للطاعة وشعائرها. فأقبل عليهم ببشره وابتسامه، قبل كلامه، وبعد أن تناول من طعامهم، الذي كانوا قد أعدوه لحضرته؛ دعا لهم وحثهم على الطاعة والتزام الجماعة، ثم ركب ليدخل البلد؛ فأطلقت المدافع، وغردت الموسيقات بما يطرب السامع، ونشرت الرايات والأعلام، وبرزت المخدرات من القصور، تثني على الأيام، فدخلها على أحسن حال، وأتم منوال، ونزل في دار الحكومة؛ فجلس على كرسيه، ودخل عليه أهل البلد، ومن لم يشهد بيعة «غريس» أفواجاً أفواجاً، لأداء البيعة.

الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري

تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر،

دار اليقظة، بيروت 1964، ص ص 154 ـ 157

أبو عبدالله محمد بن الأعرج السليماني
(ت 1344 هـ/ 1925 م)

أبو عبدالله محمد بن محمد بن الأعرج بن يحيىٰ المغراوي المنشأ الغريسي السليماني الأصل الحسني النسب، ولد بفاس في أول ذي القعدة من عام 1285 هـ الموافق لـ 22 فيفري 1869، تلقى العلم بمسقط رأسه حيث واصل دراسته بجامع القرويين (1305 هـ/ 1888 م) ودرس موطأ مالك ومختصر خليل وصحيح البخاري وألفية ابن مالك وغيرها من أمهات الكتب حسب مناهج التعليم التقليدية آنذاك على يد والده محمد بن عبد القادر بن الأعرج وشيوخه: أحمد بن الخياط، وأحمد بن الجيلالي الأمغاري، وعبد السلام بن محمد بناني، ومحمد كنون، وعبدالله البدراوي، ومحمد بن قاسم القادري وغيرهم، وصفه عبد السلام بن سودة في فهرسه المعنون بـ: «سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال» قائلا: «العلامة المشارك المؤرخ الكاتب المقتدر المؤلف الشهير الشاعر المكثر».

اشتغل أبو عبدالله بالتجارة في أول حياته العملية في فاس، وتولى العدالة بنظارة أحباس القرويين مدة، ثم اضطرته الظروف إلى الهجرة إلى تلمسان موطن أجداده حيث أقام وساهم في إنشاء مجمع لأهل الثقافة والعلم عرف بـ «نادي الشبيبة الجزائرية» وأثناء ذلك تعرف على واقع العالم الإسلامي وتفطن إلى خطط الاستعمار التي بدأت تهدّد المغرب الأقصى، وهذا ما دفعه إلى التخوف من عواقبها والتحذير من أساليبها في بعض القصائد والمقالات والمحاضرات التي عبر فيها عن شعوره الوطني وموقفه المعادي للاستعمار، وعند عودته إلى فاس ساهم في تأسيس أول مدرسة حرة بها (1340 هـ ـ 1922 م) وظل على موقفه الرافض للهيمنة الفرنسية على المغرب الأمر الذي أثار الانتباه إلى نشاطه وجعله عرضة

للمضايقات بسبب قصائده الوطنية، وتعاطفه مع قضايا العالم الإسلامي، ونسجل له في هذا المجال ابتهاجه بانتصار الأتراك على اليونان في معركة إزمير مخلداً ذلك في قصيدة له بعنوان «تركيا الجديدة» كما أبدى مناصرته لثورة الريف مشيداً ببطولة رجالها وفي مقدمتهم عبد الكريم الخطابي، وكان لبداية تراجع الثورة أثر عميق في نفسه عبر عنه بقصيدة نشرتها له بعض الصحف، وكان لها وقع مؤثر في النفوس مطلعها:

دع الفتيان تمرح في القصور ويصم مسعداً وادي النكور

وقد أثار ذلك استياء الإدارة الفرنسية بالمغرب مع أن فرنسا كانت لم تدخل الحرب بعد بجانب إسبانيا، ولم تمهله المنية بعد ذلك، حيث توفي بفاس في 22 محرم 1344 هـ/ 23 أوت 1925 م ودفن خارج باب الفتوح بجوار ضريح الولي سيدي علي بن حرزهم، وقد ذكر عبد السلام بن سودة «أنه أصابه مرض ألزمه الفراش حين بلغه خبر استيلاء الدولة الحامية (فرنسا) على الزعيم الكبير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وأنها أخذته أسيراً عندها وكان يعلق عليه آمالاً كبيرة لإنقاذ المغرب من نير الاستعمار».

ترك أبو عبدالله بن الأعرج السليماني العديد من المصنفات منها:

1 ـ زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ تتعلق بالتاريخ العام، اهتم فيها بأخبار الأندلس وبلاد المغرب ومصر مع عرض عام لأحداث التاريخ الإسلامي، وتلخيص لأوضاع الدولة العثمانية، ومقتطفات عن التاريخ القديم لبلاد الرافدين والشام وفارس والهند واليونان والرومان، وقد أدرج في كتابه هذا إلى جانب الأحداث التاريخية الصرفة أموراً تتصل بالمسائل الفلسفية والقضايا الفكرية والاقتصادية مع اهتمام خاص بالحركة الإصلاحية ودواعي نهضة الأمم، هذا ويشمل هذا الكتاب الذي بقي مخطوطاً مقدمة وأربعة أقسام في 1847 صفحة. القسم الأول خصه للتاريخ القديم، والثاني تناول فيه دول المغرب الأقصى، والثالث تعرض فيه لدول المغرب الأوسط، والرابع لدول المغرب الأدنى. وفي كل هذه الأقسام أورد معلومات قيمة لا غنى للمؤرخ عنها، وهذا ما أقرَّهُ ابن سودة في قوله: «من أفيد ما

ألف في المدة الأخيرة حسبما بلغني ذلك».

2 ـ اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، وفي نسخة أخرى عن تهافت الإسبان وفرنسا عن المغرب، أشار في مستهله إلى الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ وذكر في قسمه الأول أخبار المغرب الأقصى والأندلس منذ الفتح الإسلامي وحتى الدولة العلوية، وفي قسمه الثاني استعرض أخبار المغرب الأوسط من مجيء الإسلام حتى الغزو الفرنسي ومقاومة الأمير عبد القادر، وفي القسم الثالث تناول أوضاع المغرب وتكالب الإسبان والفرنسيين عليه، وفي القسم الرابع تحدث عن الأمور الثقافية من ترتيب للمدارس ومناهج التدريس وكيفية نقل العلوم العصرية إلى اللغة العربية مع عرض عن الحرية المدنية والتوفيق بينها وبين العقيدة الصحيحة، ومما يلاحظ أن هذا المصنف وإن كان صغير الحجم (195) صفحة إلا أنه في الواقع تلخيص مركز لبعض جوانب المصنف السابق «زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ» وهذا ما أشار إليه بقوله: «فاستخرت الله في تقييد يشمل على تلخيص تاريخ المغرب وما لرجاله من عمل مسيء أو مطرب فضمنته تاريخ القطر المغربي وما وقع له بين دوله والأجنبي وأسباب الانقلابات العمرانية وسقوط العروش الملكية وأرشدت فيه حسب الإمكان لما يتعين تعاطيه في هذا الزمان رجاء أن تنهض هذه الناشئة المغربية وتنفض غبار الكسل عنها وتتحلى بما كان عليه سلفها الصالح وأخذ منها. . .».

3 ـ تسهيل المطالب لبغية الطالب، وهو تصنيف حول منظومة بغية الطالب في ذكر الكواكب للإمام أبي مهدي عيسى التجيني ضمنها تراجم الأعيان من أشراف غريس وعلمائها وأوليائها في القرن العاشر الهجري، انتهى من وضعها في سنة 1330 هـ ـ 1912 م.

4 ـ مجموعة كبيرة من القصائد الشعرية بعضها لا يزال محفوظاً وبعضها الآخر نشر في العديد من الكتب منها اليمن الوافر للشريف مولاي عبد الرحمن بن زيدان، والأدب المغربي الحديث لعبدالله جنون، ولأخذ فكرة عن شعر أبي عبدالله محمد الأعرج نذكر بعض الأبيات من قصيدة أعرب فيها عن مواقفه الوطنية كان قد

بعثها من وجدة إلى فاس أثناء الاضطرابات التي كانت سائدة بالمغرب جاء فيها:

أقيموا بني الأمجاد شأو بلادكم	فإن شعوب الغال منكم على قرب
وحتى (بنو الإسبان) تركض نحوكم	لما أنست من لين نبلكم الرطب
نوفق بني الإسلام للوحدة التي	دعاكم إليها سيد العجم والعرب

5 ـ توجيهات وإرشادات وبرامج في مختلف المواد الدراسية وهو عبارة عن دليل وضعه لمعلمي المدارس الحرة بحومة رأس الجنان بفاس سنة 1340 هـ ـ 1922 م. هذا بالإضافة إلى العديد من المحاضرات التي واظب على إلقائها بنادي طلبة فاس، ومقالات عديدة نشر بعضها بجريدة العادة.

بهذا الإنتاج المتنوع الذي جمع بين التاريخ والأدب والصحافة والتربية احتل أبو عبدالله محمد بن الأعرج مكانة متميزة بين مؤرخي وكتاب القرن التاسع عشر وقد جمع المؤلف بين سلاسة الأسلوب وصفاء اللغة وحسن العرض والنظرة الواسعة لقضايا التاريخ وأوضاع المجتمع، كل ذلك بروح وطنية والتزام خلقي ونزعة دينية حاول استخدامها وتسخيرها لتحريك النفوس وتربية النشء لمواجهة التحديات والوقوف في وجه التكالب الاستعماري، وهذا ما يؤكده دعاؤه الذي اختتم به اللسان المعرب: «اللهم اجمع كلمة أمتنا على الحق ووفقها سبيل الرفق، واسلك بها طريق صلاح الأعمال وصيانة ما تبقى من الاستقلال والاستماتة فيما يرضي الكبير المتعال».

أهم المصادر المعتمدة:

ـ أبو عبدالله محمد بن الأعرج السليماني، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، تحقيق ونشر عبدالله بن محمد السليماني، الرباط، 1977.

ـ دليل مؤرخ المغرب، ج 1.

ـ بن سودة (عبد السلام بن عبد القادر)، سَلُّ النِّصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، تنسيق وتحقيق محمد حجر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996، ص 40.

ـ معلومات من مصادر شفاهية عن حياة أبي عبدالله بن محمد السليماني وإنتاجه.

هجرة الأمير عبد القادر بضعفاء المسلمين لحدود المغرب وسقوطه في يد دولة فرنسا

ثم إن فرنسا وجهت المسؤولية على مولاي عبد الرحمٰن سلطان المغرب الأقصى واحتجت عليه بأن أعمال الأمير مضرة بها وبأن بقاءه بتخوم بلاده مما يوجب تكدير جو السلم بين الدولتين، ومما زاد الطين بلة أقوال المرجفين وأصاب الأغراض بأن الأمير له غرض ومقصد وللفقيه البوحميدي الولهاصي يد في تلك النزعات وقت إقامته بحاضرة فاس، فكان كالباحث على حتفه بنفسه بين مولاي عبد الرحمٰن والأمير، فوجه الأول خديمه القائد الأحمر من أعيان الدولة في جيش كثيف للنظر في أمر الأمير، وبوصول هذا القائد صمد لقتال الأمير ومن معه من الضعفاء وأيامى المجاهدين وأبنائهم، فاعتذر إليه الأمير وتبرأ من كل ما نسب إليه وقال إنما أنا مستظل بأمير المؤمنين، لكن هذا القائد لم يصغ لاعتذاره ولا لاستعاطفه وهجم بجيشه على الفئة الضئيلة بقية السيف، فدافعوا عن أنفسهم دفاع الأحرار حسبما يقتضيه الحال، فانكسر جيش الأحمر وخر هذا القائد قتيلاً، لكن الأمير كف عن القتال ولم يتبع مدبراً، ووجه من طرفه جماعة من الأشراف والعلماء وفداً لأمير المؤمنين مولاي عبد الرحمٰن يعتذر عن قتال الأحمر ويبرهن على أنه دافع عن الضعفاء بقية المجاهدين وأولادهم فقط وأنه مستظل تحت لوائه، فأكرم نزل ذلك الوفد وأحسن إليهم وقبل عذرهم ظاهراً، لكن دولة فرنسا ألزمته طرد الأمير عن حدود بلاده حسبما اقتضاء شرط معاهدة إيسلي فلم يسعه إلا تنفيذ الشرط وارتكاب أخف الضررين، وكل منهما مجتهد في أمره، ويرى مخلصاً ينجو به عند ربه.

وفي سنة 1254 خرج من فاس جيش كثيف تحت رئاسة ولي العهد سيدي

محمد وأخيه مولاي أحمد قاصداً وجهة الأمير، وعند الوصول ناوشوه القتال وضيقوا عليه الحصار وسدوا دونه الطريق، وبعد مقابلات تركت الأمير بلا حول ولا قوة، فاضطر إلى التسليم للجنرال لاموريسيير لقربه منه على شروط منها حمله لبلاد الشام وأن يجعلوا له جراية كافية وأن يحترموا عوائد الدين الإسلامي في مسلمي الجزائر وأن لا يؤاخذوا أحداً منهم بذنب أيام الحروب السابقة، فأمضى له الجنرال على ذلك ودخل الأمير مرسأ الغزوات في ثمانين نفساً من أقاربه وذويه وخدامه. فركبوا أول وابور بخاري ظهر في البحر المتوسط إلى بلاد فرنسا، غير أنه دخلها بصفته أسيراً وظل معتقلاً تحت المحافظة في قصر أمبواز خارج باريز أربع سنين وستة أشهر إلى أن انقلبت هيئة الحكومة الفرنسية وقتذاك من الجمهورية إلى الملكية، فحينئذ طلب الأمير النظر في قضيته فحكم له بما عوهد عليه، وأخذ عليه العهد والميثاق أن لا ترى منه دولة فرنسا ما يسوؤها في مستقبل أيامه. ورتبوا له جراية سنوية سبعة آلاف وخمسمائة ليرة كان يخصّص جزءاً منها لنفقته ويصرف جلها على قرابته وأهل مودته.

وحمل إلى القسطنطينية العظمى وحظي بمواجهة السلطان عبد المجيد العثماني وأنفذ له قصراً هائلاً بمدينة بروسة من بر الأناضول، ولكثرة الزلازل بها أقام بها سنتين ثم طلب السكنى بدمشق الشام، فأنعمت عليه الدولة العثمانية بأرض خصبة ذات أنهار وبساتين ومزارع وقصور أقام بها مدة حياته عاكفاً على العبادة مع بث العلوم الظاهرة والباطنة إلى أن حبب إليه الانفراد ولحق بالرجال الأفداد وسبح في بحر المعارف والعوارف، فشرح الفتوحات الملكية شرحاً أماط أسرار الحجاب سماه (المواقف)، وفي السابع عشر من رجب الفرد الحرام سنة 1300 انتقل إلى رحمة الله تعالى في قصره وحمل إلى قبة الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي الحاتمي قدس سره، وكان ما قدمناه من الألماح بسيرته منتهى أيامه وهذه خاتمة أعماله.

أبو عبدالله محمد بن الأعوج السليماني
اللسان المعرب عن تهامت الأجنبي حول المغرب
تحقيق ونشر عبد الله بن محمد السليماني، الرباط 1977
ص ص 130 ـ 132

الإحالات

ملاحظة: تجنباً لإعادة كتابة المراجع التي يتكرر ورودها في التراجم، سوف نقتصر على إثبات الجزء والصفحة في الإحالات التالية:

الإحاطة: أبو عبد الله محمد السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب (توفي 776 هـ/1374 م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، 4 ج، مكتبة الخانجي، القاهرة، 73 ـ 1977.

إرشاد الأريب: ياقوت الحموي الرومي (ت 627 هـ/1230 م) معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى حومة الأديب، تحقيق إحسان عباس 7 مجلدات دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

أزهار الرياض: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (1041 هـ/1632 م) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، لجنة التأليف والترجمة والنشر. 3 ج، القاهرة، 1939 ـ 1943.

الاستقصا: أبو العباس أحمد الناصري السلاوي، (1315 هـ/ 1897 م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 9 ج الدار البيضاء، 1954 ـ 1956.

الاعلام: خير الدين الزركلي الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين: ط 10/ دار العلم للملايين، بيروت، 1992.

الأعلام بمن حل مراكش: عباس ابن إبراهيم المراكشي (ت 1378 هـ 1959 م) الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، 8 ج، المطبعة الملكية، الرباط، 1975 ـ 1977.

أعلام المغرب: عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، 5 ج، المطبعة الملكية، الرباط، 1978 ـ 1990.

ألف سنة من الوفيات: محمد حجي، ألف سنة من الوفيات، جمع وتحقيق نصوص وفيات، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

التقاط الدرر: محمد بن الطيب القادري (ت1187 هـ/ 1773 م) كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.

أنباء الغمر: الحافظ أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني، (ت 852 هـ/ 1448 م) أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق محمد أحمد دهمان، مكتبة الدراسات الإسلامية بدمشق، 1979.

البرنامج: محمد بن جابر الوادي آشي (749 هـ/1348) برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1982.

البستان: محمد بن مريم المديوني (1020 هـ/1605 م) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ط 2، الجزائر 1966.

بغية الرواد: أبو زكريا يحيى بن خلدون (786 هـ/1385 م) بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد تقديم وتحقيق عبد الحميدحاجيات، الجزء الأول، منشورات المكتبة الوطنية بالجزائر، الجزائر، 1980.

بغية الملتمس: أبو جعفر أحمد بن يحيىٰ بن أحمد الضبي (ت 599 هـ/ 1202م) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (المكتبة الأندلسية)، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967.

بغية الوعاة: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر الشافعي السيوطي (ت 911هـ/ 1505م) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة 1326هـ. دار المعرفة، بيروت د ـ ت.

تاريخ الأدب الجغرافي: أغناطيوس يوليانوفتس كرتشكوفسكي (1371 هـ/

1951 م) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 2 ج، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.

تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمٰن الجيلالي، تارخ الجزائر العام، 4 ج، دار الثقافة، بيروت 1980.

تاريخ الجغرافية والجغرافيين: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط 2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1988.

تاريخ افريقية: روبير برانشفيك، تاريخ افريقيا في العهد الحفصي (القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر) ترجمة حمادي الساحلي، 2 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.

تاريخ العبر: أبو زيد عبد الرحمٰن بن خلدون (ت 808 هـ/ 1406 م) كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7 ج، بيروت، (959 ـ 1969).

تاريخ الفكر الأندلسي: آنخل جنثالث بلنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، صدر بالإسبانية في 1928 وحور في 1945. ترجم النسخة الأصلية حسين مؤنس، القاهرة، 1955.

تبصير المنتبه: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني المعروف بابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ/1448 م) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد علي النجار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1980.

تذكرة الحفاظ: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي (ت 748هـ/ 1347 م) تذكرة الحفاظ، حيدر آباد، 1955.

تراجم المؤلفين التونسيين: محمد محفوظ (ت 1409 هـ/1988 م) تراجم

المؤلفين التونسيين، 5 ج. دار الغرب الإسلامي بيروت الجزء الأول (1982) والثاني (1982) والثالث (1984) والرابع (1985) والخامس (1986).

ترتيب المدارك: أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، (ت 544 هـ/1149 م) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق أحمد بكير محمود 3 ج دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980.

التعريف بابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمٰن بن خلدون (808 هـ/1406 م) التعريف بابن خلدون غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1951.

تعريف الخلف: أبو القاسم محمد الحفناوي (1361 هـ/1942 م) تعريف الخلف برجال السلف، 2 ج، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.

التكملة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، المعروف بابن الأبار، (ت 658 هـ/1259 م) التكلمة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار الحسيني، 2 ج، القاهرة 1956.

جذوة المقتبس: أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي (ت 542 هـ/ 1147 م) جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989.

جذوة الاقتباس: أحمد بن القاضي (1025 هـ/ 1616 م) جذوة الاقتباس فمين حل من الأعلام مدينة فاس، 1309.

خلاصة الأثر: فضل الله محمد المحبي (ت 1082 هـ/1671 م) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، 4 ج دار صادر، بيروت، 1990.

حسن المحاضرة: جلال الدين بن أحمد السيوطي (911 هـ/ 1505م) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، 2 ج، القاهرة، 1949.

الحلل السندسية: محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج (1149 هـ/ 1735 م) الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب

الهيلة 3 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

دائرة المعارف: دائرة المعارف الإسلامية، النسخة العربية ترجمة أحمد الشنتاوي. إبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، ومراجعة محمد مهدي علام، دار المعرفة بيروت د. ت.

درة الحجال: أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي (1025 هـ/1616 م) درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، 3 ج القاهرة 1970 ـ 1974.

الدرر الكامنة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ/1448 م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق، 5ج، دار الكتب الحديثة القاهرة 1966 «ط. حيدر آباد، 4ج، 1348 ـ 1350».

دوحة الناشر: أبو عبد الله محمد بن عسكر الشفشاوني (ت 986هـ/1578م) دوحة الناشر لمحاسن من كان بالقرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، لجنة التأليف والنشر، الرباط، 1976.

دليل مؤرخ المغرب: عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المري (1400 هـ/1979 م) دليل مؤرخ المغرب الاقصى، 2 ج، ط 3، دار الكتاب الدار البيضاء، 1965.

الديباج المذهب: برهان الدين اليعمري المالكي المعروف بابن فرحون (ت 799 هـ/1397 م) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة 1966.

الذخيرة: أبو الحسن علي الشنتريني ابن بسام (542 هـ/ 1147 م) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الثالث في مجلدين، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1974.

روضة الآس: أبوالعباس أحمد المقري (1041 هـ/632 م)، روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقيق

عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1964.

رياض النفوس: أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (ت 453 هـ/ 1060 م) كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية تحقيق بشير بكوش، مراجعة محمد العروسي المطوي 2 ج، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994.

سلوة الانفاس: أبو عبد الله محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني (1345 هـ/ 1927 م) الفهرس أو سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس 3 ج، ط حجرية، فاس 1900.

شجرة النور الزكية: محمد حسنين مخلوف (1355 هـ/ 1936) شجرة النور الزكية، المطبعه السلفية القاهرة 1930و1949.

صفوة من انتشر: محمد الصغير بن الحاج الوفراني (1152 هـ/ 1740 م) صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، فاس. د. ت.

الصلة: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت 578 هـ/ 1083 م) الصلة، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة 966.

صلة الصلة: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت 708 هـ/ 1308 م) صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، سعيد أعراب الحياط، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط 1995.

الضوء اللامع: محمد بن عبد الرحمن السخاوي (1902 هـ/ 1496 م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 2 ج، القاهرة 1353.

طبقات الحفاظ: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911 هـ/ 1505 م) طبقات الحفاظ، تحقيق على محمد عمر مكتبة وهبة، القاهرة 994.

علماء الأندلس: أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت 403 هـ/ 1012 م) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، نشر عزت العطار الحسيني، ط 2 مكتبة الخانجي القاهرة 1988.

عنوان الأريب: محمد بن الطيب النيفر (ت 1331 م/1912 م) عنوان الأريب عما نشأ بتونس من عالم وأديب، ط موسعة، دار الغرب الإسلامي بيروت 1995.

عنوان الدارية: أبو العباس أحمد الغبريني (ت 704 هـ/1304 م) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1969.

عيون الأنباء:

فتح الشكور: أبو عبد الله البرتلّي الولاتي (ت 1219 هـ/1805 م) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق ونشر محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981.

الفكر السامي: محمد بن الحسن الحجري، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، 2 ج، المكتبة العلمية، مطبعة المدينة المنورة، 1396.

فهرس: أحمد المنجور، فهرس، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

فهرست: أبو بكر محمد بن خير بن خليفة الأموي الإشبيلي (ت 575 هـ/1179 م) فهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني 1989.

فهرس الفهارس: عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني (1382 هـ/1962 م) فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتنى بنشرة إحسان عباس 3 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت 764هـ/1362 م) فوات الوفيات تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951.

قضاة قرطبة: أبو عبد الله بن حارث الخشني القروي (ت 361 هـ/ 942 م)

قضاة قرطبة تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 19 .

كشف الظنون: مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة والملقب بكاتب جلبي (ت 1067 هـ/1665 م) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون. ج. منشورات مكتبة المثنى بغداد 1986 .

مؤرخو الشرفاء: ليفي بروفانسال، مؤرخو الشرفاء، النسخة الفرنسية
Lévi - Provençal, Les historiens des chorfas, E, Larose, Paris, 1922.

المؤرخون التونسيون: أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، رسالة في تاريخ الثقافة، ترجمة أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، منشورات بيت الحكمة (سلسلة التاريخ)، قرطاج، تونس، 1993.

مستودع العلامة: إسماعيل بن فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر (725 هـ/1325 م) مستودع العلامة ومستودع العلامة، تحقيق محمد الطاهر التونسي ومحمد بن تاويت، تطوان 1964 .

مشاهير التونسيين: محمد بوذينة، مشاهير التونسيين، ط 2 منقحة، تونس 1992.

معجم الأدباء: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت 626 هـ/1228 م) معجم الأدباء (إرشاد الأريب في معرفة الأديب)، 20 ج، القاهرة، 1936 ـ 1938.

معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط 2، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1983.

معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين(تراجم مصنفي الكتب العربية) 15 ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1957(ط 1. دمشق 57 ـ 1961).

معجم مشاهير المغاربة: جماعة من الأساتذة، معجم مشاهير المغاربة، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر 1995.

معجم المطبوعات: يوسف إليان سركيس معجم المطبوعات العربية والمعربة، إلى نهاية سنة 1339 هـ/ 1919م، (جمع وترتيب) 2 ج، ط. 1 مطبعة سركيس، القاهرة 1928. ط. 2 مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1980.

المعيار المعرب: أحمد بن يحيىٰ الونشريسي (ت 914 هـ/ 1507 م) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق جماعة من العلماء بإشراف محمد حجي، 13 ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.

النبوغ المغربي: عبد الله كنون. النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961.

نزهة الحادي: محمد الصغير بن الحاج الوفراني (1152 هـ/ 1739 م) نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، نشر هولاس، انجي (فرنسا)، 1888، ط 2 الرباط 1977.

نشر المثاني: محمد الطيب القادري (1187 هـ/ 1773 م) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر، تحقيق محمد حجي وأحمد توفيق، الرباط، 1977 (ط. الحجرية، فاس 1310 هـ).

نظم الجمان: أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن القطان، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي ط جديدة مصححة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.

نفح الطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (1041 هـ/ 1632 م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، 8 ج، دار صادر، بيروت 1988.

نيل الابتهاج: أبو العباس أحمد بن أحمد المعروف ببابا أحمد التنبكتي

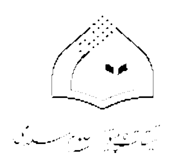
(ت 1036 هـ/ 1627 م) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، نشر عبد الحميد عبد الله الهراسة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989.

هدية العارفين: إسماعيل باشا بن محمد أمين البابائي البغدادي (ت 1339 هـ/ 1920 م) هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين (ط/ استانبول 1951) بيروت، 1982.

الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (764 هـ/ 1362م) الوافي بالوفيات، 7 ج، دار صادر، بيروت، 1989.

وفيات الأعيان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (ت 681 هـ/ 1282 م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، 8ج، دار صادر، بيروت، 1968.

وفيات ابن قنفذ: أبو العباس أحمد بن الخطيب القسنطيني، المعروف بابن قنفذ (ت 809 هـ/ 1406 م) الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت، 1971.



الفهـارس العامة

أ - فهرس الأشخاص .

ب - فهرس الجماعات .

جـ - فهرس الأماكن والبلدان .

د - فهرس الكتب والمصنفات .

هـ - فهرس الموضوعات



أ ـ فهرس الأشخاص

ـ أ ـ

- ب -

- خ -

- د -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

ب ـ فهرس الجماعات

ـ أ ـ

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

جـ- فهرس الأماكن والبلدان

- ت -

ـ حـ ـ

- ع -

- غ -

- ف -

ـ ق ـ

- ك -

- ل -

- ي -

جـ ـ فهرس الكتب والمصنفات

- ب -

- ت -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

هـ ـ فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

51 - Abou El-Abbas Ahmed **Ibn Hattal** (1219 h./1804 A.C.).
52 - Mohamed Ibn Abdessalam **«Ed-Dhoaîf»** (1233 h./1818 A.C.).
53 - Mohamed **Abou Ras En-Naceri** (1238 h./1823 A.C.).
54 - **Mousslem Ibn Abdelkader** El-Wahrani (1248 h./1832 A.C.).
55 - **Abou El-Kassem** Ibn Ahmed **Ez-Ziani** (1249 h./1833 A.C.).
56 - **Hamdan** Ben Othman **Khodja** (environs 1261 h./1845 A.C.).
57 - Hassen **El-Faquih Hassen** (environs 1284 h./1867 A.C.).
58 - El-Hadj Ahmed **Ibn El-Attar** (1287 h./1870 A.C.).
59 - El-Hadj Ahmed **Ech-Charif Ez-Zahar** (1289 h./1872 A.C.).
60 - Abou El-Abbas Ahmed **Ibn Abi Ed-Dhiaf** (1291 h./1874 A.C.).
61 - Salah Ibn Mohamed **El-Antari** (après 1293 h./1876 A.C.).
62 - Ahmed Ibn Abderrahmane **Ech-Chagrani** (après 1301 h./1883 A.C.).
63 - **Kheïr Ed-Din Pacha** Et-Tounoussi (1308 h./1890 A.C.).
64 - Abou El-Abbas Ahmed **En-Naceri** Es-Salaoui (1315 h./1897 A.C.).
65 - Abou Ismaïl **Ibn Aouda El-Mazari** (après 1315 h./1897 A.C.).
66 - Mohamed **Ibn Othman Es-Senoussi** (1318 h./1900 A.C.).
67 - Mohamed **Ibn Youssef Ez-Ziani** (après 1320 h./1902 A.C.).
68 - Mohamed Ibn Othman **El-Hachaïchi** (1330 h./1912 A.C.).
69 - Abou Abdallah **Mohamed Pacha El-Djazaïri** (1331 h./1913 A.C.).
70 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn El-Aaradj Es-Suleïmani** (1344 h./1925 A.C.).

N.B. L'ordre de présentation est l'ordre chronologique des dates de décès. Une erreur s'est produite dans la classification d'El-Fachtali qui devait prendre le numéro 35 au lieu du 39.

21 - Abou Abdallah Mohamed Et-Tandji **«Ibn Battouta»** (779 h./1377 A.C.).
22 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn Marzouk El-Khatib** (781 h./1379 A.C.).
23 - Abou Zakaria **Yahia Ibn Khaldoun** (786 h./1385 A.C.).
24 - Abou Zaïd **Abderrahmane Ibn Khaldoun** (808 h./1406 A.C.).
25 - Abou El-Abbas Ahmed Ibn El-Khatib «Ibn Kounfoudh» (809 h./1406 A.C.).
26 - Ahmed El-Bidjaï **«Abou Assida»** (environs 865 h./1460 A.C.).
27 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn Ech-Chama'** (environs 873 h./1459 A.C.).
28 - Abou Abdallah Mohamed **Ez-Zarkechi** (après 894 h./1488 A.C.).
29 - Abou Abdallah Mohamed **Et-Tenessi** (899 h./1494 A.C.).
30 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn Abdelkarim El-Maghili** (909 h./1505 A.C.).
31 - Abou El-Abbas Ahmed Ibn Yahia **El-Wancharissi** (914 h./1508 A.C.).
32 - El-Hassan Ibn Mohamed **El-Wazzan** «Lion l'Africani» (944 h./1537 A.C.).
33 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn Meriem** (environs 1020 h./1611 A.C.).
34 - Abou El-Abbas Ahmed **Ibn El-Kadi** (1025 h./1616 A.C.).
35 - **Ahmed Baba** Et-Tounboukti (1036 h./1627 A.C.).
36 - Abou El-Abbas Ahmed **El-Maqqari** (1041 h./1632 A.C.).
37 - Ahmed Ibn El-Kassem **El-Hadjari** «Afouqqaï» (après 1051 h./1641 A.C.).
38 - Abdelkarim **Ibn El-Fakoun** (1073 h./1662 A.C.).
39 - Abou Farès Abdelaziz **El-Fachtali** (1031 h./1621 A.C.).
40 - Abou Othman Saïd **El-Mandassi** (environs 1088 h./1677 A.C.).
41 - Abou Salem Abdallah **El-Ayachi** (environs 1090 h./1681 A.C.).
42 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn Abi Dinar** (après 1110 h./1698 A.C.).
43 - Abou Abdallah Mohamed Ibn El-Hadj **El-Wafrani** (environs 1152 h./1639 A.C.).
44 - Abou Abdallah Mohamed **Ibn Mimoun** (après 1159 h./1746 A.C.).
45 - Abou Abdallah Mohamed **Ben Messaïb** (1190 h./1776 A.C.).
46 - Abou El-Makarem Abdelkader **El-Machrafi** (environs 1192 h./1778 A.C.).
47 - El-Husseïn Ibn Mohamed Es-Saïd **El-Warthilani** (1193 h./1779 A.C.).
48 - Mohamed Ibn Rokia **El-Ghadiri** (après 1194 h./1780 A.C.).
49 - Abderrazak **Ibn Hamadouche** (environs 1200 h./1783 A.C.).
50 - Ahmed Ibn Sahnoun **Er-Rachedi** (après 1211 h./1796 A.C.).

Sommaire

partie d'un grand projet réclamant de longues années et que nous espérons conduire à sa fin.

Pour faciliter l'accès du lecteur arabe à ce type de connaissance, j'ai évité, à la fois, l'approfondissement excessif et la présentation sommaire. J'ai commencé par un inventaire génénral des grands noms de l'histoire et de la géographie de l'Occident musulman, j'ai présenté ensuite, respectivement, une histoire des moments importants de leurs vies, leur production intellectuelle et leur apport, en me basant sur les sources et références qui permettent au lecteur de diversifier ses lectures et d'approfondir ses connaissances. Enfin, pour éviter le récit théorique pur, chaque biographie est suivie d'un ou deux textes représentatifs du style d'écriture de l'auteur et de son approche des événements historiques et des questions géographiques.

J'espère que cet ouvrage sera un outil de travail pour le lecteur intéressé et particulièrement l'étudiant en sciences sociales et humaines confronté aux textes littéraires, historiques, géographiques et archéologiques.

Cet ouvrage n'est pas une étude académique spécialisée, tel n'était pas l'objectif; il s'inscrit plutôt dans le registre des biographiques et dictionnaires classiques du patrimoine,ni trop généraux, ni trop spécialisés, qui en quelques lignes aident l'étudiant à traiter une question et à s'en faire une idée claire et cohérente.

Prof. Nacereddine SAIDOUNI

Une des réponses est la multiplication des ouvrages encyclopédiques (dictionnaires, encyclopédies, nomenclatures, biographies). En évitant la médiocrité et le superficiel. ils présentent le patrimoine dans son contenu, sa diversité et les figures illustres qui l'ont façonné; ils dotent le lecteur d'une culture profonde, globale et rationnelle.

La scène culturelle arabe, notamment au Maghreb, accuse un déficit de publications traitant du patrimoine avec simplicité, exhaustivité et diversité. Les initiatives pionnières de Abdelhay El Kettani, de El Hafnaoui et plus récemment de Abdelouahab Ben Mansour, Mohamed Mahfoudh et Adel Nouaïhadh appellent des efforts encore plus soutenus.

Depuis des années, j'ai senti la nécessité de contribuer à l'œuvre. J'ai ainsi participé au «dictionnaire des Maghrébins illustres» publié dernièrement par l'Université d'Alger et qui demande correction, révision et augmentation.

Le travail encyclopédique réclamant un effort collectif et institutionnel et non pas seulement individuel et personnel, je me suis limité ici au patrimoine historique et géographique arabe et musulman. L'étendue et la diversité de ce patrimoine limitent mon investigation à l'Occident musulman qui forme une aire culturelle fort homogène comparée aux autres parties du monde musulman. Dans sa juste définition, l'Occident musulman s'étendait au Maghreb, au Sahel africain, à l'Andalousie et à la Sicile.

Les biographies présentées couvrent une période s'étendant du IIè siècle de l'hégire (Xè siècle) à nos jours. L'ouvrage est une présentation exhaustive de tous ceux qui ont contribué à la connaissance historique et géographique générale ou ayant spécifiquement, pour objet, des provinces, des cités, des biographies, des voyages, des pérégrinations à travers les routes et les contrées, des récits géographiques descriptifs, des encyclopédies, des indexes, des notes, des mémoires et des réflexions personnelles.

La classification adoptée des historiens et des géographes de l'Occident musulman ne repose pas sur l'appartenance à une région ou sur une spécialisation; ceux-ci ne connaissaient pas les frontières de la spécialisation et leurs contributions étaient diverses.

Dans cette première partie de l'ouvrage, la classification est chronologique et se base sur la date de décés, ce qui correspond à la tradition et facilite la lecture de l'évolution du patrimoine.

Les biographies réalisées - environ soixante-dix - forment la première

Du patrimoine historique et géographique de l'Occident musulman

Biographies d'historiens, voyageurs et géographes

L'héritage culturel d'une nation est le lien entre les valeurs du passé et les réalités présentes. Il lui évite l'assimilation par l'autre, la dote d'immunité et lui permet de se développer et d'innover en associant authenticité et modernité.

La culture arabe et musulmane fait face, aujourd'hui à cette question à cause d'une crise de l'esprit et d'une pesante angoisse culturelle. La question dont la réponse permettrait de comprendre le passé, d'évaluer le présent et d'envisager l'avenir s'adresse à chacun de nous comme suit: connaissons-nous suffisamment notre patrimoine? Le comprenons-nous? Avons-nous essayé de le rénover et de l'enrichir conformément à l'évolution actuelle des connaissances de l'humanité? Les réponses et les opinions sont diverses, mais nous devons tous reconnaître nos défaillances. les approches inconstantes, les mentalités perturbées et le manque de rigueur scientifique marquent l'approche arabe et musulmane du patrimoine en vue de l'intégration des avancées scientifiques contemporaines.

Pour corriger cette situation, il faut réviser les modes d'évaluation des valeurs spirituelles et heuristiques, les fondements et les perspectives du patrimoine, en recourant à un nouveau style de présentation au public intéressé à la culture, à la mémoire historique et à la connaissance géographique. Dans ces domaines, les écrits sont tantôt académiques, approfondis, spécialisés, éloignés du large public; tantôt superficiels, généraux, sans grand bénéfice pour le lecteur. C'est là une des causes de la rupture entre le patrimoine et la mémoire d'une part, et les larges couches de la société d'autre part.





دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون : Tel: 009611-350331 / خليوي : Cellulaire: 009613-638535
فاكس : Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الرقم : 1999 / 2 / 2000 / 341

التنضيد : كومبيوتايب - بيروت

الطباعة : دار صادر ، ص.ب. 10 - بيروت

Prof. Nacereddine Saidouni

DU PATRIMOINE HISTORIQUE ET GÉOGRAPHIQUE DE L'OCCIDENT MUSULMAN

Biographies d'historiens, voyageurs et géographes



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI